مكتبة
t.me/soramnqraa

رفيق شامي

صوفيا

أو بداية كلّ الحكايات

منشورات الجمل

رواية

ترجمة: خالد الجبيلي

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

telegram @soramnqraa

ولد **رفيق شامي** (اسمه الحقيقي سهيل فاضل) في دمشق عام ١٩٤٦. درس الرياضيات والفيزياء والكيمياء كي يعمل معلماً في المدارس، غير أنه ترك البلاد عام ١٩٧١ إلى ألمانيا حيث أكمل دراسته في الكيمياء وحاز على الدكتوراه عام ١٩٧٩ وعمل لعدّة سنوات في اختصاصه. صدر كتابه الأول بالألمانية عام ١٩٧٨ وتفرّغ للعمل الأدبي منذ ١٩٨٢. مُنح عشرات الجوائز تقديراً لأعماله في ألمانيا وفي خارجها، ويعتبر اليوم واحداً من أنجح الكتّاب في ألمانيا، وهو عضو في أكاديمية بافاريا للفنون الجميلة منذ عام ٢٠٠٢. تُرجمت أعماله إلى ٣٣ لغة. صدر له باللغة العربية: **التقرير السري عن الشاعر غوته** (٢٠٠٥)؛ **يدٌ ملأى بالنجوم** (٢٠٠٨)؛ **حكواتي الليل** (٢٠١٠)؛ **قرعة جرس لكائن جميل** (٢٠١٢)؛ **الجانب المظلم للحب** (٢٠١٥).

رفيق شامي: **صوفيا أو بداية كلّ الحكايات**، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: خالد الجبيلي
صورة الغلاف: روت ليب ٢٠٢١
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ٢٠٢١

Rafik Schami: *Sophia oder Der Anfang aller Geschichten*, Roman
© Carl Hanser Verlag München 2015

© *Al-Kamel Verlag* 2021
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

رفيق شامي

مكتبة
t.me/soramnqraa

صوفيا

أو بداية كلّ الحكايات

رواية

ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

إلى

روت وإميل،

أول متذوقي قصصي،

وإلى

كل الذين يجذبهم سراب العودة

إلى جنتهم المفقودة.

معمودية النار

الصبر والمرح جملان تعبر بهما كل صحراء

مثل عربي

مكتبة
t.me/soramnqraa

دمشق، صيف عام ٢٠٠٦

متعة حفظ التوازن

كانت عايدة لا تزال تتأرجح وهي تقود الدراجة الهوائية في ذلك اليوم. ومع أنها استطاعت المحافظة على توازنها، ظلّت عيناها مثبتتين على المقود بينما بدأت العجلة الأمامية في رسم خط متموج على الأرض. ومع أن كريم لم يتوقف عن تحذيرها، «انظري إلى الأمام وانسي المقود»، لم ترفع عينيها - كما لو كانت منوّمة مغنطيسياً - عن المقود الذي يلمع بين يديها.

أطلقت عايدة على قيادتها الدرّاجة الهوائية في زقاق الياسمين في ذلك اليوم اسم «معمودية النار». في عصر ذلك اليوم انتعلت عايدة صندلاً أبيض، وارتدت بنطالاً أزرق وقميصاً موشى بخطوط حمر وبيض، وعقصت شعرها الطويل الأشيب إلى الوراء في شكل ذيل حصان. وكانت كلما تأرجحت وتمايلت فوق الدراجة، أطلقت ضحكة عالية كأنها تريد أن تغطي بقهقهتها ضربات قلبها، بينما كان كريم يمسك بسرج الدرّاجة بقوة.

كانت الدراجة هولندية متينة اشتراها كريم مستعملة منذ ثلاثين سنة. وقد أحبّ هذه الدراجة إلى درجة أنه لم يسمح لأحد أن يقودها طوال تلك السنوات. ولم يتصوّر أن يقودها أحد غيره، إلى أن سألته عايدة، منذ حوالي شهر، إن كان هناك شيء لم يفعله، ويتمنّى دائماً أن يفعله. في ذلك الوقت، كان قد مضى على عيشهما معاً أكثر من ستة أشهر.

فأجابها على الفور، «أن أعزف على آلة موسيقية»، ثم تردّد قليلاً وأضاف بهدوء، «في الواقع، أن أعزف اللحن الذي أحبّه على العود»، وكاد يبتلع كلماته، «مثلك»، لأنه كان متيقناً بأنه لم يعد يستطيع أن يفعل ذلك لأن أصابعه لم تعد رشيقة وطيّعة، بعد أن تجاوز الخامسة والسبعين من العمر. وعايدة أتقنت العزف على العود وكأنها محترفة.

حلم كريم منذ طفولته بأن يعزف على آلة موسيقية تعرّف على عدد منها في حفلات أفراح وأعراس الأقارب، لكن ذلك كان شيئاً مستهجناً في بيت أسرته. فعلى الرغم من وجود مذياع في بيت عائلته الغنية، ومع أن والده كان يستمتع بالاستماع إلى الأغاني والمعزوفات الموسيقية بين حين وآخر، بالإضافة إلى نشرات الأخبار، فقد حرّم على أي فرد في عائلته أن يغني أو يعزف على أي آلة موسيقية. كان لأمّ كريم صوت جميل، لكنها كانت تغني دائماً في السرّ عندما يكون أبوه خارج البيت. وعندما تجرّأ شقيقه إسماعيل وعزف بصوت منخفض على الناي الذي اشتراه، ضربه والده ووبّخه وحطم الناي صارخاً: «الغجر فقط هم الذين يفعلون ذلك».

ابتسمت عايدة لكريم، وقالت: «يمكنني أن أعلّمك العزف على العود خلال ثلاثة أشهر، وإذا تدرّبت جيداً يومياً، فإن الألحان ستجد طريقها إلى يديك. وكلّ ما يلزمك هو قليل من الصبر»، وأضافت

وهي تداعب وجهه بأصابعها، «وروح مرحة». فضحك محاولاً إخفاء خجله.

«وأنت؟ ما الذي تمنيت دوماً أن تقومي به ولم تجرأي على ذلك؟» سألها ليخفي شيئاً من ارتباكه.

«عندما كنت صغيرة، كنت أحلم دائماً بأن أقود درّاجة»، قالت عايدة، «وكنت أحسد أخي وأصدقاءه وجميع الصبية في الحيّ الذين كانوا يستطيعون أن يطيروا بدراجاتهم بخفة الريشة. لكن عندما قلت لأمي إنني أريد أن أتعلّم ركوب الدراجة، كادت تفقد صوابها، كما تفعل عادة عندما يمتلّكها الرعب من شيء ما، وقالت إنه عليَّ أن أتخلّى عن هذه الفكرة لأن النسوة يمكثن في البيت، وهناك لا يحتجن ولا يركبن دراجات. وقالت إن ركوب الدراجة قد يؤدي إلى عواقب لا تُحمد عقباها، وعندما سألتها عن تلك العواقب، قالت محذّرة إن فتيات صغيرات كثيرات فقدن غشاء بكارتهن عندما ركبن الدراجة، وأضافت، 'وحاولي إقناع الرجال الأغبياء أنك لم تعاشري رجلاً قبلهم'.

لم أصدّق ما قالته، لأنها كانت تبالغ دائماً عندما تفقد السيطرة على أعصابها خوفاً من شيء ما، تهوّل الأمور حتى تجد نفسك تائهاً في دوامة من الخرافات والمخاوف، مثل أنه ينبت للفتاة الصغيرة شارب ولحية إذا شربت قهوة، وأن المرايا المكسورة تجلب حظاً عاثراً لمدة سبع سنوات، وإذا حاولت أن تحول عينيك مازحا، فإنك ستبقى أحول طوال عمرك، وأن المرأة الحامل يجب أن تتناول الفاكهة التي تشتهيها حتى لا يولد الطفل وعلى جسمه وحمة في شكل الفاكهة التي اشتهتها - وكانت تحكي قصّة العمّ بركات الذي تجشّم عناء السفر إلى يافا لأربعة أيام ذهاباً وإياباً، ليجلب سلة من البرتقال اليافاوي المشهور لزوجته ماري التي أنجبت بعد ذلك طفلاً سليماً.

كان ركوب الدرّاجة بالنسبة لي متعة لا تضاهيها متعة - أن أتوازن مثل لاعب سيرك يمشي على حبل مشدود، ولذلك كنت أضحك في سرّي على كل تحذير تقوله أمي لكي لا أركب دراجة».

«ستتقنين ركوب الدرّاجة في أسبوعين أو ثلاثة»، وعدها كريم، لكنه سرعان ما أدرك أنّه تسرّع في وعده هذا. فلن تُكسر ذراعه أو ساقه عندما يعزف على العود، لكن ذراع عايدة أو ساقها قد تُكسر عندما تقود الدرّاجة. لمعت عيناها السوداوان، وقفزت إليه، وقبّلته على شفتيه، مبدّدة بذلك شعوره بالندم كما ينقشع الضباب في أشعة الشمس.

«علّمني»، قالت متوسلة، ورأى كريم دموع الفرح في عينيها.

يُعجب المرء كم سنة عاشا مع تمنياتهما ورغباتهما الدفينة تلك. ومع أن أحدهما حكى للآخر عن ماضيه حتى عن أكثر الأمور حميمية بصراحة خلال الأشهر الستّة من حياتهما في بيت واحد، فقد اكتشفا فجأة أنه لا تزال هناك أشياء كثيرة يجب أن يعرفاها عن بعضهما.

«ربما خفت أن تضحك عليّ»، قالت عايدة، لتبرر تردّدها. فهزّ كريم رأسه موافقاً، وقال: «لم أتحدّث أنا أيضاً عن أحلامي منذ أن بلغت العشرين. ولو سألني أحد، لقلت له إنني أحبّ تعلّم الرقص لأشعر وكأنني أطير مثل طائر السنونو، لكنّي بقيت أؤجل ذلك. وعندما ماتت زوجتي أميرة، لم أعد أرغب في الرقص».

«عندما كنت أرقص لم أشعر يوماً بانشراح أو بخفة لذيذة»، اعترفت عايدة، «كنت أحسب دائماً الزمن وأراقب خطواتي. وعندما بلغت العاشرة أو الثانية عشرة، لم أعد أفعل ذلك. لكنّي لم أتوقف عن الحلم بقيادة درّاجة».

كانت عايدة امرأة قصيرة القامة بعض الشيء، لا يكاد جبينها يصل إلى كتف كريم عندما تكون حافية القدمين، لكنها تتمتع برشاقة ولها جسد رياضي. وإذا لم يكن شخص غريب يعرف أنّها في منتصف الخمسينات من عمرها، فقد يظنّ أنها لا تتجاوز الأربعين. وعندما كان الناس يمتدحونها على ذلك، تجيب ضاحكة دوماً: «إن الحبّ يبقيكم شباباً. اعشقوا وسترون ذلك بأنفسكم».

وسرعان ما اكتشف كريم أن عايدة امرأة جريئة، فبدأ يخشى عليها بسبب جرأتها واندفاعها.

في مكان غير بعيد عن الحيّ الذي يقيمان فيه، توجد ساحة كبيرة لوقوف سيارات لمصنع نسيج خارج الباب الشرقي، تكاد تكون خالية من السيارات في معظم الأوقات. مضى أسبوع كامل وهو يدرّبها في هذه الساحة. ثم قال كريم لنفسه لقد حان الوقت لتقود عايدة الدرّاجة في شارع مزدحم، فأخذها إلى الشارع الذي كانت تسكن فيه، الأعرض قليلاً، بموازاة زقاق الياسمين من الناحية الغربية. ركبت عايدة الدراجة بهدوء، وأمسكها كريم من السرج. كان الجيران يراقبونهما من نوافذ أو مداخل بيوتهم، يهزّون رؤوسهم مستنكرين ما تراه أعينهم، لكنّ عايدة لم تعبأ بهم وبنظراتهم. ومن دون أن تشعر أفلتها كريم وأخذ يجري بجانبها. عندما رأته، كاد يغشى عليها، فصاحت به، «أمسكني بقوة، هل جننت؟» وكادت ترتطم بالحائط، فأمسكها كريم وضغطت بقدميها على الفرامل بقوة، وتوقّفت، وتنفست الصعداء.

بعد خمسة أيام أخرى من التدريب، وافقت عايدة على أن يتركها كريم بعد بضعة أمتار. فانطلقت في الشارع، ولم تتوقف عن الرنين بالجرس، ثم انعطفت عند حارة اليهود وعادت إلى كريم وعلى وجهها ابتسامة عريضة. لكنّها لم تكن قد أتقنت الدوران بعد،

فسحجت ركبتها مرتين بالجدار عندما أخذت لفّة عريضة، وسال الدم من ركبتها، وتمزّق بنطالها البنّي، لكنها لم تقع عن الدرّاجة. وبعد أسبوع من التدريب المتواصل، اقترح عليها كريم أنّ تقود الدراجة في زقاق الزيتون العريض للغاية والمؤدي إلى مقرّ البطريرك الكاثوليكي والكنيسة الكاثوليكية الكبيرة والذي تمرّ فيه بعض السيارات، لكي تتغلب شيئاً فشيئاً على خوفها من السيارات.

لم ترق لها هذه الفكرة، وقالت: «إن الزقاق يعجّ بالقساوسة والمطارنة، ورؤيتهم تجعلني أشعر بالتوتر». لكنها ابتسمت عندما تصوّرت نفسها وهي جاثية أمام كرسي الاعتراف، شيء لم تفعله منذ خمسين سنة، وتقول: «أبانا، لقد أخطأت».

«ماذا فعلنا؟ كيف كانت الخطيئة - بالتفكير أم بالعمل؟»

فأجابت، «نعم، بالعمل، مع دراجة». فقد أخبرتها صديقتها سحر أن الرجال يحظرن على النساء ركوب الدراجة لأنه يجعل النسوة يبلغن النشوة. «أتعرفين أن السرج يقوم بعمل أفضل من معظم الرجال». ومع أن سحر لم تركب دراجة في حياتها، رددت تلك المقولة السخيفة كببغاء مقتنعة تماماً بصحتها.

«وماذا عن زقاق الياسمين؟» قال كريم ليعيدها إلى حديثهما.

فقالت: «موافقة»، لأنها كانت تريد أن تُري جاراتها أنها تجيد قيادة الدرّاجة، «وإن أفضل وقت حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر عندما تجلس النسوة يتسامرن أمام بيوتهن»، وضحكت وهي تتصوّر صفّين من النساء فاغرات أفواههن. نظر إليها كريم مندهشاً، فهو الزقاق الذي يعيش معها فيه. وأضافت عايدة، «إذا استطعت أن أفعل ذلك، فسيكون باستطاعتي أن أقود الدراجة في جهنم من دون أن أمسك المقود بيدي». كانت تعرف ذلك الزقاق منذ زمن، ومنذ أحبّت كريم، ازدادت معرفتها بتلك النسوة.

يقع زقاق الياسمين في الحيّ المسيحي قرب باب دمشق الشرقي، متفرعاً من الشارع المستقيم التاريخي، ويسير متوسطاً وبموازاة حارتَي العبارة والزيتون. تدخل إلى الزقاق من تحت قوس حجري على طول دهليز ضيّق معتم لا يزيد عرضه على متر واحد، ثم تخرج إلى الزقاق الذي يصل عرضه إلى أربعة أمتار. ولا يُسمح بدخول الدراجات النارية إلى هذا الزقاق الضيّق كما أنه لا يمكن لسيارة الدخول إليه. ولا ينتبه معظم السيّاح عادةً إلى المدخل المفضي إلى الزقاق الذي يشبه باب بيت. ويحجب الزقاق من الخارج قوس عليه شرفتان معلقتان تكاد إحداهما تلامس الأخرى، مما يكمل من إخفائه.

حتى خمسينات القرن العشرين، كانت للمدخل بوّابة مزدانة بزخارف من الحديد والبرونز، اختفت على نحو غامض بعد إقامة «معرض أبواب دمشق» عام ١٩٥٩. وحتى بعد مضي عقود على اختفائها، تتردد إشاعة بأن أحد شيوخ النفط قد دفع مبلغاً كبيراً لمدير المعرض ونقل هذه التحفة الرائعة إلى الكويت.

لكن حتى السيّاح الفضوليون يصابون بخيبة كبيرة عندما يمرّون تحت القوس - لأنهم لا يجدون أشياء مثيرة للانتباه يمكن رؤيتها في زقاق الياسمين، ما عدا أرضيته المكسوة ببلاط حجري روماني لا يزال في حالة جيدة، وبضعة مقاعد، وعرائش، وأصص أزهار، لا تمنح كلّها انطباعاً يفتش عنه السيّاح. فلا توجد مبان أنيقة في الزقاق، وإنما بيوت عادية ذات واجهات طينية تتألف من طابق واحد تصطف على جانبي الزقاق، متشابهة إلى درجة كبيرة. لكن هؤلاء الزوّار لا يعرفون أن هذه الواجهات المتواضعة تخفي وراءها دوراً جميلة ومتطوّرة وفّرت الحماية لساكنيها لقرون عديدة، فأبعدت عنهم أعين الحاسدين ومحصّلي الضرائب. وفي الداخل، وراء تلك

الأبواب، تعانق باحات داخلية السماء مزينة ببعض أصص الورود وعلى الأغلب ببحيرة صغيرة في وسطها، ويشهد كل ذلك على طريقة الحياة الحسّية التي كان يعيشها الدمشقيون.

بعد قرابة خمسمئة متر، ينتهي زقاق الياسمين عند ساحة الدير، المحاطة من عدة جوانب ببيوت ومحلين اثنين يبيعان مواد بقالية وأدوات منزلية. ويقع منزل كريم الواسع عند الناصية، وباب بيته آخر باب على يسار الزقاق. ويوجد للدار باب ثان في الجدار الحجري الطويل المرتفع المتاخم للساحة يفضي إلى حديقته، وبجانبه مقعد حجري كبير وقديم أبلته عوامل الطقس، حُفر من كتلة حجرية واحدة بيضاء. وكان كريم يستمتع بالجلوس على هذا المقعد ويشرب قهوته في أماسي الصيف، وعيناه تقعان دائماً على خرائب الدير الصغير الذي تنمو أعشاب من بين كتله الحجرية الكبيرة وبقايا جدرانه. وكان هذا الدير الذي بُني في القرن العاشر وكرّس للقدّيس يوحنا، قد دمّره زلزال عام ١١٥٧ بالكامل قُتِلَ فيه ثمانون ألف شخص من سكان دمشق والمنطقة المحيطة بها. ومع أن الزلازل أودى بحياة ثلثي سكان دمشق، فقد نهض الدمشقيون من بين الأنقاض، ونفضوا الغبار عنهم، كما فعل أسلافهم في أزمنة عديدة سابقة، وشيّدوا مدينتهم من جديد، لكنهم لم يعيدوا بناء الدير الذي نُقلت حجارته لبناء بيوت كثيرة في الحيّ المسيحي، كما لو قرر الدير وقديسه الشفيع أن يعيشا في جميع تلك البيوت.

من داخل المدينة يظهر هنا سور مدينة دمشق التاريخي الجميل الذي يحيط بالساحة وقد نُزعت منه كلّ مسحة جمالية بسبب الإصلاحات القبيحة والهزيلة التي أجريت من دون تروٍّ، والتي استخدمت أحجاراً صغيرة متنوعة تعود إلى قرون سابقة تحمل بوضوح آثار المآسي التي حدثت في الماضي. وإذا شاهد المرء

السور من الخارج باحجاره الضخمة المنسقة الذي يرتفع تسعة أمتار فوق شارع ابن عساكر المزدحم فسيتفاجأ أن ذلك السور نفسه لا يكاد يزيد ارتفاعه من الداخل على ثلاثة أمتار عند حافة ساحة الدير الشرقية، حيث تصل الأنقاض إلى ثلثي ارتفاع السور، ويعزى ذلك إلى منع الدمشقيين من نقل أحجار الأنقاض التي خلّفتها الزلازل والحرائق خلال التاريخ الطويل للمدينة إلى خارج السور، حتى لا يُخَرَّب سهل الغوطة الخصب المحيط بالمدينة الذي يزوّد سكان المدينة بالغذاء.

وفي وسط الركام أمام السور، تنتصب شجرتا حور ترتفعان بشموخ إلى السماء إزاء تلك الخلفية الواطئة. ونادراً ما يلاحظ الغرباء أن في الثالث والعشرين من شهر حزيران من كلّ عام، وفي تمام الساعة السابعة، تشرق الشمس تماماً بين جذعَي الشجرتين وتضيء الجزء العلوي من لوحة القبر البسيطة، عمود من الغرانيت لا يزيد طوله على مترين، مستدقّ الطرف في الأعلى. وفي معظم الأحيان، تغطي الأزهار هذا القبر البسيط الثاوي تحت الركام. ولا يعرف معظم الزوار أشياء كثيرة عن العاشقَين الراقدَين هنا، اللذين اتحدّا في الموت عندما منعتهما الحياة من المتعة بحبّهما. أما الذين يعيشون في الحيّ المسيحي، فإنهم يحكون قصّة فادي وفاطمة اللذين لم يسمح لهما اختلاف دينيهما أن يعيشا معاً. فدُفنا في المكان الذي استلقيا فيه يضم أحدهما الآخر في عناق أبدي. وقد حُكيت قصص عديدة عن حبّهما، وعن شجرتَي الحور اللتين استطالتا لتهمسا قصّتهما مع كلّ هبّة ريح. ومع أن شاهدة القبر الحجرية لا تحمل أي علامة، فإن أطفال الحيّ يعرفون اسميْ شهيدَي الحبّ هذين. وفي كلّ سنة، تتقاطر مئات النساء من الحيّ المسيحي في الفجر الباكر ويسرن في موكب حتى القبر وينتظرن حتى تشرق الشمس وتتسلل

أشعتها عبر شجرتَي الحور، ثم يجهشن في البكاء ويرثين الظلم الذي أحيق بهذين العاشقين. ويبقين واقفات هكذا لمدة ساعتين، ثم يعدن إلى بيوتهن وقد احمرّت أعينهن من البكاء.

وبما أن السيارات لم تخترق هذا الزقاق طوال تاريخه، فقد ظلّ في حالة جيدة، يشبه باحة منزل داخلية طويلة. وفيما عدا الأشهر الباردة والماطرة الثلاثة في السنة، تخرج النسوة والرجال المسنون عادة في حوالي الساعة الثالثة من بعد ظهر كلّ يوم، ويجلسون أمام مداخل بيوتهم، ويطلبون من الأطفال أن يذهبوا ويلعبوا بالكرة أو بالدحل أو لقيادة دراجاتهم في ساحة الدير أو عند الخرابة لمدة ساعتين. ويفعلون ذلك بعد أن يغسلوا الزقاق بالماء، لا لتنظيفه فقط، وإنما لتبريده أيضاً. ويحتسون القهوة والشاي، ويتجاذبون أطراف الحديث ويتبادلون الإشاعات، ويضحكون. وتنتهي هذه الجلسة عند الخامسة، فيعود بعدها الأطفال للعب في وسط الشارع بكل ضوضائهم وضحكاتهم.

ولا يجرؤ أي بائع متجوّل أو سائق دراجة غريب أن يعكّر صفو الهدوء والطمأنينة خلال هاتين الساعتين. ولا يخشى سكان الحيّ المسيحي وحدهم حدّة وسلاطة ألسنة النسوة فيه فحسب، وإنما يخشاها أيضاً أي بائع أو ساعي بريد أو شرطي أو متسول تسوّل له نفسه أن يعبر الزقاق في ذلك الوقت. ويقال إن لدى الدمشقيين سكاكينهم الفولاذية الحادة الأسطورية - أما زقاق الياسمين فلديه ألسنة نسائه. ومع أن كريم يعرف ذلك، فقد أصرّت عايدة على أن تقود دراجتها أمام تلك النسوة في تلك الساعة بالتحديد، مع أنها تعرف أنّ الكثير منهن يحسدنها على حبّها لكريم. فعندما عاشت كأرملة في حيّها القريب، كانت النسوة الأخريات يشفقن عليها. لكن أن تحبّ أرملة «ولم يجفّ التراب على قبر زوجها المرحوم بعد»،

كما ادعين فإن ذلك شيئاً غير أخلاقي. لكن ما العمل؟ الحبّ يدخل إلى القلب من دون استئذان، ولا يكترث للقبور. لكن الشيء الذي يدعو إلى السخرية هو أن تلك النسوة أنفسهن هنّ اللواتي يحزنّ على موت العشيقين في ٢٣ حزيران من كلّ سنة، مع أن الشاب كان مسلماً، والفتاة مسيحية. تماماً مثل كريم وعايدة.

لم تكن نساء الحيّ المسيحي وحدهن اللواتي يكرهن عايدة لأنها أحبّت كريم المسلم، وإنما الرجال أيضاً. «كأنْ ليس هناك رجال مسيحيون»، كانوا يدمدمون متذمرين كلما وقعت أعينهم عليها. ومع أنّهم يتفاخرون بأن أشخاصاً من ديانات أخرى يعيشون في حيّهم الهادئ، فقد كانوا يرون هذا الحبّ تجاوزاً للخط الأحمر الذي رسموه بأنفسهم، وكأن الحبّ يدقق في هويات البشر قبل أن يغزو قلوبهم.

لكن ماذا عن كريم؟ فقد كان جوابه جاهزاً، سواء عند البقال أم عند الحلاق: «أنا لست مسلماً، ولا مسيحياً، ولا درزياً، ولا يهودياً. الحبّ هو ديني، أتفهمون؟» لكن أحداً لم يفهم، سواء أومأوا، أم هزّوا رؤوسهم بتهذيب، أم ابتسموا محرجين.

ومنذ أن أحبّت عايدة كريم في خريف السنة الماضية، فقد أصبحت تبدو، مع مرور كلّ يوم، أصغر من سنّها الحقيقية. ولاحظت النسوة في الزقاق أن ثيابها بدأت تصبح زاهية، مشرقة الألوان. ولم يقتصر الأمر على ذلك، فقد جعلتها طريقتها في المشي، وأسلوبها في الضحك، تبدو مثل فتاة مراهقة طائشة تعيش حياتها بلا وجل، مفعمة بالفضول. لكن لو كانت تلك النسوة صادقات مع أنفسهن واعترفن بذلك، لكان ذلك إقراراً منهن بالهزيمة أمام الحياة حيث استسلمن لما يطلقن عليه «قدر ونصيب». لذلك، اعتبر أهالي الزقاقين، حيث يقع بيت عايدة وحيث تعيش مع كريم،

أن كراهيتهم لعايدة تعزى إلى انحلالها الأخلاقي، وإلى أنها ضربت أي اعتبار لدينها المسيحي عرض الحائط، مع أن معرفة معظم أهالي الحيّ بالدين المسيحي لا تزيد في الغالب من ترديد صلاة *السلام عليك يا مريم* و*أبانا الذي في السماوات*.

أما النسوة اللاتي كنّ يدعين أيّ امرأة تمرّ من أمام بيوتهن لتناول الشاي أو القهوة، فلم يعدن يبدين حفاوة لعايدة. ولم يعدن يحببن هذه الأرملة التي أوقعت هذا الرجل الأرمل الجذّاب، المرح، في حبائلها، قبل أن تتمكّن إحداهن من إيقاعه في شباكها. وبما أن عايدة عرفت ذلك، فقد أرادت هذه المعمودية بالنار، مهما كلّف الأمر.

«سأراقب لك الطريق»، قال لها كريم لأنه يعرف زقاقه جيداً، واعتراه شعور بأن عايدة فقدت شيئاً من الثقة بنفسها فجأة. في هذا اليوم الحاسم، وقف بجانبها وهي تمتطي دراجتها في الشارع المستقيم التاريخي أمام المدخل المفضي إلى زقاق الياسمين. ارتدى كريم في ذلك اليوم الصيفي، كعادته، قميصاً وبنطالاً قطنياً. تأملها طويلاً، وقال: «هل أنت متأكدة أنّك تريدين أن تفعلي هذا؟»

«نعم، متأكدة»، قالت بإصرار.

«إذاً لن يعود بإمكانك أن تنظري إلى الخلف. أتعرفين قصّة زوجة لوط؟»

«نعم، المرأة التي تحوّلت إلى عمود ملح لأنه لم يكن لها اسم، أما أنا فاسمي عايدة وسأصبح لوح شوكولاتة لتلعقني»، قالت له عايدة، وقبّلته على شفتيه.

فقال: «يا إلهي. يجب أن نسرع، فطعم شفتيك بدأ يشبه طعم الشوكولاتة». إن الرجال لا ينظرون إلى الوراء أبداً، قالت عايدة في نفسها، وإنما يتبعون من يستطيع إقناعهم، ويفقدون الصلة بالماضي

بسرعة. أما النساء فإنهن يلتفتن إلى الوراء دائماً، بدافع القلق أو الشوق أو الفضول أو الحنان. لذلك فإنهن أكثر تردداً من الرجال - هذه هي الحقيقة على الدوام.

«هيا، مدام شوكولاتة»، قال لها كريم، وانطلقت. في تلك اللحظة، كان الخيّاط بنيامين واقفاً أمام محله يحتسي قهوة. هزّ رأسه وارتسمت على وجهه ابتسامة ماكرة يطل الاحتقار من زواياها.

جرى كريم خلفها. فقد أحسّ بعدم شعورها بالأمان في ذلك الممرّ الضيّق الذي يطلق عليه سكان الزقاق اسم «الدهليز». وأمسكها من تحت السرج من دون أن تشعر. بدأت النسوة والرجال المسنون المصطفون على جانبَي الطريق يهزون رؤوسهم، ويتهامسون، وغطت نظراتهم المليئة بالغيظ كلّ بقعة في جسدها. عندما أحست عايدة بوخزات نظراتهم، تحاشت النظر إلى أعينهم، وركّزت على المقود أمامها وراحت تحرّك الدواستين بعنف.

عندما رأتها امرأة عجوز تجلس أمام نافذة بيتها تتناول شريحة تفاح، تسمّرت في مكانها، وهزّت رأسها وصاحت شيئاً إلى داخل البيت، فهرعت صبيّة بدينة ووقفت بجانبها، وضغطت يدها على فمها لتكبت صيحتها.

في وسط الشارع، بالقرب من بيت الإسكافي، قفزت ابنة الحلواني التي تبلغ العشرين من العمر، فجأة، واجتازت الزقاق بسرعة وجلست على كرسي فارغ بجانب بيت أبيها وراحت تضحك بتشنج. كان كريم يعرف هذه الأرملة الصبيّة التي يُحكى أن زوجها، ضابط البحرية، مات عقب حادث أثناء التدريب في البحر، ففقدت صوابها من شدّة حزنها. وفي كثير من الأحيان، كانت تأتي في الليل وتقف عند قبر زوجها في المقبرة الكاثوليكية، وتجلب معها أحياناً أصناف الطعام الذي كان يحبّه.

حبست عايدة أنفاسها، تمايلت، ودفعت المقود بقوة كبيرة في الاتجاه الآخر. فلامست العجلة الأمامية ركبة عفيفة، الجارة، وزوجة توما الإسكافي، فصاحتا معاً وانسكبت قهوتهما على الأرض. فعادت عايدة بسرعة إلى منتصف الزقاق، ونجت في آخر لحظة، مبللة بالعرق.

«انظري إلى أين تسيرين»، صاحت عفيفة بسخط.

«إنها بحاجة إلى نظّارات»، قالت امرأة وهي تضحك.

«سأشتري لها نظّارات من دكان البقال»، ردّت إحدى جاراتها.

«لقد جنّت»، صاحت امرأة بدينة لا تعرفها عايدة.

«إنها تعاني من اضطراب في هرموناتها».

«في المرة القادمة، سترينها ترتدي شورتاً أحمر».

«وكريم تغيّر أيضاً - لكن ليس إلى الأفضل».

«بدأ يفقد ما تبقى من عقله».

«عندما يفقد المسنون عقولهم قبل نهاية حياتهم، فإن ذلك يشبه الضرطة التي يطلقها شخص وهو على فراش الموت»، صاحت امرأة أخرى، «فهي تزعج المعزّين وتطرد الملائكة التي جاءت لتقبض روحه، فيبقى الشيطان وحده، وهذا...» لكن أصوات الضحكات غطت على كلمات المرأة الأخرى.

لم تعرف عايدة من هي المرأة التي قالت ذلك، لكنها أحسّت بعقدة تتشكل في بطنها. هل يمكن أن يثير ركوب دراجة كلّ هذه الكراهية؟ كان الناس يضحكون عليها في الأزقة الأخرى، لكن هذه أول مرة تسمع فيها تعليقات مقززة كهذه. إنها كراهية مقيتة. من أين جاءت؟ ما الذي أخذته منهن عندما أحبّت كريم أو عندما ركبت الدرّاجة؟ ألم يعش كريم وحيداً بينهن لعشرات السنين؟ لو أراد إحداهن لقال لها ذلك. هل الحسد هو الذي أثار هذه الكراهية أم أن

الكراهية تقبع في أرواحهن منذ زمن حتى وجدت لها فيها متنفّساً، أخيراً؟

أحسّ كريم بقشعريرة تسري أسفل ظهره. أراد أن يقف ويوبّخ أولئك النسوة، لكن الكلمات النابية علقت في حنجرته. أرادت الانطلاق كرعد غاضب، لكنه لم يسمح لها بذلك. شعر بألم في حنجرته لأنه بذل جهداً لمنعها من الخروج. تابع سيره صامتاً ممسكاً بالسرج بشدة. عندما تلاشت الضحكات، أرخى قبضته عن السرج وركض بجانب عايدة حتى نهاية الزقاق. وقف هناك بينما أخذت عايدة تدور حول ساحة الدير. عندما عادت إليه، صاحت، «ابق مكانك. سأقوم بدورة أخرى وحدي ثم أعود». رنّت جرس الدراجة، وعادت تقود بثقة أكبر. انطلقت على طول الزقاق ثم انعطفت عندما بدأ الزقاق يضيق. رآها كريم بوضوح الآن عندما لوّحت له بيدها، ولم تتوقف عن رنّ الجرس مبتهجة وحركت الدواستين بشجاعة، وقد حافظت على توازنها فوق السرج، تكاد تلمس المقود بأطراف أصابعها وتنظر إلى الأمام بكل ثقة. وعندما قفزت الأرملة المخبولة مرة أخرى أمامها فجأة، رنّت الجرس بقوة وسارت بخط مستقيم غير مبالية بمحيطها. مدّت لسانها لعفيفة، ومضت مبتعدة.

«هذه المرأة المجنونة لا تعرف الخجل... ولو عرفته لخنقها»، سمعت عفيفة تصيح. وأخيراً، رأت كريم باسطاً ذراعيه مثل يسوع على صليبه، فهمست، «أحبّك مع كلّ نبضة في قلبي».

عندما وصلت إليه، ضغطت على الفرامل ببطء وترجّلت عن الدراجة بأناقة ملكية. أسندت الدراجة إلى حائط بيت كريم بجانب المقعد الحجري في ساحة الدير، وضمت كريم إليها بقوة، وهمست على صدره، «شكراً». عندما رفعت عينيها إليه، رأت كم كان مبللاً بالعرق. كان جبينه يلمع وقد علقت لآلئ العرق بين ثنايا تجاعيده

كأنها نوتات موسيقية فضّية. مسدّ رأسها، وقال: «كنتِ رائعة. . . وشجاعة»، وترك الدرّاجة في المكان الذي وضعته فيه عايدة وسار معها ببطء إلى الساحة لينعما بالنسمات العليلة في الظلّ. كان المقعد الحجري ملتهباً من حرارة الشمس.

جلسا على مقعد حجري في الظلّ، وبدأ يصفّر لحناً تحبّه عايدة، لكنه توقّف فجأة وضحك عندما تذكّر التعابير المرتسمة على وجه عفيفة. تجاهلت عايدة ضحكته وراحت تصفّر اللحن الذي كان يصفّره والذي بدا الآن مثل تغريدة كناري. عندما كان كريم يصفّر، كان صوته يشبه صوتِ منفاخ دراجة قديم يبعث صريراً، أو كالهواء المنبعث من منطاد مثقوب. توقف الصبية الذين كانوا يلعبون الدحل بالقرب منهما، فجأة، ونظروا إلى العجوزين، وضحكوا لأنه لم يستطيعوا أن يصفّروا ويضحكوا في وقت واحد، فضحكوا أكثر.

فقالت عايدة لهم ضاحكة، «هذا غير ممكن، فالضحك والتصفير عدوان لدودان. يجب أن تختاروا إما هذا وإما ذاك».

جلس كريم وعايدة على المقعد الحجري فترة طويلة. وعندما بدأت الظلال تستطيل، انتقلا إلى المقعد المريح أكثر خارج جدار حديقة كريم. كانا يتحدّثان، يضحكان، يصفّران، يقبّل أحدهما الآخر. لكز صبي له شعر أحمر ووجه مشرق، يكسوه النمش، رفيقه الذي كان يسدّد دحله إلى هدفه، وقال: «انظر، انظر إلى هذين المجنونين»، لكن الصبي الآخر لم يوله أي انتباه، لأنه سمع قبل فترة من أمّه أن كريم وعايدة فقدا عقليهما، وفضّل أن يركّز على هدفه على مسافة ثلاثة أمتار. «إنهما عجوزان بعمر جدّينا ويقبّلان بعضهما كما يفعلون في الأفلام». لكن الطفل الآخر أصاب هدفه وقفز يصيح فرحاً، مفاجئاً رفيقه.

فاجأت الصيحة كريم أيضاً فتوقف عن قبلته. «لا تتحركي من هنا، سأعود في الحال»، قال هامساً لعايدة ودخل إلى البيت من باب الحديقة الخشبي. وعاد بعد قليل يحمل صينية عليها كأسان وقنينة عرق ودورق زجاجي مليء بالماء وقطع ثلج وصحن فستق مملّح.

كان الدورق مغبّشاً، وكانت قطع الثلج تصدر رنيناً مثل صوت أجراس منبعثة من بعيد مع كلّ خطوة يخطوها. نظرت إليه عايدة وأُغرمت مرة أخرى بهذا العشيق الكريم، المقبل على الحياة.

تبادلا نخب معمودية النار، ووضعا كأسيهما في الصينية.

«وها هما يسكران الآن»، قال الصبي ذو الشعر الأحمر. لم يوله رفيقه أدنى اهتمام وراح يسدّد على هدفه - فلم يشأ أن يقطع سلسلة حظّه الجيد.

عندما غابت الشمس وراء البيوت، بدأ الأطفال يركضون عائدين إلى بيوتهم، يقفز بعضهم كمهر لعوب. راقبت عايدة وكريم بصمت الظلام الذي بدأ يخيّم فوق البيوت والأعشاب عند أطلال الدير وتخفت ألوانها. وسحب الشفق عباءته السوداء فوق العالم، دون أن يواجه أي مقاومة إلّا من أضواء صغيرة منعزلة تتناثر فوق جسد المدينة المظلم. «إني جائعة»، قالت عايدة، ونظرت إلى حبيبها، ثم أضافت، «وبعد أن نأكل دعنا نعزف قليلاً على العود».

سبقها كريم إلى البيت. فقد أراد اليوم أن يدلّل عايدة بشكل خاص ويعدّ لها طبق الكبة الذي تحبه: كبّة مشوية بالصينية. حمل الصينية التي توجد عليها قنينة العرق، والدورق الفارغ، والكأسين. ثم أدخلت عايدة الدرّاجة من الباب ووضعتها في الفناء، في المكان المخصص لها.

بدأ كريم يصفّر مرة أخرى، هذه المرة أغنية «هو صحيح الهوى غلاب» القديمة. كان يأمل دائماً أن يعزفها على العود بمساعدة

عايدة. في المطبخ تذكّر كيف أنه كان يجد صعوبة في تمييز الأوتار بالريشة، مع أنه كان يضع أصابع يده اليسرى على الأوتار في مكانها الصحيح.

كانت عايدة قد أهدت إليه عوداً. حاول أن يعزف على عدة آلات قبل أن يجد الآلة التي تناسبه. أرته كيف يجلس بشكل صحيح ويحمل العود كي لا يقع منه. ودرّب أصابعه كلّ يوم وتعلّم كيف يميّز الأوتار لكي يعزف ألحاناً بشكل جيد.

أُعجب كريم بمعرفة عايدة الواسعة عن العود. فلم تقتصر معرفتها على كيفية صناعة العود فقط، وإنما كانت تعرف أيضاً الكثير عن تاريخه.

«قبل مجيء الإسلام، كان للعود ثلاثة أزواج من الأوتار»، قالت له في اليوم الأول، «ثم، في القرن السابع أو الثامن، أضيف زوج رابع. في ذلك الوقت، كان كلّ زوج يرتبط بمزاج وعنصر، لذلك كانت الأوتار ملوّنة وفقاً لذلك. فكان الوتر الأعلى أصفر، دلالة على المرارة والنار، والوتر الثاني أحمر للدلالة على الدم والهواء، ثم أبيض للدلالة على البلغم والماء، أما الوتر الأخير فهو أسود دلالة على الأرض. وفي القرن التاسع، أضيف زوج خامس من الأوتار للدلالة على الروح، لأن الروح وحدها هي التي تستطيع توحيد الأمزجة الأربعة في الموسيقى».

فسألها كريم، «وما لون الروح؟»

فأجابت عايدة، «تُرك هذان الوتران شفّافين لأن الروح متقلّبة ولا يمكننا أن نفهمها».

«لكنني أستطيع أن أفهم روحي»، قال كريم، وشدّ عايدة إليه وقبّلها، ثم أضاف ضاحكاً، «حتى إنني أستطيع أن أقبّلها».

«كيف يُفترض بي أن أعلّم مثل هذا الطالب الولهان؟ هيا لنعد

إلى درسنا». حاولت عايدة بصعوبة أن تشحن شيئاً من الحزم في صوتها، لكن ضحكتها خانتها مرة أخرى.

كان كريم يتدرب كلّ يوم بصبر، لكن بالمقارنة مع عزف عايدة، ظل تقدمه البسيط يبدو متواضعاً إلى حدود الشفقة. فقرّر أن يأخذ الأمر بروح مرحة، خصوصاً أن عايدة معلّمة صبورة، حنونة ومتواضعة. وكان لا يزال يأمل في أن يجيد العزف على العود ذات يوم. ابتسم عندما رفع شيطان داخلي صغير فجأة لافتة أمام عينيه تقول، الوهم غذاء اليائسين.

لكن حتى الشياطين يمكن أن ترتكب أخطاء.

الهروب
أو الانتصار المؤقت ضد الموت

دمشق - بيروت - هايدلبرغ - روما،
ربيع ١٩٧٠ - صيف ٢٠١٠

الخوف المبرر من الفخ

في أحد أيام صيف عام ٢٠١٠، قرّر سلمان بلدي أن يعود إلى دمشق، بعد مضي أربعين سنة وشهرين وسبعة عشر يوماً على مغادرته سوريا سنة ١٩٧٠ بجواز سفر مزوّر. واستغرق ستة شهور أخرى ليتأكّد أنه لا توجد بحقه مذكّرة اعتقال عندما يعود. فقد قرأ قصصاً عن مغتربين أدّى حنينهم ورغبتهم في العودة إلى وطنهم، أو أحابيل وخدع أجهزة المخابرات، إلى اعتقالهم ما إن وضعوا أقدامهم خارج باب الطائرة، وسجنهم وتعرضهم لجحيم التعذيب والذل، فلقي بعضهم حتفه، ودفع بعضهم الآخر ملايين الدولارات ليهربوا وينجوا بأنفسهم. فتريّث سلمان حتى يتأكد تماماً من أن كلّ شيء على ما يرام، مع أن القيام بذلك من روما كان في غاية الصعوبة.

لم يصعد سلمان إلى الطائرة ليغادر روما، وطنه الثاني، إلّا في شهر كانون الأول عندما تأكد تماماً أن أجهزة المخابرات لم تعد تلاحقه. ولم تشأ زوجته ستيلا وابنهما باولو الذي بلغ الخامسة عشرة

الذهاب معه، فلم يعترض سلمان على رغبتهما لأنه أراد أن يعود إلى مدينته الحبيبة دمشق كما غادرها، وحده، ويكون بإمكانه التنقل في أرجاء المدينة بحرّية من دون أن يضطر إلى الاهتمام بهما ويفسّر ويترجم لهما كلّ ما يرانه.

لاحظت ستيلا أن السفر إلى دمشق بدأ يأخذ حيزاً كبيراً من تفكير سلمان. ففي كانون الثاني ٢٠١٠، صدر عفو عام عن جميع الملاحقين سياسياً، لأن الحكومة أرادت أن تظهر الأوضاع الاجتماعية والسياسية في أجمل صورة لتشجيع الشركات العالمية بالقيام باستثمارات جديدة وأن يعود المغتربون الأغنياء إلى وطنهم بعد هذا العفو. وفي تموز، أكّد رئيس الوزراء صدور مرسوم العفو، ونفى كلّ الشائعات المُغرِضة التي تدّعي غير ذلك لكي لا يعود السوريون الذين حققوا نجاحاً في الخارج إلى وطنهم، وقال بحزم، «إن أيّ موظف يُلقي القبض على أحد إخوتنا في المطار، أو يضايقه سواء في المطار أم في أي مكان آخر، سيُطرد من الخدمة على الفور. فالإخوة العائدون ضيوف عند سيادته». كان رئيس الوزراء الماكر يعرف أبناء بلده جيداً - لأن النكت ستنطلق على كلّ لسان لو حدّد اعتقال الأشخاص خارج المطار فقط كي لا تثار موجة من الفضائح والكراهية. استمع سلمان إلى كلمات رئيس الوزراء التي بثتها مباشرة القناة الفضائية السورية، مما خفّف - إلى حدّ ما - من شكوكه حول مزاعم الحكومة السورية.

خلال تلك الفترة، واصل سلمان عمله كالمعتاد. فظلّ يذهب إلى شركته في شارع برينسيبي أميديو كلّ يوم. لكن بدءاً من شهر حزيران، صار ينزوي عند عودته للبيت في غرفة مكتبه طوال المساء، ويستمع إلى موسيقى عربية، ويمضي ساعات طويلة على الهاتف. ولبهجة ستيلا وباولو، بدأ يطبخ لهما مأكولات دمشقية أكثر من ذي

قبل، لكنه لم يعد يمضي معهما وقتاً طويلاً. ولم يرغب كما في الماضي في مرافقة ستيلا لزيارة والديها في تريست، ولم يعد يرافقها لحضور حفلات أعياد الميلاد، أو يلتقي بأصدقائه في الحانات أو في المطاعم. وبدأ أصدقاؤهما المشتركون في روما يسألون عن سبب غيابه. وفي آخر لقاء معهم في تشرين الأول، صاح كارلو، صائغ الذهب، لستيلا عند الوداع، «قولي لصاحب السعادة إننا اشتقنا له. ومع احترامنا الشديد لدمشق، فهو يعيش في روما، ولدينا نحن، أهل روما، الحقّ في رؤيته أيضاً». كان كارلو صادقاً في ذلك، لأن شخصية سلمان الجذابة وذكاءه، كانا حياة وروح تلك اللقاءات التي كانت تعقد ما لا يقلّ عن مرّة في الأسبوع.

لم يعد سلمان يذهب إلى المطاعم التي كان يرتادها عادة. وفي إحدى المرات، سأل صاحب مطعم «*المحطة الجديدة*» الذي يقع في شارع جوسيبي باريني، ستيلا إن كان قد أزعج سلمان عن غير قصد فقاطع مطعمه، لكن ستيلا طمأنته وأكدّت له أن سلمان مشتاق إليه وإلى مطعمه أيضاً، لكن سلمان لم ير سوريا منذ أربعين سنة، ويريد أن يزور بلده مرة أخرى، وأخبرته أن التحضير لهذه الزيارة ليس بالأمر السهل. وشعرت ستيلا بالفخر لأن عدداً كبيراً من أصدقاء سلمان أعربوا بصدق عن اشتياقهم له. وشعرت أيضاً بالتفاتة إلى الماضي بفخرها بهذا الرجل الذكي والعنيد والذي بدأ من الصفر وصار الآن يمتلك شركة ضخمة، *الواحة*، مقرها الرئيسي في روما، ولها فروع في ميلانو وأنكونا. وأصبحت أكبر شركة في إيطاليا لاستيراد المواد الغذائية من البلدان العربية، وتصدير منتجات إيطالية إلى الدول الخليجية الغنية. وأصبح للشركة فرعان كبيران في كلّ من الكويت ودبي.

في تلك الفترة، بدأ الإيطاليون يظهرون اهتماماً متزايداً في

المأكولات المعروفة في بلدان الشرق الأوسط المجاورة، وفي الوقت نفسه، بدأت أعداد متزايدة من الأثرياء العرب يحبّون المأكولات الإيطالية الشهيرة.

ومع أن الأزمة الاقتصادية في إيطاليا أدت إلى إضعاف الحركة التجارية بصورة عامة، فقد ظلّ سلمان راضياً عن مستوى المبيعات التي تحققها شركته. ومنذ عام ٢٠٠١، استأجر كشكين صغيرين في نووفو ميركاتو إسكويلنو عندما افتُتح هذا السوق الداخلي الكبير. وكان هذان الكشكان اللذان يديرهما أربعة أشخاص يدرّان أرباحاً أكثر من قبل. وطمح سلمان إلى إنشاء فروع أخرى في فلورنسا وبولونيا ونابولي وتورين وباليرمو وتريست، وفي عواصم عربية أخرى أيضاً. وكان قد كلّف شركة استشارية في الاستثمارات لوضع الخطط اللازمة، لكنه أوقفها في ربيع تلك السنة، لأن زيارته إلى دمشق تأتي في المرتبة الأول بالنسبة له.

الحنين والذاكرة

منذ شهر حزيران ذاك وحتى كانون الأول عندما غادر روما إلى دمشق، بدأ سلمان يمضي وقتاً أطول في استعادة شريط ذكرياته أيام طفولته وشبابه في سوريا. وبدأ يصغي إلى موسيقى وأغان على أقراص مدمجة أو على اليوتيوب، تعود إلى أكثر من أربعين سنة. ووجد أنه لم يعد يحتمل الاستماع إلى الأغاني والموسيقى العربية الحالية.

أحضر دفتراً كبيراً ودوّن فيه جميع المناسبات وأسماء الأشخاص الذين شكلّوا جزءاً من حياته الماضية - أصدقاء، أقرباء، منافسون، فقد الصلة بهم، والأماكن التي يريد زيارتها، والأشخاص الذين يتوق لرؤيتهم - وهكذا بدأت ذاكرته تعمل بكامل طاقتها.

ما هي الذاكرة، حقاً؟ عندما بدأ يكتب، شطب أشياء كثيرة، لكنه سرعان ما أدرك أن اختزال ذاكرته إلى أشياء محددة لم يكن سوى تبسيط مخلّ للأمور. وبعد عدّة أيام من الكتابة، بدأ يفهم أن الذاكرة مدينة غير مرئية، فيها أماكن تسلية، وأوكار سرّية، ومحلات تصليح من جميع الأنواع. وللذاكرة أيضاً مقبرة، ومشرحة، ومحرقة جثث، ومعابد للقديسين، ومتحف، وزنازين وأقبية للمكروهين، مرجل يعيد انبعاث الحرارة والحياة إلى تجارب قديمة، حدائق تُسقى ويتم رعايتها أو تلقى الإهمال، وغرف مظلمة تثير الخشية ويُفضّل تفاديها. وفيها أيضاً محلات كبيرة فيها كلّ أنوع القمامة البراقة، والأكاذيب، والأساطير التي كان يظن أنها صحيحة والتي تعلّمها في البيت والمدرسة والكنيسة. فقد خزّنها كلّها في مخزن الذاكرة، وأثّرت على أسلوب تفكيره وسلوكه من دون وعي منه. وقد ذكّره ذلك بمثل ألماني يقول: *للأكاذيب سيقان قصيرة*. وعندما سمع باولو وهو يشاهد مباراة في كرة القدم على التلفزيون في غرفته، كتب في دفتره: *للأكاذيب سيقان قصيرة مثل دييغو مارادونا، لكنّها تُحرز مثله أهدافاً*.

على الرغم من كلّ التقدّم العلمي الذي حدث أثناء حياة سلمان، فقد ظلّت أعمال مدينة الذاكرة الغريبة هذه عصية على الفهم، عميقة لا يمكن سبر أغوارها مثل أعماق المحيطات. فقد ينسى المرء مناسبة معيّنة مضى عليها سنة أو أربعون سنة - *فالزمن يمحو كلّ الآثار*. لكن وفاة شخص عزيز، أو لقاء غير متوقّع مع أحد أو في مكان ما، أو حتى مجرد رائحة عطر أو توابل، تجعل هذه الذكريات تتدفق. ويعتبر سلمان أنفه مفتاح بوّابة ذكريات لأشياء لا حصر لها. فقد كانت رائحة شارع ما في روما تكفي لأنّ يستعيد شريطاً سينمائياً لشيء حدث منذ عشرات السنين في حيه الدمشقي.

كان سلمان قد نسي معظم ماضيه الحافل في سوريا، ويعيش الآن في روما سعيداً مع أسرته، لكنه لم ينس قط السبب الذي جعله يهرب من بلده: إطلاق النار، الشرطي الذي أصيب إصابة بالغة... تذكّره وهو يستجديه الرحمة... ثم هزيمة مجموعته وهربه، والخوف من الاعتقال الذي نجا منه في آخر لحظة - كانت كلّ هذه الذكريات تراوده في كوابيسه، كلّ ليلة تقريباً خلال سنواته الأولى في المنفى، لكنها بدأت تتلاشى وتختفي مع الزمن.

في السنوات الأولى تلك خارج سوريا، كان والداه يزورانه بين الحين والآخر، في البداية، في هايدلبرغ، لكن والده لم يرتح في تلك المدينة الرومانسية القديمة الواقعة على ضفاف نهر نيكار، ولا في روما، بعد ذلك. أما أمّه صوفيا، فكانت تحبّ جيرانه الودودين في كلتا المدينتين، ورغبت بصدق التعرّف على عاداتهم وطعامهم. وعندما اقترح سلمان مرة الذهاب إلى مطعم عربي في هايدلبرغ، أجابت أمّه: «لم آتِ إلى هنا لأتناول طعاماً عربياً، فأنا أستطيع أن أتناول أفضل منه في دمشق».

كانت أمّه فضولية أكثر من أي متخصص في الأعراق والثقافات البشرية، فقد كانت تراقب أساليب حياة الألمان والإيطاليين بدقة وتستفسر من ابنها إن أصابت في تقدير ما، وأرادت أن تعرف بأدق التفاصيل كيف يأكلون ويضحكون ويمضون أوقاتاً ممتعة ويتزوجون ويطلّقون. وفي أحد الأيام، ذهبت إلى المقبرة لحضور مراسم دفن إحدى جاراته، واتشحت بالسواد، وبكت بحرقة مع أنّها لم ترها من قبل قط. وعندما سأل سلمان أمّه لماذا فعلت ذلك، قالت له، «إنني أبكي على أصدقائي الأموات، أبكي على نفسي منذ أن انفصلت عنك، وأبكي على هذه الإنسانية المعذبة التي لا تفهم معنى الموت».

أما أبوه، يوسف، فلم يكن يغادر شقّة سلمان طوال زياراته، يمكث فيها وقد لاحت على وجهه قسمات شخص تناول طعاماً كريهاً. وكان يخاف أن يخرج وحده ويذهب إلى أيّ مكان، كأن المافيا تتربص به عند ناصية الشارع. وعندما كانت ستيلا تدعوه للذهاب معهم، كان يرافقهم على مضض ويدمدم أنه وافق على الذهاب إكراماً لها. وكان يدمدم متذمّراً بالعربية لكي لا تسمعه ستيلا بأنه اشتاق إلى المقهى الذي يرتاده عادة، وإلى نرجيلته وإلى أصدقائه وصحيفته اليومية، وقال إنه لا يحبّ الطعام الألماني أو الإيطالي.

ثم أصيب والده بعد سنين بنوبة قلبية خفيفة، اتخذّها ذريعة بعد ذلك لكي لا يسافر إلى أيّ مكان. فقد كان يتمتع عادة بصحة جيدة. وعندما كانت زوجته تتحدّث عن ابنها وعن روما، كان يأوي إلى السرير ولا يبرحه لعدّة أيام. وذات مرة، قالت أمّ سلمان له على الهاتف وهي تضحك، إنها كلما أرادت ألّا يعترض على ذهابها لزيارة صديقاتها في دمشق، تقول له إنها تبحث عن رحلة رخيصة إلى روما، فترتفع درجة حرارته على الفور، ويتركها تذهب من دون أن يتذمر.

مع مرور الوقت، بدأ ارتباط سلمان بدمشق يزداد ضعفاً عندما أصيب أبوه بنوبة قلبية. واقتصرت علاقته بها على مكالمة هاتفية واحدة في الشهر يدور الحديث فيها دائماً عن ذات الموضوعات: ماذا طبخت أمّه، من ترى، من تورط في فضيحة، من تزوّج أو طلّق، أو من مات. وفي هذه المكالمات، كان سلمان يضحك غالباً حتى تدمع عيناه. لأن أمّه امرأة خفيفة الظل لديها معين لا ينضب من الإشاعات والحكايات. ومع ذلك، لم توقظ تلك المكالمات الهاتفية السنوات التي هجعت في ذاكرته.

في كانون الثاني ٢٠١٠، صدر عفو عام عن كل الملاحقين

سياسياً. وفي آذار، تحقق السفير السوري في روما - حسن قدور، وهو رجل مثقف ودمث - للمرة الثانية إن كان سلمان لا يزال ملاحقاً من قبل الجهات الرسمية في دمشق، فجاء الردّ سلباً. وبما أن السفير رجل ذكي ومحنك، فإنه لم يلتق مع سلمان في مبنى السفارة السورية في ميدان دا أراكولي، وإنما كانا يلتقيان في مقهى غراند كافيه روما الراقي، القريب من مبنى السفارة، الذي يقدّم أطباقاً لذيذة، ويتحدّثان بهدوء من دون الخشية من أن أحداً يتنصت عليهما.

لم يشأ سلمان أن يجازف. فما الفائدة من أنه يحمل جواز سفر ألمانياً مع نظام ديكتاتوري؟ فقد تذكّر قصّة الطالبة والباحثة الاجتماعية الألمانية إليزابيث كيزيمان التي ألقت أجهزة المخابرات الأرجنتينية القبض عليها أمام أعين العالم كلّه عام ١٩٧٧، وعُذِّبت في أقبية سجونها حتى لفظت أنفاسها الأخيرة. وعلى الرغم من غضب الشعب، لم يعمل السياسيون الألمان أي شيء لإنقاذها. وكان سلمان قد سمع عن حالات مشابهة حدثت في شيلي وكوبا والبرازيل والعراق والسعودية. فما إن يُلقى القبض على هؤلاء الأشخاص ويُعزلون عن العالم الخارجي، حتى يبدأ الشرق والغرب بالتودّد إلى تلك الأنظمة الديكتاتورية التي سجنتهم وعذّبتهم.

كان الخوف قد عشّش في عظام سلمان.

طلب من أمّه أن تتصل بابن عمه إلياس وتطلب منه أن يتحرّى عن وضعه الأمني في دمشق. وبعد أسبوع، أكّد لهم إلياس أنه لا توجد لدى أيّ جهاز من أجهزة المخابرات الخمسة عشر، أو في منافذ الحدود، أيّ شيء يدين سلمان. وبطبيعة الحال، فإن إلياس يعرف، لأنه ضابط برتبة عالية في أحد أجهزة المخابرات تلك.

عندما تلقّى سلمان هذا التطمين النهائي، بدأ يستعيد شريط

الذكريات عن سنواته في دمشق وهروبه من سوريا بوضوح شديد كما لو كان ذلك كلّه قد حدث منذ بضعة أيام فقط.

حياة مليئة بالهروب

لاحت صور الأحداث التي جرت منذ عقود في مخيلة سلمان مثل فيلم وثائقي في حالة جيدة. تذكّر لحظة هروبه الأولى من سوريا، وكيف أنه تنفّس الصعداء عندما اجتاز التاكسي العمومي نقطة التفتيش على الحدود السورية - اللبنانية. فقد طمأن سائق السيارة الشرطي الواقف عند الحدود السورية بأن كلّ شيء على ما يرام، وأعطاه جوازات سفر الركّاب الأربعة. في المقعد الأمامي، جلست سيدة بدينة يغلّفها الصمت ومزاج سيّئ، تغطّي عينيها بنظارة شمسيّة، ولم تتوقف طوال الرحلة التي دامت ساعتين عن التحدّيق عبر زجاج السيارة الأمامي، ولم تأتِ بأي حركة، كأنها تمثال من جبس، ولم تفه بكلمة واحدة، لا للسائق ولا للركاب الآخرين. وجلس سلَمان في المقعد الخلفي بجانب النافذة اليمنى، إلى جانبه رجل مسن يغطّ في النوم كلّما توقّف أحد الركاب عن التحدّث إليه. وعندما يفتح عينيه، يلعن سنواته الزاحفة وضعفه، ثم يعود ويغطّ في النوم على الفور. وكان يجلس وراء السائق مباشرة، شاب فلسطيني داكن البشرة، متجهّم الوجه.

كان سلمان يتنفّس بصعوبة، ضربات قلبه تخفق بسرعة. فمع أنّ جواز سفره مزوّر بإتقان، فقد تملّك الخوف كلّ حواسه لأنه يعرف أن لدى شرطة الحدود وسائلها الخاصّة للكشف عن جوازات السفر المزوّرة، على الرغم من عدم توفر أجهزة إلكترونية لتدقيق الجوازات في ذلك الحين. لكنه سرعان ما أدرك أن قلقه لم يكن في محله. فقد

كان الشرطي صديقاً للسائق وقام بجميع الإجراءات بنفسه، حتى أنه لم يسلّم الجوازات إلى قسم التفتيش داخل المبنى. في سوريا، يمكن أن تفتح الاعتباطية وضعف الإحساس بالمسؤولية - حتى لو لم يجتمعا معاً غالباً - نافذة أمل للمظلومين.

كان الشرطي مربوع القامة، أسود الشعر. عندما حدق به وقارن وجهه بصورة جواز السفر بدأ قلب سلمان يخفق بقوة. إنه بدوي، قال سلمان في نفسه عندما رأى النقاط الثلاث الزرق الموشومة على ذقنه وأنفه وخدّه، وشم بدائي يضعه معظم البدو. وبملل ملحوظ، أخذ الشرطي يقلّب صفحات جوازات السفر، وينظر إلى الركاب في السيارة، ويردد لنفسه الأسماء وهو يقرأها، ثم أعاد الجوازات إلى السائق وسأله، «ما نوع الحلوى التي ستحضرها لي عندما تعود؟»

فأجابه السائق بحذق، «مندور - أفضل أنواع الشوكولاتة».

قال له الشرطي، «حسناً، لكن اللّه يعينك على مصيبتك إذا نسيتها»، وأشار إلى السيارة التالية لأن تتقدّم نحوه، فانطلق السائق مبتعداً. وعندما أصبح على مسافة آمنة، قال، «منذ أن أقلع عن التدخين، أدمن على الشوكولاتة. كانت كرتونة السجائر الأمريكية تكلفني ثلاثة دولارات من ميناء بيروت، أما الآن فإن علبة شوكولاتة مندور تكلفني عشر ليرات لبنانية، وهي تعادل ثلاثة دولارات أيضاً. لم يعد هذا البدوي القبيح يحبّ إلّا تناول الشوكولاتة اللبنانية»، ثم أردف، «ألم أعدكم يا شباب بأن رحلتكم معي ستكون مريحة وسلسة؟ في بعض الأحيان يتذمّر بعض الركاب لأنني أطلب ليرتين زيادة على الأجرة، لكن أليس هذا أفضل من أن ننتظر ساعة ونحترق تحت الشمس ونتصبب عرقاً حتى ينتهي تدقيق الجوازات داخل المبنى؟ وما أدراك ما الذي يمكن أن يحدث داخل المبنى» عندما قال

هذه الكلمات، لوّح لشرطة الحدود اللبنانية، ودخل إلى الأراضي اللبنانية من دون أن يتوقف.

التفت سلمان إلى الوراء بينما كان حرس الحدود السوريين يبتعدون ويختفون عن مجال رؤيته. تملكته رغبة قوية في أن يصرخ، «لن تتمكنوا من الإمساك بي، يا أولاد القحبة»، لكنه فكّر في الرجل المسنّ الجالس بجانبه الذي بدا أنه عاد وغطّ في النوم، فلم يشأ أن يوقظه فزعاً. وخلال عملية تدقيق الجوازات، لم تنبس المرأة بكلمة واحدة. وعندما دخلت السيارة إلى الأراضي اللبنانية بدأ الشاب الفلسطيني المتجّهم يتحدّث من دون أن يسأله أحد عن نفسه وقال إنه مصفف شعر ممتاز للسيدات، وإنه يريد الحصول على فيزا إلى كندا لوجود حاجة ماسة إلى حلاقين للسيدات فيها. وقال إنه دفع مئتي دولار ليحصل على هذه المعلومات، وإن رئيس نقابة الحلاقين أعطاه رسالة توصية.

حتى الغبي يُظّن أنه حكيم إذا لاذ بالصمت، قال سلمان لنفسه، عندما ضحك سائق التاكسي وقال ساخراً، «طبعاً، بما أن الجو بارد جداً في كندا فإن شعر النساء يظل واقفاً كالقنفذ». نسي سلمان قلقه وضحك على تفاهة هذا الشاب وسذاجته. بعد قليل، أضاف السائق، «يا إلهي، لو رميت مئتي دولار، دولاراً دولاراً من النافذة، لأسعدتَ مئة صبي». فوقع الشاب مرة أخرى فريسة الشكوك التي تنهشه وأعاد إلى وجهه قناع مزاجه السيّئ. وانكفأ السائق إلى أفكاره، وراح يدخّن وينفث الدخان من النافذة. وكان يلقي من حين لآخر نظرة فاحصة على سلمان من المرآة، فأغمض سلمان عينيه وتظاهر بالنوم، ولاذ إلى ذكرياته.

الهروب كالقدر، نذير، رفيق دائم في الثقافة العربية. فاليهود يبدأون تقويمهم بخلق العالم وفق التقليد الرباني سنة ٣٧٦١ قبل

الميلاد، ويبدأ المسيحيون تقويمهم بولادة المسيح، أما تقويم المسلمين، فهو يرتبط بهجرة النبي محمد وهروبه من مكة إلى المدينة التي أنقذت حياته ورسالته. وباءت جميع محاولات إعادة التقويم الإسلامي إلى تاريخ مولد النبي أو إلى تاريخ وفاته بالفشل.

«ها هو يهرب مرة أخرى. الهروب أمل»، قال سلمان لنفسه، «الهروب بداية جديدة وحكمة، وغالباً ما تُفسّر الحكمة بأنها جبن». لقد ساعده الهرب الآن على خداع الموت.

حتى الآن، كانت حياته عبارة عن سلسلة من الهجرات والفراق. فقد حكت له أمّه كيف أنه ولد في عام ١٩٤٥ في شارع بغداد، حيث كانت تعيش مع أبيه، وروت له كيف أنهما اضطرا للهرب من دمشق بعد شهر واحد من ولادته، لأن موسى بندر، رئيس عصابة كبيرة آنذاك، هدد والده بأنه سيقتحم محل صياغة الذهب الذي يملكه وأنه سيقتله إذا لم يدفع له إتاوة. فهربا إلى مدينة حلب حيث تمكّن يوسف من فتح محل صياغة ذهب بسرعة بمساعدة أقربائه. فقد كان أبناء عائلة بلدي الأثرياء يعملون في صياغة أو تجارة الذهب منذ عدة قرون، وعمل يوسف هناك بنجاح لمدة أربع سنوات، ولم يعودا مع ابنهما إلى دمشق إلّا بعد أن أطلقت الشرطة النار على المجرم موسى بندر وقتلته. وخلال السنوات الستّ التالية، أقاموا في بيت صغير في حيّ الصالحية الحديث، ودرس سلمان في مدرسة كاثوليكية أحبّها كثيراً، حيث جذبت شخصيته اللطيفة الكثير من الأصدقاء والقلوب. ثم اشترى والده البيت الأرستقراطي الكبير في شارع المسك في المدينة القديمة بجانب المدرسة العازرية، فاضطر سلمان الذي كان قد بلغ عشر سنوات من عمره أن يبدأ من جديد كتلميذ غريب.

عاشق مسرح في المكان الخطأ

أُسّست الإرسالية التبشيرية العازرية الفرنسية في باريس سنة ١٦٢٥ لمساعدة الفقراء، أما في دمشق، فقد كانت واحدة من أربع مدارس مخصصة لأبناء الأغنياء فقط.

منذ خمسينات القرن العشرين، ترأس المدرسة الراهب جوزيف عطا - قسّ لبناني، لاهوتي معروف، صارم، لكنه شخص منصف. وكان يصرّ على أن يحظى بنفس الاحترام من المعلمين والطلاب على حدّ سواء. ولم يجد الأب جوزيف يوماً غضاضة في أن يعترف بأخطائه، وأن يعتذر ويطلب الصفح أمام الطلاب والمعلمين مجتمعين. في الثقافة العربية، فإن اعتراف شخص ذي سلطة بأخطائه أمام الآخرين يعتبر معجزة. وفي بداية الستّينات من القرن الماضي، جلب هذا المربي العبقري إلى المدرسة أفضل المعلمين في البلد، كان من بينهم الأب ميشيل أبو كسم الذي درّس علم الأخلاق والخطابة، والذي درس المسرح والفلسفة في باريس عندما كان شاباً، لكنه انكفأ على نفسه بعد أن خاض تجربة حبّ فاشلة مع ممثلة شابّة، وتقوقع في صدفة لاهوتية. وفي عام ١٩٥٦، انضم إلى رهبنة العازريين في باريس، وأصبح قسيساً. وبعد فترة وجيزة، عاد إلى دمشق.

كان الأب ميشيل كاتباً ومخرجاً مسرحياً موهوباً، وبعد فترة قصيرة، بدأ طلاب الصفوف العليا يعرضون مسرحيّات عالمية أدخلت البهجة إلى نفوس جمهور الحاضرين من أهالي الطلاب ومندوبين عن وزارة الثقافة. ومثّل سلمان في تلك المسرحيات بشغف وحماسة كبيرين، تعلّم خلالها النطق السليم، والتكلّم بثقة، واستخدام تعابير وجهه. وكان الأب ميشيل يعامله كما لو كان شقيقه، وكان يدعوه

ابن عمي الصغير. لفظها دوماً بالفرنسية «mon petit cousin» في البدء، ظنّ سلمان أنه يمزح، لكن والده أخبره لاحقاً أنّ جدّ جدّيهما كانا شقيقين. ثم أحضر الأب ميشيل طالبات من مدرسة «راهبات القلبَين الأقدسَين» لأداء الأدوار النسائية. وطلب من طلابه المراهقين أن يعاملوا الطالبات باحترام، «لأنهن يتحلّين بالشجاعة، ولأنهن ضيوفكم أيضاً». كان يكرر ذلك على أسماع الطلاب باستمرار. لكن عقول الصبية المشحونة بالهرمونات لم تر في تلك الطالبات الشابّات اللاتي بدأت تظهر عليهن علامات النضج إلّا أجساداً شهية، وظلت الرومانسية الإيروتيكية تتبرعم حتى وقعت الكارثة في عام ١٩٦٣.

قبل أن يتخرج سلمان من المدرسة بسنة واحدة، أصيب الأب ميشيل بنكسة مريرة. فقد وقعت طالبة بيضاء البشرة من عائلة مسيحية ذات نفوذ، فريسة شهوة عمياء لفتى مهتاج جنسياً كاد يغتصبها، لولا أن أنقذها أحد العاملين في المدرسة في آخر لحظة. فأصدر ماكسيموس الرابع الذي كان آنذاك بطريرك الكنيسة الكاثوليكية على الفور قراراً حظر فيه المسرح في المدرسة العازرية، ولم يمنح للأب أبو كسم فرصة للدفاع عن نفسه، ووجّه إليه توبيخاً وأعفاه من جميع مهامه لمدّة سنة. لكن سلمان لم يتوقف عن زيارته في حجرته الإسبارطية الصغيرة الأشبه بزنزانة منها بغرفة أب مجتهد ومتفان له فضل كبير على المدرسة. كان فيها سرير صغير وطاولة صغيرة متداعية. وكان الأب ميشيل يبكي أثناء حديثه مع سلمان مثل طفل هجره والداه.

بعد العقوبة التي أُنزلت بابن عمه والمعاناة التي كابدها، لم يعد سلمان يرغب في البقاء في المدرسة العازرية، لكن معلّماً آخر جاء لنجدته، قسّ فرنسي شاب يدعى فرانسوا سيميو، يدرّس الفيزياء، كان يزور الأب ميشيل يومياً، واستطاع بذكاء أن يضحكه.

بدأ الأب فرانسوا يهتم بسلمان وبرعايته كما لو أن الأب ميشيل قد طلب منه ذلك. وبخلاف ابن عم سلمان، كان الأب فرانسوا راديكالياً يسارياً. وبدأ يزوّد سلمان بكتب فرنسية ويناقشه في بعض الأفلام والروايات. ومع أنه كان يحبّ الفيزياء، فقد كان واسع الثقافة في الأدب العالمي.

ساعد كتاب مسرحيّات جان جينيت على توثيق أواصر الصداقة بين سلمان والأب فرانسوا الشابّ. وأصبحا يلتقيان كثيراً، ويتمشيان مسافات طويلة، يتحدّثان عن أي شيء يخطر لهما. ومثل جينيت، كان سيميو يناصر المستضعفين، وأفضى إلى سلمان بأنه دخل إلى الحياة الدينية كي لا يحمل السلاح لأنها كانت آنذاك الوسيلة الوحيدة لعدم أداء الخدمة العسكرية في فرنسا، وكان مصير أيّ محاولة لرفض أداء الخدمة السجن. ومثل جينيت، كان سيميو كذلك من أنصار استقلال المستعمرات، خصوصاً استقلال الجزائر.

كان سيميو يعير سلمان كتباً عن الاشتراكية ثم يناقشه فيها باستفاضة. وشاركه في قراءة كتابات سان سيمون وكامو وسارتر، والأعمال الكلاسيكية العظيمة من عصر التنوير. وقد قرأها سلمان كلّها واستوعبها وبدأ يشعر بسخط شديد على الظلم الذي يسود العالم، لكنّه لم يتخيّل أن باستطاعته أن يفعل شيئاً حيال ذلك.

تحول حياة شاب مثالي

ذات ليلة، عندما كان سلمان عائداً إلى البيت، رأى رجلاً يقعي بجانب حاوية قمامة خارج إحدى الفيلات، يأكل بقايا الطعام الذي أخرجه من الحاوية. لم يصدّق سلمان عينيه، فدنا من الرجل وعرف منه أنه بعد يومين من التسوّل، لم يتصدّق عليه فيهما أحد بشيء، ولم

يأكل شيئاً. وقال له إنه فلاح جاء من الريف إلى المدينة هرباً من الديون التي تراكمت عليه. فأعطاه سلمان كلّ ما في جيبه من نقود، وأسرع مبتعداً. وفي يوم الأحد ذاك، دعا والداه أصدقاء لهم أغنياء إلى وليمة فاخرة في بيتهم، وقدّما لهم كلّ أنواع الشمبانيا والنبيذ والمأكولات. ولأول مرة في حياته، شعر سلمان بكراهيّة عميقة تجاه والده وأسرته الغنية، ولم يستطع أن ينام في تلك الليلة.

في شهر آذار ١٩٦٣، بعد مضي ثمانية عشر شهراً على الحكم الديمقراطي، استولى الجيش السوري على السلطة في انقلاب عسكري وأعلن حالة الطوارئ. وكان من بين المشاركين في الانقلاب عدّة فصائل تتصارع لتكون لها اليد العليا في الحكم. ورويداً رويداً، بدأ ضابط متواضع من القوى الجوية يدعى حافظ الأسد يظهر من الظلّ حتى أصبح الزعيم الجديد للبلد. ولم يكن بإمكانه الادعاء بأنه شخص يمتلك جاذبية أو فصاحة في الكلام، وإنما كان كتوماً، فظاً، بارعاً في حبك المؤامرات.

أصبح سلمان في أعماقه اشتراكياً، لكنّه لم يشأ أن تكون له أي علاقة بالحزب الشيوعي السوري، لأنه كان يرى أن هذا الحزب يتلقى أوامره من موسكو، وأنه حزب فاسد تقوده، مثل الحكومة، عشيرة. وشيئاً فشيئاً أصبح الحزب الشيوعي شركة خاصة تملكها عائلة بكداش تتلقى أوامرها وتعليماتها من النظام السوري ومن موسكو على حد سواء. وبدأ سلمان وأصدقاؤه يؤمنون بأنّ المناضلين فقط هم الذين يستطيعون إسقاط النظام الديكتاتوري في سوريا بالقوة.

ومع أن سلمان درس الرياضيات والفيزياء في الجامعة، فقد كان يحضر أيضاً محاضرات في كلية الفلسفة والتاريخ. وكان قد درس في الجامعة ليتهرب من أداء الخدمة العسكرية الإلزامية القاسية التي مدتها

سنتان. فبما أنه لا يزال طالباً، يظلّ معفياً من الخدمة الإلزامية، وكان كذلك بحاجة إلى فترة أطول ليقرر ماذا يريد أن يفعل في حياته.

في أواخر حزيران ١٩٦٧، بعد الهزيمة الساحقة التي ألحقتها إسرائيل بالدول العربية، التحق سلمان بحركة سرّية مسلّحة مع أربعة من أصدقائه وابن عمه إلياس الذي كان في السابعة عشرة من عمره في ذلك الحين للإطاحة بالنظام الديكتاتوري في سوريا. وكانت الغالبية العظمى من العرب يرون أنّ الهزيمة التي لحقت بهم لم تكن بسبب قوّة إسرائيل، وإنما بسبب عجز الحكومات العربية وعدم كفاءتها التي تمعن في إذلال شعوبها وقهرها. وكانت هناك قلة من المعارضين المستعدين للتضحية بحياتهم للإطاحة بهذه الأنظمة، وكان سلمان واحداً من بين هذه الأقلية مستعداً للتضحية بنفسه، إذا تطلب الأمر. ومنذ تلك اللحظة، أصبح مسلحاً ومطارداً من قبل الدولة.

بيروت، سراب سويسرا

أطلق السائق زمّور سيارته عندما صادف زميلاً له قادماً من الاتجاه المقابل. فتح سلمان عينيه ونظر من النافذة. مسح بعينيه التلال الخضراء المكسوة بأشجار التفاح التي تفتحت براعمها. تنشّق رائحتها الحلوة وقال في نفسه إن رائحة أزهار التفاح تشبه رائحة أزهار الحرّية. ولوهلة نسي كلّ شيء عن المنفى وبأنه مطارد.

كان لبنان لا يزال ينعم بالسلام في ذلك الربيع. وستبدأ الحرب الأهلية بعد خمس سنوات، أي في عام ١٩٧٥، التي استمرت بضراوة طوال خمس عشرة سنة. وكان هذا البلد الصغير القابع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط يسمى «*سويسرا الشرق الأوسط*» لأن

فيه عدة بنوك، والثلوج تكسو قمم جباله، وأسلوب حياة سكانه تشبه أسلوب الحياة الأوروبية المتحررة، وبسبب حياده في الصراعات السياسية في المنطقة. هكذا كان يوصف هذا البلد، لكن ذلك لم يكن وصفاً دقيقاً، وإنما شعار استُحدث للعاجزين الذين كانوا يبحثون عن أي إشارة يمكن أن تقودهم إلى بر الأمان. فلم يشبه لبنان سويسرا في أي شيء، سواء من حيث جوانبه الجميلة أم البشعة. ولم تشبه بيروت، القلب النابض الكبير لذلك البلد الصغير، أيّ مدينة سويسرية. فقد كانت زيوريخ، بالمقارنة مع بيروت، فندقاً عائلياً صغيراً فيه بنك كبير ومحل بوتيك ومطعم في الطابق الأرضي، أما بيروت فهي كوكب له قوانينه الخاصّة - أو ربما لا توجد فيه قوانين على الإطلاق. وقد استضافت المدينة الجميع بسخاء: الأبرياء والمجرمين، المتسولين وأصحاب الملايين، المسالمين وتجّار الأسلحة وكبار تجّار المخدّرات. ولم تُطبع كتب في أي مدينة في العالم العربي كما كان يُطبع في بيروت. لكن معظمها كانت موجهة إلى البلدان العربية الأخرى، سواء أكانت هذه الكتب تدخل إليها بشكل قانوني أم بشكل غير قانوني، بواسطة سيّاح وتجّار وسائقي سيارات أجرة وركّاب يتحلّون بالشجاعة.

في ذلك الوقت، كان أعضاء أحزاب المعارضة من جميع البلدان العربية يعملون بنشاط في بيروت. يحرّضون ضد الحكام الطغاة في بلدانهم، ويمولهم في غالب الأحيان طغاة آخرون. فقد استطاع الناس في هذا البلد العيش بسلام شريطة أن يحرصوا على ألّا يدوسوا على أصابع أقدام أيّ جهاز من أجهزة المخابرات التي يزيد عددها على عشرين جهازاً في بيروت. فقد كان عملاء الاستخبارات المركزية الأمريكية، والاستخبارات الروسية، والموساد، وعملاء مختلف أجهزة المخابرات العربية، يحلّون ضيوفاً

دائمين على المدينة التي استضافت آنذاك أكثر من عشر منظمات فلسطينية مسلّحة.

كان سلمان قد استمد معلوماته عن لبنان بعد زيارته غير القانونية إلى أحد معسكرات تدريب الفدائيين قبل ثلاث سنوات ضم بالإضافة إلى الفلسطينيين وعرب آخرين أيضاً متدربين ألماناً وحتى يابانيين.

كان سلمان قد ذهب إلى معسكر التدريب مع مجموعة صغيرة من الرجال والنساء السوريين - للتدرب على السلاح وتعلم طرائق العمل السري، أي، كيف يمكنهم أن يتحركوا «مثل سمكة في الماء» بين «الجماهير الغفيرة»، كما قال ماو. وكان معظم المقاتلين طلاباً سابقين قرأوا ماو وهوشي منه وتشي غيفارا، يحلمون بتقليد أولئك الثوار.

عاش سلمان في ذلك الحين في معسكر فلسطيني في جنوب لبنان وأطلق على نفسه اسماً حركياً. وسادت المعسكر أجواء من انعدام الثقة بين مختلف المجموعات. ومُنِع التواصل مع الأشخاص الغرباء. وكان المدربون قساة وساديين بدائيين، وصار المعسكر أشبه بمعسكر اعتقال أكثر من كونه مكاناً لإرساء المشروع المثالي لتحقيق مستقبل حرّ.

وها هو الآن، يعود مرة أخرى، بعد عدة سنوات، إلى لبنان بجواز سفر مزور - لا ليتدرّب على استخدام الأسلحة والمتفجرات، وإنما لينجو وينفذ بجلده، عاد ليقيم مؤقتاً في بيت عمّته إميليا. فقد تمكنت أمّه صوفيا من الاتصال به، وأخبرته بأن عمّته إميليا ترحب باستقباله في بيتها إذا تمكن من الخروج من سوريا سالماً. وقد فوجئ عندما سمع ذلك، لأنه على الرغم من أن عمّته إميليا ليس لها علاقة طيّبة مع شقيقها، والد سلمان، كانت تحبّ أمّه صوفيا كثيراً.

العمّة إميليا والثورات الثلاث

يعود سبب العداء الرئيسي إلى أكثر من ثلاثين عاماً. فقد تزوّجت إميليا الرجل الذي أحبّته هي، لا الرجل الذي كان يرى أبوها وأمّها وشقيقاها - والد سلمان، يوسف، والعمّ أنطون، والد إلياس - أنه مناسب لها. فقد تعرّفت على سعيد بستاني في الجامعة عندما درسا معاً الأدب والفلسفة. كان سعيد لبنانياً، موهوباً، لكنه ينتمي إلى عائلة فقيرة - وكأن ذلك لا يكفي - فقد انتسبت عائلته للطائفة الإنجيلية. ولم ينطق والد سلمان هذه الكلمة طوال حياتِهِ، وإنما كان يقول «بروتستانتي» زامّاً شفتيه، كأنه يريد أن يقول إن هؤلاء البشر مسيحيون عرب فقراء جهلة ضلّلتهم البعثات التبشيرية الأمريكية والألمانية. ومع أن إميليا كانت تكبر شقيقيها يوسف وأنطون في العمر، فقد كان رأيهما أهم من رأيها.

رددت صوفيا دائماً أمام صديقاتها أن إميليا تجسّد ثلاث ثورات: الثورة الأولى، أنها امرأة درست في أربعينات القرن العشرين، وكانت تدخّن وتشرب الكحول أيضاً. والثورة الثانية، أنها تزوّجت الرجل الذي أرادته هي - لا الرجل الذي تريده عائلتها - أما الثورة الثالثة، فهي أن الرجل الذي اقترنت به ليس سورياً كاثوليكياً أو يهودياً أو حتى مسلماً، وإنما، الأسوأ من كلّ ذلك، لبنانياً بروتستانتياً.

كانت عائلة إميليا بلدي عائلة غنية واعتبرت أن ما فعلته ابنتهم جلب العار للعائلة. ولم يفكّر أحد منهم أن يرتكب جريمة شرف، لكنهم قاطعوا ابنتهم غير الوفية واعتبروها غير موجودة أصلاً. ورأوا في ذلك مهانة وإذلالاً أكثر من قتلها، لأن موتها كشهيدة للحبّ سيجعل منها أسطورة مشرقة وسيحزن عليها عدد كبير من المسيحيين المتنورين الأغنياء، وسيُنظر إلى عائلة بلدي بأنها عائلة من المجرمين

البدائيين قساة القلوب. بذلت العشيرة قصاراها لكي لا تنتصر هذه المرأة التي تمرّدت عليهم، وجعلتهم كراهيتهم يرفضون الاعتراف بوجود ابنتهم في الحياة. وبعد هرب إميليا مع سعيد بأسبوع، نبذتها عائلتها، وحرمتها من ميراثها، وطواها النسيان. ولم يُسمح لأحد من أفراد العائلة أن يذكرها أو حتى أن يسمّي أحدهم ابنته باسمها.

لم تهتم إميليا بكلّ ذلك. وأحبّت سعيد الذي كان رجلاً لطيفاً والذي أصبح لاحقاً أستاذاً في الجامعة الأمريكية في بيروت، وألّف كتباً عديدة في الفلسفة. وكان كلّ كتاب جديد يصدره يثير ضجة. وفي أحد الأيام، اتُّهم بالكفر، لكنه بُرّئ في لبنان المتحرر. وكانت هذه التهمة أفضل دعاية لانتشار الكتاب الذي صدرت منه عشرون طبعة خلال ثلاث سنوات. وعندما قرأ سلمان الكتاب، رأى الإهداء مؤثّراً للغاية: *إلى إميليا، المرأة القادمة من مستقبل باهر*.

ثم أصبحت العمّة إميليا مدرّسة للغة الإنكليزية. وكان وجع قلبها الوحيد أنّهما لم ينجبا أطفالاً لأنّها كانت تحبّ الأطفال كثيراً. وقد تلقت عائلة بلدي في دمشق هذا الخبر ببهجة عظيمة. ولأنهم يؤمنون بالخرافات، فقد عزوا عدم قدرة إميليا على الإنجاب إلى استجابة القديسين للعنة أمّها التي أشعلت شموعاً وأوقدت بخوراً لمريم العذراء، وصلّت لها بأن تذوي مبايض ابنتها لتصبح عقيمة. عندما سمعت صوفيا ذلك ضحكت كثيراً، وقالت: «كأنه لا يوجد شيء للعذراء أن تفعله ولا همّ لها إلّا أن تجعل مبايض إميليا تذوي».

عندما كانت العمّة إميليا تزور دمشق، كانت تقيم عادة في بيت إحدى صديقاتها. وكانت أمّ سلمان تدعوها إلى المطعم، ولم تدعها قط إلى بيتها لأنه لم يُسمح لها بذلك، وكانت إميليا تتفهم موقف صوفيا هذا لأنها تعرف شقيقها جيداً. وعندما يسافر سلمان وأمّه إلى بيروت، كانت إميليا تستقبلهما دائماً في بيتها، وعلى الرغم من أنها

كانت زيارات قليلة ومتباعدة، فقد ظلّت علاقة صوفيا بإميليا حميمة وقوية. بعد ذلك، سمع سلمان أن جميع محاولات أمّه وبعض النسوة في العائلة إقناع والدَي إميليا بمصالحتها، باءت بالفشل. وحتى بعد أن مات جورج بلدي عام ١٩٤٤، ظلّت أرملته الغاضبة تصرّ على ألّا تسامح ابنتها. كانت أمّ إميليا عصبية وعدائية إلى أبعد الحدود، «لا عجب»، تذكّرت العمّة إميليا، «أنّها اختنقت من مخاطها أثناء نوبة غضب اعترتها».

ثم ورث زوج إميليا ثروة كبيرة واشترى الشقّة الرحبة في شارع باستور وسط المدينة القديمة الجميلة، أكثر الأحياء حيوية ونشاطاً في بيروت. لكنه مات فجأة في كانون الثاني ١٩٦٥، بعد أن أصيب بمرض لفترة قصيرة. فحزنت إميليا على زوجها طوال حياتها، لكنّها حبست حزنها في قلبها وعاشت وحيدة كأرملة في شقّتها الواسعة. وحصلت على راتب زوجها التقاعدي الكبير، فاستقالت من عملها. وعندما لم تعد لديها التزامات أخرى، أصبح بإمكانها أخيراً أن تفعل ما كانت تحلم به طوال حياتها: القراءة والرسم والسفر. ولم تخلع عنها السواد حتى آخر يوم في حياتها، لأن ذلك كان يبعد الذباب والجرذان الشهوانية عنها، كما عبّرت هي ساخرة.

وفيما بعد أوصت إميليا بأن تُسجّى في تابوتها بفستان زفاف أبيض قرب زوجها، كأنها تريد أن تتزوج سعيد مرة أخرى في العالم الآخر.

نزل سلمان من سيارة الأجرة في ساحة البرج المركزية. أخذ حقيبته، ولوّح لسيارة أجرة أخرى، وقال للسائق، «شارع باستور، رقم ١١». كان متلهفاً لرؤية العمّة إميليا التي لم يرها منذ سنوات، لكنه لم يدر أن تغييراً جذرياً سيطرأ على حياته في بيت عمّته الأرملة.

العمّة إميليا والأزمة الكبيرة

بيروت، صيف عام ١٩٧٠

واحة السكينة

بعد المصاعب والضغوط النفسية التي تعرّض لها لإنقاذ نفسه، والإفلات من مطاردة أجهزة المخابرات والمخبرين له، كانت الأيام القليلة الأولى التي أمضاها سلمان في بيروت مبعث ارتياح كبير له. فقد كان يشعر في سوريا قبل هروبه بأنه حيوان مطارد، وكلّما سمع عن اعتقال أحد من رفاقه، أو سمع خبراً عن وشاية أو خيانة من أحد رفاقه، كانت الأرض تميد من تحت قدميه، ويُحكم خناق حبل المشنقة حول رقبته.

في شتاء عام ١٩٦٩، هُزم رفاقه هزيمة نكراء في معركة عنيفة دارت جنوب مدينة حلب وكُتِمَت أخبارها بأمر صارم من الحكومة. هذه الهزيمة النكراء سببتها عقول قادة الحركة الثورية، فقد ضربوا جميع الخطط العقلانية بالتراجع وتنظيم العمل بخلايا كثيرة في مدن متعددة عرض الحائط بغباء شديد، وعرّضوا التنظيم كله وأنفسهم بقرار مواجهة مباشرة مع جيش ضخم للفناء. فقتل الجنود مئات من الثوريين في عدة أيام وهرب المقاتلون القلائل الذين نجوا وتفرّقوا في جميع الاتجاهات، وتاهت خليّته المؤلفة من امرأتين وثلاثة رجال

في الريف، لكنهم سرعان ما وقعوا في كمين نصبه لهم الجيش في أحد حقول الزيتون بالقرب من حمص. وهرب سلمان الذي أصيب بجروح، وقُتلت المرأتان الشجاعتان عندما أمطرهما الجنود بوابل من الرصاص، وأُسر أحد أفراد الخلية وأُعدم على الفور، وأصيب الآخر بجروح خطيرة لكنه مات تحت لكمات الجنود وركلاتهم في المركبة المتجهة إلى دمشق.

هام سلمان على وجهه، وأمضّه الجوع أكثر مما كان يؤلمه الجرح الذي أصيب به في كتفه اليمنى. فقد كان الجوع قد بدأ يخمش أمعاءه كما يخمش قطّ برّي ويموء بصوت عال يبحث عن كسرة خبز. فحفر الأرض ليقتلع جذور نباتات في تلك الأراضي القاحلة، لكنه لم يعثر على شيء يمكن أن يأكله. وشرب من جداول المياه التي كان يصادفها ليُسكت الوحش الذي كان يزعق في أمعائه، وراح يجرّ قدميه الثقيلتين. وذات يوم، رأى شجرة تفاح برّية تنتصب بمفردها. وعلى الرغم من الألم المبرّح في كتفه، قطف بضع تفاحات والتهمها، ثمّ جلس في ظلّ الشجرة وبدأ يفكّر في الكارثة التي حلّت بمجموعته. لماذا فشلوا؟ لم يجد أية إجابة. ثم قطف تفاحات أخرى وواصل طريقه، لا تشغل رأسه سوى فكرة واحدة وهي أنه سيطلق النار على نفسه إذا حاولوا القبض عليه. وبدأ يجري حتى انهار من شدة الإعياء والضعف الذي أنهكه بعد أن فقد كمية كبيرة من دمه.

عندما صحا من غيبوبته، وجد نفسه في غرفة معتمة، على كتفه ضمادة ثقيلة. فقد استطاع مزارع أن يُخرج الرصاصة التي اخترقت كتفه، وخبأه في بيته، مجازفاً بحياته من التعرّض لعقوبة الإعدام لأنه أنقذ حياة «إرهابي». وعندما سأله سلمان عن السبب الذي جعله يجازف بحياته وينقذه، أجابه المزارع بأنّه فَقَد زوجته لأنه لم ينقذها

أحد. فعندما كان يعمل في الحقل، وقعت زوجته من أعلى السلّم عندما كانت تنظّف نوافذ البيت وأصابتها شظايا زجاج النافذة الذي تهشم بجروح بليغة. كانت وحدها في البيت، ونزفت دماً كثيراً حتى فارقت الحياة. «وعندما عدت إلى البيت في المساء، وجدتها ميتة». وقال إنه وجد سلمان مستلقياً على الدرب الترابي ينزف كما نزفت زوجته في ذلك الحين في مطبخ بيتهما. ومن حسن حظ سلمان أن الرصاصة ظلت في مكان سطحي في جسمه، فاستطاع المزارع الشاب أن يخرجها بسهولة.

مضت إقامة سلمان في بيت المزارع بسرعة، ولم تبق في ذاكرته سوى رائحة الزعتر القوية التي كانت تعبق في أرجاء المكان. وعندما تحسنت صحته، أعطى المزارع بندقيته الكلاشينكوف ومسدّسه وبوصلته الغالية الثمن. وبعد ثلاثة أسابيع، قاده صمد، وهو اسم المزارع، عبر دروب خفية إلى بيت شقيقه الذي يعمل في مطبعة بدمشق. وبخلاف صمد، كان شقيقه جريئاً وجشعاً. ولقاء سلسال من الذهب وساعة سويسرية غالية الثمن كان والدا سلمان قد أهدياه إياها بمناسبة نجاحه بالبكالوريا، شهادة الثانوية، استطاع شقيق المزارع عبر علاقاته تسليمه جواز سفر مزوّراً وأعطاه مئتي دولار مصروف جيب، وبضع مئات من الليرات السورية لنفقات السفر. كان ثمن الساعة وحدها يتجاوز خمسة آلاف دولار، لكن سلمان لم يملك آنذاك خياراً آخر لأنه كان يجب أن يغادر البلد بأسرع ما يمكنه. ولو لم يعطه ما طلبه منه، لكلّفه ذلك حياته.

استعاد سلمان صحته وقوّته خلال إقامته في بيت عمّته إميليا. وتجسيداً لأصول الضيافة العربية، لم تسأل إميليا ابن أخيها عن سبب مجيئه في الأيام الثلاثة الأولى، وإنما احتفت به وأكرمته، وقد سهّل عليها ذلك امتنانه لها وأسلوبه الجذاب، وروحه المرحة. فقد كان

يسخر من نفسه عندما يحدّثها عن الإخفاقات والكوارث والتجارب المؤلمة الأخرى التي صادفته. وبصراحتها المعهودة، قالت له إنه يدين بخفة دمه وذكائه وشجاعته إلى صوفيا، أمّه. وقالت إن والده - شقيقها يوسف - لم يُظهر أدنى ميل إلى المرح وروح الفكاهة لا في طفولته أو في شبابه، أو حتى عندما أصبح كهلاً، ولم يبد يوماً شجاعة، وإنما كان يتلطّى طوال الوقت تحت ظلّ الآخرين. وبالتالي ظلت روحه معذّبة لم يستطع أن يجد لها السكينة، أو أن ينشرها على من حوله. دهش سلمان لدقة وصف إميليا لأبيه لكنه أيقن أنها تعرفه جيداً، لأنها كانت أخته الكبيرة.

كانت شقّة إميليا التي تقع في الطابق الثالث هادئة وواسعة، لها شرفة كبيرة تطلّ على الميناء وعلى البحر خلفه إلى أبعد مدى حيث تذوب زرقته بالسماء. لم يصادف سلمان أحداً من جيرانها لأنه لم يغادر البيت إلا نادراً بدافع الحرص والحذر. ويوماً بعد يوم، لم يحط به سوى صوت عمّته إميليا وضحكاتها. فقد كانت تضحك ضحكات طويلة عالية في معظم الأحيان، ضحكات لا تتواءم مع ثيابها كأرملة. وكانت لكنتها تبدو غريبة بعض الشيء. فمع أنها ولدت ونشأت في دمشق، فقد كانت تتكلّم بلهجة بيروتية. وعندما سألها سلمان عن ذلك، قالت: «لم أرغب في أن تكون لي أي علاقة باللهجة الدمشقية التي تذكّرني بعائلتي، أما اللهجة البيروتية، فهي تذكّرني بحبّي لسعيد وخلاصي من حكم العشيرة».

كانت العمّة إميليا تشبه امرأة عربية من شمال أفريقيا. وبخلاف والده أو عمّه أنطون اللذين كان لهما شعر ناعم، وبشرة فاتحة، وأنف صغير، وشفتان رقيقتان، كان شعر إميليا أجعد كثيفاً مثل غرة أسد، أشيب، يغطي فروة رأسها القوية. وقد منحتها عيناها الواسعتان، وشفتاها المكتنزتان، وبشرتها السمراء جمالاً أخاذاً. «أنا

متأكدة من أنني ثمرة علاقة حبّ سرّية بين أمّي وشاب أفريقي»، كان يحلو لها أن تقول، وتضحك بصوت عال كما لو أنها تريد إسماع أقاربها في أفريقيا اعتزازها بهم.

لم يكن سلمان يعرف عمّته جيداً بعد، لكن صراحتها وطيبة قلبها سرعان ما كسرا الجليد بينهما. ولم يستغرق وقتاً طويلاً حتى أصبح يثق بها تماماً. ومع أنه لم يخطط لذلك، فقد بدأ يفضي لها بأسراره. وعندما كانت تستمع إليه باهتمام وهو يحكي لها ما جرى له بالتفصيل، أثنت بعدها على شجاعته، وعلى مثله العليا واستعداده للتضحية بحياته لتحقيق تلك المثل، وأثنت على قوة شخصيته لأنه تخلّى عن وظيفة أكاديمية لكي يناضل في سبيل الحرّية. لكنّها قالت له أيضاً بصراحة إنّ نشاطاته السرّية المسلحة تذكّرها بلعبة الأطفال، رعاة البقر والهنود الحمر، لكن هذه المرة، فإن حياة الناس وأحلامهم تعرّضت للخطر والدمار والموت، فأصبح نضالهم بذلك أكثر سذاجة من لعبة الأطفال. وحتى بعد أربعين سنة، ظلّ سلمان يتذكّر الصدمة التي أحدثتها كلماتها هذه عليه.

الصحوة المؤلمة

في حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، أيقظته العمّة إميليا من قيلولته برفق. كانت أرجاء البيت تعبق برائحة القهوة وحبّ الهال. جلسا في الشرفة وراحا يحتسيان القهوة الثقيلة. أرادت إميليا أن تكون صريحة معه، فقالت وهي تنظر إلى البحر إنه لو كان عندها ابن، لحدّثته كما تحدّثه الآن، ولن تخفي عنه شيئاً، وأضافت أنه لا يتعين عليه أيضاً أن يوافق على كلّ ما تقوله. أشعلت سيجارة، أخذت نَفَساً عميقاً، وراحت تراقب الدخان وهو يتبدّد في السماء

الزرقاء. «إن إسقاط النظام في دمشق يحتاج إلى قوة مختلفة تماماً». فهي حزينة على جميع الشبان والشابات الذين ضحّوا بحياتهم ووقفوا بسذاجة في وجه القتلة من القوّات الخاصّة وأجهزة المخابرات السورية الذين كانوا يقتلونهم بدم بارد، وقالت إن أعزّ صديقاتها امرأة لبنانية فقدت ابنها الوحيد في المعارك في الجبال، الذي كان قد أطلق على نفسه اسم علي تشي - تيمّناً بتشي غيفارا - ومثل معبوده، فقد أُسر وأُعدم بدم بارد.

عندما لاحت ابتسامة خفيفة على وجهها، مسّد سلمان يدها برفق، ثم طفرت الدموع من عينيها، وقالت بحزن: «جميع هؤلاء الشبان، مثلك ومثل علي، يريدون القيام بثورة حتى نعيش كبشر، بحرّية وكرامة. لكنهم يموتون جميعاً وهم في عزّ شبابهم، ربما كانت الآلهة تفضلهم. يموتون لكي تتمكن ثورة تقودها عصابة جديدة من المجرمين المحترفين من هزيمة العصابة القديمة المهترئة المسيطرة على الحكم. هكذا تسير الأمور دائماً - وهكذا ستبقى». نظرت إلى عينيه، وأضافت، «اسمعني جيداً يا بني، لا شيء سيتغيّر ما دامت الثورة تهدف إلى تحقيق تغيير اجتماعي أو سياسي فقط: فقد ملأ رفاقك السذّج الجبال بتضحيات كثيرة، ومهّدوا طرقاً عريضة بدموع الأمل، فقط ليأتي المجرمون ويدخلوا إلى العاصمة وسط الرايات والشعارات الصاخبة، ويثملوا من هتاف الحشود الغبية ويظنوا لا بل يصدقوا أنهم آلهة.

«لن يطرأ أي تغيير على البلدان العربية إذا لم يتم القضاء على البنية القبلية التي تستعبدنا، جسداً وروحاً. فالعشيرة تقوم على الطاعة العمياء والولاء، ولا تعير أي اهتمام للديمقراطية أو الحرّية أو الكرامة الإنسانية. إنها تتغلغل في كلّ شيء وتفسده، كالعفن الذي يتغلغل في الخبز ويسمّمه. العشيرة تبني سلطتها على مبدأ العصا

والجزرة: قليل من الأمان مقابل قدر ضئيل من الكرامة، ونجد أنفسنا فجأة ننزلق على منحدر نبحث فيه عن السعادة فقط ووسيلة لإرضاء غرائزنا. وهناك حيث نصل إلى قاع المنحدر لن نجد أي أثر للكرامة. سنكتشف في لحظات قصيرة نصحو بها أننا لسنا سوى عبيد راضين بزعماء عشائرنا، ثم نعود إلى الضباب المخدر ونتفاخر بأننا لم نُعتقل بعد. قل لي ما رأيك بكلّ ما قلته...»

«كيف يمكنني أن أفسّر ذلك؟» أجابها سلمان الذي لم يعرف من أين يبدأ، وأضاف، «كنت مصدوماً كيف أنّنا كنا قد انهزمنا داخلياً قبل أن يظهر الجيش ليحطمنا خارجياً... نعم، انتهينا حتى قبل أن يظهر الجيش على الساحة بفترة طويلة... كنّا قلائل، أصدقاء مقرّبين، وشعرنا بأننا ندور في دوامة لسنوات طويلة، ثم نعود إلى النقطة التي بدأنا منها، مثل بغل يدور حول حجر رحى. لم يعد الثوار ثواراً، وإنما أصبحوا مثل المجتمع الذي يريدون تدميره... لقد مات كلّ الذين ماتوا عبثاً». وبدأ يبكي بصمت. قبّلته إميليا على جبينه وضمته إليها. أخذ نَفَساً عميقاً. كانت تفوح منها رائحة زهر اللوز.

فقالت إميليا، «هذه هي طبيعة الثورة. فمنذ نيكولاس كوبرنيكوس، فإن كلمة ثورة (*revolution*) تعني في الأصل *الدوران* على مدار لا يتغيّر لكوكب في دائرة مغلقة. ولا يمكن أن تعني بداية جديدة».

طوال ساعتين، حكت له إميليا قصصاً عن مؤامرات ودسائس وثورات بشكل شيق لم يعده سلمان في حياته. ولم يشعر طوال الوقت بملل وكأن عمته تروي له رواية بوليسية، وأدرك سلمان أن السنوات التي أمضاها في النضال السرّي أو في التدريب ودورات الدراسات النظرية التي كانت مجرد ترديد ببغائي لكلمات ماركس أو

لينين أو غيفارا . . . كلها لا تضاهي ما شرحته إميليا خلال ساعتين. بدت له معرفته مثل قصر مبني من جليد، ذاب تحت جذوة نار كلمات إميليا الحارقة.

بعد حديثهما، أحسّ سلمان بأن شيئاً في داخله قد تهشّم إلى شظايا لم يعد بالإمكان جمعها. وعندما ذهب في تلك الليلة إلى الفراش، لم يغمض له جفن، فتسلل إلى المطبخ، ثم عاد إلى غرفته وبيده كأس من النبيذ الأحمر. في الممرّ، توقّف قليلاً، وابتسم عندما سمع شخير العمّة إميليا ينبعث من غرفة نومها.

جحيم الثورة والجنة الموعودة

في صباح اليوم التالي، اعترى سلمان شعور بالشلل. فلم تعد لديه أدنى قدرة أو رغبة أن ينهض من السرير أو يفعل أيّ شيء.

لماذا انضم إلى صفوف المقاومة المسلّحة؟ هل كان ذلك ردّة فعل منه على الهزيمة التي ألحقتها إسرائيل بالدول العربية عام ١٩٦٧ كما ادّعى بعض أصدقائه؟ بالتأكيد لا. إذاً، ما الذي جعله يفعل ذلك؟ شعارات من قبيل «تحرير أرض الوطن» أو «العدالة الاشتراكية» لا تكفي. كم مرّة ردّد هذه الشعارات من دون أن يعرف معناها؟ كيف بدت له الاشتراكية؟ إن الاشتراكية المطبقة على الأرض تبدو مريعة. فعلى الرغم من أن مجموعته الثورية كانت ترفض موسكو وبكين والدول التي تدور في فلكهما، كانوا يمتدحون نهج كوبا، مع أن واحداً منهم لم يزر كوبا طوال حياته.

وإلى أي مدى ترتبط قضية تحرير العمّال والفلاحين الفقراء التي تنادي بها مجموعته الثورية مع واقعه؟ عادت إليه ذكريات، قوية ومؤلمة، ذكريات كان يُفضّل أن تُدفن إلى الأبد. فبما أنه كان يتمتع

بقدرات كبيرة على الإقناع، أرسلته القيادة إلى حلب، عاصمة الشمال مكث فيها ثلاثة أشهر، لاستمالة الطلاب من ذوي الميول اليسارية للالتحاق بصفوفهم، وإقامة شبكة مدينية من جماعات ثورية، بالإضافة إلى تجنيد مقاتلين أكراد. مستخدماً هوية مزوّرة تثبت أنه طالب جامعي، استأجر غرفة في بيت أرملة في الخمسينات من عمرها، ليس لديها أبناء، تعمل في مصنع للنسيج. وكانت تلك المرأة تستيقظ في الساعة الرابعة صباحاً، وتذهب إلى عملها في حوالي الساعة الخامسة، لتعود في السابعة مساء، شاحبة ومرهقة بعد عمل مضنٍ طوال اثنتي عشرة ساعة، بالإضافة إلى ساعتين كانت تمضيهما في المواصلات ذهاباً وإياباً. لم تنعم بيوم راحة. وقلما شاهدها سلمان. كانت معكرة المزاج باستمرار، يصعب التحدّث إليها، ولم تحاول أن تتقرب منه قط. وفي بداية كلّ شهر، ومن دون أيّ تعليق، كان يضع الإيجار على طاولة المطبخ، ويخرج ليناقش مسائل تحرير العمال والفلاحين مع رفاقه الآخرين.

«سأترك البيت آخر هذا الشهر»، قال لها بعد قرابة ثلاثة أشهر.

«صحيح؟» قالت بلا مبالاة ودخلت إلى غرفتها. وتذكّر أنّه كان يسمع نحيبها أحياناً، وكان يتمنى مواساتها لكن الأوامر كانت صارمة بعدم الاختلاط مع الآخرين.

الآن في بيروت، أدرك كم انفصمت حياته عن الواقع. فلا يمكن أن يكون العمّال الفقراء الذين عاشوا في جحيم فقرهم حوله هم السبب في نضاله. وهنا، أخيراً، في بيروت، عرف لماذا أخفقت مجموعته. فقد مني الثوار بهزيمتهم النكراء، ولم يقف فلاح فقير واحد إلى جانبهم. بل وقف أولئك الفلاحون وراحوا يتفرجون كما لو أنهم يشاهدون فيلماً حربياً فظيعاً، مذعورين حتى الموت، كأن الأمر لا يعنيهم. بالتأكيد كانت معظم المقاتلات والمقاتلين، أبطالاً

من المدن مستعدين للتضحية بأرواحهم، لكن كلّ ذلك لم يكن كافياً. فقد كانوا يحفظون بضع عبارات قالها ماركس وباكونين ولينين وماو وغيفارا ورددوها بمناسبة وغير مناسبة، لكنهم لم يتقربوا قط من الفلاحين، فظلّوا غرباء في بلدهم.

لكن إذا لم يناضل آنذاك من أجل الفلاحين، فمن أجل من كان يقاتل؟ أفزعه الجواب. هل دفعه لذلك مزيج خطير من الأفكار الرومانسية المتعلقة بأعمال التحرير البطولية والأفكار المسيحية المتعلقة بالتضحية بالنفس، وتحقيق المساواة، والشهادة، مع توق الأقليّة المسيحية الأبدي للقيام بدور حاسم في المجتمع الإسلامي. لذلك ليس من قبيل الصدفة أن المسيحيين كانوا دائماً في طليعة - إن لم يكونوا من مؤسسي - الأحزاب القومية والاشتراكية في الدول العربية. ومثل اليهود في أوروبا، لم يسع المسيحيون في البلدان العربية إلى ترسيخ مكانتهم فحسب - وإنما كانوا يهدفون إلى أن يُظهروا للأغلبية أنّهم ينتمون إلى هذه البلاد أيضاً. كلّ هذه العناصر جُمعت في صيغة قاتلة غلّفت دماغ سلمان بضباب وجعلته شخصاً غبياً، مستعداً للقتال.

اعترى سلمان شعور بالمرارة والخجل لأنه انتقد رفاقه الذين ألقوا السلاح ولم يعودوا يرغبون في المشاركة في معترك الأحزاب السياسية، وأدرك أنهم كانوا أصدق وأصفى ذهناً منه.

عندما استيقظ عند الظهيرة، كانت إميليا قد غادرت البيت، وتركت له رسالة قصيرة كما تفعل عادة. لم يشأ أن يأكل أو يشرب قهوة في البيت، فارتدى ثيابه وذهب إلى شاطئ البحر. كان كلّ ما يحتاج إليه هو أن يستنشق هواء نقياً يملأ به رئتيه، وأن يمتّع ناظريه بمشاهد طبيعية جميلة.

تسارعت الأفكار في رأسه. شعر أن قادة حركته خدعوه.

فالحلم بمجتمع حرّ وعادل جعل كلّ التضحيات سهلة أمامه. الطوباوية مخدّر فعال لذوي الحساسية المرهفة، قال لنفسه وهو في طريقه إلى الشاطئ. الطوباوية عُصابة توضع على العينين، وأدرك أنه وضع تلك العُصابة بمحض إرادته، وراح يتحسس طريقه بذراعين ممدودتين. أما الآن فقد أصبح يرى المشهد بوضوح شديد، وأصبح بإمكانه رؤية كيف أنّ القيادة سخرت بمشاعره وتلاعبت بها. فحتى آخر لحظة في النضال، كان كلّ ما يراه آنذاك في قادته نار قلوبهم النقية وتلهفهم للقتال حتى ينعم السوريون بحياة كريمة. لكنه اكتشف الآن سذاجته لأنه لم يدرك أن الثورات تجذب أيضاً حثالة المجتمع، كما يجذب المغناطيس برادة الحديد. فقد جاؤوا لتصفية حسابات شخصية، ولم تهمهم أي قيم وضرطوا على كل المبادئ: سرقوا، قتلوا واغتصبوا.

ومع أن سلمان سخر دوماً من الروح العشائرية في صفوف منظمته *الحرية الحمراء* وانتقدها بشدة لكنه كان يقول ذلك فقط في دائرة أصدقائه الثوريين المقربين، لم يجازف في الدخول في مواجهة مفتوحة مع قادة المنظمة. صورة مأسوية توضحت أبعادها له الآن. الناس يخافون النظام الديكتاتوري، والثوار يرتجفون خوفاً أمام قادتهم، فلاذوا بالصمت. لقد أظهر المناضلون الذين جازفوا بحياتهم بشجاعة منقطعة النظير في سبيل الثورة، جبناً لأنهم لم يعبّروا عن استيائهم من قادتهم وينتقدوا أخطاء واضحة للكل.

لم يخطر ببال سلمان ورفاقه قط أنّهم كانوا مكلفين بمهمّة واحدة فقط - وهي إقامة نظام جديد ليحلّ مكان النظام القديم وجلب قادة جدد لا ليحرروا الإنسان بل ليحكموا رعاياهم.

إميليا على صواب... فلم ير سلمان الأشياء بهذا الوضوح من قبل.

عالية، الطبيبة العاشقة

على شاطئ البحر في بيروت، أخذ يهزّ رأسه ويقول لنفسه كم كنت أحمق عندما شاركت في القتال في الجبال في شمال سوريا. أحمل بندقية كلاشينكوف ومسدس بيريتا قديم صُنع سنة ١٩٥٥. وراح يصرخ بيأس تجاه البحر: «لقد انتهيت، انتهيت يا ناس!»، حتى هدّأ نسيم عليل من حدّة غضبه. وفي الليل، أصيب بحمّى وتقيّأ كثيراً. ثم وجدته إميليا مستلقياً على أرضيّة الحمّام.

طوال ثلاثة أيام متواصلة، كانت تعتريه رجفة وآلام شديدة في أطرافه. وظلّ يتقيّأ سائلاً مرّاً مخاطياً أصفر يخرج من معدته الفارغة. ولم يعد قادراً على الوقوف بسهولة. وأحاطته العمّة إميليا برعايتها طوال الوقت. وعندما لم تنخفض درجة حرارته في اليوم الثالث، على الرغم من استخدامها كلّ أنواع الأعشاب والكمّادات الباردة، استدعت عالية، الطبيبة الشابّة التي تقيم في الطابق المجاور. ومع أن سلمان كان يشعر بدوار شديد خلال زيارتها الأولى، أجاب عن جميع أسئلتها، ونفّذ تعليماتها بقدر المستطاع. بعد فترة طويلة، كان كلّ ما تذكّره عن تلك الأيام وجه عمّته الشاحب ورائحة زهر الليمون التي رافقت الطبيبة والتي ظلّت عابقة في الغرفة حتى بعد أن غادرتها. وبعد سنوات، أرسلت له عمّته رسالة إلى ألمانيا قالت فيها إنها لم تقلق في حياتها كلّها كما قلقت عليه آنذاك. وأرجعت الأعراض التي انتابته إلى سموم الكذب على النفس والرضاء بالظلم التي تجرّعها لفترة طويلة، وقالت لقد حدث لها الشي نفسه عندما قرّرت أن تبتعد عن عشيرتها وعائلتها.

زرقته الطبيبة حقنة وأعطته بضعة أقراص، نام بعمق. عندما استيقظ، كان السكون يخيّم على الشقّة. نهض، وغسل وجهه بالماء

البارد، ثم جففه بمنشفة خشنة، ونظر في المرآة. حدق به من المرآة شخص بائس ومرهق.

غفا مرة أخرى وأيقظه حلم مرعب محموم مرة ثانية، بدا له ماضيه كأنه مدَّعٍ عام يهاجمه بتهم في محكمة وكانت التهم محقة ومؤلمة. فلم تبرح ذاكرته صورة الشرطي الذي أصيب بجروح بليغة.

كان الشرطي رجلاً ودوداً، بسيطاً. ولكن سوء حظه أرسله في الوقت غير المناسب مع زملائه الأربعة إلى مخفر الشرطة في تلك المنطقة الجبلية التي لا تبعد كثيراً عن مدينة حلب. كانت أجهزة المخابرات قد أسرت خمسة من رفاقه المقاتلين من منظمة «الحرية الحمراء» بعد أن شنّوا عليهم هجوماً مفاجئاً. وكان من بين الذين أُسروا، هاني خوري، رفيق سلمان في السلاح. وهاني هذا انتمى إلى أسرة دمشقية مسيحية. ورغم سكنه في بيت غير بعيد عن بيت سلمان، إلا أنهما لم يلتقيا إلّا خلال المعارك في الجبال. كان هاني شاباً هادئاً، متواضعاً، وهو الخبير الفني المسؤول عن جهاز اللاسلكي، وخبير المتفجرات في مجموعتهم، وكانا قد أقسما على ألّا يترك أحدهما الآخر.

في طريقهم إلى مخفر الشرطة، قُيد السجناء بالأصفاد وضُربوا ضرباً مبرحاً كالحيوانات. كاد قلب سلمان يتحطّم عندما رأى هاني. وكان قائد مجموعة المخابرات قد اتصل بقيادته في حلب وطلب إرسال تعزيزات وعربة لنقل السجناء، وغادر المخفر ليواصل مطاردة المقاتلين الآخرين في الأحراش القريبة.

لم يعلم عناصر المخابرات أو أفراد الشرطة الخمسة في المخفر أنّ المجموعة التي يقودها سلمان كمنت في المبنى المهجور قبالة مخفر الشرطة. وعندما انطلقت سيارات اللاند روفر البيضاء الثلاث التي تقلّ أفراد المخابرات، مخلّفة وراءها سحابة من الغبار،

هاجمت المجموعة المخفر. لم يكن رجال الشرطة الخمسة مسلّحين بشكل جيد، وكانوا متقدمين في العمر وعلى عتبة التقاعد. فاقتحم سلمان المخفر أولاً، وعلى الرغم من خبرته في القتال، فقد كان متوتراً جداً لأنه توقع أن أحد أفراد المخابرات قد بقي في المخفر. خائفين حتى الموت، رفع أربعة من رجال الشرطة أيديهم واستسلموا، أما الشرطي الخامس فقد حرّك يده بطريقة أخافت سلمان فأطلق عليه النار وأصابه في بطنه بجرح بليغ. صاح رجال الشرطة الأربعة الآخرون يستجدونه الرحمة. ونظر الشرطي المصاب إلى سلمان بعينين متوسلتين، نظرة لم ينسها لسنوات عديدة.

قيّد سلمان مع رفاقه رجال الشرطة الأربعة، ثم طلب سيارة إسعاف، وأخبرهم اسم المخفر، وحثّهم على إرسال طائرة مروحية بسرعة مع طبيب جيد لمعالجة ضابط كبير أصيب بجروح خطيرة. فأومأ الشرطي الجريح شاكراً وحاول أن يبتسم له. ثمّ قطع سلمان أسلاك الهاتف وهرب مع رفاقه. وبعد قليل، هبطت طائرة مروحية في ساحة القرية.

لم يعرف سلمان شيئاً عن مصير الشرطي. وفقد الاتصال أيضاً بصديقه هاني عندما أُرسلت مفرزة كبيرة من الجيش لتمشيط المناطق الجبلية شمال غرب مدينة حلب، وأضرموا النار في القرى المجاورة وطاردوا المقاتلين بضراوة. وهكذا تفرّق أفراد مجموعته وتشتتوا في أرجاء البلد. وأصبح سلمان ورفاقه هدفاً لمطاردة عنيفة.

بين نوبات الحمّى تلك، عادت إلى ذاكرته تفاصيل تلك الأحداث، لكنّه لم يذكرها لأحد. وبدأت عالية، الطبيبة، تأتي لزيارته كلّ يوم، وشيئاً فشيئاً، بدأ يتماثل للشفاء.

لم يكن سلمان الشخص الوحيد الذي لاحظ أنّ عالية مغرمة به، وإنما العمّة إميليا أيضاً. كانت عالية متزوّجة وعندها طفلان يدرسان

في مدرسة داخلية لأنه لا يوجد لدى والديهما وقت كافٍ يمضيانه معهما. وعانى سلمان في تلك المرحلة من الجرح الذي خلّفته صديقته لمياء عندما انفصلت عنه.

كانت لمياء فتاة مسالمة، تفضّل الاستماع إلى الموسيقى والاعتناء بالزهور في حديقة بيت والديها على أن تتحدّث عن فيتنام أو كوبا أو عن فلسطين. وأحبّت سلمان وأرادت أن تعيش معه حياة سعيدة، بسيطة. لذلك كانت تلحّ عليه طوال الوقت أن يبتعد عن أولئك «الفاشلين» كما سمّت الثوار وجميع المتطرفين. وعندما ذهب سلمان إلى معسكر التدريب في جنوب لبنان، أدارت لمياء ظهرها له إلى الأبد، وكتبت له رسالة وداع شديدة اللهجة، ولعنته لأنه حطم قلبها، ونعتته بأنه إرهابي مجنون. وبعد فترة قصيرة، تزوّجت ولم يعد يراها. ومنذ ذلك الحين - قبل ثلاث سنوات من هروبه إلى بيروت - كانت علاقاته بالنساء تنحصر على شكل أخوي مع رفيقات العمل السياسي أو جنسي عابر مع امرأتين متزوجتين التقى بكلتيهما بالصدفة ولم تدم علاقته بأيّ واحدة منهما أكثر من بضعة أشهر. لذلك، لم ير صعوبة في إقامة علاقة مع عالية من دون أن يحمل تجاهها أيّ مشاعر.

لسنوات، ستظل رائحة زهر الليمون تعيد إلى ذاكرته أول مرة ضاجع فيها عالية. ففي ذلك اليوم، جلست على طرف سريره. كان سلمان مستلقياً على السرير مرتدياً بيجامته الصيفية البيضاء. انحنت فوقه وقبّلته على شفتيه، ثم نهضت وأسدلت الستائر، وخلعت ثيابها ببطء شديد، كما لو أنها تؤدي رقصة. بدت امرأة مختلفة تماماً في الغرفة الخافتة الضوء، بشفتيها الشهوانيتين، وعينيها الواسعتين، وجسدها المثير. وبحركة بطيئة، خلعت سروالها الداخلي وجاءت إليه عارية. رائحتها أسرت أحاسيسه ولاحظ أنه أصبح في حالة

انتعاظ شديد. حاول أن يؤخّر اللحظة الحاسمة بصرف انتباهه عنها وبدأ يفكّر بمناورة معقّدة في لعبة الشطرنج. لسعت أنفاسها الحارة جلده. اعتدل في جلسته ليبتعد عنها، لكنّها أمسكته من كتفيه بقوة وثبّتته على السرير. لعقت فمه، وعندما انفرجت شفتاه، مصّت لسانه. كان طعم فمها حلواً تفوح منه رائحة عرق السوس.

نزعت بيجامته، وانزلقت شفتاها فوق حنجرته وصدره، وعندما لعقت سرته، كاد ينفجر من الشهوة. أمسك كتفيها وألقاها على ظهرها. حدّق في عينيها ورأى فيهما تعابير جديدة، لم يرها من قبل.

«تعال»، همست، وشدّته فوقها. كانت تلك ذروته التي فشل في كبحها. ساوره إحساس بالخجل، لكنها هدأته عندما مارست الحبّ معه للمرة الثانية.

في بيروت، عاد سلمان إلى القراءة ليستعيد نفسه ويفهم حقيقة ما جرى. وفي بيروت، أصبح بإمكانه الحصول على كتب باللغتين الفرنسية والعربية. فقرأ رواية «دمعة في *المحيط*» لمانيس سبيربر، وأحسّ بأنّه شقيق بطل الرواية، دوجنو فايبر، وقرأ روايتيْ جورج أورويل، «١٩٨٤» و«*مزرعة الحيوان*» اللتين أكدتا كلّ ما قالته له إميليا. كان محطّماً. فقد مات ملايين البشر حتى يتبوأ ديكتاتور مختل عقلياً مثل ستالين السلطة.

لم تعد إميليا تناقشه في ماضيه. كانت تعيش حياة مليئة بالنشاط، ولديها صديقات كثيرات. وإذا مكثت في البيت ولم تتلفن لساعات أو تتحدث معه كانت تقرأ روايات بوليسية بالإنكليزية. وحتى بعد أن تماثل للشفاء، ظلّت عالية تزوره كلّ يوم. وعندما تأتي عالية، كانت إميليا تتذرّع وابتسامة ثعلبية على وجهها بأن لديها عملاً هاماً في المدينة وتغادر البيت. وتمتع سلمان كثيراً بالأوقات التي

يمضيها مع عالية، معلّمته الأولى في الجنس الجميل التي استكشف معها فضاءات واسعة من التخيّلات والعوالم الجنسية. فقد تعلّم أنّ المداعبة اختراع يولد من عقل المرء، لا من غرائزه. «تيس مثل زوجي لا يعرف شيئاً عن كلّ ذلك»، قالت له، «فهو يركبني كما لو كنت عنزة، ورائحة عرقه تثير قرفي. وما إن ينتهي بعد أربع دقائق ونصف حتى ينزل من فوقي ويعلو شخيره في غرفة نومه. ومع أنني أستحمّ باستمرار، فإن رائحته النتنة تظل عالقة بي لمدة طويلة».

وهي التي علمته كأول امرأة أن الكلمات تشكل جزءاً هاماً من ممارسة الحب. ففي الماضي كان يبقى صامتاً عندما يمارس الجنس مع أي امرأة أو يردّد كالببغاء عبارات مثل، «أنتِ جميلة... أحبّك... إنك تمتعينني». أما عالية، فكانت تزيّن حتى أصغر حركة أو أرقّ لمسة بكلمات إيروتيكية شاعرية، تلقائية ورقيقة من دون افتعال أو ابتذال. لم يسمع سلمان شيئاً من هذا القبيل قبل مغامرته مع عالية.

كان زوج عالية يشغل آنذاك منصب مدير مطار بيروت. كان هذا كلّ ما يعرفه سلمان عنه، أما هو فلم يذكر لعالية شيئاً عن هويته الحقيقية أو عن ماضيه. فعالية امرأة فضولية، تطرح أسئلة كثيرة، لذلك ازداد تحفظاً وصمتاً معها.

أما عالية، فكانت تتكلّم عن نفسها بصراحة، وقالت له إن أكبر مشكلة تعانيها في حياتها أن المظاهر الخارجية تخدعها. فعندما كانت طالبة في كلية الطبّ، بهرتها السيارة الرياضية التي قادها الرجل الذي أصبح فيما بعد زوجها، وأسلوب حياته المترفة، بينما تعيش الآن وقد حزمت حقائبها لترحل في أي لحظة. «لولا الأطفال، لتركته منذ زمن».

كانت بيروت مليئة بالصخب ومفعمة بالروائح، وقد أزال الصيف المبكّر طبقات الملابس الشتوية عن أجساد سكان المدينة الذين جابوا الشوارع بحيوية وبهجة، أو جلسوا في المقاهي والحانات، يرقصون ويضحكون، يغنّون ويشربون. في ذلك الوقت، لم يكن العالم العربي قد سمع بالهيبيز، أما اللبنانيون فكانت لديهم كلّ تلك الألوان وخلقوا منها جمالاً وبهاء خاصاً بهم. ولم يكن لدى الهيبيز شيء يعلّموه للبنانيين عن أسلوب الحياة المريحة، لأنهم كانوا سادته منذ قرون.

مرّت كلّ تلك الحياة الصاخبة أمام سلمان مثل شريط فيلم طويل. ولأول مرة في حياته، لم تعد لديه محرّمات تمنعه من التساؤل عن ماضيه. وفي بعض الأحيان، كان ينتابه دوار عندما تلوح أمامه صخرة الحقيقة أو تبدو له هوّة لا قرار لها من الأكاذيب.

بدأ يجلس كلّ يوم لفترات طويلة على شاطئ البحر يكلّم نفسه، بصوت غير مسموع أو بصوت مرتفع، قبل أن يعود مرهقاً إلى البيت. في تلك الفترة، لم يفهم الحياة بصورة أفضل فحسب، وإنما بدأ يفهم نفسه على نحو أفضل أيضاً. وكان أول شيء اكتشفه أن الحياة السياسية لا تلائمه، لا لأنه شخص لا يهتم بالسياسة، وإنما لأنه لم يُخلق للعمل في الأحزاب السياسية. وصار يدوّن في كلّ ليلة الأفكار التي يتوصل إليها في دفتر صغير، قبل أن يخلد إلى النوم.

بعد عدة أسابيع، بدأ يشارك في الحياة الليلية الصاخبة من حوله. وفي إحدى جولاته الليلية تلك، رأى عالية مع زوجها وهما خارجان من إحدى الحانات في شارع الجميزة. لم يكن زوج عالية بشعاً كما كانت تصوّره له، وكانا يتصرّفان كعاشقين، يقبّل أحدهما الآخر في وسط الشارع، ثم استقلّا سيارتهما البورش، وغادرا.

عندما جاءت عالية في اليوم التالي لتزوره، وبدأت تتحدّث

بالسوء عن زوجها، شعر باحتقار شديد نحوها، لكنه لم يظهر لها ذلك. فلم يُغرم بامرأة جنسياً كما أُغرم بها. ولم يعرف السبب الذي جعله يجد معها كلّ تلك المتعة الجسدية، رغم مشاعره بالاحتقار نحوها. وسيزداد ذلك غموضاً عندما لم يعد قادراً على تذكّر شكل وجه عالية، عندما أصبح في منفاه، مهما حاول.

أقام في بيروت ثلاثة أشهر، حتى تمكّن والداه من الحصول على جواز سفر رسمي له بعد أن دفعا رشوة كبيرة. مزوداً بجواز السفر هذا وبشهادة الدراسة الثانوية، أصبح بإمكانه مراسلة بعض الجامعات في أوروبا. لم يراسل الجامعات الأمريكية لأنه كان يرى أن أمريكا بعيدة جداً، وستجعل ذهابه إليها من دون رجعة. فقد كان سلمان متيقناً من أنه سيعود إلى سوريا بعد سقوط النظام الديكتاتوري، وكان على يقين بأن هذا النظام لن يستمر أكثر من أربع سنوات. وعندما استقرّ به المقام في روما، أدرك أنه أخطأ في حساباته بصفر لا قيمة له يجعل من الأربعة أربعين.

أرسل طلبات كثيرة إلى جامعات بدءاً من فنلندا وحتى إسبانيا. وبما أنه كان يتقن الفرنسية، فقد كان يأمل في أن يُقبل في إحدى الجامعات الفرنسية العديدة في باريس وليون ومارسيليا، وليل وأفينيون وبوردو. لكن الفرنسيين رفضوا طلبه. ومع أن المسؤول في السفارة الفرنسية في بيروت أبدى إعجابه بلغته الفرنسية والدرجات التي حصل عليها في الشهادة الثانوية، فقد نظر إليه بارتياب وسأله قبل أن يغادر، «لكن لماذا لا تتقدّم بطلب من دمشق مباشرة؟ أرجو ألّا تكون لديك مشاكل هناك؟» ففهم سلمان فحوى السؤال المبطن بلغة دبلوماسية والذي عناه هو: «ماذا فعلت هناك؟» فاختلق جواباً لم يقنع المسؤول الذي لاحت على وجهه ابتسامة باهتة وصافح سلمان مودعاً بيد مرخية مبللة بالعرق.

ثم تلقى سلمان قبولاً من جامعتين في الوقت نفسه - مقعد لدراسة البيولوجيا في ستوكهولم، والآخر لدراسة الفلسفة في هايدلبرغ. ومع أنه أحبّ الفلسفة لكنها لم تكن الموضوع الرئيسي الذي يهدف إلى دراسته، فقد اختار المدينة الألمانية الرومانسية الواقعة على ضفاف نهر نيكار، لأنها تقع في الجنوب ولأنها أكثر قرباً إلى فرنسا.

في تلك السنة، أذاقه شهر تموز شيئاً من طعم جهنم الحارقة. فقد اشتعلت السماء وهرب الماء وراح يبحث عن ملاذ في أعماق الأرض. وفي الليل، بدأ الناس يملأون القدور والمقالي والطاسات والدلاء بالماء لأن إمداد المياه بدأ ينقطع عدّة مرات في اليوم. فإذا فتح المرء صنبور الماء، سمع صوت صفير وقرقرة وهمسات منبعثة من بعيد.

الوداع

في صباح يوم حار شديد الرطوبة في منتصف شهر تموز، حصل سلمان على تأشيرة سفر إلى ألمانيا من دون صعوبات. عندما أنهى الإجراءات في السفارة الألمانية توجه مباشرة إلى شاطئ البحر وجلس قليلاً في أحد المقاهي، ليستمتع بآخر مرحلة من مراحل انتصاره على الموت. ثم تناول طبقاً لذيذاً من السمك مع كأس من النبيذ الأبيض البارد في مطعم قريب من البحر، ونفح النادل اللطيف إكرامية سخية ظنّ النادل بعدها أنه سعودي غني. وعندما عاد إلى بيت عمّته إميليا في المساء، يترنح في مشيته قليلاً، رأى رسالة تركتها له. فقد قررت العمّة إميليا فجأة أن تسافر بالعبّارة إلى قبرص مع صديقاتها، في سياحة تتعرّف عبرها على الجزيرة. وكانت قد ملأت

الثلاجة بكميات كبيرة من الطعام اللذيذ، كما لو أن سلمان وصل لتوه من الصحراء بعد جوع رهيب.

بعد أن ذهب أبناؤها لقضاء إجازة في بيت جدّهما في الجبل، بدأت عالية تأتي لزيارته كلّ يوم. كانا يطهيان معاً، ويمضيان غالباً معظم النهار في السرير. علّمته عالية فن الطهي العربي أيضاً. فإلى جانب موهبتها في الطهي، كانت عالية مدرّبة صبورة ماهرة أيضاً.

عندما أخبرها سلمان بأنّه سيسافر قريباً، ذرفت دموعاً كثيرة. قالت له إنه حبّها الحقيقي الأول، وإنها تعاني كثيراً مع زوجها ولم تكن تعرف معنى الرقة قبل أن تلتقي بسلمان. عندما قال لها إنه قُبل لدراسة الطبّ في باريس، لمعت عيناها ببهجة، وقالت: «في هذه الحالة يمكنني أن أزورك من حين لآخر لأنني أذهب إلى باريس مرة في السنة على الأقل»، وتركها تظنّ ذلك.

بعد سنوات، ظلّ سلمان يتساءل لماذا تعمّد أن يكذب عليها. لعله أراد تطييب خاطرها ليوقف سيل الدموع المنهمر من عينيها حتى لا يفسد ما تبقى من سهرتهما. لكنه رجّح في النهاية أنه أراد بهذه الكذبة، أن ينهي علاقته بها تماماً، لأن شعور الاحتقار الشديد نحوها لازمه، كلّما تذكّر مشهد طيرَي الحبّ: هي وزوجها.

قبل سفره إلى ألمانيا بأسبوعين، قرّر هو والعمّة إميليا ألّا تأتي أمّه إلى بيروت لتوديعه، لأنها كانت تصرّ على المجيء. فقد أصبح الجميع يعرفون من الصحف اليومية أن أفراد المخابرات السورية يدخلون إلى لبنان ويخرجون منه بحرية تامة، ويتتبعون خطوات أقرباء الهاربين ليعرفوا الأماكن التي يختبئ فيها معارضوهم. فأرسلت إميليا مغلفاً إلى أمّ سلمان من دون عنوان المرسل، وضعت فيه قصاصات من الصحف عن ثلاث ضحايا للنظام السوري. ففهمت صوفيا فحوى

الرسالة ولم تغادر دمشق. ولم يدر سلمان أن والده قرأ هذه الصحف منذ زمن ونصح زوجته بألّا تسافر إلى بيروت. لكنها لم تستمع إليه. واتخذ أبوه ترتيبات بأن يحصل سلمان على ثمانمئة مارك ألماني شهرياً بواسطة مصرف لبناني. كان ذلك مبلغاً كبيراً في بداية سبعينات القرن العشرين.

أحبّ سلمان خلال إقامته في بيروت الحانات القريبة من الميناء المزدانة بديكورات بسيطة التي يرتادها عادة عمّال الميناء وصيادو السمك، وقلما كان السيّاح يرتادونها. في إحدى تلك الحانات المكتظة، رأى سلمان كرسياً فارغاً بجانب طاولة صغيرة يجلس إليها صيّاد مسنّ يرتدي ثياباً مهلهلة، مليئة بالرقع. عندما سأله سلمان إن كان الكرسي شاغراً، ضحك الرجل، وأجابه بخبث: «فارغ نعم، لكن ثمن الجلوس عليه كأس عرق». فجلس سلمان وطلب قدحيْ عرق، ثم قدحين آخرين. وعندما عرف الصيّاد العجوز أنّ سلمان سيغادر البلد بعد أسبوع، قال له ناصحاً إن من يريد أن يهاجر يحتاج إلى مقصّ حادّ ليقطع كلّ صلاته ببلده القديم. وقال له شيئاً لم يفهمه سلمان إلّا بعد أربعين عاماً، «عندما تذهب، لا ترجع، لأنك تأخذ فضاءك معك. وإذا عدت لن يحبّك الناس لأنك تأتي من ماضيهم، وسينظر كثيرون إليك على أنك شاهد غير مرحب به جئت لمحاكمتهم». لم ينس سلمان هذا الرجل العجوز طوال حياته. كان فيلسوفاً نحيلاً لوّحت الشمس جلده طوال عمره، ولم يبق من جسده بعد العراك الطويل مع الحياة سوى جلد وعظم. بدا وكأن الموت قد نسيه.

قبل يوم من سفر سلمان بالطائرة، أراد أن يودّع بيروت والحياة التي عاشها حتى تلك اللحظة للمرة الأخيرة. ففي عصر ذلك اليوم،

جلس على شاطئ البحر بجانبه قنينة نبيذ أحمر، في نفس المكان الذي راح يصرخ فيه يائساً منذ فترة تجاه هدير الأمواج. وراح يشرب ببطء ليتذوّق طعم كلّ قطرة من النبيذ. رفرف البحر بسترته الزرقاء بغنج، بينما كانت الأمواج تداعب الرمل الناعم.

غمر قلب سلمان شعور بالوجل. راح يهمس لنفسه كما لو كان واقفاً أمام مذبح الكنيسة. وكان بعض المارة يرمقونه بنظرة مليئة بالرثاء، كما لو أنهم يرون شخصاً هجرته زوجته، أو طُرد من عمله. «إنه سكران»، قالت فتاة صغيرة شقراء، وهي تضغط على يد أمّها بقوة، وعجلت خطاها مذعورة.

وجد سلمان صعوبة في توديع عمّته إميليا التي تعلّقت به كما لو كان ابنها. ووعدها بألّا يتوقف عن الكتابة إليها، وطلب منها ألّا تخبر أحداً بعنوانه في ألمانيا، فابتسمت إميليا واغرورقت عيناها بالدموع، وقالت: «أهم من كلّ شيء، لن أخبر عالية. سأقول لها إنك نسيتنا. نعم، لأن النسيان خبز المهاجرين، لكن يا ويلك إذا نسيتني»، ثم ضحكت وفركت أذنه برفق.

رفع سلمان يده اليمنى وأقسم أنه لن ينسى أبداً 'ملاكه الحارس إميليا' وأوفى بوعده، ولم يتوقف عن كتابة رسائل صريحة وأحياناً رسائل مفعمة بالأشواق إليها، حتى توفيت.

في المطار، حبست إميليا دموعها، حتى بدأ سلمان يبكي. «إنك أمّي الثانية» قال لها، «وإن ما قلتِه لي في نصف ساعة عن الثورة غيّرني أكثر مما غيّرتني الكتب والأهل والكنيسة والمدرسة مجتمعين. عمّتي إميليا، سأظل طوال عمري ممتناً لك».

«افعل ذلك، لكن لا تناديني 'عمّتي' بعد الآن. فخلال الأشهر

الثلاثة التي أمضيتها معي، عرفت لأول مرة في حياتي أنني أستطيع أن أحبّ الأطفال من دون أن أملكهم، كما قال جبران خليل جبران. هذه هي هديتك العظيمة، وأشكرك عليها. ومن الآن فصاعداً، فأنا إميليا بالنسبة لك»، ودسّت علبة صغيرة في يده، وقالت: «لا تفتحها إلّا بعد أن تصعد إلى الطائرة». قبّلته ولامست وجهه مودعة. ظلت واقفة في مكانها، عندما اتجه سلمان إلى نقطة تفتيش الجوازات عند المدخل مع ركّاب طائرة اللوفتهانزا الآخرين. التفت ولوّح لها بيده، لكن العمّة إميليا كانت قد ذهبت.

عندما صعد إلى الطائرة، فتح العلبة الصغيرة، وأصيب بدهشة. فقد وجد فيها خمسة آلاف دولار ورسالة قصيرة. «استخدم هذا المبلغ إذا بخل عليك أبوك. إن النساء يحببن الرجل الكريم». كان هذا كلّ ما كتبته على الورقة الصغيرة.

لم تبارح هذه الفترة التي أمضاها سلمان في لبنان ذاكرته باعتبارها أكثر الأوقات توتراً وغزارة في حياته. فمع أنها لم تتجاوز أشهراً معدودة، فقد توسعت وشغلت حيزاً في ذاكرته أكبر من الحيّز الذي شغلته الأربعون سنة التي أمضاها في أوروبا. وفي وقت لاحق بعد عودته إلى دمشق سيعيش تجربة أخرى - سيناريو مؤلم فظيع يشبه الأبدية - وستمتد ذكراها حتى آخر نفس في حياته.

الزمن قبل صوفيا

التربية هي منظومة دفاع البالغين ضد الشبيبة

مارك توين

حمص، ١٩٢٧-١٩٥٠

سلطة الذاكرة كبيرة وغامضة. . . لفترة طويلة هيمنت الأحداث التي مرّت على كريم خلال السنوات التي أمضاها في دمشق لفترة طويلة على السنوات العشرين أو الثلاثين الأولى من حياته. فقد بدت له السنوات الأولى تلك تسبح في ضباب من البراءة. ففي كانون الأول ٢٠١٠، عادت إليه ذكريات الطفولة والمراهقة، أما السنوات اللاحقة فقد لاذت في ثنايا دماغه البعيدة. زائرة ووعد أعطاه فيما مضى أعاداه إلى تلك البدايات، يتذكّرها ويعيد حكايتها. لم تفاجأ عايدة، أهمّ مستمعة له، مما سمعته فقط، وإنما كان مدهوشاً هو أيضاً من الأحداث والتجارب التي صادفها في حياته. وأدرك إلى أي مدى أثّر فيه حدث واحد طوال تلك السنوات، وجعله يصبح الشخص الذي أصبح عليه.

كان كريم الابن البكر لسبعة أبناء في عائلة أسمر الغنية التي تنتمي إلى عشيرة مسلمة سنيّة قويّة. وامتلك والده، تاجر الأخشاب الغني، أراضي واسعة على أطراف مدينة حمص، يؤجّرها لفترات

محددة لزراعتها بالخضراوات وبيعها. وعندما افتُتح معمل السكّر عام ١٩٤٨، توقف عن تأجير أراضيه وبدأ يديرها بنفسه. وأصبح وكيله يشرف على زراعة الشمندر السكري، سنة بعد سنة. وكان معمل السكّر الجديد يشتري محصوله بالكامل. ولم ير أحد من أبنائه مزرعته الكبيرة خارج أبواب المدينة التي شكّلت المورد الرئيسي لوالد كريم الذي ظلّ من أبناء المدينة ولم يكن ينظر إلى الزراعة إلّا كمورد مالي ممتاز. درس والد كريم في شبابه الفلسفة، ودرّس لفترة قصيرة في مدرسة ثانوية في مدينة حمص. وأصبحت تجارة الأخشاب، التي زاولها بشكل ثانوي خلال دراسته الجامعية، تدرّ عليه أرباحاً كبيرة، وتطورت لتصبح عمله الرئيسي. كان معجباً جداً بفرنسا وبفلاسفة عصر التنوير الفرنسيين. كانت فرنسا آنذاك سلطة الاحتلال في الجزائر وتونس ولبنان وسوريا، وكان والد كريم يأمل في أن يحوّل الفرنسيون سوريا إلى جمهورية ديمقراطية ليبرالية. لكن مدينته حمص، ثارت ضدّ المحتلين الفرنسيين، وحمل الكثير من أقربائه السلاح ضدهم، واعتبروه خانعاً خائناً. وبعد الاستقلال، أصبح عدد منهم سياسيين وطنيين معروفين.

لكن والد كريم لم يأبه بشتائم ورأي أقربائه، وأرسل أبناءه الثلاثة الأكبر سنّاً - كريم وصالحة وإسماعيل - إلى مدرسة مسيحية خاصة لأبناء الذوات، إلى أن هربت ابنته صالحة مع شاب مسيحي سنة ١٩٥٠، بعد سنة من تخرجها من المدرسة. فشكّل ذلك صدمة كبيرة لأبيهم وبدأ أبناء عشيرته الريفية المحافظة يسخرون منه ويقولون إن ذلك حدث لأنه أرسل أبناءه إلى مدارس الكفّار، وقال آخرون إنه عقاب إلهي لأنه خان بلده بحبّه وميله للفرنسيين.

كان كريم في ذلك الوقت قد أنهى المرحلة الثانوية، ولم يتأثر سلباً بتغير موقف أبيه كما حصل مع إخوته. فقد أخرج أبوه على

الفور ابنه إسماعيل، شقيق كريم الأصغر، من المدرسة المسيحية، وسجّله في مدرسة إسلامية، وفعل الشيء نفسه مع شقيقيه الأصغر. وأخرج ابنته الثانية، فاطمة، التي كانت في سنتها الأخيرة في المدرسة الابتدائية أيضاً، وقال إنّ الشيخ كان محقّاً - فالتعلّم في المدرسة وقراءة الكتب يهدّمان عقول الفتيات المسلمات.

منذ ذلك الحين، غابت الضحكات عن بيت عائلة أسمر. وتذكّر كريم حزن أمّه ودموعها، وكيف كان أبوه يعذّبها، ويوبخها لأنها ربّت بناتها وأبناءها بلين وتراخ. وبالغ أقاربه في قلقهم على سمعة العشيرة. وقبع كلّ ذلك ثقيلاً كالرصاص على كاهل الأسرة، فأصبح كريم يلجأ إلى أصدقائه والمقاهي، كلما استطاع ذلك، ولا يعود إلى البيت إلّا بعد أن يصبح منهكاً.

منذ هروب ابنته صالحة، بدأ والد كريم يكره المسيحيين، وبدأ يصلّي في المسجد كل يوم، وأرخى لحيته وأرغم أمّه وأخته الصغيرة على ارتداء الحجاب. أما هو فظلّ يرتدي بدلات على الطريقة الأوروبية لكنه لم يضع ربطة عنق. ومع أن ربطة العنق جاءت أصلاً من كرواتيا، فقد بدأ الواعظون المحافظون يعتبرون ذلك رمزاً يعبّر عن كلّ شيء يمتّ إلى الغرب. لكن كريم أيقن أنّ تديّن والده كان مجرد ادّعاء منافق، وأنه كان يلوّن تلك العلامة البنيّة البشعة على جبينه بنفسه التي تسمى «زبيبة الصلاة»، وأنها لم تكن تظهر لأنه يضغط جبهته على الأرض الصلبة مرات عديدة أثناء الصلاة، وهذا كذب يمارسه كثيرون. ففي صباح كلّ يوم، بدأ أبوه يلوّن هذه البقعة على جبينه باستخدام عصير قشرة الجوز غير الناضج الخضراء، ثم بدأ يستخدم مستحضرات أوروبية لجعل البقعة على جبينه سمراء داكنة. لم يكن يمارس هذه العادة المزرية إلّا الرجال، فعلى الرغم من أن أمّ كريم وأخواته وعمّاته وجاراته كنّ يصلين أكثر مما يصلّي

أبوه، فلم يضعن هذه العلامة التجميلية، ولم يرَ كريم قط امرأة تظهر على جبينها زبيبة الصلاة هذه.

لكن كلّ هذه الشعائر، أو حتى إظهار التقوى الحقيقية، لم تكف لإرضاء العشيرة. وفي أحد الأيام، أعلن والد كريم في وسط تصفيق وتهليل أبناء العشيرة أن باله لن يهدأ إلّا بعد أن يغسل عاره بدم ابنته صالحة. وبعد صلاة الجمعة، أعلن بزهو أنه كلّف ابنه البكر كريم بتنفيذ الحكم الذي أصدرته محكمة شرف العشيرة، المكوّنة من قاض واحد، وهو والد صالحة.

لن ينسى كريم ذلك الاجتماع ما دام حياً، عندما ضاقت غرفة الجلوس الضخمة، أو الصالون كما سماها أبوه، بالأقرباء والأصدقاء، حيث تربّع في صدر الصالة إمام الجامع الكبير، وضابطان كبيران في الجيش، وقائد شرطة مدينة حمص، كأنهم جاؤوا لحضور مناسبة عيد أو زفاف بالإضافة إلى أكثر من عشرة أشخاص وقفوا في الدهليز، يحتسون جميعاً الشاي ويتناولون الحلويات.

ثم وقف والد كريم وسط حشد الوجوه المترقبة وساد الصمت لدقائق. كان كريم في غاية الحزن، لأن مسألة عائلية حزينة أصبحت فجأة مسرحية رخيصة يشارك فيها الجميع.

ألقى والد كريم خطبته الحماسية التي أعلن فيها حكم الإعدام على ابنته، وهرب الصمت عندما بلغت حماسة الأقرباء والغرباء حداً مخيفاً، فانطلقت الصيحات، ودوّى التصفيق في أرجاء البيت. وتشنج إخوة وأخوات صالحة وشحبت وجوههم من شدة حماسة الكبار الذين دعوا إلى وليمة كبيرة احتفاء بهذه المناسبة.

حدث كلّ ذلك سنة ١٩٥٠، عندما كان كريم في الثالثة والعشرين من عمره. كان قد تخرّج في المدرسة الثانوية وهو في

الثامنة عشرة، ودرس في معهد المعلمين لمدة سنتين، وعُيِّن معلّماً في مدرسة ابتدائية صغيرة على مشارف حمص.

كان هروب أخته حدثاً كبيراً في حياته، لكن قبل ذلك، حدث شيء أكثر أهمية غيّر مسار حياته إلى الأبد. فقد غرق في حبّ صبيّة مسيحية اسمها صوفيا، قبل أن يصدر أبوه حكم الإعدام على أخته ببضع سنوات.

ستيلا ووداعة اللبوة

هايدلبرغ، روما

صيف ١٩٧٠ - صيف ٢٠١٠

أكورديون الزمن

عندما عاد سلمان في صيف ٢٠١٠ بذاكرته إلى الزمن الذي أمضاه في المنفى، كاد لا يصدّق أن سنوات طويلة مضت منذ أن غادر سوريا، أو أنه مكث في هايدلبرغ عشر سنوات وفي روما ثلاثين سنة. وردد مراراً لنفسه، إن السعادة تخفّف من وطأة الزمن ولا تترك إلّا آثاراً قليلة في الذاكرة.

كان بإمكانه أن يتذكّر الأسابيع الأولى التي أمضاها في هايدلبرغ، عندما بدأ يقيم، مثل مولود جديد خرج إلى الحياة، علاقات جديدة بحرص شديد، يستمتع بطعم كلماته الأولى التي ينطقها بلغة جديدة. وبذل جهداً ليتعلّم اختزال ما يريد قوله ليناسب الكلمات التي يتقنها، لكنه على الأغلب شعر باستحالة شرح موقف ثقافي أو سياسي أو عاطفي بكلمات طفل في الصف الأول.

ومع أنّه تعلّم اللغة الألمانية بسرعة، فقد استغرق وقتاً أطول ليتعرّف على الألمان بشكل أفضل. ومع أن الحركة الطلابية كانت تعد بإجراء تغييرات هامة، فقد أخفقت وظهر من بين أنقاضها المثالية

جياع شهرة ضاعوا في خضم متاهة المؤسسات. فبعد أن يصبحوا وزراء ومديرين وصناعيين، ينسون مبادئهم الثورية، ولا يعودون يهتمون إلّا بمحافظهم ومحيط خصرهم. وكان الشيء الأكثر خطورة بالنسبة لسلمان، ظهور إرهابيين ألمان لهم صلات في البلدان العربية. فاعتُقل بعض الطلاب العرب المسالمين الذين يعرفهم، ورُحّلوا إلى بلدانهم لمجرد الشكّ في أنهم يعملون وسطاء بين هؤلاء الألمان وإرهابيي أبو نضال. فقلل سلمان من علاقاته مع الطلاب العرب إلى أدنى حدّ.

ألقى سلمان نفسه في خضم حياته الجديدة بشجاعة، وبدأ يدرس الفلسفة والتاريخ بشغف - وفي الوقت نفسه، كان يستمتع بوقته. ورأى أصدقاؤه الألمان أنه شخص ذكي ومتحدّث لبق، لكن بعض الطلاب العرب رأوه شاباً مغروراً، لا يطاق، يهتمّ بسيقان النساء ووجبات الطعام اللذيذة أكثر مما يهتمّ بقضية فلسطين.

ربما كانوا يبالغون، لكن تلك التهم احتوت على شيء من الحقيقة. وزاد حبّ سلمان للطهي فرصه إقامة علاقات مع فتيات ألمانيّات، لأن معظم الرجال - حتى الألمان منهم - كانوا، في تلك الأيام، يكرهون الاقتراب من قِدرٍ أو مقلاة.

لكن معظم أصدقائه وصديقاته لم يعرفوا شيئاً عن العذاب الذي يؤرقه. وكانوا يتساءلون أحياناً عن سبب تغيّر مزاجه المفاجئ وعدم ثقته بالآخرين. ولم يكن أحد يعرف شيئاً عن الكوابيس التي تنتابه وأنه كان يصرخ في نومه، إلّا بعض صديقاته. فمع أن سلمان هرب جسدياً، لكن روحه ظلت سجينة لمدة طويلة في سجن النظام الديكتاتوري الذي نفاه من بلده.

أحبّ سلمان دراسة الفلسفة الألمانيّة بلغتها الأصلية، وقد

ساعدته ذاكرته الجيدة كثيراً على القيام بذلك. ولأول مرة في حياته، بدأ يجد متعة في دراسة التاريخ لأنه لم يعد عليه أن يحفظ التواريخ وأسماء المعارك والحكّام عن ظهر قلب كما كان يُطلب منه في الجامعة في دمشق - وأصبح يفهم الخلفيات التاريخية التي من دونها يبقى الحاضر لغزاً مغلقاً. وفي أوقات فراغه، التهم بشغف كتب علم النفس، وكان شديد الإعجاب بكارل غوستاف يونغ وفيلهلم رايش، وأصبح يفهم بوضوح أكبر ما عاشه في بيت عائلته - فتور والده تجاهه وانعدام مشاعر الحبّ الأساسية بين أمّه وأبيه.

الحرّية وطبقات الروح

كما فعل في بيروت، بدأ يتساءل عن أشياء كثيرة عندما جاء إلى هايدلبرغ بقدر أقل من الخوف. فقرأ عن مفهوم الحرية، لكن ما عاشه وصادفه ورآه في حياته اليومية كان أهم من الكتب بكثير - أي أن يستطيع العيش بحرية، ويتحرر من الخوف الذي لازمه في دمشق كظله كلّ أيامه، وأن يصبح قادراً على أن يتكلّم علناً وبصراحة من دون أن يتلفّت حوله، وأن يقول ما ينوي أن يقوله. فعندما كان في سوريا، لم يجرؤ أن يقول بصراحة ما كان يفكّر فيه، ولم يصدّق كلّ ما قيل له، وكان يحرص دائماً على القراءة بين السطور.

ومع مرور الزمن، أصبح يرى تأثير العشيرة المدمّر على زملائه الآخرين من الطلاب العرب حتى على مسافة تتجاوز أربعة آلاف كيلومتر. فقد تعرّف على بعض الطلاب العرب في هايدلبرغ الذين أصبحوا راديكاليين إلى درجة أنهم أصبحوا من عتاة الفوضويين أو الماركسيين أو اللينينيين، وكانوا يبقون هكذا إلى أن يأتي لزيارتهم أب أو عمّ أو قريب، فيتحوّلون فجأة إلى أشخاص وديعين

كالحملان، يصلّون معهم، ويتنكّرون لصديقاتهم، وينسون بسرعة المعتقدات السياسية التي كانوا يعتنقونها. هذا التصرف الذي يصل إلى حدود انفصام الشخصية ما هو إلّا ثمرة الخنوع للعشيرة.

وأصبح يدرك أيضاً عدم قدرته على إقامة علاقة مع امرأة واحدة فقط. لم يفهم السبب الذي كان يدفعه إلى ذلك، لكنه لم يعد يفكّر في الأمر كثيراً. فما إن كانت جذوة الحبّ الأول تخبو، حتى يبدأ يرى عيوب صديقته، وينجذب إلى فتاة أخرى ويغرم بها.

حسده بعضهم لأنه شخص اجتماعي جذاب ومنفتح على كل جديد، لكن هذا الانطباع لم يطابق الواقع. فعلى الرغم من كلّ علاقاته، كان يشعر غالباً بالوحدة، خصوصاً عندما كان يشعر بكل جوارحه بأنه بحاجة إلى الأمان والطمأنينة، أو إلى أحد يثق به ويريحه.

في تلك اللحظات، كانت دمشق تشدّه إليها. وعندما كان يتوق للعودة إليها، يلقي نظرة سريعة على حقيبته الفارغة المكسوة بالغبار المركونة فوق خزانته.

مع مرور الأيام تيقّن سلمان أن معرفة وجود ضعف ما في نفسه لا يعني أنه قادر على تغييره. فأقام علاقات عاطفية عديدة إلى أن أحبّ آنا. لكن سرعان ما أدرك أنّ حبّه لها لم يكن سوى شكل من أشكال حبّ الذات الذي وجد تعبيراً له، عندما شعر بالحاجة إلى قاعدة آمنة، إلى ملاذ يقيه من رياح الوحدة الباردة.

وكان مستعجلاً دائماً - على الرغم من معرفته بأن العجلة ليست مرشداً عاقلاً. فقد تزوّجا خلال ثلاثة أشهر، وما إن حلّ سكون الحياة اليومية ورتابتها محل جذوة الحبّ الأولى المتقدة، حتى بدأ سلمان ينجذب إلى نساء أخريات. ومع أنّه لم يشأ أن يعترف بذلك،

فقد بدأت عيوب آنا تحدّق وتقفز أحياناً في وجهه. فقد كانت باردة، لا تحبّ الضيوف، ولا تحتمل أن ترى امرأة أخرى تقترب من سلمان، ولم تكن تطيق الأطفال. وكما لو أن ذلك لا يكفي، فقد أصرّت على اقتناء كلب والعيش معه في شقّة صغيرة، وكان سلمان يكره الكلاب منذ طفولته عندما عضّه كلب كبير وهو في الثامنة من عمره، ولم يكن يحتمل حتى رائحتها.

لم تكن أمّ سلمان، صوفيا، تحلم بشيء أكثر من حفيد. فعندما كانا يتحدّثان على الهاتف، قالت له ذات يوم متوسلة، «امنحني انتصاري الثاني على الموت»، فسألها سلمان مرتبكاً، «ماذا تقصدين بانتصارك الثاني على الموت؟» فقد ظنّ أن أمّه ثملة. فقالت: «نعم، يا بني، بك انتصرت على الموت، وسأظل أعيش من خلالك، وعندما تنتقل مورثاتي إلى طفلك، فإن ذلك سيكون نصراً ثانياً على عزرائيل، وسيُفقده ذلك صوابه ويغيظه حتى الموت».

ضحك سلمان الذي كان يحبّ الأطفال، لكن آنا لم تشأ أن تسمع عن هذا الموضوع شيئاً. كانت امرأة مستقلة، قوية الإرادة، وقاسية. وكان سلمان ينجذب عادة إلى النسوة الرقيقات اللاتي يتمتعن بالأنوثة، ويحتجن إلى الحماية. وبعد ثلاث سنوات من زواجهما، بدأ سلمان يقيم علاقات عاطفية، واستسلم لإغواء النساء الجذابات، وبدأت آنا تبتعد عنه.

بدأت علاقتها بسلمان تزداد فتوراً بعد أن أجهضت من دون علمه لأنها حبلت من دون رغبتها. وبعد أن أخبرته بإجهاضها، اتّهمته بأنه خدعها وحبّلها، ولم يكن هذا الاتهام عارياً من الصحة لأن سلمان ثقب بإبرة صغيرة الواقي المطاطي (الكوندوم) الذي أجبرته آنا على استعماله منذ البداية. كان الطفل بالنسبة لسلمان آخر

محاولة مستميتة لإنقاذ زواجهما. وشيئاً فشيئاً، بدآ يتباعدان - جغرافياً، وجسدياً، وروحياً - وعندما قالت له آنا في مساء أحد الأيام إنها تريد أن تطلّقه وإنّها ستذهب لتعيش في أمستردام، ظنّ أنه يوجد رجل آخر في حياتها. وعندما سألها عن ذلك، هزّت رأسها إيجاباً، وقالت له إنها تعرف منذ البداية الكثير عن علاقاته الغرامية، إن لم يكن كلّها، وإنها كانت تغض الطرف عنها، لكنها اكتشفت أن ذلك ليس إلّا كذباً على الذات، وأنها تريد أن تعيش الآن حياة صادقة.

في تلك اللحظة، بدا له الأمر مضحكاً. لم يهتم بأمر الطلاق، لكنه أدرك لاحقاً أنه طلّقها في قلبه منذ أن أجهضت طفله. لكنه بقي معها لأنه كان أجبن من أن يتخذ الخطوة الأولى بنفسه.

كانت تلك نهاية قصّتهما. واختفت آنا من هايدلبرغ ومن قلبه.

بعد أن تخرّج في الجامعة، عمل في وظائف صغيرة متعددة في هايدلبرغ. ولم تساعده شهادته الجامعية في الفلسفة كثيراً ولا معرفته بالتاريخ وعلم النفس. ولم يشأ أن يعمل في الوسط الأكاديمي ويمضي حياته في إجراء أبحاث لا يهتمّ بها أحد سوى الاختصاصيين. وكان يحلم بأن يؤلّف كتباً يقرأها عدد كبير من الناس. ثم عمل لفترة قصيرة محققاً ومحرراً في إحدى دور النشر، ثم عمل سنة أخرى كممثل لشركة نشر أخرى. في تلك الأثناء، ترجم قصائد ومسرحيّات عربية رفضها الناشرون والمنتجون المسرحيون. وكتب قصّة حبّ بطلاها شاب عربي وفتاة يهودية، قرّرا أخيراً أن ينهيا حياتهما. خيّل إليه أن روايته ستكون بمثابة تحذير من الكراهية والحرب، لكنها فشلت فشلاً ذريعاً. وعندما استفسر عن أرقام المبيعات بعد سنة، ردّ عليه الناشر بفظاظة إنه لم يُبع من

الكتاب سوى أربع وعشرين نسخة وأن بإمكانه أن يأتي ويأخذ النسخ المتبقية كهدية. فأغلق سلمان الهاتف، وقرر ألّا يكتب مرة أخرى.

أرسل سلمان طلبات كثيرة بحثاً عن عمل، لكن إيجاد عمل كان أمراً في غاية الصعوبة، لأن هايدلبرغ مدينة طلاب وسيّاح، وليست للأكاديميين الباحثين عن عمل. حتى جواز سفره الألماني الذي حصل عليه بعد سنوات لم يفده كثيراً.

كيف يصبح سوري بجواز سفر ألماني من سكان روما

تلقّى أخيراً عرضاً لوظيفة محرّر لمدة سنة في دار نشر عربية - فرنسية في باريس. وقبل أن يذهب لإجراء المقابلة بفترة قصيرة، التقى بستيلا التي أوقفته في الشارع الرئيسي في هايدلبرغ، وسألته عن مكان الزنزانة التاريخية التي كان يُحتجز فيها الطلاب المشاغبون من بداية القرن الرابع عشر وحتى أوائل القرن العشرين. قالت له ذلك باللغة الألمانية، لكن بلكنة إيطالية قوية. كانت زنزانة الاحتجاز التي ملأ الطلاب القدامى جدرانها بأقوال ورسومات عن أنفسهم أثناء احتجازهم، إحدى المعالم التي تجذب السيّاح.

ذهب سلمان معها إلى الزنزانة، ثم دعاها إلى مطعم في المدينة القديمة التي سَلِمت بكاملها أثناء الحرب العالمية الثانية. أثارت هذه الصبيّة إعجاب سلمان بخفة دمها. كانت شقراء ذات عينين زرقاوين وبشرة فاتحة جداً بالنسبة لفتاة إيطالية، ولها وجه ملائكي جميل.

وُلِدت ستيلا في مدينة تريست. وكان جدّاها لأمّها نمساويين، لكن أمّها لم تحب اللغة الألمانيّة إطلاقاً، فكانت تتكلّم بلهجة سكان تريست العامية، وعندما كانت تريد أن تبدو أنها تنتمي إلى الطبقة

الراقية، كانت تتكلّم بالإيطالية. أما والد ستيلا، فرانكو ليونِه، فهو ينحدر من روما، يعمل مديراً لفرع أحد المصارف الكبيرة في المدينة، ونصح ستيلا بأن تتعلّم اللغة الألمانية لأن الألمان شركاء رئيسيين في الأعمال التجارية مع الإيطاليين. وكانت مدينة تريست ذات الميناء التجاري الشهير جزءاً من النمسا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.

قررت ستيلا أن تبدأ بعد رحلتها الصيفية بدراسة الصيدلة في روما في تشرين الأول. كانت تحبّ دراسة الصيدلة، وتقول: «إن معرفة كيف يدخل الدواء مثلاً عن طريق الفم إلى الجسد ويبدأ بممارسة مفعوله، سواء في الأذن أم في الكلى أم في الركبة، مثير أكثر من أيّ رواية بوليسية. الروايات الخيالية حتى تلك العجائبية تبدو مثل لعبة أطفال أمام جميع المغامرات التي تحدث داخل الجسم»، واستمع سلمان بانبهار عن شغفها في دراسة الصيدلة.

قالت له إنها ستدرس في روما حيث تعيش في شقّة صغيرة يملكها أبوها، وإنها تقوم حالياً بجولة سياحية في أوروبا، وقد أهداها والداها نفقات الرحلة بمناسبة تخرّجها بعلامات ممتازة في الشهادة الثانوية. كان من المفروض أن تمكث في هايدلبرغ يومين فقط، لكنّها أحبّت سلمان كثيراً ومكثت في شقته أسبوعاً كاملاً.

أفضت إليه بعد أشهر أنها أحبّته منذ اليوم الذي رأته فيه، عندما كان يضحك بحرارة حتى يكاد يفقد أنفاسه عندما تحكي له نكات وهما يتجولان في شوارع المدينة القديمة. في تلك اللحظة بالذات، أدركت أنه الرجل الذي تريد أن تمضي معه حياتها.

لكن مشاعره نحوها لم تتضح إلّا بعد يومين.

حدث ذلك في وقت مبكّر من الصباح، عندما تسللت أشعة الشمس باستحياء من شقّ الباب قبل أن تنسكب كلّها على جسد

ستيلا العاري. كان سلمان يتأهب للخروج من الغرفة لشراء بعض الفطائر والكرواسان الطازجة. توقّف عند الباب فجأة، وراح يتأمل ستيلا مأخوذاً بجمالها. في تلك اللحظة بالذات، خاف أن يفقدها. وأدرك أنّه أحبّها.

بعد أن غادرت ستيلا بأسبوع، سافر سلمان إلى باريس لإجراء مقابلة لوظيفة محرر في دار نشر أبدى مديرها اهتماماً كبيراً بسلمان.

حُدِّد موعد المقابلة في مساء ذلك اليوم، ووصل سلمان قبل الموعد ببضع ساعات. ووجد غرفة مع إفطار في فندق صغير بجانب محطة سكة الحديد الشرقية (*Gare de l'Est*) ودفع لصاحبة الفندق اللطيفة أجر ثلاث ليال سلفاً. استحمّ، وترك حقيبته في الغرفة، وغادر الفندق وسار نحو محطة المترو.

في أعلى الدرج المؤدي إلى محطة المترو، هاجمه شخص. فقد طلب منه الشابّ الجزائري الذي كان قد ابتسم له منذ لحظات أن يعطيه محفظته. كان سلمان قد تدرّب على أساليب القتال عندما كان في صفوف المجموعة الثورية - فوجّه إليه لكمة قوية على وجهه وركله في ساقه ثم ألحق ركلته بأخرى أصابت الشاب في خصيتيه- وألقته أرضاً، فبدأ الشابّ يتوسل إليه باللغة العربية، وقال إنه يحتاج إلى نقود لمعالجة أمّه المريضة في الجزائر.

«يا ابن العاهرة»، صاح به سلمان بالعربية، وواصل طريقه هابطاً الدرج ليأخذ القطار. لم يحرّك أحد من المارة ساكناً، كما لو كان كلّ ما رأوه أمامهم عرضاً يؤديه فنانان أجنبيان في الشارع.

لم تسر المقابلة كما كان يأمل سلمان، فقد تلعثم كثيراً، وقال أشياء متناقضة، وتاه في تفاصيل قليلة الأهمية، وارتبك في ترجمة فقرة بسيطة من الألمانية إلى الفرنسية. وعندما سأله الناشر هل يتقن اللغة الألمانية كما ذكر في استمارته، كان ردّ سلمان عدائياً. ثم قال

له الناشر إنه سيبلغه بالنتيجة بعد يومين، فقرّر أن يقوم بجولة في باريس.

وكما كان متوقعاً، لم يحصل على الوظيفة. فعاد سلمان إلى هايدلبرغ وهو يلعن ذلك الشاب الذي عكّر مزاجه في ذلك اليوم وأفسد عليه المقابلة، ولعن الناشر الذي لم يمنحه فرصة ثانية، ثم لعن حظه العاثر. ثم أدرك سخافة ما يفعله، لكن هذه اللعنات جعلته يشعر براحة كبيرة.

بدأت ستيلا تتصل به بالهاتف كلّ يوم من أمستردام ومن كيل وكوبنهاغن وستوكهولم وهلسنكي. وصار سلمان ينتظر مكالماتها بفارغ الصبر بجانب الهاتف في الساعة السابعة مساء. وبدأ يشعر بالاشتياق إلى هذه المرأة وبالرغبة في أن يكون معها.

عندما عاد من باريس، بدأ يتصل بها يومياً. كان عليه أن يقوم بأعمال صغيرة عديدة حتى يسدّد رسوم الهاتف الباهظة. فكان يترجم إعلانات وكتيبات ومنشورات طبية إلى اللغة العربية، وكان يقول لستيلا مازحاً: «إني أدفع ثمن هذه المحادثة من ترجمة كتيّب عن المطهّرات، وإذا أردنا مواصلة حديثنا عليّ أن أترجم كتيباً آخر عن المضادّات الحيوية، وآخر عن مسكّنات الألم». واستطاعت ستيلا أن تقنعه بأن يتناوبا على الاتصال فيما بينهما، وقد أُعجب بكرمها كثيراً.

بعد عودتها إلى روما بأربعة أسابيع، دعته إلى شقّتها. كان الخريف جميلاً في روما، وأرادت أن تُريه معالم مدينتها. «بشرط»، قالت له بحزم، «أنت في أرضي ومياهي الإقليمية الآن ولن تدفع شيئاً. إنك ضيفي. هل تذكر عندما كنت في مدينتك هايدلبرغ؟» فضحك وتذكّر أنه لم يدعها تدفع شيئاً عندما كانت في ضيافته.

في صباح يوم خريفي جميل، استقلّ القطار إلى روما. لم يجرؤ على التفكير في أن يقيم علاقة دائمة مع ستيلا، لكنه ركّز على

المسرات الموعودة في التجوّل في شوارع مدينة لا يعرفها، كما لو كان في فيلم فيليني «لا دولتشي فيتا، *الحياة الحلوة*» الذي شاهده أكثر من مرة. استغرقت الرحلة أكثر من اثنتي عشرة ساعة، وكان أمامه متسع من الوقت ليفكّر جيداً. وساورته بعض الشكوك. فهو أكبر منها بخمس عشرة سنة، وبما أنها عازمة على أن تصبح صيدلانية، فلا بد أن هذه المرأة الطموحة لن تقبل بأن تقوم بدور الزوجة والأمّ من أجله.

تساءل لماذا تجذبه النسوة اللاتي يتمتعن باستقلالية؟ فلم يفكّر قط في أن يتزوج واحدة من تلك الفتيات اللاتي يردن أن يمكثن في البيت، ويحلمن بإنجاب أطفال. أما الآن، بعد بضعة أيام رومانسية في هايدلبرغ، وبضع مكالمات هاتفية، بدأ يفكّر جدياً في إقامة علاقة دائمة مع ستيلا.

عندما وصل إلى مدينة بولونيا، شعر باليأس، وعندما كان القطار يتوقف عند كلّ محطة لمدة عشرين دقيقة، خطر له ثلاث مرات أن يعود أدراجه. لكن رغبته لرؤية ستيلا انتصرت أخيراً، وقال لنفسه إنه يريد أن يمضي معها بضعة أيام ممتعة، بعيداً عن التفكير في المستقبل. بعد سنوات، تذكّر تلك الساعات المضطربة في رحلته التي كادت تعيق قراره بمتابعة علاقة حبه لستيلا والذي أحدث تغييراً جذرياً في حياته.

كانت شقّة ستيلا تقع في شارع جوفاني باتيستا مورغاني على مسافة عشر دقائق مشياً من الجامعة. بدت البناية عادية من الخارج، لكنها تضم شققاً فخمة.

كانت ستيلا تحبّ روما مدينة والدها، ورافقت سلمان لتريه أهم معالمها وزواياها الخفية. وبعد ساعات قليلة أصبح مفتوناً بهذه المدينة، عاصمة الإمبراطورية الرومانية، وبعد ثلاثة أيام، قال لنفسه

إنها أقرب إلى دمشق من أيّ مدينة أوروبية أخرى زارها. تمشى طويلاً وبمتعة مع ستيلا في شوارع المدينة، يداً بيد، سعيدين وعاشقين. وضحك سلمان كثيراً عندما رأى النافورة المخصصة للكلاب التي لا توجد نافورة مثلها في العالم. فقد أشفق البابا غريغوريوس الثالث عشر على الكلاب التي كانت تطوف في شوارع المدينة لاهثة من شدّة عطشها في أيام الصيف الحارة، وبنى نافورة بجانب جدار الكنيسة. كان الماء ينبعث من فم أسد منحوت من الرخام شهد عاديات الزمن، لكنه لا يزال يروي عطش كلاب المدينة حتى الآن. وبعد مسافة قريبة، أرته ستيلا لافتة في نافذة محل لبيع النبيذ، ترجمتها له: «من يصرّ على أن يشرب الماء فقط، لا بد أن لديه أشياء يريد إخفاءها عن الآخرين».

وضعت ستيلا برنامجاً مفصّلاً لزيارة سلمان. فلم تأخذه إلى المباني والمعالم الأثرية المشهورة مثل الكوليسيوم وقلعة سانت أنجيلو وكنيسة سيستين ومواقع سياحية أخرى فحسب، وإنما أخذته أيضاً إلى الأماكن غير المشهورة في المدينة. فقد أرادت أن تثبت له أن روما مدينة جميلة بخفاياها. وكان أحد تلك الأماكن مخبز دولشي مانييرا في شارع بارلينتا الذي يظل مفتوحاً أربعاً وعشرين ساعة، وحانة كاستيلينو التي يلجأ إليها المصابون بالأرق والذين يحبّون السهر طوال الليل وحتى الصباح.

كان سلمان قد خصص أسبوعاً واحداً للبقاء في روما، لكن ستيلا لم تدعه يذهب. فقد دفعها لهيب الحبّ إلى إبداء شجاعة لبوة والمجازفة بأن تبوح له عن حقيقة مشاعرها. وما دغدغ غرور سلمان قول ستيلا، الابنة الوحيدة لأسرة ثريّة مرموقة، «لقد خُلِقت من أجلك، وأنت خُلِقتَ من أجلي. لذلك، فشلتَ مع النساء الأخريات، وفشلتُ أنا مع الرجال القلائل الذين عرفتهم. لقد عشنا

كلّ هذه التجارب حتى نكتسب تجربة حياتنا ونصبح الآن جديرين بالعيش معاً بهناء».

كانت تعرف أنها قادرة على التغلب على جميع الصعوبات التي يمكن أن تعترِضها، وظلّ هذا الاعتقاد يلازمها طوال عمرها. فعلى على الرغم من تعقيد تراكيب الأدوية التي تعمل بها، كانت أسس النجاح في حياتها بسيطة. هكذا كانت كطالبة، وظلت كذلك حتى بعد أن أصبحت أستاذة مرموقة في الجامعة. كان بالوسع الاعتماد على ستيلا وعلى كل كلمة تقولها دائماً، تحبّ أن تضحك، ويحيط بها عدد من الأصدقاء الذين جعلوا حياتها جميلة ومبهجة. وكانت تردد دائماً أن الإخلاص والصدق هما مفتاح الصحة الجيدة. وقالت ذات مرة إن الكذب والخداع يحتاجان إلى طاقة لا تملكها.

عندما أنضت ستيلا عن حبّها لسلمان، أحسّ وكأنه لم يفهم ما تقوله. ارتبك وذكّرها بفارق السن بينهما الذي يبلغ خمس عشرة سنة. كانا مستلقيين على السرير، فضحكت ستيلا وصفعته على مؤخرته العارية، وقالت: «أمّي أصغر من أبي بثماني عشرة سنة، ولم أر قط شخصين يحبّان بعضهما مثلهما. إنك تمارس الحبّ بجموح أكثر من شاب في التاسعة عشرة. وعندما تتقدّم في العمر، وتبدأ بعض الأعضاء بالارتخاء، فإني سأخترع دواءً في مختبري يوقظها ويعيد إليها الحياة - وسأصنع تنيناً من أصغر دودة. فلا تقلق، لا حاجة لك أن تهتم بذلك منذ الآن».

«وماذا عنكِ؟ ماذا ستفعلين إذا حبلتِ؟» سألها سلمان بصراحة. بدأت جدية الفتاة الشابّة المغلّفة بستار من المرح تكسب احترامه.

«سأحبل عندما أريد. فنحن يا سيدي، نعيش في القرن العشرين - ألم تسمع بالواقيات الذكرية أو حبوب منع الحمل؟»

«وماذا عن والديك؟» سألها سلمان بارتياب.

فقالت: «اتركهما لي، من فضلك. والآن يجب أن ننام قليلاً»، وقبّلته واستدارت إلى الجانب الآخر. بعد بضع دقائق، غطّت في النوم. لكن سلمان ظلّ مستيقظاً، وشعر بالخجل لأنه كان جباناً وغطى جبنه بسخرية المتشكك مع أن أمله ملأ عقله وقلبه أن تقبل هذه المرأة الرائعة به. أما ستيلا، فكانت على قناعة تامة وبقلب شجاع صافٍ بأن أحدهما خُلق للآخر، وكانت لديها الشجاعة لتعبّر عن ذلك بصراحة ومن دون لفّ ودوران وتغليف وتنميق. وتذكّر العمّة إميليا التي قالت ذات يوم إن للنساء العاشقات موهبة النبوءة.

«لكن تنبؤاتهن قد تخطئ أحياناً»، أجابها بنبرة متعالية كالعارف بكلّ شيء.

«هذا جزء من مخاطر النبوءة. حتى موسى وعيسى ومحمد أخطأوا - خصوصاً في اختيار أتباعهم»، قالت وقهقهت حتى اهتزت النجفات في الثريا فوقهما.

بينما غرقت ستيلا كعادتها في نوم عميق إلى جانبه، راح سلمان يفكّر شيئاً فشيئاً بتفاؤل في المستقبل، وأيقن أن ستيلا ستطلب منه أن يترك كلّ شيء في ألمانيا ويأتي إلى إيطاليا، ويبدأ حياته من الصفر. كان متأكداً من أنه يستطيع أن يعيش حياة أسرية هانئة مليئة بالإنجازات التي طالما حلم بها، مع هذه المرأة.

كان متيقناً بقدرته على إتقان اللغة الإيطالية في سنة واحدة، لكن ذلك لا يكفي حتى يشغل منصباً أكاديمياً في الفلسفة أو الأدب. لكن كيف يمكنه أن يكسب رزقه؟ عندما أطلّ الصباح من النافذة، تذكّر شخصاً يعرفه في هايدلبرغ كان يدير كشكاً صغيراً يبيع بضائع مستوردة من سورية ولبنان، وكان قد طلب منه مساعدته لغوياً لأنه أراد إنشاء شركة للاستيراد والتصدير. لكن سلمان لم يأخذ الأمر بجدية

حينذاك، فساعده بدافع الشفقة. لكن بعد بضع سنوات، افتتح ذلك الشخص فروعاً في فرانكفورت وشتوتغارت وميونخ - وأصبح غنياً.

لماذا لا يجرّب حظه؟ فالخلاص والموت يقطنان معاً في كل مغامرة أو مجازفة. نعم، قرّر ذلك - أن يستورد مواد غذائية من بلدان عربية، ويصدّر سلعاً إيطالية إلى تلك البلدان.

نهض وارتدى ثيابه، ولم يكن قد أغمض له جفن، وخرج واشترى قطعتيْ كرواسان من المخبز القريب، وأعدّ كوب كابتشينو وكوب إسبريسو مع الحليب.

عندما استيقظت ستيلا لاحظت حماسته، لكنها تركته حتى يخبرها بما يجول في خاطره، إلى أن قال لها أخيراً:

«ستيلا، أنا أحبّك. وأريد أن أغيّر حياتي وأعيش معك ونقيم أسرة معاً. لقد اتخذت قراري، وسأترك كلّ شيء في ألمانيا، وأنتقل إلى هنا. لكن قبل ذلك، يجب أن أتعلم أساليب الاستيراد والتصدير. أريد أن أنشئ شركة هنا، و...».

عندما سمعت ذلك، قفزت ستيلا من كرسيها وضمّته إليها. «كنت أعرف أنّك شجاع»، قالت وترقرقت الدموع في عينيها، «أعدك بأنني سأقف إلى جانبك مهما حدث». عندما قبّلها، كان مذاق شفتيها بطعم الزبدة والسكّر والقهوة.

الحبّ يعني التمرّد على الموت

فقط أولئك الذين يفهمون معنى الحنين،
يعرفون ما الذي أعانيه

الشاعر الألماني غوته

حمص، ١٩٢٧-١٩٤٣

أمضى كريم طفولة بريئة وسعيدة في بيت معروف بكرم الضيافة يستقبل الأصدقاء والزوار. وكلّما أراد مشاركة عايدة في هذه الذكريات، كان يجلب ألبوم صور قديماً من رفّ مكتبته. وأبدت عايدة دهشتها عندما رأت أن جميع أفراد أسرته كانوا يرتدون ثياباً حديثة على الطراز الأوروبي في ثلاثينات وأربعينات القرن الماضي، ففي صورة ملوّنة يدوياً ظهر أبوه في بدلة صيفية بيضاء، رافعاً كأس نبيذ أمام الكاميرا، وكانت أمّه وأخواته يرتدين فساتين وقبعات ملونة جميلة، ويرتدي كريم وإخوته بدلات ويضعون ربطات عنق.

لكن أيام وسنين كريم في المدرسة المسيحية كانت قاسية. فللمرة الأولى في حياته، عرف كيف يمكن أن يشعر المرء بأنه ينتمي إلى أقليّة. وبالإضافة إلى صبيّين آخرين ينتميان أيضاً إلى أغنى العائلات المسلمة في المدينة، فقد كانوا التلاميذ الوحيدين غير المسيحيين في صفّه. وتضمّن البرنامج الدراسي دروساً في الديانة

المسيحية فقط، وتركت الإدارة للتلاميذ المسلمين أو اليهود كامل الحرية في حضور هذه الدروس أو إمضاء تلك الفترة في مكتبة المدرسة. وكان كريم يفضّل أن يحضر دروس الديانة تلك التي تعلّم منها تفاصيل كثيرة عن الديانة المسيحية، وارتاد أيضاً، عدّة مرات، الكنيسة مع باقي التلاميذ لحضور صلاة يوم الأحد. وكان مفتوناً بالصلاة والتراتيل والبخور، وبأداء القساوسة بأرديتهم المزركشة الزاهية الألوان أمام المذبح التي تذكّر بالأيام الماضية وبملابس الخلفاء - بخلاف صديقه فيليب ديراني، الفتى ذي البشرة البيضاء واليدين الناعمتين، والوجه الأنثوي الرقيق - الذي كان يعتريه الملل من هذه الطقوس. كانت تنتاب كريم قشعريرة في بعض الأحيان كأنه في حلم طويل، ولم يكن يشعر بأي ملل.

لكن المشاركة وطيبة السريرة لا تؤديان إلى قبول أقلية من قبل معظم أفراد الأغلبية. فقد دأبت عصبة من التلاميذ على استفزاز الصبية المسلمين والاستهزاء بهم كلّما أدار المشرفون ظهورهم. ابتسم كريم عندما تذكّر بعد سنين وهو يحكي لعايدة تلك الأشياء الغبية التي كان التلاميذ المسيحيون يرددونها عن المسلمين والإسلام. وكانت سخريتهم في أيام المدرسة تلك تثير سخطه أحياناً، وتعلّم في تلك السنوات أن يكره أيّ مجموعة أو زمرة تتّحد بعقلية بدائية ضد أقليات أخرى. وكان الصبية الثمانية الأقوى في صفّه يُرهبون التلاميذ الآخرين، يضربونهم ويأخذون سندويشاتهم التي يجلبونها معهم لطعام الفطور، ولم يجرؤ أحد من التلاميذ الآخرين على أن يعترض بقول كلمة واحدة.

في أحد الأيام، أمسك به أولئك الصبية. بقي فيليب آنذاك في الصفّ ليحلّ مسألة حساب خلال الاستراحة. سحب خمسة من عصابة التلاميذ كريم إلى دورة المياه. ووقف الثلاثة الآخرون في

مكان قريب لتنبيه رفاقهم الساديين إذا رأوا أحد المعلّمين قادماً. حاول كريم وحده وبكلّ ما أوتي من قوة أن يتخلص منهم، لكن مقاومته لهم لم تُجد نفعاً. فقد حسب هؤلاء الأشرار الصغار حساب كلّ شيء.

بعد عدة سنوات، تذكّر كريم كلّ ذلك وضحك ساخراً من تعصّب أولئك الصبية وغبائهم. فقد كانوا يعتقدون أن حشفة قضيب المسلم تُقطع أثناء الختان. حتى أن اثنين من أولئك الصبية كانوا مقتنعين تماماً بأنه تتم إزالة الخصيتين أيضاً. ولم يغيّر إصرار كريم وتأكيده لهم أنّ لديه قضيباً وخصيتين، مثلهما تماماً، وأن القلفة هي التي تُزال فقط، شيئاً من قناعتهما. ولم يُجدِ التوسل لهم نفعاً أيضاً. فقد صمّ أصدقاء الأمس آذانهم، وفقدت أعينهم أيّ بريق من الإنسانية. فحلّوا أزرار بنطاله وأنزلوه مع سرواله الداخلي حتى ركبتيه. وبعد أن أيقنوا أنه قال الحقيقة تركوه واقفاً هناك، يتملكه الغضب، يبعثره الصمت، ممتلئاً بالخجل، حتى انفجر في البكاء.

عندما رأى المعلّم ركبتيه المجروحتين وسأله ماذا جرى، قال له كريم كاذباً إنّه وقع وسحج ركبتيه. كانت الجروح مؤلمة، لكن المهانة طحنت قلبه بالألم. ومنذ ذلك اليوم، لم يكلّم أحداً من هؤلاء الصبية.

«لماذا كذبت؟» سأله فيليب.

«لأني خجلت من الإهانة التي لحقت بي ولأنه إذا عاقبهم المعلّم في المدرسة، فإنهم سيلحقون بي وأنا عائد إلى البيت».

«لكن لا يمكننا أن ندعهم يفلتون من العقاب على ما فعلوه لك. اكتب لي أسماء هؤلاء الأغبياء»، قال له فيليب الذي كان أقصر قامة من كريم قليلاً، لكنه تميز بالشجاعة والتخطيط الذكي لكل ما يقوم به. وكان الصديقان يقيمان في حارتين متجاورتين.

«ماذا ستفعل؟»

«انتظر وسترى»، قال فيليب وابتسم ابتسامة ماكرة. في اليوم التالي، عندما عاد التلاميذ إلى الصفّ بعد الاستراحة، لم يجد الصبية الثمانية دفاتر قواعد اللغة العربية. كان الأستاذ صافي، مدرّس اللغة العربية، عصبياً، سريع الانفعال والغضب. ولم يكن التلاميذ يتعلّمون قواعد اللغة الصعبة حباً بها، وإنما خوفاً من بطش الأستاذ. فإذا لم يكتب تلميذ واجبه المنزلي، فيا ويله لأن الأستاذ صافي لن يبدِ نحوه أي رحمة.

عوقب الصبية الثمانية الأشرار. ابتسم فيليب ابتسامة عريضة عندما سأله كريم إن كانت له علاقة بما جرى. وبعد بضعة أسابيع، اختفت الدفاتر التي اشتروها بدلاً من دفاترهم القديمة مرة أخرى، ووضع مكانها صور ممثلات شبه عاريات. خلال فترة الاستراحة، أثارت هذه الصور هرجاً ومرجاً بين التلاميذ إلى أن دخل الأستاذ صافي إلى الصفّ ورمى بسرعة البرق حقيبته على الطاولة، واندفع بقوة نحو التلاميذ الجالسين في الصفوف الخلفية، وقد اكتسى وجهه بالغضب. تسمّر التلاميذ في أماكنهم، ولم يتمكّنوا من إخفاء الصور بسرعة. فصادرها الأستاذ، ونخر مثل ثور جريح، وصاح، «أرجو أن تكون معكم دفاتركم أيضاً مع هذه الصور الإباحيّة؟»

ضربهم الأستاذ من دون رحمة بقضيب الخيزران. كانت معركة أحاديّة الجانب. كانت الخيزرانة تصفر في الهواء، والصبية يعوون مثل جراء مذعورة. أعمى الغضب الأستاذ ولم يعد يسمع شيئاً من حوله، إلى أن جرى أحد التلاميذ وأخبر المدير عما يجري، فهرع وأنقذهم من غضب هذا الوحش وعصاه، وأُرسل هؤلاء التلاميذ إلى بيوتهم.

طُرد التلاميذ الثلاثة الأكبر سنّاً من المدرسة، وسُمح للتلاميذ

الآخرين بالبقاء في المدرسة لكنهم عوقبوا بشدّة. وبدأ التلاميذ الآخرون ينظرون إليهم بأنهم جبناء عديمي الشرف لأنهم اتهموا أصدقاءهم الثلاثة بأنهم الذين خططوا لكلّ شيء وأجبروهم على مساعدتهم. منذ ذلك اليوم، لم يعد أحد يخشاهم.

هكذا إذاً كان فيليب الذي أصبح لاحقاً عازف بيانو مشهوراً، وهاجر إلى فرنسا مع زوجته ومات فيها ولم يتجاوز الأربعين من عمره إثر نوبة قلبية، بعد أن أحيا حفلة موسيقية في مدينة ليل شمال فرنسا.

في تلك الأيام، أصبح كريم صديق فيليب الحميم وكان أحدهما يزور الآخر في أحيان كثيرة. وفي أحد الأيام، تعرّف كريم وهو في الثالثة عشرة من عمره على صديقة أخت فيليب، نورا، تدعى صوفيا. لم تكن صوفيا تتحلّى بجمال أخاذ فحسب، وإنما بجرأة كبيرة بالنسبة لفتاة تنتمي إلى عائلة مسيحية غنية. ومع مرور الأيام، أدرك كريم أنها فتاة ذكية تتمتع بإرادة قوية. افتُتن كريم بصوفيا، وكان يقف متسمّراً في وجودها. وبدا له أنها لم تكن تفهم تلميحاته وتتجاهل محاولاته للتقرب منها، لكنها، في الوقت نفسه، لم تُشعره بأنّها غير مهتمة به - مزيج مثير للحيرة.

لم تُبدِ صوفيا أي استجابة لمحاولاته في التودد إليها إلّا بعد حوالي سنة، وكانت استجابتها مفعمة بالحبّ. وعندما سمحت له بأن يقبّلها لأول مرة، شرحت له عن أسباب تحفّظها في الماضي فقالت: «أيّ حمار يمتلك هرمونات كافيه يمكنه أن يحبّ ويعشق، لكن الشخص الذي يمتلك مشاعر نبيلة هو الوحيد الذي يستطيع أن يحبّ حقاً». وبينما كانا يتمشّيان على ضفة نهر العاصي، أباح لها متردداً بأنه مسلم على الورق فقط، وأنه لاأدْرِيّ. وقال لها إنه درس في المدرسة الفيلسوف ابن عربي الذي يوجد له ضريح في دمشق، وإن

أستاذه كان معجباً جداً بهذا الشاعر والفيلسوف الذي قال: «الحبّ ديني وإيماني»، وفي عصر أحد الأيام، ألقى سلمان عليها إحدى قصائد ابن عربي، فأُعجبت صوفيا بأدائه وقالت له مازحة، إنه بصوته الرجولي يستطيع أن يجعل مستمعيه يحبّون أي شاعر.

لم تكن صوفيا تعرف قبل ذلك شيئاً عن ابن عربي، لكنها أكدت لكريم أنها لا تأبه بالدين، وأن كلّ ما تهتم به هو الرفاهية. لذلك ليس الدين هو الذي يمنعها من الحياة معه، وإنما خوفها من أن تقتلها عائلتها لأنها ستفعل ذلك على الفور إذا تزوجته. وقالت له إنها تعرف جيداً أي نوع من الرجال تريد أن تتزوج. وخلال مداعباتهما الجنسية أصرّت بقوة على المحافظة على عذريتها، ورددت له، «إنه رأسمالي للزواج». وكانت تسخر من أختها تقلا التي كانت جذّابة وذكية مثلها، لكنها لم تستغل جمالها، وتقول: «لها نفسية عامل فقير وإنها الفتاة الأكثر تواضعاً في عائلتنا، لكنني أحبّها».

رسمت صوفيا خطاً فاصلاً بين الحبّ والزواج وقررت أن تجد رجلاً مسيحياً غنياً، وأمل كريم أن يتزوجها، لكنه لم يُفلح. وفي يوم مشمس من شهر أيار، بينما كانت ترتدي ثيابها بعد لقاء مثير، قالت له إن هذا آخر لقاء بينهما، لأن حفلة خطوبتها على صائغ ذهب من عائلة بلدي الغنية ستقام يوم الأحد المقبل. بكى كريم عندما قالت له ذلك، فطمأنته صوفيا وقالت إنها ستظل تحبّه، لكن اهتمامها كلّه سينصبّ من الآن وصاعداً على خطيبها، لأنها ستكون زوجة مخلصة. وإذا ظلّا يريان بعضهما، فإنها ستكون ممزّقة بين كريم وخطيبها الذي سيصبح زوجها، وهذا سيمرضها ويدفعها إلى حافة الجنون.

لكن كريم أصيب بعد أيام بحمّى شديدة ألزمته الفراش. ولخّصت أمّه حالته لصديقتها، «إنه يزداد نحافة كأنه يأكل نفسه».

وبعد فترة قصيرة أصبح وزنه خمسة وأربعين كيلوغراماً. وبدأ أصدقاؤه يأتون لزيارته، وكان فيليب يزوره كلّ يوم ويقرأ له بعض قصص المغامرات. أما صوفيا فظلّت بعيدة عنه. وفي أحد الأيام، طلب من أخت فيليب، نورا، أن تنقل إلى صوفيا تحياته. وكان يأمل أن تعرف صوفيا عن حالته الصحية المتدهورة فترثي لحاله وتعود إليه. لكن ردّ صوفيا كان صادماً، فقالت إنها لا تريد صديقاً جباناً، وإذا كان يحبّها حقاً، عليه أن يستجمع نفسه، لأن الحبّ يعني التمرّد على الموت. وأن عليه أن ينهض ويواجه الحياة بشجاعة، وإلا فإنها ستخجل من نفسها لأنها أمضت ساعة واحدة من حياتها معه.

في البدء، تملّكه غضب شديد، لكنه نهض بعد ذلك، وعاد إلى دراسته وعمله. وعندما خفّت حدّة غضبه، أدرك أن حبّه لها ازداد أكثر من ذي قبل، لكنه كان نوعاً مختلفاً من الحبّ: حبّ لا يعني امتلاك الحبيبة ولا مخططات للمستقبل، أو الإحساس بالغيرة. وعندما يتذكّر ذلك، يشعر بالامتنان لردّها الذي انتشله من رثاء الذات المدمّر. وعندما بدأ يُدرِّس في إحدى المدارس الابتدائية، تلقى منها رسالة، تهنئه فيها وقالت إنها فخورة به وإنها ستكون سعيدة لرؤيته مرة أخرى، لأنه يستحق حبّها واحترامها ودعمها، وقالت إنه إذا احتاج إلى شيء أو أصيب بأزمة فإنها مستعدة لأن تقدّم له المساعدة.

هزّ رأسه، مقتنعاً بأن هذه ليست سوى كلمات جوفاء قرأتها صوفيا في رواية رومانسية رخيصة. لكن ذلك اليوم سيأتي حيث ستثبت له صوفيا صحة كل كلمة كتبتها، في تلك اللحظة الأشد دماراً وعزلةً في حياته.

الإغواء الأول
أو عن سلطة الشهوة الحيوانية

يكمن الفن في أن تنهض واقفاً أكثر من
المرات التي تسقط فيها على الأرض

ونستون تشرشل

روما ١٩٨٠-١٩٩٥

الرجل المتقلّب

كان والدا ستيلا شخصين متفهّمين أكثر مما تصوّر سلمان بكثير. فمنذ البداية، رأت أمّها أنه رجل جذاب واستحوذ على قلبها عندما تذوقت الطعام الذي أعدّه لها. كان سلمان يتقن فن الطهي، بخلاف زوجها الذي لا يكاد يعرف كيف يقلي بيضتين من دون أن يقلب المطبخ رأساً على عقب، فتضطر أمّها إلى تنظيفه وإعادة ترتيبه.

أُعجب والد ستيلا، المصرفيّ المتقدم في السنّ، بشجاعة سلمان لأنه ترك ألمانيا المزدهرة اقتصادياً وجاء إلى روما ليجرّب حظّه فيها. وأكثر ما أثار إعجابه بسلمان ميوله لممارسة الأعمال التجارية ومعرفته الجيدة في الأمور المالية. وكان يفتخر في سريرته بابنته الذكيّة التي استطاعت أن تجذب شاباً لطيفاً ذا خبرة في الحياة.

بذل سلمان جهداً كبيراً في عمله، وبعد زفافهما بفترة قصيرة،

أسس شركة استيراد وتصدير سماها «*الواحة*». في البداية، فتح محلاً في شارع ناتال ديل غرانده لبيع التوابل والمواد الغذائية الشرقية، لكنه فشل فالمنافسة شديدة وإيجار المحل باهظ، ولم يكن المطبخ العربي معروفاً آنذاك في إيطاليا. فاضطر سلمان إلى إغلاق المحل بعد سنتين، لكن شركة «الواحة» كانت تدرّ عليه أرباحاً جيدة من تصدير المنتجات الإيطالية إلى بعض البلدان العربية، فعاش هو وستيلا حياة رغيدة. ودأب على رفض المساعدة السخية التي حاول والدا ستيلا أن يقدّماها له.

أُعجب سلمان بالحياة في روما كثيراً، حيث استطاع أخيراً أن يطلق العنان لعاداته الدمشقية. وبعكس الحياة في ألمانيا، قلما ينزع أهل روما للحديث المباشر والصريح، وإنما يلفّون ويدورون في أحاديثهم كأنهم من سكان حيّه في دمشق. فهم لا يقولون مثلاً إنهم ليسوا على ما يرام بشكل مباشر وصريح. في البداية، يدّعي الجميع أنهم في حالة ممتازة وصحة جيدة، ثم تبدأ تظهر تلميحات حول حقيقة ما يشعرون به. والناس هنا لا ينتقدون الآخرين علناً، وإنما يلمحون بتهذيب إلى الشيء الذي لم يعجبهم. لكن، بالرغم من كلّ ذلك، فإن روما تختلف عن دمشق في بعض النواحي. فقلما يقوم سكان روما بزيارة بعضهم في بيوتهم، وإنما يلتقون في معظم الأحيان في الحانات والمقاهي أو في المطاعم. «لدى سكان روما أسلوب مميّز»، قال سلمان لأمّه على الهاتف ذات مرة، «فهم يفضّلون دائماً أن يظهروا في كامل أناقتهم. أما عندنا، فالجيران يزورون بعضهم ببيجامتهم حتى من دون ان يغسلوا وجوههم أو يحلقوا ذقونهم». فضحكت أمّه، وقالت: «*ببيجامتهم؟ سقى اللّه أيام زمان يا بني*. ففي أيامنا هذه، لم يعد أحد يقوم بزيارة الآخرين بالبيجاما، بل أصبح الناس يرتدون ثياباً كما لو أنهم في حفل عرض أزياء».

أصبح باستطاعة سلمان تصدير كميات أكبر من المنتجات الإيطالية من خلال علاقاته مع دول الخليج التي كان يُنظر إليها ذات يوم باستصغار لكونها «إمارات» صغيرة، لكنها سرعان ما تطوّرت وأصبحت قوة اقتصادية كبيرة. وحقق نجاحاً في توسيع عمله، وأنشأ ثلاثة فروع في قطر ودبي والكويت. لكن في نهاية عام ١٩٨٤، نزلت عليه مصيبة كالصاعقة. فقد خدعه شريكه، أمير من العشيرة الحاكمة في الكويت، فأُغلقت الفروع الثلاثة. وخسر سلمان الرأسمال الذي استثمره هناك، لكنه بقي من دون ديون. وعندما عُيّنت ستيلا في كليّة الصيدلة، أصبحا يتمتعان بقدر من الأمان المالي.

وكما لو أنها هدية من السماء، فقد أنقذهما في شهر آذار ١٩٨٥ مبلغ كبير أورثته له العمّة إميليا.

لم يعرف سلمان بوفاتها إلّا بعد حين. كانت أمّه في المستشفى تجري عملية في وركها، فسافر أبوه وعمّه أنطون وأفراد العائلة الآخرون إلى بيروت في نهاية شباط لحضور مراسم الجنازة. لم يذهبوا إلى بيروت لأنهم كانوا يرغبون في التصالح مع ذكراها، ولم يذهبوا لتكريمها بعد موتها لأنها عارضتهم أثناء حياتها - وإنما ذهبوا ليعرفوا إن كانت قد تركت لهم شيئاً في وصيتها، لكنهم عادوا بعد ثلاثة أيام إلى دمشق خاليي الوفاض، وبقلوب تفيض بكراهيتها.

بعد حوالي أسبوع على وفاة إميليا، اتّصل محاميها بسلمان في روما، وبكلمات مقتضبة أبلغه أنّ عمّته قسّمت العقار الذي تملكه مناصفة بينه وبين جمعية لبنانية تعنى بالدفاع عن حقوق المرأة. فسافر سلمان إلى بيروت على الفور، وذهب مباشرة إلى قبر إميليا، ووضع إكليلاً من الورد الأحمر على بلاطة الرخام المتواضعة. شعر بامتنان كبير لإميليا التي أنقذته للمرة الثانية في حياته. فقد حال المبلغ الذي

ورثه دون إفلاس شركته في روما، وجعله ينهض ويقف على قدميه مرة أخرى. وبعد عدة سنوات، فتح مخزن بقالية كبيراً في شارع جوفاني جوليتي، قبالة محطة القطار.

في عام ١٩٩٥، ولد ابنهما باولو. وفي تلك السنة، افتتح سلمان فرعين آخرين لشركة الاستيراد والتصدير «الواحة» في ميلانو وأنكونا، فاقت مبيعاتهما مبيعات الفرع الرئيسي في روما. وبعد ستّ سنوات فتح محلاً في السوق الجديد نووفو ميركاتو إسكويلنا، وهو سوق مغطى بسقف جميل وثلاث قبب زجاجية واستأجر كشكين آخرين في هذا السوق للتجارة اليومية أصبحا يدرّان عليه أرباحاً جيدة. ثم استأجر مكتباً في مكان قريب وبدأ يدير منه أعمال شركة «الواحة»، واستمر نجاحه في اضطراد.

«إن زوج ابنتنا *misirizzi* حقيقي - رجل يستطيع أن يخلّص نفسه من المصائب مهما تلقّى من ضربات ويعود واقفاً على قدميه بثبات»، قال والد ستيلا لزوجته عند افتتاح السوق، «ولو كان عندنا ألف رجل مثله، لما شهدت إيطاليا أزمة في حياتها».

شغلت ستيلا منصب بروفيسورة في علم السموم في قسم علم وظائف الأعضاء وفعالية الأدوية، الذي سُمي على اسم عالم الأدوية الشهير، فيتوريو إرسبامر. وقد ملأها التدريس في نفس الجامعة التي درست فيها بالفخر. ونشرت عشرات الأبحاث وأرست لنفسها سمعة دولية مرموقة في مجال تخصصها.

في صيف عام ٢٠٠٢، اشترى سلمان شقّة واسعة في تراستيفيرة. كانت هذه المنطقة الشعبية في روما القديمة فيما مضى ملاذاً للفقراء والأجانب والمهمشين. وعاش فيها العديد من اليهود وأقاموا فيها أكثر من عشرة معابد. حتى مسيحيو روما الأوائل عاشوا في هذه المنطقة. وبعد قرون، أصبحت تراستيفيرة الحيّ الدولي

المزدهر في روما الذي يُعرف أيضاً باسم «القرية في المدينة». وخلال ثورة سكان روما على البابوية عام ١٨٤٩، أصبحت المنطقة معقل المتمردين. كان سلمان يحبّ أن يتمشّى فوق الجسور التي تصل الناحية بمركز المدينة، ويتوقّف ويتأمل نهر التيبر الذي يذكّره بنهر بردى في مدينته دمشق. وسرعان ما اكتشف ساحة بيلي الصغيرة عند مدخل الشارع الرئيسي الكبير الذي يُسمى أيضاً تراستيفيرة. وفي الساحة الصغيرة، ينتصب تمثال للشاعر جوزيبي جواشينو بيلي. وحُفرت على كتلة الرخام عبارة «*مهداة من الشعب إلى شاعره*». كان بيلي شاعراً عظيماً كتب الشعر باللغة العامية المحلية ووصف الحياة في روما في مطلع القرن التاسع عشر بآلاف السوناتات التي كانت معظمها هجائية ساخرة. لكنّه عمل أيضاً رقيباً لصالح الفاتيكان وحارب نشر أعمال شكسبير وفيردي وروسيني. وفي مكان غير بعيد عن التمثال اكتشف سلمان لوحة رخامية مثبتة على جدار بيت تخلّد ذكرى مسقط رأس الشاعر الفرنسي، غيوم أبولينير. ضحك سلمان بمرارة عندما قال لنفسه إنه يجب أن تقام تماثيل عند ناصية كلّ شارع في دمشق لإحياء ذكرى الشعراء الذين اعتقلتهم السلطة، وأن تُغطّى جدران المدينة بلوحات ضخمة تذكّر المارة بجميع الشعراء والمثقّفين والصحفيين والرسامين والموسيقيين القابعين في سجونها.

كانت شقّة سلمان وستيلا الكبيرة في شارع فيالة دي تراستيفير العريض، ليست بعيدة عن موقف إبوليتو نيفو للباصات، في بناية جميلة عند ناصية الشارع لها أربعة أجنحة ضخمة وواجهة برتقالية مائلة إلى الأصفر، وتطلّ على شارع أوغو باسي. وتقع الشقة في الطابق السادس، ولها شرفة واسعة تطلّ على الحدائق وتمتد تحتها بيوت جميلة ونهر التيبر. وفي كلّ يوم، كانا يستخدمان مصعداً متقلقلاً يعود إلى أربعينات القرن الماضي. وعلى الجانب المقابل من

الشارع، يوجد موقف الباص الذي يقلّ سلمان بسرعة إلى محطة القطارات الرئيسية في روما، ثم يسير عشر دقائق إلى مكتبه. يستغرق كلّ ذلك فترة أقل مما لو ذهب بسيارته. إذ تشكل حركة المرور إحدى أكبر المشاكل في روما، جحيم حقيقي، فبدأ سلمان يفضّل استخدام وسائط النقل العام، كلما أمكنه ذلك.

عندما انتقلوا إلى هذه الشقّة، حاول سلمان أن يصوّر لستيلا الحيّ الجديد بألوان زاهية - لكن الشيء الذي كان يهمها وجود المدرسة الابتدائية والثانوية والطرق المؤدية إليهما، لأن باولو سيبدأ المدرسة في ذلك الخريف. واستقرّ رأيها أخيراً على مدرسة سكوولا فرانسيسكو سيسانا في شارع نابوليوني باربوني التي لا تبعد أكثر من مئتي متر عن شقتهما. وكان باولو سعيداً - لأنه لم يشأ أن يرافقه والداه إلى المدرسة، وأصرّ على الذهاب وحده صباح كلّ يوم.

لم تكن مدرسة «ليسيو جون إف كيندي» الثانوية تبعد كثيراً أيضاً سيراً على الأقدام عندما سينتقل باولو إلى المدرسة الثانوية. فقد كان عليه أن يقطع زقاق أوغو باسي القصير الذي ينتهي بدرج حجري جميل يؤدي إلى أعلى التلّة. فروما مدينة تتربع فوق سبع تلال. لم يتذمّر باولو قط من صعود الدرج في كل صباح، لكن سلمان بدأ يلهث عندما رافق ابنه في أحد الأيام. فقد أحصى أربعاً وثمانين درجة في المجموعة الأولى من الدرج، ثمّ جاء درب منحدر في منطقة مفتوحة صغيرة، ثم جاء درج طويل آخر.

«وهل تمشي كلّ هذه المسافة كلّ يوم؟» سأل سلمان ابنه الذي بدا مندهشاً من سؤاله، فضحك باولو وقال: «طبعاً لأني لا أملك أجنحة».

تحوّلات الزواج

عندما ولد باولو، تغيّرت أشياء كثيرة. حتى ذلك الحين عاشت ستيلا وسلمان مثل عازبين عاشقين. ومع أنه مضى على زواجهما حتى ذلك اليوم أكثر من عشر سنوات، فقد كانا يشعران أحياناً برغبة مستعرة أحدهما تجاه الآخر، فيبحثان عن أيّ عذر ليلتقيا، إما ليتناولا الطعام، أو ليناما معاً، أو ليتناولا كأساً من النبيذ. ويضحكان مثل تلميذين متآمرين هربا من المدرسة من درس مملّ.

لكن عندما ولد ابنهما الجميل، تغيّرت ستيلا تماماً في نظر سلمان. فبدأ سلوكها يتسم بالفتور تجاهه، وبدا كأنه لم يعد في قلبها مكان إلّا لابنها الصغير. حتى أنها لم تعد تلاحظ أحياناً متى يعود سلمان إلى البيت. وعندما كان سلمان يراقبها بصمت وهي تقبّل باولو وتضمّه إليها، كانت الغيرة تتسلل إلى قلبه، فيخرج صامتاً. وبدأ سلمان يشعر بالوحدة في أحيان كثيرة، وعندما كان يحاول أن يفتح هذا الموضوع مع ستيلا، لم تكن تأخذ كلامه على محمل الجد، وتقول له مؤنبة، «كن عقلانياً. هل تغار من طفلك الرضيع. إنه يحتاج إليّ، هذا كلّ ما في الأمر».

فيسألها «وماذا عنّي؟» لكنه سرعان ما وجد أن من السخافة أن ينافس طفلاً على رعاية أمّه – وقبل أن يلعب دور الخاسر دائماً. وفي كل محاولة للتقرب منها جسدياً كانت ستيلا تكرر بلا كلل: «أرجوك لا تتصرّف بأنانية. إن عدم تقديرك لحالتي يجرح مشاعري». وفي كثير من الليالي اضطر سلمان للهروب من غرفة النوم ليستلقي على الأريكة في غرفة الجلوس بعد أن يستيقظ باولو سعيداً ويريد أن يلعب مع أمّه، بينما يكون سلمان منهكاً ويريد أن ينام.

بعد ولادة باولو مباشرة، بدأت ستيلا تفقد أيّ رغبة جنسية تجاه

سلمان، وقابلت رغباته الجنسية دائماً بالتثاؤب، وإذا لم يكن ذلك كافياً، كانت ستيلا تضع باولو في مهد نقال بينهما، كنوع من حاجز للعفة.

تساءل سلمان هل يمكن للمرأة أن تحبّ طفلها من دون أن يكون ذلك على حساب شريكها. لم يعد يشعر بالراحة. لكن كلمة *الغيرة* لا يمكنها وصف ما يجري بدقة، لأنه كان يحبّ باولو ويعرف أن لا ذنب للطفل في كلّ ذلك. لكنّه لاحظ أن المسافة بينه وبين ستيلا بدأت تتباعد.

فجأة، وبشكل متوقع، شعر سلمان بالحنين إلى دمشق، وأصبحت روما تبدو له مدينة مقفرة، وبدأ يشتاق إلى بيته وحيّه الدمشقي.

ثمّ رأى تينا. حدث ذلك في يوم أحد بارد من شهر شباط، ولم يكن سلمان رائق المزاج. وكما جرت العادة في كلّ يوم أحد، دخل مع ستيلا إلى غرفة النوم ليأخذا قيلولة بعد الغداء. استلقت ستيلا على السرير بجانبه مرتدية بيجامتها الحريرية الشفّافة، وكان باولو نائماً في سريره الصغير على بعد متر عنهما. استيقظ سلمان فجأة بعد أن رأى حلماً جنسياً مثيراً. كان يستعر رغبة نحو ستيلا التي لم تدعه يلمسها منذ أكثر من شهرين. وكدأبه، راح يجوس بيده فوق سترة بيجامتها، ثمّ لمس بطنها العارية الناعمة. لكن بدلاً من أن ترتسم ابتسامة على فمها الجميل، انتصبت جالسة مجفلة، ونظرت إليه بعينيها المفتوحتين على وسعهما، كما لو أنّه ارتكب عملاً شنيعاً، وأزاحت يده عنها بقوّة.

«لا يمكنك أن تفعل ذلك»، قالت غاضبة، «أنا متوعكة. . .»، تردّدت قليلاً ونظرت إلى ابنهما الذي يغطّ في النوم، ثم أضافت، «وباولو»، كما لو كان هذا الطفل الصغير مراقب أخلاق كنسي.

«وباولو؟» كرّر سلمان مرتبكاً. لم تجبه، ونهضت بسرعة، ودخلت إلى الحمّام، ثم عادت وقد ارتدت ثيابها. لعن نفسه وخجل من نفسه، ثم ارتدى ثيابه وخرج من البيت.

كان بحاجة إلى أن يكلّم أحداً. ماذا دهاه؟ وجد ردود أفعاله بدائية جداً. كيف يتصرّف الآباء الجدد الآخرون في مثل هذه الحالات؟

«يُعتبر الألمان الأفضل في هذه الأمور»، قال لنفسه وهو يتمشّى فوق جسر غاريبالدي. نعم، الألمان هم أبطال العالم عندما يتعلق الأمر بتحليل *العلاقة الثنائية*، كما يطلقون على علاقات الحبّ الباردة. أما العرب والإيطاليون فلا يجيدون هذا الفنّ. فالألمان يتحدّثون عن خياناتهم الزوجية، حتى مع شركائهم أحياناً، أما العرب والإيطاليون فهم مختلفون. فهم يخونون شركاءهم، لكنّهم لا يتحدّثون عن ذلك، إذ يقول المثل الإيطالي: *Si fa ma non si dice* - «افعلها لكن لا تتحدث عنها»، كأنه يعبّر عن أفكار العربي الدفينة. أما الألماني فيقول: «لكن هذا غشّ»، فيردّ العربي والإيطالي: «لكن هذا يجعل الحياة أسهل». ومع أن الألمان قد لا يُعتبرون رومانسيين، فهم محلّلون بالفطرة. ذهب سلمان إلى مقهى غريكو التي تعني: «اليوناني»، في شارع دي كوندوتي. لم يكن هذا المقهى الذي يفضّله سلمان يجذب السيّاح فحسب، وإنما يرتاده أيضاً الصحفيون الألمان والعاملون في الشركات الألمانيّة وشركات الإعلام. وهذا المقهى قديم جداً افتتحه رجل يوناني يدعى نيكولا ديلا مادالينا عام ١٧٦٠. وكان سلمان يحبّ اللوحات والصور والتماثيل القديمة العديدة التي تزيّن جدرانه. ويقال إن الشاعر الألماني العظيم غوته كان يرتاد هذا المقهى بالإضافة إلى الفيلسوف الألماني شوبنهاور ولودفيغ الأول، ملك بافاريا، والموسيقي العبقري المجري الألماني فرانز ليست. ويقال إن أحد الشعراء اقترح أن

يصبح اسمه «تيديسكو والتي تعني الألمانية» لكثرة الألمان الذين ارتادوا ولا يزالون يرتادون المقهى.

كان سلمان يعرف النادل الكهل، جوليانو الذي يعمل في المقهى منذ أكثر من عشر سنوات. وبما أن سلمان دأب على معاملته بلطف وسخاء، صار جوليانو يحجز له دائماً أفضل طاولة في المقهى.

الإغراء الأول

بعد أن جلس سلمان إلى طاولته بقليل، دخلت امرأة إلى المقهى. هبّت نسمة دافئة فاحت منها رائحة عطر جميلة، خفيفة. عندما أصبحت المرأة في مجال رؤيته، رأى أن لها شعراً أشقر كثيفاً ينسدل على كتفيها بموجات كبيرة. جلست إلى طاولة قريبة، وهزّت كتفيها لتخلع سترتها الخمرية. كانت ترتدي بلوزة سوداء، وصدارة حمراء، وبنطالاً أسود. ثم أخرجت من حقيبتها الجلدية الكبيرة مجلة نسائية إيطالية وبدأت تقرأها. كانت شفتاها حمراوين داكنتين، وساقاها ممشوقتين تنتهيان في حذاء أحمر جميل.

أخذ سلمان يراقب كلّ حركة من حركاتها. ثم أعادت المجلة الإيطالية إلى حقيبتها وأخرجت مجلة أزياء ألمانيّة. «إنها ألمانيّة»، همس له جوليانو الذي قرأ نظرات سلمان، «إنها تعمل في شركة لانسيتي للأزياء القريبة من هنا. أظن أنّها كانت تعمل عند جورجو أرماني قبل أن تأتي إلى هنا».

«لدى جهازك الاستخباراتي معلومات كثيرة»، أجابه سلمان بهدوء، وضحك. ثم رفعت السيدة رأسها قليلاً، نظرت نحوه، وابتسمت.

«لكنها مثليّة»، همس له جوليانو وأسرع مبتعداً ليساعد رجلاً

وامرأة عجوزين، ثقيلَي السمع، يبحثان عن الطاولة التي حجزاها مسبقاً.

سأل سلمان نفسه: «هل هذا ممكن؟»، وضعت المرأة مجلتها على الطاولة وسارت نحو دورة المياه، فلاحقت نظراته ردفيها اللذين كانا يهتزان مع مشيتها. أراد أن يأخذها بين ذراعيه. عندما عادت، تركزت عيناه على صدرها الذي بدا مثل قفص يرفرف فيه طائران. شعر أنها تحيط نفسها بسور خفيّ. قرأت، وأكلت وشربت كما لو أنها وحدها في هذا المكان. ثمّ لوّحت بيدها لجوليانو وقالت له بصوت هامس، «*Il conto*» فأومأ لها النادل واختفى، ثم ظهر وبيده الفاتورة. دفعت المرأة حسابها، ورشفت آخر رشفة من كأس النبيذ الأحمر، وارتدت سترتها، وغادرت المقهى.

جرع سلمان ما تبقى من كأسه الكامباري، ودفع حسابه، وهرع نحو المبنى رقم واحد وستين، عنوان دار الأزياء لانسيتي. سار بخطوات بطيئة، وبدأ قلبه يخفق بقوة. رآها واقفة هناك، تتكلّم في الهاتف، أمام المكتب الأمامي في المبنى، تحمل بيدها ورقة تشبه طلباً أو أمر شراء. من مكانه في الشارع، استطاع سلمان أن يراها الآن بوضوح أكبر مما رآها في المقهى. كانت امرأة في غاية الجمال. عندما نظرت نحوه، أشاح بوجهه وتظاهر بأنه يتسكع في المكان.

لم يقع في حبّ هذه المرأة - كيف يمكنه ذلك؟ لكنها أسرت بجسدها قلبه وعقله. وأيقن من أنه سيسعد كثيراً، لو استطاع أن يضمّها إليه مرّة واحدة فقط، للحظة واحدة. لم يدر ما الذي يمكن أن يفعله؟ لكنه عاد إلى البيت منشرح الصدر، ولاحظ أنّه أصبح أكثر لطفاً وتفهماً تجاه ستيلا، وزال غضبه بشكل مفاجئ.

في اليوم التالي علم من جوليانو أن هذه السيدة تدعى كريستينا - ويطلق عليها أصدقاؤها اسم تينا - وبما أن جوليانو يعرف ستيلا أيضاً، لم يبدِ سلمان إعجابه بأي امرأة أمامه، فكان يسأل عن أسماء

زبائن آخرين للتمويه. لكن جوليانو الخبير كعالم نفس فهم لعبته هذه وجاراه فيها. بعد ظهر ذلك اليوم، لم تأت تينا إلى المقهى مع أنّها كانت تأتي كلّ يوم في فترة الغداء منذ أكثر من سنة وتتناول سندويشة تراميتزينو وكأس نبيذ أحمر. ولم يرها كذلك وراء المكتب الأمامي في مبنى لانسيتي. عاد سلمان أربع مرات يتفقدها قبل أن يعود إلى مكتبه، ولم يستطع أن يركّز على عمله في ذلك اليوم.

مرّ أسبوع بدا كأنه دهر، ثمّ ظهرت مرة أخرى. أومأ لها عندما دخلت المقهى، وقال لها باللغة الألمانيّة، «لم تأتي إلى المقهى منذ فترة». بدا أنها فوجئت بسؤاله، وقالت: «أرى أنك تتحدّث الألمانية»، كأنها لم تفهم ما ألمح إليه.

«لقد درستُ في هايدلبرغ»

«آه، هايدلبرغ. يا لها من مدينة رومانسية. أمضيت فيها أسبوعاً في أحد عروض الأزياء». حاولت أن تتحدّث بالألمانيّة الفصحى، لكنها لم تستطع إخفاء لكنتها السكسونية التي صدحت بسعادة بين كلماتها.

«هل ذهبتِ في الأسبوع الماضي أيضاً إلى هناك للمشاركة في عرض أزياء؟» سألها.

«لا، للأسف لا. اعترضتنا بعض المشاكل مع الموردين في ميلانو».

«فهمت. إن مشاكل كهذه خبزنا اليومي في تجارة الاستيراد والتصدير».

أخرجت مجلتها من حقيبتها اليدوية، ببطء وبهدوء، اعتبرها سلمان إشارة واضحة. فتظاهر بأنه منهمك في قراءة الصحيفة التي اشتراها صباح اليوم من الكشك القريب من شقّته.

عندما ودعته تينا وسارت أمامه، أحسّ بإثارة غريبة. فقد لازمه عطرها حتى بعد أن غادرت المقهى.

منح نفسه شهراً للتقرّب منها. فقد أجّج سماع صوتها رغبته فيها. لكن الصدمة جاءت عندما دعاها ذات يوم بحذر إلى العشاء. رمقته بنظرة طويلة، وسألته: «هل يمكنني أن أتحدث معك بصراحة؟» فهزّ سلمان رأسه موافقاً بصمت، وشعر أن الأسوأ قادم. ثم أردفت: «هذا غير ممكن. فمع أن شريكتي أكثر امرأة مسالمة في العالم، لكنّها تغار. ولن تفهم أبداً، ويكفي أنني أهملها بسبب عملي».

لو كان سلمان قد قُدّ من زجاج، لتهشّم وتناثر إلى ألف شظية في تلك اللحظة، لكنه مخلوق من لحم طري فالتصق بكرسيه. لم يعرف إلى أين ينظر، ولم يعرف ماذا يقول. أحسّ بالشحوب يكسو وجهه.

ثم قالت: «أردت أن أكون صادقة معك»، وأضافت، «إنك رجل جذاب ولطيف، وإذا جرحتك صراحتي، فإني أعتذر منك».

«لا داعي للاعتذار فهذا ليس بمشكلة»، أجاب سلمان، محاولاً أن يتظاهر بعدم المبالاة. وعندما غادرت، شتم ولعن، كما يشتم العرب، كلّ أجدادها حتى وصل لأمها التي أنجبت هذه المرأة إلى العالم. شعر بالارتياح لأنّ جوليانو لم يكن قريباً منه ليسمعه.

بعد شهر، رأى تينا برفقة امرأة سمراء البشرة في مشتل أزهار «فلور غاردن» القريب من منزله. أراد أن يشتري باقة أزهار قبل أن يذهب إلى المكتب ليقدمها إلى موظفته كيارا بمناسبة عيد ميلادها. كانت تينا ترتدي بنطال جينز وحذاء رياضياً، كأنها في إجازة. حيّته من بعيد في المحل الواسع، لكن المرأة التي ترافقها رمقته بنظرة مليئة بالشكّ. فربتت تينا على يدها تطمئنها. خارج المحل، بينما كان ينتظر الحافلة، رآهما تسيران نحو موقف الترام. ولاحظ أنّ تينا، على الرغم من جاذبيتها، لم تعد تثيره أو تثير اهتمامه.

ظلّ في المكتب حتى ساعة متأخرة من عصر ذلك اليوم. وعندما عاد إلى البيت، لم يتوجّه إلى المصعد مباشرة، وإنما ألقى التحية

على توماسو، المشرف على البناية، الجالس في غرفته. بدا توماسو، بوجهه المستدير وابتسامته الدائمة، لأي شخص غريب، رجلاً بسيطاً، لكنه رجل موهوب وتقني يجيد تصليح كلّ شيء حتى الآلات المعقدة، وملاحظ دقيق، وكاتم للأسرار. فهو يعرف من هو حزين من سكان البناية، ومن يعيش في عزلة، ومن هو محطّم القلب نتيجة علاقة فاشلة، ومن يلتقي بعشاقه سرّاً، بالإضافة إلى مواعيد أعياد ميلاد جميع الأطفال. وكان يلقي دائماً تحية مليئة بالودّ، أو يقول كلمة طيبة، دقيقة، رقيقة، ناعمة مثل رخام مصقول. كان واحداً من تلك الكائنات اللطيفة النادرة التي أصبحت مهددة بالانقراض. ومنذ بضع سنوات، أرادت شركة العقارات التي تشرف على مجمّع الشقق إنهاء خدماته لتوفير بعض النفقات. لكن سلمان تصرّف بسرعة، وحشد أصحاب الشقق العشرة وجميع المستأجرين في البناية، وأقنعهم بأن إنهاء خدمات توماسو سيحدث شرخاً كبيراً في أسلوب حياتهم، فسحبت الشركة اقتراحها. ومنذ ذلك الحين، أصبح لدى سلمان صديق مخلص يفرح بهداياه الصغيرة - كان توماسو يحبّ النبيذ الأبيض وسمك التونا المعلّب أكثر من أي شيء آخر.

دخل سلمان إلى باحة المجمّع الصغيرة حيث تنتصب تحت السماء شجرة «إيكي دنيا» وشجيرة دفلى كبيرة، وشجرة نخيل صغيرة لكنها قوية، مثل آلاف الأشجار في الشرق. وقف سلمان أمام شجرة النخيل. حتّى عندما كان طفلاً، كان يعرف أنها نباتات اجتماعية حساسة. . . وتقول حكاية عربية قديمة إن اللّه خلقها من الطين الذي تبقّى من خلق آدم وأوصاه بالاعتناء بأخته النخلة.

«يا أختاه، كلانا سجينان. متى ستنبت أجنحتنا؟» سمع نفسه يهمس لشجرة النخيل باللغة العربية.

نار الحبّ وماء العقل

تتمثل إحدى أكبر مصاعب الحياة في إقناع القلب والعقل بأن يعملا معاً.
لكن في حالتي البائسة فهما يرفضان حتى أن يتصل أحدهما بالآخر بلطف.

الممثل وودي آلن

دمشق، ١٩٥٠-١٩٧٠

كلّما حزنت عايدة، تذكّرت طفولتها وتركت ماء ذكريات طفولتها السعيدة تروي عطشها. كطفلة ثانية لأسرة مسيحية غنية، يهيم والداها أحدهما بالآخر. اكتشفت ذلك في السابعة أو الثامنة من عمرها عندما بدأت تدرك، شيئاً فشيئاً، أن والديها لم يكونا يخلدان إلى النوم فوراً - كما كانت تفعل هي وشقيقها سامي - عندما يقولان: «سنذهب لننام، تصبحون على خير». كانت غرفة نوم عايدة تتوسط غرفة سامي وغرفة نوم والديها. وكان أخوها سامي آنذاك في الثانية والعشرين من عمره، وقوياً مثل ثور، لا يزال يعيش في بيت ذويه كطالب جامعي كما كان سائداً آنذاك.

لم تكن عايدة تخاف من عتمة الليل مثل معظم الأطفال لأنها تعرف أن والديها سيحميانها، وكذلك سامي الضخم، القوي البنية.

فإذا خافت، لم يكن عليها إلّا أن تقرع باب غرفة أخيها، ليُري الذين يهاجمونها ماذا يمكن أن يفعله بهم، وقد وعدها بأنه لن يسمح لأحد أن يلمس شعرة واحدة من رأس الأميرة عايدة. «حتى لو كان أسداً، فإني سأمزّقه إلى شطرين، وإذا حاول أن يقاوم، فإني سأمزّقه إلى أربعة أشلاء. كلّ ما عليك أن تفعليه هو أن تقرعي الباب ثلاث مرات، أو تصيحي 'النجدة' وسأكون رهن يديك، وبعد أن أنتهي من معركتي، يمكنك أن تساعديني على تنظيف غرفتك من أشلاء الأسد».
كان يكرر ذلك على أسماعها، ولم تنس عايدة ضحكتها كلّما قال لها ذلك. وفي أحد الأيام، أرادت أن تختبره، فصاحت بصوت خفيض، «النجدة»، ففتح سامي باب غرفتها على الفور، وقفز إلى منتصف الغرفة، وراح يلوّح بسيف كانوا قد ورثوه من جدّ جدّهم يقال إنه كان بطلاً عظيماً في ذلك الزمان. بدا سامي مضحكاً في سرواله الداخلي، شاهراً ذلك السيف. فضحكت عايدة حتى دمعت عيناها، بينما راح سامي يردد بصوت جهوري «أين الأسد؟ أين أنت، أيها الأسد الجبان؟» ثمّ قبّلها على جبينها، وعاد إلى غرفته لينام.

بالطبع، لم يظهر لعايدة أسد قط، لكن بما أنها كانت تثق في قلبها أن باستطاعتها دائماً أن تعتمد على أخيها سامي، فلم تكن تخاف من العتمة.

بذل والداها كلّ ما بوسعهما كي لا يصدر عنهما صوت أثناء مداعباتهما الحميمة، لكن لهيب الحبّ كان يقهر في معظم الأحيان قدرتهما على كبح جماح عواطفهما اللاهبة. فقد كانت أصوات ضحكاتهما ولهاثهما وتنهدات المتعة واحتكاك جسديهما وهمساتهما، تُسمع من وراء الجدار، فتستيقظ عايدة مرات ومرات. فتستلقي صاحية، تمتّع نفسها، حتى يغالبها النعاس مرة أخرى وتغطّ في النوم. كانت تحاول أن تتخيّل ما الذي يفعله والداها في تلك

اللحظات، لكنّها لم تفلح. وفي أحد الأيام، خُيّل إليها أنهما يؤديان ألعاباً بهلوانية كما يفعلون في السيرك، حيث تتوازن أمّها على رأس أبيها الذي يفتلها في دائرة، فتصيح بأنفاس متقطعة، «نعم، أكثر. .أكثر، أرجوك أسرع. . . أسرع».

وفي إحدى المرات، تخيّلت والدها متنكّراً في هيئة فأر، مختبئاً تحت السرير، وتلعب أمّها دور القطّة. «تمهلي، ستأكلينني. تمهلي قليلاً» كان الفأر يقول بصوت مرتعش، فتضحك القطّة، وتقول: «هيا يا صغيري، هيا انتهِ، تعال. . .تعال». فتضحك عايدة.

فيما بعد ضحكت كثيراً على خيالها الخصب الذي صوّر لها ألعاباً وتسليات أكثر في غرفة والديها، عندما شرحت لها صديقتها في المدرسة أمل بساطة ما يفعله الأزواج عندما يمارسان الحب.

لم يبق عشق والديها سراً - فقد كانا يقبّلان بعضهما أمام الأقرباء والجيران، ولم يكترثا لأحد. وكان مثل هذا السلوك يعتبر في دمشق آنذاك «قلة حياء». لكن استمرار حبّهما بعد تلك السنوات الطويلة من زواجهما اعتُبر في أوساطهما العائلية شيئاً نادراً، كأنه أعجوبة، وبدأ استمرار هذا الغرام يزعج أقاربهما الذين أطلقوا عليهما ساخرين اسم «طيور الحبّ».

بعد شقيقها سامي، كانت عايدة الطفلة الأولى التي ظلّت على قيد الحياة. فقد مات أربعة أطفال قبلها، ما جعل والداها وسامي يدللانها كثيراً. ولم يصعب عليها أن تطلب شيئاً حتى «لبن العصفور» كما يقول الدمشقيون. فقد كان سامي بطلها وصديقها وحاميها والمهرج الذي يضحكها. وكان مخترعاً بالفطرة، فقد صنع لها ألعاباً كثيرة من الأسلاك والخشب والقماش احتفظت بها كلّها، حتى بعد خمسين سنة، ظلت كنزها الثمين. وعندما كانت في السابعة من عمرها، صنع لها سامي طائرة من الورق الملوّن لتطيّرها في السماء

وكتب عليها «أنا عايدة» بحروف كبيرة. فرحت كثيراً في ذلك الوقت، حتى أنها بكت لأول مرة من شدة فرحها. وبعد ثلاث وخمسين سنة بكت فرحاً للمرة الثانية عندما ضمّها كريم بين ذراعيه.

عندما تخرّج سامي في كلية الهندسة، غادر البلد ولم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره. سافر أولاً إلى السعودية حيث الرواتب أفضل من أماكن أخرى، ثم أوفدته الشركة الأمريكية التي يعمل بها إلى نيويورك، بعد أن اقتنعت بموهبته وقدراته. وبعد فترة قصيرة، أصبح مسؤولاً عن قسم البحوث في مصنع للآلات في نيويورك.

وفي أحد أيام الربيع، وصل الخبر الفظيع. أطلقت عليه عايدة يوم الأحد المأسوي في ٢١ آذار ١٩٦٥. ولم تنس عايدة تاريخ هذا اليوم طوال حياتها. كانت في الخامسة عشرة من عمرها. لا تزال تتذكّر ذلك اليوم الحار الذي كان يشبه يوماً صيفياً، عندما كان والداها يشربان القهوة في حديقة بيتهم الصغير في حارة العبارة عندما رنّ الهاتف. ردّ أبوها. كانت زوجة سامي، ناتالي، على الطرف الآخر من الهاتف. كان والد عايدة يتحدّث الإنكليزية بطلاقة وكان يشغل منصب مدير مصنع السجائر الذي أنشئ حديثاً. تشنجّ وصاح على الهاتف، بالإنكليزية والعربية، «ماذا؟ what؟ ماذا؟ لماذا؟ why؟، أين حدث ذلك؟ كيف؟ يا إلهي. متى حدث ذلك؟»

سقط الفنجان من يد أمّها التي صاحت، «سامي، يا إلهي، سامي». فقد غرق سامي أثناء رحلة بحرية مع أصدقائه عندما هبّت فجأة عاصفة قوية. كانت أمّ عايدة تحبّ ابنها إلى درجة العبادة. في تلك اللحظة المأسوية بعد موته غرقاً، فقدت إيمانها بالله، وراحت تصرخ رافعة وجهها إلى السماء، «لماذا سلبتني ابني؟ ألم يكفك موت أطفالي؟ أنت لست رباً رحيماً - حتى أنك تخلّيت عن ابنك

يسوع أيضاً، أيها الخائن عديم الرحمة». وبكت طوال أيام وأسابيع وأشهر. ولا تتذكّر عايدة إلى متى ظلّت أمّها تبكي بحرقة حتى فقدت صوابها. أما أبوها، فقد ابتلع حزنه وحاول أن يواسي زوجته، لكن من دون جدوى. وبعد فترة قصيرة، لم تعد تعرف أحداً - لا زوجها، ولا عايدة.

«لماذا لا تأخذها إلى المستشفى، أو تضعها في دار رعاية للعناية بها؟» كررت عايدة محتجّة لأبيها الذي ظلّ يرعى أمّها بتفان، لكن رعايته لها لم تكن مجدية، «إنها لم تعد تعرفك».

«لكنّي أعرفها يا ابنتي»، قال لها وقبّل جبين أمّها التي كانت تحدّق في عالم بعيد، غير مدركة وجوده.

وخوفاً من أن تؤذي نفسها، أحضر أبوها عمّتها المسنّة لتساعد عايدة على رعاية أمّها إلى أن يعود من عمله مساء كلّ يوم. ولم يعد يرغب بعد ذلك اليوم في زيارة أصدقائه أو زملائه، ولم يعد يرغب في أن يزوره أحد منهم. وبدأ يقرأ لزوجته ويطعمها كأنها طفلة صغيرة ويداعب يدها. كانت ترفض أن تأكل، وكانت تضرب نفسها وتضربه، لكنه كان يتحمّل كلّ ذلك بصبر قدّيس. وعندما تغطّ في النوم، يبكي مثل طفل وهو يغسل الصحون في المطبخ.

لكن قلبه الكبير لم يكن قوياً بما يكفي ليحتمل حزنه، فمات بعد سنة من وفاة ابنه وهو ذاهب إلى عمله. مات فجأة، على غفلة - أو ربما، بالرغم من الأعراض والتحذيرات الكثيرة الصغيرة التي لم يلاحظها أحد إلّا عايدة.

أصاب موت والدها عايدة بجرح في الصميم. ولسنوات طويلة لم تفهم لماذا أغرق موت شقيقها العائلة كلّها في بؤس فظيع. لماذا لم يدرك أبوها أنّه كان يدمّر نفسه عندما أصر على الاعتناء بأمّها التي كانت تهذي وهي تصارع شياطين جنونها في عوالم بعيدة، وهذا ما

أعاق زوجها أو ابنتها عن مساعدتها؟ لماذا لم يفهم أبوها ذلك؟ مع أنه رجل ذكي. هل سلبه الحبّ عقله؟ هل أصيب بعدوى جنون زوجته وأصبح مجنوناً على طريقته؟ هل يبقى الحبّ حبّاً إذا كانت لديه القوّة لجعل شخص محبّ يغرق في البؤس؟ هل قيّد الحبّ أمّها وأباها معاً فلم يعد بإمكان أحدهما أن يعيش من دون الآخر؟

بعد سنوات أدركت عايدة أنّ هذه الأسئلة ساعدتها على الشفاء من موت أبيها. فقد وضعت مسافة بينها وبين جنون والديها الذي أنقذها. لكن هذه التجربة المريرة كانت بمثابة تحذير أيضاً - فقد قررت ألّا تسمح لأحد أن يقيّدها بالحبّ.

بعد جنازة أبيها بأسبوع، انتحرت أمّها في لحظة غفلة، عندما كانت عايدة في المدرسة. قامت عمتها آنذاك برعاية أمّها، وعندما قرع ساعي البريد الجرس نزلت إلى الطابق السفلي لتفتح له الباب، في تلك اللحظة ألقت أمّها بنفسها من نافذة الطابق الثاني. رأت العمّة التي كانت توقّع على إيصال استلام رسالة مسجّلة، أمّ عايدة وهي تسقط على الأرض على بعد بضع خطوات من المكان الذي يقف فيه ساعي البريد، وماتت على الفور.

والغريب في الأمر، أن عايدة لم تحزن كثيراً على أمّها. ولولا خجلها، لقالت لجيرانها وأقاربها، «كفى ادعاء. لقد ارتاحت أخيراً وأصبحت في سلام الآن».

كانت عايدة تحبّ القراءة، لكنها لم تقرأ كتاباً إلّا إذا أثار اهتمامها. لذلك، لم تكن تحبّ الكتب المدرسية. فقد تحمّلت ملل الساعات والأيام لإرضاء والدها الذي كان يطمح لرؤيتها طبيبة أطفال. أحبّت الموسيقى، لكن الغناء في جوقة غناء للفتيات كانت الإمكانية الوحيدة المتاحة لها في المدرسة لأن العزف على الآلات

الموسيقية اقتصر على الذكور فقط. وبعد موت أمّها بفترة قصيرة، لم تعد تذهب إلى المدرسة، وبدأت تتعلّم تصفيف شعر السيدات.

في العشرين من عمرها تقريباً، وعندما كانت على وشك أن تُنهي تدريبها، أحبّت شاباً وسيماً، شاباً فقيراً يأتي لتنظيف زجاج واجهة صالون الحلاقة الراقي في وسط المدينة لقاء بضعة قروش في الأسبوع.

في صباح أحد الأيام، بينما كانت عايدة ترتّب منتجات العناية بالشعر الجديدة على الرفّ، رفعت عينيها. في تلك اللحظة، كان الشاب قد أنهى مسح شريط الرغوة على زجاج النافذة وأصبح بإمكانه أن يرى ما يجري داخل الصالون. وعندما وقعت عيناه على عينيْ عايدة، وقف مشدوهاً وارتسمت على وجهه ابتسامة مؤلمة. ذكّرها ذلك بلوحة تصوّر المسيح وهو واقف أمام بيلاطس البنطي، يحيط به معذّبوه. وهي اللوحة الأولى من بين اللوحات الأربع عشرة المعلّقة على جدار الكنيسة التي تصوّر *محطات طريق الجلجلة* أو *طريق الآلام* كما تسميه الكنيسة، بدءاً من إدانة المسيح وحتى دفنه، بريشة رسّام إيطالي. كانت عايدة مفتونة جداً بهذه اللوحات وعندما كانت تراها يرتعش كيانها كلّه. تخيلت أحداث الأربع عشرة لوحة بأدق تفاصيلها كأنها تجري أمامها.

نظر إليها الشابّ وقد أمال رأسه قليلاً، وبدا أنه نسي ما الذي كان يفعله، وقد بدأت فقاعات الرغوة التي تملأ زجاج النافذة تتفجّر وتسيل على الزجاج في أنهار صغيرة. لاحظت زميلتها فريدة الأكبر سنّاً ذلك، وقالت لها: «يبدو أن أحداً قد وقع في غرام عايدة».

أجفلت عايدة. وضعت آخر قناني الشامبو في مكانها على الرفّ، واختبأت في غرفة المخزن في الجزء الخلفي من الصالون، وقد احمرّ وجهها خجلاً. عندما أنهت عملها هرعت إلى الكنيسة،

وراحت تحدّق في اللوحة الأولى من لوحات محطات آلام المسيح. لا لم تبالغ في تقديرها. فقد وجدت شبهاً كبيراً بينهما. في تلك الليلة، لم يغمض لها جفن، ولم يفارق الشاب تفكيرها.

في صباح اليوم التالي، سخرت سلمى، المساعدة الغيورة، من عايدة عندما عاد الشاب لينظّف النافذة وابتسم لها، وقالت لها: «لقد ارتدى أفضل ثياب لديه من أجلك، وأصبح يبدو الآن أكثر تعاسة». كان لسانها حادّاً مثل مبرد الحديد، وصوتها يطغى على صوت أيّ مذياع.

عندما أنهى الشابّ عمله وغادر، قالت لها سلمى، «لو كنت في مكانك لهربت معه، أساعده في تنظيف النوافذ، وأستمتع بالهواء النقي طوال اليوم»، ونفخت فقاعة كبيرة من علكتها وفرقعتها، ثم أطلقت ضحكة مبتذلة عالية. فغضبت عايدة وتمنت أن تخنقها. هزّت فريدة رأسها، وربتت على كتف عايدة، ونظرت في عينيْ سلمى نظرة لو كانت مصنوعة من النحاس أو الرصاص لأمكنها اختراق جلد خنزير بري قاس.

عندما عادت عايدة إلى البيت، وقد أمضّها الشوق، لم تستطع أن تفعل شيئاً إلّا أن تفكّر في ذلك الشابّ. وبدأت تأمل في صباح كل يوم أن تصادفه في طريقها وهي ذاهبة إلى صالون حلاقة السيدات، لكن الحظ لم يحالفها قط. ثم عاد وظهر وراء نافذة الصالون وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة صامتة، وأخذ ينظّف لوح الزجاج الكبير ببطء شديد. أرادت عايدة أن تختبئ، فاختلقت عذراً ولجأت إلى الغرفة الخلفية كي لا يراها، وبقيت هناك. ثم أحسّت باحتقار نفسها لأنها كانت جبانة. مرّ شهران تقريباً على هذا المنوال. وعندما كان يبتسم لها في صباح كلّ يوم، كان يخيّل إليها أنها تسمع خفقات قلبها.

فجأة، ومن دون سابق إنذار، وحتى من دون أن يودعها، لم يعد الشاب يأتي. وبعد أسبوع، حلّ مكانه رجل مسنّ وبدأ ينظف لوح زجاج صالون الحلاقة.

بدا القلق على وجه عايدة، وكان قلبها يتوق إلى رؤية ذلك الشابّ الذي أُغرمت به حتى من دون أن تعرف اسمه. ولكي تزعجها، كانت سلمى تدندن بعض الأغاني التي تتحدّث عن الحبّ من جانب واحد والتي يجنّ العاشق ُو ينتحر في نهايتها. لاحظ صاحب الصالون الكآبة التي اعترت عايدة وفهم سبب ذلك. فطلب من سلمى أن تريحه من سماع صوتها الشنيع، أو أن تذهب وتقف أمام صالون منافسه وتغني هناك لتعذّب الزبائن بسياط لسانها. فصمتت سلمى.

عند حوالي الظهيرة، بدأ يعتري عابدة شعور بالوهن. حاولت أن تغلّف وجهها بقناع الشجاعة وتظهر حماسة ونشاطاً أكبر في عملها، لكن صاحب الصالون أحسّ بحزنها، وقال لها بنبرة أبوية: «اذهبي إلى البيت يا ابنتي. إنك شاحبة الوجه، ولا يوجد عمل كثير في الصالون اليوم».

في تلك الليلة أصيبت بحمّى. وعندما بدأت تتقيأ، استدعت عمّتها العجوز التي كانت لا تزال تعيش معها في البيت منذ وفاة أبيها، الطبيب الذي وصف لها بضع أدوية، وأمرها بأن تلزم السرير لفترة من الوقت.

لم تقف عايدة على قدميها إلّا بعد أسبوعين. لكنها تغيّرت كثيراً في هذه الفترة القصيرة. فقد أتاحت لها فترة الاستراحة تلك فرصة جيدة للتفكير، حاكمت نفسها بعنف، وأدركت أنّها تصرّفت كما تصرّف والداها، وفعلت نفس الشيء الذي أدى إلى موتهما. وفي جميع الأحوال، ما الذي تعرفه عن هذا الشاب؟ لا شيء! ومع

ذلك، فقد أصبحت مهووسة بالتفكير فيه، مع أنها لم تعرف حتى اسمه. مرّت القصة كلّها مثل فيلم صامت تدور أحداثه صباح كلّ يوم لمدة خمس دقائق، وكانت الشاشة هي لوح زجاج الصالون، وهي مشاهدة الفيلم الوحيدة والتي عشقت صورة، الممثّل. من يعرف كم امرأة أخرى يبتسم لها كلّ يوم؟

لامت عايدة نفسها بشدة. وعندما عادت إلى العمل، بدت فتاة مختلفة تماماً. وكانت سلمى أول من لاحظ ذلك، وعندما قالت لها متهكمة، «عاشقة متيّمة»، ردّت عليها عايدة ساخرة، «أنت كبرميل من دون خصر، وبهذا الوجه القبيح، لن تحبي أحداً لأنك تعرفين تماماً أنه ليس لديك أمل بأن تغري ضفدعاً أعمى».

صُعقت سلمى وتسمّرت في مكانها كلوح خشب.

«تهانيَّ، يا ابنتي، أخيراً سيصبح الصالون أكثر هدوءاً»، قال لها صاحب الصالون على الغداء.

بفضل شهادة التأمين على الحياة السخية التي تركها لها والدها، استطاعت عايدة أن تفتح صالوناً أنيقاً لتصفيف شعر السيدات في المدينة الجديدة. وبسرعة كوّنت لنفسها سمعة جيدة في الحيّ الراقي، ووظّفت ثلاث مساعدات. لكن الموسيقى كانت شغفها الرئيسي، فبدأت تعزف على العود - في وقت متأخّر من حياتها - لكن بحماسة شديدة. وكانت مطربتها المفضّلة جميلة نصور، المطربة المشهورة، التي قبلت أن تعلّم عايدة العزف مجاناً عندما التقت بها لفترة قصيرة. وردّاً على معروفها هذا، كانت عايدة تصفف شعر المطربة بأجمل التسريحات العصرية. . . ومن دون مقابل.

خلال أربعين سنة تقريباً، لم تسمح عايدة لنفسها أن تحبّ

أحداً. فقد ردعتها ذكرى والديها والشابّ الوسيم عن ذلك. وأصبحت ترى أن الحبّ الرومانسي مرض، يقع في مكان ما بين داء الشقيقة والإسهال، وأن التفكير العقلاني هو الذي يجب أن ينتصر.

وهكذا فعلت لسنوات طويلة، إلى أن حلّ لهيب الحبّ أخيراً محلّ ماء العقل البارد.

الشرخ
أو مفهومان مختلفان للحياة

روما، ١٩٩٥

حفلة ذات عواقب

لسنوات عديدة، كانت الحفلات الصيفية من اختصاص ألفريدو أنجليني، المهندس المعماري الناجح والمضيف الكريم. ففي شهر آب من كلّ سنة، كان ألفريدو يدعو مئة شخص من صفوة المجتمع في إيطاليا إلى ميلانو لمشاركته في الاحتفال بعيد ميلاده. وتميزت هذه الحفلات بالتخطيط الدقيق لألفريدو، ففي الوقت نفسه هي حفلة صاخبة تضم برنامجاً مليئاً بالرقص والموسيقى والعروض الكوميدية وألعاب السحر، تعقبها لحظات طويلة من الهدوء يتبادل خلالها المدعوون الأحاديث. ويظلّ برنامج السهرة سرّاً حتى اللحظة الأخيرة. لذلك كان المدعوون يترقبون بشوق المفاجآت التي يحبّ ألفريدو أن يفاجئ بها ضيوفه دائماً.

لم يدعُ ألفريدو ستيلا وسلمان إلى حفلة عيد ميلاده كلّ سنة لأنها ابنة عمه فقط، وإنما لأنه يكنّ لها احتراماً كبيراً. فقد كانت مستشارته الموثوقة في الأدوية التي يتناولها بكثرة لأنه مصاب بوسواس المرض. ومن جهة ثانية كان سلمان يساعد كخبير في البلاد

العربية ألفريدو من دون مقابل عندما يبرم هذا الأخير عقداً لمشروع مع إحدى الدول العربية.

في تلك السنة، لم تشأ ستيلا أن تحضر حفلة ألفريدو، واتخذت باولو ذريعة لذلك. فقالت إنه لم يبلغ الثمانية أشهر من عمره بعد، وأن لديها حدساً بأن شيئاً ما سيحدث له. لكن ألفريدو وسلمان أصرّا على أن تحضر الحفلة. وبما أن ألفريدو رتّب لجميع ضيوفه إقامة في أرقى فندق في ميلانو لمشاركته الفطور في صباح اليوم التالي، لم يبق لدى ستيلا من خيار سوى أن تبحث لباولو عن جليسة أطفال. فطلبت من والديها أن يأتيا من تريست، ووجدت أيضاً جليسة أطفال خبيرة لمساعدتهما. سخر سلمان من كلّ ذلك، وقال لها: «لم يعد ينقص إلّا أن نجلب حارسين خاصين ليقفا عند مدخل البناية، وطائرة هليكوبتر تحوم فوق المبنى»، فضربته ستيلا على ظهره، وضحكت أمّها.

«هكذا هي ستيلا. دائماً تنجز كل شيء بدقة مئتين في المئة»، قال أبوها، بنبرة تشي بالاعتذار. كان باولو يهدل في سريره بسعادة وبدا أنه يستمتع كثيراً بعناق جدّته ومداعبتها له.

«لم تقبّلني هكذا طوال حياتي»، همست ستيلا لسلمان وهما يهمّان بمغادرة البيت.

فأجابها: «يحتفل الجدّان بانتصارهما الثاني على الموت عندما يولد لهما حفيد، فيغدقون عليه حبّهما كلّه».

فقالت ستيلا: «ويمكنهما أيضاً أن يحبّا حفيدهما من دون الاكتراث لكل علوم التربية والأخلاق».

لم يفارق القلق ستيلا عندما ذهبت إلى ميلانو. لم يلاحظ سلمان وحده قلقها، وإنما ألفريدو أيضاً الذي قال لها هامساً، «إذا شربتِ كأساً من الشمبانيا فإنك ستشعرين بالاسترخاء. كوني على ثقة

بأن باولو في أفضل حال. إن الأطفال يحبّون الفوضى التي يخلقها الجدّان». تكلّم معها في تلك السهرة بنبرة أبوية، فشعرت ستيلا بالحرج لأنها أثقلت على ابن عمها بقلقها هذا غير المبرر. وعندما تناولت بضع كؤوس من الشمبانيا نسيت كلّ شيء يتعلق بباولو.

غادرت ستيلا وسلمان الحفلة بعد منتصف الليل، وظلّ عدد من المدعوين من محبّي السهر في الحفلة، لكن معظم المدعوين بدأوا يغادرون بعد منتصف الليل بقليل بعد أن أنشدوا له أغنية «عيد ميلاد سعيد».

كانت ستيلا مبتهجة وثملة قليلاً، وطوّقت سلمان بذراعيها، وقالت: «رأيت بعض النساء اليوم. لو كانت لدى أعينهن أسنان لما بقي منك شيء. أحبّك. أنت رجل رائع».

«وماذا عني؟ أنا لا أملك عينين لغيرك. لا أزال مفتوناً بك».

عندما أويا إلى الفراش، نسيت ستيلا كلّ شيء آخر. فلم تكن مستلقية في سرير كبير أنيق في فندق فخم... وإنما طارت وكأنها رائدة فضاء مع سلمان في الفضاء، وكانت في غاية السعادة.

رؤيتان مختلفتان للحياة

بعد بضعة أسابيع، أطلّ الشكّ برأسه القبيح، أعقبه خوف شديد من أن تكون ستيلا قد حبلت. وظلّ سلمان يطمئنها ويهدّئ من روعها. لكن عندما أجرت اختبار حمل وكانت النتيجة إيجابية، تغيّر موقف سلمان من ستيلا على الفور. وفي صباح أحد الأيام، عندما كانا يتناولان طعام الفطور، قال لها لعل هذه هدية من السماء ليصبح لباولو أخ أو أخت صغيرة، ويلعبان معاً حتى لا يبقى وحيداً.

لكن ستيلا لم تكن تريد أن تنجب طفلاً آخر، وإنما كانت تريد

أن تعود إلى الجامعة في أقرب وقت ممكن. فبكت وصاحت بأنّها تفضّل أن تموت على أن تصبح ربّة منزل. وأنّبت سلمان لأنه يريد أن يدفعها لتقوم بدور الأمّ التي - بالإضافة إلى فكرة الأسرة المثالية - أصبحت أسطورة، ادّعاء، في إيطاليا. ولن تنسى أمّها «التي كانت تجيد العزف على البيانو عندما كانت في السادسة عشرة. . .لكنها أصبحت ربّة بيت بسيطة سعيدة بعد أن أنجبتني إلى هذا العالم بعد أربع حالات إجهاض، لكي يضبح أبي سعيداً». كانت ستيلا تعرف أن أمّها كانت تعاملها بفتور لأنها كانت تحلم بأن تنجب ابناً ولم تكن مسرورة لأنها أنجبتها.

«إنك تقولين ذلك لأنك تتعالين على ربات البيوت»، أجابها سلمان غاضباً، «فلولاهن لما كانت هناك حياة أو ثقافة على وجه الأرض»، أجابها سلمان بغضب.

«الحقّ معك»، قالت له بهدوء، لكن بنبرة تهديد، ثم أضافت، «ما دام الأمر هكذا، أرجو أن تقوم بهذا العمل النبيل في البيت. فأنا أعمل وراتبي يكفي لإعالة الأسرة». ظلّا يتجادلان، وعيّرته ستيلا بأنه تحوّل إلى رجل أعمال عادي بعد أن كان مقاتلاً يناضل من أجل الحرّية وجازف بحياته لإنقاذ وطنه.

بعد عدة أيام أدرك سلمان أنّه ارتكب خطأين غبيين في جداله مع ستيلا. فخلال حديثه معها حول إنجاب طفل آخر، أصرّ على أن مستوى المعيشة الذي حققاه يكفي لأن يدفع ستيلا إلى أن تترك عملها في الجامعة. لكن إصراره الأناني هذا أعماه عن الواقع بأنّها لم تعشق الأبحاث سعياً وراء المال، وإنما لأنها شغوفة بعملها ذاك.

أما الخطأ الثاني الذي ارتكبه، فكانت عواقبه أشدّ. فقد أخبرته ستيلا بثقة ومن دون مواربة أن استخدام حبوب الإجهاض في إيطاليا

غير قانوني، لكنه قانوني في فرنسا وألمانيا. وقالت إنها ستأخذ إجازة لمدة أسبوع وتحدد موعداً مع طبيب ماهر في فرنسا لإجراء عملية الإجهاض.

كان سلمان الذي أصيب بالذعر قد أخبر والديها فهرعا على الفور لزيارتها. فيما بعد أيقن سلمان انه اتصل بهما لأنه شعر بالإحباط ولم يعرف ما الذي يجب أن يفعله، لكن ستيلا اعتبرت أنه خانها. وهكذا ذرفت أمّها فيضاً من الدموع، وذكّرها أبوها بأن الإجهاض خطيئة مميتة. شعرت ستيلا بأنها وحيدة وضعيفة، وخطر ببالها في تلك اللحظة أن تترك البيت وتهرب، لكنّها قرّرت أن تتشبّث بموقفها. بتهذيب لكن بحسم، طلبت من والديها أن يغادرا بيتها. كان سلمان آنذاك في المكتب، وأحسّ بالذنب لأنه ترك ستيلا تحت رحمة والديها، ووجد أن والدها تصرف بغاية السخافة عندما قال إن الإجهاض «خطيئة مميتة»، وأدرك متأخراً أن دموع أمّها مصطنعة وتستطيع أن تنفجر في البكاء في اللحظة التي تريد. وبدأت ستيلا تزداد توتراً لأن الإجهاض بدأ يزداد خطورة مع مضي كلّ يوم.

عندما عاد إلى البيت وجد ستيلا تحزم حقيبتها. توسل إليها بألّا تذهب إلى فرنسا، وأن تجري عملية الإجهاض في روما على يد طبيب نسائي ماهر. فقد أعطاه أحد الأصدقاء عنوان طبيب ورتّب الأمر معه. وقال لها إنه موافق على أن تجري عملية الإجهاض، وبكى وطلب منها أن تسامحه. وكما لو أن باولو قد شعر بذلك، بدأ يبكي مستدرّاً عطفها. فأعادت ستيلا حقيبتها، وذهبت وجلست في المطبخ، وفكّرت طويلاً. وفي النهاية، قرّرت أن تجري عملية الإجهاض غير القانونية في روما.

لم تنجح عملية الإجهاض. فلم يُقذف الجنين والكيس السلوي بالكامل، فاضطر الطبيب إلى إجراء عملية جراحية لإزالتهما.

فأصيبت ستيلا بالتهاب واضطرت إلى البقاء في المستشفى أسبوعين آخرين.

في تلك الفترة، اعتنى سلمان بباولو، ورفض أيّ مساعدة عرضها عليه والدا ستيلا، ولم يُحضر أحداً لمساعدته في رعايته والاعتناء به. فتعلّم كيف يُطعم باولو ويحمّمه ويغيّر حفاضاته. وفي الوقت نفسه، اهتمت مساعدته كيارا بإدارة شركة الاستيراد والتصدير. وكانت تتصل به باستمرار، تستشيره وتطلعه على سير العمل، وتطمئنه. وكان سلمان يأخذ الطفل كلّ يوم لزيارة ستيلا في المستشفى لمدة ساعة.

«بدأ باولو يزداد نضارة بعد رعايتك له»، قالت له ستيلا تمتدحه في إحدى الزيارات، وأضافت مازحة، «ربما ينبغي لي أن أبقى في المستشفى إلى أن يتخرج من المدرسة الثانوية»، وقبّلت سلمان على جبينه عندما انحنى ليحمل باولو. ابتسم الطفل ومدّ ذراعيه نحوه.

«لا، إن روما صحراء من دونك. لقد ضعنا كلانا في غيابك»، أجابها سلمان الذي أوشك على البكاء. بدت ستيلا شاحبة ونحيفة. لم يقل لها إنه وضع خطّة حتى لا يتكرر ما حدث.

صوفيا، المنقذة في وقت الشدّة

كلّ ما ينتظره الحب هو الفرصة المناسبة

ميغيل دو سرفانتيس

دمشق، ١٩٥٠-٢٠٠٥

سافر كريم إلى دمشق في خريف سنة ١٩٥٠ بباص بناه نوح كما سمّى يومها الباص المهترئ من كل جانب. بعد سنوات، ستقول له عايدة تستثيره إنه ذهب إلى دمشق ليتأكد من أن صوفيا، المرأة التي ستصبح حبيبته الخفيّة، قد ولدت. فيهتزّ جسده من الضحك لأن زيارته الأولى إلى تلك المدينة كانت تنذر بوقوع مصيبة. كان كريم في الثالثة والعشرين من عمره آنذاك، محطم القلب لأن صوفيا التي أحبّها تزوجت صائغ الذهب الدمشقي الغني. كان كريم يعيش في ذلك الوقت في مدينة حمص التي عُيّن فيها معلّماً في مدرسة ابتدائية. وبما أنه كان معلّماً حديث العهد، فقد عُيّن في مدرسة في ضواحي المدينة حيث يعيش الفقراء. وصمم أن يعلّم الأطفال الكتابة والقراءة وقليلاً من الحساب بكل شغف ومحبة.

كان الأطفال جائعين إلى الخبز وإلى المعرفة. وأحبوا كريم ورأوا فيه ساحراً يمكنه أن يكشف لهم عن أسرار الحروف ويفسّر الظواهر الطبيعية. وعلى الرغم من صغر سنهم، فقد تعلّموا في

نضالهم اليومي ضد الفقر المدقع أسرار البقاء على الحياة، عرفوا أشياء لم يعرفها كريم. بهره الأطفال كمقاتلين شجعان وممثلين موهوبين، لأن تلك كانت الوسيلة الوحيدة التي تمكّنهم من مواصلة العيش. وعلى الرغم من صغر سنّهم، فقد أيقنوا أنّ المدرسة هي وسيلة خلاصهم، فأقبلوا على التعلّم بلهفة كبيرة.

على الرغم من محبته القوية لتلاميذه وللعمل الذي يقوم به، لم يعد كريم قادراً على البقاء في حمص. فبعد أن هربت أخته صالحة مع حبيبها المسيحي، وقع اختيار العائلة عليه لقتلها. كان يحبّ أخته كثيراً، لكن مجلس العائلة اتخذ قراره النهائي. «إننا نضع شرف العائلة أمانة بين يديك»، قال له أبوه، «وتأكّد أنك ستمضي سنتيْ حكمك في السجن مثل أمير. سأحرص على ذلك، وستخرج من السجن بطلاً ونحملك من باب السجن على أكتافنا». حبس أبوه الدموع في عينيه عندما قال ذلك لكريم وأعطاه مسدّساً وعلبة صغيرة مليئة بالطلقات. في تلك اللحظة، صفّق جميع الحاضرين.

غادر كريم حمص مذهولاً. لم تكن النقود مشكلة. فقد أعطاه أبوه مبلغاً كافياً من النقود، وقال له إن بإمكانه أن يستدين أي مبلغ يحتاج إليه من شريك أبيه في دمشق. ومثل جميع أفراد العائلة، لم يكن كريم يعرف أين تسكن أخته في دمشق. لكنّه كان يأمل، على الأقل، أن يرى صوفيا، صديقته السابقة التي أصبحت أمّاً لصبي في الخامسة من عمره. لو تزوّجتها، قال لنفسه مؤنباً، لقتلتها أسرتها. وبسرعة مدهشة وجد بيت أخته التي كان زوجها، أنطون طرزي، طبيباً مشهوراً. استأجر كريم غرفة في فندق صغير قبالة البيت. وفي صباح اليوم التالي، انتظر حتى خرج زوج أخته من البيت واستقلّ سيارته السيتروين السوداء، وانطلق إلى عيادته.

لم ينس كريم طوال حياته تلك اللحظة عندما رنّ جرس الباب،

وكان قلبه يخفق بقوة. فوجئت صالحة عندما فتحت الباب ورأته، وكاد يُغمى عليها. عانق أحدهما الآخر، وبكيا وضحكا مثل طفلين. كانت أخته تعرف أنه جاء ليقتلها باسم العشيرة. قالت له إنها لن تصرخ إذا قتلها لأنها تحبّه، ولن تكرهه إذا فعل ذلك لأنها تعرف أنه يقوم بواجبه.

قبّلها كريم وبكى، وقال: «لا، لا يمكن أن أقتلك. جئت لأحذّرك فقط. اهربي مع زوجك. فطالما أنا موجود هنا، سيكون لديك وقت كاف. سأماطل والدنا وأقول له إنني لا أزال أبحث عنك. أسرعي، اهربا قبل أن يفوت الأوان ويشكّ فيَّ أحدهم».

وافقت أخته. لكن زوجها رفض أن يسمع أو يفهم شيئاً مما يقوله، وقال إنه لن يغادر دمشق. كان أنطون طرزي قد درس الطبّ في فرنسا، وآمن بأنّ لكلّ إنسان الحقّ في أن يحبّ ويتزوج الشخص الذي يختاره. دُهش كريم لسذاجة هذا الشاب الذي يظن أن حمله لأفكار معينة تغيّر مجتمعاً بهذه السرعة، لكنّه ابتلع انزعاجه وحاول أن يقنع زوج أخته بالخطر المحدق بهما، وشرح له أن الأعراف السائدة في هذا البلد تختلف عن تلك السائدة في فرنسا، وأن عليه أن يتوارى هو وصالحة عن الأنظار لعدة سنوات ريثما يهدأ بركان الدم العشائري. لكنه لم يتزحزح عن رأيه. كان أنطون طرزي رجلاً لطيفاً، لكنه كان عنيداً يحبّ زوجته إلى درجة العبادة ببراءة طفل. وهو أول رجل رآه كريم يساعد زوجته في الطهي وغسل الصحون.

«عد إلى حمص وقل لأبيك إنّك لن تقتل إنساناً وإنّني أحبّ وأحترم أختك كثيراً وإنه يستطيع زيارتنا والتيقن من هناء ابنته»، قال لكريم، «بهذه الطريقة يمكننا أن نجعل المجتمع يتقدّم، لا أن نهرب في كلّ مرة».

فأجابه كريم، «لن يجدي ذلك نفعاً. سيحتقرونني وسيرسلون

شخصاً آخر مكاني»، لكن أنطون لم يصدّقه. ولكي يثبت صحة ما يقوله، اقترح كريم أن يتصلّ بأبيه بالهاتف لكي يسمع أنطون ردّ أبيه بنفسه عندما سيقول له إنه لن يقتل أخته. فاتصلّ كريم بأبيه وقال له إنه يحبّ أخته كثيراً ولا يمكن أن يفكّر في أن يقتلها. وقال له أيضاً إنها لن تجد زوجاً أفضل من أنطون الذي يعاملها كأميرة. فاستشاط أبوه غضباً، ولعن كريم، ووصفه بأنه وغد ناكر للجميل، ديوث لا يملك ذرة من الشرف والأخلاق، وأضاف أنه إذا لم ينقذ شرف العائلة، فإنه سيتبرأ منه، وسيحرمه من الميراث، وسيرسل رجلاً آخر - أكثر شجاعة وأشدّ عزماً ليقتلها. استمع أنطون طرزي لكل ذلك بفضل سماعة إضافية للهاتف.

دُهش كريم من إصرار زوج أخته على رفضه أن يأخذ كلمات والده على محمل الجدّ، واقترح عليهما أن يسافرا ويعيشا في بيروت أو في عمّان أو في القاهرة وأن يتواريا عن الأنظار لفترة من الزمن. فهو طبيب ناجح ويمكنه أن يجد عملاً في أي مكان يذهب إليه، لكنه رفض أن يغادر دمشق رفضاً قاطعاً. وبعد جداله مع أنطون، أدرك كريم أنه رجل مغرور أيضاً مستقوياً بشقيقه العقيد جورج طرزي، قائد شرطة المدينة، مقتنع بأن أحداً لا يجرؤ على أن يلمس شعرة واحدة من رأس زوجته، زوجة ابن عائلة الطرزي. وسخر من عدم اعتراف العشيرة بقانون الدولة أو بأيّ قانون غير قانونها. وأصرّ على أن صالحة لن تتحرّك من جانب زوجها قيد أنملة.

في اليوم التالي، بدأ كريم يبحث عن صوفيا، لكن الحظّ لم يحالفه. بعد أيام صادف زميلاً له في المدرسة وقال له بفخر إنه اشترى لعروسه مصوغات ذهبية من محل أفضل صائغ ذهب في سوريا، يوسف بلدي، زوج صوفيا. وقال إنه لا يعرف أين تسكن صوفيا، لكنّه دلّ كريم على عنوان محل الذهب الفخم القريب من

المسجد الأموي. انتظر كريم حتى أغلق زوج صوفيا محله ليعود إلى بيته، وتبعه حتى عتبة البيت. في اليوم التالي، قرع كريم باب بيت صوفيا التي سُرّت لرؤيته، وحكى لها عن مشكلته.

منذ ذلك اليوم، بدآ يلتقيان، وعادت جذوة الحبّ القديم تشتعل بينهما. استأجرت له صوفيا غرفة للمبيت والإفطار في حي الصالحية، بعيداً عن الحيّ المسيحي الذي تسكن فيه أخته لكي يلتقيا كل يوم، ما عدا يوم الأحد عندما يُغلق محل الذهب ويلازم زوجها البيت.

بدأ كريم يعاني من الكوابيس التي يراها في نومه، يسمع فيها صرخات أخته وهي تستغيث من دون أن يقدم لها أحد أي مساعدة. في بعض الأحلام، كان يرى نفسه يجوب أنحاء غابة معتمة، ويرى نفسه في أحلام أخرى غائصاً في الطين حتى ركبتيه. وفي أحد أيام السبت، أراد أن يزور أخته ويتوسل إلى زوجها مرة أخرى لأن يستمع إلى نصيحته. لكنه تأخر كثيراً. فقد رأى سيارة إسعاف وسيارة شرطة تقفان أمام البيت.

كان القاتل قد أطلق النار على صالحة وعلى زوجها، وترك رسالة باسم كريم يقول فيها إنه قتل أخته ليستردّ شرف العائلة - دليل سخيف مليء بالتناقضات والأكاذيب - فكيف يمكن لشخص، مهما كان غبياً، أن يعترف بأنه هو من ارتكب جريمة القتل ثم يختفي؟ لكن الغضب أعمى قائد الشرطة الذي أراد أن يثأر لمقتل أخيه. الحقيقة والثأر عدوان لدودان. وبعد يومين من مقتل أخته وزوجها، بدأت الشرطة تطارد كريم.

أحدثت جريمة القتل هذه صدمة كبيرة لكريم وصوفيا التي هرعت لزيارته، شاحبة وخائفة، وجلبت معها آخر عدد من الصحيفة المحليّة. لم يعرف كريم طوال حياته امرأة تستطيع أن تنفض الخوف

عن كاهلها بسرعة مثل صوفيا. قالت له: «سينشرون صورك في كلّ مكان. يجب أن تختبئ، وسأبذل قصارى جهدي لأن يبحثوا عن القاتل الحقيقي، وآمل أن يعثروا عليه بسرعة».

كيف ستفعل صوفيا ذلك؟ التي لا تعرف هي نفسها الجواب على ذلك. سألها كريم الغريب في دمشق. «لكن أين يمكنني أن أختبئ حتى تظهر الحقيقة؟» وأضاف، «سيتعرّف عليّ أصحاب الفندق الذي أنزل فيه، وسيبلغون الشرطة عني...»

فقالت له: «سأجد لك مكاناً آخر يا عزيزي، لا تقلق»، وقبّلته.

كان لدى صوفيا خالة عجوز اسمها منيرة، ليس لديها أطفال. ومنذ أن مات زوجها، تعيش وحدها في بيت صغير في حيّ الصالحية الراقي، غير بعيد عن مبنى البرلمان وعن الغرفة التي يسكن فيها كريم. ولا تغادر السيدة العجوز بيتها كثيراً، تنهمك في رعاية حديقتها الصغيرة وبيتها طوال النهار، وترفض أن تجلب خادمة أو ممرضة لمساعدتها. وتقوم صوفيا بزيارتها كلّ يوم لأنها تستمتع بالحديث مع خالتها الذكية.

في اليوم التالي، حكت صوفيا لخالتها كلّ شيء: عن جريمة القتل وعن المطاردة وعن حبّها لكريم. عندما سمعت خالتها التي لم تطق يوماً زوج صوفيا، أن ابنة أختها تحبّ شاباً، شعرت بالسعادة، وسألتها سؤالاً واحداً فقط، «هل هو الذي فعل ذلك؟» فأقسمت صوفيا بالعذراء المقدّسة أنها كانت مع كريم عندما وقعت الجريمة، وأنه لا يمكن أن يفعل ذلك لأنه يحبّ أخته صالحة كثيراً.

فقالت لها منيرة، «إذاً دعيه يأتي. أخيراً سأحظى بشخص أتسلّى معه». تملّك كريم خوف جعله يرتعد مثل ورقة خريفية في مهب الريح، لكن صوفيا طمأنته وأقسمت بحبّها له أنها تثق بخالتها كثيراً وأنه لا يمكنها أن تخبر عنه.

كانت محقّة في ذلك. فالخالة منيرة مضيفة ذكيّة وكريمة وشجاعة. ولم ينس كريم الوقت الذي أمضاه معها قط. وحتى بعد وفاتها بثلاثين عاماً، ظلّ يزور قبرها كلّ شهر ويضع حفنة من أزهار الياسمين التي كانت تحبّ رائحتها كثيراً على بلاطة قبرها الرخامية.

لكن شيئاً طرأ على حبّ كريم لصوفيا الذي تجدد. فلم تعد تسمح له أن يلمسها كما في الأيام السابقة. كان هذا هو شرطها الرئيسي حتى تأتي لزيارته. وكانت الخالة منيرة تقول مازحة عن هذين العشيقين الغريبين، «إنه مثل حبّ بين راهبة وراهب». لكن صوفيا أصرّت على موقفها، لأنها لم ترغب في الإساءة إلى حق ضيافة خالتها لحماية كريم. بدا لكريم أنها بدأت تشعر بالفتور نحوه. ولم تجد كلّ التوسلات أو المحاولات لتغيّر رأيها. حتى أنها لم تحضر معها ابنها سلمان قط، مع أن منيرة كانت تلحّ أحياناً على أن تحضره معها لأنها تحبّ هذا الصبي الجميل كثيراً. «لا، فهو أذكى من عمره بكثير، وقد يخبر عن مكان كريم من دون أن يقصد».

احترم كريم قوة إرادتها، لكنّه كان يتساءل عمّا إذا كانت تحبّه كما يحبّها. وعندما سألها هل تشتاق إليه كما يشتاق إليها، ابتسمت وقالت: «لو كان باستطاعة النار التي في داخلي أن تحرقك، لأصبحتَ رماداً الآن. إن سلامة حياتك تهمّني أكثر من رغباتي».

شعر كريم في تلك اللحظة أنه لم يفهم بعد هذه الإنسانة الرائعة صوفيا وخجل من نفسه لأنه وضع شهوانيته على نفس مستوى حبّه لها. ثم ضحك في سريرته وهمس: «هذا مرض رِجّالي».

وهكذا عاش كريم مختبئاً في بيت الخالة منيرة كما لو كان مقيماً في دير. كانت منيرة امرأة ضئيلة الجسم، لكنها مفعمة بالحيوية

والنشاط. وكانت تحبّ دائماً أن يخدمها أحد ويسليها. وأصبح كريم يعتني بحديقتها، ويساعدها في المطبخ، ويلعب الورق معها ومع صوفيا. حتى أنه نسي أنّه مطلوب للشرطة، لكنه سمع بعد ذلك أن قائد الشرطة أصدر أمراً بإطلاق النار عليه وقتله في المكان الذي يوجد فيه لأنه يخشى أن يُحكم عليه بالسجن لمدة سنتين أو ثلاث سنوات فقط، لأن الذين يرتكبون الجرائم التي تدعى جرائم الشرف، يُعاملون كأبطال وتصدر بحقهم أحكام مخففة. وأما الضحايا فأغلبهم من النساء كأنه لا يوجد لدى الرجال مكان يضعون فيه شرفهم، فيخبئونه عند النساء.

رأى الدمشقيون صورة وجه كريم في نشرات المطلوبين للعدالة. وأحضرت صوفيا إحدى تلك النشرات لتريه إياها. عندما رأتها الخالة منيرة ضحكت، وقالت: «حتى أنا وصوفيا لم نعرفك من هذه الصورة. لا تقلق». كانت صورة مكبّرة بشكل سيّئ من الصورة الملصقة على بطاقة الهوية الشخصية لكريم التي مضى عليها خمس سنوات، حليق الرأس عابس الوجه. وكان أبوه قد أعطى الشرطة هذه الصورة. وعلى الرغم من ذلك، لم يجرؤ كريم على مغادرة البيت.

وفي صباح أحد الأيام، جاءت صوفيا لتزور كريم وتعرض عليه فكرة. فقد قررت أن تحاول إقناع أحد أفراد عشيرته ليأتي إلى دمشق ويخبر الشرطة عن اسم القاتل، وستعده بأن يبقى اسمه طي الكتمان وستساعده على الهرب إلى بغداد ويعمل عند شقيقها فريد، تاجر السجاد الغني هناك.

عندما سألت كريم عن الشخص الذي يمكنه أن يفعل ذلك في عائلته، أجابها، «إذا كان هناك أحد يجرؤ على القيام بذلك، فهو أخي إسماعيل».

كان إسماعيل الذي يصغر كريم بسنتين، يحبّ صالحة كثيراً، وكانت هي متعلقة به كثيراً أيضاً. وكانت صالحة وإسماعيل يشبهان أمّهما إلى حد كبير، بينما يشبه كريم والدهم كثيراً. سافرت صوفيا إلى حمص، وقالت لزوجها إنها اشتاقت إلى مدينتها على ضفاف نهر العاصي، وستزور والديها، وستمضي أسبوعاً كاملاً فيها. وقالت له إنها تريد أن تزور كذلك أختها تقلا التي كانت في المستشفى تُعالج من التهاب ذات الرئة. لكنها عندما وصلت إلى حمص، كانت تقلا قد غادرت المستشفى وعادت إلى بيتها. وجدتها لا تزال في سريرها، لكنها سعيدة بوجود خطيبها، نجّار دمشقي فقير، الذي كان جالساً في ذلك اليوم على طرف السرير، وجهه شاحب أكثر من شحوب أختها من شدة قلقه عليها.

في اليوم التالي، اتصلت صوفيا بشقيق كريم، إسماعيل. كان حزيناً على أخته، لكنه رفض أن يبوح باسم القاتل الحقيقي، مع أنها أكّدت له أن لا أحد غيرها وكريم سيعرف شيئاً عن هروبه إلى بغداد، وأنها ستدفع كلّ تكاليف سفره، وسيكون شقيقها سعيداً لأن يعمل معه شخص من مدينته، حمص.

لكن إسماعيل خاف من العواقب، فعادت صوفيا إلى دمشق خائبة. وقالت لكريم إن عليه أن يتحلّى بالصبر، وإنها ستجد طريقة أخرى.

شعر كريم بالمرارة لأن شقيقه جبان وشعر بامتنان شديد لصوفيا على كلّ ما فعلته لإنقاذه، وقال لها بتأثر شديد، «كيف يمكنني أن أردّ لك هذا الجميل؟ سأفعل كلّ ما بوسعي من أجلك، حتى إنني مستعد لأن أموت من أجلك».

فضحكت صوفيا وقالت: «ابذل كلّ ما بوسعك كي تبقى حيّاً. إننا لم ننته بعد - إنك لا تزال في منتصف الطريق إلى بر الأمان.

فأنت الآن في مكان آمن لكنك لم تُنقذ بعد»، ولمست رأسه، وأردفت، «أنا متأكدة من أنني سأجد طريقة تردّ لي فيها هذا الجميل. لا تقلق»، وضحكت برقّة. كانت ضحكتها مثل ماء عذب يسيل متراقصاً في جدول ماء.

حياة بوجهين
أو كذبات رجل يحب زوجته

روما، ١٩٩٥-٢٠٠٥

نصيحة من أحد الزواحف

لم تتعبه رعاية ابنه عندما كانت ستيلا راقدة في المستشفى، كما كان سلمان يتوقع. فقد منحه هدوء ابنه وقتاً كافياً كل يوم ليرتاح ويفكّر مليّاً في شؤونه. كان باولو طفلاً ذا مزاج مرح، لذلك، كان سلمان يأخذه معه إلى الأماكن التي يردتاها سواء إلى المقهى أم إلى السوبر ماركت. كان باولو يظل مستلقياً هادئاً في عربته. حتى أن سلمان كان يأخذه أحياناً إلى المكتب، إذا اضطر إلى ذلك. وقد أحبّت سكرتيرته ومساعدته كيارا الصبي كثيراً وكانت تعتني به إذا دعت الحاجة. وما عدا ذلك، كان سلمان يمضي جلّ وقته مع الطفل بمرح وسعادة، واستطاع خلال هذه الفترة أن يقرأ عدة كتب أيضاً.

بعد أن يُطعِمه أبوه ويُحممه، ينام باولو صباح كلّ يوم ساعتين تقريباً، يضع سلمان خلالها جهاز مراقبة الأطفال بجانب مهده، ويذهب إلى مقهى آرابو القريب حيث يقرأ الصحيفة ويراقب الناس، ثم يعود مسرعاً إلى باولو بعد ساعة، على الأكثر.

ذات يوم، سأله رجل مسنّ يعرف سلمان منذ سنوات، لماذا

يبدو حزيناً في هذه الأيام. استغرب سلمان أن يصدر هذا السؤال عن الرجل الذي لم يأبه به طوال السنين، والذي كان على أبواب الثمانين، ضئيل الجسم، متجهّم الوجه على الدوام، وقد أكملت ثلاث ندب عميقة على وجهه مشهد عينيه الباردتين اللتين تشبهان عينين جاحظتين لحيوان زاحف. وأشيع بأنه كان عضواً في المافيا، لكن هيئته البائسة لا تتماشى مع تلك الأسطورة. وكان يبذل قصاراه ليبدو أنيقاً: حذاء أبيض، وقبعة بيضاء - تقليد رخيص لقبعة فيدورا - وسترة زرقاء، وقميص أبيض، وربطة عنق حمراء، ويضع دائماً سيجاراً مطفأً في زاوية فمه، يقرأ الصحف، ويعلّق على الأخبار بصوت مرتفع وبلغة مبتذلة تشبه لغة القوادين، ويحيّي جميع الزبائن، ولم يكن يشرب في الصباح أكثر من فنجان قهوة إسبريسو.

خلال تلك السنوات، كان سلمان يكتفي كلّ يوم بأن يومئ للرجل بتهذيب ويتجنّب التحدّث إليه. وإذا كان رائق المزاج، قد يضيف «بون جورنو، صباح الخير».

في صباح ذلك اليوم، بدأ سلمان يكلّمه، وقال: «زوجتي في المستشفى». دُهش سلمان لتكلّمه بصراحة مع هذا الرجل. وكما لو كان الرجل ينتظر منه أدنى إشارة، جاء وجلس إلى طاولة سلمان.

«أرجو ألّا يكون الأمر خطيراً».

«لا، لا. إنها...» تردّد سلمان.

مال الرجل نحوه فوق طاولة الحانة الصغيرة، وقال بصوت منخفض: «إجهاض؟» فهزّ سلمان رأسه صامتاً.

«قد يكون ذلك خطيراً. لقد فقدتُ زوجتي الأولى، إيما، بعد عملية إجهاض... بعد حمل رفضته في عام ١٩٦٠. ذهبنا إلى إحدى 'صانعات الملائكة' المجرمات واللواتي أطلق عليهن هذا

الاسم لكثرة الأرواح التي أزهقنها. لم يكن عمل المرأة نظيفاً، فماتت إيما بعد ثلاثة أسابيع. ثم عقّمت نفسي».

«أليس التعقيم خطيراً؟» سأله سلمان، بشيء من الرياء، لأن الخطر الوحيد الذي كان يخشاه هو أن يفقد فحولته. لكن صاحب العينين الجاحظتين ابتسم ابتسامة مطمئنة.

«لا تقلق أيها الشابّ. قد لا أكون الدكتور كازوني في فيلم فيليني الذي سجّل عشرة آلاف عشيقة على شريط، لكن عندي عشيقاتي الثلاثين - عشرة قبل العملية، وعشرون بعدها. ولم أضاجع في حياتي بشكل أفضل إلّا بعد أن أجريت تلك العملية، لأنه يصبح بإمكانك أن تنيك من دون أن تشعر بالخوف أو بالذنب. لم أكن أرضى يوماً بامرأة واحدة، لكنني ظللت أخشى أن أنجب أطفالاً يمنة ويسرة. ولم ينقص إليز، زوجتي الثانية، شيئاً، لكنها كانت تتركني أخدم النساء الأخريات. كان في صدرها قلب كبير».

رفع قبعته، وفرك شعره السميك، المصبوغ بصبغة رخيصة، ثم أمالها نحو جبينه، وابتسم ابتسامة عريضة.

في تلك اللحظة، لاحظ سلمان أن الرجل العجوز حيّا سيدة مسنّة تكسو وجهها طبقة كثيفة من المساحيق، مرّت أمامه وابتسمت للرجل ابتسامة عريضة.

«وهذه أيضاً؟» سأله سلمان بخبث.

«لا تخدعك التجاعيد الخارجية. إن غابرييلا لا تحبّ شيئاً أكثر من أن تبتلعني حتى رقبتي».

أدرك سلمان أنّ اللعبة الشهوانية بين السيدة والرجل العجوزين في أيام مضت منذ زمن بعيد لا بد أنها كانت ملتهبة. فقد لاحقت عينا الرجل العجوز ردفَي المرأة بمشيتها الأنيقة، لكنّ سلمان ظلّ محافظاً على دوره كشخص مرائي.

«ربما كان عليّ أن أبقى عازباً. فهذا أفضل للجميع» قالها متنهداً.

«عمَّ تتحدّث يا رجل؟» صاح الرجل العجوز بسخط، وأضاف، «قد تستطيع البكتيريات والفيروسات التخلّي عن الجنس - لكن ليس البشر - حتى الدودة تريد أن تنيك، وإذا لم تستطع أن تجد دودة أخرى، فهي تنيك نفسها... عندما أرحل عن هذه الدنيا»، قال وهو يقهقه بعد أن عادت الحيوية إلى عينيه لبرهة قصيرة، «سأخبر ربّ العالمين بأنه إذا أراد أن ينقذ البشرية، فيجب أن يبدأ على الفور بخلق أناس ثنائيّي الجنس».

تأثّرت ستيلا كثيراً عندما قال لها سلمان، بعد أسبوع من خروجها من المستشفى، إنّه حدّد موعداً مع اختصاصي أمراض بولية. وبعد أن وصف لها العملية بطريقة درامية، أُعجبت بشجاعته. اغتنم سلمان الفرصة وطلب منها أن تدعو والديها إلى عشاء للمصالحة بينهم، فقد شعر بالذنب لأنها تشاجرت معهما. لم تعترض ستيلا على ذلك. جاء والداها في ذلك اليوم، وشعرا بالامتنان لسلمان لأنه اعتنى بباولو طوال تلك الفترة، وأمضيا عطلة نهاية الأسبوع في روما ثم عادا إلى تريست سعيدين.

كانت العملية أبسط مما تخيّل سلمان بكثير. فلم يتطلّب الأمر سوى مخدّر موضعي، وعاد سلمان إلى البيت بعد أن أمضى ليلة واحدة في المستشفى. لكن كوابيس فظيعة بدأت تراوده: فقد رأى في منامه رجالاً يحملون سكاكين أو مقصّات عملاقة قاموا بخصيه، ثم تركوه مرمياً على الأرض.

بدا أن ستيلا لم تعد تبدي اهتماماً بالجنس. فقد كانت تقبّله على

خدّه بطريقة تكاد تكون أخوية. وعندما كان يبدي رغبة في مضاجعتها، كانت تجد أعذاراً بأنها متعبة لإخفاء عدم رغبتها، أو كانت تتذرّع بأعذار أخرى.

«لستُ في المزاج المناسب»، كانت تردد دائماً عندما يقبّلها بحرارة. وبدأت تشعر بالرغبة في تناول الطعام بشراهة. لم تكن تتناول طعاماً بهذا القدر من قبل. وسرعان ما عادت إليها نضارتها وحيويتها السابقتين. وخلال سنة ازداد وزنها أحد عشر كيلوغراماً، وبدأت تميل نحو البدانة، ففرح كلّ من حولها خصوصاً أمها التي كانت تزغرد فرحاً كلّما رأت أن ابنتها ستيلا أصبحت الآن «ماما إيطالية»، أما سلمان فقد وجد أنها بدأت تفقد سحرها وجاذبيتها الجنسية. وراح أصدقاء سلمان العرب في روما يمتدحون امتلاء زوجته أيضاً وقالوا إن ستيلا ازدادت جمالاً وأنوثة، فضحك، وقال لهم في أحد اللقاءات: «إن جوع أسلافكم البدو لا يزال يتغلغل في عظامكم، فعندما ترون امرأة، فإنكم تريدون أن تلتهموها، وكلما كانت أكثر امتلاء، كانت الوليمة أشهى وأدسم».

بعد سنة، أدرك سلمان بمرارة، أنّه لم يضاجع ستيلا إلّا مرّة واحدة خلال الشهور الاثني عشر تلك، وبدأ يشعر بالغربة في روما من جديد، ولم يعد يشعر بالراحة مع ستيلا، وأصبح يحلم بشكل متزايد بالعودة إلى دمشق. لكنه لم يدرك إلّا بعد فترة طويلة أنّ دمشق التي كان يحلم بها في وحدته، لا توجد على الأرض وإنما في مخيلته فقط.

في أحد الأيام من شهر كانون الثاني ١٩٩٦، قرّر سلمان أن يزور مومساً. فلم يرغب أن يحبّ امرأة أخرى، لأن ستيلا حبّه الوحيد، لكن حاجته إلى ممارسة الجنس مع امرأة كادت تجعله

مريضاً، فبدأ يبحث عن جنس تجاري لإشباع رغباته بطريقة تخلو من التوسل أو الاستجداء.

عندما فعل ذلك، لم يدرك سلمان أنّه أصبح الآن مثل أولئك الإيطاليين الذين يميّزون بين الجنس والحبّ. فأنت تحبّ زوجتك من بعيد، وتقضي شهوتك وتشبع رغباتك ومخيلتك الحيوانية مع مومس. وقد عزّى نفسه بأنّه بقي وفياً لزوجته طوال خمس عشرة سنة، لم يُبدِ خلالها أي اهتمام بامرأة أخرى، وظلّ حبّه كلّه منصبّاً على ستيلا.

فيوليتا والحب الجسدي

في كانون الثاني، التقى سلمان مع خبير الضرائب، كلاوديو. وبعد أن أنهيا عملهما، دعا سلمان الأرمل العجوز المرح إلى تناول كأس نبيذ في حانة قريبة من محطة القطار. لكن كلاوديو كان مستعجلاً، وأراد أن يتناول بسرعة كأساً من النبيذ الأحمر ليلحق بالقطار المتجه إلى مدينة بولونيا. فجرع كأس النبيذ بسرعة، وشكر سلمان الذي ظلّ واقفاً أمام البار لفترة. عاد إلى الحانة ورأى صبيّة تتكلّم مع البارمان الهندي. عندما التفتت وأصبحت وجهاً لوجه مع سلمان، ابتسم لها. بادلته الابتسامة. امرأة جذّابة جداً، أحبّ سلمان صوتها العميق. عندما خرجت من الحانة، دفع سلمان ثمن المشروب، ولحق بها.

هطل المطر في تلك الساعة بغزارة، ووقفت الصبيّة تنتظر تحت مظلة مدخل الحانة. ابتسم سلمان وقال لها: «لدي مكان لكِ تحت مظلّتي، طبعاً فقط إذا أردتِ»، ضحكت وأجابت، «كيف يمكنني أن أرفض عرضاً لطيفاً كهذا؟»

فتح مظلّته. وسارت معه وشبكت ذراعها بذراعه تحت المظلّة.

«إلى أين تريدين أن تذهبي؟»

فأجابت، «إلى البيت. أسكن في مكان قريب من هنا، على مسافة ثلاثة شوارع». خارج الحانة، بدت المرأة أجمل بكثير مما بدت عبر الإضاءة الخافتة. وجهها أسمر، متناسق القسمات، وشعرها طويل أسود، تفوح منها رائحة عطر فاكهة نادرة. عندما سألها سلمان، محرجاً قليلاً، عن عملها، قالت، «أعمل مرافقة اجتماعية» وضحكت. ثم تبيّن أنها لم تكن تسكن في مكان قريب، وإنما في مكان بعيد جداً، في شارع جوفاني باتيستا دي روسي. سارا في الشوارع حوالي نصف ساعة، وظلّ سلمان يحمل المظلّة فوقهما، مع أن المطر خفّ كثيراً. ظل وجهه خافياً تحت المظلّة، مشى مع فيوليتا كأنهما عاشقان.

«كذبتك الصغيرة تذكّرني بعبارة يقولها البدو في الصحراء. فعندما يسألهم أحد كم يبعد المكان الفلاني، فإنهم يجيبون 'على مسافة مرمى حجر'. هل تعرفين إلى أي مدى يستطيع أبناء الصحراء أن يرموا حجراً صغيراً بمقلاعهم؟»

ضحكت فيوليتا، وقالت: «يجب أن أتعرف عليك جيداً أولاً. فأنت لا تعرف عادة من الذي يبحث عن امرأة في روما. هناك كثير من السيكوبتيين الذين يبحثون عن ضحية نسائية».

فسألها، «وأنا؟ هل نجحتُ في الاختبار؟»

أجابته فيوليتا بجديّة، «بالتأكيد، وإلّا لما رافقتك بكل ثقة إلى شقتي».

وقفا أمام بيت مؤلف من ثلاثة طوابق ذي واجهة جميلة، لكنه بيت متواضع قياساً إلى البيوت المجاورة الأخرى. قالت: «أسكن هنا». تبعها سلمان وقلبه يخفق بقوة. فلم يزر مومساً قبل الآن قط، وكان سلمان يحتقر طوال عمره القوّادين ويرى المومسات نساء

مُستغَلات، شهيدات من نوع ما. كانت شقّة فيوليتا الصغيرة مفروشة بأناقة، وبدت أجمل مما كان يتوقّع. قالت إنها تعيش في روما منذ سنة وإنها تمارس الدعارة بمحض إرادتها، وإنها لا تفعل ذلك لأنها عاشت طفولة قاسية، أو لأنها تعرضت لتحرّش أو اغتصاب في طفولتها كما تروي معظم العاهرات.

صبّت فيوليتا لسلمان كأساً من النبيذ وأجابت عن أسئلته الفضولية بكل جدية وصراحة. وبابتعاد تام عن الأساليب التعليمية، حدّثته عن الدعارة في إيطاليا وعن سعادتها لأن لديها شقّتها الخاصة بها، وأن المومسات الأفقر يستأجرن شققاً متواضعة، أو غرفة في فندق قديم متداع. أما أفقر المومسات، خصوصاً الأجنبيّات، فهن يقفن عند تقاطع الطرقات، ويطلق عليهن اسم *lucciole*، أو 'اليراعة المضيئة' وأحياناً اسم 'سراج الليل' لأنهن يحملن مصابيح كاشفة صغيرة حتى يراهن الزبائن في الظلام.

خجل سلمان من نفسه لأنه لم يعرف هذه الأشياء من قبل مع أنه يعيش في روما منذ فترة طويلة، لكن شعوره بالخجل لم يدم طويلاً. فقد عاملته فيوليتا برقّة شديدة حتى أنه نسي أنّها فتاة محترفة. كان الهدوء والعاطفة يشعّان منها، وعاملته كأنه الرجل الوحيد في العالم. دفع لها مبلغاً سخياً، وعندما سألته إن كان يريد أن يزورها مرة أخرى، هزّ رأسه موافقاً. فأعطته رقم هاتفها، وكذب عليها وقال إن اسمه روبيرتو، ويدعوه أصدقاؤه على الطريقة الأمريكية روبي، وإنه يتمتّع حالياً بحياته كمثقّف ترك الوظيفة بمحض إرادته بعد أن عمل لسنوات أستاذاً جامعياً، وقال إنه أصبح أرملاً منذ سنتين، وأنه عاد ليعيش مع أمّه العجوز الغنية.

لم تسأله أكثر من ذلك.

عاد إلى البيت، راضياً، جذلاً. ولدهشته، لم يشعر بتأنيب

الضمير إلّا قبل أن يغطّ في النوم. لكن هذا الشعور تلاشى تماماً عندما استيقظ صباح اليوم التالي.

عندما سألته ستيلا أثناء الفطور لماذا يبدو سعيداً هكذا، أجابها كاذباً، «إن العمل آخذ بالازدهار». لقد عذّبته هذه الكذبة الأولى لعدة أيام، لكن مثل أول عملية قتل في الحرب التي تكون عادة الأكثر صعوبة، أصبح تقديم الأعذار الكاذبة لستيلا مع مرور الأيام أسهل بكثير.

منذ ذلك الحين، لم يعد سلمان يعبأ بأن تخصص ستيلا كلّ وقتها لرعاية ابنهما الصغير الجميل، بل بدأ يشعر بالارتياح لأنها تفعل ذلك، إلى درجة ما. فلم يعد يلحّ عليها، بل أصبح ينتظر حتى تأتي هي إليه، ولم يكن ذلك يحدث إلّا نادراً، لكنه كان يشعر بلذة كبيرة في تلك الليالي النادرة بسبب حماستها وتجاوبها الأمر الذي كان يزيد شوقه ولهفته إليها. وبدأ سلمان يصف هذه الليالي بشيء من السخرية، بأنه جنس موسميّ، مثل عيد الميلاد الذي لا يأتي إلّا مرة واحدة في السنة، فتضحك ستيلا ملء شدقيها.

ومن الناحية الأخرى، كان يشعر بأن فيوليتا تنتظره. تعامله كعشيق، وما عدا النقود التي يدفعها لها، كانت العلاقة بينهما واضحة تماماً - لا دموع، لا حبّ، لا تهديد لزواجه. وقد منحه ذلك إحساساً بالأمان. فهنا يُشبع رغباته الجنسية، وهناك لديه حبّ وأسرة. شعر أنه أصيب بانفصام في شخصيته، لكنه انفصام لذيذ. فمن ناحية فهو يحبّ ستيلا، لكن إثارة كلّ لقاء سرّي مع فيوليتا، وإمكانية تقمّص شخصية أخرى، كانت تمنحه بهجة كبيرة لم يعرف مثلها من قبل. وفي مساء أحد الأيام، عندما كان في شقة فيوليتا، تذكّر لوحتين للرسام العبقري كارافاجو، معلّقتين بجانب بعضهما في القاعة الصغيرة في معرض غاليريا دوريا بامفيلج في ساحة ديل

كوليجو رومانو. تصوّر إحدى اللوحتين مريم المجدلية، وتصوّر الأخرى مريم العذراء أثناء هروبها إلى مصر. لقد اختار كارافاجو ذات المرأة ليرسمها كنموذج لكلتا المريمتين، مريم، أمّ المسيح، ومريم من مجدل شمس في هضبة الجولان التي قيل إنها كانت عاهرة وتابت وصارت من أشجع أتباع السيد المسيح.

في الصيف، تفتّحت الأزهار في حدائق الفيلات في الشارع الذي تسكن فيه فيوليتا وأصبحت متعة للعين. شقّتها التي تقع في الطابق الثالث تطلّ على مشاهد جميلة لا يحدّها شيء. إذ تقع قبالتها حديقة تابعة لفيلا بيضاء، مليئة بالأزهار، شذّبها جنائني فنان في شكل باقة ضخمة من زهر الليلك. دأب سلمان على التحديق بمتعة كبيرة عبر نافذة الشقة العالية في تلك الزهور والأشجار، ويتخيّل أنّه ملاك يحلّق ويضاجع محبوبته في سريرها.

طوال عشر سنوات، ظلّ سلمان يزور فيوليتا يومَي الثلاثاء والجمعة من كلّ أسبوع، لمدة ساعتين فقط في كلّ زيارة. وكلّما التقيا، بدت هذه المرأة الذكية المثيرة سعيدة كما كانت في أول يوم التقى بها، تشبعه دلالاً، وتأخذ منه المبلغ الذي تأخذه عادة من زبائنها *الفاخرين*، كما تسمّيهم. قال لها يوماً مازحاً، «ألا تقدّمين خصماً؟ ألا توجد نقاط ولاء كما في السوبر ماركت؟»

ضحكت وقالت: «نعم، عندما تحصل مئة نقطة، ستحصل على مقلاة. ستنالها على رأسك إذا سألت أسئلة غبية أخرى».

لم تكن فيوليتا فضولية، ولم يسألها سلمان عن موقفها من عملها أو عن حقيقة مشاعرها أثناء المضاجعة مع رجال لا تحبهم. ولم تعرف أيضاً عن زواجه شيئاً، لأنه لم يشأ أن تقارن امرأة نفسها مع زوجته. فقد كان يرى أن هذا هو الفرق بين العلاقة العاطفية وبين أن

تدفع نقوداً لقاء ممارسة الجنس. فالعشيقة التي تعرف أشياء عن الزوجة، تشعر بالتفوق عليها، وقد تحسدها لأنها تعيش مع عشيقها، لكن بما أن الزوجة لا تعرف شيئاً عن العشيقة، فإنها تظلّ في مرتبة أدنى. وهذا ما لم يقبله في قرارة نفسه لستيلا.

في أحد الأيام، لم يحصل له انتصاب يرضيه، فطلب على الإنترنت أقراص *Gigante XXL* لتقوية الفحولة لديه. لكن فيوليتا لم تلاحظ ذلك، أو أنها لاحظت، لكنها لم تُظهر له ذلك. ويبدو أن ستيلا أيضاً لا تعرف شيئاً عن أسرار سلمان - أو أنها تعرف، لكنها لا تُظهر له ذلك.

عندما التقى سلمان بفيوليتا لأول مرة، كانت في أواخر العشرينات من عمرها، وعندما أصبحت في أواخر الثلاثينات طلبت منه ألّا يأتي مرة أخرى. ففي مساء أحد الأيام في صيف ٢٠٠٥، قالت له من دون مقدمات، «لا يوجد لديّ وقت يوم الثلاثاء القادم».

«وماذا عن يوم الجمعة؟»

«سأكون في مونتريال مع زوجي».

«ماذا؟ هل تزوّجتِ؟»

«ليس بعد. يوم الأربعاء سنسافر بالطائرة ونتزوج يوم الخميس في كندا»، قالت، ثمّ حكت له قليلاً عن شريك حياتها الجديد وقالت إنها تعبت من ممارستها البغاء، وطبعت قبلة صغيرة سريعة على خدّه، وقالت له بابتسامة، «إنك رجل طيب وكريم. عليك أن تخنق أمّك بعد حين وترتاح وتتمتع بورثتها، وإلّا فإنك ستلتصق بها طوال عمرك».

«لكن من سيريحني إلى ذلك اليوم الجميل؟» سألها بمرح مصطنع.

«هذا عنوان ورقم هاتف لولا. إنها فتاة بولندية لكنّها تجيد الإيطالية. وصفتُ لها جمال معشرك في السرير، وهي تتطلع إلى رؤيتك - وإلى نقودك».

دسّ قصاصة الورق في جيب بنطاله وغادر. بعد سنوات، ظل يتذكّر كم أنه أحسّ بالعزلة في تلك الليلة.

ثلاثون عاماً من الإبحار
فوق مياه هادئة

ليس نقصان المحبة هو الذي يجعل الحياة الزوجية بائسة وإنما افتقارها إلى الصداقة.

فريدريش نيتشه

دمشق، ١٩٧٢-٢٠٠٥

كانت عايدة في الثانية والعشرين من عمرها عندما تزوّجت المحامي نديم عنتابي. كان أرملاً يكبرها بعشرين سنة. عشق نديم عايدة عندما دافع عن حقوقها ضدّ صاحب البيت الغني الذي أراد أن يطردها من صالون الحلاقة. فقد ازداد الطلب على المكان الذي يقع فيه الصالون بشكل شديد أغرى صاحب المبني أن يتخلّى عن آخر لمسة إنسانية في قلبه، فطمع لأن صاحب وكالة لبيع السيارات عرض عليه إيجاراً كبيراً.

في السنة التي سبقت زواجها، أحبّ مصفّف شعر شابّ وغني عايدة وبدأ يتودّد إليها، وتوسل إليها بأن تتزوجه. وعندما أعرب لها عن عواطفه بطريقة فجة ومبالغ فيها، أثار خوفها بدلاً من أن يجذبها إليه. حتى أنها بدأت تراه أحياناً في غاية السخف. ففي أحد الأيام، بعث لها رسالة قال فيها إنه مستعد لأن يموت في اللحظة التي تدعه

يعيش معها حتى ليوم واحد فقط. فقالت في نفسها لا بدّ أنه تعلّم هذه العبارات من الأفلام العربية الرومانسية الرخيصة التي لم تكن تحبّها. ولم تشأ عايدة أن تدخل في متاهة لا يوجد فيها مخرج آمن. كان كلّ ما تريده قارباً يبحر فوق بحيرة واسعة هادئة.

لذلك، اختارت عايدة المحامي الأبوي الذي سمح لها أن تعمل وتمارس حبّها للموسيقى، وطلب منها أن تسكن معه في الفيلا التي يعيش فيها والتي هي أكبر بكثير من بيت والديها الصغير في حارة العبارة. تركت عايدة بسعادة بيت أهلها الذي امتلأ بذكريات شقيقها سامي ووالديها اللذين توفيا مؤخراً. ولم تأخذ إلى فيلا زوجها إلّا اللعب التي كان قد صنعها لها أخوها. وباعت قطع الأثاث والأدوات المنزلية كلها لبائع الخردوات، وأجّرت البيت.

عاشت عايدة حياة هانئة مع زوجها. كان نديم رجلاً عقلانياً، ذكياً، وعلى الرغم من أن حياتها معه ربما شابها شيء من الرتابة المملة، لكنها تحوّلت إلى صداقة متينة ووفيّة. وعاشت عايدة راضية وأقنعت نفسها بأنها تستطيع أن تمضي حياتها كلها من دون أي نوع آخر من الحبّ. وعندما توقفت عن العمل في تصفيف الشعر بعد عشر سنوات، لم تتوقف عن العزف على العود كلّ يوم.

مع أن زواجهما دام ثلاثين عاماً، لم ينجبا أطفالاً. وربما لم تتسم حياتهما بالعواطف الجياشة، لكنها كانت تنبض كلّ يوم بالاحترام المتبادل. كان نديم شريكاً حنوناً يسهل الوثوق به. وقد قدّرته عايدة كثيراً ولم تخنه، ولا لحظة واحدة. قبل أن يتوفى نديم بالسرطان في حزيران ٢٠٠٤، دأبت عايدة على زيارته في المستشفى كلّ يوم وتجلس بجانبه على السرير طوال عشر ساعات أحياناً. وقبل بضعة أيام من وفاته، سألته، «هل هناك شيء تحبّه؟» كان يوماً صيفياً حاراً، وكانت ترجو أن يطلب أن تحضر له بوظة بالفستق الحلبي لكي

يغادر هذه الدنيا وقد بقي على لسانه طعم البوظة الحلو، فابتسم وقال: «يمكنك أن تجلبي لي بوظة بالفستق الحلبي، لكن بشرط أن تعديني بألّا تحزني عليّ لأكثر من ثلاثين يوماً، أي لكلّ سنة عشناها معاً يوماً واحداً فقط، وأن تجدي لنفسك رجلاً طيباً. وسأكون في غاية السعادة إذا عدتِ إلى الحياة بموسيقاك وقلبك الكبير. وإذا كانت هناك حياة في الآخرة، فتأكدي تماماً أنّني سأبارك سعادتك من الأعلى، وإذا لم تكن هناك حياة آخرة، فإن جسدي سيتحوّل إلى فوسفات يخصّب الأرض - ولمثل هذا السماد لا يحزن المرء طوال العمر».

بكت وكرهت نفسها لأنها أحسّت بالضعف أمامه. داعب شعرها وهدّأ من خاطرها، وسألها: «أين البوظة التي أردت إحضارها لي؟» كان نديم روحاً نبيلة في كلّ شيء، حتى في الموت.

نفّذت عايدة كلّ ما يتمناه وتبرّعت بثروته وبالفيلا إلى جمعية لرعاية الأطفال. كان نديم قد رتّب مع شركة تأمين بأن تدفع لها راتباً تقاعدياً ممتازاً مدى الحياة.. بعد أن انتقل المستأجرون، جدّدت عايدة البيت من أرضه حتى سقفه وعادت في أحد الأيام في شهر أيار ٢٠٠٥ إلى بيتها الصغير في شارع العبارة يسير وراءها حمّال يجرّ عربته التي وضع عليها حقيبة فيها ثيابها، وصندوق فيه ألعاب طفولتها والعود وعلبة كبيرة فيها رسائل نديم وكلّ ذكرياتها معه.

كانت عايدة قد بلغت الخامسة والخمسين من عمرها، وقررت أن تمضي بقية حياتها بهدوء. وعلى الرغم من حزنها على نديم، فقد دُهشت أنها ظلت تتلقى إشارات ودّية من العالم المحيط بها. فقد كان الأطفال والشبّان الصغار يهرعون لخدمتها وجلب كلّ ما تحتاج إليه، ودأب الجيران على دعوتها إلى تناول الطعام واحتساء القهوة معهم كلّ يوم. وكانت عايدة تكذب أحياناً كذبة بيضاء وتعتذر من

الجيران الذين يدعونها لزيارتهم، لكي تبقى في البيت وتنعم بالهدوء. وأحبّ الجيران عزفها على العود. فما إن تبدأ العزف، حتى يخيّم السكون على البيوت والشقق القريبة، فيغلق الجيران أجهزة المذياع والتلفزيون، ويمنع الشبان الصغار أحداً من أن يطلق زمور سيارته في شارع العبارة المزدحم، أو أن ينادي أحد البائعين الجوالين على بضاعته في الشارع بصوت مرتفع.

دخل الخريف إلى قلب عايدة، وبدأت تنتظر قدوم الشتاء بهدوء ووقار.

لولا وأليس
أو الزمن بعد فيوليتا

روما ٢٠٠٥ -٢٠١٠

لولا والعشق غير المقصود

كما يحدث حمل من دون قصد أو تخطيط، يأتي العشق أيضاً فجأة، من دون سابق إنذار.

لم يتوقع سلمان أن يحدث ذلك على الإطلاق. فطوال عشر سنوات، عاش حياة مزدوجة، عشر سنوات لم تلاحظ خلالها ستيلا شيئاً لطيبة سريرتها وانشغالها طوال الوقت في أبحاثها. بالطبع، كانت ترى في كل لقاء مع الأصدقاء والصديقات النساء يتحلّقن حوله، لكنها كانت على ثقة تامة بأنه لن يخونها أبداً، وعندما سألتها صديقتها عن سبب هذه الثقة اللامتناهية، أجابتها ستيلا بهدوء: «إن كيمياء قلوبنا متطابقة». لقد انتشرت هذه العبارة بين المثقفين في روما في ذلك الوقت، لكنها كانت أبسط بكثير من أن تحيط بالحياة، وأبسط من أن تأخذ هرمونات سلمان بالاعتبار التي صعدت إلى رأسه بعد أن فترت رغبتها الجنسية تجاهه، ونشرت ضباباً كثيفاً فوق مناطق المخ المسؤولة عن الإخلاص وعذاب الضمير. . فلم يعد الأمر مجرد كيمياء بسيطة، وإنما كيمياء حيوية معقدة.

تنحدر بائعة الهوى لولا من أصل بولوني. وهي ذات جمال آخاذ طالما ظلت صامتة، مثل لوحة كلاسيكية جميلة. أما عندما تبدأ تتكلم، فإنها تفقد الكثير من جاذبيتها لأن عقلها مسطح، بدائي، وتخجل فتاة في العاشرة من عمرها من طريقة تفكيرها. كانت لولا مغرمة بمشاهدة مباريات كرة القدم على التلفزيون حتى أثناء مضاجعتها لزبائنها. وبما أن الأقمار الاصطناعية مكّنت كلّ بيت من مشاهدة هذه المباريات التي تبث من جميع أنحاء العالم، كان جهاز التلفزيون لديها يظلّ «مفتوحاً» ليل نهار. ومع أن ذلك كان يروق لبعض الرجال أو أنهم لم يبالوا، فقد شعر سلمان بالقرف بعد عدة زيارات لها، وكان يشعر بأنه يضاجع روبوت في ملعب كرة قدم، لأن لولا كانت في الملعب بكل جوارحها.

قرر سلمان أن يبحث عن بائعة هوى أخرى، وفعل ذلك بسرعة حين قُرع ناقوس الخطر عندما فاجأته لولا ذات يوم وقالت له وهي تبكي إنها أُغرمت به وإنها ظلت تقاوم ذلك طوال الوقت، لكنها أخفقت. ولإرضائه، قالت إنها مستعدة لأن تتوقف عن مشاهدة تلك المباريات من أجله لأنه أول رجل في حياتها عاملها بلطف وكرم. في ذلك المساء، غادر سلمان شقتها من دون أي جدال معها أو إظهار ردة فعل، ولم يعد إليها مرة أخرى. وبعد عدة أسابيع، نسيها.

خجل بعمر قصير

بعد سنة، تعرّف سلمان على أليس الفرنسية التي أمضت شبابها راقصة في الملهى الباريسي الشهير «الطاحونة الحمراء» (Moulin Rouge) حيث تعرّفت على رجل ليبي غني أُغرم بها لجمالها الآخاذ وأغدق عليها مالاً كثيراً. وعندما تحوّلت علاقتها به

إلى حبّ جارف، طلب منها أن تترك العمل في الملهى وأن تأتي وتعيش معه في باريس وروما. ولكي يثبت لها مدى ثقته بها، وضع في حسابها مبلغاً ضخماً من المال يكفيها طوال حياتها. ثم تزوجته وتركت الملهى وغادرت باريس وانتقلت إلى روما حيث يملك فيلا ضخمة في أجمل شوارع روما.

كان زوجها تاجر أسلحة، وكان قد ألمح لها مرات عديدة أن تجار الأسلحة العرب يهددونه بالقتل، لكنها لم تأبه بكلّ ذلك. وفي أحد الأيام، قُتل الرجل دهساً، وأظهر التحقيق أن ذلك عملاً جنائياً ارتكبه عدة أشخاص، لكن الشرطة الجنائية لم تصل إلى أكثر من هذا الاستنتاج. وبعد فترة قصيرة من الحزن والخوف، عاشت أليس حياة مليئة بالطمأنينة والرفاهية.

تعرّف سلمان على أليس في حفلة أقامها أحد أصحاب شركات إنتاج المواد الغذائية. كانت في حوالي الأربعين من عمرها، لا تجيد التحدث بالإيطالية وتنطقها بلكنة مضحكة، وفرحت كثيراً عندما رأت سلمان الذي راح يكلّمها بلغة فرنسية ممتازة. إذ لا يبدي الإيطاليون عادة اهتماماً بتعلّم لغات أخرى ما عدا الإنكليزية. «أخيراً، يا إلهي، ما أحلى فرنسيتك» قالت له وهي تضحك بعينين تشعان بريقاً من الفرحة.

أعطته عنوانها، وفي اليوم التالي، زارها في بيتها الجميل، وضاجعها في سرير في هيئة سرير مخصص للملوك.

لم يكن وجه أليس جميلاً جداً، لكن جسدها يضج بالأنوثة كأنها في العشرين من عمرها. لكن فرحته بها وبضيافتها السخية حجّمتها ثرثرتها التي لا تتوقف، وذاكرتها التي تشبه الغربال. فقد نسيت عدة مرات موعدها معه. في المرة الأولى، غضب كثيراً ووبّخها بشدة على الهاتف. فاعتذرت بصوت حزين صادق، وقالت

له إنها تنسى كثيراً ورجته أن ينتظرها في المقهى قبالة بيتها في اليوم التالي. «وعندما تصل سأضيء مصابيح جميع غرف الطابق الأرضي لكي تتأكد أنني أنتظرك بلهفة» قالت له ببراءة طفلة، فسامحها.

لكنها ظلت تتأخر على موعدهما ربع أو نصف ساعة أحياناً، ولم يعد سلمان يغضب أو يظنّ أنها تهمله. هكذا هي، عشوائية بقلب أبيض، قال لنفسه، واقتنع بذلك...

صارحته بأنها تعيش حياة سعيدة وحدها لأنها أدركت أنها لا تطيق الحياة الزوجية الرتيبة والمملة. وأسرّت له بأنها ارتاحت كثيراً عندما مات زوجها الليبي، لكنها لم تطلعه على أسرارها وميولها، وكرر لها سلمان سيرته الذاتية التي اختلقها والتي كان يكررها على مسامع فيوليتا ولولا، بأنه رجل مثقف.

كانت أليس تحبّ القراءة وتلتهم عشرات الروايات، وأُعجبت بمعرفة وثقافة سلمان الذي راح يشرح لها بثقة تامة كلما سألته دقائق بنية الروايات وأسرارها. وغمرته السعادة أيضاً لأنه تمكن أخيراً من استعراض المعلومات التي تعلمها خلال دراسته الجامعية طوال تلك السنين. وهكذا سار كبار مفسّري طبائع الإنسان مثل سيغموند فرويد وكارل جوستاف ويونغ وفيلهلم رايش وآخرين عبر غرف أليس وراء بعضهم على طريق شروحاته الدقيقة عندما كان يشرح لأليس الخلفيات النفسية لتصرفات هذا أو ذاك من أبطال رواياتها. ولم يعرف هؤلاء المساكين أن سلمان كان يمهر في كثير من الأحيان آراءه الشخصية بتوقيعهم من دون أن يأخذ إذنهم.

ذات مساء، سأل سلمان نفسه بعد أن أمضى وقتاً رائعاً مع أليس إن كان لا يزال يحبّ ستيلا، فأجاب نفسه بثقة وصدق تامَّين إنه لا يزال يحبّ ستيلا بكل جوارحه، لكنه يحتاج إلى المتعة الجنسية كما يحتاج آخرون إلى التدخين أو إلى شرب الخمرة أو إلى تناول

الحلويات. لكنه ضحك عندما قرأ مؤخراً بعض التصريحات العلنية لشخصيات بارزة بأنهم «مدمنون» على الجنس كما يدمن الآخرون على المخدرات. ضحك لأنه لم يصدّق كلّ هذه الصراحة، واشتمّ رائحة دعاية عن فحولة هؤلاء الممثلين أو السياسيين. ثم قال لنفسه، من المؤكد أنه ليس مدمناً على الجنس، وإنما يعتبر الجنس فاكهة الحياة.

وفي مرة أخرى، تساءل في سرّه عما إذا كان يشفق على ستيلا؟ فأجاب نفسه، لا، هذا غير صحيح، لأن ستيلا امرأة ذات شخصية قوية، وابتسم عندما فكّر أن ستيلا ستشفق على ضعف شخصيته وعلى عاهراته لو عرفت ما يفعله. ولا بد أنها ستعلّق على ذلك، كما علقت على عمها جبرائيل الذي كان يصاحب عاهرات، «عندما ينتصب قضيبه فإن عقله يستلقي ويرفع ساقيه».

فقد أصيب عمّها جبرائيل بسكتة قلبية ومات على درج بيت عاهرة، فاتصلت بزوجته وقالت لها ببرود، «تعالي خذي زوجك، فهو مستلق على درج بيتنا ويعيق دخول الزوار!»

وماذا عن سلمان؟ تساءل ذات مرة وهو مستلق في فراش أليس، ما الذي يمكن أن يحدث لو جاء عزرائيل وقبض على روحه وهو هنا؟ فأجاب بروح باردة وهو ينظر إلى أليس التي كانت تستحم بعد جولة الحبّ الأولى، «ما الذي يهمّ الجثّة بما يقوله الآخرون عنها؟» وضحك ضحكة ساخرة خافتة. وكما كان يفعل في علاقاته الجنسية السابقة، كان سلمان يزيل من محفظة جيبه أي دليل يثبت من هو. وفي كلّ يوم ثلاثاء وجمعة، اليومَين المخصصين للعاهرات في الأسبوع، يترك هاتفه الخلوي وبطاقته الشخصية وأوراق سيارته والبطاقات المصرفية والتأمينات في مكتبه.

لكن في إحدى المرات، كاد يفتضح أمره. فمنذ أن كان باولو

في الخامسة من عمره، كان يحب أن يرافق والده إلى ما يسمى «سوق الأحد» الذي يقام في الشارع الطويل بجانب البوابة التاريخية بورتا بورتيزة «Porta Portese». وهو أكبر سوق في روما لشراء الألبسة والخردوات الرخيصة الجديدة منها والمستعملة وألعاب الأطفال والآلات الموسيقية القيّمة وعديمة القيمة، والدراجات والعطور بالإضافة إلى التحف والآلات العتيقة والبالية. ولا يبعد السوق عن بيت سلمان أكثر من مئتي متر. ولم ترافقهما ستيلاً قط لأنها تكره السوق والروائح المنبعثة منه وبضائعه الرخيصة، لكن سلمان كان يعرف سبب كراهية ستيلا الحقيقية لهذا السوق: لأنه شديد الازدحام بالرجال ونفورها من الزعران الذين يملأون السوق وتلميحاتهم البذيئة للنساء.

ذات يوم أحد، بينما كان سلمان منهمكاً مع ابنه في تفحّص سيارة إطفائية لعبة حمراء جميلة، قديمة، مصنوعة من المعدن، رأى فجأة أليس وهي تتفحّص تمثالاً خشبياً صغيراً بالقرب منه. فأخذ قلبه يخفق بقوة. انحنى وأدار ظهره لأليس واشترى السيارة لابنه بسرعة من دون أن يساوم البائع، ثم قال لباولو هامساً إنه أصيب فجأة بصداع ويجب أن يعودا إلى البيت ليأخذ حبة دواء، يعودان بعدها مباشرة. فابتعد بسرعة مع ابنه. لكن عندما وصل إلى مدخل البناية، خفَّت خفقات قلبه ولام نفسه لأن خوفاً غير ضروري انتابه، وتساءل ماذا لو رأته أليس مع باولو؟ فقال لنفسه إنه لن يدعها تسأله عن أي شيء، وإن تجرأت وسألته، فلن تراه بعد اليوم. عندما توصل إلى هذه القناعة، قال لابنه إن رأسه لم يعد يؤلمه واقترح عليه أن يعودا إلى السوق، ففرح باولو كثيراً.

بقي سلمان على علاقة مع أليس حتى سافر إلى دمشق في شتاء ٢٠١٠. ولم يزرها خلال الفترة التي سبقت سفره إلّا نادراً. كانت

ترجوه أن يزورها لأنها لم تكن مشتاقة إلى الجنس الرائع معه فقط، كما قالت، وإنما إلى أحاديثه الممتعة أيضاً عن الأدب والفلسفة وعلم النفس. لكن روحه كانت معلقة بدمشق، ولم يعد يشتاق إلى أليس أو يشعر بأي واجب تجاهها، لأن كلّ همّه في تلك الأيام انحصر في الانتصار على من عذّبه ومنعه من زيارة دمشق، المدينة التي تقبع في قلبه. لم يخبر أحداً بذلك، ولا حتى ستيلا، فكيف لفتاة نشأت وتربت على الحرية أن تفهم جرح النبذ والنفي من الوطن؟

تبديد غبار النسيان

في أحيان كثيرة من صيف عام ٢٠١٠، كان سلمان يتذكّر الماضي كلّ يوم ويدوّن الأفكار التي تخطر بباله باللغة العربية. فقد أصبح مهووساً بالتفكير في دمشق. وفي كلّ دقيقة، كان يتصوّر كيف أنه سيعود إلى وطنه منتصراً، لأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي ستشفي جراحه. ويوماً بعد يوم، بدأ يفكّر في السعادة التي ستغمره عندما يعود إلى بلده، لكنه لم يخبر أحداً بذلك.

وجد سلمان نفسه يكرر كتابة عبارة واحدة: «روحي في دمشق، تتجوّل في شوارع طفولتي ولم يبق إلّا أن يتبعها جسدي». ووصف شوارع دمشق بالألوان الزاهية التي كان شوقه وحنينه يستدعيانها، بينما شغلته في هذه الفترة التي عاشها بأمان في روما، المخاطر التي تنطوي عليها هذه الرحلة.

وكتب أيضاً عن حياته مع ستيلا. فقد بدا له أن الكتابة تبدّد الغبار عن كلّ شيء عايشه في حياته. فتذكّر الأيام الأولى التي أمضاها مع ستيلا في روما، وكيف تغيّرت روما في الثلاثين سنة الأخيرة - مجموعات السيّاح، فوضى المرور، انتشار المُحلات

الرخيصة - التي تضافرت كلّها لتشوّه صورة المدينة. من المؤلم أن تقف جانباً وترى إلى أي مدى تجاوزت الحقيقة الرؤى والمخاوف المروّعة التي صوّرها باسوليني أو فليانو. فقد انتقلت الطبقة الراقية إلى الأحياء التي كانت تضج بالحياة ذات يوم، وبدأت أطراف المدينة تتداعى اقتصادياً واجتماعياً وتتحول إلى أماكن خطيرة تحكمها المافيا على الغالب.

مساء بعد مساء، بدأ سلمان يسجّل أفكاره على الورق محتمياً بالكتابة باللغة العربية لأن ستيلا وباولو لا يمكنهما قراءتها. فعلى الرغم من أن لدى سلمان وستيلا عدداً لا يحصى من نقاط الضعف أو الأخطاء، كانا يحترمان خصوصية الآخر وأسراره ويعتبرانها مقدسة لا يحقّ للآخر بأن يمسّها. وهذا ما مكّنه من الكتابة بصراحة عن زوجته وابنه. فقد جلب له باولو سعادة كبيرة، لكن قدومه إلى الحياة سلبه المرأة التي يحبّها، لكنه قلما سبّب له أيّ مشكلة، وكان أداء الصبي الصغير الهادئ ممتازاً في المدرسة على الدوام. وساعد مزاج باولو المرح على أن يصبح محبوباً في المدرسة لديه الكثير من الأصدقاء. ومن حسن الحظ، لم يُصب باولو بمرض خطير قط. ومن خلال ابنه، فهم سلمان كلّ ما فعله له والداه. وعندما فكّر في ذلك، أدرك كم أنه أهملهما، فخجل من نفسه - لكن خجل سلمان لا يدوم طويلاً.

كان سلمان وستيلا يدعوان أصدقاءهما إلى البيت ثلاث أو أربع مرات في السنة. وفي عشية عيد الميلاد، كانا يسمحان لأصدقائهما ان يأتوا في أي وقت بين الثامنة مساء والثالثة صباحاً. وكانا يقدّمان لهم طعاماً عربياً. وكان بإمكان أصدقائهما أن يأتوا ويحتفلوا معهما «بأمسية البيت ذي الباب المفتوح» كما سمّت ستيلا عشية عيد الميلاد.

لم تكن ستيلا تحبّ الطبخ كثيراً. وعندما تجبر نفسها على ذلك، كانت تطبخ سباغيتي أو حساء مينيستروني. وكانت تفضّل تناول الطعام خارج البيت مع الصديقات والأصدقاء. أما سلمان، فكان يجد متعة كبيرة في الطهي. ويفرح كثيراً عندما يعدّ وجبات عشاء لذيذة لأصدقائه الألمان عندما كان يعيش في هايدلبرغ، أما إعداد الطعام لأصدقائه الإيطاليين فكان أصعب بكثير. فالألمان على استعداد لتجريب كلّ شيء، حتى البيتزا بالأناناس. فمنذ قرون، لا توجد لدى المطبخ الألماني التقليدي أطباق مميّزة عديدة. أما إيطاليا التي رُزقت بمطبخ متوسطي ومناخ رائع لزراعة الخضراوات وعنب ونبيذ وزيت الزيتون الفاخر، فإن الإيطاليين يرتابون عادة، بل إنهم يشعرون بالتفوق، عندما يرون أطباقاً جديدة. وإذا استنفد ضيف كلّ حججه، فإنه يردد دائماً العبارة القديمة: «إن مذاقها يختلف عن مذاق الطعام الذي تعدّه أمي».

مكتبة
t.me/soramnqraa

اقتراح منيرة ومجازفة كريم

من لا يجازف ليس له الحق أن يأمل.

فريدريش شيلر

دمشق، ١٩٥١

في مساء أحد الأيام، بعد أن تناول كريم العشاء مع العمّة منيرة، طلبت منه أن يُحضر قنينة نبيذ أحمر من القبو المقنطر في بيتها. في تلك الأثناء، وضعت صحنين من الفستق الحلبي وبذور اليقطين المحمصة والمملحة على الطاولة. تبادلا الأنخاب، وشعر أن منيرة تريد أن تقول له شيئاً.

«يجب أن تخرج لترى العالم! هنا في بيتي لديك مكان آمن دائماً، لكن لا يوجد أحد غيري أنا وصوفيا نبذل جهدنا لنُخرِجك من حزنك. لكن عالماً جميلاً ينتظرك عندما تغادر بيتي، هناك نساء يحلمن بلقاء رجل وسيم وجذّاب مثلك».

«لكن الشرطة تبحث عنّي. فالملصقات منتشرة في كلّ مكان و...»، قال كريم محتجّاً.

«لقد غُطّيت جميع الملصقات بملصقات وصور أخرى وأطارت الريح جميع إعلانات المطلوبين إلى خارج المدينة».

«لكنني لا أبحث عن أحد»، قال، لكنه لم يشأ أن يعترف بأنه لا يزال خائفاً.

«ليس من المفترض أن تبحث عن أحد. يجب أن تفتح نفسك للقادم. إذا وضعت كرسياً هزازاً في قلبك وتجولت في أرجاء المدينة فإنك ستجد امرأة ترتاح عليه. لقد احتلّت صوفيا كلّ زاوية في قلبك وستظل هكذا دائماً، لكنك لا تستطيع أن تنتظرها طوال حياتك».

«إنه قدري وقد رضيت به. يجب أن تنظري إلى الأمور بعقلانية. فهي امرأة متزوّجة ولا تستطيع أن تفعل كما تريد. أنا...»

«العقلانية، العقلانية - يلعن العقلانية في قبرها! يمكنك أن تواسي نفسك بالعقل، يمكنك أن تستخدم الفضيلة لتبرر جبنك، لكن أياً منهما لن يطفئ لهيب عواطفك. الحبّ وحده يمكنه أن يشفي جروح الحبّ».

صمت كريم طويلاً. ظلت منيرة تملأ كأسه كلما فرغ. ثم رفع عينيه أخيراً، وقال: «وصوفيا؟ ماذا ستقول؟»

فأجابته منيرة، «اترك الأمر عليّ».

لم يغمض له جفن طوال تلك الليلة، ثم نام نوماً خفيفاً متقطعاً عند الفجر.

جاءت صوفيا بعد الغداء. كان كريم معكّر المزاج ولم ينبس بكلمة واحدة. أعدّت منيرة القهوة، وجلسوا في مطبخها الكبير. أخيراً، تناولت منيرة رشفة كبيرة من القهوة، وقالت: «صوفيا، سامحيني إن قلت لك إنك لا تستطيعين إنقاذ كريم بهذه الطريقة. فإذا لم تقبض عليه الشرطة، فإن حرصك عليه هكذا يجعله محبوساً كأنه سجين».

«هذا غير صحيح»، قالت صوفيا ونظرت إلى كريم تلتمس مساعدته، لكنّه تحاشى نظرتها. ثم واصلت المرأة العجوز، «كأنك

تريدين أن تحفظيه في مرطبان مليء بزيت الزيتون والثوم والبهارات وتغلقي عليه غطاء المرطبان بإحكام، لكن كريم يحتاج إلى الهواء. يجب أن يتعرّف على دمشق ويبحث عن خلاصه فيها».

احتجت صوفيا وقالت: «لكن خروجه لا يزال يشكّل خطراً عليه». إلّا أن منيرة تمسّكت بموقفها، وقالت: «لا، لا. إنه مرحّب به دائماً هنا»، ثم التفتت إلى كريم، وأضافت، «إنك الضيف المثالي. لا يوجد أحد في الدنيا يأمل أن يستضيف شخصاً أفضل منك. فأنت شاب وسيم، خفيف الظل، تساعدني في أشياء كثيرة، لكن ليست هذه هي المشكلة. فأنت تعيش الآن مع سيدة عجوز وامرأة تحبّها عندها ابن في الخامسة من العمر وزوج محترم. صحيح أنني لا أحبّ يوسف، لكن علينا أن نكون منصفين. يمكنك أن تراهن بحياتك لكن صوفيا تفضّل أن تموت على أن تتركهما. ألم تذق طعم إرادتها الحديدية بعد؟»

طقطق كريم أصابعه بقلق. لكن منيرة لم تنتظر أن تسمع ردّه.

«هذه المرأة هنا مفعمة بالحياة، واستطاعت أن تجعل نفسها راهبة بطريقة مقنعة»، قالت والتفتت إلى صوفيا، وأضافت، «أنا أحترم قرارك، لكن هذا لا يعطيك الحقّ بأن تبقي كريم سجيناً. يجب أن يغادر العشّ ويفرد جناحيه. عندها فقط يستطيع أن يتحرّر. عندها فقط يستطيع أن يحبّك من دون أن يمتلكك أو ينتظرك».

لم تعرف صوفيا ماذا تقول. بكت كطفلة صغيرة لأنها أيقنت أن العمة على حق. مسّدت عمّتها منيرة على رأسها الذي أسندته إلى كتف كريم.

«أنت محقّة»، همست بصوت يكاد يكون مسموعاً.

في ذلك المساء، لم ينم كريم كثيراً. وقبل أن يغطّ في النوم، قرّر أن يخرج في صباح اليوم التالي ليتعرّف على المدينة. فحتى ذلك

الحين، لم تعن دمشق له الكثير، لأن حمص مسقط رأسه على ضفاف نهر العاصي، هي حبّه الأول.

في صباح اليوم التالي، ارتدى كريم ثياباً عادية وغطّى رأسه بكوفية ذات خطوط حمراء وبيضاء، وغادر البيت، وسار في الشارع، يشبه مئات المزارعين الذين يجوبون شوارع دمشق كلّ يوم. ومع كلّ خطوة يخطوها، ازدادت ثقته بنفسه. من سيعرفني؟ تساءل بارتياح. العمة منيرة على حقّ. فلم تعد تُرى أي من الملصقات عن المطلوبين التي ألصقتها الشرطة على الجدران والتي تعرض جائزة قدرها ثلاثة آلاف ليرة لكلّ من يدلي بمعلومات تؤدي إلى إلقاء القبض عليه. فقد أُلصقت فوقها طبقات عديدة من الإعلانات وملصقات عن أفلام ومسرحيات ومباريات رياضية ومهرجانات.

وشيئاً فشيئاً، صار متيقناً بأن جولته ستنتهي بسلام، كما بدأت.

الحلم
أو حنين سنونو مطرود

روما، ربيع ٢٠٠٥ إلى أيلول ٢٠١٠

القرين

لم يقرر سلمان لأول مرة زيارة دمشق في عام ٢٠١٠ عندما أصدرت الحكومة عفواً عاماً شاملاً عن جميع الملاحقين سياسياً. فقد لازمته فكرة زيارة دمشق طوال الوقت وكانت دائماً مصحوبة بالخوف. صارت هذه الرغبة في العودة إلى دمشق تأتي وتذهب في موجات، تأخذ منعطفات واضحة قبل أن تعود وتختفي في بحر النسيان. في أحد الأيام من ربيع عام ٢٠٠٥، اتّصل حسين، الموظف اللبناني في شركة «الواحة» من الكشك في السوق الجديد. وقال له إن رجلاً يدعى فرانسيسكو ماسكولو يصرّ على أن يلتقي بمدير الشركة. لم يكن ذلك أمراً غير عادي، لكن صوت حسين كان في غاية الحماسة والإثارة.

بالإضافة إلى الكشكين الموجودين في السوق الجديد، كان فرعا «الواحة» في أنكونا وميلانو يبيعان مواد غذائية وتوابل عربية للزبائن مباشرة. ومع مساعدته كيارا، أدار سلمان وأشرف على عمليات البيع بالجملة من مكتبه في شارع برينسيبي أماديو الذي لا يبعد سوى مئة

متر عن السوق وخمس دقائق سيراً على الأقدام. وكانت قائمة الزبائن الدائمين لشركة «الواحة» تضمّ أكثر من مئة شركة ومطعم ومحل في كلّ من إيطاليا والإمارات. لقد أصبح سلمان يمتلك ثروة لا بأس بها.

«لن تصدّق عينيك يا معلّم»، قال له حسين؟ باللغة العربية التي لم يفهمها الإيطالي الغريب الذي كان يستمع إلى الحديث. «إنه يشبهك تماماً. لا يمكن أن تجد شبهاً كهذا إلّا في القصص الخيالية. يجب أن تأتي وترى بنفسك».

«قل له أن ينتظرني في المطعم الهندي ماهافير. سأحضر بعد خمس عشرة دقيقة تقريباً. يجب أن أنهي شيئاً هاماً أنجزه الآن».

الشيء الهام الذي أراد سلمان إنجازه هو حلّ مشكلة صعبة لا يسمح لأحد غيره بحلها. فقد عرضت شركة صينية على زبائن سلمان الخليجيين منتجات إيطالية بنصف السعر، وهذا لا يمكن أن يحدث إلّا إذا كانت المافيا الإيطالية التي تنقل بضائع عليها ملصقات مزورة عبر الجمارك متورطة فيه. كان عليه أن يجد بسرعة وسيلة يهزم فيها منافسه بنفس اللعبة التي يلعب بها وهي الرشوة.

تمتع سلمان بصلات ممتازة في المنطقة. وكان عليه أن يشارك شقيق حاكم دبي بواسطة وسطاء تُدفع لهم مبالغ كبيرة. فيفرض حظراً على جميع الشركات الصينية التي تورّد منتجات إيطالية. اضطر سلمان إلى دفع نصف مليون دولار كلّ سنة - نصف أرباحه الخليجية - ليتغلب على منافسيه. وتغلّب عليهم!

في هذه الأثناء، دلّ حسين الشخص الغريب على مكان المطعم الهندي الذي يتناول فيه سلمان غالباً طعام الغداء، وحاول أن يهدئ من ارتباك الرجل. «سيصل إلى هناك بعد دقائق. يمكنك أن تكلّمه بهدوء في المطعم». ثم التفت إلى سيدة مسنّة تحمل كيساً صغيراً من

العدس، وسألها، «هل تريدين أن تدفعين ثمن هذا، سيورا؟» وأخذ الكيس الصغير من يدها وضغط على صندوق الدفع، ثم سألها من دون أن ينظر إليها، «هل تريدين شيئاً آخر؟»

كان العاملون الستّة في الكشكين مشغولين كثيراً في تلك الساعة. غادر الإيطالي الغريب واختفى بين جموع الناس في الشارع المزدحم. ضحك حسين والعاملون الآخرون وهزّوا رؤوسهم غير مصدّقين. ما عدا صوتيهما، كان سلمان يشبه فرانسيسكو شبهاً تاماً. والفرق الوحيد الذي يميّزهما هو أنّ صوت الإيطالي كان رقيقاً أنثوياً، مثل صوت شخص مخصيّ.

فكرة مجنونة

بعد عشرين دقيقة، وصل سلمان إلى المطعم. وقف فرانسيسكو. نظر إليه سلمان مصدوماً. همس كلاهما «بون جورنو» (نهارك سعيد)، وصافح أحدهما الآخر، بشيء من الذهول.

أخبره فرانسيسكو بأنّه ممثّل، ثمّ أطرق محرجاً، وقال إن بعض أصدقائه اللبنانيين الذين يتبضعون مواد غذائية عربية من السوق، أخبروه أن صاحب الكشك، رجل سوري يدعى سلمان، يشبهه شبهاً تاماً. صحيح أنه الآن لم يفقد القدرة على الكلام تماماً، لكنه ذُهل من شدّة الشبه بينه وبين سلمان، ثم سأله: «هل سافر أبوك ذات يوم إلى إيطاليا؟ فأنا لا أظن أن أبي ذهب في حياته إلى سوريا».

عندما أفاق سلمان من الصدمة، ضحك وقال: «لا. لكن أمّي سافرت إلى روما عدّة مرات، لكن بعد أن تجاوزت الستين».

ضحكا، ودعا سلمان الرجل لاحتساء فنجان قهوة إسبريسو، ثمّ تناولا الغداء معاً. كان قرينه، فرانسيسكو ماسكولو، فقيراً،

يعيش في تراستيفير، في شقّة صغيرة جداً في بناية قديمة متداعية مؤلفة من ستّة طوابق والدرج فيها معتم وكئيب. ولم يتمكن فرانسيسكو من استخدام الشرفة في بيته قط لأن سكان البناية المقابلة والقريبة من شقته يستخدمون شرفاتهم الخربة الصدئة كصناديق قمامة يلقون فيها قطع أثاثهم المحطمة وأدواتهم المنزلية التي لم تعد صالحة. وتحيط بالبناية حديقة خربة نمت فيها أعشاب أحرقتها الشمس وأشجار ميّتة.

ومثل معظم سكان روما في ذلك الوقت، بدأ سلمان وفرانسيسكو يتحدّثان عن التغييرات التي أحدثتها حكومة برلسكوني على الإيطاليين.

«ثمانون في المئة من الأغنياء في إيطاليا يعيشون في فيلات تبدو كأنها أحلام في روما»، قال فرانسيسكو متذمّراً، «أما الأحياء المجاورة، فهي تشبه أحياء الصفيح في أكثر البلدان الأفريقية والآسيوية فقراً».

وافقه سلمان بأنّ الترف والبؤس في روما يعيشان جنباً إلى جنب ويتركان آثارهما على المدينة. فقد رأى نفس الهوة بين الأغنياء والفقراء أثناء رحلات العمل التي كان يقوم بها إلى البلدان الآسيوية، وقال إن شريكه، فيكرام، الذي يعيش في كلكوتا ويمتلك شركة ضخمة لبيع الشاي والتوابل بالجملة، يسكن في فيلا محاطة بحراس وكاميرات مراقبة، ويمكنك رؤية البؤس عند ناصية الشارع، حيث تبرز الفيلا كأنها جزيرة بيضاء من الثراء في بحر بؤس مظلم. ولاحظ سلمان أن الأثرياء في روما أيضاً بدأوا يحيطون أنفسهم بشكل متزايد بأسوار عالية وكاميرات وبوّابات إلكترونية.

كان سلمان غنياً بما يكفي، لكنّه لم يرغب إطلاقاً أن يسكن في فيلا أو يترك الحيّ الذي يعيش فيه. فلا يوجد مكان آخر في العالم

يشبه حيّه الدمشقي مثل الحيّ الذي يعيش فيه الآن. ولم تكن شقّته الرحبة تبعد سوى بضع مئات خطوات عن بيت فرانسيسكو البائس. وحكى له فرانسيسكو عن سيدة عجوز، جارته، تقرع باب بيته كثيراً وتطلب منه أن يساعدها على التخلص من الصراصير التي تثير الخوف والاشمئزاز في نفسها. مكتبة سُر مَن قرأ

أجرى سلمان اتصالاً سريعاً بالمكتب وأخذ إجازة فترة بعد الظهر، ثمّ طلب قنينة نبيذ أحمر وتابع حديثه مع فرانسيسكو الذي قال إنه لم يحصل على أي دور في التمثيل منذ ستّة أشهر. كان صوته العالي قاسياً، يكاد يكون غير مفهوم أحياناً. وكان يتنحنح ويسعل بشدة بين الحين والآخر.

«ثمة شيء حدث لصوتي قبل ثلاث سنوات، شيء يسمّونه فرط الوظيفة أو النشاط. فعندما أتكلّم تتشكّل كتلة في حنجرتي، لم يستطع الأطباء معالجتها، وكما تعرف فإن أصوات الممثلين مصدر رزقهم»، قال لسلمان بأسى.

تحدّثا لساعات، ثم دعاه سلمان إلى العشاء في مطعمه المفضّل، *المحطة الجديدة*، القريب من مكان سكنهما. كان هذا المطعم يشبه فعلاً محطة قطار صغيرة، فيه لوحات وتتدلّى لافتتان من السقف كُتب عليهما: الرصيف ١: *روما - باريس*، *الرصيف ٢*: *روما* - فيينا، *الرصيف ٣*: *روما* - مدريد. كان المطعم هادئاً في ذلك المساء، وتحدّث فرانسيسكو عن نفسه كثيراً، ثم اكتشفا أن لديهما عدة أصدقاء مشتركين.

فجأة، بدا سلمان غارقاً في التفكير في قرينه. ربما جعله النبيذ فجأة جريئاً ومندفعاً، أو ربما استحوذ شوقه لمدينته على كلّ تفكيره. جرع جرعة كبيرة أخرى من كأسه، ثمّ حكى لفرانسيسكو عن الفكرة الجريئة التي طرأت بباله. ماذا لو سافر سلمان إلى دمشق مستخدماً

جواز سفر فرانسيسكو الإيطالي عليه فيزا سياحية ليزور والديه وأماكن طفولته سراً؟ وبطبيعة الحال، فإنه سيقدّم لفرانسيسكو مكافأة سخية.

فوجئ فرانسيسكو بهذه الفكرة، لكنه وافق على الفور. فعانقه سلمان ودعاه إلى العشاء في بيته مساء اليوم التالي. «عندها يمكننا أن نتحدّث عن التفاصيل ونتعرّف على بعضنا أكثر. يجب أن أقوم بتمثيل دورك»، قال سلمان ضاحكاً. كان يريد أن يعرف إن كان الشبه بينهما سيقنع زوجته المرتابة.

في ذلك اليوم، تأخرت ستيلا قليلاً في العودة إلى البيت، وذهب باولو إلى حفلة عيد ميلاد أحد أصدقائه في المدرسة، وقرر أن يمضي أيضاً الليلة في بيت صديقه. فكر سلمان أن الوضع لا يمكن أن يكون أفضل من ذلك في تلك الأمسية. وضع سلمان الباذنجان المحشي بالبصل واللحم والبندورة والتوابل في الفرن، وأعدّ المائدة بعناية نادل خبير، واستمتع بكأس أخرى من النبيذ الأحمر مع ضيفه، وانتظر ستيلا.

حرص سلمان على أن يمشّط فرانسيسكو شعره كما يمشّطه هو، وأن يرتدي ثياباً كالثياب التي يرتديها - قميص أبيض فوق بنطلون جينز وصدرية خمرية اللون. كانت لدى سلمان خمس صدارٍ متشابهة يحبّها لأنها تضفي عليه أناقة وتبقي ذراعيه حرتين.

عندما دخلت ستيلا إلى غرفة الطعام، ابتسم لها الرجلان ابتسامة عريضة من وراء الطاولة. أجفلت ستيلا، لكنها سرعان ما تمالكت نفسها، وضحكت ضحكة عالية، وقالت: «سلمان، هل أنا سكرانة أم أن لديك أخاً توأماً؟»

لقد نجحا في الاختبار.

كان فرانسيسكو ممثلاً متوسط الموهبة، لكنه شخص طيب مرهف الحسّ. بعد أن فكّر في الأمر ملياً، بدت له فكرة سلمان

بالسفر إلى دمشق بجواز سفر مزور بالغة الخطورة، ليس له فقط، وإنما لستيلا أيضاً. لكنّ سلمان كان عازماً على السفر إلى مسقط رأسه، مهما كلّف الأمر. وقد حذّرته ستيلا من تنفيذ هذه الفكرة الخطيرة، وقالت له بحزم: «إن رغبتك في زيارة بلدك جعلتك تستهين بأجهزة المخابرات السورية»، وأضافت، «وقد يكلّفك هذا حياتك. فما أسهل على الحكومة من أن تتهمك بأنك تتجسّس عليها لصالح الإسرائيليين».

حدث هذا في ربيع ٢٠٠٥. بعد عدة أيام، غيّر سلمان رأيه مكرهاً، وبقلب مثقل. لكنّه قدّم لفرانسيسكو هديّة كبيرة لاستجابته له، وسدّد عنه إيجار شقّته لمدّة سنة. وشعر فرانسيسكو بالارتياح لأن قرينه تخلّى عن هذه الخطة الطائشة. وسرعان ما نسيها سلمان، لكنه لم ينس توقه لزيارة بلده الأم.

كابوس متكرر

فتنت الأحلام الإنسان منذ زمن بعيد. في الأزمان الغابرة كان الحلم يفسّر على أنه نوع من التنبؤ لما هو قادم، بينما نزع علماء النفس منذ بداية القرن العشرين لتفسير الحلم تفسيراً نفسياً للشخص الحالم يتعلق على الأغلب بماضيه، بطفولته وشبابه. أما في عصر الإنترنت والحقائق الرخيصة المنال فقد امتلأت الصفحات بقواميس ومراجع لتفسير كل ما يشاهده الحالم. فما إن يكتب المستطلع اسم شيء أو حيوان أو رمز رآه حتى يحصل على تفسير مباشر بسيط يفهمه كلّ إنسان ذي عقل مسطح. وغالباً ما يصل تحليل كهذا إلى عقد الحالم الجنسية ورغباته المكبوتة.

الحلم شبكة معقدة من الأحجيات وما إن يفسّر أحجية حتى تلد

عشرة أخرى. لكن في بعض الأحيان، يحالف الحالمون الحظ ويسعدون - وهذا ما يحدث نادراً - بحلم واقعي فيخبرهم حلمهم شيئاً عن أشخاص كانوا قد التقوا بهم، أو أحداث عاشوها ورغبات كانت يأملون في تنفيذها، أو قصص كانوا أبطالها. وهذا ما رآه سلمان في منامه في إحدى الليالي.

في الحلم، التقى سلمان بقرينه فرانسيسكو في مقهى آرابو وهناك أحضر له قرينه جواز سفره. كان سلمان في غاية السعادة. وعندما ودّعه، عانقه فرانسيسكو، وهمس في أذنه باللغة العربية «انتبه لنفسك»، ففوجئ سلمان بذلك.

في الحلم رأى سلمان نفسه وقد سافر إلى سوريا بجواز السفر هذا وبفيزا سياحية مع ستيلا وباولو، خلال أجمل شهرين في دمشق وهما أيلول وتشرين الأول، عندما يصبح بإمكان المرء أن يجلس في المقاهي المفتوحة وفي الحدائق حتى منتصف الليل، وينام بعد أن تكون درجة الحرارة قد انخفضت أكثر بكثير مما كانت عليه في شهر آب الذي يطلق عليه الدمشقيون «آب اللهّاب». وقرّر سلمان أن يسافروا بالبحر على متن باخرة تابعة لخطوط غريمالدي الإيطالية التي تنطلق من ميناء سيفيتافيكيا الذي يبعد حوالي سبعين كيلومتراً شمال روما، إلى ميناء اللاذقية في سوريا. كان قبطان السفينة يونانياً. ولاحظت ستيلا أن القبطان يحاول باستمرار التودد إليها. وأما باولو فقد أصيب بملل وضجر لأنه كان الصبي الصغير الوحيد بين جميع الركّاب الذين كانوا يرتدون - ما عدا والديه - قمصان هاواي مزركشة ويضعون نظارات شمسية كبيرة.

«لماذا لم نسافر بالطائرة؟» سأل باولو متذمراً، «كنّا قد قطعنا كل هذه المسافة في ثلاث ساعات».

عندما أجابه سلمان، «أنا مخلوق من الأرض والماء»، اختفى

باولو بعد قليل، ثم ظهر فجأة فوق جسر السفينة، يلوّح لوالديه بيده. وبطفولته البريئة، ظنّ أنه أصبح صديقاً للقبطان الذي أخذ يشرح له كلّ شيء له علاقة بالسفن والإبحار، في محاولة يائسة للتقرب من أمّ الطفل الجميلة. فهم سلمان وستيلا ما يرمي إليه القبطان وابتسم أحدهما للآخر. فقد جاء القبطان في الوقت المناسب ليبعد الملل عن باولو.

بعد رحلة ممتعة دامت بضعة أيام، وصلوا إلى ميناء اللاذقية. ومن الغريب أن البوم، لا النوارس، كانت تحوم فوق السفينة عندما دخلت إلى الميناء. ألقى موظف الجمارك نظرة على سلمان وسأله على الفور هل يحمل معه أفكاراً أو بضائع يريد التصريح عنها، فأجابه سلمان لا، من دون أن يفهم السؤال تماماً.

دقق شرطي في الأوراق على جهاز كمبيوتر ثم هزّ رأسه، وسأله بثقة كأنه وجد أخيراً شيئاً يدعو إلى الريبة، «إذا كان اسمك فرانسيسكو ماسكولو، فكيف تتكلّم العربية بطلاقة هكذا؟»

«لأن أجدادي وآبائي كانوا سوريين. فأنا أنتمي إلى الجيل الثالث وقد درست في مدرسة عربية».

«أه؟» قال الموظف متفاجئاً، ثم أضاف، «مدرسة عربية في روما؟»

«نعم، يموّلها السعوديون. لهذا السبب لن أرسل ابني إليها لأنه لا يحبّهم»، قال سلمان، ملمحاً إلى العلاقات السيئة بين النظام العلوي في دمشق والنظام السنّي المحافظ في السعودية.

فقال له الشرطي، «أحسنت». ورأى سلمان في الرجل مزيجاً من الجهل والغطرسة والثقة بالنفس. أعاد هذا إلى سلمان جوازات السفر الثلاثة من دون أن يدقق في جوازيْ سفر ستيلا وباولو.

عندما خرجوا من مبنى الميناء، نظر سلمان حوله ليتأكد من أن أحداً لا يتبعه. لكن ستيلا لم تلتفت وراءها وواصلت سيرها. ولدهشته، لم يجد سيارات أجرة عند مدخل الميناء، وإنما كان هناك حصانان. سلّم رجل لطيف الرسنين إلى سلمان الذي أخذ الإكرامية بامتنان واختفى وهو يبتسم باستحياء. لم تثق ستيلا بقدرتها على ركوب الحصان فطلبت من باولو أن يركب وراء أبيه. اتجهوا جنوباً، الحصانان يسيران بجانب بعضهما، وقد تمسّك باولو بأبيه بقوة وراح يصيح مبتهجاً.

عندما وصلوا أخيراً إلى دمشق، وقفوا أمام باب بيته في حارة المسك، البيت الذي أمضى فيه طفولته. قرع سلمان الجرس. فتحت أمّه الباب وصاحت بسعادة، «لقد وصلت حقائبك منذ ثلاثة أيام! أين كنتم طوال هذه المدة؟» ثم قبّلته وقبّلت باولو لكنها تجاهلت ستيلا. «تعال، يا نور قلبي»، قالت لباولو وقادته إلى داخل البيت. التفت الصبي محرجاً نحو أمّه التي ظلّت واقفة أمام البيت وحدها. لوّح لها سلمان بأن تدخل، وسمعها تهمس، «عجوز شمطاء».

في الحلم أخذ سلمان يجري مبتهجاً في الحيّ المسيحي القديم. والغريب أن ستيلا لم ترافقه في أي مشوار. كان باولو يرافقه أحياناً، ويذهب وحده أحياناً أخرى. وأصبح بإمكانه أخيراً، أن يفي بوعده لباولو ويلعب معه بالدحل في الشارع. وما هي إلّا عشر دقائق حتى بدأ بعض الأطفال في الحيّ يشاركونهما اللعب، ثم تركهم سلمان يلعبون وحدهم وانسلّ مبتعداً بهدوء.

استطاع باولو أن يُفهم الأطفال الآخرين من دون مساعدة أحد، مستخدماً عبارات بالإنكليزية والإيطالية، و«لغة اليدين»، كما كان يسمي لغة الإشارات التي استنبطها. وفهم الأطفال ما يريد أن يقوله،

حتى أنهم علّموه بعض العبارات بالعربية. استند سلمان إلى الجدار، وعندما سمع صبياً سورياً يقول «*Tocca a me* - جاء دوري»، عرف أنهم قبلوا باولو في صفوفهم.

في المساء، عندما تحدّثوا وضحكوا جالسين حول مائدة العشاء، سمع سلمان فجأة صوت صافرة سيارة شرطة، فركضت ستيلا مع باولو وخرجا من البيت. كانت شاحبة الوجه، وصاحت لسلمان: «يجب أن أختبئ في مكان آمن مع باولو. أمّك تريد أن يقبضوا عليّ».

وأيقن سلمان في حلمه أن خوفها مبرر، فقد سمع أمّه تقول بصوت عال في البيت، «اقبضوا على هذه المرأة الإيطالية. لأنها تريد أن تخطف حفيدنا وتجعله إيطالياً».

عندما جرى خارج البيت، لم يجد سلمان أثراً لستيلا أو باولو. ظلّ واقفاً في الشارع المظلم، ثم تلاشت أصوات الصافرات. عندما حلّ الصباح، وجد نفسه جالساً على عتبة البيت، يدمدم، «ستيلا، لا تتركيني وحدي». ثم رأى رجلاً مسناً يلصق ملصقات على الجدار. نهض سلمان واقترب منه، وسأله: «ماذا تلصق؟»

«لا أعرف. معظمها إعلانات عن قمصان أو عطر بعد الحلاقة. لكنّي لا أعرف القراءة. إنهم يدفعون لي ليرة واحدة عن كلّ ملصق. مئتا ملصق تكسبني ما يكفي لشراء وجبة طعام في اليوم». عندما رفع سلمان بصره، رأى صورة له تحدّق به من الملصق. صورة جميلة، قال لنفسه. كان يشبه مارسيلو ماستروياني. وكُتب تحت الصورة بحروف كبيرة **مطلوب**. بشكل ما ولعجبه فيما بعد، لم يُفاجأ سلمان ولم يشعر بخوف.

سار بخطى وئيدة في الشارع حتى الباب الشرقي القريب ليستقلّ سيارة أجرة تقلّه إلى المطار، لكنه فوجئ عندما رأى البوابة مسدودة

بالأحجار. جدار ناعم، صلب، سدّ أيضاً المدينة القديمة عند باب توما.

«يجب أن تذكر أسماء أبواب دمشق كلّها عن ظهر قلب قبل أن تسمح لك المدينة أن تغادرها». صاحت أمّه الواقفة أمام باب بيتها، تجفّف يديها على مئزرها. كما في الحياة الحقيقية، كان باستطاعة سلمان أن يعدّد أربعة أبواب فقط. استيقظ مجفلاً، مبللاً بالعرق. رقدت ستيلا نائمة بجانبه. استغرق لحظة قبل أن يعرف أين هو.

في الصباح، عندما حكى سلمان الحلم لستيلا وهما يحتسيان الإسبريسو، تأكدت من مخاوفها، «انسَ الرحلة. ابق هنا»، توسلت إليه، «إن الأحلام رسائل. في هذا الحلم، لا أستطيع أن أسمع إلّا تحذيرات».

لم يحر جواباً. ففي الآونة الأخيرة، أصبحا يتشاجران بعد كل حديث حول سفره إلى دمشق. بدأ سلمان وستيلا يتجادلان كلّ يوم تقريباً بشأن رحلته، واتّهمته غالباً بأنه يعبث بسلامته وبسعادتها وأنه نكث بوعده لها بألّا يتركها وحدها أبداً. شعر أنها جرحت مشاعره وقال لها إنها وضعته في وضع محرج، فبدلاً من أن ترافقه مع باولو، تركته يعود زاحفاً وحده مثل كلب أُشبع ضرباً، إلى البلد الذي أمضى فيه طفولته والذي غاب عنه سنوات طويلة. وقال إنها ستضطره إلى أن يوضح للجميع سبب عدم مرافقة زوجته وابنه له في زيارته الأولى بعد هذا الغياب الطويل، وسيظن الناس أن زوجته امرأة متعجرفة لا تريد أن تتعرف على عائلته. وذكّرها كيف أنه ساعد والديها وبذل قصاراه ليلبّي كلّ رغباتهما؟ وأنه فعل ذلك لسبب واحد وهو أنه يحبّها، هي حبيبته ستيلا... وكم مرّة استقبل أساتذتها وأصدقاءها وزملاءها، وعاملهم كأنهم ملوك، ليسعدها، وتستكثر عليه الآن أن تدعمه أو حتى أن تشجعه معنوياً.

ظلّ يتكلم بغضب طويلاً، فتركته ستيلا ودخلت إلى المطبخ. ثم هدأ فجأة. عندما عادت كان في غرفة النوم، جالساً على حافة السرير، يبكي بحرقة. جلست ستيلا وراحت تبكي معه. لم يكونا في تلك اللحظة زوجين، أو حتى عاشقين، وإنما طفلان، يبكيان على قدرهما البائس - سلمان لأنه يشعر بأنه منبوذ، وستيلا لأنها تخشى أن يصيبه مكروه وتُهجر وتبقى وحيدة.

أخيراً، نهضت واقفة، وقبّلته من عينيه، وقالت متوسلة: «ابق هنا».

لكنّه كان مصمّماً على السفر.

بدافع الكبرياء، لم تستطع ستيلا أن تعترف لسلمان بأنها خائفة على حياته. كان ينتابها إحساس بأنه سيُقتل في هذه الرحلة، لكنها لم تكن تمتلك الشجاعة لأن تقول له ذلك.

غسل سلمان وجهه. ثمّ شغّل كمبيوتره النقال في غرفة مكتبه وراح يبحث عن أسماء أبواب دمشق السبعة.

الحنين إلى أماكن الطفولة

لم تشأ ستيلا أن تذهب لقضاء عطلة في ذلك الصيف، وإنما أرادت أن تبقى في روما مع سلمان لأنها كانت تخشى أن يُقدم على عمل طائش. وذهب باولو أيضاً مع زملائه في المدرسة إلى مخيم صيفي في جزيرة غرادو. لاحظت ستيلا كيف تغيّر فصول الصيف، سنة بعد سنة، طبيعة سكان في روما. ففي الصيف تزداد نسبة الفقراء فيها الذين يعجزون عن قضاء عطلة الصيف على أحد الشواطئ الإيطالية، ويزداد أيضاً سنة بعد سنة عدد السيّاح الذين يرتادونها عادة، خاصة نسبة الصينيين التي بدأت ترتفع سنة بعد سنة. بعد ظهر

كل يوم يخرج العاملون في المنازل - معظمهم من الفلبينيين - في نزهات قصيرة، بعد أن ذهب أسيادهم المقتدرون لقضاء عطلهم في الجبال أو على شاطئ البحر.

في أحد الأيام، اتصلت ستيلا بصديقها لوكا أزاري ودعته إلى مقهى غريكو ليتبادلا أطراف الحديث. كانت ستيلا تعرف لوكا وزوجته جينا منذ أيام المدرسة الابتدائية في تريست. كان بيت عائلة ستيلا في شارع كوميرسيال قريباً من بيت كلّ منهما. وقد أحبّ لوكا وجينا بعضهما عندما التقيا في الصف الرابع الابتدائي، ونظر الجميع إليهما في ذلك الوقت بمزيج من الإعجاب والسخرية، الأساتذة والتلاميذ على حد سواء. ثمّ بدأ الجميع ينظرون إليهما بقلق. حتى أن والدَي كلّ منهما حاولا إبعاد أحدهما عن الآخر، لكنهم لم يفلحوا. ولا يزال حبّهما الآن، بعد أربعين سنة، متقدّاً كما كان من قبل. كانت جينا رسّامة مشهورة، أما لوكا، بطبيعته الهادئة التي تنزع دوماً للتحليل والتمحيص في كل بادرة، فقد أصبح طبيباً نفسانياً.

ذات يوم، غادر لوكا وجينا روما وسافرا إلى نيويورك حيث وجد لوكا عملاً جيداً في قسم معالجة الأطفال المصابين بصدمة نفسية في مستشفى كبير. أعجبه العمل جيداً، وأقام هو وجينا في عشّ حبّ في شقة صغيرة. لكن رغبة عارمة للعودة إلى مسقط رأسيهما، تريست، كانت تعتمل في نفس لوكا.

قالت له ستيلا على الهاتف مازحة، «إني بحاجة إلى استشارتك وسأدفع لك لقاء ذلك وجبة طعام وشراب - كلّ ما تستطيع أن تأكله». فأجابها لوكا، «لو كنت في مكانك لما فعلت ذلك، لأنني لم أتناول لقمةً واحدة منذ أيام».

مثل سلمان، كانت ستيلا تحبّ مقهى غريكو. فجوليانو، كبير النُّدُل المسنّ النشيط، يعرفهما منذ فترة طويلة ويكنّ لهما احتراماً

شديداً، لأنهما يعاملانه بكرم ويحترمانه. حجز جوليانو لستيلا ولوكا طاولة صغيرة في زاوية هادئة، وقادهما إليها. طلب لوكا نبيذاً أحمر. وعندما بدأت ستيلا تحكي للوكا عن قلقها حول رغبة سلمان في السفر، بدأ ينصت إليها بهدوء.

قال لوكا بعد ذلك إن عليها أن تحاول أن تفهم سلمان، وأضاف، «إن الحنين إلى أماكن طفولتنا له جذور عميقة في أنفسنا كما لو كنّا سمكة سالمون أو طائر سنونو. وقد يتملك المرء شعور قوي بالرغبة في أن يعود إلى مكان طفولته البائس مع أنه يعيش حياة مرفهة»، وأضاف من دون أن ينتظر جواباً أو تعليقاً منها، «لا يمكنكِ أن تغيّري ذلك بالانتقاد أو بالوعظ. والشيء الوحيد الذي يمكن أن يساعده في هذه الحالة هو أن يزور تلك الأماكن. لأن كل ما صممه خياله عن حيّه وبلدته وهم كبير لا يصمد أمام واقع هذه الأماكن. . . فقط عندما يقوم المشتاق والملهوف حباً بأماكن طفولته بزيارتها سيعيش صدمة وهي العلاج الوحيد لحلّ هذه المشكلة. وإلا فإن سلمان سيظل في حزن دائم على فقدان جنة طفولته لأنه لم يختبر بنفسه أن هذه الجنة ما هي إلا سراب».

«لكن كيف يمكن لسلمان أن يتملّكه هذا الشعور فجأة بعد كلّ هذه السنين؟» تساءلت ستيلا، «فطوال الوقت الذي أمضاه في روما - وقبل ذلك في ألمانيا - لم يعبّر كثيراً عن اشتياقه لدمشق والتي قد ينتظره فيها هناك حكم الإعدام».

«ربما لم يقل لك ذلك لأنه لا يحبّ أن يثير مشاكل بينكما. فأنا أعرفه حقّ المعرفة. فهو يحبّك ويريد إرضائك وأن يعيش معك بسلام. وهذا ما جعله يحتفظ بهذا الجزء من نفسه لنفسه. وهذا أمر شرعي. فالأشخاص الذين أُرغموا على مغادرة بلدهم يتعلّمون كيف يحمون أنفسهم من الأسئلة الخطيرة التي تكون شديدة الحساسية.

إنهم يتفادونها ويعيشون مثل مروّضي الحيوانات الذين يدربون حيواناتهم المتوحشة بالبقاء بعيدة عنهم كي لا تلتهمهم. أما الأشخاص الذين لا يمكنهم عمل ذلك، فقد ينتحرون.

إن حبّ سلمان لدمشق يسبّب له الكثير من الحزن والكآبة. فمنذ سنة، في بداية عام ٢٠٠٩، حكى لي أن حلماً مخيفاً يتكرر له بين فترة وأخرى، يرى فيه أن دمشق دُمّرت في حرب، مع أن دمشق من أكثر المدن سلاماً في الشرق الأوسط. يا عزيزتي، عندما يتقدّم بنا السنّ، فإن شوقنا لطفولتنا يزداد كثيراً. إن الحياة دائرة، وعندما نبلغ الشيخوخة، نعود إلى بداياتنا».

«لكن لماذا يغضبني حنينه لدمشق كثيراً؟»

«لأن ذلك يجعلك تشعرين بأنّ حبّك له غير كاف له؟ لكن يا عزيزتي لا علاقة للحنين إلى أماكن الطفولة بحبّ شخص آخر. فقد نكون مرتبطين بأماكن معينة لكننا لا نستطيع احتمال الأشخاص الذين يعيشون فيها. إن الشعور بالارتباط قد يسيطر علينا يا ستيلا. وقد يحدث ذلك لأي شخص».

«نعم، لكن صدّقني، فأنا لا أشعر بالحنين إلى تريست على الإطلاق».

«ربما ليس الآن، لأنك تكلّمين والديك بالهاتف كلّ أسبوع وتزورينهما كلّ شهر وتشعرين هناك بالملل كما حدّثتِنا. لكن إذا لم تذهبي إلى تريست لمدة طويلة، فقد تنظرين إلى الوراء وتشعرين بطريقة مختلفة. هذا ما حدث معي ومع جينا في نيويورك المدينة الرائعة. صرنا نشتاق لتريست رغم سعادتنا الفائقة في نيويورك».

جلست ستيلا صامتة، وترك لوكا لها الوقت، ثم قالت بهدوء، «في بعض الأحيان، تشقّ الكلمات طريقها من أعماقي رغماً عني. فما إن أفتح فمي، حتى تندفع مثل عاصفة وتكتسح كلّ شيء في

طريقها. وفي النهاية أخجل من نفسي لأنني أضفت إلى سلمان أعباء أخرى بدلاً من أن أشاركه همومه».

فأجابها لوكا بهدوء ورفق، «ستيلا، مدّي له يداً مُحبّة. دعيه يذهب ليبحث عن جنة طفولته، عندها سيُفاجأ ويتساءل إن كان قد ذهب إلى العنوان الخطأ».

عادت ستيلا إلى البيت تشعر بالارتياح، وعاملت سلمان بلطف شديد في تلك الليلة، وشعرت نحوه بتعاطف بدا أن لا حدود له، كما لو كان تعاطفاً تجاه شخص مريض - يحنّ إلى وطنه بشوق شديد.

لكن سيأتي اليوم الذي تتحقق فيه أن لوكا قد تنبّأ بالمستقبل في مساء ذلك اليوم.

باولو وطفولة والده

في شهر أيلول ذاك، تكرر الكابوس الذي كان يراود سلمان ثلاث مرات أخرى. وفي كلّ مرّة، لم يكن قادراً على تذكّر جميع أسماء أبواب مدينة دمشق، مع أنه ظلّ يحاول حفظها عن ظهر قلب. لماذا رفضت ذاكرته هذه الأسماء؟ كانت بداية حلمه تتغيّر باستمرار، أما نهايته - السجن في دمشق الموصدة الأبواب - فقد ظلّت كما هي. وعندما رأى الحلم نفسه في المرّة الثالثة، رأى سلمان نفسه متجهاً نحو البوّابة التالية، باب توما، وهو يعرف أنه سيصادف جداراً ثم يسمع صوت أمّه ويستيقظ.

تكرار الحلم الواحد عاشه عندما كان في الثانية عشرة من عمره. الحلم الرهيب نفسه، مراراً وتكراراً، لسنوات عديدة. كان يرى نفسه في الحلم مشلولاً نتيجة حادث، وراهبة صبيّة تدفع الكرسي المتحرك

الذي يجلس فيه في ممر شقّة لا يعرفها وأرض الممر من البلاط أو الرخام الأبيض. فجأة ضحكت الراهبة وقالت: «هنا المكان مناسب، لا يستطيع أحد أن يرانا»، وانحنت فوقه وقبّلته قبلة طويلة على شفتيه ومصت لسانه، ثمّ استوت واقفة وأخذت تدفع الكرسي في الممرّ الطويل، بسرعة أكبر، فبدأ قلب سلمان يضرب بقوة في صدره. تزايدت سرعة الكرسي في الممرّ بسرعة كبيرة حتى بدت له الصور المعلّقة على الجدران غشاوة ملوّنة. وفجأة توقف صوت وقع قدمَي الراهبة، وظهرت فتحة مؤدية لدرج في نهاية الممر. عندما التفت، لم ير الراهبة، وبدأ يهوي في الظلام. ثم استيقظ مرعوباً.

في الشهور التي أعقبت ذلك، أصبح يعرف سلفاً ما الذي سيجري في الحلم بعد أن تقبّله الراهبة، لكنّه كان يجد نفسه عاجزاً عن عمل أي شيء لمنع حدوث ذلك.

تساءل سلمان إن كان وجود باولو في حلمه يُعزى إلى أنه يحاول أن يُبقي ذلك طي الكتمان. ومراعاة لمشاعر ستيلا وباولو الذي أصبح لديه الآن أصدقاء وحياته الخاصة، لم يعد يريد أن يحدّثهما عن رغبته في أن يأخذ ابنه معه ذات يوم ويتجولا في شوارع دمشق ويريه المدرسة التي درس فيها، وبيت والديه الجميل، وحمّام السوق، وسوق البزورية الشهير بتوابله وبهاراته وجميع الأماكن التي أحبّها باولو كمكان خيالي في قصص أبيه.

لكن باولو لم يُبدِ إطلاقاً أي اهتمام برؤية الأماكن التي عاش فيها والده في طفولته. وعندما كان يسأله، يهزّ باولو كتفيه بلا مبالاة، أو يقول بتحدٍّ، «أظن أن روما أفضل، وأفضّل أن أذهب إلى شاطئ البحر في الصيف وليس إلى دمشق».

مع أن أمّ سلمان، صوفيا، كانت في غاية الشوق لرؤية حفيدها في دمشق، فلم يرغب سلمان ولم تفكّر ستيلا للحظة واحدة بأن

يرسلاه إلى هناك، وباولو رفض السفر إلى دمشق وحده أيضاً. وكان سلمان يعرف أنه على الرغم من أنه يستطيع أن يسافر بأمان إلى أي مكان في العالم بجواز سفره الألماني، فقد يُلقى القبض عليه ما إن تطأ قدمه أرض دمشق لأنه في الأصل مواطن سوري، وأما رفض ستيلا فقد تحلّى بموقفها الشهم وقالت إنها لا تريد أن تسافر إلى بلد يضطهد ويلاحق زوجها.

لكن كان ثمة سبب رئيسي دفع سلمان دوماً إلى الرغبة في أن يعود إلى دمشق، حتى ولو لمرّة واحدة، لكنه احتفظ به لنفسه ولم يخبر به أحداً، وهو إحساسه بالمهانة لأنه طُرد من مدينته التي يعشقها دمشق. وعلى الرغم من النجاح الذي حققه في المدن والبلاد الأخرى، فقد ظلّ ذلك الجرح ناكئاً. وكلما صادف زواراً أو أصدقاء جاؤوا من دمشق أو سيسافرون إليها، كان ذلك الجرح ينكأ وينزف من جديد.

حلم سلمان في كثير من الأيام أن يقف في وجه الذين طردوه ويقول لهم: «لا تستطيعون أن تأخذوا دمشق منّي». إنّ الطرد من البلد يُنتج أرواحاً جريحة، وينكأ التفكير في الوطن تلك الجراح من جديد ويحرقها كالملح. وخلال السنوات التي أمضاها في المنفى، لم يتخلّ قط عن الأمل بأن يتغلّب على شعوره بأنه اجتُثّ من بلده بقوة.

أيقن سلمان تماماً أنه لن يبادل روما بأيّ مدينة أخرى، روما التي عاش فيها أكثر مما عاش في دمشق. روما التي منحته كلّ شيء. فلا باريس ولا لندن ولا المدينة الجميلة هايدلبرغ تضاهي روما بجمالها ولا بكرمها تجاهه، ولذلك دعاها «أخت دمشق»، لكن بالرغم من كلّ التحذيرات، قرّر الآن أن يعود إلى دمشق، تدفعه الرغبة في أن يقف مرة أخرى في المدينة التي ولد فيها، مرفوع

الرأس. وقد استخرج توكيلاً رسمياً لستيلا لتتمكن من سحب نقود كما تشاء أو لتدفع الفدية، إذا اقتضى الأمر. ففي سوريا، لكلّ سجين ثمن.

في اجتماعه الأخير مع السفير السوري للتحضير للرحلة، فوجئ سلمان من نفسه عندما قال للسفير إن ستيلا تخاف على سلامته، فضحك السفير، وقال: «النساء عاطفيات. زوجتي تخاف عليّ دائماً. وأنت رجل عقلاني. وهذا ما يعجبني فيك».

سيلعن سلمان فيما بعد وفي دمشق بالذات عقلانيته، وحتى رغبته في أن يشفي جروح منفاه لأيام قادمة لا نهاية لها.

أميرة
أو كرسي هزاز في القلب

فقط من تشتعل النار في قلبه
يمكنه أن يضرم النار في قلوب الآخرين.
القديس الأمازيغي أوغسطين

دمشق، ١٩٥١-١٩٥٢

تجوّل كريم في شوارع المدينة وأزقتها، شارعاً شارعاً من دون خطة محددة. عندما توقّف ليرتاح قليلاً، وجد نفسه في الحيّ المسيحي، في باب توما، بعيداً عن مخبئه في بيت منيرة. ولم يجد أيّ ملصق عليه صورته.

دلف إلى مقهى صغير بالقرب من البوابة التاريخية. جلس وطلب فنجان قهوة، وراح يراقب المارّة. كان الناس يتسكعون في الشارع، ويتبضعون. رأى بعض الرجال المسنّين الجالسين إلى الطاولات المجاورة يتبادلون الأحاديث والنكات عن الحكومات المختلفة التي تعاقبت على دمشق في السنوات الأخيرة. حسدهم كريم الذي بدأ يشعر بالحنين إلى السلام الداخلي، وأحسّ بأنه منبوذ، مطارد ووحيد. دفع ثمن القهوة، ونهض ليستكشف الحي المسيحي التاريخي الذي طالما سمع عنه. سار في الاتجاه الذي قادته قدماه

إليه. عندما انتصف النهار، أحسّ بالجوع. رأى رتلاً من الأشخاص يصطفون أمام كشك لبيع الفلافل. وبخلاف الرتل المصطف أمام هذا الكشك، لم يكن المارة يعيرون أي انتباه لكشكين آخرين قريبين يبيعان الفلافل والحمّص وأطعمة جاهزة أخرى، ولم يقف عندهما سوى حفنة قليلة من الزبائن.

اصطفّ عشرة رجال وامرأتان أمام الكشك، المرأة الأكبر سنّاً تغطي رأسها بمنديل، وترتدي المرأة الأصغر سنّاً ثياباً على الطراز الأوروبي. كان الجميع ينتظرون بصبر، وهي سمة لا يتصفّ بها الدمشقي العادي. نظر كريم إلى صاحب المحل. كان ضئيل الجسم، قبيحاً، سيّئ المزاج.

«وهو دنيء أيضاً»، قال الرجل الواقف في آخر الرتل، «لكن الفلافل عنده أفضل فلافل في العالم. فما إن أقضم أول لقمة حتى أنسى منذ متى أنتظر هنا، وعندما أقضم اللقمة الثانية، أنسى مزاجه السيّئ، وفي اللقمة الثالثة، أنسى حماتي». كان للرجل شعر أحمر ووجه مضيء، وسيم، جعله يبدو مثل تلميذ مدرسة مشاغب عندما ضحك. التفتت الصبيّة وضحكت موافقة على كلامه. ولدهشة كريم كانت الفتاة الشابة تقف بثقة بين الرجال. عندما أخذ كريم أخيراً سندويشته، تلفّت حوله. كان هناك بضعة أشخاص يقفون أمام الكشك في مجموعات صغيرة في الساحة، يستمتعون بتناول سندويشاتهم في هذا الطقس الجميل. ورأى الصبيّة تقف وحدها. ابتسمت له. سار كريم إليها وحيّاها. تحدّثا عن الطعام وأن أكشاك الوجبات السريعة فكرة جيدة، وتحدّثا عن المدينة. ثم عرّف أحدهما الآخر، وقالت إن اسمها أميرة.

«من طريقة كلامك، من المؤكد أنك لست فلاحاً»، قالت له

فجأة ونظرت إليه مبتسمة، وذابت ابتسامتها في السماء المشرقة فوقها فخطف الجمال قلبه.

«لا، لست فلاحاً»، قال، وأحسّ أنها كشفته، «يصعب إخفاء الطريقة التي أتكلّم بها».

«ولماذا تخفيها؟ لكن لا، اعذرني، ليس من حقي أن أسأل سؤالاً كهذا».

«لا أبداً، السؤال محق، لكن الجواب قصّة طويلة»، قصة لم يشأ كريم أن يحكيها الآن، وأضاف، «ربما أحكيها لك ذات يوم»، ثم سألها، «هل تعيشين في هذه المنطقة؟» أحسّ أنّ هذه الصبيّة، بعينيها البراقتين، قد واربت شقّاً صغيراً في باب قلبه. فهو في وسط الحيّ المسيحي، ولم يشأ أن يقع مرة في حبّ فتاة مسيحية أخرى.

«لا، لا، أنا في زيارة لمساعدة جدتي. إنها تصرّ على أن تقيم حفلة ختان لأخي الصغير حميد هذا المساء. لقد أعددتُ وزيّنت المائدة ووضعت حولها حوالي ألف باقة»، قالت وضحكت. من ضحكتها عرف كريم أنها لا تريد أن تقول شيئاً أكثر حدّة.

أرخى كريم الكوفية المزركشة بالأحمر والأبيض التي يلفّها حول رأسه ووضعها على كتفيه مثل وشاح.

فقالت أميرة، «أصبحت تبدو الآن أفضل بكثير، صرت تبدو مثل أبناء المدينة. . . تقريباً»، قالتها وضحكت. هنا جاء دور كريم ليضحك. نظرت أميرة إلى ساعة يدها، وقالت، «يجب أن أذهب إلى المستشفى الآن».

«أرجو ألّا تكوني مريضة؟» قال لها كريم.

«لا، لست مريضة. أُجري تدريباً في قسم الداخلية في هذا المستشفى، كلّ يوم ما عدا يومَي الجمعة والأحد. تبدأ فترة التدريب

في الساعة الثانية. وكما تعرف فإن المستشفى الفرنسي يتمتع بسمعة طيبة».

«هل أنتِ طبيبة؟»

«لم أصبح طبيبة بعد. لا أزال طالبة في كلية الطبّ، ولا تزال أمامي سنة لأتخرّج، بعدها سأعمل في قسم الأطفال لمدة ثلاث سنوات، ثم، ربما أذهب إلى باريس لأجري فترة تدريب أو اختصاص فيها».

فقال كريم، «جميل، وهل يمكنني أن أرافق طالبة طبّ موهوبة إلى المستشفى؟»

«نعم، إذا حكيت لي ما الذي تعمله، سوى أنك تتخفّى بطريقة سيئة كفلاح».

فأجابها كريم «معلّم في مدرسة ابتدائية».

رافق كريم أميرة إلى المستشفى، وعندما وصلا إلى مدخل المستشفى، مدّت له يدها وقالت: «سيكون اليوم متعباً. عندما أُنهي عملي هنا، سأستقلّ عربة إلى البيت مباشرة، وأغيّر ثيابي، وأعود إلى بيت جدتي في حارة الياسمين ونحتفل حتى منتصف الليل».

«وماذا ستفعلين غداً؟» سألها كريم الذي لم يترك يدها كأنها طوق نجاة يهدف إلى إنقاذه من بحر وحدته.

«لا توجد عندي محاضرات غداً بعد الساعة العاشرة. لكن يجب أن أعود إلى المستشفى الساعة الثانية بعد الظهر».

«هل يمكنني أن آتي وآخذك من الكلية؟» سألها، وهو لا يعرف مكان الجامعة.

«لا، من الأفضل ألّا تأتي. إنها قصّة طويلة. دعنا نلتقي الساعة الحادية عشرة عند كشك الفلافل ثم نبحث عن مقهى نذهب إليه. يمكنك أن تحكي لي قصّتك الطويلة، وسأحكي لك قصتي. ثم

سنرى قصّة مَنْ مملّة أكثر». ضغط كريم على يدها للمرّة الأخيرة. سارت نحو المدخل، وقبل أن تفتح الباب الزجاجي الداخلي، التفتت ولوّحت له بيدها، ثمّ اختفت داخل المبنى.

وقف كريم قليلاً، متسمّراً في مكانه. ومع أنه كان غريباً تماماً عن المدينة، فقد شعر الآن أنه أصبح واحداً من أبنائها، واعترته سعادة بالغة لأنها سمحت له بأن يرافقها. استدار ومشى ساعات طويلة. عندما وصل إلى بيت العمّة منيرة كان المساء قد ضم دمشق إلى صدره، وكانت صوفيا قد عادت إلى بيتها بعد أن جاءت في زيارة قصيرة لأن زوجها دعا المطران مساء ذلك اليوم، وكان عليها أن تجهّز الوليمة وستساعدها ثلاث نساء أخريات.

حرّك هذا اللقاء كريم وخلط كل أوراقه وخططه فلم يكد يستطيع أن يأكل شيئاً. نظرت إليه منيرة وابتسمت. في صباح اليوم التالي استيقظ في السادسة صباحاً. شرب قهوته وانتظر بفارغ الصبر حتى استيقظت مضيفته. كانت في ذلك النهار بطيئة كما هي في كلّ شيء تفعله.

سألته مبتسمة بخبث لطيف، «يبدو أنك مستعجل قليلاً اليوم؟»

«نعم... أقصد لا. سألتقي بشخص في المدينة القديمة».

«حسناً، خذ وقتك واشرب قهوتك معي، وسأعطيك أجرة عربة يجرها حصان. وستصل بعد ربع ساعة». ابتسم كريم محرجاً. كان لدى كريم مبلغ كاف كانت قد أعطته له صوفيا. لكنّه أراد أن يتجول في شوارع المدينة وأزقتها ليتعرّف عليها ويتنشق هواءها.

عندما وصلت أميرة إلى موقف الباص في الساعة الحادية عشرة إلّا خمس دقائق قبالة كشك الفلافل، لوّحت له بيدها. كان ينتظرها هناك منذ خمس عشرة دقيقة. وفي هذا الوقت استمع إلى قصّة صاحب الكشك، أبو ياسين، وعرف سبب سوء مزاجه الدائم. لكن

هذه المرة، ابتسم لكريم وأميرة ابتسامة متكلّفة. أكلا سندويش الفلافل بمتعة، ثمّ ذهبا إلى حديقة عامة قريبة، وأمضيا اليوم معاً حتى المساء. وقررت أميرة ألّا تذهب إلى المستشفى الساعة الثانية بعد الظهر.

عندما ودّعها، قبّلها، ورافقها حتى موقف الباص. ومع أن والديها يقيمان في حيّ بمنطقة الصالحية لا يبعد إلّا ثلاثة شوارع عن بيت منيرة، أرادت أن تعود إلى البيت وحدها.

أطبق الليل على المدينة، مبعثراً الظلام في كلّ زاوية وناصية، لكن ضوء الأمل بدأ ينتشر مبدداً الظلام عن قلب كريم.

تنتمي أميرة إلى عائلة غنية مسلمة. أبوها صناعي مرموق، أرسل أبناءه الثلاثة وابنتيه إلى الجامعة. هالة، أخت أميرة، درست الصيدلة. ولم تُقم أميرة التي يقارب عمرها عمر كريم علاقة مع أيّ رجل على الرغم من تربيتها المتحررة. ورفض أبوها أن تضع بناته وزوجته حجاباً، وكن يرتدين ثياباً عصرية.

ومع أن أميرة جميلة ورشيقة، كان سلوكها يشي بأسلوب ذكوري. وعندما تعرّف على أختها هالة، أدرك كريم أنّ والدهما ربّى ابنتيه بطريقة تمكّنهما من العيش في مجتمع ذكوري محافظ. ومع أن هالة كانت فتاة جذّابة وذكية وغنية، فإنها لم تتزوج طوال حياتها، وأدارت بنجاح أكبر صيدلية في المدينة وحدها.

إلى جانب جمالها، كانت أميرة تتمتع بشجاعة كبيرة لمواجهة الذكور. وقد أراد أحد أساتذتها في الجامعة، جرّاح مشهور، أن يتزوجها. فكلّم والدها الذي قال له إن أميرة فتاة بالغة وذكية وتستطيع أن تقرّر ذلك بنفسها. لكن أميرة وجدت أستاذها مملاً، تنبعث منه رائحة غريبة. عندما اعتذرت منه بتهذيب، استشاط غضباً، وأصبح يغار عليها كثيراً. كانت أميرة تمازح زملاءها، لكنها منذ ذلك

الوقت، بدأت تتجنب إثارة غيرته، لذلك، لم تشأ أن يأتي كريم ويأخذها من الجامعة. لم يبق لها سوى الامتحان الأخير. «وبعدها ليغضب كما يشاء»، قالت لكريم بثقة. كانت دمشق آنذاك مليئة بالتفاؤل والأمل، لذلك تشجع كثير من الأشخاص المفعمين بالحياة مثلها للعمل لبناء مجتمع متحرر وعادل. كانت أميرة تمازح كريم أحياناً وتقول له إنّ حبّه استطاع أن يذيب طبقة الجليد التي حمت نفسها بها لسنين - فلم تعد تجرؤ الآن على إظهار أنوثتها فقط، وإنما أصبحت تستمتع بها أيضاً. في أحد الأيام قالت له، «من خلال عينيك بدأت أرى الجمال الذي يقبع في داخلي». ثم حكى لها كريم كلّ شيء عنه وعن صوفيا أيضاً، مع أنه خشي أن تغار منها أميرة. لكنها لم تفعل ذلك وطلبت أن يعدها بألّا يخونها أبداً، ووافق كريم على ذلك، لأن الإخلاص أمر بديهي لكل من يحبّ.

شعرت صوفيا بسعادة وكانت منيرة أكثر سعادة، عندما حكى لهما بعد بضعة أيام أنّه يلتقي بأميرة التي أحبّها. بعد فترة قصيرة، وصل شقيق كريم، إسماعيل، إلى دمشق وبحث عن صوفيا. كانت قد أعطته عنوانها، ثم رافقته إلى بيت منيرة.

قال إسماعيل إنه رفض في البداية أن يمثل أمام المحكمة كشاهد لأنه لم يرغب في الهرب إلى العراق. وفي تلك الأثناء، دبّر له أحد أصدقائه فيزا إلى أمريكا وقال إنه سيسافر بالبحر. وقد أصبح مستعداً الآن ليدلي بشهادته ويثبت براءة كريم، لكنه يحتاج إلى حماية الشرطة. وما إن يصدر الحكم على القاتل الحقيقي، فإنه سيهاجر.

خجل كريم من أخيه إسماعيل لأنه ظنّ أنه جبان عندما رفض أن يدلي بشهادته، وطلب منه أن يسامحه، وبكيا معاً عندما عرف أن شقيقه تألم كثيراً لمقتل شقيقتهما.

رافقت صوفيا إسماعيل إلى مركز الشرطة. كان الدليل دامغاً.

فقد ذكر إسماعيل اسم القاتل، أحد أبناء عمومته، وأظهر عيّنات من كتابات بخطّ يد القاتل تتطابق مع الخط المكتوب في الرسالة التي يُفترض أن كريم تركها في موقع الجريمة.

عندما صعد القاتل إلى سيارة الشرطة في حمص، صاح أمام الجيران أنه سعيد بدخول السجن لأنه غسل عار العائلة. وفي أثناء التحقيق في دمشق، تفاخر بأنه فعل ذلك ووصف الجريمة ببرود وبتفصيل دقيق فاقتنعت الشرطة والقاضي بأنه هو الذي ارتكب الجريمة.

أصبح كريم بريئاً الآن وأُسقطت عنه التهمة. وخلال الشهور الطويلة التي أمضاها في مخبئه، قطع كريم كلّ صلاته بأبناء عشيرته الذين اعتبروه ميتاً. وخلال هذه الفترة، درس كريم نظام العشيرة ووجد أن كلّ شيء فيه يقوم على أساس طاعة أبناء العشيرة لرئيسهم طاعة عمياء - في هذه الحالة والده - حتى لو قادهم إلى الخراب بمجموعة من الأكاذيب. فمع أنهم يعرفون جميعاً أن كريم بريء، تركوا الشرطة تطارد شقيقهم وابنهم البريء، لا لأنهم يكرهونه، وإنما لأنه رفض أن يقتل شقيقته، الأمر الذي جعل أقاربه يكرهونه، لا من أجل شرفهم الخرائي الذي يدوس عليه الحكام علناً منذ قرون، وإنما لأنه يعرّض نظام العشيرة للخطر.

«لا، لا أريد أن أراهم. هؤلاء الأقارب لا يستحقّون الوقت الذي أمضيه معهم»، قال لأميرة عندما حاولت أن تقول شيئاً طيباً عن أمّ كريم، «الشخص الوحيد الذي وقف إلى جانبي هو إسماعيل الذي سيضطر الآن لأن يغادر بيته ويعيش في الغربة، وإلّا فإنه سيدفع حياته ثمناً لصدقه وإخلاصه». وبالفعل هاجر إسماعيل، شقيق كريم، إلى أمريكا وفتح مخبزاً هناك، وحقق نجاحاً كبيراً في عمله.

لا تزال المحاكم تصدر أحكاماً مخففة جداً في جرائم القتل

المتعلقة بالشرف، فحُكم على القاتل بالسجن لمدة ثلاث سنوات. لكن قائد الشرطة، جورج طرزي، شقيق القتيل، ازدرى المحكمة والحكم الذي أصدرته، فأعطى مدير السجن الذي يتبع له مباشرة تعليمات صارمة بأن يضع مجرمين اثنين من عتاة المجرمين في زنزانة القاتل ليضرباه ضرباً مبرحاً وإهانته كلّ يوم.

قياساً إلى ما عاناه، كان الموت بمثابة هدية رحيمة بالنسبة له. لكن مدير السجن أكّد للمجرمين أنه يجب إطالة عمر القاتل وفترة عذابه في السجن. فنفّذ المجرمان ما طُلب منهما حتى أنهما منعاه من الانتحار. «يجب أن يعاني حتى آخر يوم في حكمه»، بهذه الجملة اختتم قائد الشرطة أمره لمدير السجن. كانت تلك وسيلته في الانتقام شخصياً. وقبل يوم واحد من إطلاق سراحه، أطلق أحد الحراس النار على السجين وأرداه قتيلاً، وجاء في التقرير أن المجرم حاول أن يسلب الحارس سلاحه.

بعد فترة قصيرة، عقد كريم خطوبته على أميرة. وقبل والدا أميرة عدم دعوة أفراد عائلة كريم إلى حفل الخطوبة أو الزفاف. وفي الكلمة التي ألقاها والد أميرة أمام المدعوين، قال: «يحتاج بلدنا إلى رجال شجعان مثل كريم الذي رفض الثأر البدائي، فالثأر البدوي أصبح ضرباً من الماضي. عاش المواطن الحرّ. ويشرفني أن يكون كريم واحداً من أبناء عائلتنا، لا صهراً فقط».

تخرّجت أميرة في الجامعة وبدأت تعمل في قسم الأطفال في المستشفى الفرنسي القريب من باب توما. ووجد كريم وظيفة كمعلّم في مدرسة ابتدائية مسيحية، وتابع دراسة الأدب العربي والتاريخ. عندما تخرج في الجامعة بعد أربع سنوات، أصبح مدرّساً في إحدى المدارس الثانوية.

عاشت أميرة وكريم في شقّة صغيرة بالقرب من المستشفى حياة مليئة بالانسجام والتفاهم. وكانا يستمتعان بعملهما وبحبّ أحدهما للآخر.

كانت أميرة تزور جدّتها كلّ أسبوع، تطبخ لها وتتناول الطعام معها. في تلك الأيام، دأب كريم على زيارة منيرة. في بعض الأحيان، صادف صوفيا هناك. أبدت صوفيا سعادة من أجله وتمنّت له التوفيق في حياته، لكنّها أصرّت على ألّا تلتقي بزوجته. وفي إحدى المرات، عندما ذهبت أميرة وكريم لزيارة منيرة، رفضت صوفيا أن تأتي، فانزعجوا جميعاً.

في أحد الأيام، وبينما كان كريم منهمكاً في إعداد وجبة سمك لمنيرة وهو يستمع إلى مطربه المفضّل محمد عبد الوهاب الذي لعلع صوته عالياً من المذياع وراح كريم يغني بصوت أعلى من المذياع، فوجئ عندما رأى منيرة وصوفيا تقفان وراءه وتضحكان. جلسوا ثلاثتهم إلى المائدة وتناولوا السمكة الكبيرة الشهية. عندما دخلت منيرة إلى غرفة النوم لتجلب أقراص دواء، همست له صوفيا بأن زوجها سيسافر لمدة ثلاثة أيام، وأنّها في شوق إليه ويمكنهما أن يمضيا ساعة ممتعة في بيتها. عندما سمع ذلك تسمّر كريم في مكانه، وقال هامساً «لا أستطيع» في اللحظة التي عادت فيها منيرة إلى الغرفة. لم تجبه صوفيا، وعندما نهض ليودّع منيرة، لحقت به صوفيا إلى خارج البيت.

«لِمَ لا؟» سألته، ممسكة بذراعه. رأى الإحباط في عينيها. لم يشأ أن يراهما أحد المارة وهما يتجادلان في الشارع المزدحم، فدخلا إلى زقاق فرعي هادئ.

«لأنني أحبّ أميرة»، قال لها بهدوء.

«وماذا عني؟ ألم تعد تحبّني؟»

«طبعاً أحبّك. لكنّه حبّ مختلف. أنتِ أعزّ صديقة لي. لن أنسى الوقت الجميل الذي أمضيناه معاً، وسأكون ممتناً لك دائماً. فقد أنقذتِ حياتي، لكنني أريد أن أظلّ وفيّاً لأميرة».

«ما الضرر الذي سيصيبها إذا مارست الحبّ معي؟ فلن تعرف شيئاً عن كلّ ذلك. إنني بحاجة إليك. أكاد أموت من الشهوة ولم أعد أستطيع أن أحتمل زوجي البارد. أتكلّمني عن الإخلاص؟ هل أصبحت قدّيساً فجأة؟»

«لا، أنا لست قديساً ولا حتى مؤمناً. يمكننا أن نتكلّم لأطول مدة كما تشائين، حتى عن حياتك مع زوجك، لكن لن ألمسك. فهذا لن يؤذي مشاعر أميرة فقط، وإنما سيؤذي احترامي لذاتي. لقد وعدتها...»

«ألن تلمسني؟ هل أصبحت مصابة بالجذام الآن؟» ردّت صوفيا بغضب.

«أرجوك هدّئي من روعك. فأنت جميلة كما كنت دائماً، لكنني لا أستطيع، وهذا ليس بسبب أميرة فقط...»

«أميرة، أميرة»، قاطعته، «وأنا؟ ماذا عني؟ ألم تعد مشاعري تساوي شيئاً عندك؟» صاحت وبدأت تبكي. شعر كريم بالخجل عندما رأى هذه المرأة الفخورة بنفسها تبكي. ثم قالت: «إذا كان عليّ أن أقبّل يدك، فإني سأفعل»، وقبل أن يفعل أيّ شيء، أمسكت يده وقبّلتها وبللتها بدموعها.

انكمش كريم وسحب يده من قبضتها بفظاظة أكثر مما كان ينوي، فتعثّرت صوفيا وكادت تقع، لكنها استعادت توازنها وصفعته على وجهه بقوة.

«هذه لأنك جبان... جاحد...» صاحت وجرت بعيداً.

وقف مرتبكاً، لا يعرف ماذا يفعل. لم يفهم ما الذي جرى، لكنّه شعر بأنه فقد صوفيا إلى الأبد.

بعد خمسة شهور من عقد قرانهما ماتت جدّة أميرة التي أوصت لأميرة وكريم ببيتها في زقاق الياسمين. حزنت أميرة على جدّتها كثيراً لمدة طويلة، ثم انتقلا إلى البيت الكبير الجميل بباحته الداخلية وأشجار الليمون وأزهار الياسمين والورد الجوري. شعر كريم بسعادة فائقة، وتُوّجت سعادته بولادة ابنتهما، مها، التي جاءت إلى هذا العالم بعد سنة واحدة من أول لقاء له بأميرة أمام كشك الفلافل.

الضمان
أو مخاوف عدّاء في سباق الحواجز

روما ودمشق، كانون الأول، ٢٠١٠

إلياس الحرباء

لم يتوقّع سلمان أن تستغرق التحضيرات كلّ هذا الوقت. فقد خطط أن يسافر إلى دمشق في الخريف، أجمل فترة في السنة في سوريا. لكن تحذيراً جاءه أخّر موعد سفره. فقد أكد له السفير السوري في روما الذي أقام معه علاقة جيدة سلامة سفره وطمأنه بأن سجله نظيف ولا توجد اتهامات ضدّه لدى أيّ جهة أمنية في دمشق. لكن اتصالاً هاتفياً غريباً جاء من أمّه طالبة منه أن يتريّث قليلاً حتى يتأكد أحد الأصدقاء من أن كلّ شيء على ما يرام لأنه لا تزال هناك مشكلة عالقة. وبما أنها تخشى أن يكون هاتفها مراقباً، قالت لسلمان إنها ستزور صديقتها أسمهان في بيروت. ففهم قصدها. وهكذا تجشمت أمّه عناء السفر إلى بيروت وقطعت مسافة مئة كيلومتر لتحكي له عن كلّ شيء من دون خوف.

حافظ سلمان على علاقته الودّية مع السفير، مع أنه شعر بأنه كان ساذجاً مثل طفل في الثانية عشرة من عمره عندما صدّق ما تبجّح به هذا الرجل الديبلوماسي البيروقراطي، وأراد سلمان أن يقول له

ذلك في وجهه. وبما أنه دبلوماسي، فقد ادّعى السفير متبجحاً أن له كلمة نافذة لدى السلطات وعلاقات متينة مع سدة الحكم وللأسف كان هذا أكثر بكثير مما لديه في الواقع. وعندما قال سلمان لأمّه إن السفير طمأنه، أجابته على الفور بأن هذا الرجل يطلق حكمه على أمور وقضايا لا يعرف عنها شيئاً.

«إذا أزعجك أحد في المطار، اتصل بي فوراً وسأعالج الأمر خلال دقائق معهم بنفسي»، قال له السفير المقدام. كان يتكلّم بجدية شديدة، وصدّقه سلمان الذي تخيّل أنه يقول للغوريلا الذي سيعتقله في المطار، «توقّف. انتظر لحظة أرجوك. سأتصل بالسفير السوري في روما الذي سيلعن أمك ويخبط رأسك الفارغ». يا إلهي كم كانوا سيسخرون مني، قال سلمان لنفسه.

بعد يومين، اتصلت به أمّه من بيروت، وقالت إن ابن عمه إلياس الذي أصبح ضابطاً برتبة عالية في جهاز المخابرات، زارهم وقال إنه اكتشف أن اسم سلمان لا يزال مدرجاً في قوائم المطلوبين في اثنين من فروع المخابرات التي يزيد عددها على خمسة عشر فرعاً، والتي تتنافس كلّها فيما بينها. وقال إنه سيعمل على شطب اسمه من قائمة المطلوبين قبل أن يأتي.

«سلمان، يا قلبي، لا أريد أن يقبضوا عليك»، قالت أمّه، «لأن هذا يعني موتي. لننتظر حتى يحلّ إلياس الأمر. وطلب منه أبوك شخصياً أن يفعل ذلك بسرعة لأنك مشتاق جداً للعودة وأكدت له أنك جاهز وتجلس على حقائبك المُوَضّبة».

في سنوات المراهقة، ربطت سلمان بابن عمه إلياس صداقة ومحبة عميقتين. كان سلمان يكبره بثلاث سنوات وأطول منه قليلاً. وكان إلياس ضئيل الجسم، له وجه فاتح البشرة لا يمتلك أي مسحة

من الجمال، لكنه يتصف منذ طفولته بجرأة غريبة، وكان شديد الثقة بنفسه، يستثير الأطفال الذين يكبرونه، الأقوى منه بنية، حتى الشبان المراهقين، ويتشاجر معهم. ولم تكن الفتيات يحببنه لأنه كان يسخر من عيوبهن الصغيرة ويحصيها لهن بصوت فاجر. ولزيادة الطين بِلّة، كان بخيلاً يرفض أن يشتري لهن شيئاً ليكسب ودّهن. وكان سلمان يؤدي دور الملاك الحارس لابن عمه، يدافع عنه كلّما تورّط في مشكلة. ثم انضما معاً إلى جماعة «الحرية الحمراء» الثورية، وأجريا معاً تدريبات على السلاح في جنوب لبنان، وحاربا معاً في شمال سوريا، غرب مدينة حلب.

كان يبدو أن إلياس قد وجد في هذه الجماعة الثورية ضالته أخيراً. وبالإضافة إلى ذكائه، كان صلباً إلى درجة الفظاظة فأصبح رفاقه يخشونه ويحترمونه، لكن أحداً منهم لم يحبّه. فقد قال هاني، صديق سلمان الحميم له، إن إلياس شخص مخادع، لا يقول أبداً ما يقصده وإنه لا يقصد كلّ ما يقوله. وقد تميز إلياس بعدوانية خاصة تجاه المناضلات أيضاً، لأنه لم يكن يحتمل رؤية امرأة تحمل السلاح، وكم سخر منهن بمناسبة ومن دون مناسبة، وجلب على نفسه مزيداً من الأعداء. وفي أحد الأيام، قالت له إحداهن، تدعى سامية، «إن إلياس الشخص الإسلاموي المسيحي الوحيد المتشدد في صفوفنا».

آمن إلياس بالثورة، وتميّز بشجاعته وإقدامه إلى درجة التهور ما جلب له شيئاً من التقدير. لكن التحفّظات حوله لم تتوقف، مع أن سلمان قدّر أن سوء ظنّ الآخرين بابن عمه وعدم ثقتهم به ناجمان عن سوء فهمهم وحسدهم له، ولم يكف عن الدفاع عنه.

«غالباً ما تتأثر الأحكام التي نطلقها على الآخرين بانطباعاتنا الأولى. فلو كان تشي غيفارا أصلعَ ذا أنف كبير مليء بالبثور،

وعينين جاحظتين وأذنين كبيرتين لما حظي بهذه الشهرة»، قال سلمان لرفاقه ذات ليلة عاصفة من شتاء ١٩٦٧. فغضب لأنهم كانوا يبالغون في ريبتهم بإلياس وادّعى أحدهم أن ابن عمه يُجري اتصالات سرية مع أشخاص تدور حولهم الشبهات - مخبرين - في المنطقة. في ذلك الحين، مرض إلياس وعولج في خيمة المستوصف. وارتفعت حرارته إلى حد خطير وظن سلمان أنّه أصيب بالملاريا. «يجب أن تعتنوا به وتتعاضدوا معه حتى يستعيد عافيته، وخلال ذلك سأتحرّى عن جميع صلاته».

بعد أسبوعين، غادر إلياس المستوصف. وعندما سمع الشكوك التي تدور حوله، لعن المقاتلين ولم يعد يكلّم أحداً منهم حتى سلمان. وعندما أصبحا على انفراد، سأله سلمان عن الرجال الثلاثة الذين يتواصل معهم في بلدة قريبة، والذين يعمل أحدهم قواداً، والشخصان الآخران بلطجيان ومخبران معروفان في البلدة. منذ تلك اللحظة، بدأ إلياس يتحاشى سلمان ولم يعد يكلّمه.

بعد أسبوعين، تماثل إلياس للشفاء، واستُدرجت مجموعته إلى كمين. قُتل في هذا الكمين ثلاثة من خيرة المقاتلين في مجموعته، واختفى إلياس. عندها تأكد القادة أنه هو الذي استدرج المجموعة إلى الكمين حيث كانت فرقة خاصّة من المخابرات بانتظارهم. وأكد اختفاؤه هذه الشكوك. لكن في الوقت نفسه، انتشرت شائعات وأساطير أخرى تقول إن إلياس لم يكن خائناً، وإنما قاتل ببسالة وأصيب بجروح بليغة واعتُقل، ومات تحت التعذيب، وفي إشاعة ثانية قيل إنه دُعي لزيارة هافانا فهرب إلى تركيا ومنها إلى كوبا. لم يعرف سلمان كيف يتصرّف إزاء ما كان يسمعه، لكنّه فقد الثقة بابن عمه.

عندما اتصلت العمّة إميليا قبل عدة سنوات بسلمان عندما كان

يدرس في هايدلبرغ، نقلت له الخبر الذي قرأته في صحيفة سورية يسارية تصدر في بيروت الذي يقول إن إلياس كان خائناً منذ البداية، وقد تسلل إلى صفوف المقاومة ليتجسّس على قيادتها، وإذا استطاع، أن يسلّم المقاتلين إلى الأجهزة الأمنية. وأكّدت إميليا صحة القصّة ولعنت إلياس النذل. ولم يساور سلمان الشك بعد ذلك.

بعد فراره من صفوف المقاومة بفترة قصيرة، التحق إلياس بكلية الشرطة، وأُرسل بعد ثلاث سنوات مع مجموعة صغيرة من ضبّاط الشرطة الشبان، إلى موسكو أولاً، ثم إلى براغ، لإجراء دورة تدريبية أساسية على أساليب عمل المخابرات. وعندما عاد إلى دمشق، عرف جميع أقاربه وأصدقائه بأنّه يعمل لصالح المخابرات، لكن لم يعرف أحد ما الذي كان يفعله بالتحديد.

أثناء كل زيارة لابنها في هايدلبرغ أو في روما، كانت صوفيا تنقل له دائماً أخبار أقاربهم، وكان سلمان يجد متعة كبيرة بالاستماع إلى أحاديث أمّه وهما يشربان القهوة في الصباح. وعرف منها أن ابن عمه يترقّى إلى رتب عالية في المخابرات، وكلّما سمع سلمان ذلك، ازداد احتقاره له. وكان سلمان يستمتع كثيراً بسماع القصص التي تحكيها أمّه عن زوجة إلياس، إيزابيلا، الأطول منه قامة قليلاً، التي تصغره بخمس عشرة سنة وذات أنوثة طاغية. وكانت أمّ سلمان تُسهب في وصف منحنيات جسد إيزابيلا وتحاول أن ترسمها بيديها. وأخبرته كذلك أن إيزابيلا تعشق الشبان الرياضيين والمسؤولين والضباط الكبار وتركّب لزوجها قروناً يصعب عليه أن يسير بها في ممر ضيق.

كان سلمان يضحك من جرأة أمّه في وصف هذه الأوصاف الخلاعية. لكنه قاطع إلياس منذ أربعين سنة.

في البداية، خيّل إلى سلمان أنّ إلياس سيدعمه وسيشطب سجلّه

لدى المخابرات بسبب ماضيهما المشترك. لكن أمّه أخبرته الحقيقة، «لا، ليس هذا هو السبب. لقد وعده أبوك بأن يعطيه عشرة آلاف دولار، وبمبلغ كهذا، فإن إلياس مستعد لأن يصبح مسلماً، فهو يرضى أن يعمل ديوثاً لزوجته بسبب شرهه للمال».

أفقد التأخير في السفر سلمان صوابه. فقد بدأ شهرا أيلول وتشرين الأول، أكثر شهرين في السنة يحبّهما، يقتربان، وبدأت تراوده كوابيس جديدة. دُهشت ستيلا عندما رأت أن جميع تحضيراته السريعة للسفر قد توقّفت الآن. وكلّما سألته، أجابها سلمان بنبرة رتيبة، متوترة، «عندما يصبح كلّ شيء أكيداً مئة في المئة ستأتيني إشارة، وفي اليوم التالي سأستقل الطائرة».

بدأ الشكّ يساور سلمان بأنّ إلياس يتعمّد التأخير، وربما أراد أن يثبت لعمّه، والد سلمان، ضخامة هذه المهمة وصعوبتها، وربما كان يطمع بالحصول على مبالغ أكبر. فقد سمع سلمان أنّ أحد أبناء عمّ رئيس الجمهورية ابتزّ مئتي ألف دولار من أسرة غنية بغية إطلاق سراح ابنها الوحيد، عازف موسيقي موهوب. وسمع أنه توجد قوائم أسعار لشراء حرية المطلوبين أو المسجونين. وبطبيعة الحال، لا يوجد للفقراء مكان في تلك القوائم، ويتعين عليهم أن يقبعوا في أقبية المخابرات وسجونها لسنوات طويلة.

ثمّ جاءت الفضيحة التي نشرتها الصحف الإيطالية في البداية، ثمّ تناقلتها وسائل الإعلام العالمية. فقد هرب السفير السوري في روما في مطلع تشرين الثاني، لأنه رفض أن يتحمّل المسؤولية في قضية غسيل الأموال التي كان ابن خال الرئيس الفاسد يديرها. فبعد أن ودّع أصدقاءه القلائل، بمن فيهم سلمان، توارى عن الأنظار خوفاً على حياته. دُهش سلمان وتساءل كيف استطاع دبلوماسي أوفدته الدولة بعد أن دققت جميع فروع المخابرات في سجلاته أكثر

من مئة مرة، وكان عليه أن ينحني لهم دائماً ويطيعهم طوال سنوات، أن يُبدي شجاعة أخيراً ويقاوم التورط في عملية غسيل أموال وفساد؟

يومها كتب سلمان في دفتره: يا إلهي! لو قرأت ذلك في رواية لما صدقتها. لكن الحياة تبالغ أكثر من أي رواية.

خلال شهر تشرين الثاني، اعترى سلمان شعور بالشلل، وأنه غير قادر على أن يفعل شيئاً. وبحسب الاتفاق مع أمّه كان يسألها كلّ شهر عن صحة أسمهان. اتفقا على ذلك. فإذا استمرت المشكلة، تؤكد له صوفيا أن أسمهان مريضة. ولن تتحسن صحتها إلّا عندما يسمعون تقريراً إيجابياً من إلياس، وعندما تُحلّ جميع المشاكل، سيفرح الجميع وسيحتفلون بشفاء أسمهان، وسيصبح بإمكان أمّه أن تكلّمه بصراحة من دون لفّ ودوران.

أخيراً، في ٢٥ تشرين الثاني، قالت له أمّه إنّ أسمهان تماثلت للشفاء بأعجوبة. وفي اليوم التالي، حجز سلمان مقعداً على الخطوط الجوية الإيطالية إلى دمشق في الأول من كانون الأول. عندما ذهب ليودّع والدَي زوجته في تريست، أعدّ نفسه عقلياً لمناقشة صعبة معهما. فقد توقّع أن ينتقده والد زوجته لأنه سيفعل ذلك، ويرى الدموع تنهمر بغزارة بشكل آلي على خدّي أمّها.

كان والدا ستيلا قد انتقلا إلى بيت فخم في سترادا ديل فريولي، كانت في حقيقة الأمر فيلا، لكن والد زوجته لم يشأ أن يطلق عليها فيلا، لأنه مصرفي متحفّظ من المدرسة القديمة.

ولمفاجأته العظيمة، وافق والدا ستيلا على القرار الذي اتخذه سلمان اللذان لم يتفهما سبب ذهابه إلى أماكن طفولته فحسب، وإنما حمّلاه أيضاً هدايا غالية جميلة إلى والديه. وقف سلمان معقود اللسان، لا يعرف ماذا يقول لهما.

عندما وقفا خارج المطار، عانقته ستيلا. «هناك مئات آلاف الرجال الإيطاليين. لا أعرف لماذا أُغرمت بشاب سوري؟» قالت له، وهي تضحك من خلال دموعها. فأمسك سلمان وجهها برقّة بين يديه وقبّل عينيها الباكيتين.

«لأنك تعرفين أنه لم ولن يُخلَق رجل إيطالي سيحبّك كما أحببتك ولن يكون طباخاً ماهراً مثلي».

«صحيح، ولهذا السبب فأنا أيضاً. . . » وابتلعت الكلمات، «خائفة عليك». هزّت رأسها، وقالت: «يا لغبائي. بدلاً من أن أودعك بضحكة، ها أنا أبكي».

طبع سلمان قبلة أخرى على شفتيها، وقال: «إنها مجرد زيارة، وسنسافر في الصيف القادم كلّنا إلى دمشق وألعب مع باولو الدحل في حارتي كما وعدته»، والتفت إلى ابنه، وقال: «وأنت، اعتن بأمك جيداً حتى أعود، اتفقنا؟» ومسّد خده برقّة.

فقال باولو ضاحكاً، «نعم يا معلّم، سأفعل ذلك. لقد وضعت المسدس للتو تحت السرير»، وضرب كفاً بكف مع أبيه. عانق سلمان ابنه وتنشّق رائحته بعمق، ثمّ انفصل عنه وسار مبتعداً. ثمّ التفت بسرعة ولوّح لهما.

حافظ شهر كانون الأول على سمعته السيئة، فبلغت درجة الحرارة درجتين فوق الصفر وهبّت رياح باردة شديدة. كانت السماء ملبّدة بغيوم كثيفة والهواء جافاً. سارت ستيلا ببطء. عائدة إلى الساحة حيث ركَّنَت سيارتها وكان رأسها لا يزال يدور في دوامة وبدا أنها نسيت المكان، فقادها ابنها باولو بحنان إلى السيارة. ضمّته إليها، وقالت: «كم أنا سعيدة بوجودك معي هنا».

عندما غادرت ستيلا مع ابنها المطار، بدأ المطر يهطل.

دخل سلمان إلى صالة المسافرين. كان الوقت لا يزال مبكراً. كان سلمان يكره لحظات الوداع، ولم يشأ في ذلك اليوم أن يزيد من صعوبة فراقه عن أسرته بإطالة أمدها.

مضت إجراءات التسجيل بسرعة. شعر سلمان بالراحة عندما رأى حقيبته الكبيرة تتحرك فوق الحزام الناقل. ناولته موظفة شركة الطيران الإيطالية (أليتاليا) بطاقة ركوب الطائرة وإيصال حقيبته وتمنّت له رحلة سعيدة.

تتشابه المطارات الدولية كثيراً، نفس مشهد القادمين والمغادرين، ونفس أشكال المودعين والمستقبلين. ويتصل معظم المسافرين بهواتفهم الذكية بأحدٍ ما، أو يزعجون آخرين بإرسال رسائل نصيّة، ومضيفات طلين وجوههن بطبقة سميكة من المساحيق يسحبن وراءهن حقائبهن ويتبخترن بخطوات عارضات أزياء، وكلما كانت المضيفة أقصر كبرت حقيبتها. وتبدو الساندويشات المعروضة في الأكشاك أنها مصنوعة من بلاستيك أو من مطاط اصطناعي. راقب اللوحة الإلكترونية التي تعلن عن هبوط او انطلاق طائرة ما. قال في نفسه لو لم يكتب على بطاقة ركوب الطائرة *Partenze* (المغادرة)، لظنّ أنه في مطار في فرانكفورت أو في لندن.

كانت لا تزال أمامه ساعة انتظار. شيئاً فشيئاً، بدأت صالة المغادرين تمتلئ. سمع رجلاً عجوزاً جالساً في مقعد قريب يقول لزوجته القلقة مازحاً: «إذا سقطت بنا الطائرة، فإن ذلك سيحدث بسرعة كبيرة، وسنموت قبل أن تعرفي ما الذي يجري». رجل نحيف نادى صديقه البدين الجالس بعيداً عنه ببضعة صفوف، «أظنّ أنه يجب أن يدفع المسافرون ثمن تذكراهم بحسب وزنهم، عندها سنرى كم ينخفض عدد المسافرين بالطائرة».

ضحك سلمان ومسّد بطنه. فكّر أن يتبع حمية غذائية، لكنه ابتسم من هذه الفكرة السخيفة في هذا الوقت خصوصاً أنه ذاهب إلى دمشق. فما إن تطأ قدمه أرض سوريا، حتى ينسى كلّ القرارات التي اتخذها لأن موسم الولائم سيبدأ.

سمع أخيراً صوتاً يدعو المسافرين إلى الصعود إلى الطائرة.

مخاوف الآباء

مضت الساعات الثلاث بسرعة. قرأ خلالها سلمان، وكان يدردش من حين لآخر مع المضيفة، ثم أغمض عينيه واسترخى. جلس أمامه بمقعدين، شاعر مصري، ممتلئ الجسم، قبيح الوجه، وقال للشخص الجالس بجانبه بصوت عال إنه ذاهب إلى دمشق ليقرأ قصّة في مهرجان أدبي. فسأله جاره المندهش - رجل سوري في أواخر السبعينات من عمره، نحيف مليء بالحيوية - بصوت عميق، دافئ، «ماذا؟ هل أنت حكواتي؟ عندما كنتُ طفلاً، كنت أعرف حكواتياً، وكنت أسمعه خفية كلما أتيحت لي الفرصة في المقهى القريب من بيتنا. كنت أتسلل بالبيجاما لأقف في زاوية مظلمة كي لا يراني أحد وأستمع لقصصه الشيقة. هل سيأتون كلّهم الآن من جميع أنحاء العالم ليلتقوا في سوريا؟»

«لا، لا»، أجابه المؤلف، بصوت كأنه أحسّ بشيء من الإهانة، «أنا لست حكواتياً. أنا كاتب، مؤلف، أتفهم؟ مؤلف».

فقال الرجل: «لكنك قلت الآن إنك ستحكي قصّة في المهرجان».

«نعم، لكنّه مهرجان أدبي. إنه ليس مهرجاناً للتسلية. لقد أنفقت

وزارة الثقافة السورية حوالي سبعة ملايين دولار لاستضافة الثلاثمئة شاعر عربي الذين دعتهم».

صفّر الرجل العجوز من بين أسنانه، وقال: «سبعة ملايين! لو سمع الحكواتي جارنا هذا لسقط ميتاً. سبعة ملايين دولار. هذا يساوي ثلاثمئة وخمسين مليون ليرة سورية. يا إلهي! كلّ هذا من أجل حكاية قصص فقط؟»

لم يردّ عليه الشاعر المصري. ابتسم سلمان، وتأكد أنه جالس فعلاً في طائرة في طريقها إلى دمشق. لكن لم يكن أمامه طريق للرجعة الآن، كما لو أنه أحرق جميع الجسور وراءه. اعتراه شعور غريب بالقلق، ولسبب ما، راح يفكّر في مظلة يقفز بها من الطائرة.

فجأة خطر له والده. لماذا كان متحفظاً دائماً - بعكس أخته إميليا - ويخشى المسلمين؟ ربما كان متأثراً بأبيه، جدّ سلمان، الذي أصيب بصدمة. لم يكن والده وحده الذي كان ينظر بريبة إلى المسلمين وإنما كان عمه أنطون، والد إلياس، أيضاً. وكانت العمّة إميليا تسخر من شقيقيها، وتقول لهما، «إنهم مثلنا تماماً أيها الجبناء، مخلوقون من جلد وعظم ولحم، وعندهم مخاوفهم وهمومهم».

حكى له والده يوماً عن سبب تسمية عائلتهم باسم *بلدي*. فقد كان اسم عائلته في الأصل «أبو كسم» وتعود أصولهم إلى مدينة حلب. وبسبب علاقة غرامية، انتقل أحد أبناء العائلة وهو صائغ ذهب إلى دمشق وأنشأ عائلة فيها ورُزِقَ هو وزوجته خمسة أطفال، ولدوا جميعاً بين الأعوام ١٨٤٥ و١٨٥٥.

قبل سنة من وقوع المذبحة الكبيرة عام ١٨٦٠، سافر جورج، أكبر أبنائه سنّاً، إلى بيت عمّته في حلب، وهي الزيارة التي أنقذت حياته. ففي مذبحة همجية مدبّرة دامت ستّة أيام، سمح والي دمشق

العثماني بقتل أكثر من عشرة آلاف مسيحي، واستحال الحيّ المسيحي المزدهر إلى أنقاض. ويقال إن فرنسا هي التي كانت وراء هذه المذبحة لأنها أرادت القضاء على صناعة الحرير الدمشقي الذي غزا بجودته أسواق العالم... وقد دُمِّرت بعد تلك المذبحة معظم مصانع الحرير في الأحياء القديمة، فاختفى دور سوريا عن السوق العالمي للحرير منذ ذلك اليوم. وهذا ما صنعته بريطانيا بمساعدة فرنسا بهمجية لا مثيل لها من خلال ما تسمى «حروب الأفيون» مع الصين التي كانت أكثر الدول تقدماً وأكثرها إنتاجاً للنسيج.

كان يوسف، شقيق جورج البالغ من العمر عشر سنوات، الشخص الوحيد الذي نجا من المذبحة في دمشق بعد أن خبأته أسرة مسلمة في بيتها، وقُتل في تلك المذبحة البربرية والداه وأخواته الثلاث. وكأن ذلك لم يكن كافياً، فقد قامت مجموعة من الرعاع الغاضبين بنهب بيتهم وإحراقه.

الغريب في الأمر، أنه لم تحدث في ذلك الوقت هجمات على المسيحيين في المدن الأخرى مثل حمص أو حلب. وقد أُعدم الوالي والقتلة الذين شاركوا في أعمال الشغب على الفور من دون محاكمة أو تحقيق لمعرفة الدافع إلى ارتكاب هذه الجريمة وللتغطية على الأشخاص الذين يختبئون وراء الستار.

لم يعد جورج إلى دمشق. فقد تبنّته عمّته، ثم تزوّج في حلب، وكان ابن حفيده القسّ المعروف ميشيل أبو كسم. وبعد حمّام الدم ذاك، أصيب والد جدّ سلمان، يوسف، بحمّى غريبة جعلته طريح الفراش لشهور عديدة. وكادت هذه الصدمة تفقده صوابه. وظل يكرّر نفس العبارة ليل نهار، حتى يغطّ في النوم أخيراً، منهكاً، «*هادا بلدي*» وكان يطوف في الشوارع ويجلس على أنقاض بيت والديه ويبكي ويصيح، «*هادا بلدي*» وكأنه يرفع دعوى إلى اللّه والبشر أن

دمشق كانت منذ آلاف السنين بلد المسيحيين أيضاً الذين ذُبِحوا كأنهم أعداء مدينة دمشق. فظنّ الناس أنه جنّ، وبدأوا ينادونه بتلك العبارة التي ما فتئ يرددها، «*هادا بلدي*». ثم اختُصرت إلى كلمة «بلدي».

عاملته الأسرة التي تبنّته بصبر وسخاء طوال ثلاث سنوات حتى شُفي من آثار تلك الصدمة. ولم يشأ أن يلجأ إلى أقاربه في حلب، بل مكث في دمشق وظلّ وفيّاً للأسرة المسلمة التي رعته طوال حياته. وكان والداه يمتلكان أرضاً تجارية ومزارع كبيرة مروية جنوبي دمشق. وبهذا الميراث، أعاد بناء البيت، وفتح محلاً لصياغة الذهب. وعندما تزوّج سنة ١٨٧٦، سجّل نفسه في سجلّ النفوس العثماني الجديد باسم يوسف بلدي، وسمّى ابنه الوحيد جورج، تيمّناً باسم أخيه. ومثل أبيه قبله، أصبح جدّ سلمان، جورج بلدي، صائغ ذهب، وتزوّج ابنة أحد كبار صنّاع النسيج الأغنياء. واختارت زوجته اسم طفلتهما الأولى، إميليا. لكن جورج لم يحبّ ابنته ذات البشرة السمراء منذ البداية. وعندما أنجبت زوجته الطفل التالي صبياً، سماه يوسف، على اسم والده، لأنه يشبهه كثيراً. وسُمّي الطفل الثالث أنطون لأنه ولد في ١٣ حزيران، عيد *القديس أنطونيوس البدواني*.

في ربيع عام ١٩٤٤، سقط جورج ضحيّة جندي سكران من قوّات الاحتلال الفرنسي. فقد أخذ الجندي يطلق النار عشوائياً في جميع الاتجاهات، فأصيب الكثير من المارة بجروح بليغة وقُتل جورج. وكان جميع أبنائه، إميليا ويوسف وأنطون، قد تزوّجوا في ذلك الحين.

درست إميليا في الجامعة، وأصبح يوسف، والد سلمان، صائغ ذهب أيضاً. وحذا أنطون حذو جده لأمّه واهتمّ بصناعة المنسوجات، ودعمه جدّه. لكن أنطون، والد إلياس، لم يظهر موهبة كبيرة في

العمل التجاري فأفلس، وأنقذته حصته من ميراث جورج بلدي الثري، ومكّنته من العيش حياة رغدة كسولة حتى توفي.

والغريب في الأمر أن أفراد الأسرة لم ينقموا على جيش الاحتلال الفرنسي، ولم يوجّه أحد منهم اللوم إليه، وإنما أنحوا باللائمة على هذا العسكري المرتزق الذي أطلق النار عشوائياً والذي كان بالصدفة مسلماً. فلم يعد يوسف وأنطون يثقان بالمسلمين دائماً، وكانا يُبديان تحفظهما منهم. وبقدر ما بدا ذلك سخيفاً، فقد أصبح الجندي التابع للجيش الفرنسي المحتل، في نظر يوسف، مسلماً مغربياً أرسله ملاك الموت إلى دمشق ليقتل والده. هكذا هي الحياة: الأسطورة تعيش زمناً أطول من الحقيقة.

عاش جورج بلدي حياة متواضعة، لكنه احتفظ دائماً - وهذا سرّ لا يعرفه أحد إلّا زوجته وأبناؤه الثلاثة - بحقيبة في القبو فيها ألفا ليرة ذهبية إنكليزية، طُبع على طرف كلّ ليرة منها صورة القديس جورج وهو يقتل التنين.

ورث يوسف، والد سلمان، هذه الليرات الذهبية ووضعها في خزنة وأقفل عليها بالمفتاح. لكن أنطون، وبدرجة أكبر زوجته، ظلا يخبران كلّ من هبّ ودبّ بأنّ يوسف حصل على كمية كبيرة من الذهب والمال. فلم يعد الأخان يزور أحدهما الآخر إلّا في أعياد الميلاد والفصح. ولم يفعلا ذلك بدافع المحبة والتسامح، وإنما بدافع الشعور بالواجب. لذلك شاب التوتر هذه الزيارات طوال الوقت. أما الشيء الوحيد الذي اتفق عليه الأخان، فهو كراهيتهما لإميليا. وكان والد سلمان يحب أن يعيش برفاهية، لكن من دون تبذير، فاشترى بيتاً كبيراً في حارة المسك بمبلغ كبير، وجدّده بحسب مخططاته الأصلية.

شيئاً فشيئاً، بدأت هذه القصص والصور التي تعود إلى أيام

طفولته تتسلل إلى مخيّلة سلمان. فقد كان البيت الذي نشأ فيه سلمان مشيّداً على الطراز الأرستقراطي الشرقي، فيه غرف جلوس عديدة، وغرف نوم، وغرف للخدم، ومخازن للمؤنة، لكن لم تكن له حديقة بالمعنى التقليدي، وإنما باحة مكشوفة على السماء، يكسو أرضيتها رخام أسود وأبيض مزخرف بأشكال هندسية، تحيط بها من جميع الجوانب أشجار حمضيات وأزهار ياسمين وورد، تتوسطه بركة كبيرة.

ومن أجل القيام بكل ما تتطلبه هذه الحياة المرفهة، استخدمت العائلة خادمتين وطاهية يقمن بعناية البيت والبركة ورعاية الأشجار وأصص الزرع التي تملأ باحة البيت طوال اليوم، وكانت الطاهية تطبخ وفق تعليمات أمّه وإرشاداتها. وتذكّر سلمان أنه لم يكن يمرّ أسبوع من دون أن تقام وليمة كبيرة. فقد كان والداه مضيافَين يحبّان إقامة الولائم في باحة البيت يدعوان إليها الأصدقاء والأقارب. ولم تكن مدرسة العازرية الخاصّة التي درس فيها سلمان تبعد أكثر من ثلاثين خطوة عن البيت.

بعد عشر سنوات من هروب سلمان من سوريا، خسر أبوه معظم ثروته بعد أن دخل في استثمارات عديدة براقة لكنها فاشلة. فباع البيت بمبلغ كبير، وسدّد بما تبقى لديه من الليرات الذهبية ديونه، واشترى شقّة حديثة جميلة كبيرة في شارع الأخطل الهادئ الموازي لشارع حلب الذي يضجّ بالحركة، القريب من الحي المسيحي. ومنذ ذلك الحين، لم يعد والداه يوظفان خادمات، بل كانت امرأة تأتي مرّتين في الأسبوع لتنظيف البيت. كتبت له أمّه في ذلك الوقت تقول له بظرافتها المعهودة إنها بدأت تستمتع بطعامها أخيراً.

ابتسم سلمان وفتح عينيه. تعجب لقلقه وتذكّر في هذه اللحظة حكاية عن رجل أمريكي أبيض يقود سيارة مع مسافر من سكان

أمريكا الأصليين الذين يُدعون «الهنود الحمر». كان الأمريكي يقود سيارته بسرعة كبيرة. فصاح الهندي فجأة، «توقّف». فضغط السائق المذهول على الفرامل فجأة، وترجّل الهندي بهدوء من السيارة وجلس على حافة الرصيف. وعندما سأله الأمريكي، «ماذا تفعل؟» أجابه الهندي، «إني أنتظر روحي، فهي لا تستطيع أن تتحرك بهذه السرعة».

لكن الأمر كان يجري بطريقة معاكسة بالنسبة لسلمان. فها هو يجلس الآن في طائرة تنطلق بسرعة كبيرة، لكن روحه كانت تنطلق بسرعة أكبر من حيث المكان والزمان. فقد سبقته إلى طفولته في دمشق منذ زمن بعيد.

عندما عادت المضيفة لتقدّم له بعض المشروبات والبسكويت والقهوة، اعتذر منها شارد الذهن باللغة العربية، فأجابته المضيفة الإيطالية الشابة باللغة العربية أيضاً. أخذا يتحدّثان، وعرف سلمان أنها كانت تحبّ شاباً سورياً، لكن بضغط من عائلته وعشيرته، تزوّج ابنة عمه وعاش معها في دمشق، واعتُقل منذ ثلاثة أشهر.

«لماذا؟ ولأي سبب؟» سألها سلمان، وشعر لحظتها أنه أحمق كأن المخابرات السورية تحتاج إلى سبب لكي تعتقل أي شخص.

«لا أعرف. أكلّم أخته في أحيان كثيرة على الهاتف، حتى هي لا تعرف السبب. حتى أنه لا يُسمح له بأن يعيّن محامياً للدفاع عنه»، أجابته المضيفة، وبدت على وجهها ابتسامة تشي بالمرارة.

وداع مفاجئ وفشل بطيء

الذاكرة التي لا تنسى شيئاً تُمرِضُنا مثل تلك التي تنسى كل شيء.

وليام جيمس، أحد رواد علم النفس

دمشق، ١٩٥٢-٢٠٠٥

سافرت أميرة مع خالتها حنان، امرأة صبيّة مفعمة بالحياة، إلى حفل زفاف أحد أقاربها في القابون - قرية تقع شمال دمشق أصبحت حالياً إحدى ضواحي العاصمة. لم يكن كريم يحبّ ذلك الرجل، ففضّل البقاء في البيت ليعتني بابنتهما الصغيرة مها. وسرّ كريم كثيراً لأن مها غطت في النوم بعد أن أكلت طعامها في هذا الوقت المبكّر من المساء. فتح قنينة نبيذ، وملأ صحناً بالفستق الحلبي وبذور القرع المحمّص، وأحضر كتاباً عن القرامطة في القرن العاشر كان يريد قراءته منذ زمن. والغريب في الأمر أن هذا الكتاب المرجعي الهام الذي كُتب سنة ١٨٨٦ لم يكتبه باحث عربي وإنما باحث مستشرق هولندي يُدعى ميخائيل يان دى خويه.

فوجئ كريم عندما قرأ الفصل المتعلق بالمساواة بين الرجال والنساء في مجتمع القرامطة. فمع أن القرامطة كانوا متخلّفين في جوانب معينة، فقد عملوا على إقامة مجتمع لا تكون فيه المرأة

مُستغلة أو مظلومة. واستمر هذا المجتمع لمدة تزيد على مئة وخمسين عاماً. لكن كتب التاريخ الرسمية لم تول اهتماماً كبيراً لهذه الحقبة التاريخية الطويلة، بل قللت من شأن القرامطة واعتبرتهم كفاراً، لكن كتب التاريخ تلك ومؤرخيها كرّسوا مئات الصفحات بتبجيل شديد حوادث تافهة تحكي عن بذخ الخلفاء وامتلاكهم آلاف العبيد والجواري وتبذيرهم لأموال الشعب، ولم يبخلوا بصفحات المديح المرائي لكرم هؤلاء الحكام.

ابتسم كريم، وسرح بأفكاره قليلاً، وتساءل، ألم يقترب مجتمع القرامطة من جنة العدالة على الأرض؟ وكيف كان العرب سيتقدمون شعوب العالم لو تحرر نصف المجتمع النسائي من العبودية التي فرضها وتمتع بها الرجال.

في حوالي الساعة الثامنة، رنّ الهاتف. نهض كريم ببطء ورفع السماعة. كانت أميرة على الطرف الآخر من الهاتف. ضحكت وقالت إنّ حفلة العرس أفضل مما كانت تتوقع وإنها ستعود في منتصف الليل تقريباً. حكى لها كريم عن مها وعن النبيذ اللذيذ الذي يشربه، ثمّ أضاف ضاحكاً، «بالمناسبة، بدأت أعرف الآن لماذا لا أحبّك فقط وإنما أعاملك باحترام أيضاً، لأنني أنتمي إلى القرامطة، لكن التاريخ قذف بي بمدفعه إلى القرن العشرين وهبطتُ في عشيرتي بالخطأ».

«القرامطة؟ لم أسمع عنهم. من هم؟»

«سأحدّثك عنهم غداً عندما نشرب الشاي صباحاً».

كانت أميرة قد أخذت إجازة يوم غد، تحسباً.

فقالت أميرة، «أتلفن لك الآن لأنني أشعر بالخجل منك. فقد تذكرت أنني لم أف بوعدي لك».

«أيّ وعد منها؟ فقد وعدتني وعوداً كثيرة»، قال كريم مازحاً.

«كنت قد وعدتك بأن أعلّمك رقصة التانغو. تذكّرت ذلك عندما رأيت في الحفلة زوجين يرقصان على أنغام موسيقى كارلوس دي سارلي الرائعة. لقد جلب ابن عمي تلك الأسطوانات من بيروت، وأُعجب المدعوون برقصهما كثيراً. في البداية أراد الجميع أن يرقصوا الرقص العربي، لكن سرعان ما فُتنوا بالموسيقى، وأصبح الجميع يريدون أن يتعلّموا رقصة التانغو. ألم أعدك بأن أعلّمك هذه الرقصة خلال أسبوع؟»

فأجابها، «نعم، نعم، لقد وعدتني، وأنا واثق بأنك ستفين بوعدك».

منذ أن كانت فتاة صغيرة، كانت أميرة تحبّ الرقص. أرسلتها أمّها إلى صديقتها التي عاشت في الأرجنتين مدة طويلة علّمتها عدّة رقصات. لكن أميرة أحبّت رقصة التانغو الأرجنتينية كثيراً وبعد فترة قصيرة تفوقت على معلّمتها في هذه الرقصة، وجمعت أسطوانات كارلوس دي سارلي وأنيبال ترويلو وأوسفالدو بوغليس. عندما سمع كريم هذه الموسيقى ورأى أميرة ترقص مع أحد أقاربها ذات مساء، تمنّى أن يكون هو الذي يراقصها. كانت النسوة وحدهن اللاتي يرقصن في بيت أهله، أما هنا فقد رأى في هذه الرقصة مسرحية بين عشيقين يعبّر أحدهما عن حبّه للآخر بحركاتهما.

«صحيح، لا أريد أن أؤجل ذلك. أقسم بحبّي لك إننا سنبدأ التدريب غداً».

ثم حدّثته عن رغبتها في إقامة بيت للألعاب لمها في الحديقة، وعن رغبتها في الذهاب إلى البحر. فضحك وذكّرها بأن مها لا تزال طفلة صغيرة، لكنّه وعدها بأن يمضيا أسبوعين على شاطئ البحر في

العطلة الصيفية، وأغلق الهاتف والسعادة تغمره. وفي الطرف الآخر، ظلّت أميرة واقفة للحظة، وأغمضت عينيها وراحت تفكّر في العطلة التي سيمضيانها على شاطئ البحر.

رنّة الهاتف الثاقبة أجفلت كريم وأيقظته من النوم. فقد غفا على الأريكة وهو يقرأ. نظر إلى ساعة الحائط. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بعشرين دقيقة.

جاءه صوت أحد أقارب أميرة على الهاتف. كانت كلماته متلعثمة ومضطربة، فلم يكد كريم يفهم شيئاً مما قاله. فقد حصل حادث مروع بالقرب من البيت الذي يقام فيه العرس. اصطدمت سيارة الخالة الفورد بشاحنة عندما حاولت أن تتجاوز عربة صغيرة، فماتت هي وأميرة في الحال. وكما علم كريم فيما بعد، فقد شربت الخالة في تلك الليلة كميات هائلة من العرق.

سقطت سماعة الهاتف من يده.

هزّ موت أميرة كيان كريم كما لم يهزّه شيء آخر في حياته من قبل ولا من بعد. وبدا له أن العالم عدو عديم الشكل يتربص به، وشعر بضآلته وعجزه. وبكى كريم بحزن شديد، وأمضى الليلة يحدّق في الطفلة الصغيرة التي تغطّ في النوم بهدوء وسلام. «أي مصيبة حلّت بك وبي يا صغيرتي؟» ردد وبكى طوال الليل ليُخرج الحزن من جسده. كانت الدموع التي ذرفها في تلك الليلة النعمة التي أنقذته، وإلّا مات من شدة الحزن.

هجره الإيمان بأن اللّه رحيم. فبعد جنازة زوجته توقف عن الذهاب إلى الجامع. وبالرغم من المحاولات الكثيرة التي حاول الشيخ العجوز إقناعه بأن يرتاد الجامع لأداء صلاة الجمعة على الأقل، ظلّ كريم متمسكاً بموقفه. وعندما عيل صبر الشيخ قال له

كريم إنه فَقَدَ إيمانه، لكن الشيخ قدّر أن كريم لا يزال شاباً وغاضباً، فقال له: «يا بني، إن معاناتك ستزداد قسوة وسيطول أمدها إذا لم تلجأ إلى الدين الذي سيريحك».

«هذا أفضل لي من التظاهر بالتدين والذهاب إلى الجامع والتحديق في ظهرك».

غادر الشيخ المنزل بسرعة كما لو كان الشيطان يجري وراءه.

تصرّفت عائلة أميرة وأقاربها مع كريم بغاية الكرم وساعدوه بقدر استطاعتهم. وظلّت نهاد، خالة أميرة الأرملة، تأتي إلى البيت في الساعة السابعة صباح كلّ يوم طوال ست سنوات، يشربان القهوة معاً، ثم تعتني بمها حتى يعود كريم من عمله في المدرسة.

وضع كريم أميرة في قلبه وأقفل عليه بالمفتاح ورمى المفتاح في بحر الأحزان. لم يرغب شيئاً سوى أن يكون معها. وصدّ بتهذيب جميع محاولات تقرّب النساء الأخريات منه - سواء أكان ذلك بحسن نيّة أم بنيّة غرامية - وبدأ الآخرون ينظرون إليه على أنه شخص غريب الأطوار، وبدأت الهمهمات تجري من وراء ظهره بأن الحزن أفقده عقله. لكنه كان في حقيقة الأمر، أسير ذكرياته عن أميرة. وبعد عقود طويلة، نسف حبّه لعايدة جدران سجنه، وبدأت ذاكرته تضع معاناته في نظام عقلاني.

أسهمت تربيته لابنته، ودراسته للأدب والتاريخ، والامتحانات التي كان يجريها، وتعلّم أصول تدريس طلاب المدارس الثانوية، كلّها في أن يبقى مشغولاً وحيوياً طوال السنين. وعندما كان يتاح له وقت فراغ، كان يُشغل نفسه بتصليح الأشياء المعطّلة في بيته الكبير. كان يفعل كلّ شيء بنفسه: يبلّط الأرضيات ويمدّد أنابيب المياه لتظل المياه جارية في الحديقة وداخل البيت طوال الوقت. ورمّم الجدار

القديم وأرضية الموزاييك. وبالإضافة إلى أشجار السفرجل والمشمش والبرتقال، زرع أصنافاً من الخضراوات، وبدأ يتناول هو وابنته ما ينتجه في الحديقة. وكلما أنهى عمله اليومي، كان يسأل أميرة قبل أن يخلد إلى النوم في قلبه هل سُرّت بما أنجزه.

حوّله ألمه إلى شخص انعزالي، منكفئ على ذاته. تفهّم بعض أصدقائه حالته واحترموا عزلته. واحترموا المسافة التي يحتاج إليها، وحرصوا دائماً على أن يُشعروه بأنهم يتفهمون مشاعره ويقفون معه.

كبرت مها بسرعة وأصبحت فتاة صغيرة مستقلّة. كانت تحبّ خالتها نهاد التي أحاطتها برعايتها بمحبة كبيرة خلال سنواتها الست الأولى. لكن عندما بلغت مها السابعة من عمرها، لم تعد تقبل مساعدة من أحد. «إنها صورة مصغّرة عن أميرة»، قالت خالتها وضحكت، «وعنيدة مثلها أيضاً». كانت مها تبدو فعلاً نسخة مصغّرة عن أمّها.

شكّل كريم وابنته فريقاً متناغماً. وفي أحيان كثيرة، كان الناس يرونهما وهما يلعبان معاً في حديقة البيت أو في الشارع. في تلك السنوات، لم يكن الآباء يلعبون مع بناتهم أمام الآخرين إلّا نادراً، وكان الجيران يبتسمون في وجه الأرمل الذي لم يهتم بذلك بسخرية مشوبة بالشفقة، وإنما واصل لعبه مع ابنته الصغيرة الذكية. وكان الشعور بالوحدة يسيطر عليه في الليل، فيشتاق إلى أميرة. إن الحزن على شخص تحبّه وفقدته أشبه بكلب مخلص، يظلّ يعود إليك، مهما حاولت أن تطرده وتبعده عنك.

كان كريم يردد، فيما بعد، أنه لا يتذكّر أشياء كثيرة يمكن أن يحكيها عن الفترة بين موت أميرة عام ١٩٥٢ وتعرّفه على عايدة في عام ٢٠٠٥، سوى أنه كان يفكّر في أميرة كلّ يوم، وأنه كان فخوراً بابنته الموهوبة، وأنه لم يكن يجد أحياناً وقت فراغ كافياً بين عمله

في المدرسة والحديقة وطهي الطعام له ولمها. ولمتعته الشخصية، كان يقرأ ساعة يومياً.

تخرّجت مها في المدرسة الثانوية بتفوق سنة ١٩٧١. منذ أن كانت في العاشرة من عمرها، كانت تحلم بأن تصبح محامية. فدرست الحقوق، وعملت أثناء دراستها وكسبت نقوداً من تعليم تلاميذ من عائلات غنية.

هناك يوم محدد بارز لا يزال ماثلاً في ذاكرته. ففي حزيران ١٩٧٢، قبل بدء العطلة الصيفية بقليل، دخل في جدال مع مدير مدرسته الجديد المؤيد بقوة لقائد الانقلاب الجديد، حافظ الأسد. كان كريم يعرف مدير المدرسة هذا منذ أن كانا مدرّسين معاً في تلك المدرسة. ففي نهاية خمسينات القرن العشرين، أيّد هذا الانتهازي بحماسة شديدة جمال عبد الناصر، وبعد أن أدّى مناسك الحجّ في مكة، أصبح متحمساً بقوة للسعودية. وعندما لم يعره السعوديون أي اهتمام، بدأ يؤيد بحماسة منقطعة النظير الحكومة اليسارية في عهد الرئيس الأتاسي الذي أطاح به الأسد وعشيرته سنة ١٩٧٠.

«من بين جميع الكائنات المتقدة حماسة، فإن الكائنات الوحيدة التي أحبّها هي حشرات سراج الليل»، قال كريم ساخراً بعد أن ألقى المدير إحدى خطبه الحماسية في مديح الأسد أمام ثمانمئة تلميذ وأربعين أستاذاً وموظفاً وعاملاً في المدرسة. لكن مخبراً وشى بكريم فطُرِد على الفور، لا من المدرسة فقط، وإنما من سلك التعليم كلّه أيضاً. في البداية، فكّر كريم في الهجرة. فقد كانت دول الخليج آنذاك تبحث عن أساتذة، لكنه قال لنفسه إن سفره سيُبعده عن مها التي يشتاق لرؤيتها كلّ يوم، وعن قبر أميرة الذي تعوّد أن يضع عليه باقة من الزهر كلّ أسبوع. فقبل وظيفة في مكتب استقبال في أحد الفنادق الكبيرة، ثم ترقّى حتى أصبح كبير المحاسبين في ذلك

الفندق. وإلى جانب عمله هذا، بدأ يدرّس في بعض المعاهد الخاصة التي أصبحت رائجة في أواخر سبعينات القرن العشرين، بعد أن تدنّى مستوى التعليم في المدارس الحكومية وبدأت تركّز على تعليم العقائد السياسية أكثر من تركيزها على العلوم والمعرفة.

من هذين العملين بدأ كريم يكسب مبلغاً أكبر من الراتب الذي كان يتقاضاه كمعلّم. وكان فخوراً بمها التي تفوقت في دراستها وأصبحت محامية ناجحة. وفي منتصف التسعينات تقاعد من عمله وأصبح بإمكانه أخيراً أن يقرأ الكتب التي جمعها سابقاً، ولم يتح له وقت كاف لقراءتها.

في أحد الأيام في خريف عام ٢٠٠٢، قبل ثلاث سنوات من لقائه بعايدة، أهداه صديقه جبران، النجار والقارئ النهم، كتاباً صغيراً عنوانه «*طاقة الحب الدفاعية*». كان جبران رجلاً خجولاً، دمثاً، وهادئاً في كلّ ما يفعله. وواظب على زيارة كريم مساء كلّ يوم سبت، يتناولان كأساً من النبيذ، ويتجاذبان أطراف الحديث لمدة ساعة، ثم يذهب بهدوء كما جاء.

ظلّ الكتاب ملقى لأسابيع على الطاولة الصغيرة بجانب سريره. في البداية، ظنّ كريم أنه يحكي قصة حبّ. لكن في إحدى الليالي، نام نوماً متقطعاً، وراودته كوابيس كثيرة. وفي لحظة ما، التقط الكتاب الصغير. احتوى مجموعة من حكم ونصائح دوّنها شخص أطلق عليه المحرر لقب «الحكيم»، وكان جبران وأتباع الحكيم الآخرون يطلقون على أنفسهم اسم «الإيثاريون» وبعض من صعبت عليهم هذه التسمية، أطلقوا عليهم اسم «مؤيدي نكران الذات». ولم يرد اسم الناشر على الكتاب السيّئ الطباعة والمطبوع على ورق رخيص. وكلّما قرأ كريم في الكتاب أكثر، عرف لماذا لم يُذكر اسم المحرر والناشر. ففي كلّ سطر، وفي كلّ كلمة، كانت هناك دعوة

مغلفة بغلاف ذكي تدعو إلى مقاومة الديكتاتورية، والمطالبة بالحرية والكرامة. شعر كريم أنه لو لم يثق به جبران ثقة كبيرة لما أعطاه هذا الكتاب. فلم يترك محرر الكتاب أدنى شكّ لجميع القراء بأن المخابرات ستلقي القبض على أي شخص تجد بحوزته هذا الكتاب، وسيُقتل بصمت وبالسرّ من دون أي محاكمة. وذكر المحرر أيضاً في نهاية الكتاب أن الحكيم نفسه قد قُتل.

غُلِّف هذا الكتاب الصغير بغلاف بسيط زهري اللون كتمويه جيد لما يتضمنه. وكان عنوانه صادقاً. ففي كلّ فقرة، يتحدّث عن طاقة الحب الجبارة. كان النص مكثفاً جداً ويتطلب قراءة متأنية، وتفكيراً طويلاً ومتعمقاً. شدّ الكتاب اهتمام كريم فظلّ يقرأه ويفكّر فيه حتى الساعة السادسة صباحاً.

اعتاد كريم على الاستيقاظ باكراً منذ أن كان معلّماً، وظلّ كذلك حتى بعد أن أحيل على التقاعد، يستمتع بهدوء الصباح، يخطط لمواعيده، ويستعدّ لليوم قبل أن يبدأ ضجيج الحياة. لم يشعر بالتعب في صباح ذلك اليوم في تشرين الأول. كان دائم التفكير في ابنته التي بالرغم من أنها فتاة ذكية، فقد كانت تتصرف بعكس الحكمة الواردة في هذا الكتاب الصغير. فقد بلغت الخمسين من عمرها، وتعيش وحدها بعد طلاقها من زوجها، وأصبحت امرأة غنية لكنها غير سعيدة. وبدا له أنها نسيت كلّ ما علّمه إياها. ربما لهذا السبب أصبحت ناجحة - لكنها لم تستطع أن تشعر بالسعادة في عزلتها.

ومما زاد الأمر تعقيداً أو كما يقول الدمشقيون: ما زاد الطين بلّة، أنها انضمت في السنة الماضية إلى جماعة نسائية محافظة، ولم تعد تشرب أو تدخن، لكنها ظلّت تقود سيارتها الأنيقة الرياضية. وبدأت تغطّي وتحزم بشدة رأسها الجميل الذي أصبح يبدو مثل بيضة، وفي الصيف، بدأت ترتدي معاطف تصل إلى الكاحلين ذات

أكمام طويلة. وصارت تجادل أباها كلّما رأته يشرب كأساً من النبيذ. بدا أنها نسيت كلّ شيء يتعلق بالبهجة والسرور، ولم تعد تتوق إلّا إلى الجنة في الآخرة.

في أي اتجاه خاطئ سارت حياتها؟ تساءل كريم في فجر ذلك اليوم الخريفي، ورشف رشفة من القهوة. لكنه لم يجد جواباً.

فسيفساء الوصول
أو عن الزمن والمكان المفقودين

دمشق، *كانون الأول* ٢٠١٠

العودة إلى مدينة قديمة جداً

عندما رأى سلمان رتلاً طويلاً أمام كوة تدقيق جوازات السفر، ابتسم. فالانتظار في رتل غريب تماماً على العقلية العربية، لكن بعد سنوات طويلة من الحكم الديكتاتوري، بدا الاصطفاف في أرتال في سوريا، على الأقل في المطار، منظّماً كما لو أنهم يقلدون قدوتهم التي تلاشت في بلدان الكتلة الشرقية. وملأت صور الأب القائد حافظ الأسد حتى بعد مماته بالإضافة إلى صور ابنه بشار كلّ زاوية وبقعة في المطار، يرمقان الناس من عليائهما. وانتشر جنود مسلّحون ذوو وجوه قاسية متحجرة في أرجاء صالة المطار الكبيرة. وبعد انتظار دام عشر دقائق، أحصى سلمان ثمانية عشر رجلاً وامرأة يصطفون أمامه، وسبعة وعشرين وراءه. سرت همهمات ساخطة بين المنتظرين الذين أصيبوا بالإحباط لأن عودتهم إلى بلدهم لم تكن سلسلة وسهلة كما قيل لهم.

جاء مندوب من وزارة الثقافة وأخرج الشاعر المصري من صفّ المنتظرين فلم يضطر لأن ينتظر أمام كوة تدقيق الجوازات. عندما رآه

الرجل المسنّ الذي كان جالساً بجانبه في الطائرة، صاح بصوت يشي بالحسد، «يا اللّه، كان عليّ أن أصبح حكواتياً، بدلاً من أن أعمل طوال النهار وألوّث نفسي بالغِراء والغبار والخشب والعقد والثقوب في تلك الألواح الخشبية». ثمّ التفت إلى الأشخاص المتحلقين حوله وقال لهم إنه نجار عائد بعد زيارة لابنه في أمريكا.

أخذ الضابط الشاب، المعكّر المزاج، الجالس في مقصورة صغيرة تحت صورة الرئيس بنظرته الحادّة ورقبته الطويلة، جواز سفر سلمان ورمقه بنظرة طويلة قاسية وسأله، «أنت عربي تحمل جواز سفر ألمانياً؟ لماذا؟»

«قسمة ونصيب»، أجابه سلمان، مبتسماً للضابط الذي راح يقلّب صفحات جواز السفر، ثم وضعه على الناسخ الضوئي. كان سلمان يعرف أن ردّه ليس مهماً وإنما المهم هو ما سيقرره جهاز الكمبيوتر في قيادة مخابرات المطار.

مُثبطاً، دفع الضابط جواز السفر جانباً، دلالة على أنه لم يجد شيئاً. قال سلمان لنفسه إن السوريين يعتبرون الدولة عدوة لهم، لكنهم يتظاهرون بأنهم يحترمون ممثليها، بينما يعامل المسؤولون الناس باحتقار، ويُظهرون لهم كراهية واضحة. ويتصرفون وكأن كراهيتهم واجب يمليه قانون الدولة الحديثة.

عندما رنّ هاتف الضابط الخلوي، أدار ظهره لسلمان وبدأ يتكلّم في الهاتف، والناس لا يزالون ينتظرون. من حديثه، فهم سلمان أن شيئاً لم يسر على ما يرام البارحة، وسمع الضابط يقول معترضاً إنه بذل كلّ ما بوسعه، ثم ألقى الهاتف على الطاولة غاضباً وغادر مقصورته حانقاً. سمع سلمان الأشخاص خلفه يلعنون سلالة الضابط حتى أجداد أجداده.

بعد خمس دقائق عاد الضابط، وبدا أنه نسي سلمان والآخرين

الواقفين في رتل ينتظرون بفارغ الصبر. رمشت عيناه كما لو أنه تناول مخدّراً. نظر إلى سلمان وسأله بصوت مدغم قليلاً إن كان ينتظر شيئاً، فأجابه سلمان، «جواز سفري»، مُرغماً نفسه على أن يبتسم.

بعد بضع دقائق بدأت دمشق، المدينة التي طالما أحبّها، تتكشف أمامه وتُريه أنّها واحدة من أقدم المدن في العالم، لذلك، فإنها مدينة لا تتغيّر بسرعة. فعلى الرغم من حداثة المطار، ظلّ الضابط يعامل الناس كما لو كانوا لا يزالون يعيشون في القرن التاسع عشر تحت الحكم العثماني.

دسّ سلمان جواز سفره في جيبه وتبع المسافرين الآخرين إلى قسم الجمارك، حيث يقف موظفان وراء طاولة كبيرة. سأل الموظف الأكبر سنّاً المربوع القامة سلمان بصوت ناعس عمّا إذا كان لديه شيء يريد أن يصرّح عنه، فأجابه سلمان لا، وهمّ بفتح حقيبته، لكن الموظف الأصغر سنّاً لوّح لسلمان بيده من وراء الطاولة بأن يمضي. كان هذا الموظف يفتّش، منذ بضع لحظات، حقيبة المسافر الواقف أمام سلمان، وهو رجل أشيب الشعر يضع نظّارات ذات إطار عظمي أنيق. وكان يُخرج ملابس الرجل وثيابه الداخلية قطعة قطعة ويهزّها. هكذا إذاً يفعلون في دمشق - الفوضى والمزاج أينما نظرت. لكن الموظف المربوع القامة الذي كان يبدو شكوكاً، أراد أن يلقي نظرة فاحصة على حقيبة سلمان اليدوية. بعد أن ألقى نظرة سريعة على محتوياتها، لوّح لسلمان بأن يمضي وبدا ضجراً. «يا إلهي، إنهم أسوأ من موظفي الجمارك الإيطاليين. ماذا لو كنت أحمل بضائع مهربة في حقيبتي؟» قال سلمان لنفسه وسار بهدوء نحو الطاولة الكبيرة حيث كان الركّاب الآخرون يعيدون أغراضهم إلى حقائبهم وأكياسهم. ضحك الرجل الذي يضع نظّارات ذات إطار عظمي، وقال، «يستخدم المهرّبون ممراً آخر يقدّمون لهم فيه مرطبات».

كان الرجل منهمكاً في إعادة ثيابه الداخلية وحشرها بالقوة في حقيبته التي بدا أنه لم يعد لها مكان فيها. فساعده سلمان، وحشرا الأغراض كلّها فيها، وتمكّنا أخيراً من إغلاق الحقيبة ذات العجلات الصغيرة معاً.

شكره الرجل الذي بدأ يلهث، وأضاف، «آتي لزيارة دمشق كلّ سنة، وفي كلّ مرّة يفتّشون حقائبي، وأقسم بعدها بألّا تطأ قدمي أرض هذه المدينة مرة أخرى، لكني سرعان ما أحنّ إليها وأعود بعد عدة أشهر».

عندما خرج سلمان من المطار، كان الظلام قد خيّم على المدينة، وغلّفها البرد بغطاء قارس - فلم يخطئ شهر كانون الأوّل في حياته قط ليكون ممتعاً في دمشق كما في روما - وعلى الرغم من الرطوبة، كان الهواء مشبعاً برائحة الغبار الممزوج بالمازوت. رائحة غريبة افتقدها سلمان منذ سنوات. وكما جرت العادة، تعالت أصوات سائقي سيارات الأجرة، يتشاجرون على كلّ راكب. وبلمح البصر، حمل سائق حقيبة سلمان ووضعها في سيارته.

«لكننا لم نتفق على الأجرة بعد»، قال سلمان محتجّاً.

«لا يهم. ادفع المبلغ الذي تريد، فأنت رجل محترم وكريم. لن نختلف على الأجرة».

لا، هذه خدعة قديمة يلعبها سائقو التاكسي على السائحين والمغتربين العائدين إلى بلدهم. فمعظم السائقين يعتبرون هؤلاء الناس أغنياء أغبياء يمكن خداعهم بسهولة. فبعد أن يوصل السائق الراكب إلى المكان المحدد، يطلب منه أجرة غير معقولة. وإذا رفض الراكب أن يدفع هذا المبلغ، يختلق السائق شجاراً، فيخجل الراكب ويضطر إلى دفع المبلغ الذي طلبه السائق.

«أقسم أنكم لم تتعلّموا شيئاً خلال أربعين سنة - فأنا دمشقي

ولست شيخاً من مشايخ البترول، وتريد أن تخدعني في مدينتي؟ كم تبلغ الأجرة إلى شارع الأخطل؟» لم يعد سلمان يكلّمه بلغة عربية مهذبة، وإنما بدأ يكلّمه باللهجة الشامية المحلية.

«ألفان وخمسمئة ليرة، حتى عتبة بيتك في شارع الأخطل. وكما تعرف فإن شارع الأخطل بعيد جداً».

يقع شارع الأخطل في الحيّ الجديد الذي شُيِّد في ستّينات القرن العشرين، والذي ربض في ذلك الوقت عند حافة أقصى شمال الحيّ المسيحي. عندما كان سلمان لا يزال في روما، بحث مطولاً على غوغل عن أقصر طريق تحسّباً لذلك. فمع أن الشارع يبعد حوالي خمسة وعشرين كيلومتراً عن المطار، فقد طلب السائق مبلغاً يعادل خمسين يورو. ومع أن المسافة بين مطار فيوميسينو وشارع فيال دي تراستيفير لا تزيد على خمسة وعشرين كيلومتراً، فإن الأجرة لا تزيد على أربعين يورو، علماً أن الأسعار في دمشق أرخص بكثير مما هي في روما.

«ألف ليرة. الشارع ليس في هونولولو. إنه بموازاة شارع حلب. وإذا كنت ستلعب عليّ وتقول إنك تطعم اثني عشر طفلاً جائعاً، فإني سآخذ سيارة أخرى». أصبحت نبرة سلمان أكثر عدائية، لأنه اكتشف أن الضابط ليس الشخص الوحيد الذي عامله باحتقار، وإنما هذا المحتال أيضاً، وشعر سلمان بكراهية شديدة تجاهه.

«لا، لا يا سيدي. لا تنفعل كثيراً. لا يوجد عندي أطفال. حسناً، ألف ومئتا ليرة. وفي جميع الأحوال، فقد حملت لك حقيبتك».

«لم أطلب منك أن تحملها، لكن اتفقنا، ألف ومئتان»، قال سلمان، وأخرج هاتفه الخلوي بسرعة وتلفن لأمّه.

« ألو، مرحباً، بلدي»، سمعها تقول.

سألها، «هل عندك فنجان قهوة صغير لبدويّ يا أطيب بلدية؟»

«سلمان، يا قلبي! أين أنت؟»

«أنا في طريقي إليك. سأصل بعد نصف ساعة».

«لتحميك مريم العذراء المباركة. لماذا لم تخبرنا بموعد وصولك؟»

«لم أشأ أن تنتظراني. ظننت أنهم سيحققون معي لساعات طويلة. لكنّهم عاملوني بلطف شديد ولم أنتظر أكثر من ساعتين». ضحك عندما أخذت تلعن أمّه ذلك الموظف البيروقراطي، وتمنّت أن تصيبه الحمى الصفراء.

«سأصل بعد قليل»، قال ونظر إلى ساعة يده، وأضاف، «الساعة الآن الخامسة وخمس وعشرون دقيقة. هل عندك قهوة؟»

«طبعاً، عندي قهوة تكفي العالم كله»، قالت أمّه، وأدرك سلمان أنّها تبكي من الفرح لوصوله بالسلامة. استقلّ سلمان التاكسي الذي انطلق فوراً. في الطريق، تذكّر سلمان أصدقاءه وزملاءه القدامى في المدرسة. تذكّر لمياء، حبّه العذري العظيم، وتذكّر ريتا، الصبيّة الجريئة التي عاش معها أجمل مغامراته الشهوانية. لكن جميع أولئك الأصدقاء ظلوا شباباً في مخيّلته.

رأى سلمان مركبات عسكرية واقفة عند منعطف كلّ شارع وعند تقاطع كلّ طريق. «ما الذي حدث؟» سأل سلمان السائق مشيراً إلى الجنود.

«لا شيء. وماذا في ذلك؟» أجابه السائق كما لو أنه لا يرى الجنود. ربما أصاب الجميع العمى في إحدى أعينهم. لعلهم لا يرون كذلك الملصقات الضخمة لصور الرئيس وتماثيل أبيه المنتشرة في كل مكان. كان وجها الأب والابن متجهمين، جافين، قاسيين، منفّرين. لم يقل سلمان شيئاً يمكن أن يستثير السائق الذي بدأ يسأل

سلمان بلهفة من أين جاء، ولماذا يعيش خارج البلد، وكم سيمكث في دمشق. لاذ سلمان بالصمت وراح يراقب الناس الذين يغذّون الخطى في الشوارع المعتمة. لم يتوقف السائق عن الحديث كما لو أنه ابتلع راديو. تركه سلمان يقول ما يريد. كلّ ذلك التذمر عن الأزمة الاقتصادية التي أجبرته - وهو معلّم المدرسة السابق - على أن يعمل سائق تاكسي، وتلميحاته الواضحة إلى «بعض الشخصيات البارزة» التي أصبحت من أصحاب البلايين، والنكات الفجة التي حاول أن يُضحك بها زبونه الصامت العابس. ثم قال إنه يكره الأكراد والمسيحيين والدروز واليهود والنساء والمثليين، بالإضافة إلى والدَي زوجته اللذين مصّا دمه كما يفعل مصاصو الدماء في الأفلام.

«وهل تكره العلويين أيضاً؟» سأله سلمان أخيراً الذي يعرف أنّ السائق تعمّد ألّا يذكر هذه الطائفة الأقلية خوفاً، لأن الرئيس الأسد وأعوانه ينتمون إليها. فهو يعرف حق المعرفة أنه إذا تفوّه بكلمة واحدة في غير محلها عنهم، فإنه سيمضي بقية حياته في السجن.

«لا، واللّه، أنا لا أكره أحداً»، أجابه السائق على الفور، ونظر إلى سلمان من المرآة الخلفية نظرة يشوبها القلق. ومنذ تلك اللحظة، لم يعد السائق ينظر إليه. عندما وصلا، شكر سلمان متزلّفاً، وانطلق مبتعداً بسرعة.

نظر سلمان إلى البناية الجميلة ذات الطوابق الثلاثة التي يقيم فيها والداه منذ زمن. وعلى الرغم من وجود مصعد في البناية، صعد سلمان على الدرج حتى الطابق الثاني، وقرع الجرس.

تأثّر سلمان كثيراً عندما رأى آثار تقدّم العمر بادية على أمّه. فبدت له أصغر حجماً وأضعف بنية، لكن وجهها اللطيف المشرق ظلّ كما هو تقريباً. استقبلته أمّه بحرارة وضمّته إلى صدرها بقوة،

وبكت من الفرح والألم، وقالت: «ليعاقب اللّه أبناء الزنا الذين فرّقونا عن بعضنا. ليعاقب اللّه كلّ من يفرّق أمّاً عن ابنها. أخيراً جئت يا قلبي، يا نور حياتي».

لم يشأ سلمان الذي تملّكه شعور المنتصر أن يبكي. فلم يسجنوه أو يعاقبوه، وإنما عاد غانماً سالماً، مرفوع الرأس.

«قلت لك إنني سأعود»، قال لها سلمان مبتسماً.

نظرت إليه أمّه ببهجة شديدة، وقالت: «لم تنس ذلك الوعد *أيضاً*؟» الكلمة الأخيرة التي شدّدت عليها قليلاً، أبرزت شخصيتها. لم تبالغ صوفيا طوال عمرها بالتعبير عن عواطفها بسخاء علناً. 'شوي، شوي'، كان أسلوبها في الحياة كما في الحبّ. ولم تبد تعاطفها بشكل مبالغ فيه أيضاً، سواء إزاء الأشخاص أو الأشياء. وعلى المرء أن يكون مستمعاً ممتازاً حتى يفهم نكاتها المبطّنة. ففي آخر اتصال معها من بيروت منذ عقود، صاح في الهاتف، «انتظري فقط وسترين، يا أمّي. سأعود. لن يتمكّنوا من كسري». كان صوته يشي بالكبرياء والتحدّي. كم مرّة أخذت أمّه وعده هذا إلى السرير معها؟ كم مرّة بدأت يومها به؟ لا يعرف الإجابات عن أسئلة كهذه إلّا الأمهات.

عندما فتحت أمّه الباب، هبّت عليه رائحة القهوة المتبّلة بحبّ الهال، ولمح سلمان وراء أمّه والده جالساً في كرسي متحرك. كان الإرهاق والمرض باديَين عليه بوضوح، مع أنه احتفل بعيد ميلاده التاسع والثمانين في شهر أيار ذاك. فوجئ سلمان عندما رآه في هذه الحالة، لكنّه أخفى صدمته بأن أطلق ضحكة بهيجة عالية عندما رأى أباه في هذه الحالة.

«اتركي لي شيئاً من ابننا يا صوفيا»، صاح أبوه. وعندما لاحظ القلق في عينَي ابنه، قال له بصوت خفيض، «لقد أفلتُّ من قبضة

الموت للمرة الثانية، لكن بطريقة خرقاء هذه المرّة، فلم تعد ساقاي تحملانني». كان والداه قد أخفيا عنه خبر إصابة أبيه بجلطة دماغية السنة الماضية، كما أخفيا عنه أيضاً أنه مصاب بالسرطان كي لا يثيرا قلق ابنهما. انحنى سلمان، وضمه بين ذراعيه وقبّله، ثمّ جاء دور أبيه في البكاء.

«لماذا لا نتوقّف عن البكاء ونبتهج بعودة سلمان ونشرب القهوة معه؟» قالت أمّه.

«هذه الصبيّة ذكية. في البداية تذرف دموعاً تكفي لجعل الصحراء خضراء، ثمّ تقول إنني يجب أن أتوقّف عن البكاء».

أحضرت أمّه بعض المأكولات الخفيفة من الثلاجة، تناولها سلمان بتلذذ. وبينما كانوا يأكلون، اختلقت أمّه أعذاراً كثيرة لتنهض وتقف وراءه وتعانقه. وجلس أبوه إلى يمينه، يمسّد يد سلمان باستحياء، ويبتسم محرجاً. تناول لقيمات قليلة لأنه تناول العشاء مع صوفيا منذ فترة قصيرة.

لم ينته سيل أسئلتهما. وقبل أن ينهي سلمان ردّه على أي سؤال، ينهال عليه السؤال التالي، وأحياناً سؤالان في وقت واحد - سؤال من كلّ جانب - وكان سلمان سعيداً بذلك. وعندما سأله والده عن وضعه المالي بصوت هامس، أجابه بافتخار، «خمسة ملايين يورو».

أشرق وجه يوسف بلدي، وقال: «رائع أيها الشابّ. أنا فخور بك. لكن هنا في دمشق، فإننا نفضّل أن ندفن هذا النوع من المعلومات عميقاً، وإلّا فإنك ستصبح مثل قطرة عسل تجذب الكثير من الحشرات المزعجة».

أمضوا سهرة جميلة، لكن ما أزعج سلمان بقاء جهاز التلفزيون مفتوحاً. هذا ما كان يكرهه في دمشق قبل سفره وما كرهه في إيطاليا

لأن الإيطاليين أيضاً لا يطفئون التلفزيون. لكنه قرر في روما قبل سفره إلى دمشق أن يستمتع بزيارته الأولى بهدوء بعد تلك السنوات، وألّا يوجّه انتقادات كثيرة.

بعد العشاء بقليل، دخل والداه إلى غرفة نومهما. اتصل سلمان بستيلا وحكى لها عمّا جرى له في المطار وعن استقبال والديه بحرارة.

جهّزت له أمّه الغرفة الجميلة المطلّة على الشارع، ونقلت إليها قطع الأثاث القديمة التي كانت في غرفة نومه - خزانة الملابس الجميلة، السرير الكبير، الأريكة القديمة ذات الطراز الشرقي التي لا تزال في حالة جيدة، وطاولته المصنوعة من خشب الجوز التي اعتاد أن يكتب عليها، وكرسيه المفضّل الذي ظلّ في حالة جيدة.

حتى قصاصات الورق المثبّتة على لوح الإعلانات المصنوع من الفلين لا تزال في مكانها، مصفرّة وهشّة قليلاً، لكنها لا تزال مقروءة: «ساعد أ. ل»، «تلفن لـ ب. م». لكنه، لسوء الحظ، لم يتذكّر من هما «أ. ل» و «ب. م». ووجد في أحد الأدراج قصاصة عليها رقم هاتف، قرأ تحته، «اتصل بهالة في أقرب وقت». والغريب في الأمر، أنه لا يزال يتذكّر هذه الرفيقة الشابة. وتذكّر أيضاً أنّ الرقم المدوّن على القصاصة هو رقم هاتف والديها. ابتسم، وتخيّل كيف سيبدو الأمر لو أنه تلفن وقال لأبيها، «ألو، أنا سلمان. كان من المفروض أن أتّصل بهالة قبل أربعين سنة».

عندما تذكّر كلّ ذلك، أحسّ أنه يكاد يقترب من السعادة، لكنّه سرعان ما اعترف في قرارة نفسه أيضاً بأن الاحتفاظ بهذه الأشياء القديمة شيء سخيف، وتلاشت بهجته، واعتراه فجأة شعور باللامبالاة، لا لقصاصات الورق فحسب، وإنما لجميع الأشياء الأخرى التي شكّلت ماضيه.

لم ينم سلمان تلك الليلة. فدمشق مدينة صاخبة لا تكلّ ولا تتعب إلّا عند الفجر - لكن ليس لفترة طويلة. فسرعان ما انطلقت أصوات المؤذّنين التي كانت تذاع آنذاك مسجلة على أقراص مدمجة أو على أشرطة كاسيت، فكانت الأصوات تصل إلى كلّ البيوت من خلال مكبرات الصوت.

غرابة الأماكن

استيقظ سلمان بعد التاسعة في صباح اليوم التالي. ابتسم والداه ابتسامة مليئة بالرضا والسعادة. تناول فطوره بسرعة لأنه كان متلهفاً لزيارة المدينة القديمة التي نشأ وتربى فيها.

عندما قالت له صوفيا، «سأعدّ لك اليوم كفتة بالبطاطا بالفرن التي تحبّها»، فهم سلمان أن عليه ألّا يتناول طعاماً في الشارع وأن يعود إلى البيت عند الثانية عشرة ظهراً، موعد طعام الغداء. تذكّر سلمان أن أباه اعتاد على تناول طعام الغداء في تمام الساعة الثانية عشرة، حتّى في أيام عمله كصائغ في سوق الصاغة المجاور للجامع الأموي.

ثم أضاف أبوه، «وسيأتي لعندنا أيضاً ضيوف هذا المساء. ستأتي ثلاث أو أربع من بنات خالتك ليساعدن أمّك. هكذا اتفقن. كنت أريد أن أطلب كلّ شيء من مطعمي المفضّل. وجبات طعامهم ممتازة ويرسلون معها مساعدين لتقديم الطعام، لكن صوفيا لم تقبل وقالت إن هذا لا يليق بأصول الضيافة. لم أشأ أن تعدّ الطعام لعشرين شخصاً وحدها».

«عشرون شخصاً؟» تساءل سلمان، مندهشاً.

«طبعاً، ماذا تظن؟ إنهم ينتظرون منذ شهور ليأتوا ويرحّبوا بك.

لا يمكننا أن نقدّم لهم قهوة وحلوى فقط»، قالت أمّه موضحة، «وما قاله يوسف صحيح. لا أستطيع أن أفعل كلّ ذلك وحدي، بهذه الطريقة ستتعرّف على بنات خالتك. بعضهن كنّ صغيرات أو حتى لم يولدن بعد عندما سافرت».

«كم اشتقت لهم جميعاً، لم أعد أحتمل الانتظار أكثر من ذلك»، قال سلمان مرائياً. فلم يكن يحبّ اللقاءات العائلية الكبيرة هذه التي ليست سوى طقوس جماعية صاخبة لتناول الطعام يستحيل تبادل الأحاديث خلالها. وجدها دوماً مملّة - لكنه أيقن أن لا مفرّ منها. توقّع أنّ تصل بنات خالته عند الظهيرة ليبدأن الطهي وترتيب غرفة الجلوس الكبيرة لاستقبال الضيوف.

كان يوم الإثنين بارداً لكنه مشمس. ارتدى سلمان ثياباً تقيه من البرد وذهب إلى المدينة القديمة. توجّه مباشرة إلى *قصر البلّور*، وهو مقهى ومطعم في الحيّ المسيحي بُني منذ قرابة مئة سنة. كان سلمان يعرف صاحب المقهى العجوز، خريستو دحدوح. بلغ القصر أوج شهرته في أربعينات وخمسينات القرن الماضي عندما كان الشعراء والسياسيون والممثلون والمطربون يلتقون فيه. لكن تغييرات كثيرة طرأت عليه فأصبح أصغر حجماً بعد توسيع الشارع، وفقد الكثير من رونقه وجاذبيته.

على الرغم من أن سلمان يعرف هذه الشوارع جيداً، فقد بدت له غريبة الآن. فمع أن الناس يرتدون حالياً ثياباً عصرية أكثر مما يتذكّر، فقد لاحظ أن نساء كثيرات يضعن حجاباً وأطلق كثير من الرجال لحاهم. ولاحظ أيضاً أن معظم الناس منهمكون في التحدّث على هاتف خلوي أو هاتفين في وقت واحد. إن العرب يبالغون في كلّ شيء، قال لنفسه، مبتسماً. وبدأ يسترق السمع إلى أحاديث الناس في المقهى وفي الشارع. ومع أنهم يتحدّثون باللغة العربية،

فإنه لم يكن يفهم في غالب الأحيان عن أي شيء يتحدّثون، وظلّت عبارة واحدة يتردد صداها في أذنيه وهي، «*ما دخلنا*»، وتعني في العامية الشامية أن الأمر لا يعنينا أو أننا لن نتدخل في هذا الأمر.

بعد ساعة من التجوال، وصل إلى البيت الذي أمضى فيه طفولته وأصبح الآن مطعماً فاخراً. كان الباب المفضي إلى باحة البيت الداخلية مفتوحاً. ما إن دخل سلمان، حتى اقترب منه شابّ في بدلة سوداء أنيقة. «أهلاً وسهلاً - تفضّل. الطقس بارد جداً ولا يمكن الجلوس في الخارج. الداخل مريح ودافئ».

«المعذرة، أريد فقط أن ألقي نظرة سريعة على البيت. لقد نشأت هنا. اسمي سلمان بلدي. عشت هنا قبل أن أسافر إلى أوروبا».

«صحيح؟» قال الرجل متفاجئاً، «اسمي ناصر درويش. أنا المستأجر. السيد موسوي، صاحب البيت يعيش في حلب».

«نعم. باع أبي البيت إلى السيد موسوي - إنه مهندس معماري، كما أظن».

«هل يمكنني أن أدعوك؟ قليل من الشاي سينعشك في هذا الطقس»، قال الرجل بنبرة ودّية. تبعه سلمان إلى الداخل. لم يميّز سلمان شيئاً في غرفة الطعام الكبيرة لأن صاحبه هدم الجدران الفاصلة بين الغرف وحوّل ثلاث غرف إلى غرفة واحدة لم تعد مزدانة بالأقواس الثلاثة الجميلة، ومنح الضوء الذي يتسلل من النوافذ الزجاجية الملوّنة انطباعاً بأنها كنيسة. لم يعجبه الديكور المثقل بجماليات وألوان رخيصة ليبدو أنيقاً، ولم تناسب طاولة المشرب التي بُنيت في نهاية القاعة والمصنوعة من فولاذ ببريقها البارد ديكور القاعة الملون بألوان فاقعة.

«أين تعيش في أوروبا؟» سأله المستأجر.

«في روما».

«إنها مدينة جميلة. زرتها ذات يوم. وماذا تعمل هناك؟» سأله بعد أن قدّم لهما نادل الشاي.

«شركة استيراد وتصدير للمواد الغذائية»، أجابه سلمان.

«جميل»، قال الرجل، لكن أحد العاملين دعاه ليتكلّم على الهاتف. لا بد أن المخابرة هامة. أنهى سلمان الشاي ونظر حوله خلسة مرة أخرى. لم يعد هناك شيء في هذا المكان يذكّره بطفولته أو بفترة شبابه. نهض واقفاً وعاد من الباب المفضي إلى الباحة الداخلية. لم يتبق سوى البركة المثمنة الأضلاع والزخارف الرخامية التي تزيّن الأرضية والجدران. دقق سلمان النظر في التصميم الدقيق لتلك الزخارف ورأى كيف أن التلاعب بالخطّ والألوان الهادئة يشكّل موسيقى بصرية، تماماً مثل فنّ خطّ جميل.

ولاحظ سلمان أن الأشجار المثمرة قد اقتُلعت من مكانها لتفسح مكاناً لأكبر عدد ممكن من الطاولات. ووضعت مقاعد حجرية دائرية تتوسطها طاولة رخامية مستديرة في المكان الذي احتلته فيما مضى غرفة صغيرة لأدوات البستاني كانت أمّه تلتقي فيها مع عشيقها.

رأى سلمان كلّ ذلك بأمّ عينه ذات يوم، بمحض الصدفة. فقد جاء رجل وامرأة لزيارتهم وجلسا مع والدَي سلمان في غرفة الجلوس. شعر سلمان بالملل لأنه لم يحضر مع الزائرين صبي في عمره يلعب معه، فصعد إلى غرفته التي يمكنه أن يتسلّل منها إلى حديقة البيت من دون أن يراه أحد. وكعادته، قرّر أن يختبئ في المخبأ الذي صنعه لنفسه - خيمة صغيرة مثل خيام الهنود الحمر نصبها أمام تلك الغرفة في الحديقة. وقد صمم سلمان وقتها مخزناً سرياً في الخيمة يحتفظ فيه بمرطبانات من الفستق والشوكولاتة مغلقة بإحكام كي لا تمسها الفئران. في ذلك اليوم رأى أمّه تخرج من البيت مع صديق أبيه بسرعة ويدخلان إلى تلك الغرفة في الحديقة.

قبّلته وأغلقت الباب وراءها. ساد الهدوء ساعتها في الحديقة، فاستطاع أن يسمع لهاث أمّه، لكنه لم يسمع أي صوت من الرجل. بعد ربع ساعة، خرجت أمّه، سوّت ثوبها وعادت إلى البيت. وبعد دقائق، خرج الرجل وأشعل سيجارة، ثم دخل إلى البيت.

دأب صديق والده هذا على زيارتهم آنذاك مرّة كلّ أسبوع تقريباً. وبينما كانت زوجته تنهمك في حديث مهذب، حتى لو كان سخيفاً، مع والد سلمان في غرفة الجلوس، كانت صوفيا تنسلّ إلى الغرفة في حديقة البيت لتلتقي بعشيقها ذلك اللقاء الرومانسي. استمر ذلك حتى ثار جدل حاد بين والدَي سلمان، ولم يعد الرجل وزوجته يأتيان لزيارتهما.

«هل أعجبتك؟» أعاده صوت صاحب المطعم إلى الحاضر.

«نعم، بالتأكيد، لكن كلّ شيء فيها تغيّر كثيراً»، قال سلمان، ثمّ شكر مضيفه على الشاي وغادر. عندما خرج إلى الشارع، لم يعرف ماذا يفعل، واعتراه شعور بالدوار. سار إلى الشارع التالي حتى وصل إلى مدرسته السابقة. تناهت إليه أصوات التلاميذ الصاخبة من باحة المدرسة أثناء استراحة بعد الظهر. بعد التأميم، غيّرت الدولة اسم المدرسة العازرية وأطلقت عليها اسم *الخليفة المنصور*.

لم يعد الأب ميشيل أبو كسم، المعلّم وابن عمه الذي أحبّه سلمان كثيراً، والذي طُرد من المدرسة ثلاث مرات، يدرّس في هذه المدرسة، وانتقل إلى مقرّ البطريركية.

بدافع اللباقة، أراد سلمان أن يدعو القسّ إلى العشاء. عندما اتصل به، قال له مساعده إنّ الأب أبو كسم سافر مع البطريرك في رحلة قصيرة إلى لبنان، فطلب منه سلمان أن ينقل إليه تحياته ويقول له إنه يودّ أن يراه عندما يعود لأن سلمان لن يمكث في دمشق أكثر من أسبوعين سيعود بعدها إلى روما.

واصل سيره حتى وصل إلى الشارع الرئيسي، باب توما، وراح يسير في الحيّ المسيحي بخطوات بطيئة. لم يلاحظ أن تغييراً كبيراً طرأ على بيوت هذا الحيّ، وإنما ازداد ضجيجاً وبهرجة، وكثرت فيه المحلات التي يبيع معظمها أدوات منزلية بلاستيكية رخيصة.

عندما عاد إلى البيت وقت الغداء، أخبرته أمّه أن عدداً آخر من الأصدقاء والأقرباء سيأتون هذا المساء للترحيب به. تناول الكفتة المفضّلة لديه التي أعدّتها له أمّه، وشرب قليلاً من النبيذ الأحمر الجيد. ثم هاتف باولو، وقال له إنه اشتاق إليه كثيراً. لم يمكنه الحديث مع ستيلا لأنها كانت تلقي آنذاك محاضرة في مؤتمر يضم خبراء السموم في روما.

تأثّر سلمان كثيراً بحديثه مع باولو. في تلك اللحظة، تملكته رغبة قوية في أن يركب الطائرة ويعود إلى روما على الفور. أحسّ بخواء يسري في جسده حتى أُغمضت عيناه.

غرابة الأقارب

عند الساعة الثالثة بعد الظهر، نقرت أمّه على باب غرفته نقرات خفيفة وسألته إن كان يريد أن يشرب القهوة. تناهت إليه أصوات ضحكات عالية، فارتدى ثيابه على عجل وخرج للقاء الضيوف. على الفور، عرف خالته تقلا التي تصغر أمّه بخمس سنوات والتي تشبهها إلى درجة كبيرة. بعد تردد للحظة، عرف منى، زوجة طارق، ابن خالته الذي يحبّه كثيراً، تقف بجانبها صبيّة بدا أنها ابنتها، سميرة. «مستحيل»، صاح سلمان متفاجئاً وطبع قبلة ودودة على خدّها، «لقد حملتك على كتفي في أرجاء روما. ألا تذكرين؟»

«كيف أنسى يا عمّي؟» قالت وعانقته وبكت من الفرح، وسرعان

ما انضمت إليها أمّها في البكاء. فقد كانت سميرة ووالداها ممتنين لسلمان الذي دفع جميع تكاليف المستشفى لعلاجها قبل عشرين سنة. كانت سميرة في السابعة من عمرها عندما كُسرت ساقها وذراعها وعظمتا الترقوة في حادث باص، ولم تُعالج بشكل صحيح في المستشفى في دمشق، فبدأت تعرج على قدمها ولم يبارحها الألم، فطلبت صوفيا من ابنها سلمان أن يساعد على علاجها في إيطاليا. وبما أن والدَي سميرة لم يملكا تكاليف علاجها، دفع والد سلمان ثمن تذكرة الطائرة، وسدد سلمان تكاليف العملية الجراحية. وبعد مدة قصيرة، عادت سميرة تقفز، سعيدة، موفورة الصحة.

«هذا ليس وقت البكاء»، قالت صوفيا.

«أين والدك؟ هل هو على ما يرام؟» سألها سلمان، فأومأت وجففت دموعها، وقالت: «سيأتي هذا المساء».

«وأخوك أمير، هل سيأتي أيضاً؟»

فقالت سميرة، «لا، للأسف - إنه يعمل في الكويت منذ سنة»، وأضافت، «لكنه سيتصل بك هذا المساء ليهنئك على عودتك بالسلامة». لم تذكّر صوفيا ابنها أنها قالت له عدّة مرات إن أمير يعمل حالياً في الكويت.

لاحظ سلمان امرأة ذات شعر أسود في بداية الأربعينات من عمرها تنظر إليه بإعجاب. «ومن يمكن أن تكوني؟» سألها باهتمام شديد.

«أنا ابنة خالتك ماريا»، قالت بشيء من الخجل، بصوت مرتعش، لكنه دافئ.

«لا تقل لي إنك لم تسمع قط عن أصغر بناتي؟» قالت خالته مازحة.

«نعم، طبعاً، لكّنها ولدت في السنة التي سافرت فيها. انتظري لحظة، لقد ولدتِ في الصيف، أليس كذلك؟ سمعت خبر ولادتك عندما كنت في بيروت آنذاك».

«نعم، صحيح. كان ذلك في شهر تموز»، قالت ماريا وضحكت.

«وتزوجتِ صبحي منذ حوالي عشر سنين الذي يعمل صيدلانياً في السعودية. أليس كذلك؟»

ابتسمت له، ممتلئة بالفخر. قبّلها على خدّها وعانقته. كانت تفوح منها رائحة زهر الليمون.

ما فاجأ سلمان أن والده لم يطفئ التلفزيون مع أنهم أصبحوا في منتصف السهرة. وصادف أن أحدهم أطفأه، فعادت أمّه وشغّلته كما لو كانت تسير في نومها.

ثم انسحب أبوه من كلّ هذه الجلبة، وجلس في غرفة النوم في كرسيه بجانب النافذة، وراح يحلّ لعبة كلمات متقاطعة.

«ألا تريد قهوة؟» سأله سلمان.

فأجاب، «نادراً ما أشرب القهوة، ولا أشربها أبداً في لقاءات السيدات هذه».

غريب في بيته

قرّر سلمان أن يتلفن لستيلا. نظر إلى ساعته. فهي تعمل حتى الثالثة بعد الظهر أيام الإثنين، وقد يكون المؤتمر قد انتهى. نهض وخرج من غرفة والديه. في الممر رأى ماريا تحمل صحناً كبيراً مليئاً بالبقدونس.

«لماذا كلّ هذا؟ هل ستعلفين خروفاً؟»

فقالت ضاحكة، «إنه من أجل التبولة». ذكّرته بالممثلة كلوديا كاردينالي عندما كانت شابة في السبعينات.

عندما اتصل بستيلا، أمطرته بوابل من الأخبار حول ظهورها في المؤتمر، وأخبرته بأنها أبرمت عقداً لإجراء بحث جديد، وعندما سألته عن أحواله وعن دمشق، أجابها سلمان، «أكل، أكل، ومزيد من الأكل».

«كان بإمكانك أن تفعل هذا هنا، *amore*».

ظلّ الضيوف يتدفقون. توقّف سلمان عن عدّهم عند الرقم ثمانية وثلاثين. وكما بمعجزة، وجد جميع الضيوف أماكن يجلسون فيها، ويأكلون. رحّبوا جميعاً بسلمان وهنأوه على عودته بالسلامة، وعانقوه، وقبّلوه، وقرصوه، وربّتوا على ظهره. في البداية، لم يعرف الكثير من أقاربه. وجاء أيضاً بعض أصدقائه السياسيين، اثنان منهم، جوزيف صموئيل وأحمد حريري، اللذان شاركاه في القتال في الجبال، لكنهما سرعان ما ألقيا السلاح. وأما محمود بردوني وجرجي صيرفي فقد أُسِرا في أثناء القتال وخرجا من السجن بعد سنوات من التعذيب. كانوا كلّهم قد بلغوا سنّ التقاعد، وأصبح معظمهم أغنياء الآن.

أثناء هذا اللقاء قلق سلمان على رفيقه في النضال هاني الذي صُدم عندما رآه أول مرة. فقد جلس مكتئباً وساهماً طوال الوقت. وكان الجميع يتهامسون فيما بينهم بأنه فقد عقله تحت التعذيب. عندما دخل إلى المطبخ، أكّدت له أمّه أنّ هاني خضع في العصفورية، مركز ومستشفى الأمراض العقلية، للعلاج النفسي مرات عديدة، وتساءلت لماذا لم تأت زوجته معه التي قالت عنها، «إنها امرأة ذكية، قديرة. ولولاها لأفلس المقهى الذي يديرانه معاً منذ زمن».

تعرّف سلمان على هاني عندما كانا يقاتلان في الجبال، وسرعان ما توطّدت عرى الصداقة بينهما. وعندما تفرّق المقاتلون بعد الهجوم العنيف الذي شنّه الجيش عليهم، نُشرت صور سلمان وهاني في كل أرجاء البلاد كمطلوبين، ومنذ ذلك الحين، لم يسمع سلمان عنه شيئاً.

عندما سافر سلمان إلى إيطاليا، أخبرته أمّه أن هاني جاء لزيارتها وسأل عنه، وأعطاها عنوانه ورقم هاتفه. وعندما هاتفه سلمان، قال له إنه أُطلق سراحه بعد أن أمضى عشر سنوات في السجن، وأخبره أنه لم يعد يعمل في السياسة، وأصبح يدير الآن مع زوجته مقهى صغيراً في المدينة الجديدة، بجانب سينما الكندي. ظلّ الصديقان يتحدّثان على الهاتف ويتبادلان الرسائل بشكل دائم، ثم بدأت وتيرة ذلك تخفّ حتى أصبحا يتبادلان رسالة أو بطاقة بريدية واحدة في عيد الميلاد - لكن سلمان ظلّ يعتبره صديقاً عزيزاً. وها هو هاني الآن، يجلس وقد اختفى أي أثر لروحه المرحة ودماثته القديمة، ولم يكلّم أيّاً من رفاقه السابقين، ثم غادر بعد قليل.

كانت خالته وبناتها هنّ اللاتي أدخلن البهجة والمرح على السهرة. كنّ يفعلن كلّ شيء حتى أن أمّه لم تضطر لعمل أي شيء سوى أن تجلس بتباهٍ بجانب ابنها. ثم اتصل به أمير من بيته في الكويت وقال له إنه سعيد جداً لأنه استطاع أن يكلّم سلمان في دمشق.

من باب المجاملة، شارك أبوه المدعوين طعام العشاء، لكنّه لم يقل طوال الوقت كلمة واحدة، تناول قليلاً من الطعام، وفي الساعة التاسعة تقريباً، اعتذر من الحاضرين وقال إنه يجب أن يتناول دواءه، وسينام بعد ذلك. كان اهتمام والده في تلك الأمسية منصبّاً على الترحيب بالضيوف أكثر من اهتمامه بهم شخصياً. لكن عدم مبالاة

أبيه أزعج سلمان كثيراً. فطالما ألحّ على سلمان أن يأتي إلى دمشق، وكرر على أسماعه هذه الأمنية طوال أربعين سنة، لكن يبدو أن فرحته برؤية ابنه تلاشت بعد أربع وعشرين ساعة من وصوله. لكن صوفيا هدأت من غضب سلمان، وقالت إن والده ازداد ضعفاً مؤخراً، وإنه يحبّه ويفتخر به كثيراً لأنه استطاع أن يشقّ طريقه ويرتقي بعصاميته من بدايات متواضعة في بلد أجنبي. ولاحظ سلمان أن أحداً من الضيوف لم يأبه لعدم وجود ربّ الأسرة وواصل الجميع سهرتهم واحتفالهم البهيج. وبين الحين والآخر، كان أحدهم يرفع كأس النبيذ أو العرق، ويقول: «بصحة سلمان وعودته بالسلامة».

بعد العشاء، نظّفت النسوة المائدة، وغادر بعض الزوار الذين تقع بيوتهم في مناطق بعيدة، وبقي آخرون حتى بعد منتصف الليل. ضحكت صوفيا عندما أعرب سلمان عن قلقه بأن ضيوفهم قد يزعجون الجيران بأصواتهم العالية وضجيجهم، وقالت: «هذه هي دمشق. فالشارع كلّه يعرف ماذا يجري هنا ويحتفل معنا»، قالتها ببساطة متناهية وكأن ذلك أكثر شيء طبيعي في العالم.

لم يتوقّف الزوّار عن المجيء في اليوم التالي، وفي اليوم الذي تلاه. كانوا يأتون غالباً بعد السابعة مساء، ويغادر آخر زائر بعد منتصف الليل. بدأ الملل يعتري سلمان في هذه السهرات، لكن السنوات التي أمضاها في أوروبا لم تمح لباقته وحسن ضيافته الشامية. فعلى الرغم من أنه زائر، يجب أن يقوم في بيت والديه بدور المضيف أيضاً. ففي سوريا، يُكرّم الضيف ويُحترم كأنه قدّيس. فقد علّمته أمّه منذ أن كان صغيراً «إذا شعر الضيف بالراحة في بيتك، فإنه سيبارك بيتك في قلبه». بالإضافة إلى ذلك، فقد تعلّم في أوروبا أن يتثاءب وفمه مغلق. وأن يخفي شعوره بالملل، فلم يلحظ أحد ذلك في تلك الليالي إلّا أمّه.

قبل أن يأوي إلى الفراش، كان يقول لنفسه إنه إذا جاء مرة أخرى إلى دمشق مع ستيلا وباولو، فإنه سيمضي الليلة الأولى فقط في بيت والديه، ثم سيتجول في أرجاء البلاد وينزل في فندق مع أعزّ شخصين على قلبه، وسيُريهما بلده الجميل ويأخذهما إلى المطاعم الجيدة - المطاعم الشعبية التي لا يرتادها عادة أناس وسيّاح كثيرون. وقال في نفسه إن ستيلا ستُعجب بالطريقة التي سيستقبلهما بها أصحاب المطاعم. «نعم، إنك تدين لي بذلك، على أقل تقدير»، قالت له ستيلا على الهاتف ضاحكة، عندما وعدها بأنّه سيصبح الدليل السياحي لها ولباولو في دمشق ذات يوم.

دُهش سلمان عندما أبدى بعض الزوار استغرابهم بأن ستيلا وباولو لم يأتيا معه، مع أن أمّه أخبرتهم منذ أشهر بأنه سيأتي وحده. وأطلقوا على الصبي اسم «بولص» على اسم مؤسس الكنيسة باللغة العربية، كما لو أنهم لا يريدون أن يعترفوا بأن باولو هو، أولاً وأخيراً، فتى إيطالي.

سأل الأصدقاء والأقرباء سلمان عن كل شيء، وكان يتحاشى الإجابة عن السؤال لماذا لم يزر البلد قبل الآن. وقد أعدّ مسبقاً عدّة إجابات عن هذا السؤال كي لا يتعرض لأيّ مشكلة في حال وجود مخبر بين الضيوف. لكن أحداً لم يسأله ذلك. ووجد سلمان أن نزعة الرقابة الذاتية بين السوريين أقوى بكثير مما كان يتوقّع. فقد يُفسّر حتى أيّ سؤال حول منفاه بأنه انتقاد للأوضاع في سوريا التي جعلته يهرب منها.

عندما غادر آخر ضيف بيت والديه ودخل سلمان إلى غرفته. لم يستطع النوم بالرغم من شعوره بالإرهاق. فقد أثار الضيوف إزعاجه، وبدأ يشعر بأنه غريب هنا. فعلى الرغم من أنهم كانوا في غاية التهذيب وودودين إلى درجة كبيرة، ولا يتوانون عن تقديم أي

مساعدة - فقد كانوا مُتعبين أيضاً لهذه الأسباب بالذات. لاحظ كيف أن الحرية الأوروبية أفسدته. فعلى الرغم من السعادة البادية على وجوه والديه وأقاربه وأصدقائه، لم يكونوا أحراراً هنا، يتحدثون عن أشياء كثيرة لإخفاء ما لا يستطيعون قوله. وحتى أثناء النهار، لم يجد في دمشق الهدوء الذي يريده لأن أحداً لم يكن يدعه وشأنه. إذ يسود الاعتقاد بأن الشخص الذي يعيش وحيداً ويختار العزلة، إمّا أنه مريض، وإمّا أنه يعاني من مشاكل نفسية، وإمّا أنه شخص انطوائي أو بخيل. وبدأ سلمان يدرك مدى التغيير الذي طرأ عليه. فاعتبر الأمور التي تثير اهتمام ضيوفه سطحية ومملة، أما الأشياء التي كان يرى أنها هامة، فكانوا يعتبرونها أموراً أو آراء سخيفة وطائشة، بل حتى طفولية. وكان كلّ طرف يتحمّل الطرف الآخر بإبداء لطافة سطحية، أما في أعماقهم، فكان كلّ واحد منهم يجد أن الآخر شخص لا يطاق.

أما أصدقاؤه القدامى الذين دأبوا على زيارته يومياً، ما عدا هاني، فهم بلا شك أذكياء لكنهم مملّون أيضاً، لأنهم يستخدمون ذكاءهم بصورة رئيسية لإخفاء عدم رضاهم وشعورهم بالامتعاض. أما هاني فلم يزره كثيراً، وعندما كان يأتي، يلبث صامتاً معظم الوقت، وإذا قال شيئاً، كان يقوله بتهكّم مليء بالمرارة. وكان جلّ همه يتركز على جمع أكبر قدر من المال لينتقم - كيف ومَن - لم يعرف سلمان قط. «ربما استطاع أن يفعل ذلك لو سطا على بنك»، قال أبوه مازحاً، «لكن عليه أن يستخدم مسدّس ماء»، أضاف جوزيف صموئيل، رفيق السلاح السابق لسلمان وهاني، فضحك الجميع. نظر هاني إلى جوزيف نظرة مليئة بالغضب أسكتته. لكن سلمان وجد أن فكرة قيام هاني العصابي بسرقة بنك سخيفة للغاية وليست موضوع مزاح.

لكن الرغبة في جمع مبالغ كبيرة بسرعة، إذا استطاعوا ذلك من دون أن يبذلوا أي جهد، كانت تستحوذ على الجميع. فالعشيرة الحاكمة قدوة في ذلك ويريد الجميع أن يحذوا حذوها سرّاً: فقد أصبح فلاحو الأمس المعدمون أصحاب البلايين اليوم.

لاحظ سلمان أن أحد زواره الذي ازداد فقراً، ازدادت آراؤه عن أوروبا جموحاً وجنوناً. قال سلمان في نفسه إن الفقر أفضل سماد للمخيّلة. وعندما كان أحد أقارب سلمان، أو أحد زملائه السابقين في المدرسة، يسخر أحياناً، بدافع الغيرة المحضة، من كلّ ما أنجزه سلمان، كان التهذيب وحسن الضيافة يرغمانه على أن يتمالك نفسه ويظلّ صامتاً. لكنّ أكثر ما كان يزعجه، عندما يدّعي أحدهم ممن لم تطأ قدمه متراً واحداً خارج الحارة التي يعيش فيها بأنه يعرف روما وإيطاليا والإيطاليين أكثر مما يعرفهم سلمان نفسه.

في أحيان كثيرة، كانت أمّه تشعر متى يتضايق سلمان من هؤلاء المتبجحين عندما يبتسم لها تلك الابتسامة الملتوية. كانت السعادة تغمرها لأن ابنها الذكي أتقن خلال يومين أو ثلاثة أيام، قواعد اللعبة المعقّدة لكي يظهر مهذباً أمام هؤلاء الأغبياء. لا يوجد أحد يفهمه أكثر من أمّه التي كانت تطلب منه قبل أن يأتي أحد من الضيوف أن يحافظ على هدوئه وعلى لباقته وألّا يبدي غضبه إذا أبدى أحد ملاحظة غبية، لأنه سيعود إلى روما قريباً. أما إذا خلع قناع المضيف المهذب عن وجهه، فإن والديه سيعانيان من السمعة السيئة التي سيتركها وراءه.

وكما تغيّرت قيم الدمشقيين وأسلوب حياتهم، فقد تغيّرت لغتهم أيضاً. فقد أصبحت كلمة «أمن» - التي لم تكن تنطوي على معنى سيّئ في الماضي - مرادفة لفروع المخابرات الفظيعة المليئة بالخوف وإرهاب الدولة - وقالت له أمّه، «إن كلمة كاتب التي تعني مؤلف،

وعبارة «له خطّ جميل» التي تعني أن المرء خطاط، أصبحتا تعنيان في أيامنا هذه أن هذا الشخص مخبر ويكتب تقارير للمخابرات».

أحبّ سلمان دمشق في النهار. كان يستقلّ الباص أحياناً ويجوب أرجاء المدينة، ينصت إلى أحاديث الركاب من حوله، ويحاول أن يختلس النظر من تحت الستارة غير المرئية التي يحاول الركاب الآخرون أن يموّهوا بها ما يقولونه. أما المساء فيصبح عذاباً حقيقياً بالنسبة له، لأنه يسمع كمضيف نفس الأحاديث تتكرر. وذات مساء، نهرت صوفيا بتهذيب، لكن بحزم، أحد الأقارب الذي ظلّ يردد - رغم معرفته أن زوجة سلمان إيطالية - طبعاً بعد تأكيده المرائي أن ما يقوله «فيما بيننا فقط» إن النساء الأوروبيات عاهرات، وتظاهر بأنه «يعتذر» في الوقت نفسه لصراحته الشديدة. وخلال الصمت المفاجئ الذي حلّ على الجميع، أجابته صوفيا بأنّها تعرف أنه يعاني من مشاكل مع النساء السوريات، واقترحت عليه أن يحصل على مساعدة من خبير وطبيب نفساني لحلّ مشاكله، «بعد ذلك يمكننا أن نتحدّث عن الأوروبيات معاً». فضحك الضيوف، ولم يجرؤ هذا الرجل المليء بالعقد على الردّ لأنها امرأة متقدّمة في السنّ، ثم نهض وغادر. فأومأ سلمان لأمّه يشكرها. وشيئاً فشيئاً، بدأ يفهم أن والده لم ينسحب كل مساء من تلك السهرات لأنه يكره هؤلاء الناس، وإنما لأنه لم يتحملهم، فيهرب منهم متذرعاً بمرضه، وعندما صارحه سلمان بذلك، ابتسم لابنه بخبث، وهزّ رأسه.

«يوسف، أنت ثعلب ذكي عجوز»، قال سلمان لأبيه وقبّله برقّة على جبينه. فعانقه أبوه وقال: «أنا لست ذكياً، لكنني تحمّلت ضجراً ومللاً في حياتي يكفيني لمئة سنة، وأظن أنّني أستطيع الآن أن أوفر ذلك على نفسي في الخمس عشرة سنة القادمة»، ولمعت عيناه بهجة.

كيف يمكن للبعد أن يزيل الهموم

«ما الذي جرى في هذا البلد؟» تساءل سلمان في تلك الليلة بعد تلك الحادثة الصغيرة. فعلى الرغم من أن الضيوف يبدون في غاية الودّ والتهذيب، لم يكترث أحد منهم لما قاله الضيف الذي أهان سلمان بشتيمته الموجهة للنساء الأوروبيات مع علمه الأكيد أن زوجة سلمان الوفية إيطالية. وكانت قلة ذوق كهذه تحدث مساء كلّ يوم تقريباً. فيبدأ أحد الجيران أو الأصدقاء أو الأقارب بذمّ السوريين الذين يغادرون بلدهم ويتركونه في محنته، ويصبحون أغنياء خارج بلدهم ويعيشون مع نساء متهتكات لا أخلاق لهن، ولا يعترض أحد على ما يقوله. وإذا تجاوز أحد حدوده، كانت صوفيا تقف له بالمرصاد وتلقّنه درساً قاسياً أمام الجميع. كان لسانها الحادّ وعمرها يحميانها. فلا يُسمح لأحد أن يهين شخصاً متقدماً في السنّ.

ثمة عادات وتقاليد تشكّلت على مدى آلاف السنين، قال سلمان لنفسه، تفرض على المضيف أن يحترم الضيف ويكرمه ويجعله يشعر بأنه مرتاح. وفي الوقت نفسه، على الضيف أن يكون مهذباً تجاه مضيفه، حتى إن بعض واجبات الضيف تجاه المضيف تصل إلى حدود الطاعة. كانت هذه العادات تحكم الحياة في الماضي كأنها قانون غير مدوّن، والكثير منها ماتت مع الزمن، لكن المشكلة أن السوريين لم يدفنوا هذه العادات لتصبح سماداً لابتكار أساليب جديدة في الحياة، وإنما تركوها تتحلل وتتعفن وظنّوا أن الرائحة الكريهة المنبعثة منها هي تقاليد جديدة. ولاحظ سلمان أن الضيوف الذين يأتون لزيارتهم فقدوا أيّ أثر للتهذيب. إذ تأتيهم مكالمات هاتفية طوال الوقت، فينهضون ويتكلّمون في الهاتف بصوت مرتفع ويذرعون الغرفة جيئة وذهاباً كما لو أن الأشخاص الآخرين ليسوا

سوى تماثيل شمع، والغرفة التي يجلسون فيها في بيت والديه ليست سوى قاعة انتظار في مطار.

في إحدى تلك الأمسيات، تصرّف أحد الضيوف كما لو أن سلمان قد ولد ونشأ في أمريكا، فردّ عليه سلمان بلطف أن عليه ألّا ينسى أنّه ولد في سوريا وتربى فيها وغادرها عندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره. لكن الرجل لم يلتفت إلى ما قاله سلمان وتابع كلامه مؤنباً سلمان بغباء عندما قال: «لا يمكنك أن تفهم ذلك لأنك لم تنشأ هنا».

لكن ماذا عن الآخرين؟ فإما أنهم تمرّسوا على اللامبالاة فهم لا ينصتون وإما أنهم منهمكون في كتابة رسائل نصيّة على هواتفهم. واعتبر سلمان أن إنكار أنه أمضى طفولته وجزءاً هاماً من شبابه في سوريا إهانة له. لكن لماذا يريدون إهانته؟ هل جعله هربه من البلد وإقامته في بلاد تسودها الحرية يمتلأون بمشاعر الكراهية أو الغيرة لأنهم لا يزالون يعيشون في ظلّ حكم ديكتاتوري، ويجبنون للاعتراف بذلك علناً؟

لم يجد إجابة شافية عن هذا السؤال.

في وقت مبكر من صباح اليوم الرابع من وصوله، بينما كان جالساً بجانب النافذة يراقب الشمس وهي تشرق، تساءل، هل يحقّ لشخص مسجون في قلعة محاصرة، أو شخص وجد نفسه في سفينة تغرق، أن يكره أو يحسد الأشخاص الذين تمكّنوا من النجاة وإنقاذ أنفسهم؟ أدرك أن الأمر كذلك. فقرر أن يظلّ محايداً وألّا يثيره غضبهم أو شعورهم بالإحباط، وذكّر نفسه بأنّه سيغادر بعد فترة قصيرة. فتملّكه شعور بالهدوء والراحة فجأة، ونام بعمق أكثر من أي وقت مضى.

في مساء اليوم التالي، أبدت أمّه دهشتها عندما رأت سلمان

هادئاً، مسترخياً، وبدأ يحكي نكاتاً للجميع، ولم يتأثّر بالملاحظات اللاذعة والأسئلة الجارحة التي وجّهها بعض الضيوف له. وفي مساء ذلك اليوم، لاحظت صوفيا أيضاً، لأول مرة، أن ابنة أختها الجميلة ماريا التي كانت تأتي كلّ يوم لتساعد في إعداد الطعام وخدمة الضيوف تبدي اهتماماً بكل كلمة يقولها سلمان وتنظر إليه بعينين مليئتين بالشغف والحنان. وشعرت صوفيا أن ماريا تستمتع بوجود جميع هؤلاء الضيوف والقيام على خدمتهم الأمر الذي يجعلها لا تشعر بالملل كما لو بقيت وحدها في بيتها الواسع في غياب زوجها المسافر.

كان زوج ماريا بخيلاً ذا طبع سيّئ، يأتي إلى دمشق مرّتين في السنة لمدة أسبوع في كلّ مرة ثم يسافر. ومع أنه يعمل خبيراً كيميائياً في مصفاة بترول في السعودية ويتقاضى راتباً كبيراً، لم يكن يرسل لزوجته إلّا مبلغاً ضئيلاً. حاولت ماريا أن تعيش معه هناك، لكنّها لم تتحمل القوانين الصارمة المفروضة على النساء في السعودية فعادت إلى دمشق وبقي هناك. ومنذ ذلك الحين، بدأت العلاقة تزداد توتراً بينهما.

في الكون وفي غرفة النوم

عندما استيقظ سلمان من قيلولته بعد ظهر ذلك اليوم، كان البيت هادئاً على نحو غير معتاد. رأى والديه يجلسان قبالة التلفزيون يشاهدان مسلسلاً. «أين الآخرون؟» سألهما، وعلى الفور بدا سؤاله سخيفاً، كما لو أن أقرباءه جزء من أثاث البيت.

«سنتناول صفيحة هذا المساء، هل تتذكّرها؟» كان سلمان يحبّ هذه الأقراص الصغيرة من العجين الذي يُمدّ فوقه اللحم والتوابل والصنوبر. وأضافت، «تقلا تصرّ على أن تعدّها بنفسها اليوم لك

وللضيوف. ستعدّها مع ماريا ومنى في بيتهن، وسيخبزنها عند خباز قريب منا سيجلبها طازجة من الفرن الساعة السابعة، وسيجلبن معهن قبل ذلك كلّ أنواع المقبلات والسلطة والحلوى التي تحبّها».

عندما سألها سلمان، «كريم كراميل؟» أومأت صوفيا برأسها.

«يا إلهي، لقد أتعبتم أنفسكم كثيراً من أجلي»، قال سلمان، متأثراً بصدق.

«حاولت أمّك كثيراً أن تقنع أختها ألّا تفعل ذلك، لكنّك تعرف خالتك تقلا. فعقلها من صوان»، قاطعه أبوه وضحك.

لكزته صوفيا بلطف وقالت، «إنك تتّهمني بذلك دائماً»، قالت متذمرة، لكن صوتها بدا أكثر مرحاً.

فأجابها يوسف، «نعم، لون مختلف لكن العناد نفسه. لا بدّ أنه يجري في دم عائلتكم».

«انظر، لقد جاء المهرّج الذي تحبّه»، قالت صوفيا فجأة لزوجها وأشارت إلى شاشة التلفزيون. بدأت مذيعة تعلن عن بدء البرنامج الشعبي، «*أنت تسأل وشيخنا العالم* حسين دك *الباب يجيب*».

شيخ لحيم يجلس متربعاً أمام طاولة، ملأ حوالي ثمانين بالمئة من الشاشة، سيناقش في هذه الحلقة مسألة تدهور الأخلاق في البلدان العربية. وعلى نحو لم يثر دهشة سلمان، بدأ الرجل خطبة مسهبة عنيفة هاجم فيها النساء السافرات، وشيطن الرجال والنساء الذين يلمس أحدهم الآخر قبل الزواج. ضحك يوسف حتى دمعت عيناه على الشيخ الذي بدأ يزداد هستيرية مع كل دقيقة، حتى بدأ اللعاب يتطاير من بين شفتيه. وعندما سأله أحد المشاهدين هل الزواج من مطربة جميلة تضج أنوثة تؤمّن له نقوداً كثيرة في حياته حرام أم حلال، استشاط الشيخ غضباً، ورجم الرجل بسيل من الكلمات القاسية كالأحجار التي يُرجم بها شخص آثم.

وسأل متصل آخر لماذا يُعتبر التدخين في شهر رمضان معصية، رغم أن الدخان يدخل إلى الجسم فقط عن طريق الرئتين، لا عن طريق المعدة. فأسهب الشيخ في الشرح لكن من دون أن يجيب عن السؤال. وسأل مشاهد آخر هل الاستمناء في مركبة فضائية حرام، فشعر الشيخ بالحرج وأخذ يلفّ ويدور لأنه لا توجد جملة واحدة في كتبه تتحدّث عن الآثام التي يمكن أن ترتكب خارج مدار الأرض. وسأل مشاهد آخر هل الصلاة على سجادة صينية مقبولة إذا كان فيها بوصلة تشير إلى اتجاه مكة المكرمة. فأجاب الشيخ بسرعة «طبعاً. طبعاً»، فردّ المشاهد ببرود، «لكنّي سمعت أن هؤلاء الصينيين الكفّار يتلاعبون بالسجاجيد الصينية الرخيصة حتى أصبحت البوصلة تتّجه دائماً نحو بكين، لذلك فإني أفضّل السجاجيد التركية».

كما لو أنه بدأ يهذي، لم يهاجم الشيخ الصينيين، وإنما هاجم أسلوب حياة الأوروبيين الذي سيقودهم مباشرة إلى نار جهنم من دون الحاجة إلى بوصلة.

ضحك سلمان حتى دمعت عيناه.

«هل يفترض أن يكون هذا البرنامج مسلياً؟» سأل سلمان.

«نعم»، أجاب أبوه، «إنه رجل منافق. ففي السنة الماضية كشف صحفي أن هذا الشيخ يملك قصراً في لندن يحبس فيه زوجاته الأربع مع جيش من الخدم، وأن أبناءه الثلاثة يدرسون في أمريكا، وهو لا يكف عن القول إن الأمريكيين أعداء الإسلام مرة في الأسبوع على الأقل».

«وهل تسمح الحكومة لمثل هؤلاء الأشخاص أن يقولوا ذلك؟»

فأجابه أبوه، «نعم لأنه يكرر على مسامعنا منذ ثلاثين سنة أنّ الديكتاتور الذي يحكمنا أرسله اللّه رحمة لنا».

«الإسرائيليون يرسلون أقمارهم الاصطناعية إلى الفضاء،

ومحطات التلفزة العربية ترسل شيوخها إلى البيوت العربية على موجات الأثير»، أضافت صوفيا.

لم يُفاجأ سلمان من تعليقات أمّه اللاذعة، لكنّه تساءل حول آراء أبيه المتطرفة، إلّا أن دهشته والإعجاب الذي رافقها لم يستمرا طويلاً لأن هاتفه رنّ. إنها ستيلا. كالعادة نقل سلمان تحياتها إلى والديه ثم دخل إلى غرفته. عندما خرج بعد ساعة، سُرّ عندما رأى ابنة خالته ماريا تحمل طبق السلطة، ونسي حديثه مع أبيه في الحال.

عن غرباء قريبين وبعيدين

دأب سلمان على رفض الدعوات التي توجّه إليه لاستقبال أو زيارة أحد خلال ساعات النهار، وحتى دعوات خالته تقلا وابنتها الجميلة ماريا وأصدقائه وصديقاته السابقين له، لأنه قرر أن يخصص الفترة بين مشاركة والديه القهوة في الصباح وحتى العشاء في المساء له وحده وليعتبرها الآخرون أنانية و«ليبلّطوا البحر» إذا كانت حريته تثير حنقهم. ولم يعد يرغب في أن يعود إلى البيت عند الغداء.

كان يجوب أرجاء المدينة، يمسح شوارعها وأحياءها القديمة والجديدة، يبحث عن كلّ ما كانت دمشق تعنيه له ذات يوم. وأدرك أن المدينة القديمة فقط هي التي حافظت على جزء من سحرها كصورتها في ذاكرته، أما ما تبقى من المدينة فلم يكن سوى تضخم عشوائي يعيش فيه أكثر من خمسة ملايين نسمة من سكان المدينة بالإضافة إلى الذين يرتادونها أثناء النهار ويعودون إلى قراهم في محيط العاصمة.

صُدم سلمان عندما رأى أن كلّ شيء - الشوارع والبيوت والأبواب والنوافذ، حتى معارفه وأقاربه - أصبح أصغر وأضيق

وأكثر ظلمة مما يتذكّر، وتساءل هل الذاكرة هي التي جعلت كلّ شيء يبدو أكبر وأخفّ وأكثر توهجاً وشاعرية.

في الأيام القليلة الأولى، ظنّ أنّه يستطيع أن يذهب إلى أي مكان ويتحدّث إلى أي شخص يريد. ربما كانت المخابرات تراقبه أينما ذهب. لا بدّ أن لديهم «ظلالاً» ذكية. لم يستطع سلمان، رغم تجربته الطويلة في التخفي والعمل السري، أن يكشف أي واحد من أولئك المخبرين الذين لازموا خطواته كظله.

صار يعود إلى البيت بعد الظهر، يستلقي ساعة، ثم يشرب قهوة ثقيلة مع والديه، ويمضي وقتاً طويلاً على الهاتف مع ستيلا وباولو، ثم يتصفّح الصحف والمجلات الرخيصة التي يبدو أن والده يشتريها بكثرة. ومن حين لآخر، كان يلتقي ببعض زملاء الدراسة والأصدقاء القدامى في مقهى أو حانة. ولاحظ سلمان أن جميع أصدقائه يتحاشون الخوض في الحديث عمّا يجري في البلد، لا بل بدا له أنهم لا يبالون بما يجري، ولاحظ أيضاً أن لكلّ واحد منهم وجهَين. فعندما يتكلمون مع أصدقائهم أو أقاربهم، فإنهم يتحاشون التحدّث عن موضوعات قد تعرّض سلامتهم للخطر، وهي في الحقيقة قليلة جداً، لكنهم كانوا يتكلّمون بصراحة أكبر وينتقدون الأوضاع عندما يتحدّثون معه، لأنهم على يقين أنه سيغادر البلد قريباً. وأدرك أنهم لذلك يطمئنون إليه ولا يشكّون فيه، يحدّثونه بشيء من الصراحة. أحسّ بخيبة أمل وشعر أن رفاقه السابقين أصبحوا غرباء بالنسبة له.

أُعجب سلمان بدماثة أسرة خالته تقلا ولطافتها. ونقل لستيلا انطباعاته الجميلة عن هذه الأسرة اللطيفة المفعمة بالحيوية التي حافظت على وفائها له - لم يقتصر هذا اللطف على ابن خالته طارق وزوجته منى وابنتهما الذكية سميرة فحسب، وإنما شمل خالته تقلا أيضاً التي بدت له في البداية امرأة مهادنة، لكنه سرعان ما اكتشف

أنها سيدة عجوز تتحلّى بالشجاعة وخفة الظل. ورأى أن ابنة خالته ماريا التي كانت تأتي مساء كلّ يوم، مع أنها تقيم في حيّ بعيد، وردة الأسرة.

لم تكن سميرة تأتي إلّا نادراً. لأن طفليها يشغلان كلّ وقتها. فإلى جانب الطفلين، صار زوجها، بالرغم من دماثته «الطفل الثالث» كما تسميه تقلا ساخرة لأنه ليس ناضجاً عقلياً على الإطلاق.

كانت الخالة تقلا تأتي مساء كلّ يوم، ترتدي تحت معطفها الخارجي ثوباً بيتياً بسيطاً ملوناً كما تفعل أمّه - مثل آلاف الأمهات العربيات والإيطاليات - وتساعد في الطهي وتقديم الطعام للضيوف كأنها تعمل في مطعم. قالت له: «اشتقت إليك. لقد غبت عنّا كلّ هذه السنوات، لذلك، سأعوّض عن تلك السنوات وسآتي لأراك كلّ يوم»، فتأثّر سلمان من كلامها وعانقها، وقال: «وأنا أعتبرك دائماً أمّي الثانية». مسحت الخالة تقلا الدموع التي ترقرقت في عينيها وعانقته بحرارة.

«يجب أن نراك كلّ يوم عن كلّ سنة غبت فيها»، قالت ماريا.

«بحق اللّه، كم سنة يجب أن أبقى هنا؟ ستفلس شركتي وستطلّقني زوجتي»، أجاب سلمان، وقبّل جبين خالته وهو يضحك.

فقالت ماريا مؤكدة كلام أمها، «امرأة ذات عقل راجح لا تستطيع أن تترك رجلاً مثلك».

«أشعر بالإطراء عندما تراني زهرة شابة بين النساء مثلك محبوباً. لكن عليّ أن أعود إلى بيتي في عيد الميلاد - لأن ستيلا تدعو جميع أقاربها لنحتفل معاً. فالإيطاليون يعتبرون عيد الميلاد مناسبة كبيرة، وفي عشية السنة الجديدة، يزورنا جميع أصدقائنا الذين يستمتعون بتناول مأكولاتنا العربية الشهية». لكنه لم يخبرها بصدق أنه يفضّل أن يعود إلى روما هذا المساء.

ثمن الحبّ

من عاش بوجهين
مات لا وجه له.
حكمة عربية

دمشق، خريف ٢٠٠٥

كانت أمل، صديقة عايدة منذ أيام المدرسة، امرأة رائعة. ومع أن زواجها فشل فشلاً ذريعاً وتعيش وحدها منذ عشرات السنين، لم تفقد الأمل قط. وكانت تردد دائماً، «اليأس ترف لا أملكه».

في أحد الأيام في شهر أيلول، دعت أمل عايدة لحضور لقاء اجتماعي. مجموعة من الرجال والنساء يجتمعون مرّة في الشهر يطلقون على أنفسهم اسم «الغيريّين». أخبرتها أمل أنها انضمت إلى هذه المجموعة منذ شهرين، وهم أشخاص مثاليون سلميون يلتقون، يغنون ويتناولون الطعام معاً ويتبادلون الأحاديث فيما بينهم. وهي لقاءات تسمح بها الدولة، لذلك دعت أمل عايدة إلى أحد هذه اللقاءات الذي سيُعقد هذه المرّة في بيت يقع بالقرب من الدرج في حيّ باب توما، وطلبت منها أن تحضر معها العود.

رحّبت عايدة بدعوة صديقتها. اشتاقت للتعرف على أناس من خارج الحي الذي تقيم فيه. فمع أن جيرانها كانوا أناساً لطيفين

وطيبين، لم تشعر بأيّ رغبة في أن تتواصل معهم، وكانت تشعر أحياناً بعزلة مريرة.

كانت أمل امرأة نحيفة، نشيطة، ذات عينين خضراوين جميلتين وشعر أحمر، تعود صداقتها بعايدة إلى أيام الطفولة، وكانت تفضي إحداهما للأخرى بأشياء لا تبوحان بها لأيّ شخص آخر. ومع أن أمل في عمر عايدة، فقد كانت تسبقها دائماً في بعض الأمور، بما فيها الأمور المتعلقة بالحبّ. فقد قالت لعايدة وهي في الثامنة من عمرها، إنها تخاف من الكلاب والجرذان ومن كلمة «حبّ» لأنها عوقبت بشدة لأنها أحبّت.

كان والد أمل حبّها الأول. رجل طويل القامة، وسيم، ضابط في الشرطة برتبة عالية. ومنذ أن كانت في السابعة من عمرها، أُغرمت بأبيها، وكانت تتوق لأن يضمّها بين ذراعيه، لكنّه لم يلمسها أو يقبّلها قط. وعندما يعود إلى البيت، كان ترقص حوله راجية أن يضمها إليه. وفي غفلة منه، كانت تقفز إلى حضنه لتصبح قريبة منه. وكلّما فعلت ذلك، عبّر أبوها عن امتعاضه، فيرفع يديه باشمئزاز كما لو أنها مليئة بالأوساخ. لم يكن يقل لها شيئاً، لكن عينيه كانتا تقولان مجلدات. لماذا تفعلين ذلك؟ ماذا تريدين منّي؟ بعد فترة طويلة، لاحظ الدافع الذي يجعل ابنته تفعل ذلك. ففي أحد الأيام، أخذت يده ووضعتها على صدرها لتريه أن قلبها يخفق. كانت تلك هي القشّة التي قصمت ظهر البعير. فأوسعها ضرباً حتى تدخلت أمّها وتوسلت إليه أن يرحم ابنتهما. في اليوم التالي، قالت أمل لعايدة، «لن أحبّ أحداً طوال حياتي. مرة واحدة تكفي. كلّ عظمة في جسدي تؤلمني». كانت الكدمات تغطي جسدها.

بعد سنتين قالت لها أمّها إن الحبّ لم يُخلق لإيذاء الآخرين وإنما لنشر البهجة، وقالت إن والدها لم يلمسها قط، وهي زوجته،

وأضافت، «وقد يعود ذلك إلى أيام طفولته. فهو يحبّ النظام كثيراً، والنظام عكس الحبّ تماماً».

كانت سعيدة، والدة أمل، امرأة رشيقة، حيوية، ذات عينين خضراوين وشعر أحمر كأنها من أصل إيرلندي. لم تكن تحبّ زوجها لأنه فظّ وبخيل. وكانت تعشق جارها حليم، سائق الباص. لم تكن والدة أمل الوحيدة التي أحبّت هذا الجار ذا الصوت الرجولي الدافئ، وإنما وقعت جميع الجارات في غرامه. وتحمّلت زوجته النظرات الشهوانية في عيون جاراتها ومغامراته مع عدة نساء بصبر وصمت، كأنها من سلالة الزواحف.

كان حليم يمارس الحب مع سعيدة في معظم الأحيان في غرفة فوق سطح بيتها الملاصق لبيته. كان يتسلل إلى سطح بيته وبقفزة صغيرة يصبح على سطح بيت سعيدة وإلى الغرفة التي يطلق عليها الدمشقيون اسم «غرفة كراكيش»، وهي الأشياء والأغراض المنزلية التي لم تعد تستعمل وتُلقى بشكل عشوائي في تلك الغرفة الصغيرة. وتُستخدم الكلمة أيضاً كتعليق ساخر على كلّ ما يقتنيه الأطفال ويجمعونه في غرفهم. كان العاشقان يلتقيان دائماً عندما يسافر والد أمل في مهمة رسمية. كانت سعيدة تمدّ بمهارة فرشة قديمة بين تلك الأغراض تضع فوقها قبل كلّ لقاء غطاء نظيفاً ناصع البياض.

في إحدى الليالي، استيقظت أمل بعد حلم مزعج، وبحثت عن أمّها في أرجاء البيت. عندما لم تجدها، صعدت الدرج المؤدي إلى السطح. وقبل أن تتسلل إلى السطح سمعت تأوهات أمها وتنهداتها التي تعبّر عن شعورها. خطت أمل بضع خطوات صغيرة على السطح ورأت في الظلام المحيط بها أمها مستلقية تحت حليم الذي كان يرهزها كأنهما يتعاركان. شمعة صغيرة كانت تضيء الغرفة وقد وضعت أمّها مزهرية فيها أزهار مصنوعة من ورق على كرسي بثلاث

أرجل. ثم سمعتهما بعد قليل يتأوهان بقوة ثم استرخى حليم واستلقى بجانب أمّها، وأخذا يضحكان معاً. كان يقبّلها ويدغدغها فتضحك أكثر.

كان هذان العاشقان يلتقيان كلّ ليلة عندما يسافر والد أمل. تمنّت أمل أن يكون حليم، هذا الرجل الرقيق والمحب، والدها.

من خلال مراقبتها هذه، أصبح بإمكان أمل أن تفسّر لصديقتها عايدة مصدر وسبب الأصوات والتنهدات التي كانت عايدة تسمعها من وراء الجدار الذي يفصل بين غرفتها وغرفة نوم والديها.

بعد سنوات، اكتشفت أمل أن لغة والدتها كانت تنطوي على معنيين اثنين عندما تتحدّث مع والدها. فعندما يقول لها مثلاً: «النبيذ الذي اشتريته لي لا طعم له»، تجيبه أمّها، «صحيح؟ أنا آسفة جداً. لقد غشني البائع»، لكنها كانت تعني في الحقيقة، «أنت تجهل أبسط الأشياء أيها الغبي، فهذا النبيذ من أفضل الأنواع لأن حليم الخبير بالمشروبات هو الذي اشتراه، لكن ما يزعجك هو ثمنه الغالي. فلو كان رخيصاً لرقصت طرباً أيها الشحيح».

وعندما يعود من السفر، ويقول لها: «لنذهب ونزور أختي»، لأنه يحبّ أخته حتى العبادة، كانت تجيبه سعيدة، أمّ أمل، بدهاء: «آسفة يا عزيزي. أرجو أن تذهب وتزورها وحدك لأنني لم أنم طوال الليل حزناً على غيابك وقد تكسرت عظامي من العمل في البيت، لذلك، سآوي إلى الفراش فوراً لأنام»، لكن أمّ أمل كانت في الحقيقة لا تطيق أخت زوجها المرائية التي تحبّ أن تظهر كأنها القديسة تريزا. ولو أرادت أمّها أن تشرح له سبب شعورها بالإنهاك، لقالت له: «البارحة، في ليلة الوداع، استمرّ حبّنا حتى الثالثة صباحاً، ولم يترك حليم جزءاً من جسدي دون أن يقبّله. جعلني أشعر بنشوة لا تعرفها أنت أيها الغليظ».

لعدّة سنوات ظلت أمل تتسلل ليلاً وتتلصص على حبّ أمها وحليم الجسدي، وأصبحت تعرف الكثير عن أوضاع الجماع وهي لم تتجاوز الثانية عشرة من عمرها. وبخلاف عايدة التي لم تسمع طوال تلك السنين صوتاً واحداً من غرفة والديها ينمّ عن لذة. والغريب في الأمر، أن والدها بدأ يتقزم عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها، وتجاوزته عندما بلغت الخامسة عشرة.

بعد حصولها على الشهادة الثانوية، التحقت أمل بكلية التربية وتخرّجت وأصبحت معلّمة. وفي إحدى زياراتها مع تلاميذها إلى شركة النسيج أحبّها مهندس ميكانيكي يعمل في الشركة. وبعد عدة لقاءات، أحبّته أمل أيضاً لدماثته ولطفه وكرمه. وضحكت كثيراً عندما حكت لعايدة بصراحة كيف أنه ارتبك في ليلة العرس لأنها تعرف بدقة أوضاع الجماع، لكن سرعان ما زالت شكوكه عندما عرف من أين تعلّمت كلّ ذلك.

عاشت أمل حياة هانئة مع زوجها لمدة سنة تقريباً، لكنها أصيبت فجأة بصاعقة عندما اختفى في أحد الأيام العادية من دون أن يترك لها رسالة أو يقول لها كلمة واحدة عن سبب اختفائه. فبحثت عنه في جميع المستشفيات وطلبت من الشرطة أن تبحث عنه، لكنهم أخبروها بعد أسبوع أنهم لم يعثروا على أي أثر له، ولا أي أثر لحدوث جريمة.

بعد قرابة سنة، استطاع تحرٍّ خاص أن يجلب ضوءاً إلى ظلمة اختفاء زوجها. فقد وجد هذا التحري دلائل عديدة تشير إلى أن زوجها سافر مع أرملة ثرية تكبره عشرين سنة إلى البرازيل. عندها أدركت سبب حماسة زوجها لدراسة اللغة البرتغالية، وهي اللغة السائدة في البرازيل، في مدرسة خاصة ليلية. وكان يخدعها ويقول لها إن شركة برتغالية ستشتري شركة النسيج التي يعمل فيها، ويأمل

أن يترقى فيها إذا استطاع أن يتحدث اللغة البرتغالية مع أصحاب الشركة الجدد.

في طريق عودتها من مكتب التحري الخاص، خلعت أمل خاتمها الذهبي الذي صار يلسع إصبعها كأنه يتوهج لهباً، ووضعته في يد شحاذ جالس على قارعة الطريق يتوسل أن يعطيه الناس شيئاً يسد به جوعه.

«يا إلهي»، صاح الشحاذ، «ذهب! وفقك اللّه أيتها الكريمة»، صاح الشحاذ خلفها، لكنها أخذت تغذّ الخطى وملأت الدموع الغضب عينيها، لا بسبب غدر زوجها فحسب، وإنما لغباء الحب الذي سيطر عليها وأعمى بصرها.

بعد انتهاء ذلك العام الدراسي انتقلت إلى حلب لتنسى كلّ أماكن ذكراها في دمشق، ومكثت فيها ثلاثين سنة، كانت خلالها معلّمة محترمة ونشيطة تحبّ تلاميذها الذين كانوا يبادلونها الحب والاحترام. ورفضت طوال الوقت أن تقيم علاقة مع أي رجل. «لم أُخلق للرجال»، أجابت بحدة عندما أراد أحدهم أن يعرف سبب رفضها لمصادقته.

أنهت أمل عملها كمدرّسة وهي في الخامسة والخمسين من عمرها عندما أصيبت بالسرطان. أنقذتها عملية جراحية. وعندما تماثلت للشفاء عادت إلى دمشق.

انتظرت أمل عايدة أمام الدرج المؤدي إلى ساحة باب توما. عندما وصلت، أمسكتها من ذراعها وسارتا إلى مكان اللقاء. خلال تلك المسافة القصيرة، قالت لها أمل إن «الغيريين» يتبعون تعليمات *السيّد*. ومن وصف أمل له، ظنّت عايدة أن *السيّد* نسخة معاصرة من

القديس فرانسيس الأسيزي. فمع أنه لم يكن يرتدي ثياباً رثة أو يمشي حافي القدمين، أو يكلّم الحيوانات، لم يتخلّ عن جميع المتع مثل ذلك القديس، لكنه كان يرى أن الممتلكات الشخصية بدع من الشيطان. «فالشخص الذي لا يملك شيئاً لا يمتلكه شيء»، قالت لها أمل، موجزة أسس تعاليمه. وعندما سألتها عايدة عن اسم *السيّد* وأين يعيش، قالت لها إنه لا اسم له لأنه لا يحبّ عبادة الشخصية. ولأنه اشتُهر بسرعة أزعجه ذلك وانسحب من الحياة العامة ثم اختفى تماماً. قال البعض إنه هاجر إلى الهند، وقال آخرون إنه اغتيل. لكن تعاليم *السيّد* ظلت تعيش بين أتباعه.

عندما وصلتا، قرعت أمل الجرس. فتحت صبيّة الباب ورحّبت بهما. منحت عيناها الداكنتان الدافئتان عايدة نظرة مليئة بالودّ، وقالت لها إن أمل حكت لها كثيراً عنها وعن الموسيقى التي تعزفها. عندما أجابتها عايدة، «إن أمل تبالغ دائماً»، نكزتها صديقتها.

دُهشت عايدة عندما رأت قرابة أربعين شخصاً مجتمعين في حديقة البيت في هذا اليوم الخريفي المعتدل. كانوا جميعاً يرتدون ثياباً صيفية، فاتحة اللون، خفيفة، كما لو كانوا يرفضون قبول قدوم الخريف. ابتسمت عايدة للصورة التي كوّنتها عن هؤلاء «الغيريين». فلم يبدو لها أن هؤلاء الرجال والنساء غيريون، لأن الأناقة والثراء باديان بوضوح شديد عليهم. بدأت امرأة ذات شعر أشيب، ذكيّة، مرحة، تروي حكايتها عن زيارتها لمركز «*قدّيس الجبل*» في الشمال حيث كانوا يدّعون أنه هو *السيد*، لكن سرعان ما تبين لها أنه شخص محتال. وضحكت على سذاجتها لأنها ظنّت أنّها ستلتقي *بالسيّد* وتجلب أخباراً سارة للمجموعة. وقالت: «لم يكن قديساً، وإنما محتال الجبل»، فضحك بعض الحاضرين، «مشعوذ ماكر. لكن أداءه كان رائعاً». وعندما سألها أحدهم ماذا تقصد بأدائه، قالت كان

ساحراً ماهراً، فقد أخرج من أنفها ثلاثة شياطين ثم أكل تلك الأشكال السوداء الصغيرة التي كانت تتلوى ألماً بين أصابعه. لا بدّ أنهم يضعون شيئاً في الشراب الذي يقدّمونه للزوّار قبل أن يُسمح لهم برؤية القدّيس - وبعد دفع مبلغ زهيد - «قدّم عرضاً حقيقياً، طاف في الهواء، وأسقط بضع قطرات من زيت زيتون من يديه. . .»

«هل جرّبته؟ هل هو زيت زيتون بلدي جيد؟» صاح أحدهم. فضحك البعض، بمن فيهم المرأة التي تروي ما عاشته عند قديس الجبل.

«كنت مشوّشة إلى درجة أنني لم أعد أميّز المازوت من زيت زيتون. ولم أكد أقوى على السير بعدها. بعد انتهاء الجلسة، حملوني إلى غرفة فيها عشرات الأشخاص الذين بدأوا يستعيدون وعيهم من تأثير المخدر. وادّعى مساعدوه أن رؤيتنا لقدّيس الجبل أصابتنا جميعاً بصعقة الهيبة وجعلتنا في حالة ذهول. ظلّ رأسي يدور ويطن طوال يومين. إخوتي وأخواتي الأعزاء، لن أبحث عن قدّيس بعد الآن، سواء أكان في جبل أم في واد». صفّق لها الحاضرون، وابتسمت عايدة وقالت لنفسها، إن المجتمع المريض لا ينهض ليبدأ بترميم ما تهدّم فيه وإنما ينتظر دائماً منقذاً له.

تناوب ثلاثة أو أربعة رجال ونساء على الحديث، وتكلّموا جميعاً عن أحداث جرت لهم في حياتهم، وتحلّق المستمعون حولهم في مجموعات صغيرة. وتنقّل بعضهم من مجموعة إلى أخرى. كانوا يتكلّمون من دون خوف، حتى أن بعضهم انتقد الأوضاع السياسية. لم تكن هذه التجربة عادية بالنسبة لعايدة، وشعرت كأنها في فيلم سينمائي لا في بيت دمشقي عادي.

ذكّرتها هذه الأجواء بالخطب والجدالات التي تدور في «ركن

الخطباء» في شمال شرقي حديقة هايد بارك بلندن، التي زارتها ذات يوم مع زوجها الذي كان يعرف لندن جيداً وأخذها لرؤية أولئك المتحدّثين المتحمسين. قال لها في ذلك الوقت إن بإمكان أي شخص أن يتحدّث عن أيّ شيء أو ينتقد أي إنسان أو سلوكه ما عدا الملكة والعائلة المالكة. قالت عايدة لنفسها إن هذه الدائرة هنا تشبه ما يحدث هناك. فباستطاعة الأشخاص هنا أن ينتقدوا الأوضاع في البلد، لكنهم لا يستطيعون أن يقولوا كلمة واحدة عن الرئيس وعائلته.

بعد أن تناولوا الطعام معاً، طلبت المضيفة من الجميع أن ينصتوا إلى الموسيقى. عزفت عايدة على العود وأحست أنها لم تعزف هكذا من قبل لأنها أيقنت أن الجميع ينصتون إليها بأحاسيس مرهفة. اختارت عدّة معزوفات صعبة لرياض السنباطي، الموسيقار والملحن الأثير لديها. أطربت الموسيقى الجميلة الجميع. عندما رفعت عينيها، رأت رجلاً أشيب، يبتسم وينظر إليها نظرات حالمة. عندما أنهت العزف على العود، وجدته يقف بجانبها. كان أنيقاً جداً، لوّحته الشمس، ذا جسم رياضي، يرتدي ثياباً بسيطة لكنها أنيقة: قميص أبيض قديم، بنطلون أبيض، وصندل جلدي بسيط.

«عزفكِ رائع - لم تبالغ أمل عندما قالت لنا ذلك»، قال ومدّ يده لها. ضغطت على اليد الدافئة القوية وارتبكت. بدأ قلبها يخفق بقوة. قال لها: «اسمي كريم أسمر». كرّرت اسمه بصوت ناعم. قرّب كرسيه منها وهبّت عليها رائحة لطيفة منه. لم تكن رائحة مزيل عرق أو رائحة عطر كالذي يستعمله رجال كثيرون في دمشق للتغطية على رائحة العرق، وإنما رائحة تراب طازج منعش. نظرت إليه.

عندما قالت: «إنني عطشة»، قفز من كرسيه على الفور وعاد يحمل كأسين، كأس ماء لها وكأس نبيذ أحمر له. «ماء فقط؟» قالت

محتجة وضحكت. بعد زمن، قال لها كريم إنّه أحبّ ضحكتها كثيراً. لكنه أُعجب بها قبل أن يسمع ضحكتها.

«إذاً خذي الكأسين كليهما، وسأحضر لنفسي كأس نبيذ آخر»، قال لها وأعطاها الكأسين وعاد واختفى عن نظرها. بعد قليل، وجدا نفسيهما يتحدّثان، وأحسّت عايدة بمتعة كبيرة لوجودها بالقرب من هذا الرجل. رفعت عينيها إلى السماء الصافية. أرجو ألّا تمانع؟ سأُقدم على عمل متهور. هل يعجبك هذا؟ قالت في سريرتها لزوجها المرحوم نديم.

جلسا في تلك الأمسية معاً لفترة طويلة، وعرفت عايدة أنّ كريم يعيش في زقاق الياسمين الذي لا يبعد أكثر من عشرين خطوة عن الزقاق الذي تعيش فيه. عرض أن يوصلها إلى بيتها، فأومأت موافقة وأعادت العود إلى حقيبته. سارا معاً في الليل، تقيهما عباءة الظلام. كانت أضواء الفوانيس القديمة المغبرة باهتة وضعيفة حتى أنها لم تكد تضيء إلا ذاتها.

بدأ شعور جديد يتبرعم في داخلها. ثمة شيء في هذا الرجل جعل قلبها يخفق بسرعة. هل هو صوته العميق الذي يبدو كأنه عطشان دائماً، أم الطريقة التي لمس فيها يدها عندما توقّف ليشرح لها شيئاً؟ أم عيناه اللتان بدتا تضحكان وتبكيان في آن معاً، أم خفة دمه، أم حبّه للموسيقى، أم احترامه العميق لها؟ كان كلّ ذلك وأكثر.

يستغرق الطريق سيراً على الأقدام من الدرج عند باب توما حتى بيتها في زقاق العبارة عادة خمس عشرة دقيقة. لكنه استغرق معهما في تلك الليلة ساعة كاملة. عندما اقتربا من بيتها، بدأ يحكي لها قصّة. أوقفته وقالت: «ليس من الإنصاف أن تتوقّف عندما تصل القصة إلى نقطة مثيرة. تعال معي إلى البيت لتكمل القصة».

ضحك ضحكة خبيثة، كما لو أنه تقصّد أن يفعل ذلك. بعد سنوات، دأبت عايدة على أن تستثيره وتقول إنه تعمّد أن يبدأ حكايته عندما انعطفا إلى الزقاق الذي تسكن فيه، وأن يصل إلى تلك النقطة المثيرة في القصة عندما وصلا إلى باب بيتها، لكنه أنكر بشدة أنه كان ينوي ذلك. «الذين يؤمنون بالغيب يقولون إنه القدر، لكنّي أظن أن ذلك كان محض صدفة»، صرح بدفاعه المخادع.

رافقها إلى البيت، وحكى أحدهما للآخر قصّة حياته. عندما اقترب الصباح وبدأت دمشق تستيقظ، أعدّت عايدة قهوة ثقيلة. «أنا جائعة»، قالت عندما شربا آخر قطرة من القهوة. كان كريم يعرف مطعماً في الشارع المستقيم التاريخي، غير بعيد عن سوق التوابل (البزورية)، وصاحب المطعم يفتح مطعمه في الخامسة صباحاً كي يتناول العمّال فطورهم. سار كريم وعايدة إلى المطعم. تعثّرت عايدة وكادت تقع، فأمسكها كريم من يدها، لكنها لم تترك يده حتى في طريق عودتهما إلى البيت. حدق الجيران والناس الآخرون بهما مندهشين. وقفت عايدة أمام بيتها، وطوقت كريم بذراعيها وقبّلته على شفتيه.

«بعد أن تستريحي، تعالي إلى بيتي. سأطبخ لك اليوم»، قال لها كريم وعاد إلى بيته وهو يكاد يقفز في مشيته.

استيقظت عايدة في الساعة الثانية عشرة تقريباً. ومع أنها كانت متعبة فقد أرادت أن تذهب إلى بيت كريم في أقرب وقت. في البدء، قررت شراء بعض المواد من دكان البقالية. عندما وقفت أمام الرفّ الذي صفّت عليه المعلبات، تبحث عن علب الذرة الصفراء والأرضي شوكي والبندورة المقشّرة، اقتربت منها جارتها وليدة وقالت لها، «صدقيني، أعرف أن هذا ليس من شأني، لكني قلقة على سمعتك الجيدة»، قالتها بلهجة مرائية.

«لماذا؟ يا ويل ويلي ماذا فعلت؟» أجابتها عايدة، مازحة، لأن وليدة كانت تمازحها أحياناً.

«توقفي عن هذا الهراء. أنا جادة. إنك على علاقة مع ذلك الكافر كريم. لقد رأى الجيران كلّ شيء».

صُدمت عايدة. فمن بين كلّ الناس، أثبتت وليدة فجأة، وهي التي تدّعي أنّها صديقتها، أنها امرأة ثرثارة ونمّامة. توقعت عايدة أن تشاركها صديقتها سعادتها. لكن هيهات أن يسعد الحسود بحظ من يحسده!

«يا له من إنجاز. لم أمض معه سوى أربع ساعات وها أنتِ تلقين عليّ موعظة. لكن لا تقلقي على سمعتي. أستطيع أن أحميها بنفسي، لكن يبدو أنك تشاركين في نشر الشائعات. ما الذي يعنيك بمن أحب ومن لا أحب؟ هل نشرت أو شاركت في نشر شائعة عنك وعن مغامراتك؟ هل خنت صداقتك ووقفت مع الآخرين ضدك كما تفعلين الآن معي؟»

«نعم كنت جاهلة وأنا في العشرين من عمري، أما أنت فإنك تقتربين من الستين، وهذا شيء لا تفعله امرأة عاقلة في سنك، ولا تقبّل رجلاً أمام باب بيتها كما فعلت أنتِ».

غضبت عايدة من سوء نية وليدة، وقالت لها: «أنا امرأة بالغة في منتصف الخمسينات من عمري، وحتى لو كنت في السبعين أو الثمانين، فإنني سأقبّله أمام باب بيتي أو حتى على السرير. إنه رجل جميل ولذيذ إذا أردت أن تعرفي الحقيقة. أنت امرأة ينهشك الحسد لأنك تشتهين ذلك كما أخبرتني مراراً ومرغمة على أن تنامي بجانب زوجك البشع».

استشاطت وليدة غضباً لأنها أسرّت ذات يوم لعايدة عن ألمها من زوجها الذي يهين كرامتها كل يوم ويغتصبها كلّما شاء،

فاستدارت من دون أن تقول كلمة واحدة وابتعدت، لكن نساء أخريات سمعن حديثهما. رأت عايدة النسوة يرمقنها ويشرن إليها. شغلت عايدة نفسها بقائمة المواد التي تريد شراءها وجمعتها وذهبت لتدفع ثمنها. «نعم، صحيح - إنها على علاقة مع شخص مسلم مسنّ، كما لو أنه لا يوجد رجال مسيحيون»، قالت امرأة تقف في الرتل لصديقتها، بصوت مسموع كي تسمعها عايدة وتفهم كلّ كلمة قالتها. وضعت عايدة أغراضها في السلة، ورمقت المرأتين بنظرة سامّة، وعادت إلى البيت مرفوعة الرأس.

هل كريم حقاً مسلم؟ لم تكن متأكدة من ذلك. فخلال حديثهما الطويل، قال لها إنّه وضع كلّ الأديان في متحف ذاكرته، حيث يمكنه أن يحتفظ بها ويبدي إعجابه بها. لكن الحبّ هو الدين الحقيقي الذي لا يعرف حروباً أو عنصرية أو محاكم تفتيش. فقد تبنّى أفكار المتصوّف الأندلسي ابن عربي الذي يقع ضريحه في دمشق. لكن عايدة لم توافقه ولم تتصوّر كيف يمكن تحقيق ذلك. فهي تخشى أن تنشأ باسم الحب مؤسسة قوية فاسدة أخرى تسمي أرقّ عواطف الإنسانية قاطبة وأجملها ديناً رسمياً - كما فعل السياسيون بأفكار العدالة في أوروبا الشرقية وكما فعلت الكنيسة التي حوّلت كلمات المسيح التي تدعو إلى الأخوة والمحبة إلى حملات صليبية وجرائم قتل ومذابح. وعلى الرغم من كلّ شيء، فمن الشجاعة أن تقول إن دينك الوحيد هو الحبّ.

في البداية، ظنّت أنّ كريم مسيحي لأنها رأته يشرب النبيذ في الحفلة ويسكن في زقاق الياسمين الذي يعيش فيه مسيحيون فقط، مثل حي العبارة. لكنها اكتشفت الآن أن هذا غير دقيق تماماً... ففي الحارة التي تعيش فيها تسكن ثلاث عائلات مسلمة وعائلتان درزيتان أيضاً. ربما كان هناك مسلمون آخرون يعيشون في زقاق

الياسمين، وكريم أحدهم. فاسم كريم لا يُظهِر دينه لأنه قد يكون اسم شخص يهودي أو مسيحي أو درزي أو يزيدي أو مسلم.

حسناً، قالت لنفسها، إنه يؤمن بالحبّ فقط، لكن الجميع يرون أنه مسلم. «وماذا في ذلك؟» قال صوت داخلي أخافها. من الذي يتكلّم الآن - قلبها العاشق أم عقلها؟ أم أنهما اجتمعا وتآلفا ليغنيا معاً في جوقة؟ هل كونه مسلماً يمنعني من أن أحبّه؟ في الواقع، حتى لو كان كريم يهودياً أو درزياً أو بوذياً مؤمناً، فمن أو ماذا يمنعها من أن تحبّه؟ تذكرت عايدة أصدقاءها ومعارفها. إنهم يمثّلون جميع الأديان. . . ولا بد أنه يسمح بعقد صداقات مع أشخاص من شتى الديانات والمعتقدات. فلماذا حُرِّم الحبّ؟

لقاءات
أو حول خداع الآخر وخداع الذات

مكتبة
t.me/soramnqraa

دمشق، *كانون الأول* ٢٠١٠

المُعَالِجة

بعد عدّة أيام من وصول سلمان، جاءت مُعَالِجة لزيارة أبيه. وصلت في حوالي الساعة العاشرة صباحاً. لم يغادر سلمان البيت في ذلك اليوم ليرى ماذا ستفعل. كان أبوه يترقب وصولها بفارغ الصبر. قالت له أمّه إنّ المُعَالِجة لا تزور إلّا ثلاثة مرضى في بيوتهم - أباه وسيدتين غنيتين متقدمتين في العمر فقط - أما المرضى الآخرون فعليهم أن يذهبوا إليها بعد أن يحددوا موعداً يطول انتظاره لأنها مُعالِجة مشهورة. وهي تأتي لمعالجة أبيه في البيت لمكانته المتميّزة وذلك لأن ابن عمّ سلمان، الأب ميشيل أبو كسم، كان معلّمها وراعيها. دُهش سلمان عندما رأى مارينا صبيّة جميلة. عندما دخلت إلى غرفة الجلوس، مدّت له يداً مرخية كأنها قرأت ما يجول في داخله.

جلس أبوه في غرفته ينتظرها. عندما دخلت إليه، سمعها سلمان تأمره بصوت مسموع، «باسم العذراء المقدسة. باسم مريم العذراء، انهض»، ظلّت تكرّر. بعد قليل، خرجا كلاهما إلى غرفة الجلوس.

كان أبوه يمشي وحده من دون عكازه، ويقف منتصباً. «أرأيت، إنه إيمانك، لست أنا، إنما إيمانك هو الذي ساعدك».

جثت في وسط غرفة الجلوس وراحت تصلّي بينما ظلّ والده واقفاً بجانبها، عاقداً يديه في وضعية الصلاة، لكنه بدا سارحاً في عالم بعيد. كان التلفزيون لا يزال مفتوحاً كالعادة، ينبعث منه صوت مذيع يلقي تقريراً عن مهرجان أدبي. فجأة بدا التقرير مضحكاً لأن عدّة شعراء من سوريا ومن بلدان عربية أخرى بدأوا يتنافسون في كيل المديح للرئيس. وأذيع لكلّ شاعر بيتان أو ثلاثة أبيات من قصائده، تصبّ كلّها في مديح الرئيس. وأخيراً جاء دور الشاعر المصري الذي رآه سلمان في الطائرة وقد ملأ وجهه المتجهّم الشاشة، وصاح في القاعة، «أرجوك، أيها القائد العظيم، اغفر لي صراحتي. فسوريا صغيرة عليك. يجب أن تقود العالم كلّه. اغفر لي لأنني أحبّك كثيراً، لكن كيف يمكن لقلبي أن يقاوم؟ لقد أسرني جمالك».

التهبت أكفّ الحاضرين في القاعة من شدّة التصفيق. وبعد أيام سيعلم سلمان من صديق له أن هذا الشاعر تغنى بنفس الكلام لصدام حسين ومعمر القذافي.

«مسكين هذا الرئيس. هذا الفيل يريد أن يرافقه إلى السرير»، همست صوفيا ساخرة من وراء سلمان. لم يتمالك سلمان نفسه، فهرع إلى المطبخ وانفجر في الضحك. تذكّر النجار البسيط الذي كان جالساً بجانب هذا الشاعر في الطائرة والذي ظلّ يدعوه «حكواتي». لم يعرف سلمان هل سمعته مارينا وهو يضحك في المطبخ.

عندما أنهت صلاتها، أمسك والد سلمان يدها، وقال: «ابن أخي، الأب أبو كسم، سيأتي إلى العشاء هذه الليلة. هل تريدين أن تأتي معه؟ سنتناول الطعام معاً» تردّد لحظة، ثم أضاف، «أقصد، يمكنكِ أن تحضري زوجك أيضاً. سيكون سلمان سعيداً جداً

بزيارتكما». هزّ سلمان الواقف وراء مارينا رأسه، الذي لم تكن أفكاره صافية مثل أبيه. فاحت منها رائحة اللوز الشهية وتصوّر بعد أن كاد يفترس جسدها الغض بنظراته وتساءل كيف تبدو هذه المرأة وهي عارية.

أجابت مارينا، «آسفة، هذا غير ممكن، والأب أبو كسم يعرف ذلك أيضاً. إذ سيأتي قرابة سبعين تلميذاً مع أساتذتهم لأداء الصلاة في بيتي اليوم»، وأومأت برأسها بقوة مودّعة وغادرت.

اتّصل سلمان بستيلا. كان لا يزال مذهولاً من رؤية أبيه الذي عاد يمشي. ضحكت ستيلا ساخرة وحذّرته من أنه بدأ يفقد وعيه بعد أن أمضى عدة أيام في دمشق. وقالت إن لديها صديقة تزوّجت رجلاً عراقياً، تظاهر بأنه أصبح رجلاً عصرياً لأنه يعيش في روما، حتى أنه كان يسارياً. لكن عندما ذهب في زيارة إلى بغداد تغيّر تماماً، فأصبح يصلّي كلّ يوم، وأطلق لحيته، وأقلع عن الشرب والتدخين، وأرغم زوجته الإيطالية على أن تضع وشاحاً على رأسها. تألم سلمان لأن ستيلا قارنته بذلك الشخص.

بدا أن ستيلا لم تفهم سبب غضبه، فواصلت القول إنّها لا تؤمن بهذا الهراء بأن والده شفي من الدعاء والصلاة. وقالت إن مارينا تستخدم قوّتها على الأرواح الضعيفة، مثل أبيه، مستغلة سذاجته - تماماً مثل تأثير الدواء الوهمي. ثم تحوّل حديثهما إلى بعض الدعابات المعتادة. كان هذا أول حديث مع ستيلا على الهاتف أحسّ فيه سلمان بشيء من الغربة عنها.

ثم رنّ الهاتف. رفعت أمّه السماعة، وسرعان ما بدت الدهشة في عينيها، وقالت: «لحظة من فضلك»، ونادت سلمان، وقالت هامسة، «لمياء».

«نعم. ألو. يا لها من مفاجأة»، قال سلمان، وأخذ نَفَساً عميقاً. كيف عرفت لمياء التي كان يحبّها إلى درجة العبادة والتي تعيش في حمص بأنه وصل. عندما سألها، «يا إلهي، كيف عرفتِ بهذه السرعة؟» ضحكت لمياء وقالت إن صديقتها التي زارته برفقة زوجها، وهو من أقرباء صوفيا، قبل عدة أيام أخبرتها بذلك. وحكت له لمياء عن حياتها السعيدة وأنها أصبحت ربّة منزل وأمّاً لسبعة أطفال وحدّثته عن زوجها اللطيف. قال سلمان في نفسه لقد تزوّجت رجلاً حوّل امرأة ذكية إلى ربّة بيت غبية، لكنه احتفظ بذلك لنفسه.

اعتراه الملل من سماع حديث لمياء الممل عن الطبخ والنفخ وعما فعله هذا الطفل أو ذاك خاصة وأنها تعتقد أن جميع أطفالها عباقرة مثل أبيهم الذي يعمل محاسباً في شركة الكهرباء. أنهى حديثه معها بطريقة مهذبة وأغلق الهاتف. صُدم لشعوره باللامبالاة تجاهها.

كان العشاء مع ابن عمه، الأب أبو كسم، مخيّباً، فلم يجد أي أثر لروح الفنان النقدية الذكية التي كان يتحلّى بها. وبدا له أن أبو كسم مقتنع تماماً بتلك المُعالجِة حتى أنه لعن الفاتيكان لرفضه الاعتراف بقدراتها العجائبية على الشفاء. برقت عيناه عندما بدأ يتكلّم عنها. تنفّس سلمان الصعداء عندما غادر القسّ مع سائقه بيتهم.

بعد بضعة أيام، عاد والد سلمان ليجلس في الكرسي المتحرك، ولم يعد يقوى على النهوض. لم يتظاهر بذلك، وإنما لم يكن قادراً حقاً على الوقوف على قدميه. «يبدو أن مفعول المعجزات لا يدوم طويلاً هذه الأيام»، قال سلمان لأمّه.

«لا تكفر»، أجابته بصوت واطئ، ورسمت شارة الصليب.

امرأة في برج حصين

عندما استيقظ سلمان صباح يوم الأحد التالي، أدرك أنّ أسبوعاً قد مضى على وجوده في دمشق. أراد أن يشتري هدايا لستيلا وباولو، فذهب إلى سوق الحميدية الكبير المسقوف. بحث طويلاً، لكنه لم يجد شيئاً مناسباً في السوق، فتابع سيره إلى المدينة الجديدة، لكن رؤية الشوارع المزدحمة والبنايات العالية القبيحة الشكل أدخلت الحزن إلى نفسه. في البداية دمّر المغول دمشق بين سنتَي ١٢٥٩ و١٣٠٠، وها هم الدمشقيون الآن يفعلون نفس الشيء.

شعر ببرد شديد وبدأ الجوع يؤلم معدته، ولما ازدادا ضراوة دخل إلى أول مطعم صغير صادفه، ومن أول خطوة لفّه الدفء والشعور بالراحه. كان المطعم في تلك الساعة من ظهر ذاك اليوم مليئاً بموظفي البنوك والشركات المجاورة. ولسعادته رأى طاولة تجلس إليها امرأة وحدها وتقرأ في كتاب كبير. اقترب منها وسألها بلطف هل تسمح له أن يجلس إلى الطاولة على الكرسي الشاغر. فالتفتت المرأة إليه وهزت رأسها موافقة.

طلب شوربة عدس ثم قرر أن يطلب شريحة خروف مشوية مع رز، لكن كمية الشوربة والخبز المحمص اللذين تلذذ بأكلهما لم يتركا مكاناً في معدته لطعام آخر. بين الحين والآخر استرقت المرأة بعض النظرات إليه وأهملت الكتاب الذي تقرأه عن فن السينما العربية.

بعد قليل وضعت الكتاب جانباً وبدأت تتحدث معه. أخبرها سلمان أنه يعيش في روما وأنه جاء منذ أسبوع لزيارة البلد. فراحت تسأله باهتمام عن الحياة في إيطاليا وعن وضع السينما الإيطالية. شربا معاً فنجانيْ قهوة وضحكا كثيراً. كانت ماجدة تعمل ناقدة أفلام في قسم الثقافة في إحدى الصحف.

مكثا فترة طويلة في المطعم. حتى عندما أصبح خالياً من الزبائن تقريباً، بقيا وراحا يشربان زجاجة نبيذ فاخرة. عندما لمست يده بلطف ازدادت شهوته. طلب منها أن تدعه يدفع الفاتورة فوافقت معجبة بلطفه وكرمه.

ذهب إلى الحمّام وأخرج حبة «Gigant XXL» من محفظته، الحبة التي تزيد من قدرته الجنسية.

كانت ماجدة تسكن بالقرب من المطعم وقبل أن تفتح باب شقّتها أخبرته بوضوح أنها تعمل بائعة هوى بالإضافة إلى عملها في الصحافة. اقتربت كلماتها بصراحتها من القسوة والبرود فهي لم تلفّ وتدور في وصف مهنتها كما تفعل بعض العاهرات في إيطاليا. وبنفس الصراحة أخبرته أنها لا تريد أن تأخذ منه نقوداً لأنه رجل لطيف وكريم. لم يعترض سلمان على ما قالته.

ضاجعته ببرود لم يعهده من قبل ولم يشعر بأي متعة معها. عندما انتهيا من ذلك سألها: «كيف يمكنك ممارسة الوظيفتين معاً؟»

صمتت برهة ثم ابتسمت وقالت «بما أنك شاب لطيف جداً وستعود بعد فترة إلى إيطاليا وتنساني وأنساك، سأحكي لك كيف أفعل ذلك إذا كان بإمكانك أن تتحمل ما سأحكيه لك».

«أنا شمشون الجبار، احكي ما تشائين» أجابها ساخراً عندما وجد مقدمتها سخيفة بمبالغتها.

«إن نقد الأفلام ليست سوى هواية بالنسبة لي. ففي كلّ أسبوع أكتب عن فيلم. أما مضاجعة الرجال فهي عملي الرسمي يجعلني أعيش حياة فاخرة بعض الشيء. فمن العمل في الثقافة والصحافة لا تستطيع أن تأكل خبزاً بكرامة في هذا البلد. ومع أول زبون وجدت أنني بحاجة إلى برج حصين ألجأ إليه كلما ضاجعت رجلاً وإلّا فإن هذا العمل سيحطمني».

«برج حصين؟» سألها سلمان وقد بدا شيء من السخرية في صوته.

« نعم برج حصين» أجابته برصانة، «ففي برجي الحصين أعيش كفتاة صغيرة مع أبطال الأفلام الذين أحبهم. ولا يهتم الزبائن بما تفعله روحي وإلى أين يهرب عقلي لأنهم يريدون جسدي فقط. وهذا يكفي الزبائن، وفي صباح كلّ يوم أعدّ جسدي لهذا العمل الشاق لأحافظ عليه جميلاً كما يحبّه الزبائن. فهو القشرة التي أشغل بها الزبائن أما برجي الحصين فلا يمكن لأحد الوصول إليه».

«ولا حتى أنا؟» سأل سلمان.

«ولا حتى أنت» أجابته ببرود

«إذاً هل كانت كل تلك التنهدات والتأوهات زائفة؟» سألها بشيء من الغضب.

«لا تغضب يا شمشون. إنها ليست زائفة. إنها موسيقى تنبعث مني كما لو كنت تصفر لحن أغنية لأن كلماتها لا تعني لك شيئاً. إنها ليست زائفة وإنما موسيقى يحبّ الزبائن أن يسمعوها وأنا أصفّرها لهم. إن جسدي يفعل ذلك تلقائياً، فقد تدرّب على ذلك».

«معي أيضاً؟» سألها سلمان غاضباً.

« معك أيضاً يا شمشون الجبار».

«لكنّي لست زبوناً وقلت إنك لا تريدين أن تأخذي مني نقوداً وأردت أن تنامي معي لأنني شاب لطيف وكريم».

«لكنني قررت أن أدفع لك تعويضاً عن عزيمتك ومسامرتك الجميلة والذكية التي قلما أحظى بها. ويحق لي أن أدفع ثمنها».

«هذا يعني أنك تدفعين لي بجسدك من دون روحك كأنني أصبحت شاباً يستأجره من يرغب في ممارسة الجنس معه».

«لا أعرف لماذا غضبت. إنها تجارة تبادل متساوية الأطراف. مثل تجارتي مع اللواء حسن علي، رئيس فرع مخابرات مهم، الذي يوفر لي الحماية منذ عشر سنوات، فلا يجرؤ أي قواد على أن يهددني. إن الشيء الذي يحبّه اللواء، بالإضافة إلى تنهداتي وتأوهاتي، أن أكرر على مسامعه عندما يزورني مرة في الشهر أنه ثور هائج فحل، مع أنه مرخي دائماً ولا يكاد يستطيع أن يكمل اللقاء من دون أن يتصبب عرقاً كأنه يعمل في منجم.

وأنت من أذكى الرجال الذين قابلتهم في حياتي أسألك بحق جميع الآلهة ما هو الأمر المشين في هذا التبادل التجاري؟ ولماذا ينصبّ الوعظ كلّه، الذي تتبعه أحياناً الشتيمة، على النساء فقط ولا ينال الرجال عُشْرُ هذه الشتائم؟ اسألك كرجل متحرر لماذا يسيطر الجسد الخالي من العقل، فهو مجرد كتلة من لحم وشحم وعظام يغلفها الجلد. لماذا تسيطر هذا الكتلة الحقيرة على عقولنا وحتى على ضميرنا؟ ألم يكذب جميع الرجال الذين يضاجعونني لمدة عشر دقائق طوال حياتهم على زوجاتهم؟

لم أجد جواباً لهذا السؤال حتى اليوم».

«لا أعرف» أجابها سلمان بهدوء ورقّة، «قد يكون السبب أن الجنس لعب منذ البدء دوراً حاسماً في البقاء والتكاثر وهو أعمق في تاريخ الحيوان والإنسان من بداية تشكل عقله وإرادته وفيما بعد الضمير والعقلانية إلى ما هنالك». صمت سلمان بعد جوابه قليلاً ثم أضاف: «لكن ماذا تفعلين إذا وقع رجل في هاوية حبك وعشقك بكل صدق؟»

«سيكون ذلك شيئاً محزناً بالنسبة له، لأنه يعاشر قشرتي فقط، والقشرة لا تُعشق. أما أنا، كما قلت لك، فسأكون بعيدة عنه بُعد السماء عن الأرض. إذا قال لي ذلك بعد أن ينهي لعبه مع قشرتي،

فإني أحذّره، فإذا لم يعقل فإني أطرده ولا أسمح له بأن يدخل بيتي مرة أخرى. وهذا ما يوفره لي سيادة اللواء».

«وهل يمكن أن تعشق الفتاة التي في البرج الحصين ذات يوم؟»

«طبعاً، إذ يوجد لديها في القلعة عدة فرسان. وهم أجمل وألطف الرجال، أبطال الأفلام الذين أحببتهم. فمنذ أيام أعشق القرصان جاك سبارو بطل أفلام «قراصنة الكاريبي» وقبله، ظللت أعشق طوال سنة نينو من فيلم أميلي (Amélie)». ثم صمتت وغاب نظرها عن غرفتها كأنها طارت إلى برجها ثم أغمضت عينيها ونامت.

نظر إليها سلمان وبدت له فتاة صغيرة بريئة. نهض بهدوء ووضع خمسين يورو على طاولتها ثم تسلل خارجاً من دون أن يحدث ضجيجاً.

عندما غادر المبنى بدأ المطر يهطل بغزارة. أوقف سيارة أجرة توصله إلى البيت.

حول الخطايا المميتة ومبدأ الكفاح للبقاء قيد الحياة

عندما عاد إلى البيت استلقى سلمان منهكاً وغطّ في النوم على الفور ليستيقظ بعد ساعتين وقد رأى حلماً جميلاً وهو بصحبة ستيلا على شاطئ بحر. نظر حوله مندهشاً وتذكّر أنه في دمشق الآن. شعر بحنان غريب تجاه ماريا ابنة خالته تقلا. ضحك عندما تصوّر كيف سيجلس في تلك الأمسية بعد مغامرته مع ساكنة البرج الحصين ويراقب الضيوف. وقرّر أن يستمتع بالسهرة. لكنه تسرّع بتفاؤله هذا.

جاءت زائرة بشكل غير متوقّع - ريتا، حبيبته السابقة - التي أنّبته لأنه لم يزرها، كما وعدها، مع أنّها كانت تزوره مرّة كلّ يومين. «هنا

تعبق رائحة الأسرة والفضيلة والنفاق. ستشعر بالحرية في بيتي»، همست في أذنه عندما استقبلها، لكن سلمان قرر ألّا يسمع ما قالته.

«نعم، بالتأكيد»، قال لها وهو شارد الذهن.

في زيارتها الأولى، فوجئ سلمان بها. بالكاد عرفها. فقد أصبحت شقراء الآن وصغرت عشرين سنة بفضل جرّاح تجميل باريسي. كان سلمان الذي يكبر ريتا بثلاث سنوات قد التقى بها لأول مرة آنذاك في حفلة أقامها أحد زملائه وهو من الطلاب الأغنياء. كانت ريتا حينذاك في التاسعة عشرة من عمرها، شعرها أسود فاحم، تحوم حولها هالة شهوانية. وحام الرجال حولها باستمرار كأنها كوكب وهم أقمارها. في البدء، لم يُبدِ سلمان أي اهتمام بها لأنه كان غارقاً حتى أذنيه في حبّ لمياء. كان سلمان في ذلك الوقت ينحو إلى الرومانسية - فبالإضافة إلى الكتب الماركسية، كان يقرأ في كثير من الأحيان قصائد الحبّ العذري التي تشكّل معظم الشعر العربي التقليدي.

أحبّته لمياء، لكن ككاثوليكية متزمتة، اعتبرت ممارسة الجنس قبل الزواج خطيئة مميتة. ووعدها سلمان بأنّه مستعد لأن يؤمن باللّه وبالمسيح وبموسى، وحتى بمحمد لو قبّلته، لكنّها ظلّت ترفض. فقال لها سلمان محتجاً، «كان المسيحيّون الأوائل يضحّون بأنفسهم ويسمحون للأسود والوحوش الكاسرة أن تلتهمهم لكي يعتنق الآخرون المسيحية، وأنتِ ترفضين حتى إعطائي قبلة واحدة لتبدّدي ظلام الكفر عن قلبي».

لم يكن رفض لمياء ممارسة الجنس قبل الزواج السبب الرئيسي في ابتعادها عن سلمان، وإنما لأنها لم توافقه أيضاً على توجهاته وأفكاره السياسية. وكلّما ابتعدت عنه أكثر، ازداد تعلقاً بها.

لاحقاً، أسرّت له ريتا أن عدم اكتراثه لها في ذلك الوقت هو

الذي جذبها إليه. وقالت إن عدم اهتمامه بها كان بمثابة تحدٍّ لها. فهي صيّادة بالفطرة.

مثل الطلاب الآخرين، لم يعرف سلمان آنذاك أن تلك الصبيّة التي ترقص بدلع في حفلات الطلاب كانت قد تزوّجت وهي في السابعة عشرة من عمرها، وأن زوجها يكبرها بعشرين سنة، محامٍ غني ومربي جياد. وبعد فترة قصيرة من زفافها، اكتشفت أن زوجها لا يبدي اهتماماً بالنساء، وإنما كان مغرماً بالخيول الأصيلة والسائسين الشباب - وزواجه بها لم يكن سوى واجهة. وعلمت أن نصف المدينة تعرف ميوله الجنسية، ووجدت نفسها في موقف سخيف. فنصحتها صديقتها بأن تستمتع بثروة زوجها وأن تطلق العنان لقلبها. «العالم يغصّ بالشباب الذين يستميتون للاستلقاء عند قدميك».

وهكذا أدمنت ريتا على المغامرات الإيروتيكية. وبما أنها كانت تؤمن بالسرّية، فقد أصبحت امرأة تعيش في رغد وسعادة، وأصبحت حياتها الزوجية مقبولة وصارت تنفق نقود زوجها السخي بسرعة كبيرة وبمبالغ كبيرة. وأصبح لديها عشاق من جميع الطبقات الاجتماعية - حتى دخل سلمان إلى حياتها. فأُغرمت به بسرعة، لكنّه لم يأبه بها. في البداية لم يستجب لهداياها أو لرسائلها. ومنذ ذلك الحين، بدأت تظهر فقط بين مجموعات الطلاب لأنهم يختلفون عن أصدقاء زوجها وسمح لها عمرها المناسب بهذا التمويه.

عندما تزوّجت لمياء، استسلم سلمان للواقع بأنّ حبّه لها وصل إلى طريق مسدود. فاستسلم لريتا، وراق له ذلك. ومع أنه لاحظ أنّ ريتا أحبّته، فقد ظلّ يعاملها بفتور في أعماقه، لكن ذلك كان يزيد لهيب حبّها له، لأنها لم تر رجلاً استطاع مقاومة مفاتنها ولم يبد أي اهتمام بمالها. ومن دون أن تلاحظ، أصبحت ضحيّة طريدتها.

كان سلمان آنذاك يعيش حياة مزدوجة: حياة عامة وحياة سرّية.

حتى أن ريتا اقترحت عليه أن يهربا معاً إلى أمريكا، لأنها تملك نقوداً تكفيهما للعيش حياة جيدة. لكن سلمان رفض عرضها لأنه اكتشف أنه لا يمكن الوثوق بها، فقد تمرست على الكذب حتى أصبح سبيلها الوحيد، فضلاً عن أنه لم يرغب في الهرب، وإنما أراد أن يشارك في ثورة تنقذ سورية، وبدأ يشعر آنذاك بتناقض بين معتقداته السياسية وعلاقته بهذه المرأة الغنية التي جعلت كلماتها المتغطرسة ضدّ فقراء العالم منه رجلاً يشعر بالسخط منها. فكان يهينها أحياناً انتقاماً للمسحوقين، لكن قسوته معها كانت تزيدها تعلقاً به.

عندما التحق بالمقاومة المسلّحة، قطع علاقته بريتا بشكل دائم واختفى عن الأنظار حتى من دون أن يودعها. فأقسمت ريتا ألّا تقيم علاقة جدية مع أي رجل آخر، وعادت لتصبح صيّادة الرجال كما من قبل - لكن بعد أن تشكّلت ندبة في روحها.

بعد أن تبادلت ريتا أحاديث ودية مع الآخرين، غادرت بعد حوالي ساعة. عندما أوصلها سلمان إلى الباب، التفتت إليه وقبّلته بحرارة. «ألن تأتي وتزورني؟ عندي قهوة إسبريسو ممتازة»، قالت له، وأخرجت من علبة ذهبية بطاقتها وأعطتها له. ضحك سلمان، ولم يشأ أن يذكّرها بأنّها أعطته نفس البطاقة في زيارتها الأولى منذ بضعة أيام. «إسبريسو فقط؟» قال مازحاً، وهو يداعب ظهرها. شعر بالرثاء لها لأنّ حياتها مليئة بالإحباط.

«أقسم أنّني لن ألمسك»، قالت وهي تهمّ بمغادرة الشقّة.

«لم ترفع هذه المرأة العجوز عينيها عنك طوال الوقت. هل يعرف أحدكما الآخر؟» همست ابنة خالته ماريا عندما عاد لينضم إلى الضيوف الآخرين. في ذلك المساء، جلست إلى يمينه. فوجئ سلمان بسؤالها وقال لها كاذباً: «ليس أكثر من معرفة سطحية».

في تلك اللحظة سمع أمّه تنادي في الدهليز: «وأخيراً. أين كنت طوال هذا الوقت؟» رفع سلمان عينيه، فرأى ابن عمه إلياس بصحبة امرأة تكسو وجهها طبقة كثيفة من المكياج وكأنها امرأة غيشا يابانية.

«لا. لقد حان الوقت للذهاب الآن»، همست ماريا لسلمان وضغطت على يده واختفت بصمت.

بدا إلياس أكبر سنّاً، لكنّه لم يكد يتغيّر. «عاد ابننا الضال أخيراً»، صاح إلياس. لم يعانق سلمان، وإنما ضغط على يده بقوة. تساءل سلمان لماذا يبدي رفاقه السابقون هذا القدر من الاحترام لإلياس الذي بدا أنه يزداد طولاً عدّة سنتيمترات كلّما صافحه أحدهم. هل أذلّهم، ربما استجوبهم وعذّبهم؟ وبدا أن إلياس يحظى باحترام الضيوف الآخرين أيضاً - خوف ممزوج بالنفاق. حتى أن بعضهم كان يناديه «سيادة العقيد».

«إذن هذا هو سلمان»، قالت زوجته إيزابيلا بصوت يشي بسوقية، «أخيراً، ذكر حقيقي في هذه العائلة المهلهلة»، وأطلقت صوتاً يقع في خانة بين الغرغرة والشخير. لعلها تصغر إلياس بخمس عشرة سنة. أحسّ سلمان بالنفور منها على الفور.

عامل والد سلمان إلياس باعتباره شخصاً جديراً بمعاملة خاصّة. فأظهر له احتراماً شديداً وسهر حتى منتصف الليل تقريباً. كان مبتهجاً، وجلس مع الضيوف في غرفة الجلوس. عندما دخل سلمان إلى المطبخ ليجلب مزيداً من النبيذ، وأعرب لصوفيا عن دهشته من سلوك أبيه، قالت بصوت خافت تلعنه، «يريد أن يعبّر له عن مدى امتنانه، كما لو أن العشرة آلاف دولار التي أخذها غير كافية». شعر سلمان بالغضب. ثم أضافت صوفيا باشمئزاز، «جشع إلياس صار مضرب الأمثال بين الأقارب، حتى أنه لا يداعب زوجته من دون مقابل. لذلك، فهي بحاجة إلى العديد من العشاق».

قبل الجميع أن إيزابيلا شرّ لا بدّ منه، ولاحظوا أنها امرأة مدّعية، تتكلّم بصوت مرتفع، وتذكر أشخاصاً مهمين باسمهم الأول لتؤكّد على علاقتها الوثيقة بكبار الضبّاط - العميد علي، واللواء سليم، والعميد كمال - وأن دائرة أصدقائها لا تضم أحداً أقل من رتبة زوجها. وعلى الرغم من احتقار الآخرين لها ومع أن هذه الأسماء لا تدلّ على شيء، فقد كانت تحصل على ما تريد أن تصل إليه، وهو الوهم بأن أيادي قوية تحميها. جلس سلمان في الكرسي ذي المسندين بجانب رفيقه جوزيف صموئيل الذي اشتهر في صباه بالشتائم الساخرة المضحكة. ومع أنّه يدير حالياً مصنعه للمفروشات الذي يعمل فيه أكثر من خمسمئة عامل، لم تفارقه حدّة لسانه. عندما نهض من مقعده لتجلس إيزابيلا بجانب زوجها، همس لسلمان، «إنها أحلى انتقام من إلياس الوحش. فالمدينة كلّها تعرف عهرها وتستمتع بسماع حكايات عنها. ويقال إن أحد كبار الضباط كان يسدّ الشارع بسيارات عسكرية كلما أتى ليضاجعها خوفاً على حياته فيضطر الجيران إلى البقاء في بيوتهم وينتظرون حتى يبلغ ذروة متعته ليذهبوا إلى السوق أو لزيارة أقربائهم».

استمرّت السهرة. تحدّث الحاضرون خلالها عن كلّ شيء ما عدا السياسة والاقتصاد. كانت تلك رغبة صوفيا الصريحة. «مبدأ بقاء السوري على قيد الحياة»، كما كانت تقول، «دعوهم يحكمون بسلام وسيتركونكم تعيشون». طبّق سلمان نصيحتها وحافظ على هدوئه ولم يردّ على ملاحظات إلياس الدنيئة التي صنّفها تحت عنوان «هجمات حسودة». وواسى نفسه بأنّ الحُسّاد يعانون أكثر مما يعاني ضحاياهم.

بمحض الصدفة، وجد ستّة من أعضاء مجموعته الثورية السابقين أنفسهم يجلسون معاً في غرفة واحدة بعد أكثر من أربعين سنة. فقد

أصبح إلياس ضابطاً كبيراً في المخابرات، وسلمان تاجراً غنياً يعيش في روما، وجوزيف صموئيل صاحب مصنع كبير للمفروشات، ويملك أحمد حريري وكالتيْ سيارات، وأصبح محمود باردوني تاجر منتجات زراعية بالجملة، ويملك جرجي صيرفي سلسلة فنادق. يا ترى كيف ستكون ردّة فعل هؤلاء الستّة في ذلك الحين عندما كانوا حفاة في الجبال لو أن أحداً تنبّأ بأنهم سيصبحون كما هم الآن؟

دارت الأحاديث وسط ضوضاء برنامج تلفزيوني، تتخللها أنغام رنات هواتف خلوية عديدة. غادر أصدقاؤه قبل منتصف الليل بقليل، متمنين لباقي الضيوف قضاء سهرة طيبة. أوصلهم سلمان حتى الباب، ووعدوه بأن يعودوا في اليوم التالي. «نرجو ألّا يأتي الخائن أيضاً»، همس جوزيف صموئيل في أذن سلمان الذي هزّ رأسه.

«إننا محظوظون لأن هاني لم يأت اللّيلة. فمن يعرف؟ ربما خنق إلياس»، قالت صوفيا لسلمان عندما دخل المطبخ ليشرب كأس ماء آخر. لم تشكّ في أن ابنها محظوظ لأن هاني لم يأت. في تلك اللحظة قرع جرس ساعة الكنيسة القريبة أول قرعة معلناً عن انتصاف الليل.

استفزاز متعمّد ورهان خطير

دمشق، *في نفس الليلة من كانون الأول* ٢٠١٠

لماذا لا توجد روايات بوليسية عربية جيدة؟

قُرع جرس الكنيسة القرعة العاشرة عندما عاد سلمان إلى غرفة الجلوس الكبيرة. «أصدقاؤك مضحكون يا ابن عمي. نصفهم مجرمون تخرّجوا من السجون، ونصفهم الآخر شاذّون جنسياً»، قال إلياس ساخراً وهو يضحك. لم يشاركه الضحك إلّا زوجته. تجاهل سلمان ملاحظة إلياس. وبعد أيام سيقول إن إلياس جاء في تلك الليلة لاستفزازه، وعندما لم ينجح، اقترح أن يراهنه. كان قد خطّط لذلك منذ زمن.

لم يتوقف إلياس عن إبداء ملاحظات جارحة طوال السهرة، وتقصّد سلمان تجاهلها. حتى والد سلمان المسالم إلى أبعد الحدود شعر بذلك، وحاول أن يخفف من حدّة غطرسة إلياس، وقال: «دعونا نبتهج كلّنا بعودة سلمان بالسلامة». أدرك سلمان مدى استفزاز إلياس له والخطر الناجم إذا ردّ عليه، فقرر أن يبقى مسالماً على طريقة الفلاسفة الصوفيين. لم تتصف محاولات أبيه الرامية إلى الحفاظ على الودّ والانسجام بالسذاجة، كما بدت لسلمان في البداية، وإنما فعل ذلك كبادرة فطنة وودّية منه لكي يدرك إلياس أن

الآخرين فهموا استفزازه وغروره. فعل والد سلمان ذلك ليكبت مشاعر العداء في مهدها بطريقة سلمية، آملاً أن يتوقف إلياس عن سلوكه العدائي تجاه سلمان. «أنتما أبناء عم»، قال له والد سلمان، مناشداً ما تبقى من آثار تضامن العشيرة في روح إلياس الشريرة. «ومن هو ابن العم، إن لم يكن كالأخ؟» لكن إلياس لم يصغ إلى مناشدات الضمير تلك.

لم يذهب والد سلمان إلى غرفته إلّا قبل منتصف الليل بقليل، لا احتفاء بابن أخيه، وإنما لأنه كان يخشى أن ينشب جدال بينه وبين سلمان. وعلى الرغم من مغالبته الإعياء الذي أحدثته المسكنات، استسلم أخيراً وغفا على كرسيه. فدفعته صوفيا ببطء إلى غرفة النوم.

عندما غادرت صوفيا غرفة الجلوس، قال إلياس إنه لا يريد الإساءة إلى أحد، لكن من يغادر أرض الوطن فإنه يخونه. «لنأخذ مثلاً رجلاً متعلّماً. درس أو تعلّم مهنة في بلده ثم ذهب ليعمل طبيباً أو تاجر مواد غذائية في ألمانيا أو إيطاليا، وقدّم عمله أو معرفته للألمان أو الإيطاليين الذين لم يدفعوا ليرة سورية واحدة لقاء التعليم الذي تعلّمه في بلده. وفي هذه الحالة يكون إثمه تجاه وطنه مضاعفاً، لأنه تركه في حالة يرثى لها في مواجهة إسرائيل ويهدر أمواله ويقدّمها هدية إلى قوّة استعمارية سابقة. أرجو أن تكون فكرتي واضحة».

هزّ بعض الحاضرين رؤوسهم موافقين، وفهم آخرون ما يرمي إليه وأنه شخص غير لبق على الإطلاق لكنهم كانوا يخشون الردّ عليه بانتقاده فلاذوا بالصمت. أراد سلمان أن يردّ عليه ويقول إن أكبر تبديد لثروة سوريا حصل على يد عشيرة الديكتاتور. فقد هُرّبت البلايين إلى خارج البلاد واستنزف خمسة عشر جهاز مخابرات طاقات البلد، لكنّه أحجم عن قول ذلك عندما لمست أمّه ظهره من دون أن يلاحظ أحد. فلم تشعر بالخوف على نفسها وإنما على حبيب

قلبها سلمان. ثم تابع إلياس قائلاً: «إنها خيانة. ويجب سجن الشخص الذي يفعل ذلك إلى أن يسدّد كلّ تكاليف التعليم التي تكبدتها الدولة، ولو قامت الدولة بذلك لحصلنا على ميزانية ضخمة للوطن».

ضحك البعض. ثم قال طارق، ابن خالة سلمان، «هذا شيء سخيف. هذا يعني أننا يجب أن نرسل إلى الألمان الفاتورة - مئة ألف دولار عن كلّ طبيب - سمعت أنه يوجد هناك ما لا يقل عن ألفيْ طبيب سوري. وبذلك يصل المبلغ إلى مئتي مليون دولار. هذا ما تدين به ألمانيا لبلد صغير مثل سوريا، ويجب أن يرسلوا هذه الأموال إلى إلياس، وإلّا فإن حرباً ستنشب بين البلدين»، قال ذلك ليوضح أنّه فهم ما يلمح إليه إلياس وأراد أن يساعد سلمان.

«وماذا سنفعل لو ربحنا الحرب؟» سأل جاره عبد اللّه، «في هذه الحالة، علينا أن نعيد بناء ألمانيا، كما فعل الأمريكيون، وهذا سيكلّف البلايين. لذلك، من الأفضل ألّا نفعل ذلك»، وضحك بصوت مرتفع، فتشنجت تعابير وجه إلياس.

همست صوفيا، «يبدو أن رجل المخابرات المحترم صار أضحوكة».

كان من الواضح أن سلمان مستمتع بما يجري. فقد شعر أنه بالإضافة إلى كلّ هذه الاتهامات السخيفة والملاحظات الدنيئة، ربما في محاولة منها لتغيير مسار الحديث، بدأت إيزابيلا فجأة تتحدّث بطريقة شاعرية عن قصّة بوليسية سويدية شاهدتها على التلفزيون. وقالت إنها تستغرب كيف يستطيع السويديون أن يكتبوا قصصاً تقشعر لها الأبدان كهذه. كان سلمان يحبّ القصص البوليسية، لا القصص التي يكتبها الإسكندنافيون فقط، وإنما كذلك قصص أندريا كاميليري الصقلّي البارع مع المفتش مونتالبانو.

ثم سألت سناء، ابنة جيران والديه، لماذا لا توجد قصص بوليسية عربية جيدة - على الأقل هي التي تدرس السينما في الجامعة لم تر أياً منها حتى الآن - قال سلمان لنفسه يا لها من فتاة شجاعة، تطرح سؤالاً مثيراً للاهتمام لكنه سؤال خطير. كانت بشعرها القصير تبدو مثل الصبية، وكانت بشرتها بيضاء ناعمة، «كأن الضوء غذاؤها الوحيد»، كما كانت تقول صوفيا.

وافق الحاضرون، بمن فيهم سلمان وحتى إلياس، على ما قالته هذه الطالبة الشابة، ثم أضافت، «لكن لماذا لا توجد روايات بوليسية جيدة؟ فبلد صغير كالسويد، لا يزيد عدد سكانه على أكثر من نصف عدد سكان سوريا، يغزو العالم برواياته البوليسية. فقد كتب كلّ كاتب منهم روايات بوليسية رائعة أكثر مما كتبه الثلاثمئة مليون عربي مجتمعين. لا بد أنه يوجد عائق يقف في وجه الروايات البوليسية العربية». يعرف الكثير من السوريين عن تلك الروايات البوليسية السويدية المثيرة التي يشاهدونها أيضاً على شاشة التلفزيون السوري أو في السينما.

«أظن أن ذلك يعود إلى أننا سريعو الانفعال»، قال رجل قصير، نحيف، له شارب، زوج إحدى بنات خالات سلمان، «فنحن نفضّل أن نجد المجرم بسرعة ولا نتحلّى بالصبر والتفكير الهادئ الذي يتحلّى به السويديون والإنكليز». ضحك البعض، ثم أضاف الرجل، «فمنذ شهر قتل شابّ أخته، امرأة تتمتع بصوت جميل. ولماذا قتلها؟ الجيران كلّهم يعرفون - لأنها امرأة مسلمة أحبّت رجلاً مسيحياً - لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها. وأغلقت الشرطة القضية بعد خمس دقائق لأن شقيقها سلّم نفسه للشرطة. قال إنه قتل أخته لأنها مرّغت شرف العائلة في التراب. إنه في السادسة عشرة من عمره، وسيُحكم عليه بالسجن سنتين كحد أقصى. سيمضي ثمانية عشرة شهراً من تلك

المدة في السجن فقط لما يسمى «حسن سلوكه»، وعندما يُفرج عنه، سيُعامل معاملة الأبطال كما لو أنّه حرّر فلسطين. لكن، كما قلت لزوجتي، فإن القضية معقّدة أكثر من ذلك بكثير.

سيكتشف المحقق الجيد - لو وُجِدَ - أنّ والدَي الشابّ هما اللذان حرّضاه على قتل أخته. ويعرف المحقق أيضاً أنّ مصير أحد أعمامه هو السجن أيضاً لأنه أغرى أو حتى أجبر الصبي على أن يشرب كمية كبيرة من العرق وأعطاه مسدّساً. ويجب على المحقق أن يسأل لماذا قتل هذا الغبي أخته ولم يقتل حبيبها، لكن الصبي لا يستطيع الإجابة عن هذا السؤال، لأن والديه منعاه من أن يطلق النار على حبيبها ولم يقولا له سبب ذلك. والسبب واضح: لأنه ينتمي إلى عشيرة قوية، وأسرة الفتاة المغدورة - وهي من عشيرة صغيرة - تخاف على حياتها. ستكون هذه رواية بوليسية عظيمة، لكنها هكذا كما حلها القضاء بسرعة وسطحية ستظلّ واحدة من جرائم الشرف الغبية».

شاركت علياء، أمّ سناء، في الحديث، وقالت: «نعم، المحقق الجيد - سواء أكان رجلاً أم امرأة - سيدرك أن المجتمع العربي كلّه يجب أن يوضع موضع تساؤل. وسيؤدّي ذلك إلى نقاش مفيد حول الفوضى التي نعيش فيها. فقد جُرح العرب وأُذلّوا منذ قرون طويلة وهم يعيشون في الذل إلى اليوم، وماذا نفعل؟ فبدلاً من أن يثور رجالنا ويقفوا في وجه الذين يعذّبوننا، فإنهم يخبئون شرفهم بين ساقَي امرأة، وفجأة لا أبقى مجرد امرأة وإنما صندوقاً فيه شرف الرجال. هذا جبن محض، أليس كذلك؟»

«يجب أن يحشر الرجال شرفهم بين خصيهم. سيكون ذلك أكثر أماناً من أن يحشروه فينا»، أضافت صوفيا، فانفجرت المرأتان في الضحك.

«نسيتما شيئاً آخر»، قالت إيزابيلا التي شاركت في الحديث، «شاهدتُ فيلماً فرنسياً فيه امرأة محققة نجحت في حلّ القضية. تخيّلوا فقط محققة أنثى في السعودية تحقق مع رجل»، ضحكت، وأضافت، «وقد ترتدي شورت أو بكيني؟» وضحكت ضحكة مفرقعة، وشاركها عدد من الضيوف الآخرين في الضحك.

«صحيح، إن سؤال سناء مبرّر ولم يُجب عليه أحد»، ذكّرهم سلمان، «لماذا لا توجد روايات بوليسية عربية جيدة؟»

فأجاب إلياس، «حسناً، من الواضح أن البلدان الشمالية تختلف عن بلادنا - فتلك البلدان مظلمة وباردة طوال الوقت. وضباب لندن يدفع الناس إلى ارتكاب جرائم قتل يصعب حلّها، وفي السويد الشديدة البرودة القليلة السكان، يُعتبر إخفاء جثّة كأنها لعبة من ألعاب الأطفال. وهذا يعني أنّ ظروف المعيشة تحتاج إلى محقق قدير».

«قد يكون الضباب والبرد عاملين هامين في الرواية البوليسية»، اعترض سلمان قائلاً، «لكن إسبانيا واليونان وإيطاليا ليست أبرد من بلدنا وقد أنتجت روايات بوليسية ممتازة». هزّت سناء رأسها بقوة. فهي قارئة نهمة للروايات البوليسية الإسبانية، الإيطالية واليونانية المترجمة التي كتبها مانويل فاسكيز مونتالبان وأندريا كاميليري وبيتروس ماركاريس.

«من المفاجئ أيضاً»، قال برهان، جارهم في الطابق الثاني الأستاذ الجامعي المتقاعد، «أنّ كتّابنا قلّدوا جميع أساطين الأدب العالمي، من تولستوي إلى غارسيا ماركيز وكافكا، وحتى همنغواي، لكنهم لم يحاكوا أبداً إدغار ألان بو، أو أغاثا كريستي، أو آرثر كونان دويل، أو جورج سمينون. لماذا لم يفعلوا ذلك؟»

«الحقّ معك، فجرائم القتل المشهورة الغامضة الوحيدة التي تحدث في البلدان العربية كتبتها أغاثا كريستي - جريمة في بلاد

الرافدين أو *موت فوق النيل*»، أكّدت إيزابيلا، ثم أضافت، «وفي الحقيقة فهما أسوأ روايتين لها». فهزّ سلمان رأسه موافقاً. صحيح لأن أغاثا كريستي لم تعرف العرب معرفة جيدة.

«هذا أمر مدهش حقاً. لماذا يحدث ذلك بحق الجحيم؟» سأل البروفسور برهان.

«أظن...» قال سلمان، بعد أن قرر أن يتحدّث عن العرب بصورة عامة بدلاً من أن يتحدّث عن السوريين كي لا يثير حفيظة إلياس، «لا أظن أن أيّ عربي يتخيّل أنه يُسمح في بلده لأي محقق أن يسأل أي إنسان الأسئلة التي تكشف عن أسباب جريمة قتل وعن مرتكبها، مهما كان هذا المحقق شريفاً أو ذكياً أو يتمتع بضمير حيّ. لذلك لا يمكن لأي عربي أن يصدّق رواية تحكي عن محقق ينجح في التحقيق في أي جريمة، إذا كان الأشخاص الذين يريد أن يحقق معهم من الأسرة الحاكمة مثلاً».

«ولِمَ لا؟» سأله إلياس بغضب.

«لأن في الحياة، كما في الروايات، تحتاج إلى التحقيقات وروح التحقيق هو السؤال، والسؤال ابن الحرية، وهذه الحرية غير موجودة في أيّ بلد عربي. تصوّر أن جريمة قتل حدثت في قصر الملك السعودي، فمن هو المحقق الذي يجرؤ على استجواب حتى ابن عم من الدرجة الثالثة؟» تقصّد سلمان أن يختار السعودية كمثال لإرضاء إلياس، لأن النظام في دمشق يكره النظام السعودي. «لا أقصد أن أكون سياسياً هنا، لكن من أجل كشف جريمة قتل، من الناحية الفنية المحضة، يجب أن يُسمح للمحقق أن يسأل *كلّ شخص، مهما كان*، عن *أدقّ التفاصيل*. إن الحرية في طرح الأسئلة هي حياة وموت التحقيق. حتى في لبنان، لا يُسمح لك أن تسأل أيّ سؤال لأي شخص». شعر أنه ينافق لأنه لم يذكر سوريا مرة أخرى.

«لا أظن ذلك. ففي بلدنا، يُسمح لكلّ شخص أن يسأل أي شخص آخر أي سؤال، ألا ترى ذلك؟» سأله إلياس ببرود.

أحسّ سلمان بيد أمّه على ظهره، بأن عليه أن يدرس كلّ كلمة يقولها. «في الحقيقة لا أعرف. فأنا بعيد عن البلد منذ أربعين سنة»، أجابه بذكاء تهرّباً من الإجابة.

ضحكت سناء بصوت عال، وقالت: «لا، أبداً، سيادة العقيد. أنا أحبّ رئيسنا، وسأكون آخر شخص يمكن أن يتحدّث عن بلدنا بالسوء. لكن سلمان يتحدّث عن تركيبة العشيرة برمّتها في المجتمع العربي، والأمر لا يختلف هنا عن اليمن أو عن مصر. وبما أنني أهتم بالأبحاث عن الأفلام البوليسية، سألفت انتباهك إلى عائق كبير آخر. لنفترض أن جريمة قتل حدثت في مدينتنا الجميلة والليبرالية دمشق. ولنفترض أن القتيل مستلق في الفراش مضرجاً بدمائه أو لنقل أنه في غرفة النوم وسكين كبيرة قد غُرزت في ظهره. ثم يأتي مفوض أو محقق مفتش. إلى أين يذهب؟ أقصد إلى أي مكان يدخل؟ أجيبكم بعد طول بحث أنه لن يتجاوز باحة البيت لأن دخوله إلى الغرف يُعتبر من المحرّمات. ولأن سكان البيت يعلمون سلفاً هذه الصعوبة فيساعدونه على أن ينقلوا الجثة قبل أن يصل إلى الباحة. ما شاء اللّه على هكذا بحث عن القاتل»، ضحكت سناء وضحك الآخرون وحتى إلياس معها، ما شجّعها على أن تكمل انتقادها، فقالت: «لاحظوا معي في جميع الأخبار التي تتحدّث عن الجرائم تجدون الضحية دائماً في باحة البيت أو في بستان أو في الحمّام أو في أي مكان يُسمح فيه للغريب أن يراه. وبذلك يتم أول تشويه للأدلة الجنائية. والمحقق الجنائي يعرف ذلك لكنه يتغابى ولا يسأل أين كانت الضحية عند ساعة قتلها؟ يسأل سؤالين أو ثلاثة أسئلة كان قد تعلّمها ويكررها كالببغاء. وفجأة يعترضه رجل حزبي

من الدرجة العاشرة تحت الصفر من حيث الأهمية ويقول له إن أسئلته زادت عن حدّها ويجب أن يغادر البيت فوراً وإلّا - ويا ويلك من كلمة وإلّا. ولنفترض أن ضابط الشرطة أو المحقق لم يأبه له لأنه شجاع أو لأن مرتبته الحزبية أعلى قليلاً من المرتبة الحزبية لهذا الوقح، وبخبرته شعر أن لدى إحدى النساء معلومات دقيقة تريد أن تبوح بها، فيسألها بكلّ أدب إن كانت قد لاحظت شيئاً مهماً للتحقيق يساعد على إلقاء القبض على القاتل. فتحكي المرأة له بسرعة كما لو أنها تعرف أنها ستُرغم على السكوت بعد قليل، وتخبره أنها كانت تراقب القتيل منذ فترة ولاحظت أن ثلاثة رجال كانوا يزورونه يومياً ويتشاجرون معه. وكان المغدور رجلاً لطيفاً يعمل في السفارة الأردنية، سُرِّح منذ فترة وكان قلقاً، وهذا ما شعر به جميع الجيران. ومنذ فترة قصيرة سمعته يتكلّم في هاتفه الخلوي بصوت عال غاضباً، وقد سمعت الجارات صوته، وقال بنبرة حادة إنه ليس جاسوساً. والغريب في الأمر أن الرجال الثلاثة كانوا قد زاروه قبل أن يُقتل بيومين وسهروا عنده وسكروا معه حتى منتصف الليل. وعندما بلغت المرأة في حديثها هذه النقطة، أيقن المحقق أنه بدأ يمسك طرف الخيط الذي سيُخرجه من هذه المتاهة. فسأل المرأة أن تصف له الرجال بدقة إذا كان بإمكانها ذلك. فقفز فجأة زوجها وقال للمحقق إنه لا يحقّ لرجل غريب مثله أن يسأل زوجته أسئلة تخلو من الأدب. فزوجته لا تراقب الرجال، ثم نظر باحتقار إلى زوجته وصرخ بها: هل رأيت أحداً؟ وكما نعرف جميعاً فإن المرأة ستخاف من زوجها وتهزّ رأسها بالنفي وعيناها تحدّقان بالأرض خجلاً. أقسم لكم أن هذا ما يحدث في أغلب الأحيان»، وأنهت سناء كلامها.

«وهل يظنّ أحدكم» قالت إيزابيلا تؤيدها، «أنه في بلداننا

المتخلفة سيُسْمَح لمحقق مسيحي، حتى لو كان ابن شرلوك هولمز، أن يحقق في بيت مسلم؟»

ساد الصمت بعد كلام إيزابيلا، خاصة أنه كان هناك جاران مسلمان جالسين بين الضيوف. فوجئ سلمان بهذا السؤال الجريء والذكي الذي ناقض فجأة الصورة التي كونتها إيزابيلا عن نفسها حتى تلك اللحظة. لكن صوفيا انزعجت من وقاحة إيزابيلا تجاه الجارين المسلمين ولم تبد أدنى درجة من الأدب تجاههما.

«لا طبعاً لن يسمحوا له، وإنما سيطردونه من دون أن يخشوا عقاباً. وأؤكد لكم أن عقول تسعين في المئة من البشر متخلّفة مع أنهم يستخدمون أحدث طراز من الهواتف الخلوية ويضربون زوجاتهم أيضاً، ويعتبروننا كفاراً ولا يحق للكافر أن يحقق مع شخص مؤمن. وحتى لو كان المحقق أو مفوض الشرطة أذكى من شرلوك هولمز، فإن ذلك لن يساعده في أن يتقدم شبراً واحداً في تحقيقه وبحثه عن الحقيقة إذا لم يكن ينتمي إلى الدين نفسه، لا بل إلى الطائفة نفسها. ما رأيكم إذا أراد محقق شيعي أن يحقق مع شخص سنّي أو العكس، أو أن يقوم محقق كردي باستجواب قومي عربي. هذا من سابع المستحيلات». وضحكت إيزابيلا ضحكتها المجلجلة الشهيرة.

«صحيح»، قال سلمان موافقاً، على الرغم من انزعاجه من ضحكتها الرخيصة التي لا تتناسب مع حديثها الرزين، وأضاف، «لكن ليس هذا فقط. فالمحققون في أوروبا يتمتعون بمكانة مرموقة، أما هنا، فهم في أدنى درجات السلّم».

فقال طارق، «هذا هو الحال في جميع أنحاء العالم، ومعك حق أنت وإيزابيلا، لكن هذا الأمر متشابه في جميع أنحاء العالم، خذ مثلاً هذا المجرم بيرلسكوني، أتساءل دائماً كيف انتخب

الإيطاليون المشهورون بشجاعتهم هذا الرجل المحتال عدة مرات بدلاً من أن يلقوا به في السجن. وهناك فساد ورِشاً في فرنسا وإسبانيا وألمانيا وبريطانيا، حتى في الدول الإسكندنافية».

«شكراً عزيزي طارق»، قال له إلياس، «لكن ابن عمي يغفر للإيطاليين كلّ أخطائهم. فهو يعيش بينهم بكل أدب ويتحاشى أن ينتقدهم. وعندما يأتي إلى هنا فقط، إلى بلدنا، فإنه يريد أن يقطّع أوصال جميع الحكّام ويقودهم عراة في الشوارع مع طبل وزمور. هذا الموقف غير لائق»، أنهى كلامه، صوته يرتعش بانفعال شديد. ضغطت صوفيا على ذراع ابنها من دون أن يلاحظ أحد. فهم سلمان ما تقصده أمّه ولاذ بالصمت.

«لنتوقف عن الحديث في السياسة»، تدخلت صوفيا، «فأنا أعرف محققاً جيداً يعيش في مكان قريب، وسمعته يتحدّث مع البقّال. قال إن راتبه لا يكاد يكفيه لإعالة ثلاثة أطفال، مع أن لديه خمسة أبناء وزوجة بالإضافة إلى والديه المريضين اللذين يعيشان معه. فلا يستطيع هذا الرجل أن يركّز على حلّ لغز جريمة قتل واحدة لأن تفكيره منصبّ دائماً على السؤال اليومي المنهك: كيف يمكنه أن يعيل أسرته حتى نهاية الشهر. لذلك، لا علاقة لهذا الأمر بالسياسة، وإنما تكمن المشكلة في رواتب موظفي الدولة القليلة. وينطبق ذلك على المعلمين أيضاً - الذين يضطر عدد كبير منهم إلى إيجاد عمل آخر ليتدبروا أمور معيشتهم».

هدأ إلياس. هزّ رأسه موافقاً، لأن مشكلة الرواتب الضعيفة التي يتقاضاها موظفو الدولة تنطبق على العاملين في المخابرات أيضاً.

«إذاً ما الذي يحتاج إليه المحققون ليتمكّنوا من أداء عملهم في تبيان الحقيقة على أكمل وجه لكي نحصل أخيراً على رواية بوليسية عربية مثيرة؟» سألت سناء. بدأ الجميع يتكلّمون في وقت واحد، يلقي كلّ منهم اقتراحاته يمنة ويسرة. عندما هدأوا قليلاً، قالت سناء، «أظن أنه يجب أن يتمتع المحققون بحريّة مطلقة، ويجب أن يأتي ذلك من القمة - من الرئيس - الذي يجب أن يمنحهم حرية مطلقة لاستجواب أي شخص. ويجب ألّا يؤدّي ذلك التحقيق إلى تشهير أو تشويه سمعة الأشخاص الذين يتم استجوابهم لأنهم بحسب قناعتي يظلّون أبرياء حتى تثبت إدانتهم... ويجب أن يتقاضى المحققون رواتب أفضل».

ضحك إلياس مبتهجاً وبسخرية واضحة، قال: «عندي طريقة أفضل لإدانة المجرم، تُستخدم حالياً للكشف عن أعداء المجتمع. بالطبع، فهم مجرمون سياسيون، لكنهم يهدفون إلى تدمير الوطن وهذا أسوأ بكثير من ارتكاب جريمة قتل أحد».

وافق الجميع على ما قاله بحماسة. لكن سلمان لم يتأثر بهذه الثرثرة الوطنية من رجل مخابرات.

فسأله، «وما هي هذه الطريقة؟»

فأجابه إلياس بهدوء، «إنها معقّدة بعض الشيء، لكن بإمكاني أن أشرحها بإعطاء مثال. تصوّر أن خروفاً يعيش في مرج محاط بسياج من الأسلاك الشائكة لحمايته من الحيوانات المفترسة. عندما يهبط الليل، يسمع الخروف الذئاب تعوي في مكان قريب منه. عندما تقترب الذئاب من السياج، يصاب الخروف بالهلع. ثم تكتشف الذئاب عموداً مهلهلاً في السياج فتقذف نفسها عليه بقوة. يبدأ

السياج بالاهتزاز، ويستطيع الخروف أن يشمّ رائحة الذئاب ويشعر بها وهي تتنفس وكأنها فوق رقبته. فيبدأ بالجري في دوائر وسرعان ما يكتشف أن حظيرته أصبحت سجناً له. وبينما تنشغل الذئاب بالعمود ملقية كل وزنها عليه، يعثر الخروف على فتحة في السياج في الطرف المقابل. ماذا سيفعل الحيوان المسكين في ظنّك؟ سيُفاجأ وسيتردّد قليلاً. لكن عندما يسمع الذئاب تعوي مرة أخرى، ينسى شكوكه ويقفز عبر الفتحة، طبعاً يقفز وهو غير متوقع أنّ الموت ينتظره في الجانب الآخر من الفتحة».

فقال الرجل ذو الشارب ببهجة، «نعم، ويصبح بإمكاننا أن نضعه على الشواية». فضحكت إيزابيلا بشكل هستيري حتى كاد نفسها ينقطع، ثم كرّرت من وراء دموعها «نعم، سنشويه».

«ليس هناك شيء جديد في هذه الطريقة. إنها طريقة شرّيرة استخدمت سابقاً في الكتلة الشرقية»، قال سلمان، متجاهلاً يد أمّه، وأضاف، «لكنها لم تساعدهم في تحقيق شيء. أين هم ذئاب الماضي اليوم؟ إنهم يتوسلون بين خراف البارحة. كان بإمكانك أن تتعلّم مما حدث في ربيع براغ في تشيكوسلوفاكيا أكثر قليلاً ما حشوته من معلومات في كلية الشرطة».

«لسوء الحظ أصبح الوقت متأخراً لأخبرك كلّ ما تعلّمته في تشيكوسلوفاكيا، لكنّي أراهنك على عشرة آلاف دولار بأنّ طريقتي تستطيع أن تدين أيّ مجرم، ويجب ألّا يخشى أي مواطن شريف شيئاً - حتى أنه لن يلاحظ عملية المطاردة كلها». هنا تشنجت نبرة إلياس، وحبس الضيوف أنفاسهم.

هكذا إذاً، عشرة آلاف دولار أخرى، قال سلمان لنفسه، وكاد يقولها بصوت مسموع، عندما تذكّر المبلغ الذي أخذه إلياس من أبيه. لكن صوفيا ضغطت بيدها بقوة على ظهره حتى آلمته. فابتلع

ردّه اللاذع لأنه لم يشأ أن يجادل هذا الانتهازي الخطير. كانت أمّه على حقّ، فإلياس شخص خطير، عديم الضمير، يتمتع بنفوذ كبير.

فأجاب، «حسناً - أنا لا أصدّق ما تقوله، لكنّي لا أراهن أبداً. هل تسمع، يا ابن عمي العزيز، فأنا لا أراهن أبداً، لأنني أخسر الرهان دائماً. فقد راهنت ذات يوم على إخلاص شاب، وخسرت الرهان».

ساد صمت مطبق، لكنه لم يدم طويلاً.

«للأسف»، قالت إيزابيلا وتنهدت، «إلياس يربح الرهان دائماً، وحان الوقت لأن يربح رهاناً فنحن بحاجة إلى بانيو جديد فيه دوامة كهربائية للتمسيد»، وانفجرت ضاحكة مرة أخرى. ابتسم إلياس ابتسامة ماكرة، وقال: «هذا جبن، بعد كلّ هذا الحديث المنمّق ثم تتهرّب من العواقب. هكذا هم اليساريون، خصوصاً عندما يصبحون من أصحاب الملايين في بلاد المعكرونة».

في أعماق قلبه، عرف سلمان أنه هزم إلياس من دون أيّ استفزاز. لم يعرف أحد من المدعوين أن سلمان قد دافع في الماضي عن إلياس بكل قوته وكفله أمام الآخرين عندما شكّ رفاقهما في أنه عميل للمخابرات عندما كانوا يقاتلون في الجبال.

نهض إلياس واقفاً ليغادر. قام سلمان بدور المضيف المهذّب، وطلب منه أن يبقى مدّة أطول. عندما اعتذر إلياس وقال إنه يجب أن يستيقظ في الصباح الباكر لأنه سيسافر إلى موسكو برفقة وفد، قفز سلمان من كرسيه ورافقه وزوجته إلى الباب. تبعتهم صوفيا ببطء ووقفت وسط الدهليز، بعيدة قليلاً عن الزوجين. ساعد سلمان إيزابيلا على ارتداء معطفها الفرو، وطبعت قبلة خفيفة على خده لوداعه، وقالت: «يجب أن تأتي وتزورنا. فرجل ناجح مثلك رأى العالم يُعتبر ثروة دائماً».

«لماذا لن تراهن يا جبان؟» قال إلياس مازحاً، ولكز سلمان لكزة خفيفة في صدره.

«أنا خاسر بالفطرة. كان الرهان مزحة، أليس كذلك؟» قال سلمان متظاهراً بالبراءة ليغطي على كراهيته.

«للأسف يجب أن أسافر إلى موسكو غداً، وإلّا لاستمتعت بإغوائك إلى رهان آخر»، أجاب إلياس، وهو يضحك ملء شدقيه قبل أن يختفي أسفل الدرج.

لم ينم سلمان تلك الليلة. لماذا يكرهه إلياس إلى هذه الدرجة؟ هل لأن سلمان الشخص الوحيد في العائلة الذي يعرف عن خيانته؟ أم لأن سلمان هرب وعاد مرفوع الرأس؟ أما هو، الضابط ذو الرتبة العالية، عليه أن يعيش وهذه الخيانة تعشّش في قلبه، ويمضي حياته معتمداً على الرشا ليتمكّن من دفع نفقات زوجته وجنونه بالعظمة ونفقات الفيلا الباهظة التكاليف التي يمتلكها.

استفزاز إلياس وقصّته السخيفة عن الخروف والذئاب التي تعلّمها بالتأكيد في دورة تدريب مخابراتية جعلت سلمان يخشى أن ابن عمه يدبّر له شيئاً. هدّأ من روعه بالفكرة بأنه لا بد أن إلياس مشغول بقضايا في موسكو أهم من تعذيب ابن عمه. لكنّه سرعان ما سيكتشف أنّ شكوكه كانت أكثر من مبرّرة.

عايدة
أو كيف يولد الأمل من جديد

الحب سلطان
ولذلك فهو فوق كل القوانين.
حكمة عربية

دمشق، ٢٠٠٥-٢٠١٠

في الساعة الثانية بعد الظهر، وقفت عايدة أمام باب منزل كريم تحمل بيدها سلة فيها قنينتا نبيذ أحمر، ومرطبان فيه مربى السفرجل، ومرطبان مليء بالفستق الحلبي المملّح. كانت قد ملأت السلة بأنواع الأطعمة ثلاث مرات، وأفرغتها ثلاث مرات. لم تشأ أن تزوره ويداها فارغتان، ولم تشأ أن تحضر أشياء لا يحبّها كريم. فمنذ لقائهما في اجتماع «الغيريين»، عرفت أنّه يحبّ النبيذ الأحمر والفستق الحلبي كثيراً، وهي تحبّ مربى السفرجل الذي تصنع منه عادة اثني عشر مرطباناً كلّ سنة، مرطبان لكلّ شهر.

فتح كريم الباب، مبتسماً وشدّها إلى داخل البيت، وأقفل الباب وراءها وقبّلها بحرارة. كان يرتدي بنطال جينز قديماً وقميصاً أبيض. بعد ذلك، لم تعرف عايدة كيف هبطت السلة على الأرض بسلام من يدها.

لأول مرة في حياتها، أحسّت عايدة بدفء خاصّ يسري في

جسدها، كما لو أنها جرعت جرعة قهوة حارة قوية. لم يكن شعوراً مريحاً. عندما طوقت كريم بذراعيها، أحسّت أن الأرض أصبحت أكثر نعومة تحت قدميها. عندما استفاقت وعادت إلى الواقع، نظرت في عينَي كريم بعمق ورأت أنه أكثر جاذبية مما رأته في اليوم السابق.

هل هذه هي القبلة المشهورة التي حوّلت ضفدعاً إلى أمير؟ بدأ قلبها يخفق بقوة كأنه سيقفز خارج صدرها.

«ظننت أنّك تريد أن تطبخ لي شيئاً لنتناول الطعام معاً - لكن أرجو أن تطبخ شيئاً يؤكل، لا أن تطبخني أنا».

«لقد أعددت كلّ شيء، لكنني أريد أن ألتهمك أولاً، لأنني أكاد أتضور جوعاً»، قال لها ذلك وقبّل عينيها.

«وأنا أيضاً، جائعة لك»، قالت بصوت خفيض، وضمّته إليها بقوة.

مشى بجانبها يحمل السلة بيده اليسرى. اعترى عايدة شعور غريب كما لو أنها تعرف بيته منذ زمن بعيد. فمن بوابة المنزل، يفضي درب جميل معبّد ومزخرف بالفسيفساء إلى ثلاث درجات عريضة على يسار البيت، وإلى شرفة مرتفعة قليلاً. ويطلّ الجانب الأيمن على حديقة باذخة كبيرة تزداد جمالاً في الخريف، مزروعة بأنواع من الخضراوات والورود وأشجار الحمضيات والتفاح والمشمش.

توجد في الشرفة منضدة صغيرة وثلاثة كراسي بجانب درابزين مزخرف من الحديد المشغول يفصل البيت عن الحديقة. وأمام الشرفة، يمتد درب تحت ثلاثة أقواس يؤدي إلى باحة داخلية صغيرة. وتتوسط الباحة بركة مثمنّة الأضلاع من الرخام الملوّن فيها نافورة تنفث ماء وتصدر فقاعات.

«تفضلي اجلسي»، قال لعايدة وأفلت يدها عندما جلست أمام

المنضدة. صوت خرير الماء الناعم منحها شعوراً بالهدوء والسكينة.

«هل تشربين قهوة؟»

«نعم، بكل سرور»، قالت، مع أنّها كانت تفضّل أن تعانقه وتستلقي معه على السرير الآن. كانت رائحته لذيذة تشبه رائحة خبز طازج، وتفوح من فمه رائحة حبّ الهال. لا بدّ أنه شرب قهوة منذ قليل.

دخل إلى المطبخ. من المكان الذي تجلس فيه، رأته يكاد يرقص وهو يعدّ القهوة. نظرت حولها. توجد لجميع الغرف أبواب ونوافذ تطلّ على باحة البيت. يحيط درابزين بممر ضيّق يشرف على باحة الدار ويمتد حول محيط الطابق العلوي. رأت خلف الدرابزين في الطابق العلوي غرفة كبيرة لها شرفة عريضة تطلّ على الحديقة تظللها عريشة ضخمة، تتدلّى منها عناقيد عنب أخضر فاتح، وتمنح ظلّاً للشرفة في الصيف كأنها مظلّة تقي من أشعة الشمس.

سمعت كريم يصفّر لحناً، لكن بنشاز. أحضر القهوة، وبدأت ترشف قهوتها ببطء وتتناول قطعة حلوى «عشّ البلبل»، الحلوى الدمشقية بالفستق الحلبي.

«هل تريدين أن أُريك البيت؟» سألها.

«لا، سأراه لاحقاً»، أجابته، وتناولت قطعة أخرى من حلوى عشّ البلبل.

بعد ساعة، كانت تستلقي مبللة بالعرق تحت شراشف السرير الرقيقة، تنظر إليه وهو يرفع إبريقاً من الفخار يتدفق الماء من فوهته في شكل قوس إلى فمه مباشرة. لم تستطع أن تفعل ذلك قط. عندما كانت طفلة، كانت تحسد شقيقها الذي كان يشرب بهذه الطريقة من دون أن تسقط قطرة ماء واحدة خارج فمه، كما يفعل كريم الآن.

عندما أفرغ نصف الإبريق، قال لها: «إنها مثل لعبة أطفال. تنفّسي من أنفك وابلعي الماء من دون أن تغلقي فمك». لكنها لم تستطع أن تفعل ذلك. كادت تختنق كلّما حاولت أن تفعل ذلك.

كان كريم واقفاً هناك بجسده الرياضي. ولو لم تعرف أنّه يتجاوز الخامسة والسبعين من عمره، لظنّت أنه في الخمسين لكن شعره شاب قبل الأوان. ابتسمت عايدة. لا يهتم الحبّ بتاريخ الميلاد أو بالدين، وإنما يصيب الناس كما خلقهم اللّه، من دون دين أو مال، فكلّنا متساوون في عرينا.

جاء إليها إلى السرير بقرب نافذتين تطلّان على الحديقة. كانت الغرفة واسعة، ورأت عايدة شجرة برتقال وشجرة ليمون تنتصبان أمام جدار الحديقة العالي، والسماء الزرقاء خلفه. قبّلها كريم. لم تشعر بهذه النعومة وهذا الإحساس بالاسترخاء منذ زمن بعيد.

«بيتك جميل»، قالت عايدة، وطافت عيناها نحو رفوف الكتب الممتدة على الجدران من جانبَي السرير.

«نعم، لكنّه بحاجة إلى عمل كثير. كنت سأضيع من دون فريدة».

«آه»، قالت مازحة وكأنها تفاجأت ولكزته برفق في صدره، «عشيقة ثانية. هل سحرتها أيضاً بمفاتنك؟»

ضحك، وقال: «ستتعرفين عليها قريباً. لا يمكن رشوة فريدة بالمفاتن. فهي تكسب رزقها من عملها مدبرة منزل في بيوت الأرامل، رجالاً ونساء، تغسل وتكوي وتنظّف البيت مرّتين في الأسبوع، وفي كلّ مرة تحتاج إلى ركوتيْ قهوة حتى تظلّ في مزاج رائق».

أعطاها بيجاما حريرية بيضاء جديدة. ضحكت وربطت البنطلون الواسع قليلاً عند الخصر برباط صغير، ثمّ رفعت كمَّي القميص

وساقَي البنطال. «إنك تبدين فاتنة»، قال لها: «مثل فتاة صغيرة لبست بيجاما والدها».

دخلا إلى المطبخ وفرم كريم الخسّ المغسول بسرعة. لم يسمح لها أن تلمس شيئاً، بل أن تقف وتراقبه فقط. قالت له: «دعني أعدّ المائدة على الأقل». لم يدللها رجل في حياتها قبل الآن. قبّلها وقال: «الأميرات يدعن الآخرين يقومون على خدمتهن. تذكّري ذلك دوماً». كانت المائدة في غرفة الجلوس بجانب المطبخ قد أُعدّت للتو. فاحت رائحة الفلفل والصنوبر المحمّص من الكبّة في الفرن، وضع كريم على المائدة دورق نبيذ أحمر وكأسين وقام بذلك بدراية وأناقة نادل خبير في مطعم.

بعد الطعام، طاف بها في أرجاء البيت الكبير. لم يُرها الغرف فقط، وإنما أراها أيضاً صوره مع زوجته المرحومة أميرة وابنته مها. ثم أراها ورشته، وغرفتَي الضيوف، والغرفة التي أمضت فيها ابنته طفولتها. وبينما كانا يقفان معاً على الشرفة في الطابق العلوي يستمتعان بتناول حبات العنب الطازج من العريشة مباشرة، لوّح كريم لامرأتين تحاولان مراقبة كريم وعايدة خلسة من البيت المجاور.

«أصبحت لديهما الآن فضيحة جيدة ليبعدن الضجر عنهن»، قالت عايدة، وضحكت.

فقال: «لا تكوني قاسية القلب. فإذا كان حبّنا مفيداً لهما، حتى لو أبعد الضجر عنهما فقط، فهذا شيء جيد»، لكنها لم تعرف إن كان يمزح أم أنه جاد في كلامه.

قبل أن يصيح الديك من البيت المجاور في صباح اليوم التالي، علمت جميع النسوة في زقاق الياسمين أنّ كريم وعايدة عاشقان وأن عايدة أمضت الليلة في بيته. كان الجزء الأول من الإشاعة صحيحاً، أما الجزء الثاني فلم يطابق الحقيقة.

بعد منتصف الليل استوت عايدة جالسة في السرير. فلم تمارس الحبّ مع رجل ثلاث مرات في يوم واحد من قبل قط. فقد نام كريم «النهم» كما يسمي نفسه بجانبها، هادئاً مثل طفل رضيع. كانت درجة حرارة الغرفة لطيفة. في الخارج، غمر البدر الحديقة بضوئه الجميل. انسلّت عايدة عارية إلى النافذة مأخوذة بجمال الليل كما لو كانت تراه لأول مرة في حياتها. قالت لنفسها، لا عجب أنّ العرب يتغنّون بالليل بوله شديد.

عندما التفتت، رأت كريم مستيقظاً. سألها، «ماذا تفعلين عند النافذة؟»

فقالت: «أستنشق هواء منعشاً وأسبح في ضوء القمر».

«تعالي، فأنا لا أجيد السباحة من دونك»، قال، مادّاً ذراعيه.

فقالت: «يجب أن أعود إلى البيت». ارتبك ولم يفهم سبب رفضها. لكن عايدة أصرّت. حتى لو أمضيا معظم وقتهما معاً، سواء في بيته أم في بيتها، لم ترغب أن يناما معاً حتى الصباح. «بهذه الطريقة، سنتمتع كلّما التقينا بكل دقيقة كأنها مغامرة مثيرة، ثمينة»، قالت، وقبّلته، وغادرت.

المطاردة
أو كيف تبدأ الكوارث

دمشق، ١٣- ١٤ *كانون الأول* ٢٠١٠

الغريب في الأمر أن إيزابيلا زارتهم في اليوم التالي، يوم الاثنين، لكنها جاءت وحدها هذه المرة. قرعت الجرس عندما كان سلمان يتهيأ لمغادرة البيت في ذلك الصباح. كانت إيزابيلا ترتدي صباح ذلك اليوم ثياباً أنيقة، تغلّفها سحابة من العطر. قالت مازحة إنها تودّ أن ترى سلمان مرة أخرى قبل أن يختفي لسنوات أخرى، وأكدت أنها أُعجبت كثيراً بالحديث الذي دار ليلة البارحة عن الروايات البوليسية. عندما سألها والد سلمان عن إلياس، قالت إنه سافر إلى روسيا في وقت مبكر من صباح اليوم، وسيمكث هناك من عشرة أيام حتى أسبوعين. وأضافت أنه ليس من المفروض أن تخبرهم بأنّه سافر في مهمّة سرية، لكنهم من العائلة. وقالت إن إلياس يرسل أجمل تحياته إلى سلمان.

سأل سلمان إيزابيلا هل تريد شيئاً يمكن أن يرسله لها من روما عندما يسافر بعد بضعة أيام. كأنها كانت تنتظر هذا السؤال، أخرجت قصاصة ورق من حقيبتها اليدوية فيها اسم نوعين من مُطرّي البشرة وعطراً غالي الثمن. نفس نوعية العطر الذي تستخدمه ستيلا. قال لها

سلمان إنه سيرسل لها كلّ ما تريده ورفض أن يأخذ النقود التي حاولت أن تعطيها له، وقال: «إمّا هدية وإمّا أنني لن أرسل لكِ شيئاً على الإطلاق».

«تعال وزرني، ودعني أدللك. فأنا أشعر بالملل طوال اليوم»، همست له إيزابيلا وهو يساعدها على ارتداء معطفها. صُعق سلمان عندما سمع ذلك ولم يقل شيئاً. ضمّته إليها بقوة وأحسّ بجسدها الدافئ الطري. لو لم تكن أمّه واقفة وراءه لقبّلها. راودته رغبة شديدة نحو هذه المرأة. نظرت إليه إيزابيلا نظرة ماكرة، تشي بأنها فهمت. ابتسمت، وغادرت بسرعة.

«جاءت من أجل هذا الطلب»، همهمت صوفيا، مشيرة إلى قصاصة الورق عندما عاد سلمان إلى غرفة الجلوس. فأجابها زوجها بلطف إن إيزابيلا جاءت بنية حسنة، لكن صوفيا تريد أن تجد دائماً أعذاراً لتعبّر عن عدم حبّها لإلياس وزوجته.

«إنها امرأة غبية، صائدة رجال وما إن تقع الفريسة بين مخالبها، حتى تتركها تتلوّى»، قالت صوفيا وهي في طريقها إلى المطبخ.

وجد سلمان إيزابيلا جذّابة جنسياً واشتهاها، لكنّه لم يعارض كلام أمّه. فهو لم يفعل ذلك منذ أن بلغ العاشرة من عمره.

خففت العقلانية من اتقاد شهوته. ففي الأيام القليلة المتبقية، يجب أن يتفادى أي محاولة لاستفزاز إلياس بأي ثمن، لأنه لا بدّ أن إلياس يراقب زوجته، ربما بكاميرات ليبتزّ عشاقها عند اللزوم. سرت رعشة باردة في ظهر سلمان، وجرفت بقايا رغبته تجاه إيزابيلا بعيداً.

ذهب سلمان مجدداً إلى سوق الحميدية الكبير. وجد دبوس زينة (بروش) ذهبي وقلادة لستيلا، مصنوعتين بحرفيّة عالية، مثالان رائعان عن فنّ صياغة الذهب، واشترى لباولو علبة كبيرة مصنوعة من خشب ثمين مطعّم بالصدف، وصندوق موسيقى يعزف *Eine kleine*

Nachtmusik «موسيقى لُيلية صغيرة» لموزارت، المعزوفة التي يحبّها باولو كثيراً والتي لم يملّ يوماً من سماعها عندما كان صبياً صغيراً. أمضى سلمان بعد ذلك ما تبقى من النهار في ورشة طارق، وتأثر كثيراً عندما أعرب له ابن خالته عن إعجابه الشديد والدائم به، ولم يكن كلامه ينمّ عن أي حسد.

في ذلك المساء، دُعي سلمان إلى العشاء مع بطريرك الكنيسة الكاثوليكية. فقد اتّصل به ابن عمه، الأب ميشيل أبو كسم في اليوم السابق، وقال له إن رأس الكنيسة الكاثوليكية سيكون سعيداً لأن يستقبل في بيته أحد أبناء الطائفة الكاثوليكية الذين حققوا نجاحاً كبيراً، وقال له مازحاً، «ابن عمي الغني العزيز، اكتب شيكاً قبل أن تأتي. فكما تعرف إن بطركيتنا تدير داراً للأيتام».

فأجابه سلمان، «ألا يكفي أنّني أعترف بالبطريرك مع أنني كنت شيوعياً؟» بدت ضحكة أبو كسم مفتعلة، وقال: «البطريرك لا يعرف شيئاً عن ماضيك. لنحتفظ بذلك لأنفسنا».

أخذ اللقاء مع البطريرك طابعاً رسمياً، وأظهر الرجال الثلاثة أفضل ما لديهم من دبلوماسية. سُرَّ سلمان كثيراً عندما لاحظ أن البطريرك لا يسكر إذا أكثر من الشرب، حتى لو شرب نبيذاً لبنانياً ممتازاً بكميات هائلة. ودّعهما سلمان قرابة منتصف الليل، وأراد أن يطلب سيارة أجرة، لكن البطريرك أصرّ على أن يوصله سائقه بسيارته الليموزين السوداء. أعطى سلمان لرأس الكنيسة الكاثوليكية مغلفاً فيه ألفا يورو، «هذا من أجل ملجأ الأيتام»، قال بصوت خفيض مع أن البطريرك لم يذكر عنه شيئاً، فابتسم الأب أبو كسم ابتسامة عريضة.

«ممثلو المسيح يسافرون برفاهية كبيرة بينما اكتفى السيد المسيح بحمار صغير»، علّق سلمان من المقعد الخلفي في السيارة الفخمة، وأسند ظهره مستمتعاً بالفخامة.

«بطريركنا يمثّل عدة ملايين من الكاثوليك في الأرض المقدّسة، ولا يمكن أن يتنقل بسيارة سيتروين بحصانين (دو شوفو)»، أجابه السائق الذي شعر بالإهانة، ووفّر على سلمان فتح حديث آخر.

«جاء عدد كبير من الناس. . . أنا فخورة بك يا ابني»، همست له أمّه عندما عاد إلى البيت، «لكنني أكّدت لهم أنك ستبقى حتى الثالث والعشرين من الشهر»، ضحكت، وأضافت، «لعنت أختي تقلا البطريرك لأنه حرمها من قضاء السهرة معك - نعم، هذا ما قالته تماماً».

في اليوم التالي، أرادت أمّه أن يذهب لزيارة إحدى خالاته التي يزيد عمرها على مئة سنة، المصابة بذات الرئة والراقدة في قسم العناية المركّزة في المستشفى الفرنسي الذي كان يُعرف باسم مستشفى سانت لويس. وقالت له بما أنه سيبقى لبضعة أيام أخرى فقط، عليه أن يذهب ويودّع خالته التي أحبّته كثيراً عندما كان طفلاً.

لم تعرفه الخالة. ابتسمت، لكن بدا لسلمان أن ابتسامتها لم تكن موجّهة إليه، وإنما إلى شخص غير مرئي. وتمتمت عبارات مفككة ربما كانت جزءاً من محادثة سرية مع أشباح يتراءون لها. مسّد يدها الشاحبة التي تُبرز عروقاً زرقاء تحت بشرتها الرقيقة. عندما لم تستجب للمسته، حزن سلمان كثيراً ودمعت عيناه. فقد كانت خالته امرأة نشيطة مفعمة بالحيوية، قوية لها وجه ملاك وأصبحت الآن كومة من الجلد والعظم تتنفّس. كم يشعر الذين هم على فراش الموت بالوحدة، قال لنفسه، حتّى عندما يأتي أحد ليشعرهم بالراحة ويعتني بهم، ويؤكد لهم أنهم لا يعيشون وحدهم في كوخ بائس.

خرج سلمان من الغرفة. شعر بالرغبة في أن يتناول فنجان قهوة إسبريسو. نظر إلى ساعة يده وفوجئ بأنه أمضى فقط نصف ساعة مع

خالته أحس بها كأنها دهر. جلس في مقهى صغير وطلب قهوة إسبريسو إيطالية. بينما كان يرشف آخر رشفة من قهوته، وقعت عيناه على الصفحة الأولى من الصحيفة الحكومية اليومية «تشرين» التي يقرأها رجل جالس أمامه، ورأى صورته. لم تكن صورة كبيرة، لكن العنوان الرئيسي كان بارزاً. الشرطة تبحث عن هذا الرجل، قاتل فاطمة حداد. لم يستطع أن يكمل قراءة الخبر، فدفع ثمن القهوة وغادر المقهى بسرعة.

شعر كأنه أصيب بصفعة على وجهه. أول ما خطر ببال سلمان أن يشتري نظارات شمسية. رأى سوبرماركت قريب لكنّه لم يجرؤ على الذهاب إليه. ثم وجد محلاً لبيع النظارات أمام ساحة برج الروس. اختار نظارات شمسية أنيقة. وضعها على عينيه، وتنفّس الصعداء. اعتراه شيء من الأمل، قال لنفسه، ربما تخيّل أنه قرأ اسمه، وأن القاتل يشبهه كثيراً. شعر بأنه أصبح محمياً بهذه النظارات، وتمنّى في قرارة نفسه أن يكون الخبر غير صحيح.

اشترى نسخة من الصحيفة من الكشك المجاور، وجلس في مقهى صغير، وقرأ التقرير القصير. بدأ قلبه يخفق بقوة. لا يوجد خطأ. فهذه الصورة صورته التُقطت في شقّته في روما قبل عشر سنوات عندما أرسلها آنذاك إلى والديه، لأن أمّه رجته أن يرسل لها صورته لتريها للأقارب بعد غيابه كلّ هذه السنين. وقد كُتب تحتها في الصحيفة اسم القاتل: «علي الأحمر»، وهو اسمه الحركي عندما كان في صفوف المقاومة.

إنه لا يعرف المرأة المقتولة. فقد ورد في الخبر أنّ فاطمة حداد زوجة وزير الثقافة الذي كان ذات يوم رئيس جهاز المخابرات، قُتلت في بيتهما في أوائل تشرين الثاني، أي قبل أربعة أسابيع من وصول سلمان إلى دمشق على الأقل. وتقول الشرطة الجنائية إنها تظن أنّ

إسلاميين خططوا لقتل الوزير، لكنه لم يعد إلى البيت في تلك الليلة لأنه كان يشارك في حفل افتتاح مطعم جديد.

تابع سلمان الخبر على الصفحة الرابعة: في منتصف الثمانينات، كانت فاطمة عضوة في جماعة إسلامية راديكالية منشقّة عن حزب الإخوان المسلمين تعرّض أعضاؤها للتعذيب على يد الرجل الذي أصبح زوجها فيما بعد مع أنها كانت سجينته أيضاً، لكنّه كان يعاملها برقّة شديدة، ثم أحبّته وتركت الكفاح المسلّح. وعندما تزوّجت فاطمة، وزّع أصدقاؤها القدامى منشورات تقول إنّها كانت تعمل مخبرة لصالح المخابرات، وقالوا ساخرين إنها انتقلت من زنزانة كبيرة إلى سجن انفرادي في بيت زوجها المتوحش. عندما كان سلمان في روما في الثمانينات، سمع عن حملات الاعتقال العنيفة التي شنتها الدولة والاغتيالات التي قام بها الإسلاميون انتقاماً لهذه الحملات التي أدت إلى تصعيدها. بدت فكرة أن سلمان هو الذي قتل هذه المرأة قبل أن تطأ قدماه سوريا، نكتة سمجة.

لكن التقرير لم يتوقّف عند اتهام سلمان بقتل المرأة، وإنما اتهمه أيضاً بأنه أطلق النار على شرطي وأصابه بجروح خطيرة في شمال سوريا منذ سنوات عديدة. وأنه شخص عنيف يجب الحذر منه، وتطلب الشرطة أي معلومات قد تؤدي إلى... هنا توقّف سلمان عن القراءة. بدأ يتنفّس بصعوبة. إنه الرجل المعنيّ. لقد مضى أكثر من شهر على جريمة قتل فاطمة حداد الشنيعة واتهموا الإسلاميين بقتلها، وهذا يبرئه من هذه التهمة لأنه مسيحي. لكن ما الفائدة من كلّ ذلك؟ فالجزء الثاني من التقرير يكفي لأن يُدخله السجن مدى الحياة، وهو صحيح إلى درجة كبيرة، مع أن سنوات طويلة مضت على تلك الحادثة. لكن كل ذلك لا يهم، لأنه إذا قُبض عليه، فإنه سيُرغم على الاعتراف بكل ما يريدون أن يسمعوه وهو تحت التعذيب - حتى أنه

سيكون مستعداً لأن يعترف بقتل شخص لم يُقتل أصلاً. ابتسم بيأس.

عاد سلمان إلى الصفحة الأولى وأعاد قراءة اسم القاتل - علي الأحمر. كان قد اختار هذا الاسم آنذاك لأن الاسم الأول «علي» اسم شخص مسلم ليخفي أصوله المسيحية. أما «الأحمر» فلأنه يلمح إلى معتقده السياسي الشيوعي آنذاك، ويشير في الوقت نفسه إلى عشيرة كبيرة لا تنتشر في جميع أنحاء سوريا فحسب، وإنما في أرجاء البلدان العربية أيضاً. أدرك سلمان الآن سبب عدم ذكر اسمه الحقيقي، سلمان بلدي، لأن عائلة بلدي عائلة مسيحية معروفة. فكيف يمكن لشخص يحمل هذا الاسم أن يكون قاتلاً ينتمي إلى جماعات إسلامية؟ أما علي الأحمر فهو اسم مسلم. يا لها من ضربة معلّم.

إلى جانب صورة المرأة المقتولة، وضعت في الصفحة الرابعة صورة أخرى لسلمان عندما كان في معسكر تدريب الفدائيين الفلسطينيين في جنوب لبنان مع رفيقين آخرين من مجموعته الثورية، يحمل كلّ واحد منهما في يده اليمنى بندقية كلاشينكوف، أما هو وصديقه فؤاد أبرش فكانا يرفعان قبضتيهما علامة تحية بيدهما اليسرى. أما الرجل الواقف إلى يسار الصورة، فهو هشام رافعاً كتاب تشي غيفارا.

كُتب تعليق تحت الصورة: «علي الأحمر، مع إرهابيين إسلاميين آخرين بالقرب من مدينة قندهار بأفغانستان يحملان القرآن». لا يستطيع أي قارئ أن يميّز ما هو الكتاب لأن الصورة قديمة جداً وغير واضحة، لكن سلمان تذكّرها جيداً. تأكد الآن أن إلياس هو الذي أعدّ له هذه المكيدة، بعناية وعن سبق إصرار، لأنه هو الذي أخذ تلك الصورة آنذاك في جنوب لبنان - إلياس، الفدائي السابق الذي أصبح الآن ضابط مخابرات برتبة عقيد. ومن جهة أخرى، لا يعرف أحد الاسم الحركي والمعلومات المتعلقة بماضيه إلّا إلياس.

أول فكرة خطرت لسلمان هي أن يذهب إلى قسم الشرطة ويخبرهم بأنه يستحيل أن يكون القاتل لأنه كان في روما عندما ارتُكبت الجريمة، وأنه مسيحي لا علاقة له بالحركات الإسلامية. «إذاً هذا هو الثقب في السياج»، قال سلمان لنفسه، عندما تذكّر القصّة التي حكاها إلياس. قد يستمعون إليه في قسم التحقيق الجنائي، لكنّهم سيحيلونه فوراً إلى المخابرات، فيعتقلونه ويسلّمونه لهم. يد باردة كالصقيع أمسكت بقلبه. وفجأة تأكّد سلمان أن إلياس لم يسافر إلى موسكو، وإنما كذب على زوجته لكي تنشر هذا الخبر. «لا بد أنه جالس الآن في مكتبه في إدارة المخابرات يوجّه العملية ويديرها»، قال سلمان لنفسه.

اتّصل سلمان بوالديه، لكن الخطّ كان مقطوعاً. سار بخطى وئيدة في شارع الأخطل، وتجاوز المستشفى الفرنسي. عندما انعطف عند الزاوية ووصل إلى مقهى «كافي دي روما»، رأى عدّة سيارات شرطة وسيارات لاند روفر بيضاء تابعة للمخابرات مصطفة أمام بناية والديه، بالإضافة إلى حافلتين صغيرتين لونهما أبيض على الجانب الآخر من الشارع قبالة بقالية العجمي. سأل سلمان رجلاً قادماً من ذلك الاتّجاه عمّا يجري، لكن الرجل لم يردّ، إما لأنه لا يعرف وإما أنه لم يشأ أن يتحدث في هذا الأمر. ثم اقتربت امرأة منهما، فسألها سلمان، «ما الذي يجري هناك؟»

«هناك مجرم مختبئ في البناية التي يسكن فيها والداه، لقد قتل عدّة أشخاص. أعان اللّه والديه المسكينين»، قالت وهي تلهث، ثم مضت مسرعة.

اتّصل سلمان بستيلا على جواله وقال لها إنه يحبّها ويحبّ باولو كثيراً. ضحكت وقالت له إنّها اشتاقت له كثيراً، خصوصاً ليديه وشفتيه، وإنها تنتظر أن تنقضي الأيام القليلة المتبقية لعودته بفارغ

الصبر، وقالت أيضاً إنّها نادمة لأنها لم تأت معه. حبس دموعه وطمأنها بأنها أحسنت صنعاً لأنها بقيت في روما مع باولو. وطلب منها ألّا تقلق، لأنه قد لا يتمكن من الاتصال بها كلّ يوم لأن الخطوط تتعطل كثيراً في دمشق. وأغلق الهاتف قبل أن تسأله عن تفاصيل أخرى.

أيدٍ مساعدة

عندما أدرك أنه وقع في الفخّ الآن، لعن الساعة التي عاد فيها إلى دمشق ولعن نفسه. كيف بلغت به السذاجة لأن يضع ثقته بهؤلاء الناس؟ إلى أين يمكن أن يذهب الآن؟ أول شخص خطر بباله، طارق، ابن خالته الوفي الذي طالما عرض عليه أن يساعده. كان طارق الذي يصغر سلمان بخمس سنوات يشعر بامتنان شديد لخالته صوفيا وزوجها وقبل الجميع لسلمان لأنهم ساعدوا ابنته سامية على استعادة حياتها الطبيعية وسعادتها، واستمرت صداقتهما منذ طفولتهما. وكان طارق يطمح لأن يكون محامياً، لكنه توقف عن دراسته الجامعية بعد سنتين عندما ثار جدال بينه وبين أحد الأساتذة. وبما أنه يحبّ النجارة، عمل في ورشة النجارة الكبيرة التي يملكها والده والتي تولّى إدارتها وتطويرها بعد وفاة أبيه قبل عشرين سنة. وعاش مع أمّه - الخالة تقلا - وزوجته منى في شارع المسك، القريب من ساحة باب توما. وتعيش ابنته سامية مع زوجها في شارع قريب، ويعمل ابنه أمير في الكويت.

حان الوقت الذي يحتاج فيه سلمان إلى المساعدة، إلى بوصلة في وسط غابة مظلمة من المشاعر المليئة بالقلق والخوف والعزلة، لترشده إلى درب الأمان، وطارق هو الشخص الوحيد الذي يستطيع

مساعدته. اتّصل به سلمان وسأله هل يمكنه أن يطلب منه معروفاً كبيراً، فأجابه طارق، «على الرحب والسعة في أي وقت. تعال إلى البيت. سآخذ استراحة من العمل بعد دقيقتين. يمكننا أن نتناول الطعام معاً».

فوجئ سلمان. ثمّ نظر إلى ساعة يده. كانت الساعة الثانية عشرة وعشرين دقيقة. أحسّ بالجوع فجأة، لأنه لم يتناول سوى قطعة كرواسان وقهوة إسبريسو منذ الصباح. استقلّ سيارة أجرة، وبعد نصف ساعة، كان يجلس إلى المائدة مع طارق والخالة تقلا ومنى.

عندما رأته خالته تقلا في هذه الحالة البائسة، دمدمت، «لتحرسك العذراء»، وسارعت منى وأحضرت له فنجان قهوة. في هذه الأثناء حكى لهم سلمان ما جرى. لم يكن أحد منهم يعرف شيئاً عما حدث كل ذلك لأنهم لم يقرأوا الصحيفة. قال لهم سلمان إنه يشكّ في أنّ إلياس يقف وراء نشر بلاغ القبض عليه، وحكى لهم عن الصورة التي يملكها إلياس فقط، وعن سيارات الشرطة والمخابرات المركونة أمام بنايتهم.

قالت منى، «لكن إلياس في موسكو. قالت لنا أمّك البارحة إنّ إيزابيلا جاءت إلى بيتكم و...».

فقاطعها طارق وقال: «هذا هراء. لقد فعلت إيزابيلا ما يريد إلياس أن تفعله من دون أن تعرف، بينما هو جالس في إدارة المخابرات المجهّزة بكل شيء كأنها فندق للضبّاط الذين يعملون في إحدى القضايا لأيام عديدة أو حتى لأسابيع. وقال لزوجته، 'سأسافر إلى موسكو' وأكدّ لها أنه ذاهب في مهمة سرّية. وكما تعرفون فإن زوجته دمشقية أصيلة. فإذا أردت أن ينتشر خبر بسرعة، فقل لشخص دمشقي إنه سرّ. إيزابيلا لا تعرف شيئاً لأنه لا يثق بها. إنها مجرد رفيقته والأداة التي يستخدمها».

«أتظنّ حقاً أنه لا يزال هنا؟» سألت خالته.

«أنا متأكّد من ذلك. فهو لا يبدأ قضية كهذه إلّا إذا كان يوجّهها ويتحكّم بها بنفسه. سلمان على صواب. فمن له مصلحة في هذا البلد بإلصاق جريمة قتل بشخص هاجر منذ سنوات وحدثت قبل أن يصل بأربعة أسابيع؟»

حكى لهم سلمان بصراحة عن ماضيه في العمل السري، وعن النضال المسلّح وكيف أطلق النار على ذلك الشرطي.

«توقّف يا بني، يا حبيب قلبي»، قالت الخالة تقلا، «لستَ بحاجة إلى أن تبرهن لنا إنّك بريء. أنا متيقنة بأن إلياس يقف وراء كلّ ذلك. إننا نعرف ابن العاهرة هذا جيداً. قلبه يطفح بالسمّ وهو يستمتع بتعذيب الأبرياء. المدينة كلّها تعرف ذلك. لكن لماذا يطاردك؟»

«لا أعرف»، أجاب سلمان، لا يكاد صوته يُسمع.

عبقت رائحة طعام شهي، لكن لم تكن لدى سلمان شهية للأكل، فتناول بضع لقيمات. غرق الجميع في الصمت، كلّ منهم يبحث عن جواب للسؤال الذي سألته تقلا. عندما أنهوا الطعام، وجلبت منى القهوة، اقترحت الخالة تقلا أن ينتقلوا إلى غرفة الجلوس، لكن طارق طلب منهم أنّ يظلوا جالسين إلى المائدة، لعل أحدهم يراقب غرفة الجلوس من الشارع أو من البيوت المجاورة. ثم دخل طارق إلى الغرفة المجاورة، وشغّل المذياع ورفع صوته إلى أعلى حدّ، وعندما عاد أغلق الباب وراءه، وقال: «يمكننا الآن أن نتكلّم من دون أن يزعجنا أحد»، وجلس.

«لا أظن أن الانتقام دافع كافٍ»، قال طارق، «أنا متأكد من أن إلياس يريد مزيداً من النقود. فلم تكفه العشرة آلاف دولار التي ذكرتها الخالة صوفيا. فهو يعرف أنّك غني. لنكن صادقين، بحسب المعايير السورية، فإنك شخص ثري جداً. ومما سمعته، فقد تجاوز

إلياس حدود إمكانياته، بتلك الفيلا الكبيرة التي يملكها وأسلوب حياته الباذخة. وهو غارق في الديون حتى أذنيه. لذلك، فإنه يعتبرك منجم ذهب. هذا هو الأمر بكل بساطة. في العام الماضي، اتهموا الصائغ هنري حلبي بأنه عميل لصالح وكالة الاستخبارات الأمريكية واعتقلوه. هل يمكن أن تتصوّر ذلك؟ فوكالة الاستخبارات الأمريكية غبية إلى درجة أنها لا توظّف أشخاصاً أذكياء يحيطون بالديكتاتور لديهم معلومات سرية، لا يتردّدون في بيعها لقاء حفنة دولارات، وإنما يستخدمون صائغاً يزيد عمره على ثمانين عاماً. وعندما دفعت عائلته مليونيْ دولار لصهر الرئيس، أطلقوا سراحه على الفور، وأُلغيت جميع التهم التي ألصقوها به، وتبخرت في الهواء».

«لكن ماذا سيفعل إذا لم يستطع صهري يوسف دفع هذا المبلغ؟ وكما أعرف من أختي فهما لا يستطيعان ذلك حقاً. ماذا سيفعل عندئذ؟» سألت تقلا.

«يعرف إلياس من أي اتجاه تهبّ الريح. لا تستهيني به. كنت أظنّ أنه غبي من طريقة كلامه الركيكة والغريبة ونظرته المتجهمة، لكن هذا مجرد قناع. فهو يعرف مدى تعلّق أختك صوفيا بسلمان، ويظن أنها ستجمع هذا المبلغ من أفراد العائلة، لنقل، مليون دولار. وهو متيقن بأن سلمان سيعيد كلّ قرش إلى عائلته عندما يعود إلى روما. في نهاية الأمر، لا يكون قد انتقم من سلمان فقط. وإنما أصاب عصفورين بحجرة واحدة - ينتقم منه ويصبح بإمكانه تسديد ديونه».

فقالت منى، «طارق على صواب. سنكون نحن أول من نرهن بيتنا لندفع مئة ألف دولار نستدينها من بنك أو من أحد المرابين».

فقالت تقلا: «أعرف، وأنت على حق يا ابني، فلدينا أنا وصوفيا أقارب أغنياء في حمص وحلب - أغنياء جداً - وإلياس يعرف ذلك».

«صحيح» علق سلمان، «اثنان منهم شريكان معي في العمل، يصدّران عدّة أطنان من الحلويات والتوابل السورية إلى إيطاليا كلّ سنة. بالتأكيد فإنهم مستعدون لإعطائي ما يعادل هذا المبلغ كسلفة. لكني أتساءل لماذا لم يداهموا بيتنا ويلقوا القبض عليّ كما يفعلون عادة».

فقالت منى، «سيكون ذلك أمراً في غاية البساطة بالنسبة لإلياس. لكن الأمر واضح للغاية. فهذا لن يرضي نزعته السادية. فهو يستمتع بإخافتك أنت وأقاربك، ويريد أن يستدرجك إلى فخّ ويكون هو الذي يحرّك خيوط الدمى هذه لأنها تمنحه لذة صياد سادي».

فأجاب سلمان «تبدو القصة مبالغة... أشبه بحبكة في فيلم سينمائي. لا أعرف...».

فأجابت تقلا، «لا أستبعد أن يفعل ذلك».

«أظن أن منى على حق»، قال طارق، «ففي معظم الأحيان، فإننا نتصرّف كما لو كنّا في فيلم شاهدناه، ولا نتصرّف وفق عاداتنا وتقاليدنا أو نستمع إلى صوت العقل. انظروا إلى حفلات الأعراس هنا في دمشق. فهي نسخ رديئة عن حفلات الأعراس التي نراها في الأفلام الرخيصة، حتى العربات التي يجرّها حصان، ونثر الرزّ، وارتداء البدلات السوداء وفساتين العرس بأذيالها الطويلة وربطات العنق على شكل فراشة. كلّ هذا يجري في شهر تموز القائظ، والطعام الذي نأكله والأسماء التي نسمي بها أطفالنا، وكيف نتكلّم ونضحك ونرقص، وكيف نلبس ثيابنا ونضع أوشاماً. كلّها تشبه ما نراه في الأفلام. فلم لا يستمدّ وحش مثل إلياس وحشيّته من فيلم رعب؟»

«لكنه يجازف بأن يدعني أتحرّك بحرية. ماذا لو استطعتُ أن أهرب؟»

فقالت منى، «أظن أنه وضع بيتكم تحت المراقبة منذ البارحة

ويتعقبك أشخاص في كلّ خطوة تخطوها. لا يمكنك أن تخطو خطوة واحدة من دون مراقبتك. إنها مطاردة محترفة. إلياس ليس هاوياً».

رفعت تقلا عينيها مذعورة، وقالت: «هل هذا يعني أنهم يقفون خارج باب بيتنا الآن؟»

فأجابتها منى، «لا، كانت المخابرات تفعل ذلك في الماضي - يقفون في أماكن مرئية بغباء. أنا متأكّدة من أنهم ينصبون كميناً في مكان قريب».

فجأة، وضع سلمان يده في جيبه وأخرج هاتفه الخلوي، وقال خائفاً، «يستطيعون تحديد مكاني من تتبع أثر هاتفي»، وأضاف، «فقد أراني أحد أصدقائي في إيطاليا على هاتفي الذكي بأنّني موجود في بيته، وأين كنت قبل ذلك... مكان تلو الآخر. إنه تحرٍّ خاصّ، وتمكّن من تعقب امرأة من بيتها حتى غرفة الفندق التي تلتقي فيها مع عشيقها. هذا شيء مخالف للقانون، لكن كلّ أجهزة المخابرات تفعل ذلك».

وقفت تقلا مذهولة. «هل يعرفون إلى أين تذهب؟ ارحميني يا عذراء! في أي زمن نعيش؟». خشي طارق أيضاً أن يكشف هاتف سلمان عن مكانه. وبالمطرقة التي أعطاها له، جثا سلمان على ركبتيه وراح يضرب الهاتف حتى هشّمه.

«سأتخلّص من بقايا الهاتف في الشارع»، قال طارق ولملم قطع الهاتف المهشّمة ووضعها في كيس.

ولكي يكون في مأمن، كتب سلمان أرقام هاتفيْ ستيلا وباولو على قصاصة ورق وأعطاها لطارق، وقال له، «في حال حدث لي شيء».

«نأمل ألّا نحتاج إليها»، قالت منى، وخبأ طارق القصاصة بين صفحات كتاب للطهي على الرفّ.

«طبعاً سنحتاج إليها - لنطمئن زوجتك»، قالت تقلا، ثم أضافت، «يجب أن نتّصل بها باستمرار، وإلّا فإنها ستفقد صوابها».

«من أين ستتصل بها بأمان؟ ومن سيتلفن لها؟» سأل سلمان، «وكيف ستتأكد ستيلا أننا نحن الذين نتّصل بها لا المخابرات؟»

«سحر، ابنة عمة منى، تعيش في بيروت»، قال طارق بعد لحظة تفكير، «وهي تجيد عدّة لغات ونثق بها كثيراً. وعندي أيضاً صديق قديم من أيام المدرسة، وفيّ وكتوم، يقود حافلة بين بيروت ودمشق، يمكنه أن ينقل رسائل إلى بيروت ويوصلها إلى سحر لتتصل بزوجتك».

«يجب أن تقتصر الرسالة على بضع كلمات فقط، مثل رسالة حبّ قصيرة، تسجّل فيها معلومات لا يعرفها أحد غيركما. بإمكاني أن أرسل رسالة كلّ ثلاثة أو أربعة أيام».

وافق سلمان. نهض طارق وأحضر دفتراً صغيراً، وقال لسلمان، «اكتب لي ثلاثة تفاصيل شخصية قصيرة تؤكد لستيلا أن الرسائل حقيقية»، وأعطى الدفتر لسلمان. عندما بدأ سلمان يكتب، أخذ طارق يتنقل من غرفة إلى أخرى، يصيخ السمع.

عندما عاد طارق، أعطاه سلمان الدفتر، وقال: «هذه أربع ذكريات لا يعرفها أحد غيري وستيلا». لكن طارق كان ساهماً.

«إنهم عند الباب»، قال بوجه شاحب، ثم أضاف بحزم، «اسمع، سأُخرجك من بيتنا إلى ساحة باب توما من فوق أسطح بيوت جيراننا. ومن هناك، خذ سيارة أجرة إلى بيت ماريا. سنبذل جهدنا لإخراجك من البلد وسنخبر والديك. وحتى لو كنّا مُراقبين، فإنهم يعرفون أنّنا نزور الخالة صوفيا مرّة أو مرّتين في الأسبوع - حتى قبل أن تأتي بفترة طويلة - لذلك سنظل نزورها ونخبرها بما يجري. وإذا حدث شيء، يمكنك أن تتسلل من الممر في ورشتي. أتتذكّرها؟»

«نعم، الباب موجود في شارع الدير، أليس كذلك؟»

كان سلمان يعرف ورشة النجارة الضخمة التي يملكها ابن خالته التي طالما لعبا فيها في أيام طفولتهما. ومع أنّ طارق كان أصغر سنّاً من سلمان، فقد كان يفوقه مهارة. الورشة ليست بعيدة من منزل طارق ولها باب كبير في حارة المسك يفضي إلى باحة أمامية صغيرة يركن فيها طارق شاحنته وسيارة فان فورد، ويضع أخشابه فيها أيضاً، ومن هناك، يؤدي الطريق عبر بوابة خشبية كبيرة ثانية إلى قاعة الورشة الكبيرة.

وفي الجهة المقابلة، يوجد بابان، يؤدي أحدهما إلى مطبخ صغير يتسع لأربعة أشخاص حول طاولة متقلقلة يجلس إليها طارق عندما يشرب الشاي ويتفاوض مع زبائنه. كان طارق يمزح طوال الوقت ويقول غالباً إن الخياطين يكونون عادة نصف عراة، ومصلّحي الأحذية ينتعلون أسوأ أنواع الأحذية، ويتناول النجارون طعامهم على طاولات متقلقلة.

أما الباب الثاني، فيؤدي إلى حمّام كبير فيه مرحاض ودوش وله منفذ ثان يؤدي إلى ممر ضيّق يشبه النفق تحت البيوت المجاورة وينتهي عند باب على بعد خمسة عشر متر تقريباً، ويفضي الباب إلى شارع الدير الذي لا يبعد كثيراً عن الكنيسة المارونية. ويحتفظ طارق بمفتاح هذا الباب لأن الممر تابع للورشة، كما هي الحال منذ قرون. وقد حُكيت قصص كثيرة عن هذا الشيء الغريب، لكنّها نُسيت منذ زمن - كما نُسي الممر نفسه. ويشبه الباب المفضي إلى شارع الدير باب بيت لكن لا يوجد عليه رقم أو اسم عائلة، وإنما كُتبت عليه كلمة 'مدخل'.

«يمكنك أن تأخذ المفتاح الثاني للباب الآن لتدخل متى احتجت إليّ بواسطته»، قال طارق، «ثمّ انتظر في الممر واتصل بي من هناك.

دع الهاتف يرنّ ثلاث رنات، ثم أغلق الخط. إذا كان الوضع آمناً، فسأفتح الباب المفضي إلى الممر وأصل إليك بسرعة، وإذا لم آت، فإمّا أنه يوجد عندي زبون وإما أن العمال لم ينصرفوا من الورشة بعد. فنحن نغلق عند الساعة الخامسة، وتُغلق كذلك البوابة المؤدية إلى شارع المسك».

«لكن كيف سأتلفن لك من الممر من دون هاتف خلوي؟» سأله سلمان.

«هناك هاتف قديم معلّق على الحائط وضعه أبي منذ زمن احتياطاً. فإذا حدث حريق وتعطّل الهاتف في الورشة، يمكننا الاتصال به بالشرطة أو الإطفائية، وأنا أختبره مرة كلّ شهر. لم يتعطل هذا الهاتف منذ ثلاثين سنة. الحمد للّه أننا لم نضطر إلى استخدامه. اتصل بالرقم واحد فقط. إنه رقم مكتبي».

كانت تقلا ومنى تنصتان بوجهين حزينين. تأثر سلمان كثيراً عندما نظر إلى خالته التي قالت متوسلة، «ألا يستطيع أن يبقى هنا هذه الليلة على الأقل، اليوم فقط؟».

«لا. أظنّ أنهم في الخارج لأنهم يشكّون في أنّه موجود هنا».

«اعتن بنفسك، يا قلبي. لينتقم اللّه من الذين يعذّبوننا. سأذهب بسرعة إلى أختي المسكينة صوفيا. كم علينا نحن الأمهات أن نتحمّل».

«انتظراني»، قال طارق، «سنذهب إلى بيت الخالة صوفيا معاً».

ثمّ خرج مع سلمان من غرفة الطعام وهبطا إلى الشرفة في الطابق الأول. أسند طارق سلّماً إلى جدار البيت المجاور، وقبل أن يصعد السلّم التفت نحو سلمان، وقال: «انتظر هنا، سأعود في الحال»، وتسلّق السلّم وصعد إلى السطح واختفى. أحسّ سلمان بأنه دهر، لكن عندما نظر إلى ساعة يده، رأى أنه لم تمض سوى أربع عشرة

دقيقة حتى عاد طارق وظهر في أعلى السلّم، وقال له، «هيا اصعد بسرعة».

تسلّق سلمان السلّم وتبع طارق. توجّها إلى السطح التالي حيث ألقى طارق تحية على صديقة أمّه العجوز التي رفعت رأسها إلى الأعلى لبرهة ثم استدارت وابتعدت عن النافذة لتواصل مشاهدة التلفزيون. لم يكن هناك أحد في باحة البيت الثاني، وفي البيت الثالث، كانت المرأة التي عرّفها طارق على سلمان بسرعة بأنه أحد أقاربه البعيدين تحاول أن تشعل وابور كاز، ومن حسن حظهما، أنها لم تكترث لوجودهما. قاد طارق سلمان إلى درج خشبي ثان ضيّق، عبر مصطبة وإلى درجات أخرى أعرض. «من هنا يمكنك أن تذهب مباشرة إلى ساحة باب توما»، قال له طارق عندما وصلا إلى باب البيت، ثم سأله، «لقد أخذت عنوان ماريا، أليس كذلك؟»

«نعم»، قال سلمان، وقلبه يخفق بقوة. مرة أخرى تفحّص محفظته ليتأكد من وجود قصاصة الورق الصغيرة التي كتب عليها العنوان ورقم الهاتف الذي أعطتها له ماريا. ثمّ وضع يده على كتف طارق، وقال بتأثر شديد، «إن ما تفعله من أجلي، يعرّضك للخطر».

«إذا قالوا إن شخصاً مثلك مجرم وبقينا صامتين، فإننا نكون مجرمين»، قال طارق بشيء من الخجل، كما لو أنه يطلب إذناً ليقف بشجاعة في وجه المخابرات.

ربّت سلمان على كتف ابن خالته.

«عجّل الآن»، قال طارق، وعاد إلى بيته من فوق أسطح البيوت.

مها واستحالة تربية الآباء

التأفف الأخلاقي هو هالة القداسة لمدّعي القداسة.

الممثل النمساوي الساخر هلموت كفالتينغر

دمشق، ١٩٩٦-٢٠٠٦

كلّما كسبت مها نقوداً أكثر، ازدادت رغبتها للحصول على المزيد منها، وازداد قلبها قساوة على جميع من حولها. فانجذبت إلى الزبائن الأغنياء الأنانيين، ومثلهم، عزت جميع أمراض العالم إلى كسل الفقراء وخمولهم. ولاحظ كريم أن جداراً من المشاعر الباردة بدأ يرتفع، بشكل غير مرئي لكن باستمرار، بينه وبين ابنته. وحاول أن يلفت نظرها إلى ذلك، لكنها لم تعره أي اهتمام.

تزوجت مها شاباً لطيفاً اسمه حسن من عائلة متواضعة، درس الحقوق لكنه آثر العمل في وظيفة آمنة بمرتب ضئيل في وزارة العدل، على أن يجازف في العمل في المحاماة. كان مغرماً بمها ومخلصاً لها أكثر من ظلّها، لكنّها لم تتورع عن إهانته كلّما أتيح لها ذلك، وتسخر من مخاوفه وهمومه، والتبجح أمامه بالنجاحات التي حققتها. ودأب كريم على حثّها بأن تخفف من حدّة كلامها مع زوجها، لكنّها لم تصغ له. وفي أحد الأيام، اتصل حسن بكريم ليودّعه - فقد قرر

الانفصال عن مها التي عقّبت على ذلك بقولها، «أصبح بإمكاني الآن أن أتنفّس بحرية أكبر من دون عقلية الموظف الحكومي الضيّقة».

بعد سنة من طلاقها من حسن، أُغرمت مها بلاعب كرة سلة محترف، شاب جذّاب وزير نساء مشهور. تزوّجته رغم تحذير صديقاتها وقالت بعجرفة: «إن انتصاري على جميع نساء المدينة المغرمات به يدعوني إلى الفخر»، لكن قبل أن تنقضي السنة، طُلّقت مرة أخرى. «لقد تزوجت مهنتي - فهي زواجي الدائم»، قالت وهي تضحك بتحدٍّ، لكن كلماتها كانت تشي بوحدة قاتلة.

وسرعان ما بدأت مها تشعر بعزلة شديدة، ولم تعد تضحك إلّا نادراً. ودأب كريم على زيارتها، يطبخ لها في محاولة منه أن يُدخل البهجة إلى نفسها. وقال لها، مع أنّها امرأة ذكية تعرف بواطن الأمور وظواهرها وجميع الثغرات في القانون، إلّا أنها لا تزال امرأة خرقاء مثل قطة صغيرة عندما يتعلّق الأمر بالحياة والحبّ. وعندما سألته، «لماذا حظي سيّئ مع الرجال دائماً؟» أجابها كريم بأنها، بأسلوبها في الحياة هذا لن تجذب رجلاً مخلصاً أبداً، وإذا صادفت رجلاً مخلصاً فإنه لن يعيش معها فترة طويلة، لأنها تتصرّف كالمغناطيس الذي لا يجذب إلّا ذلك النوع من الرجال الذين طالما حذّرها كريم منهم، وذكّرها بأنّها بدأت تشتكي مؤخراً من أنه لا توجد لديها صديقة مخلصة واحدة أيضاً. وشجّعها على أن تنظر إلى الصداقة والحبّ باعتبارهما أسمى شيئين يمكن أن يتطلّع المرء إليهما، وحاول أن يقنعها أن من الحماقة أن يجري المرء وراء النقود فقط، لكنّها لم تول كلامه أي اعتبار.

منذ ذلك الحين، لم تعد تشتكي لأبيها من شعورها بالوحدة. وعندما أقامت حفلاً مبهرجاً في فندق فخم احتفالاً بعيد ميلادها الخمسين، انزعج كريم كثيراً ولم يحضر الحفلة. وحاول أصدقاؤه

تهدئته وقالوا له إن مها امرأة بالغة مسؤولة عن تصرفاتها في حياتها، على الرغم من تربيته لها. لكنه أحسّ في قرارة نفسه بالذنب، وعرف أنّ غروره جعله يؤمن كثيراً بذكاء ابنته الصغيرة التي كانت فتاة مجتهدة في دراستها، لكن مزاولة المحاماة لا يحتاج إلى عبقرية، وإنما إلى طاقة للممارسة وذاكرة قوية وفصاحة لغوية - وهي خصائص تمتلكها مها - لكنّ تربيته لها جعلت منها تلميذة مجتهدة، نشيطة، تدافع عن حقوقها بقوة. فقد ركّز كريم على طموحها وتجاهل عدم اهتمامها بإقامة صداقات مع الأطفال الآخرين في المدرسة، وقد شجعها على ألّا تقيم صداقات مع الفتيات الأخريات - وبالطبع مع الفتية - كي لا يفسدوا حبيبته الصغيرة مها. وهكذا عاشت حياة راهبة في بيت ناسك.

ثم جاءت سنة ٢٠٠٦، السنة التي فقد فيها مها نهائياً، وهو شيء لم يتخيّله قط في أسوأ كوابيسه.

ففي الخريف الماضي التقت مها وعايدة. في البدء، دفعها فضولها إلى أن تتعرّف على صديقته، وأُعجبت كثيراً بشخصيتها، وقبلت مها دعوات عايدة لأن تقصّ شعرها وتصبغه. كانت لدى مها تجربة كافية لتدرك أنّ العلاقة بين كريم وعايدة ليست مجرد مغامرة جنسية عابرة لرجل عجوز، وإنما علاقة حبّ عميقة بينهما.

في بداية عام ٢٠٠٦ أحبّت مها رجلاً يدعى مراد، أستاذ جامعي. قالت لأبيها إنها سعيدة للغاية، وكان كريم سعيداً أيضاً من أجل سعادتها، وأراد أن يلتقي بأستاذ الرياضيات المشهور ذاك، وعرض على مها أن تدعوه إلى العشاء في بيته، لكن مراد رفض الدعوة، ولم تزر مها والدها بعد ذلك لبضعة شهور، ولم يكن هناك أي مبرر لذلك.

ثم زارته مها في شهر أيار. جاءت وحدها، وقد تغيّرت تماماً. فعلى الرغم من شدة الحرارة كما هي الحال في هذا الوقت من السنة في دمشق، فقد أصرّت مها على ارتداء معطف رمادي طويل يصل إلى كاحليها فوق فستان طويل أخضر تصل أكمامه حتى رسغيها، ووشاح معقود بإحكام حول رأسها. لقد وجّهها مراد إلى الطريق الصحيح، فأصبحت متدينة، أو أنها قالت لكريم شيئاً بهذا المعنى الذي عُقد لسانه من هذه المفاجأة، ولم تعد تشرب النبيذ وبدأت تعتبر السجائر إثماً. كانت تستعد لزفافها وأصبح لزاماً عليها أن تطهّر نفسها، روحياً وجسدياً.

في البداية ظنّ كريم أنّها تمازحه، لكنّه سرعان ما أدرك أنها جادة في ذلك. وعندما سألها، «ولماذا القفازات؟» أجابته، «لكي لا يلمس الكفّار يدي».

تقبّل كريم الأمر على مضض. وعندما لم يجد تفسيراً منطقياً لهذه التغيّرات الغريبة المفاجئة، سألها «هل تتعاطين مخدّرات؟»

«لا، لقد وجدت أخيراً الطريق المشرق إلى اللّه وأنا سعيدة جداً بذلك».

ماذا يمكن أن يقوله أب لابنته الوحيدة التي وجدت رجلاً، بدلاً من أن يدلّلها، قادها إلى هذا الطريق؟ لكن كريم لم يشأ أن يردّ احتراماً لها بسرعة. لكن عندما ودّعها، قال لها، «أتمنّى لك حياة سعيدة». لكنّه حزن عندما أدرك أنّه شعر بارتياح عندما غادرت. فقد كان يستمتع دائماً بقضاء وقت طويل معها، لكنها بدأت تلقي عليه الآن مواعظ بأن عليه أن يتوقّف عن شرب النبيذ، وأن يذهب إلى الجامع بانتظام، وأن يكفّر عن سيئاته، حتى بلغ بها الأمر أنها بدأت تهدده، فقالت له، «فكّر في الأمر جيداً - لأنك ستقف ذات يوم أمام القاضي العظيم الذي سيحصي لك كلّ ذنوبك».

فقال لها كريم، «حسناً، عندما يأتي ذلك اليوم سأعيّنك محامية للدفاع عني»، محاولاً أن يُدخل شيئاً من المرح على حديثهما.

فقالت: «لا يستطيع أحد أن يساعدك، يا أبي»، وبكت بحرقة. كان على وشك أن يفقد أعصابه.

لم تكن عايدة في البيت في ذلك اليوم، لكنّها فهمت مها أكثر مما كان كريم يتوقّع. فبعد أن أفضى لها بهمومه، قالت له، «دعها وشأنها، فهي تبحث عن طريقها. ألم يوصِ *السيّد* بأن نقبل جميع البشر ونحبهم كما هم، حتى لو سلكوا دروباً لا تروق لنا؟ ألم تقل لي ذات يوم إنّ هذا يذكّرك بالمسيح؟ أم أن التسامح للغرباء فقط، وأن الأمور يجب أن تسير لدى أصدقائنا وأقربائنا بحسب مزاجنا؟» فخجل كريم وقرّر أن يتقبّل مها بكلّ تصرفاتها. لكن قراره القائم على أساس الحبّ والحنان والعطف، تهشّم إلى ألف قطعة فوق أرض الحقيقة الصلبة.

بعد بضعة أسابيع، في نهاية شهر حزيران، جاءت مها لزيارة أبيها مع صديقها. كانت مها قد ذكرت لأبيها أنّ مراد درس الرياضيات في لندن وعمل أستاذاً جامعياً في أمريكا، لكنه سرعان ما أدرك أنّ الحياة لا تناسبه في أمريكا، فعاد إلى دمشق وازداد إيمانه، أو بالأحرى، تعصّبه.

عندما رآه، أحسّ كريم بانقباض في داخله. كان مراد ضخم الجثة، تحيط بوجهه غير الجذاب لحية كثة طويلة، وترتسم على جبينه تلك البقعة البنيّة التي تُعرف باسم «زبيبة الصلاة» والتي ذكّرت كريم بنفاق والده.

لم يكن أستاذ الجامعة مؤمناً، وإنما متعصّباً. فقد تجاهل عايدة طوال السهرة، وعندما سأل كريم كم مرّة يصلّي، أجابه كريم،

«أصلّي ثلاثمئة مرة في اليوم تقريباً. فكلما أستيقظ، أبدي إعجابي بالحياة، بأنني لا أزال حيّاً، والشمس لا تزال تشرق، والنحل لا يزال يصنع العسل، وعايدة لا تزال تحبّني. صدقني يا أستاذ: إن كل دهشة تجاه خلق اللّه هي صلاة».

عندما سمعت عايدة ذلك، غمرتها السعادة، ولم تتمالك نفسها، فنهضت من كرسيها وقبّلت كريم، وقالت له، «ليحمِ اللّه لسانك الذكي من الحسد». فأشاح الأستاذ الجامعي بوجهه عنهما، ودُهشت مها، الذكية، لكنها لم تصرّح برأيها وإنما راحت تردّد أفكار مراد عندما تقول شيئاً كأنها صدى له. ورفضا كلاهما أن يتناولا الطعام. شرب الجميع الشاي، لكن مها لم تلمس البسكويت لأن كريم لم يجبها بصراحة إن كان فيه كحول أو دهن خنزير.

فقال كريم وهو يتناول قطعة منها بتلذذ، «على حدّ علمي، فإن الزبدة تأتي من البقرة، لكن من يعرف ما هي الحيل القذرة التي تجعلهم يصنعونها من دهن الخنزير».

كانت تلك أول وآخر زيارة يقوم بها الأستاذ الجامعي إلى بيت كريم. أطلق كريم وعايدة تنهيدة ارتياح عندما غادرت مها وصديقها البيت، وفتح كريم النوافذ وفتح قنينة نبيذ أحمر شرباها في الفترة المتبقية من السهرة.

لم يشأ كريم أن يحضر حفلة خطوبة ابنته التي ستقام في شهر تموز، أو حفل زفافها في شهر آب لأنها لم توجّه الدعوة إلى عايدة أيضاً. لكن عايدة طلبت منه ألّا يكون حادّاً في ردّه على هاتين الدعوتين، واقترحت أن يعتذر عن الحضور بذريعة أن لديه ارتباطات أخرى، من قبيل أنه سيكون مسافراً في ذلك الوقت، أو أنه توجد أسباب لا تمكّنه من الحضور. لكن كلّ ذلك لم يكن إلّا لتأجيل

موعد المواجهة الحتمية. فقد تحوّل إعجاب مها بعايدة في البداية وحبّها لها إلى كراهية مليئة بالحقد. فخلال زياراتها، بدأت تبدي ملاحظات ساخرة عن المسيحيين الكفار، وقالت إنّ ما يدعيان أنه حبّ، ما هو في حقيقة الأمر، إلّا إثم. كان كريم يضحك أحياناً ليُنهي الزيارة بسلام. لكن ملاحظات مها الوقحة، بدأت تزداد عدوانية في كلّ زيارة تجاه عايدة التي لم يكن بإمكانها أن تردّ على الملاحظات الجارحة المنبعثة من محامية.

جاءت مها عدّة مرات لزيارة أبيها في غياب عايدة، وكان كريم يستغل الفرصة ويحاول أن يوضح لها بأناة بأنه يشعر بالسعادة مع عايدة، ويترجّاها، لا بل يتوسل إليها، بأن تكفّ عن جرح مشاعر عايدة بتعليقاتها اللاذعة تلك لأنه لا يريد أن يخسر ابنته، وأنها يجب أن تتوقّف عن القيام بدور الوصيّة عليه. وشرح لها بصبر أنه يتقبّل رفضها لعايدة، لكنّه يتمنّى أيضاً أنّ تقبل مها الحقيقة بأنه يحبّ عايدة بكل جوارحه، ويتمنّى أن تعيش مها بسعادة مع أستاذها الجامعي الذي لم يستطع احتماله. وأن عليها أن تبدي على الأقل أدنى درجات المودّة لعايدة. مع أن مها هزّت رأسها، إلّا أن أكثر شيء وافقت عليه في قرارة نفسها، هو وقف إطلاق النار، لكنها رفضت أن تعقد سلاماً معها.

في منتصف تشرين الأول، وفي يوم حار كأنه هرب من شهر آب ولجأ إلى شهر تشرين الأول، جاءت مها لزيارة أبيها مرة أخرى. كان كريم يستمتع مع عايدة ويحتسي معها نبيذاً أبيض مبرداً على الشرفة، تعبق من حولهما رائحة التراب والورد. رمقتهما مها باشمئزاز وبدأت على الفور موعظة تنتقد فيها عايدة بحدّة. وهدّدت والدها بأنها ستقطع علاقتها به إذا لم يتوقّف عن شرب النبيذ والعيش مع هذه المرأة الكافرة الآثمة. نهض كريم واقفاً، وأمسك بيد مها برقّة، لكن

بحزم، وقادها نحو باب البيت، وقال لها بهدوء، «أنتِ لم تفهمي شيئاً، فأنا لا يهدّدني أحد»، وأغلق الباب وراءها، فراحت مها تلعن عايدة ووصفتها بأنها حية رقطاء... عندما عاد كريم إلى الشرفة، حكى لعايدة ما جرى.

لم تحبّ عايدة إنساناً من كلّ قلبها كما أحبّت كريم في تلك الليلة. كأنه أصبح شاباً ألقى ستّين سنة عن كاهله. أحاطها فجر دمشق بذراعيه عندما عادت عايدة إلى بيتها، ثملة بسعادة لا توصف.

عندما استيقظ كريم في صباح اليوم التالي، شرب قهوته بسرعة قبل أن يتّصل بمها في مكتبها. اعتذر منها ودعاها إلى الغداء في المطعم الأثير لديها، لكنها رفضت، وقالت، إمّا أنا وإمّا عايدة، وأغلقت الهاتف. لم يسمع منها كريم شيئاً مرة أخرى إلّا بعد أربع سنوات.

الشؤم
أو أول طريق مسدود

دمشق، ١٤-١٥ *كانون الأول*، ٢٠١٠

بدت الرحلة في سيارة الأجرة التي استغرقت عشرين دقيقة دهراً بالنسبة لسلمان الذي جلس في المقعد الخلفي، مكتئباً، ينظر إلى الشارع، مستغرقاً في هذه الكوميديا المريرة التي تجري أمامه، مفكّراً كيف يمكن أن ينهار كلّ شيء ويتحطّم بضربة سوء حظّ واحدة: حرائق، حروب، فيضانات، غزوات، أو ظلم يسلب الإنسان أمنه، وحتى ثقته بنفسه. فعندما كان في روما، خُيّل إليه بسذاجة أن الزيارة التي سيقوم بها إلى مسقط رأسه ستُسدل الستارة أخيراً على فصل هروبه الطويل من حياته، لكن إلياس أعاد فتح هذا الفصل، هذه المرة بضراوة أشدّ، ووجد نفسه هارباً مرة أخرى في مدينة لم يعد يعرفها، لا يوجد فيها أحد يمكن أن يمدّ له يد العون، سواء أكان مسؤولاً أم عضواً في منظمة سرية.

لم يعرف أي من أفراد عائلته كيف يتصرف في مثل هذه الظروف. فإلى متى يمكن أن تخبئه عائلته؟ وإلى أي مدى تعرّض خالته تقلا نفسها وأسرتها إلى الخطر؟ وكيف سيتمكّن من مغادرة هذا البلد مرة أخرى؟ فقد سمع من أحدهم أن الحدود كلّها، أصبحت،

بفضل الروس، تخضع لمراقبة شديدة، إلكترونياً وبواسطة الأقمار الاصطناعية، فأصبح الهرب من البلد أمراً مستحيلاً، سواء عن طريق البر أم البحر، واشتدت المراقبة في المطارات، فأصبح من المتعذر أن يفلت شيء من قبضة المخابرات.

«لقد وقعتُ في المصيدة»، قال لنفسه، وقد شلّه الخوف. كان سائق سيارة الأجرة من النوع الصامت، وهو استثناء جيد للقاعدة السائدة. قاد سيارته ببطء، بصبر، في هذا الازدحام الشديد، يشقّ طريقه عبر الفوضى التي يسبّبها المشاة المُرهقون، والعربات المثقلة بالبضائع، وسائقو السيارات الرياضية الذين يقودون سياراتهم برعونة، وسائقو الشاحنات والحافلات.

وصلا أخيراً إلى حيّ المزة. وبسبب تشابك الشوارع ذات الاتجاه الواحد، اضطر السائق لأن ينعطف عدّة مرات قبل أن يصل إلى جادة مراكش، عندما طلب سلمان من السائق أن يتوقّف قبالة مبنى برنامج الغذاء العالمي، وأعطاه سلمان إكرامية سخية، ونزل من السيارة. تتألف البناية المجاورة لمبنى برنامج الغذاء العالمي من أربعة طوابق، بُنيت في ثمانينات القرن الماضي، وتعتبر خطيئة مميتة في الهندسة المعمارية كان من المفروض هدمها في اللحظة التي بنيت فيها.

«مرحباً، عمّو سلمان»، صاحت فتاة مراهقة عند مدخل البناية، ذاهبة مع صديقاتها اللاتي يرتدين ثياباً كما لو كنّ ذاهبات إلى حفلة. أجفل سلمان. لم يعرفهن. دنت منه قريبته، فتاة بيضاء البشرة، لا يمكن تحديد أسلوب تصفيفة شعرها، تحمل بيدها هاتفاً خلوياً وردي اللون مرتفع الثمن، وابتسمت له ببراءة، وقالت: «جئت أنا وأمي لنزورك ونسلّم عليك مع خالتي ماريا. أبي وزوج خالتي ماريا شقيقان، يعملان في السعودية».

ضغط سلمان على يدها الممدودة وهرع إلى داخل البناية، فسمع صدى ضحكات الفتيات وراءه. كان يعرف أنّ ابنة خالته ماريا تسكن في الطابق الثاني، وأدرك بسرعة أن سوء حظه جعله يقابل الفتاة التي ستعلم كلّ من يرغب أنه عند ماريا. . .فقرر مغادرة شقّة ماريا في أقرب وقت.

فوجئت ماريا عندما فتحت الباب ورأت أمامها سلمان. ابتسمت له، وقالت: «يا لفرحتي»، وعانقته ودعته لأن يدخل. كان سلمان متوتراً جداً، لا يزال يفكّر في حديثه مع الفتاة عند مدخل البناية.

«أنا شخص لست محظوظاً على الإطلاق»، قال لها، «أردت أن أختبئ في بيتك. إنهم يبحثون عنّي. . . »

«يبحثون عنك؟» سألته ماريا، مرعوبة. لم تعرف ما الذي حدث لأنها لا تقرأ الصحف. أمسكت بيده.

«يقولون إنّي قتلت امرأة تدعى فاطمة حداد. قُتلت قبل شهر من وصولي إلى هنا. الخبر يملأ الصفحة الأولى من الجريدة. حتى أنهم نشروا صورتي. أظن أن إلياس يقف وراء كلّ ذلك. أرسلتني خالتي تقلا وطارق وزوجته منى إليك».

«لماذا يفعل إلياس اللعين ذلك؟» سألته ماريا من دون أن تنتظر جواباً. نظرت إلى سلمان وعانقته مرة أخرى، وقالت: «أنت هنا في مأمن».

«هكذا ظننت أيضاً، لكن لشؤمي عرفتني فتاة صغيرة عند مدخل البناية وقالت إنّها جاءت معك ومع أمّها لزيارتنا لتسلّم عليّ».

«يا إلهي، صحيح. بعد أن وصلت بيومين، أرادت كنّتي، نادية، أن تزورك لأنني كلّمتها عنك كثيراً، وأحضرت ابنتها لميس معها. إنها تسكن في الطابق الأرضي. لا تتحرّك، سأعود في الحال. نادية امرأة يمكن الوثوق بها»، قالت، وخرجت من البيت بسرعة. أراد

سلمان أن يطلب منها ألّا تخبر كنّتها بأنه هارب، لكنه قال لنفسه هذا غير معقول، لأن ماريا ستضطر إلى إيجاد عذر أو تفسير ما لتطلب من كنّتها ألّا تقول شيئاً. دخل إلى المطبخ المضيء واستند إلى الحائط.

بعد خمس عشرة دقيقة، عادت ماريا، وقالت له: «وعدتني نادية بألّا تفتح فمها. لأن شقيقها اضطر إلى الاختباء ثماني سنوات - ثم وشى به أحدهم وقتلوه عندما ألقوا القبض عليه. لا تقلق ستقول لابنتها إنك زرتني لشرب فنجان قهوة. لكن اجلس الآن لنشرب القهوة. لا تقلق مما جرى الآن»، قالت وهي تبتسم. أعادت ابتسامتها شيئاً من الثقة إلى نفسه.

بينما كانت ماريا ترحب بسلمان، كانت صوفيا تفتح باب شقّتها وقد بدا الحزن على وجهها. ما إن عانقتها أختها تقلا، حتى أجهشت صوفيا في البكاء. «لا أعرف، لا أعرف»، ظلّت تكرّر، ثم تبعها طارق ومنى. كان والد سلمان يجلس في كرسيه المتحرك، ينظر إلى الشارع. ردّ على تحيتهم من دون أن يلتفت. جلست تقلا ومنى بجانبه، ومسّدت منى ذراعه.

كانت تقلا تحترم يوسف وتتعاطف معه على الدوام. كانت تقلا وصوفيا أختين مقربتين من بعضهما كثيراً منذ طفولتهما، تعرف كلّ واحدة منهما تفاصيل حياة الأخرى. فقد ساعد يوسف تقلا وزوجها في وقت حرج كثيراً وبكرم لا مثيل له. تزوّجت تقلا شاباً في العشرين من عمره يدعى أمين بعد قصة حبّ عاصفة، كان يعمل في ورشة نجارة قريبة من بيتها في حمص، وكانت تقلا آنذاك في السابعة عشرة من عمرها. لكن والديها رفضا بغطرسة أن يزوجا ابنتهما من ذلك الشاب الفقير، فهربت تقلا مع أمين إلى دمشق بعد أن أيقنت أنها حامل حيث أنجبت طارق.

دفع يوسف إيجار شقّة العروسين الشابين، ووجد لأمين عملاً في ورشة نجارة كبيرة. ثم صالح والدا تقلا زوج ابنتهما وساعداه مالياً لأنهما خجلا من فقر ابنتهما، وظلّ يوسف وأمين صديقين مخلصين حتى توفي أمين، ورفض يوسف أن يسترد المبالغ التي أقرضها لهما، حتّى بعد أن أصبح لدى أمين ورشة نجارة خاصة به وتحسّن وضعه المالي كثيراً. ولم تنس تقلا كيف بكى يوسف على قبر أمين كأنه طفل لاجئ فقد كل شيء.

قيل عن يوسف إنه رجل بخيل لكن تقلا وصوفيا كانتا تعرفان أنه أكثر الناس كرماً، لكن هذه هي دمشق، فما إن تلتصق سمعة شخص بشيء، حتى تلازمه مثل ظله وترافق الناس في أحاديثهم حتى بعد وفاته.

يا له من شيء فظيع، قالت تقلا لنفسها وهي تنظر إلى زوج أختها. كأن الاخفاقات التي تعرّض لها طوال حياته لا تكفي حتى يأتي أخيراً ابن أخيه الفاسد، ابن القحبة إلياس ليقضي على ما تبقى من سعادة صغيرة أيضاً؟ عارضت تقلا أختها صوفيا عندما تجادلت معها قبل بضعة أيام لأن صوفيا ظنّت أن يوسف لا يبدي اهتماماً بسلمان. فأنّبتها تقلا، وقالت: «هل جننتِ. هل نسيتِ كم عانى عندما كان سلمان مختبئاً قبل أن يهرب إلى أوروبا؟ كنت تقولين إن مشاعر يوسف باردة تجاه سلمان ولا يأبه لما يحدث له. لكنّي أعرف أنّ يوسف كان يأتي ويزور أمين ويبكي من شدّة خوفه على سلمان».

«لكن لماذا لا يُبدي لي ذلك؟» سألتها صوفيا غاضبة.

«لأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك. لماذا نطلب من كل شخص أن يكون قادراً على عمل كلّ شيء؟ لم يكن أمين زوجي يعرف كيف يسلق بيضة من دون أن يكسر كل شيء في المطبخ. ومع أنه أشجع من أسد، فإنه يرتجف رعباً من طبيب الأسنان، ويكاد يُغمى عليه

كلما ذهب إلى عيادة الطبيب - في أحد الأيام، أُغمي عليه عند الباب».

جلس يوسف أمامهم، حزيناً، ثم تنهد وقال: «ليعاقب اللّه كلّ من يعذّب حبيبي سلمان». شعرت صوفيا بالذنب لأنها ظلّت تلحّ على سلمان بأن يعود إلى دمشق طوال تلك السنين. أمسك طارق بيدها وأخذها إلى المطبخ. وضع سبابته على شفتيه وتناول قصاصة ورق. جلس إلى الطاولة وكتب على الورقة أن سلمان في مكان آمن وأن عليهم ألّا يذكروا شيئاً عنه في البيت، تحسباً لأن يكونوا قد زرعوا أجهزة تنصّت في الشقّة، وكتب على القصاصة أنه سينقل الأخبار إلى سلمان. تنفّست صوفيا الصعداء وقبّلته. لم تكن بحاجة إلى كثير من التفسير، فقد جاء أفراد من المخابرات بعد ظهر ذلك اليوم وأرغموها هي وزوجها بعد تحقيق عنيف أن يجلسا في الصالون ولا يتحركا، بينما راحوا يجوبون أرجاء الشقة.

«لكن اقسم لي بحياة أمك التي تحبّها أنّك ستخبرني بصدق عما يحدث لسلمان ولا تعاملني بشفقة كامرأة عجوز غبية». كتبت صوفيا على قصاصة ورق جديدة بخط ثابت واضح فاجأ طارق.

«خالتي العزيزة صوفيا، سأخبرك الحقيقة دائماً، حتى لو كان الخبر سيئاً، حتى نتوصل إلى حلّ. أقسم أنّني سأفي بوعدي». ثمّ كتب أنها يجب أن تكون حذرة عندما تتكلّم مع زوجها أثناء نزهاتهما اليومية لأن حديثهما قد يكون مسموعاً بواسطة ميكروفونات موجّهة، حتى من مسافة بعيدة. تحدّثي عن سلمان *كما* تحبّين ومع من تحبّين، كتب لها على الورقة، لكن لا تذكري شيئاً عن مكانه. ومن الآن فصاعداً، *لن أُخبر* تقلا عن كلّ شيء. لأن ذلك سيكون *أكثر أماناً لها*.

وأين هو اليوم؟ ألا أستطيع أن أتلفن له، فقط لأسمع صوته؟

إنه في بيت ماريا، كتب طارق، *حطّم سلمان هاتفه لأن المخابرات تستطيع أن تتعقبه وتحدد مكانه بدقة بواسطة هاتفه*.

هزّت صوفيا رأسها بارتياح، وقرصت خدّ طارق بلطف. نهض واقفاً، مزّق الورقة، ووضع القصاصات في مقلاة وأشعل النار فيها. عندما استحالت رماداً، فتح نافذة المطبخ ليتبدّد الدخان المنبعث منها ووضع المقلاة تحت الحنفية وغسلها جيداً.

في المساء رنّ الهاتف في بيت ماريا. «أتّصل بك لكي لا تقلقي يا طفلتي»، قالت تقلا بعد أن حيّتها، «فقد زارنا حشد من المخابرات. إننا بخير، لكنّهم قلبوا البيت رأساً على عقب بحثاً عن سلمان. زارنا لفترة قصيرة ثم ذهب. بالطبع، لم يجدوا شيئاً. كان الضابط مهذباً جداً واعتذر عن سوء التفاهم. لقد وشى بنا جيراننا، هل تصدقين ذلك؟ ونتصل الآن بالجميع لنطمئنهم. تعرفين كيف الحال هنا - فحتى قبل أن ننظف المكان ونعيد ترتيب الفوضى التي أحدثوها، رنّ الهاتف وسألت إحدى القريبات البعيدات هل وجدوا حقاً كمية من الحشيش في بيتنا، فقلت لها لا، إنما وجدوا كمية من الشوكولاتة والفستق».

«هل آتي وأساعدك في ترتيب البيت؟» سألتها ماريا، متظاهرة بالبراءة.

«لا، لا داعي لذلك، لكن يمكنك أن تزوري خالتك صوفيا بين الحين والآخر لتواسيها. إنها تحبك كثيراً»، قالت أمّها، وأغلقت الهاتف.

دخلت ماريا إلى المطبخ. ثم عادت بعد قليل إلى غرفة الجلوس تحمل صينية عليها قنينة نبيذ وخبز وأطباق صغيرة من الجبن والزيتون والفستق والفستق الحلبي. كان النبيذ لذيذاً. عندما بدأ سلمان يأكل،

استغرب من الإحساس بالراحة الذي غمره، حتى أنه بدأ يضحك ساخراً من المخابرات. لكنه سرعان ما حذّر نفسه وقال أيها الرجل العجوز إنهم يطاردونك، وإنك لا تبعد عنهم سوى خطوات معدودة. لكن حتى هذه الفكرة بدت له سخيفة في تلك اللحظة لأنه أحسّ بالأمان في بيت ماريا.

تناولت ماريا القليل من الطعام لكنها شربت الكثير من النبيذ. وشيئاً فشيئاً، أصبحت أكثر انفتاحاً. فحكت لسلمان عن مشاكلها مع زوجها ورجته ألّا يخبر أحداً بما حكته له، وأكّدت له أن أحداً في العائلة لا يعرف شيئاً عن ذلك، وقالت إنهم عارضوا زواجها من صبحي لأنهم رأوا أنه شخص بارد وبخيل، ولسوء الحظ كانوا محقّين. وبعد زواجهما، اكتشفت ماريا أنّ صبحي شخص طائش وبخيل أكثر مما كانت عائلتها تظن بكثير، لكنه لم يستجب لمحاولاتها للتأثير عليه أو لتغيير سلوكه. لذلك، لم تشأ أن تعيش معه في السعودية حيث جمع مبلغاً كبيراً من عمله ككيميائي، لكنه لا يرسل لها سوى مبلغ زهيد فتضطر أحياناً إلى قبول مساعدة من أمّها وعديلتها نادية.

أحسّ سلمان بخيبة الأمل المريرة التي اعترت ماريا، وشعر أنها تجلس هناك متأهبة وقد حزمت حقائبها بانتظار أحد يأتي ويأخذها.

بعد فترة حضّرا معاً طعام العشاء. بيض مقلي وبطاطا مسلوقة إلى جانب سلطة. تناولا بصمت وسمع سلمان صوت نحيب امرأة في الجوار.

«الجدران في هذا المبنى رقيقة إلى درجة أنني أسمع كل ما يجري عند الجيران حتى شخير جارنا الذي يقطن فوقنا. وأنا أسمع كلّ ما يدور في طابقه من حديث مع زوجته ساميا وبينها بين أطفالها الثلاثة. أعرف متى يضاجعها زوجها حتى أنني أعرف عدد الضيوف

الذين يأتون لزيارتهم لأن ساميا تخبط الصحون عندما تضعها على المائدة كأنها تقرع طبلاً».

«لكن ما سبب نحيب جارتك سارة؟» سألها سلمان وأشار بعينه إلى الجدار.

«تبكي سارة كلّ ليلة بعد أن تضع طفلتها على السرير في غرفة النوم، ثم تعود إلى الغرفة الملاصقة لي وتبكي حتى تشعر بالإنهاك».

«لكن لماذا؟»

«إنها قصة مأسوية»، أجابته ماريا.

«أرجوك احكيها لي»، قال سلمان وربّت على يد ماريا بحنان.

«تزوجت سارة ضابط شرطة وكانت سعيدة معه كثيراً، ورزقهما اللّه ابناً جميلا ذكياً، ثم أنجبا بعد فترة طويلة ابنة لطيفة.

ذات ليلة في كانون الأول، السنة الماضية، قرع جرس الباب. فوجئ الرجل عندما وجد نفسه وجهاً لوجه أمام ثلاثة رجال ملثمين ومسلحين دفعوه بعنف إلى داخل شقته ووجّهوا سلاحهم إلى رأس زوجته وطفلته وطلبوا منه أن يجلب لهم مبلغاً كبيراً كان قد سحبه من البنك قبل يومين لأنه كان يريد أن يشتري سيارة ممتازة.

على الرغم من الرعب الذي تملّكه، فرح الضابط لأن ابنه الغالي كان في ذلك الوقت مع أصدقائه في السينما، لذلك كان في مأمن.

ومع أن زوج سارة يمتلك أعصاباً فولاذية ولديه خبرة في مواجهة المجرمين، وبالرغم من الرعب الذي تملّكه للوهلة الأولى. فقد طلب منهم بصوت اصطنع فيه الخوف والصدق أن يمهلوه دقيقتين ليحضر المبلغ من غرفة النوم. حذّروه بألّا يقوم بأي عمل غبي لأنه بذلك سيحكم بالإعدام على زوجته وابنته. وعدهم بأن يبقي باب غرفة النوم مفتوحاً ليطمئنوا بأنه سيذهب إلى الخزانة التي وراء الباب ويجلب لهم النقود.

تركوه يفعل ذلك. دخل الضابط إلى الغرفة وأخذ بندقية الكلاشينكوف المعلقة في الخزانة، وخلال ثوان قتل اللصوص الملثمين الثلاثة حتى قبل أن يتمكن أحدهم من أن ينبس ببنت شفة.

بعد عدة دقائق، عندما نزع أقنعة الرجال عن وجوههم، سقط على ركبتيه وراح يصرخ. لقد اكتشف أن اللصوص هم ابنه وصديقان له في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من العمر. عندما اكتشف أن ابنه مات، وجّه فوهة البندقية إلى رأسه وانتحر».

منهكاً مما جرى من أحداث اليوم، خلد سلمان إلى النوم بعد منتصف الليل بقليل. وغطّ في النوم بسرعة من تأثير النبيذ الذي شربه في ذلك المساء. عندما استيقظ كان الظلام لا يزال مخيّماً. أحسّ أن ماريا مستلقية وراءه في ذلك السرير الضيّق، تضمّه إليها بقوة كما لو كانا جالسين على دراجة نارية. رفع ذراعها، واستلقى على ظهره، وبعد تردد قصير، وضع ذراعها على صدره. فتحرّكت وابتسمت.

مسّد رأسها، وسألها، «كيف جئت إلى هنا؟»

فأجابت ساخرة: «على قدميّ»، ثم استدارت إلى الجانب الآخر. وسرعان ما سمع تنفّسها الهادئ مرة أخرى. عندما استيقظ في الصباح الباكر، كانت لا تزال نائمة. قبّلها على جبينها، ونهض وسار على أطراف أصابعه إلى المطبخ، ثم عاد وبيده ركوة القهوة.

نظرت إليه ماريا. بدت في بيجامتها الرجالية تشبه شخصاً خارجاً من فيلم إيطالي من ستّينات القرن الماضي. «هل أفسدتُ عليك نومك؟» سألته، وهي ترشف قهوتها.

«لا، لكنك مثيرة وجميلة جداً، لكنني أعتبرك حقاً بمثابة ابنتي لأنني أشعر دائماً أن أمّك تقلا هي أمّي الثانية. فمن الأفضل أن يبقى كلّ واحد منّا في سريره هذه الليلة».

«أوه»، أجابت ماريا، بشيء من الحزن.

تناولا الفطور معاً، ثم ساعدها في تجهيز المخزن الصغير في الممر كمخبأ وقت الحاجة والمعدّ لتخزين المعلبات أو المرطبانات الذي كاد يكون خاوياً لأن ماريا كانت فقيرة. وضعا فيه أريكة مريحة وطاولة صغيرة وبضع قنانٍ من الماء لوقت الحاجة. «لن يجدك أحد هنا، وزوجي لن يعود حتى حزيران القادم»، قالت ماريا، وضحكت مُلمحة إلى إمكانية أن يمكث معها طوال هذه الفترة.

ولكي تبعده عن الأفكار التي تشغله، طلبت منه ماريا أن يعدّ لها طبق سباغيتي بولونيز الذي تحبّه كثيراً، لكنها تظن أن إعداده على الطريقة الإيطالية أفضل وأشهى. فكتب لها سلمان قائمة بالمواد التي يجب أن تحضرها. لكن ماريا فوجئت بهذه القائمة الطويلة، وسألته، «كلّ هذه المواد لطهي السباغيتي؟»

«هل توجد مخازن بقالية هنا؟»

أجابت: «نعم، عندهم أيضاً مأكولات إسبانية وإيطالية». قبل أن تخرج من البيت، كررت عليه بإلحاح ألّا يردّ على الهاتف أو يفتح الباب لأحد غيرها.

فتح سلمان التلفزيون. كان الخبر الرئيسي عنه. ظهرت صورته على الشاشة بينما أسهب المذيع في وصف الجرائم التي زُعم أنه ارتكبها. لم تكن الصورة المعروضة على الشاشة الآن نفس الصورة المنشورة في الصحيفة. لكن بهذه الصورة سيتمكّن الناس من التعرّف عليه بسهولة.

عادت ماريا بعد قليل تحمل بيديها كيسين ثقيلين. طبخا معاً وضحكا وشربا بعض النبيذ، وقهقها مثل طفلين. ببراعة، استطاع سلمان أن يُبقي مسافة بينه وبين هذه المرأة اللعوب. عندما أنهيا

طعامهما وبدآ يشربان القهوة بدت ماريا مهمومة فجأة. «لماذا يكرهك إلياس هكذا؟ أقصد، بعد أن أخذ العشرة آلاف من والدك». بدا أن هذا الأمر يشغل بالها كثيراً.

«إنه يريد أن يتخلّص مني، أو يقتلني لأنني الشخص الوحيد في العائلة الذي يعرف عن خيانته. الآن أصبحت متيقناً بأن المخابرات أرسلته من اللحظة الأولى ليتسلل إلى مجموعتنا السرية. يظنّ أخوك أنّ إلياس لا يريد أن يقتلني، وإنما يريد أن يبتزّني ليحصل على مبلغ أكبر لأنه غارق في الديون حتى أذنيه. فهو يعرف أنني أملك أكثر من مليون يورو ولن يقبل بأقل من مليون، ويعرف أيضاً أنّ والديَّ سيستسلمان له ويدفعان له المبلغ الذي يطلبه». مكتبة سُر مَن قرأ

«لا أستغرب أن يفعل كلا الأمرين - أن يأخذ الفدية ثم يقتلك»، قالت ماريا.

بعد أن أنهيا طعامهما، عاد إلى المخزن لينام قليلاً. لكنه استيقظ مجفلاً على رنين جرس الباب. استغرق لحظة حتى صحا وتذكّر أين هو. بينما أخذ ينصت، فتحت ماريا الباب. سمع صوت كنّتها تقول كلاماً بسرعة وهي تلهث. قالت إن ابنتها الساذجة اتصلت البارحة بجدّيها بهاتفها وقالت لهما إنها رأت سلمان عند مدخل البناية وأضافت أن أصهار ماريا موالون مخلصون للرئيس، وأنهم قرروا أن يأتوا الآن للتأكد من ذلك، وأسفت على ما حدث، وغادرت.

جاءت ماريا إلى المخزن، وقالت غاضبة، «ما دخل هؤلاء الأصهار الأغبياء بمن يزورني وأزوره؟»

«لا تنزعجي. بالطبع لا بد أن تكون سلامة كنّتهم همهم الرئيسي، وسيخبرون الشرطة عني، لا لأن لديهم شيئاً ضدّي أو

ضدّك، وإنما لأنهم يخافون على سمعتك. يا لها من صدفة سخيفة - لو كنت قد وصلت قبل خمس دقائق أو بعد خمس دقائق، لما رأتني الفتاة».

«إنه خطئي. لماذا تغابيت وأخذت تلك الطفلة السخيفة إلى بيتكم؟»

«لا تقولي ذلك، ولا تلومي نفسك أو تلومي الفتاة. إنها بريئة. أرجوك استمعي إليّ. سأكون ممتناً لك كثيراً لهذا اليوم الذي قضيته معك طوال حياتي. فقد ساعدت استضافتك لي على إزالة جميع مخاوفي، وهذا أول نصر صغير أحققه ضدّ إلياس».

خطر ببال سلمان شخصان فقط يمكنه اللجوء إليهما: عادل، زميله السابق في المدرسة الذي يعيش وحده، وريتا، حبيبته القديمة. كان عادل قد زاره مرّتين، لكنه سرعان ما أحسّ بالملل وغادر، فبدأ سلمان يكلّمه على الهاتف كلّ يوم تقريباً. كان سلمان يحبّ روح عادل المرحة، وتثير تعليقاته الساخرة عن المجتمع العربي ضحكه.

لكن سلمان قرّر أن يتّصل بريتا. فقد اشتاق لأن يكون بجانب امرأة أخرى تنسيه محنته لفترة من الزمن، كما فعلت ماريا. تلفن لها من هاتف ماريا وقال لها إنه يريد أن يلبّي دعوتها، فغمرت ريتا البهجة أو هكذا فهم من صوتها المليء بالفرح على الهاتف.

تساءل إن كان عليه أن يطلع ماريا على المكان الجديد الذي سيختبئ فيه. لكن كلّما قلّ عدد الذين يعرفون مكانه، أصبح الجميع أكثر أماناً. خلال ذلك، فكّر أن هاتف طارق لا بد أن يكون مراقباً أيضاً.

قال لماريا، «سأذهب الآن. قولي لوالد زوجك إنّني شربت القهوة معك البارحة فقط قبل أن أذهب لزيارة أقربائي في حلب. فإذا أخبرهم بذلك ولاحقوني، لن يجدوا شيئاً. وإذا خرجت من هذه

المحنة سالماً، عليكِ أن تزورينا في روما. أتعدينني بذلك؟ أعرف الكثير من الرجال الإيطاليين الجيدين المستعدين لإلقاء أنفسهم عند قدميك».

«سأبدأ في تعلّم اللغة الإيطالية غداً»، قالت، وطفرت الدموع من عينيها، وأضافت، «أنا واثقة من أنك ستهزمهم كلّهم وستعود إلى بيتك سالماً». قبّلها وضمّته إليها للحظة. لعن سلمان نفسه ولعن إلياس الذي جلب لها كلّ هذا القلق. ثمّ ابتعد عنها، وخرج إلى الشارع الذي يضجّ بالحركة، واختفى بين جموع الناس.

فسيفساء الحب

«ليس الصبر خبز العاشق»
كتب أحدهم على أحد جدران دمشق
«وإنما سماد نبتة الحب»
أضاف تحتها مجهول آخر

دمشق، ٢٠٠٥-٢٠١٠

حياة وموت

عاد كريم من جنازة أحد جيرانه الذي توفي وهو لا يزال شاباً. كان يعمل في شركة تأمين. لم يعرفه كريم معرفة وثيقة، لكنّه صادفه كثيراً في السوق مع زوجته اللطيفة، ولم تفتر لطافتهما حتى بعد أن أصبح جميع سكان الحيّ يعرفون قصة حبّه لعايدة، وشعر الآن بتعاطف شديد مع الأرملة الشابة التي أصبح عليها أن تعيش على راتب تقاعدي زهيد مع ابنتيها الصغيرتين وحماتها العجوز المريضة. لم تذهب عايدة معه إلى الجنازة، وإنما بقيت في البيت تعمل في الحديقة لأنها لا تحبّ أن تحضر مثل هذه المناسبات الحزينة.

شعر كريم برغبة في تناول فنجان قهوة. بينما كان يعدّ القهوة، راح يحدّق في الخزانة في المطبخ التي صُفّت فناجين وصحون ملوّنة

على رفوفها، ثم نظر إلى نظاراته فوق الطاولة. حمل الصينية وفنجانَي القهوة إلى الشرفة ووضعها على الطاولة أمام عايدة.

«انظري إلى هذه الأشياء»، قال، وهو يفكّر بصوت مرتفع، وأومأ إلى الأطباق على الصينية، «لا تملك عقلاً، ولا تشعر بالقلق في هذه الحياة، وستبقى زمناً طويلاً حتى بعد أن نغادر هذه الدنيا».

فأجابته عايدة، «نعم، لكنّها لا تعرف شيئاً عن الحبّ، ولا يعدو الخلود بالنسبة لها سوى سلسلة من الساعات الميتة».

شجار ومصالحة

كأنّ يداً خفية دفعت إليه الكتاب الرقيق «عن الانسجام» من رف الكتب. أراد كريم أن يقرأ قصصاً بوليسية لينسى حاضره قليلاً، عندما وقعت عيناه على عنوان هذا الكتاب. لم يكن قد هدأ بعد من الجدال الذي دار بينه وبين عايدة التي جاءت إلى بيته في ذلك اليوم معكّرة المزاج ولم ترغب في أن تعطيه درساً على العود. كانت غاضبة لأن أحد جيرانها قال لها في الشارع بصوت مرتفع إن بلدنا ليست أمريكا، وإن على النسوة ألّا يمشين في الشارع ويشبكن أيديهن بأيدي الرجال أو يقبّلنهم، وأضاف أن احترام الأشخاص من ديانات أخرى لا يعني إقامة علاقة معهم.

فردّت عايدة عليه وقالت إنها لا تعيش في دمشق أو في أمريكا، وإنما تعيش في عالمها هي، وإنها لم تقبّل أيّ رجل شاب أو عجوز في الشارع، وإنما قبّلت كريم فقط، لذلك، يجب ألّا يأمل كثيراً أن يأتي دوره ليقبّلها. فقال لها كريم مع أن هذا الجار يدّعي أنه مسيحي تقي، لكنه لا يفهم شيئاً عن المسيح الذي قال: أحبّوا أعداءكم؟ وهذا الرجل يمنعها حتى أن تحبّ جارها؟

«لقد فقدت صوابها»، صاحت وليدة التي ادّعت ذات يوم أنها «صديقة وفية» من شرفتها. وقف الرجل مذهولاً عندما سمع ردّ عايدة.

فردّت عليها عايدة، «يؤسفني يا وليدة أن أقول لك إنك امرأة غبية وقبيحة لا يحبّك أحد ولا تستطيعين حتى أن تحبّي أحداً»، فانفجرت المرأة في بكاء مصطنع بصوت مرتفع، وبدت مثل مؤذّنة تستجدي شفقة المستمعين.

عندما قال كريم لعايدة إنه كان من المفترض أن تتمالك أعصابها وألّا تقول للمرأة ذلك الكلام الجارح، غضبت عايدة وقالت: «ألم أقل لك إنها هي التي بدأت في إهانتي، بعد أن قبّلتني لأول مرة عندما كنّا في السوق؟ وكانت النسوة الأخريات يثرثرن من وراء ظهري، يتهامسن بصوت مسموع كي أسمع كلّ كلمة يقلنها».

فأجابها كريم، «وليدة ليست صديقة خسرتها لأن صداقتها ما هي إلّا واجهة. إنها امرأة تعيش في عزلة ويملأها الحسد»، وبدآ يتجادلان. ثم نهضت عايدة، وعادت إلى بيتها غاضبة. حدث كلّ ذلك بسرعة، بعدها شعر كريم بأنه تصرّف بحماقة، مثل واعظ بدين ينصح الجياع بأن يتبعوا حمية غذائية.

لكي يبعد كريم تفكيره عمّا جرى، استغرق في قراءة الكتاب الصغير «*عن الانسجام*» الذي يحتوي على آخر أقوال وأحاديث *السيّد* وردوده على مريديه قبل أن يختفي. وخلافاً للاعتقاد الشعبي السائد، فقد قال الرجل الحكيم إن الانسجام لا ينشأ من التشابه والتماثل بين طرفين سواء كان ذلك في الرسم أو في الموسيقى أو بين البشر، فإذا تطابقت الأشياء بالقوة كي يسود التناغم والانسجام، فإن ذلك يُعتبر هيمنة من جانب على الجانب الآخر، مما يؤدي إلى الرتابة والكآبة والملل، وقال إن التوليفة الحيوية التي تتشكل من الألوان والنغمات

المختلفة - حتى المتناقضة - أو التقاء أناس من ذوي أمزجة وآراء مختلفة، هي التي تؤدي إلى الانسجام الحيوي وهو توازن جميل. ولا يمكن أن يحدث توازن الأضداد هذا بين الناس إلّا من خلال الاحترام والحبّ، وقبل كل شيء عن طريق العقل، وعندما يتم ذلك، فإن التوازن سيصمد في وجه أيّ سيطرة قسريّة.

«ستحبّ عايدة هذا الرأي»، قال كريم لنفسه ودسّ الكتيب في جيبه وانطلق إلى بيتها. كانت قد مضت ساعتان على جدالهما، لكنهما بدتا له دهراً.

الحب، الخطيئة والمغسلة الكاثوليكية

خطرت الفكرة لكريم في أن يدعو أمل صديقة عايدة المخلصة إلى العشاء، لشعوره بأنه يدين لها بتعرّفه على عايدة. انتظر حتى اليوم الذي التقى فيه بعايدة لأول مرة ليحتفلا مع أمل بمناسبة مرور سنة على وجوده في الجنة كما قال لها عندما كان في المطبخ يعدّ القهوة. كانت حديقة بيته تتألق بألوانها الزاهية فطلب من أمل أن تأتي بعد ظهر ذلك اليوم لتتمتع برؤيتها.

جاءت أمل في أجمل حلتها. فقد ارتدت ثوباً جميلاً وكانت في غاية الأناقة. «هل ربحتِ ورقة يانصيب؟» قالت لها عايدة وهي تضمها بحنان وتضحك.

«يا نصيب لا، وإنما ربحتُ رجلاً. بصراحة لا أصدّق حتى الآن إن كان هذا حقيقياً أم لا، لأن هذا الرجل الطيب صبور كالجمل. حتى أنه يتحمّلني وهو يضحك. تصوّرا بربكما».

ضمت عايدة صديقتها إلى صدرها مرة أخرى فرحة كطفلة حصلت للتو على هدية وقبّلت عينيها قبل أن تتركها. «تستحقين كل

خير أيتها الجميلة. ما اسمه؟ وعمره؟ وشكله؟ طويل؟ قصير؟ بدين؟»

«مهلاً، مهلاً» قال كريم محتجاً، «لو واصلت ثقبها بطلقات أسئلتك فإن قهوتي ستسيل من الثقوب قبل أن تستمتع بها ضيفتنا»

«هذه هي عايدة» أجابت أمل بمرح، «إنها هكذا منذ طفولتها. تريد أن تعرف كلّ شيء عن كلّ شيء حتى قبل أن يحدث شيء».

أخذت رشفة من القهوة التي يفوح منها عطر الهيل، وقالت: «اسمه تامر، يصغرني بخمس سنوات، وله وجه جميل وجسد رجولي. لكن الأهم من كل ذلك أنه رجل كريم جداً. وعايدة تعرفني»، قالت وهي تنظر إلى كريم، «فأنا لا أطيق البخلاء. إن الكرم يضفي مسحة إيروتيكية على الرجال»، ضحكت على عبارتها الأخيرة، ثم أضافت، «يريد تامر أن يغادر بيته الجميل في صيدنايا ويسكن معي في شقتي اليوم قبل غداً. فقد اقترح أن نسكن في دمشق معاً وأن يجعل بيته في صيدنايا مسكناً صيفياً لنا لأن الطقس في صيدنايا في الصيف ألطف بكثير مما هو في دمشق. رجوته أن يصبر قليلاً لأنني لم أتعود بعد كلّ تلك السنين التي عشتها وحدي على أن أعيش مع رجل تحت سقف واحد».

«آه»، صاح كريم ضاحكاً، «الآن عرفت سبب صداقتكما المتينة. فعايدة لا ترغب أيضاً أن تسكن معي لذلك تعود إلى بيتها حتى لو كان الظلام دامساً، وفي بعض الأحيان، تعود عند الفجر... تصوّري».

«أريد أن أصارحكما بكل شيء. فأنتما أقرب الناس إليّ. لأول مرة في حياتي أصبحت أشعر بالسعادة وأن أتصرّف طوال النهار بحرية من دون قلق. وثقت بقلبه الكبير منذ أول يوم ولم أشعر بأي إحباط تجاه هذه الثقة. لكن تامر رجل متدين جداً ينتمي إلى الطائفة الإنجيلية الذين نطلق عليهم اسم البروتستانت الذين يحملون دائماً،

ومن بينهم تامر، هماً لا نعرفه نحن الكاثوليك. فهم يخافون من ارتكاب الخطيئة. فبعد أن يحصل أحدهم على أي متعة، يعتريه شعور بالذنب. أما نحن الكاثوليك، فقد أهدتنا الكنيسة مغسلة رائعة وهي كرسي الاعتراف. وبالطبع يظل مفتاح المغسلة بيد الكنيسة. ومنذ صغري، أذهب مرة في الأسبوع إلى كرسي الاعتراف لأخرج نقية من كل عذاب لضميري وأعود أرتكب خطايا مرة أخرى».

«إني أخالفك الرأي يا عزيزتي، فقد كنت أخرج كلّ مرة من كرسي الاعتراف وأنا مثقلة بخطايا جديدة، لأنني أخترع خطايا صغيرة أقولها للكاهن ليسهل عليه غفرانها التي كان عقابها على الأكثر صلاة «فعل الندامة» مرة واحدة و«أبانا الذي في السنوات» مرتين. أما إذا حكيت له عن خطاياي الحقيقية اللذيذة وعن أفكاري بالرغبة في قتل بعض الثقلاء لحكم عليّ بالمؤبد في نار جهنم. لذلك، كنت أكذب كلّما ذهبت إلى كرسي الاعتراف، مع أن الكذب بحسب الاعتقاد الكاثوليكي خطيئة مميتة. فكيف تخرجين نقية؟ هل تجرأت مرة أن تحكي له عن شهواتك وإرضائها؟»

«بالطبع لا، فأنا لا أعتبر الشهوات أو المتعة في الحب خطيئة. فعندما أهب شخصاً أحبّه متعة ما أو يمنحني متعة فأين هي الخطيئة. أنا أعتقد بقوة منذ أن كنت صغيرة أن اللّه يفرح لفرحي البريء»، أجابت أمل.

«لكن هذه الأفكار قالها معلّمنا السيد، ولم يقلها بابوات الكنيسة الكاثوليكية، أليس كذلك؟»

«عندما كنت فتاة صغيرة لم أسمع بالمعلم. كنت أعتبر السيّد المسيح قدوة لي لا هؤلاء المرائين الذين يعتبرون أنفسهم أنهم يمثلونه على الأرض. إنهم الذين وثّقَ التاريخ أنهم كذبة، والذين كانوا ولا يزالون يمضون لياليهم الحمراء ثم يخرجون للناس

ويعظونهم بالتنسك. لا، المسيح بريء منهم، وإن كان هناك شيء يميّزه من بين جميع الأنبياء، فهو إله أو رسول للحب، حتى أنه أول وآخر من قال: أحبّوا أعداءكم».

«ومشايخنا أيضاً ليسوا أفضل حالاً منهم. فكيف يتبعهم الناس وهم الذين يعدون بجنة تسيل فيها أنهار من العسل والحليب والنبيذ يضاجع المؤمنون فيها ليل نهار، أما على الأرض هنا، فإنهم يحرمون على الناس حتى التمتع بقبلة، حتى أن المتزمتين يحرّمون النظرة؟ لكن الإسلام دين حديث وعملي. فنحن لسنا بحاجة إلى كرسي اعتراف كاثوليكي، ولا إلى عذاب ضمير بروتستانتي، وإنما نغسل خطايانا بالماء قبل كلّ صلاة. إنه حلّ عبقري سريع وكاف».

كان الطعام شهياً جداً، فقد أعدّ كريم بمساعدة عايدة ما يسميه أهل الشام «المازة» التي تتألف من عدّة صحون متنوعة يتراوح عددها من عشرة إلى أكثر من عشرين صحناً معظمها أطباق باردة، ويحب أهل الشام هذا النوع من الطعام عندما يريدون السهر والسمر لوقت طويل.

لكن الشي الذي أزعج كريم وعايدة هو هاتف أمل الخلوي الذي لم يهدأ طوال الوقت، الذي انطلقت منه موسيقى إلكترونية مزعجة أكثر من عشر مرات لتخبر أمل أن تامر يريد أن يكلمها. لم يكن كريم وعايدة يرغبان في شراء هذه الأجهزة.

«نرجو أن تأتي مع تامر في المرة القادمة لتتذوقي الطعام بمتعة أكبر»، قالت عايدة لأمل وهي تودعها على الباب، وضمتها إلى صدرها بقوة. فضحكت أمل وأسرعت لأن تامر ينتظرها.

عندما بدأ كريم بتنظيف الصحون والكؤوس تذكر أنه أراد أن يعزف على عوده لأمل عدة معزوفات قصيرة أتقنها، إعراباً عن امتنانه لها.

«لقد أنهكتني موسيقى الهاتف حتى أنها أنستني عودي»، قال لعايدة التي هزّت رأسها موافقة

التقدّم في العمر

بعد ظهر أحد الأيام، وقف كريم أمام المرآة الكبيرة في غرفة نومه يتفحّص جسده. شعر بالحزن وصارح عايدة به لأن قدرته على النظر بدأت تضعف، بعد أن كان يستمتع برؤية الأشياء عن قرب، والقراءة كثيراً.

«عليك أن تكون سعيداً أيها الشابّ الجميل. فلديك جسد رياضي»، قالت له عايدة من السرير، «لكن لا يوجد شيء يمنعك من استخدام النظّارات. فالنظّارات تساعدك على القراءة بمتعة وأظن أنها تلائم وجهك كثيراً». تذكّرت كم كان رقيقاً قبل أن يأخذا قيلولة بعد الظهر، وسحبت البطانية الرقيقة بين ساقيها. قالت في نفسها بما أنها تعشق الموسيقى فإنها ستعاني كثيراً إذا لم تعد قادرة على السماع جيداً، لكنها لا تعاني من ذلك حتى الآن. لكنها تذكّرت صديقتها أمل التي بدأت تستخدم مؤخراً سماعات طبية. وبما أنها لا تحبّ استخدامها، بدأت تدّعي أنها نسيتها على الطاولة بجانب سريرها. «إني أخفيها عن نفسي عندما أستيقظ في الصباح»، قالت لعايدة وضحكت.

من الغريب أن عايدة بدأت تشعر، منذ أن أحبّت كريم، بأنّ تقدّم العمر قد زاد من قدرتها على المتعة. كان جسدها أشبه بقلعة لا تعرف الكثير عن غرفها ومقصوراتها الغامضة، وتساءلت كيف عثر كريم على المفتاح الذي جعل جسدها مثل آلة عود استخرج منه أجمل الألحان، فعزف على متعتها بصوت أعلى من أي وقت مضى،

لا عندما يمارسان الحبّ فحسب، وإنما في كلّ لحظة. ومنذ صغرها أيقنت عايدة أنّ الموت لا يأتي بموعد محدد، وإنما يضرب خبط عشواء، لكن العمر بدأ يعلّمها الآن أن كلّ شيء يمكن أن يحدث للمرة الأخيرة: عطلات في مصايف جميلة، لقاء أصدقاء قدامى، الاستماع إلى الموسيقى أو العزف على عودها، الضحك في الحديقة مع كريم، قطاف الفاكهة، الشعور بالبهجة لأنها ستلتقي به في الصباح. وقالت لنفسها إن الموت سبب يحثّنا على أن نستمتع باللحظة التي نعيشها الآن حتى الثمالة.

«لا تفحص جسدك بهذه الدقة في المرآة»، قالت له عندما رأته يبحث عن بثور وثآليل في جسمه التي يخشاها كثيراً. «لأنها ستريك ما قد تخشاه من تقدم العمر. أما إذا نظرت إليّ فإنك ستبدو أكثر شباباً وتشعر به أيضاً».

اقترب منها كريم. جثا بجانب السرير وحدّق في عينيها. إنها على حقّ. فعيناها مليئتان بالحبّ حتى أنه شعر بأنه أصبح في السابعة عشرة من عمره، وتدفّق الدم إلى خديه حتى تورّدا. هناك أشياء كثيرة يريد أن يقولها لها، لكنّه لاذ بالصمت. شعر أن الكلمات تصعد من حنجرته لكنها تعلق فوق لسانه وترتاح لنعومته ودفئة وتجبن عن الخروج من فمه إلى الهواء البارد وهكذا تغري الكلمات المستلقية على لسانه كل كلمة جديدة يفرزها عقله إلى حنجرته فتستلقي بدورها إلى جانب الكلمات التي لم تُقل.

القبلة

اضطجع كريم إلى جانب عايدة ونام بعد فترة قصيرة. تساءلت عايدة وهي تراقب وجهه الجميل. لماذا يحبّ شخص شخصاً آخر

كثيراً. فقد وجدت أنها تحبّ كل شيء في كريم حتى نومه إلى جانبها، تحبّه عندما تراه يطبخ بمتعة كبيرة وكيف يقبّلها بنهم من باطن قدميها حتى قمة رأسها. منذ أن قال لها إنه يحب قدميها الصغيرتين بدأت تعتني بقدميها كثيراً. هل تزيد قبلة الآخر من جمالنا؟ تساءلت وابتسمت.

هل تستمتع المرأة بالقبلة أكثر مما يستمتع بها الرجل؟ وإذا كان هذا صحيحاً، فما هو السبب؟ فقد قالت لها أمل ذات يوم إن أجساد النساء تختلف عن أجساد الرجال، لا من الناحية البيولوجية فحسب، كالاختلاف في الأعضاء الجنسية الأنثوية عن الأعضاء الذكورية، بل المقصود هو الاختلافات في ردود الفعل النفسية التي يتم التعبير عنها جسدياً تجاه التأثيرات الخارجية. وقالت لها إن اضطهاد المرأة عبر آلاف السنين منعها كثيراً من التعبير عن رأيها من خلال لسانها، فتعلّمت، مع مرور الزمن، أن تحوّل لغة اللسان إلى لغة الجسد. فكل ما يصعب أن تعبّر عنه بالكلام تُظهره من خلال جسدها، سواء أكان ذلك في طريقتها في الترحيب أم في الرفض، وأكدت لها على أنه ليس من قبيل المصادفة أن لدى النساء حاسة سمع أقوى مما لدى الرجال لأن هذه الحساسية ضرورية لكي تعرف ما هو المقصود تماماً من الكلمات. وقد أنقذ ذلك حياة النساء في بعض الأحيان، لأنهن يدركن التهديدات المبطنة المخفية وراء الكلمات المعسولة أو دخانها.

أما الرجال، فهم في موقع السيطرة، مهما كان مركزهم الاجتماعي متدنياً... فحتى الشحاذ هو الآمر والناهي أمام زوجته... والذي يسيطر لا يسمع بدقة، وإذا سمع، فإنه لا يسمع إلّا ما يعجبه، ولا يهتم بظلال الكلمات، وأقسمت أنه لو أقيمت مسابقة لأفضل مستمع، لفازت المرأة.

كانت أمل خبيرة في لغة الجسد، مهما انخفض صوته، وأسرّت لعايدة أنها أصبحت بعد فترة قصيرة تفهم لغة تامر الجسدية فأصبح أكثر سعادة. عندما سألتها عايدة كيف، أجابتها أنها تميّز بين قبلاته عندما يعود إلى البيت. فإذا قبّلها على وجنتها، أدركت أنه سعيد بها ولا توجد لديه رغبة أو حاجة إلى الجنس، وإذا قبّلها على جبينها أو على رأسها، فإنها تدرك أنه مشغول بقضايا عمله. أما إذا قبّلها على شفتيها أو حضنها من الخلف وطبع قبلة طويلة على رقبتها، تدرك أنه يريد أن ينام معها بسرعة.

ضحكت عايدة على تحليل أمل هذا لكنها وافقت على كلّ ما قالته، وقالت إنها لاحظت في كريم مثل تلك التصرفات، ولو باختلاف ضئيل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الحبّ المتلاشي
أو الطريق الثاني المسدود

دمشق، ١٥-١٦ *كانون الأول*، ٢٠١٠

صيدلية التاكسي

أحكم سلمان اللفاع حول رقبته وهرع نحو سيارة أجرة يستند سائقها إليها، ويدخّن سيجارة.

عندما سأله سلمان «هل أنت شاغر؟» هزّ السائق الشابّ الذي يلمع شعره وينتعل حذاء رعاة البقر، رأسه، ونفث نفسين آخرين من سيجارته ورماها على الأرض.

«سوق الحميدية»، قال له سلمان. الذي كان لا يزال لديه مبلغ كاف من النقود ولا شيء آخر. قرر شراء ملابس داخلية، وبيجاما، وأدوات حلاقة، ومعجون أسنان، وفرشاة أسنان وحقيبة صغيرة يضع فيها كل هذه الأشياء اليومية الضرورية. نظر سلمان إلى ساعة يده. كانت الساعة الثالثة بعد الظهر. إلى متى يمكنه أن يختبئ في بيت ريتا التي لا يستطيع أن يثق بها كثيراً. المهم في الأمر ألّا يعرّض ماريا أو نفسه للخطر، وأن يكسب بعض الوقت. لكن عندما فكّر في ريتا، تذكّر أيضاً أنّه ترك أقراص الفحولة Gigante XXL في حقيبته.

انطلقت السيارة باتجاه ساحة الأمويين حتى وصلت إلى السوق

عن طريق شارع شكري القوتلي وساحة المرجة. تذكّر سلمان فجأة سينما قديمة في هذا المكان أخذه إليها زميله عادل عندما كانا في الصف التاسع.

تذكّر سلمان أن معظم المقاعد في تلك السينما كانت مكسّرة، فوضع صاحب السينما مكانها كراسي بيتية قديمة، وصفّ مقاعد خشبية طويلة رخيصة مكان الكراسي المقتلعة من أماكنها، وكانت تفوح في الصالة رائحة لحم مشوي ومخلل حامض وملفوف وثوم. وكان المتسولون والعمّال والعاطلون عن العمل يجلسون بل وينامون على تلك المقاعد، وكان بعضهم يمضون الأيام الباردة فيها. وكان صاحب السينما رجلاً كريماً، يسمح لكلّ هؤلاء البقاء في السينما بثمن تذكرة واحدة حتى انتهاء آخر عرض في حوالي منتصف الليل.

أما الأفلام فكانت بحد ذاتها مدعاة للعجب والدهشة. فقد كان كل فيلم مزيجاً من مشاهد سريالية. ففي الدقائق العشرة الأولى، عُرض مشهد من فيلم طرزان، وبينما كان ملك الغابة لا يزال يصارع تمساحاً، بدأ المشهد الثاني برحلة فلاش غوردن الفضائية، لكنه لم يستمر طويلاً أيضاً. وبينما انهمك فلاش غوردن في كفاحه لإنقاذ دال أردين الجميلة، هاجمه الطاغية الشرّير مينغ، وتأرجحت السفينة الفضائية. ثمّ ظهر رجل هندي من فيلم آخر يرتدي ثياباً ملوّنة يغني ويرقص حول حسناء خجولة، وفجأة ظهرت امرأة شقراء مستلقية فاقدة الوعي على شاطئ في البحر الكاريبي تمتد فيه أشجار نخيل ويفترشه رمل أبيض، كانت قد نجت من سفينة غارقة. ومن مسافة بعيدة، ظهر فارس وسيم مأخوذ من فيلم آخر يمتطي حصاناً أبيض. لكن المشاهدين لم يعرفوا ما الذي حدث للمرأة، لأن وحشين في هيئة شخصين يرتديان ثياب سحلية في كرنفال أخذا يتصارعان فوق القمر حيث كان فلاش غوردن لا يزال هناك، ثم صاح أحد

المشاهدين، «بعد هذا سيأتي دور الرقص الشرقي»، وبالفعل ظهرت راقصة مصرية وبدأت ترقص على الشاشة، وحتى قبل أن تُنهي رقصتها، أسقط الأمريكيون طائرة مقاتلة يقودها طيار آسيوي الملامح.

استمرّ كلّ ذلك تسعين دقيقة، توليفة مجمّعة من أكثر من عشرين مشهداً من أفلام مختلفة. وعندما أُشعلت الأضواء، أحسّ سلمان بطنين في رأسه. ثم حاول تجميع اللقطات التي تذكّرها ليصنع منها قصّة سخيفة، ويربط البداية بالنهاية. كان الأمر مسلياً للغاية. وعندما قال سلمان لعادل بعد ثلاثة أشهر إنه يريد أن يذهب إلى تلك السينما مرة ثانية، هزّ عادل رأسه بحزن وقال له إن السينما هُدمت في الأسبوع الماضي ليحلّ مكانها فندق بعشرة طوابق.

عندما توقفت سيارة الأجرة عند السوق، اشترى سلمان من محل بقالية زجاجة شمبانيا فرنسية وضعها في حقيبة الكتف الجلدية التي اشتراها مؤخراً، ثم استقلّ سيارة أجرة أخرى، وقال للسائق: «السفارة التايلاندية في شارع البرازيل، من فضلك».

«كما تريد، يا أستاذ»، أجاب السائق بطاعة وديبلوماسية مُبالغ فيها.

«هل حضرتك دبلوماسي؟ . . . أقصد لأنك ذاهب إلى السفارة».

«لا»، أجابه سلمان، وهو يراقب السائق. كان شاباً وسيماً، ربما في أوائل الثلاثينات من عمره، أنيقاً، لكنه مغرور قليلاً بوسامته.

«هل تريد أن تمضي عطلة في تايلند؟ أعرف شخصاً هناك. . .».
طريقة كلامه أوحت لسلمان بأن الشاب أكمل دراسته الثانوية.

«لا، عندي علاقات تجارية مع بلدان جنوب شرق آسيا. وأنت؟ أظن أنك لم تولد لتكون سائق سيارة أجرة، أليس كذلك؟»

فضحك السائق، وقال: «لا، لكنني حبّلتُ امرأة عندما كنت شاباً صغيراً فاضطررت إلى التوقف عن الدراسة. كنت أريد أن أدرس التاريخ، ولديّ ستّة أطفال الآن».

«أظن أنك تعرف أن حبوب منع الحمل اكتُشفت منذ سنوات».

كاد السائق يختنق من الضحك، وقال: «تتناول زوجتي حبوب منع الحمل منذ أن كانت في السادسة عشرة من عمرها، لكنها تنساها في بعض الأحيان، وهذا يجعلها في نظري أكثر إثارة. أظن أن هذه الحبوب هي السبب في إنجاب توائم إلى درجة كبيرة. لكن أظن أن سائلي المنوي هو السبب. فما إن يقول فتى في عائلتي مرحباً لأي امرأة حتى تحبل على الفور. توجد لدى عمّي ثلاث عشرة زوجة، أما أنا فلا يوجد لديّ إلّا ثلاث زوجات - زوجة وعشيقتان - وفي بعض الأحيان أستنفد طاقتي فأحتاج إلى مساعدة».

«ماذا تقصد؟»

«عفواً، لكن في عمرك، أستميحك عذراً، لا بد أنك تستخدمها. حبّة واحدة هائلة وتنقذ ليلتك. بعد ذلك تستلقي شريكتك مثل جثّة سعيدة وتكون أنت قد أنقذت ماء وجهك».

فسأله سلمان، «ومن أين يستطيع المرء أن يحصل على هذه الحبّة الهائلة؟»

فضحك السائق، ومدّ يده إلى صندوق التابلو وأخرج علبة حمراء فيها ما لا يقل عن عشر حبّات.

مدّ السائق يده إلى الوراء وأعطى سلمان العلبة التي فيها عشر حبّات. «كم ثمن العلبة؟» سأله سلمان.

«ثمنها في الصيدلية عشرون دولاراً، أما أنا فأبيعها بعشرة دولارات، لكن من أجلك سأعطيك إياها بثمانية دولارات لأنك أعجبتني». بدأ السائق فجأة يكلّمه كما لو كان صديقه منذ زمن.

«أعطني علبتين يا أخي»، أجابه سلمان الذي بدأ يكلّمه باللهجة الدمشقية العامية والتي تستعمل غالباً كلمة أخي في مخاطبة الغرباء.

«إنك تتكلّم باللهجة الدمشقية، لكن فيها لكنة يا أخي»، قال السائق لسلمان مبتسماً. فقال سلمان لنفسه، لقد أثّرت الحياة في الخارج على لسانك.

«أقيم في دبي منذ عشرين سنة، وهناك يتكلّمون الإنكليزية أكثر من العربية».

«وهل عدت للزيارة؟ الأسرة ربما؟»

«لا، لا توجد لديّ عائلة هنا. فقد توفي والداي منذ زمن، ويعيش إخوتي الثلاثة في كندا. جئت في مهمة عمل».

بدت أسئلة السائق كأنها فخّ، لأن الكثير من سائقي سيارات الأجرة في المدينة يكسبون مبالغ إضافية ضئيلة من عملهم مخبرين لصالح لمخابرات. فقد قرأ سلمان أن المخابرات السورية توظّف حوالي مئة وخمسين ألف شخص، وضعف هذا العدد من المخبرين.

ترجّل سلمان من السيارة عند مدخل السفارة ودفع للسائق مبلغاً سخياً لقاء أجرة التوصيلة وثمن علبتي الحبّات المقوية، وقال له، «هذه للأطفال الستّة».

«شكراً»، صاح الرجل وانطلق مسرعاً. سار سلمان بضع خطوات باتجاه السفارة، وما إن اختفى السائق عن الأنظار، حتى استدار وراح يمشي بخطوات بطيئة حول المبنى. وقف برهة أمام كنيسة الفرنسيسكان، ثمّ استدار نحو شارع ميسلون وعاد منه إلى شارع البرازيل. عندما مرّ سلمان من أمام عيادة تجميل بالليزر، تساءل كيف يمكن إزالة العيوب بواسطة عملية جراحية بالليزر في مدينة يُرغم فيها معظم الناس على العيش كما كانوا يعيشون في القرن الثامن عشر.

انتقام امرأة مهانة

كانت البناية التي تسكن فيها ريتا رائعة جداً، حتى وفق معايير هذا الحيّ الراقي. رنّ سلمان الجرس فانبعث منه لحن صغير. فُتح الباب، وصعد سلمان الدرج إلى الطابق الثالث، ليجد ريتا واقفة بانتظاره أمام باب بيتها، ترتسم على وجهها ابتسامة عريضة، وقالت: «أخيراً. ظننت أنك لن تأتي».

فقال مبتسماً، «أمضيت وقتاً طويلاً حتى وجدت شمبانيا جيدة».

كررت ريتا أنّ شقّتها أجمل شقّة وأغلاها ثمناً في البناية كلّها وهي تريه بيتها الفخم بكبرياء. خيّل إلى سلمان أنه في معرض فيه أفضل شيء من كلّ شيء - لوحات ومفروشات وزجاج كريستال، وتلفزيون من آخر طراز- ثم سمع فرقعة نار في المدفأة المركزية في غرفة الجلوس، فقال في نفسه يا لهذه الروعة، كأنها خارجة من إعلان تجاري. لكن عندما أمعن سلمان النظر في المدفأة، وجد أنها مدفأة كهربائية تبعث لهباً وامضاً زائفاً وصوت قرقعة حطب.

لم تبخل ريتا بشيء في تصميم التراس على السطح وحوّلته إلى حديقة جميله كسيت أرضيتها بالرخام في وسطها نافورة. ونصبت خيمة أنيقة لقضاء لحظات حميمية كأنها خارجة من فيلم أمريكي، لا يستطيع أي عربي أن ينصب خيمة مثلها في الصحراء. ثم قالت له، «إنها مكيّفة آلياً وتبدو كأنها جنة في الصيف. فعندما تبلغ الحرارة خمساً وأربعين درجة مئوية في الظلّ في الخارج، يظل الجو بارداً ولطيفاً هنا باستمرار».

وضعت ريتا قنينة الشمبانيا في الثلاجة، وأخرجت قنينة نبيذ أبيض غالية الثمن، وقالت: «لن نشرب الشمبانيا الآن»، ومسّدت فستانها الحريري الذي يُبرز منحنيات جسدها برهافة. لم يكن سلمان

يحبّذ الجراحة التجميلية، لكنه شعر بأنه سيغيّر رأيه عندما رأى أن ريتا أصبحت أجمل من ذي قبل بكثير.

تصرّفت ريتا بكلّ ثقة وصراحة، ولم تُضع لحظة واحدة لتحصل على ما تريد. عندما قبّلت سلمان بحرارة، أدرك أنّها لا تعرف بعد أن المخابرات تلاحقه.

بعد لحظات، كانا مستلقيين أمام المدفأة على بساط كبير من جلد الخراف. بدا كلّ ذلك لسلمان مشهداً غير واقعي في فيلم سينمائي. لم يفكّر للحظة لماذا فعل ذلك. هل فعل ذلك من شدّة اشتياقه المكبوت لستيلا؟ أم لأنه يحاول أن ينسى خوفه؟ أم بسبب جاذبية ريتا التي لا تقاوم والتي لا تزال تشدّه منذ أن كانت في التاسعة عشرة من عمرها؟ غاص في عالم لطيف ناعم مضمخ بعطر رائع. وحيثما مدّ يده، لامست أصابعه بشرتها الناعمة.

عندما استلقى بجانب جسدها الطري المبلل بالعرق، لاحظ أنه لم يبادلها أيّاً من العبارات اللاهبة التي تعبّر عن شوقه لها كالتي تهمسها له.

«من أين تستمدّ قوّتك؟ حتى أنك الآن أكثر جموحاً مما كنت قبل أربعين سنة»، قالت له بإعجاب، «أم أنك تتناول أقراصاً لتقوية الباه؟»

«بجمالك ومقدرتك على الإغواء، هل يحتاج أحد إلى تناول أدوية مقوية. أظن أنني أحتاج معك إلى مهدئات»، قال كاذباً.

كان السائق صادقاً في وعده. فحبّة واحدة تكفي لعدّة ساعات من الفحولة. شربا النبيذ وتناولا المأكولات اللذيذة التي أعدّتها ريتا لكنها لم تُبدِ أي اهتمام بحياته في روما. انتظر حتى تسأله إلى متى سيبقى عندها، لكنها لم تسأله. بل ثرثرت بفخر عن اللواء الذي

يزورها مرة في الشهر ويسدّ كلّ منافذ الشارع خلال فترة زيارته لها خوفاً على حياته. ومنذ وصوله يرتدي الجنرال بيجامته التي تحتفظ بها له ويأكل معها ويضاجعها بعد تناول حبات التقوية ثم يرتدي بزته العسكرية ويغادر شقّتها. وبالطبع، فهو لا يدفع لها قرشاً واحداً لكنه يحميها. أثناء حديثه مع ريتا، تذكّر سلمان تلك المرأة الناقدة السينمائية التي تستقبل أيضاً ضابطاً كبيراً وتأكد أن ريتا عاهرة من الدرجة الأولى.

بعد أن تناولا الطعام، عادا واستلقيا أمام المدفأة فوق البساط، وتبادلا الأحاديث وداعب أحدهما الآخر حتى غطّا في النوم.

عندما استيقظ سلمان في صباح اليوم التالي، لم يتذكّر كيف ارتدى بيجامته وأوى إلى السرير. فجأة سمع ريتا تتحدّث في الهاتف من المطبخ. سمعها تضحك وتقول إنّها آسفة، لا تستطيع أن تأتي لأن صديقاً يزورها. «صديق قديم، اسمه سلمان، لكنّك لا تعرفينه»، قالت موضحة.

انتصب سلمان جالساً، وقد اعتراه قلق شديد. عندما دخل إلى المطبخ، كانت ريتا تنهي مكالمتها، تقول بسعادة: «باي، باي».

«مع من كنتِ تتكلّمين؟» سألها، وقد جفّت حنجرته.

«أختي. إنها كفيفة تقيم في دار رعاية المسنّين. تريد أن أزورها غداً، لكنّي اعتذرت وأخبرتها عن زيارتك. في الحقيقة، أشعر بملل شديد عندما أكون معها، حتى أنني أشعر بالاكتئاب عندما أزورها لأنها لا تتوقف عن الحديث عن اللعنة المزعومة التي حلّت بأسرتنا».

ارتاح سلمان برهة، لكنّه قرّر أن يخبر ريتا كلّ شيء قبل أن تخبر العالم كلّه عن الشخص الذي يزورها.

بعد أن أنهيا فطورهما، قال لها سلمان، «أنا في ورطة. لقد خدعني إلياس، ابن عمي. فقد أخذ من أبي عشرة آلاف دولار وأكّد

لنا أن سجلي نظيف لدى المخابرات، وإلّا، لما جئت على الرغم من صدور مرسوم العفو».

فاعترضت قائلة، «هل حقاً دفع والداك له النقود؟ لقد مضى على مغادرتك البلد أكثر من أربعين سنة. حتى جريمة قتل ثلاثية تسقط بموجب قانون التقادم».

فقال لها، «هناك أمور كثيرة لا تعرفينها عني وعن إلياس». ثم حكى لها كلّ شيء وهي تقدّم له الكابوتشينو مع المعجنات التي طلبتها من المخبز عندما كان نائماً، لكنها لم تقل شيئاً. حرص سلمان على ألّا يذكر لها شيئاً عن ابن خالته طارق، وأكّد لها أنه يحتاج إلى يومين فقط حتى يتمكّن من الهرب إلى لبنان ثم يعود إلى روما. أنصتت له ريتا بصمت، وقد شحب لون وجهها.

ثم قالت: «لم يعد الأمر سهلاً الآن. فقد أصبحت المراقبة على الحدود شديدة، وقرأت أن الحكومة اعتقلت عدداً كبيراً من المعارضين على الحدود اللبنانية أو الأردنية. لأن أجهزة الأمن في هذه البلدان الثلاثة توصلت إلى اتفاق فيما بينها أسرع مما تتوصل عادة إلى اتفاق لصالح شعوبها»، قالت وضحكت. ثم أضافت، «أهلاً بك في بيتي. لا يستطيع أحد أن يعتقلك هنا». بدت شديدة الثقة بنفسها عندما قالت له ذلك.

فسألها سلمان، «ألا تخافين على نفسك إذا انتشر الخبر؟»

«لا، ابن عمي بسام هو المستشار الأمني الأول للرئيس، وهو يدين لي كثيراً لحصوله على هذه الوظيفة. كنت على علاقة مع رئيسه السابق وأقنعته بأن يوظّف هذا الشابّ الذكي. لا نزال أنا وبسام على تواصل، ويمكنني أن أسأله إن كان باستطاعته أن يوفر لك الحماية هنا. لكن بشرط ألّا تمارس أي نشاط سياسي، ويجب أن تعرف أنني

أخرج من البيت كثيراً - صحيح، تذكّرت، يجب أن تغادر البيت عندما يأتي أحد لزيارتي، لعدة ساعات، هل فهمت ما أقصده؟»

هزّ سلمان رأسه. فكلّ ما يحتاج إليه مكان آمن لبضعة أيام إلى أن يتمكّن من الاتصال بطارق ويناقش معه حالته. بدا له الأمر كلّه سخيفاً للغاية، لكن الأيام القليلة الماضية أظهرت له أنّه لم يعد يعرف هذا المجتمع. فقد لاحظ أنه ربما توجد لدى مراكز قوى مختلفة مناطق محمية متعددة في هذه الدولة، كأن ذلك يجري في فيلم من الخيال العلمي: بلد جديد ولد بعد أربعين سنة من رحم الديكتاتورية. إذ تحكم السوريين أجهزة مخابرات عديدة، والوزراء والمسؤولون ليسوا سوى واجهة لأصحاب النفوذ غير المرئيين. ومع أن الناس لا يزالون يتكلّمون اللغة العربية في الشارع، لكنهم لم يعودوا يفهمون لغته، ولم يعد يفهم لغتهم. ففي أي بلد في العالم يصدر رئيس الجمهورية مرسوماً بالعفو العام لكن أجهزة المخابرات لديه تضرب قراره عرض الحائط؟

نظرت ريتا إلى ساعة الحائط. لقد تجاوزت الساعة العاشرة بقليل. أخذت هاتفها الخلوي واتصلت ببسام، وسألته إن كان بإمكانها أن تذهب لرؤيته.

«إنه شاب وفيّ»، قالت لسلمان عندما أنهت حديثها على الهاتف، «إنه في مكتبه الآن. المكتب قريب من هنا، خمس دقائق سيراً على الأقدام. اعتبر نفسك في بيتك. آمل أن أعود بسرعة وأن أجلب لك معي أخباراً سارة»، وغادرت. بشعرها المصبوغ ومعطفها الفرو بدت كأنها امرأة سويدية.

شرب سلمان فنجان كابوتشينو آخر، وهو ينظر إلى التراس عبر الباب الزجاجي الجرّار الكبير. من مكانه، رأى إلى يمينه فندق شام بالاس الفخم، وإلى يساره بدت له من بعيد حديقة السبكي الكبيرة

الشهيرة التي يعرفها منذ أيام طفولته، وإلى يسار الحديقة رأى كنيسة الفرنسيسكان.

فيمَ يفكّر الناس القابعون الآن في تلك البيوت؟ تساءل سلمان. ماذا يعرف هؤلاء عن الأشخاص الملاحقين والمعتقلين والمنفيين؟ إنهم لا يعرفون شيئاً؟ أم أنهم يعرفون الكثير لكنهم يتظاهرون بأنّهم لا يعرفون؟ لقد ازداد الشعور باللامبالاة في روح الناس في هذا البلد. فقد أصبح السوري المثالي هو الشخص اللامبالي. وتذكّر قصة حكتها له أمّه أنّ قاتلاً محترفاً أطلق النار على رجل وقتله في منتصف الشارع وقاد دراجته النارية بكل هدوء مبتعداً عن مكان جريمته، لكن معظم الناس واصلوا طريقهم كأنهم لم يروا شيئاً، وكلّ ما فعله بعضهم هو أن أخرجوا هواتفهم واتصلوا بالشرطة أو بالإسعاف. حتى أن كلباً صار يعوي لكن صاحبه أسكته ومنعه من اللحاق بالقاتل. الأمر لا يختلف كثيراً في إيطاليا، قال سلمان لنفسه، مع أنه لا يوجد فيها نظام ديكتاتوري. لكن المافيا علّمت الناس في إيطاليا أن يصبحوا غير مبالين.

في حوالي السّاعة الواحدة عادت ريتا وقد تبخّرت سعادتها. عندما ساعدها سلمان على خلع معطفها، لاحظ أنّ المكياج على وجهها قد زال، فاحت منها رائحة عرق نفاذة وبدت مكتئبة ومتعبة.

«ماذا جرى؟» سألها قلقاً.

«نعم، ماذا؟ لا يستطيع أن يساعدك. قال لو كنت مجرماً قاتلاً أو مهرّباً أو تاجر أسلحة، لاستطاع أن يخلّصك كرامة لي. إنه يكره ابن عمك إلياس. لكن عندما بحث على جهاز الكمبيوتر، قال إنّ عملية البحث عنك ذات أولوية قصوى، وعندما سألته ماذا يعني ذلك، قال إن هذا يعني أنّ الشخص المطلوب ينتمي إلى فئة الأشخاص الذين يشكلون خطراً على حياة الرئيس، ولا يستطيع

أحد، ولا حتى الرئيس نفسه، أن يوقف عملية المطاردة. المخابرات هي الجهة الوحيدة التي تستطيع أن تخفض مستوى الملاحقة إذا رأت أنه تم تجاوز الخطر».

«وهذا يمكّن إلياس من ابتزاز المبلغ الذي يطلبه»، قال سلمان عندما أحضرت ريتا قنينة نبيذ أحمر. شربت وحدها ومن دون أن تقدم له كأساً، ودخّنت سيجارتها بصمت. بدا واضحاً أن حيويتها وحتى ضيافتها قد تلاشتا.

«ماذا في الأمر يا ريتا؟ لا بدّ أنّ هناك شيئاً آخر، أليس كذلك؟» سألها سلمان بحذر. لم يشأ أن يسألها مباشرة إن كانت قد نامت مع ذلك الرجل أم لا، مع أنه كان متأكداً من ذلك. بدأ يساوره الشكّ في أنها تخبئ عنه خبراً آخر غير سار.

«لدى بسام. . .»، قالت أخيراً، ثم صمتت كأنّها أدركت أنها يجب أن تقدّم تفسيراً إضافياً، وقالت أخيراً، «يجب أن تعرف»، ثم سكتت كأنّ الكلمات علقت في حنجرتها، «أنني على علاقة جنسية مع بسام منذ فترة طويلة. وعلاقتي معه ثابتة منذ زمن بعيد فلقد اكتشفنا ان أرواحنا متآخية، لذلك، فهو يناديني دائماً ابنة عمي. وهو متزوّج ولا يستطيع أن ينفصل عن زوجته لأنها ابنة وزير الدفاع. لكنّه يفعل كلّ ما أطلبه منه، لذلك فأنا أتمتّع بحماية كبيرة».

أمسك سلمان نفسه عن الضحك. فقد دعي مثل هؤلاء الرجال سابقاً قوادين، وأصبحوا اليوم كبار الضباط ورؤساء أجهزة الأمن ومستشاري الرئيس وبعضهم يسمي عاهرة ابنة عمه وهو يعلم أن ضباطاً ورجالاً أثرياء يضاجعونها. أليست هذه صفة من صفات الديوث؟

تابعت ريتا قائلة، «كما تعرف، فقد أصبحت وحيدة بعد وفاة زوجي. وفشلت كلّ محاولاتي للهرب، حتى قبل أن يموت. لم يشأ

أحد أن يهرب معي. حتى أنت... في ذلك الوقت، أحببتك بجنون. ألا تذكر؟»

هزّ سلمان رأسه، ولدهشته شعر بالخجل.

ثم أضافت، «لكن أحداً لم يرغب في أن يتزوجني مع أنني كنت جميلة وذكية».

«ربما لأنك كنت تطلبين الكثير»، قال سلمان، مقدّماً تفسيراً مهذباً لما كانت تفعله آنذاك، عندما كانت تُروى عنها نكات بأنها تغيّر الرجال بأسرع مما تبدّل دور السينما في دمشق الأفلام التي تعرضها.

«ربما»، قالت ريتا بجفاف، بشيء من الغضب، «لكنني كنت بحاجة إلى حماية».

«كم شخصاً تحتاجين لتشعري بالحماية؟ ألا يكفي بسام وجنرال البيجاما؟»

فقالت: «لا تسخر مني. فجنرال البيجاما - كما تطلق عليه - يحميني لعدة ساعات فقط ما دام في زيارتي، بعدها لا يبالي بأي خطر يمكن أن أتعرّض له، فأنا بالنسبة له لست سوى واحدة من عشر عشيقات، أما بسام، فهو يعبد الأرض التي أمشي عليها ويمنحني سلطة على الدوام». عندما لفظت كلمة سلطة، كسا عينيها بريق من الفرح وزال الغضب والحزن من وجهها، «سلطة أنتصر بها على كل من يريد تهديدي أو ابتزازي. وهذه هدية كلّ من يحبّه رجل سلطة، لذلك، فإني أشعر بجاذبية لا تقاوم من بسام».

أخذت ريتا جرعة نبيذ كبيرة وتابعت حديثها وعيناها تنظران إلى أفق بعيد أو أنهما لم تكونا تنظران إلى أحد، «عندما مات زوجي، أصبحت وحيدة تماماً. لم يشأ أحد أن يساعدني. لقد عانيت كثيراً في علاقاتي، خصوصاً عندما كنت أحبّ أحدهم بغباء. ما إن يشعر

الرجال بأنك بدأت تحبهم حتى يبدأون بالتلاعب بك، وعندما يشعرون بأن الحبّ يجعلك نداً لهم، يتعالون ويصبحون أوصياء عليك حتى تظن أنهم يتصدّقون بكل لقاء معك».

«هل فعلتُ ذلك معك أنا أيضاً؟» سألها سلمان، مع أنه يعرف الجواب مقدماً.

«نعم، أنت أيضاً. لكن ذلك أصبح من الماضي، ولا أكنّ لك أي مشاعر بالكراهية، لكن. . .» قالتها وترددت.

«لكن ماذا؟»

«يجب أن تغادر شقّتي اليوم. فقد منحني بسام مهلة اثنتي عشرة ساعة. قال إنه لا يضمن شيئاً بعد منتصف الليل. عليك أن تذهب. لقد أصبحتَ شخصاً خطراً جداً عليّ وعلى حياتي. قال لي بسام إن إلقاء القبض عليك مسألة أيام معدودة. لا أريد أن أخيفك، لكن ما يقوله بسام عن المخابرات، فهو صادق دائماً».

رأى سلمان ابتسامة تشي بالشماتة تتسلل من وراء قناعها. تملّكه الخوف.

«حسناً»، أجابها. هذا هو انتقامها إذاً. لذلك قرّر أن يغادر الشقّة على الفور، لا ليستنشق هواء نقياً ويرتّب أفكاره فحسب، وإنما ليتّصل أيضاً بشخص مستعد لاستقباله. لم يعد بإمكانه الآن أن يستخدم هاتف ريتا لأن ذلك سيجذب مطارديه إليه بسرعة. «أريد أن أخرج وأتمشّى قليلاً. أشعر بدوار في رأسي»، قال لها وارتدى ثياباً سميكة وخرج.

«خذ المفتاح معك كي لا تضطر إلى قرع الجرس»، صاحت وراءه.

كان الطقس بارداً جداً في الخارج. راح سلمان يمشي بتثاقل في الشوارع حتى لمح مقصورة هاتف من بعيد. مرتجفاً من البرد

والخوف، اتصل بعادل، أعزّ صديق له منذ أيام المدرسة. عندما قال له عادل إنه سيكون سعيداً جداً برؤيته، سأله سلمان إن كان يريد أن يُحضر معه شيئاً.

فقال عادل، «لا، لا تزال عندي عدة قنانٍ من النبيذ الجيد. عندما نشربها كلّها، يمكنك أن تجلب غيرها».

«أتعرف ما الذي تذكّرته اليوم؟ عندما كنت في سيارة الأجرة، ورأيت البناية التي بنيت فوق تلك السينما الرخيصة. تذكّرت توليفة الأفلام التي شاهدناها فيها. أتذكر؟»

«نعم. كنت أخشى آنذاك أن تسخر مني. كنت أحبك كثيراً. كنت أعتبرك بطلاً. أسرع حتى نستعيد تلك الذكريات معاً. لم نستطع أن نفعل ذلك عندما رأيتك في بيت والديك المليء بأقاربك الثرثارين، لذلك لم أزرك مرة أخرى. متى ستصل؟»

«بعد نصف ساعة. بيتك في شارع جول جمال، قبالة المصرف المركزي، بجانب ساحة السبع بحرات، أليس كذلك؟»

«نعم. سترى البناية البيضاء التي فيها عيادات طبية في الطابق الأرضي وسترى لافتة لشركة الطيران السورية معلقة على الطابق الأول. أسرع، فأنا متلهف لرؤيتك»، قال عادل منهياً حديثه. تنفّس سلمان الصعداء. أحسّ بشيء من الفخر. لم يضع كلّ شيء بعد، قال بصوت مسموع.

عندما فتح باب شقّة ريتا، رآها جالسة بجانب المدفأة. قال لها، «سأسافر إلى حلب».

«بدأتَ تخاف مني، أليس كذلك؟ لقد تسرّعتُ وأخبرتك أشياء كثيرة»، قالت ريتا كأنها حضّرت هذه الجملة سلفاً، «لكنّي ظننت أننا إذا أردنا أن نعود صديقَين، فهناك بعض التطورات التي يجب أن تعرفها عنّي».

«حسناً، لقد فهمت كل شيء، لكنك طلبت مني بكل وضوح أن أغادر شقّتك. ما الذي تنتظرين أن أفعله غير ذلك؟ أن أجلس هنا وأندب سوء حظّي؟ لقد طلبت من ابن عمي في حلب أن أقيم عنده ووافق من دون أن يأخذ إذناً من أحد».

«إنك تكذب، فلن تسافر إلى حلب. إنك تخاف أن تبقى هنا، لذلك فإنك تكذب عليّ. هيا اعترف».

«بالطبع، أنا خائف. أرجو المعذرة لأنني أبالغ في خوفي لأنه أكبر خطر على حياتي. لو كنت تريدين مساعدتي لما جريت إلى بسام لتقدّمي له تقريراً عني ولتأخذي إذناً منه، ولكان بإمكاني أن أبقى عندك هنا من دون أن يدري أحد بذلك».

«لا تتصرّف كطفل. لم أبلغ أحداً عنك. لو كنت أضمر لك شرّاً، لجعلتهم يقبضون عليك خلال خمس دقائق»، قالت غاضبة، وأشعلت سيجارة. عندما بدأت يدها ترتعش أدرك سلمان أنه استفزّها كثيراً، وأضافت، «لكنني مدينة لبسام، وإلّا فإنّي سأفقد حمايته في عرين الذئاب حولي. فإذا آويت إرهابياً مثلك، فإن ذلك سيهدّد منصبه. جميع الذين يعملون في قصر الرئيس يعرفون أنني عشيقته».

«إنك تخيبين أملي حقاً»، ردّ سلمان بصوت منخفض، «أنا لست إرهابياً. ها أنت تتكلّمين كما يتكلّم إلياس».

تناول الحقيبة الصغيرة التي يضع فيها أدوات الحلاقة من الحمّام وحقيبة الكتف من المطبخ، ثمّ عاد إلى غرفة الجلوس ووقف وراءها تاركاً مسافة بينه وبينها. لم تلتفت وظلّت تحدّق في النار.

قالت: «أرجو أن يكون بسام مخطئاً». من ارتعاش صوتها عرف سلمان أنّها تبكي. «ابتعد عن وجهي أيها اللعين، لماذا لا تزال في بيتي؟ إذهب إلى الجحيم»، صرخت بصوت متحشرج ببكائها.

لقطات من مجتمع مريض

الحسد هو أحد أصدق تعابير الاعتراف
بما أنجزه الآخر.

فيلهلم بوش
رسام وكاتب ساخر ألماني

دمشق ٢٠٠٥ - ٢٠١٠

الحسد

«هل رأيتها؟» سألت ماهرة، امرأة جميلة لا تتجاوز العشرين من عمرها، «لقد لمست مؤخرته بيدها عندما كانا يسيران معاً». لوّحت بشرى، المرأة البدينة الواقفة بجانب جارتها على النافذة تراقب معها كريم وعايدة، لهما بيدها وصاحت، «نهاركما سعيد، يا له من يوم ربيعي رائع».

ألقت عايدة نظرة لامبالية وابتسم كريم وكأنه يشكر تحية النساء في نافذة الطابق الأول.

«وهل لاحظت كيف أصبح منذ أن عشق عايدة عديمة الأخلاق وبدأ يسير بقميص مفتوح يُظهر شعر صدره كأنه شاب مراهق».

«كما يقول المثل، بعد الكبرة جبة حمرة. لم تعد هناك أخلاق»، أكدت المرأة البدينة.

«عمّن تتحدّثان؟» سأل زوج بشرى من داخل الغرفة مستلقياً باسترخاء على أريكة مريحة. ومن دون أن ينتظر الجواب الذي بدا أنه يعرفه سلفاً، أضاف ضاحكاً، «لا بد أنكما تتحدّثان عن المجنونين عايدة وكريم».

«معك حق»، أكدت له جارتهما، ماهرة، «لقد أصيبا حقاً بالجنون. لقد رأيتها البارحة من غرفة نومي وهي تغادر بيته في منتصف الليل، تصوّروا... يبقيان حتى منتصف الليل وهما يمارسان رذيلتهما».

«يبقيان حتى فترة أطول»، أجابت بشرى البدينة، «منذ أسبوع، شعرت بالقلق عند الفجر فنهضت لأشرب جرعة من الماء لأن حلقي كان جافاً مثل قطعة خشب، فرأيت هذه اللعينة تغادر بيت كريم مسرعة... يظلان سهرانين حتى الفجر... يا إلهي».

«تشعرين بالقلق كثيراً عند الفجر وتجلسين أمام النافذة؟» تساءل زوج بشرى من موضعه على الكنبة. ومن دون أن ينتظر جواباً، أضاف، «كان عليك أن توقظيني لأدلك جسمك وأمسّده برقّة»، وضحك بصوت أعلى يشير إلى ما قصده بالتدليك.

هزّت بشرى رأسها متأسفة، «كلام، لا يوجد لديه شيء غير الكلام»، همست بشرى.

«وزوجي مثله، فهو يحكي كثيراً نكتاً جنسية وهذه هي قدرته الوحيدة»، أضافت ماهرة ثم ارتفع صوتها وقالت: «أشكركما على القهوة. يجب أن أذهب الآن لأن زوجي سيعود من عمله بعد نصف ساعة، ويجب أن يكون كلّ شيء جاهزاً على المائدة وإلا قامت القيامة»، وغادرت الغرفة بسرعة وعينا زوج بشرى تتابعان بشهوة حركات وارتجاج ردفيها.

عادت بشرى إلى الغرفة. «في الأسبوع الماضي، حكت لي هدى»، بدأت تتحدث إلى زوجها الذي كان مشغولاً بهاتفه الخلوي الجديد، «إنها جارة عايدة، أنها تعزف مع كريم على العود مساء كلّ يوم». عندما لاحظت أن زوجها لا ينصت إليها، قالت له، «يبدو أن لا شيء يهمك إلّا هاتفك الجديد».

«لا، لا تظلميني. إني أسمع كل ما تقولينه باهتمام»، قال لها ووضع هاتفه جانباً لأنه يعرف مدى غيرتها من كلّ شيء يحبّه، حتى لو كان الهاتف. ثم أكملت، «وبعد أن أنتهيا من العزف، ضاجعها كريم بعنف حتى أن صراخها وتأوهاتها أيقظت جارتها هدى».

«ربما كانت تتظاهر بذلك لترضي غروره»، أجابها زوجها الذي فهم ما تقصده زوجته.

«لا أظن، لأن عايدة قلما تصرخ أو تتأوه أثناء المضاجعة. فلم تكن هدى تسمع شيئاً في معظم الأحيان، حتى لو ألصقت أذنها بالجدار الفاصل بينها وبين بيت عايدة، لم تكن تسمع شيئاً غير اهتزاز وصرير السرير الحديد وبعض الهمسات أو الضحكات. وفي بعض الليالي يعلو صوت عايدة، لكن كريم يظلّ صامتاً. كلّ ما أقوله لك على ذمة هدى».

«لكن كيف يستطيع رجل في الثمانين من عمره أن يضاجع بكلّ هذه القدرة»، سألها زوجها متعجباً ومستنكراً من دون أن يتوقع جواباً.

«حكت لي جارته ألكسندرا التي تسكن قبالته تماماً أنه يدلك قضيبه صباح كلّ يوم بمرهم هندي لمدة ربع ساعة كاملة في الحمّام ثم يعود إلى المطبخ حاملاً قضيبه كأنه هراوة حديدية ويضرب به حبات جوز يضعها على الطاولة الصغيرة حتى يكسرها. عندما رأت

ألكسندرا هذا المشهد لأول مرة، سقطت مغشياً عليها، ومنذ ذلك اليوم، لم تعد تتفاهم مع زوجها».

هزّ زوجها رأسه صامتاً وقد شحب وجهه.

قتل الأحلام

بلغ الغضب لدى سكان زقاق الياسمين مبلغاً لم يسبق له مثيل. فلأول مرة سمع كريم هؤلاء السكان المرتعدين خوفاً يشتمون الحكومة والمخابرات التي اعتقلت لطفي وفريدة وعذّبتهما لمدة ثلاثة أيام متواصلة قبل أن تطلق سراحهما. ويعرف جميع أهالي زقاق الياسمين أن لطفي وفريدة، اللذين يعملان ممرضين في المستشفى نفسه، شخصان هادئان، مسالمان، يحبّان مساعدة الآخرين، ويوزعان أدوية على المرضى المحتاجين في حارتهما مجاناً. كانا في الأربعين من عمرهما، لديهما ابن ذكي اسمه ناجي في العاشرة من عمره، متفوّق في مدرسته، ويتوقع ويتأمل والداه أن يكون له شأن كبير في المستقبل. كان مصدر فخر لأمّه وأبيه وبهجتهما لأنه جاء إلى هذا العالم مفعماً بالصحة بعد عدة إجهاضات.

ماذا حدث؟ لماذا قُبض عليهما بتهمة التجسس لصالح إسرائيل أو لصالح وكالة الاستخبارات الأمريكية. لا، لا يمكن تصديق هذا التبرير الكاذب الذي يدور على ألسنة الجميع.

الحقيقة أبسط من ذلك بكثير: ففي أحد الأيام، سألت معلّمة ناجي تلاميذها ماذا يريدون أن يصبحوا عندما يكبرون، فقال أحد الأطفال إنه يريد أن يصبح طبيباً، وقال طفل آخر إنه يريد أن يصبح مهندساً معمارياً، وأمل طفل ثالث أن يقتل جميع اللصوص والمجرمين عندما يصبح شرطياً، وقال الطفل الرابع إنه يريد أن يصبح

مطرباً ومليونيراً، أما ناجي فقد قال بحماسة طفل بريء: «أريد أن أصبح رئيس الجمهورية».

لم يلاحظ التلاميذ الآخرين أي شيء غريب عندما سمعوا ما قاله ناجي، لكن المعلّمة تسمّرت في مكانها. وواصل التلاميذ التعبير بسعادة عمّا يرغب كلّ واحد منهم في أن يصبح عندما يكبر.

بقلب حزين، نقلت المعلّمة ما سمعته إلى مدير المدرسة، فهي معلّمة جديدة في المدرسة وخشيت أن يشي بها أحد التلاميذ، لأن حجب معلومات تتعلق بأحداث أو سلوك أو تصريحات خطيرة، يُعتبر جريمة، وفق أنظمة المدرسة.

عندما طمأنها المدير وقال، «لقد أديتِ واجبك على أكمل وجه»، تنفّست المعلّمة الصعداء. ثم استدعى المدير ناجي إلى مكتبه، وحاول مع المعلّمة إقناع الصبي الصغير بأنه لا بدّ أنه يقصد أنه يريد أن يصبح رئيساً لنادي كرة قدم أو نادي شطرنج أو رئيس نقابة أو حتى قائد الشرطة، لكن الصبي أصرّ على أنه يريد أن يصبح «رئيس الجمهورية».

بقلب مكلوم، اضطر المدير إلى رفع تقرير عن الصبي إلى الحزب وإلى السلطات الأمنية. وفي مساء ذلك اليوم، داهم رجال المخابرات بيت لطفي وفريدة، وألقوا القبض عليهما واستجوبوا كلّ واحد منهما على حدة. لكن المحقق لم يتمكن من الحصول على معلومات مفيدة منهما، ولم يُطلق سراحهما إلّا بعد أن قالت أمّ الصبي اليائسة، «ابني مصاب بلوثة في عقله». ولقد حذّرهما الضابط بألّا ينبسا كلمة واحدة عما جرى لهما أثناء اعتقالهما. لكن لدى الناس عيون وذاكرة.

عندما ذهب كريم لزيارتهما، فوجئ برؤية الناس الذي جاؤوا

لزيارتهما يفيضون حتى الشارع. فقد انتشر خبر إطلاق سراح الزوجين كالنار في الهشيم. فوجئ كريم بتضامن الجيران معهما، لكن الكثير منهم تحاشوا النظر إليه مباشرة، فقد أشاحوا أعينهم عنه عندما شقّ طريقه بين الناس ليصافح لطفي وفريدة.

قال له لطفي، «كريم، أشعر بخجل شديد منك. أرجو أن تسامحنا لجبننا». فربّت كريم على كتف الرجل وأخذ يد زوجته في كلتا يديه، وقال: «عندكما ابن رائع وشجاع بارك اللّه لكما بهذا الطفل الذكي». بكت فريدة، وتأثّر كريم كثيراً وظلّ يفكّر في ذلك حتى عندما عاد إلى البيت.

«وماذا حدث للصبي؟» سألت عايدة كريم عندما حكى لها القصّة.

«وضعوه في مستشفى الأمراض النفسية، وعندما سيخرج، سيرسلونه إلى بيت جدّه في درعا في جنوب سوريا ليداوم في المدرسة هناك، وتعهد بألّا يتحدّث عن مستقبله بعد الآن».

التعصب

بدأت تلك الأمسية بسلام. بعد انتهاء العشاء الذي أعدّه كريم، أحضر عوده وعزف ببراعة أدهشت عايدة لأنه اختار معزوفة صعبة، تقاسيم لمحمد القصبجي، وشعرت بالسعادة لأنه بدأ يزداد شجاعة مرة تلو المرة، ولم يعد يخشى من العزف أمام الزوار. وكما نصحته عايدة، كان يبتسم كلما أخطأ في العزف وأكمل عزفه.

ثم بدأت الأجواء تزداد توتراً. فلم يعد باستطاعة تامر، زوج أمل، وكريم أن يكملا حواراً، حتى لو كان قصيراً، من دون أن يتشاجرا. ففي الأشهر الأولى من تعارفهما، غطّى معطف الأدب

والضيافة خلافاتهما، لكن بعد الزيارات المتكررة، بدآ يتشاجران حول أي شيء. فقد كان مسعى تامر غريباً حقاً. فقد كان يسعى إلى إقناع كريم بأن يعتنق المسيحية سرّاً، لأن عقوبة التخلّي عن الإسلام الموت. وما شجّعه على إلحاحه الشديد هذا أن تامر اكتشف أن كريم لا يمارس فروض الديانة الإسلامية ويشرب النبيذ ويعيش مع عايدة من دون عقد قران.

عندما عرض تامر على كريم أن يسعى إلى عمادته، أجابه كريم بضيق وبشيء من الجلافة، «أشكرك يا عزيزي، لكنني أفضّل أن أستحمّ تحت الدُش في بيتي. ولمعلوماتك فأنا أتعمد كل يوم لكن من دون بخور».

فغضب تامر وسأل كريم بحدة، «إذاً لماذا تمتدح يسوع هكذا؟»

فضحك كريم من سذاجة هذا المتعصب، وأجابه، «لأن المسيح فيلسوف الحبّ الذي دفع حياته ثمناً لمحبته، ورفض حتى هو على الصليب، أن يبغض أعداءه... هذا هو المسيح الذي أحبّه والذي لم يؤسس أي كنيسة ولم يوص بقيادة حروب صليبية مدمرة استمرت بمباركة الكنيسة مئتي سنة...»

فحدّق تامر بغضب في وجه كريم كأنه يريد أن ينقضّ عليه.

لم تمض ربع ساعة حتى تشاجرا مرة أخرى حول حياة الحبّ من دون زواج. فقد تزوج تامر أمل بعد فترة قصيرة من علاقة حبهما، وكان يصرّ في حديثه على أن الحبّ من دون زواج خطيئة لا تغتفر.

عندما غادر تامر بيت كريم في ذلك المساء، قال لأمل: «يظن هذا الرجل العجوز نفسه ذكياً، وبرأيي لا يوجد ذكاء من دون عفة».

ولم يعبّر كريم لعايدة برأي أكثر تسامحاً عن تامر بقوله: «إن تامر يضع ربطة عنق طويلة حتى يدوس عليها كلّ عابر سبيل ليتهمه بأنه ارتكب خطأً».

منذ ذاك اليوم، لم يطأ تامر عتبة بيت كريم، ولم يزره كريم أيضاً، وأصبحت الصديقتان تلتقيان وحدهما.

الحياة بوجهين

«هرب جارنا جوزيف مع عشيقه وحارتنا تولول كأنها فقدت رأسها»، قالت عايدة ضاحكة عندما وصلت إلى بيت كريم في ذلك اليوم. كالعادة، كان ينتظرها بلهفة المحبّ. وكانت طاولة الطعام في مطبخه الكبير مزدانة بأطباق الجبن والزيتون والزعتر والخبز الطازج الذي أحضره عند الفجر.

«مع عشيقه؟ تقصدين عشيقته؟» سألها كريم.

«لا، لا. كما قلت لك. هرب جوزيف مع صديقه وعشيقه. أظن أنك تعرف جوزيف الذي يعمل طياراً في شركة طيران سياحية وهو زوج هالة ذات الوجه المشرق والشعر الأحمر. كنت أظن أنها امرأة لطيفة إلى أن سألتني قبل أسبوعين إن كنت تقبّلني قبل أن تخلع طقم أسنانك أم بعد أن تخلعه وضحكت ضحكة هستيرية. منذ ذلك اليوم لم أعد أكلّمها لا لأن كلماتها جارحة وإنما لأنها لم تصدر عنها بشكل عفوي وكانت قد حضّرتها سلفاً بإتقان ولؤم. وقد أصبحت اليوم مهزلة لكلّ الحيّ. كرهت نفسي لأنني شعرت بالشفقة عليها بدلاً من أن أفرك يديّ فرحاً بما أصابها. فقد هرب زوجها حتى من دون أن يودعها بكلمة واحدة، وكان قد استقال من وظيفته سرّاً، فأصبحت كالغصن المقطوع من شجرة لا يوجد لديها أي سبيل للحياة. ذهبت اليوم إليها وأبديت لها عن تعاطفي معها في المصيبة التي حلّت بها. صارت تبكي مثل طفلة واعتذرت مني لما سببته كلماتها لي من ألم.

بعد أن هدأت قليلاً، أخبرتني أن زواجها كان تعيساً منذ البداية.

فقد علمت منذ وقت مبكر أن زوجها الذي ينحو إلى الأنوثة يحبّ الرجال ذوي الأجسام الرياضية، لكنه لم يخبرها ذلك صراحة، وترى أنه تزوجها ليغطي على ذلك. وقالت إنه لم يهتم بها إطلاقاً لكنه حذرها عدة مرات من أنها إذا حبلت فإنه سيطلقها على الفور، فاضطرت لأن تجهض ثلاث مرات. لم يكن يرغب في أن ينشئ أسرة ليظل حراً طليقاً كما أكّد لها كثيراً. وها هو الآن يبرر سبب رغبته تلك. إلى أين هرب؟ لا يعرف ذلك أحد. فمن خلال عمله كطيار محترف زار مئات البلدان ولا توجد صعوبة في أن يجد عملاً، أما هالة، فقد هوت إلى قاع البؤس، ولم يبق لها سوى خيار واحد، وهو أن تغادر شقّتها وتعود إلى بيت أهلها الفقراء في شمال سوريا».

لم يُدهش كريم من تصرّف هذا الطيار الغبي فحسب، وإنما دُهش أيضاً لهذا الانفتاح الغريب من زوجة مخدوعة لامرأة غريبة مثل عايدة تعيش في حيّ محافظ جداً. لكنه أيقن بعد هذا الحوار مع عايدة أن ما قالته هالة ما هو إلّا صرخة ألم من امرأة جريحة ضربت أي قانون يمنع أو يسمح بما يجب أن يقال عرض الحائط.

«ليس من قبيل المصادفة أنني لا أتذكّر وجهه»، قال كريم ضاحكاً، «فهناك مثل يقول: من عاش بوجهين مات لا وجه له».

«لم يترك العرب شيئاً لم يضعوا له مثلاً»، أجابت عايدة بشيء من الإعجاب.

الحقد

قال كريم الذي يجيد الطهي، «الطبخ فنّ كلّه أسرار، كتاب له سبعة أختام، لا يفوقه شيء سوى فنّ التذوق. تقولين إنك لا تحبين الطهي، لكنني لم أر أحداً في حياتي يمتلك ذائقة مرهفة مثلك، وهذه

نعمة لأي طاهٍ شغوف». ما قاله كريم صحيح لأن عايدة تحبّ الأكل كثيراً وتأكل كميات كبيرة من الطعام من دون أن يزيد وزنها كيلوغراماً واحداً.

في يوم خريفي من عام ٢٠٠٩، دعا كريم وعايدة قرابة عشرين شخصاً من جماعة «الغيريّين» لمشاركتهما الاحتفال. في لقاء قبل عدة أشهر قالت أمل لصديقتها عايدة إن الحبّ مرض معدٍ، لكنه مرض لذيذ. فقد أصاب حبّ عايدة وكريم، من دون أن يعرفا، في السنوات الأربع الماضية، بالعدوى عشرة أشخاص آخرين، مما دفع عايدة وكريم إلى إقامة حفلة بهذه المناسبة، وتعين عليهما أن يعدّا الطعام بنفسيهما، فاشتريا المواد اللازمة نقعا بعضها في الماء أو في مزيج من البهارات وزيت الزيتون، وبعض المكونات الأخرى كالحمص التي أبقياها منقوعة طوال الليل.

وصلت عايدة في وقت مبكر من صباح اليوم التالي. مع أنهما أمضيا أربع سنوات معاً، لم تمض عايدة ليلة واحدة في بيت كريم. كان الباب موارباً، ورأت كريم جالساً إلى الطاولة المستديرة على الشرفة أمامه فنجانا قهوة وركوة. ابتسم لها وقال: «كنت قلقاً قليلاً لأنك تأخرت ربع ساعة، فقلت أن نشرب القهوة قبل أن نبدأ بالطهي». وراحا يتحدّثان وهما يشربان القهوة.

ضحكا كثيراً ولم يتوقفا أثناء تحضير وجبات الطعام عن تناول لقيمات مما يطبخانه طوال الوقت مثل طفلين مشاغبين. صفّ كريم عدّة طاولات حول البركة ووضع حولها تشكيلة متنوعة من الكراسي الملونة التي جُمعت على مدى أجيال. لم يسبق أن دعا كريم كلّ هذا العدد إلى بيته. ثم وضع الكرسي المتبقي المتقلقل ليجلس عليه بجانب الكرسي الأنيق ذي مسند الظهر المرتفع الذي خصصه لعايدة.

لم يتناولا طعام الغداء لأنهما شبعا من تلك اللقيمات التي

تناولاها. أعدّا أكثر من عشرين طبقاً في بضع ساعات. عندما أصبحت الساعة الثالثة بعد الظهر، شعرا بالتعب فأخذا قيلولة لمدة ساعة، ثم شربا المزيد من القهوة. وفي حوالي الساعة الخامسة، بدآ يرتبان الصحون والملاعق والسكاكين والشوك على الطاولة التي خيّم عليها ظلّ الآن. وأضفت البركة برودة منعشة في هذا اليوم الحار.

استحمّا معاً، وضحكا كثيراً. «أشعر أنّكِ أعدتِ ساعتي إلى الوراء. فأنا أشعر بأنني أعود بالزمن إلى الوراء عندما أكون معك»، قال كريم لعايدة وهو يقبّلها في عينيها.

«لا يُسمح لك بأن يقلّ عمرك عن الثامنة عشرة، لأن ذلك سيعرّضنا لمشاكل أخلاقية وسيقول القاضي لي قبل أن يحكم عليَّ: لقد أغريت هذا الشاب اليافع».

بعد أن ارتديا ثياباً خفيفة ذات ألوان صيفية، قررا أن يمضيا الساعة المتبقية لوصول الزوار على الشرفة. بدت الحديقة نضرة كما لم تكن من قبل. أحضر كريم كأسينِ صغيرين من النبيذ الأبيض البارد، وقال لها: «قبل أن يأتي الزوار، أريد أن أقول لك كم أنا أحبّك». قرعا كأسيهما وجرعا رشفة قبل أن يضعا كأسيهما على الطاولة الصغيرة وعانق أحدهما الآخر. عندما فتح كريم عينيه بعد أن قبّلها، رأى شيئاً يطير من فوق جدار الحديقة ويهبط فوق شجيرة الورد ليسقط على الأرض محدثاً ضجيج خبطة قوية. لم يعرفا ما هو.

سمعت عايدة صوت الخبطة أيضاً، وسألت بقلق، «ما هذا؟»

فقال كريم: «لا أعرف»، وهبط الدرج إلى الحديقة، تتبعه عايدة. تسمّرا في مكانيهما عندما شاهدا قطة نافقة ملقاة بين شجرتين. قطة رمادية ذات وجه لطيف بدا كأنها نائمة.

بعد أن استوعب كريم الصدمة، هرع نحو الباب وخرج إلى الشارع. لم ير أحداً. شاهد عند نهاية الشارع رجلاً يقود دراجة،

وأطفالاً يلعبون في ساحة الدير. توجه كريم إلى الأطفال وسأل صبيين هل شاهدا أحداً يلقي شيئاً من فوق جدار بيته، فهزّ الصبيّان رأسيهما ببراءة وعادا يلعبان بالدحل. لم يصدّقهما كريم وأبدى دهشته لأن الشارع أصبح خاوياً فجأة. فعاد إلى الحديقة محني الكتفين، ورأى عايدة تضع القطة النافقة في كيس بلاستيكي.

أخذ كريم مجرفة ورافقته عايدة إلى خرائب الدير، ودفنا القطة بجانب سور المدينة، وسوّيا التراب فوق قبرها، وغرزت عايدة وردة حمراء فوقه.

جبن

في أحد الأيام، أجاد كريم عزف مقطوعة على العود، وكمكافأة له، دعته عايدة لتناول بوظة في محل بكداش الشهير في سوق الحميدية. سارا في الشارع المستقيم، يمسك أحدهما بيد الآخر. لاحظ كريم أن بعض أصحاب المحلات الواقفين أمام محلاتهم في هذا اليوم الربيعي الدافئ، أو الجالسين على كراسيهم أمام محلاتهم، بدأوا يدخلون إلى محلاتهم كي لا يحيّوه، وصفّر بعض الشبان وأصدروا أصواتاً بذيئة.

بقي أحد هؤلاء البائعين واقفاً في الشارع لأنه لم يلاحظهما منذ البداية، تاجر الزيتون إسماعيل. ابتسم مُحرجاً وأراد كريم بنوع من سادية المقهور أن يخيفه أيضاً، فسار نحوه مع عايدة، وسأله، «هل عندك زيتون أخضر طازج؟»

«نعم، لكنه غير جاهز للبيع بعد».

«هل يمكننا أن نجرّب بعضاً منه؟»

جرت العادة أن يدعو إسماعيل زبائنه إلى داخل المحل ليعرض

عليهم تشكيلة متنوعة من الزيتون. لكنه لم يُبدِ أي إشارة إلى أنه سيفعل ذلك الآن.

فقال بجفاف: «نعم، لكن ليس اليوم، ربما في يوم آخر»، ونظر حواليه، غير واثق من نفسه.

«لا أظنّ أن لديك شيئاً ضدّنا؟» سألته عايدة.

فأجاب الرجل، محاولاً الاختباء في محله مرة أخرى: «لا، ليس هناك داع لأن يكون عندي شيء ضدكما؟ فأنتما أيضاً من مخلوقات اللّه، ولا يوجد عندي شيء ضد اليهود أو السود أو الكفار». لكن كريم أمسكه من كمّه، وقال: «ولا حتى ضد المصابين بالجذام؟»

فقال الرجل: «لا»، وأفلت من قبضة كريم وجرى إلى داخل محله.

«أنا سعيد لأن اسمع ذلك»، صاح كريم وراءه وقرر ألّا يشتري زيتونة واحدة من محل هذا الرجل الجبان.

تعاضد مرائي

نزل كريم ببطء عن دراجته. كان وركه يؤلمه منذ أن كان في العشرين من عمره. عرض عليه جار شاب أن يساعده على حمل أغراضه، لكن كريم شكره وقال إنه يستطيع أن يفعل ذلك بنفسه. كلّما بذل كريم مجهوداً كبيراً في حديقة البيت، شعر بألم في وركيه، لكن الألم كان محتملاً هذه المرة.

فقال له الشاب: «أنا معجب بنشاطك وحيويتك. في عمرك، يجب أن يكون الناس سعداء لأنهم لا يزالون أحياء. ففي الماضي، كان الناس يموتون في الأربعين من العمر، وها أنت على مشارف الثمانين وعندك صديقة».

غضب كريم لكنه أخذ نَفَساً عميقاً، وقال بهدوء، «صحيح. لقد تجاوزتُ السبعين، لكني أشعر في أعماق قلبي بأنني لا أزال في الثلاثين، ووفق حساباتك، لا تزال أمامي عشر سنوات أخرى. أنا لست من مخلوقات كوكب آخر. أنا سوري مثلك، لكني أكبر سناً منك بقليل. يمكنني أن أعود بذاكرتي إلى حياة غنية، شيء لا تستطيع بالضرورة أن تقوله عن نفسك».

هزّ الرجل رأسه وسار بعيداً. «أردت أن أساعده لكنه وبّخني»، قال بصوت مرتفع لرجل آخر كان ينصت إلى حديثهما من مسافة قصيرة.

عزلة مطرب فقد صوته

كان الأرمل بدري صافي أحد جيران كريم القلائل في زقاق الياسمين الذي لم تفتر صداقته معه. كان في أواخر السبعينات من عمره، يمشي ببطء مع انحناءة طفيفة، يحيّيه الناس بوّد شديد، وبشيء من الشفقة أيضاً. ففي سبعينات القرن الماضي، كان بدري مطرباً، لكن الفقر والمرض أحنيا ظهره الآن، والشيء الوحيد الذي يذكّر بشهرته هو بدلته البيضاء التي لم تسلم من عاديات الزمن، ويمكن رؤية ذلك من الياقة والكمّين، لكن قسمات جميلة لا تزال بادية عليه إذا دقق المرء النظر في وجهه. وكلما امتدحه أحدهم وقال له إنه وسيم، أجابه، «هذه بقايا معبد روماني».

وقعت الكارثة في بداية التسعينات. فبعد أن تعرّض بدري لحادث سيارة مروّع، أمضى قرابة ستة أشهر في المستشفى، وأجرى عدة عمليات جراحية في رأسه وحنجرته، وتلفت حباله الصوتية نتيجة ذلك. ظلّ قادراً على الكلام لكنه لم يعد بإمكانه أن يغني. وكأن ذلك

لم يكن كافياً، فقد هجرته زوجته بعد الحادث. دأب كريم على مساعدة بدري بقدر ما يستطيع، وكان يدعوه في أحيان كثيرة إلى مشاركته في تناول الطعام. كان كريم سعيداً بصحبة بدري لأنه شخص خفيف الروح، يسخر من نفسه أحياناً، ولأن الطعام بصحبة آخرين يصبح ألذّ طعماً وأطيب مذاقاً.

حتى بعد أن أصبحت عايدة وكريم صديقين، ظلّ بدري يأتي إلى بيت كريم ويشاركهما الطعام بين الحين والآخر. كان رجلاً لطيفاً حقاً، وأحبّت عايدة أسلوبه القديم في التعامل، فعندما يلتقيان، كان يقبّل يدها من دون تكلف أو تزلّف.

«الموت شيء فظيع للذين يبقون على قيد الحياة ويظلون وحيدين مع ذكرياتهم. وأنا شخص غير محظوظ لأن صوتي مات قبل أن أموت، وترك لي ذكريات عن الأوقات التي عشناها معاً. بدأت أغانيّ تتعفن الآن في قلبي لأنها لا تستطيع الخروج من فمي واستنشاق الهواء النقي».

بناء على نصيحة أطبائه، قرر بدري أن يقلل التدخين. فقد اعتاد على تدخين علبتيْ سجائر كل يوم بعد الحادث، أما الآن، فأصبح يدخّن سيجارة واحدة كلّ ساعتين - ثماني سجائر إذا كان مستيقظاً خلال ستّ عشرة ساعة.

«مبروك - هذا إنجاز عظيم»، قال كريم مشجعاً صديقه.

«نعم، لكن الشيء الغبي هو أنني لا أستطيع أن أنتظر انتهاء الساعتين حتى أشعل سيجارة أخرى»، ثم سأل، «منذ متى أنا جالس هنا؟»

«منذ نصف ساعة»، قالت عايدة، وابتسمت.

«فقط منذ نصف ساعة؟» سأل بدري يائساً.

في عدم صلاحية رفقة أيام الطفولة
أو الشارع المسدود الثالث

دمشق، ١٦-١٧ *كانون الأول (ديسمبر)* ٢٠١٠

أمل محطم

أصبح عادل، صديق سلمان منذ أيام المدرسة، طبيب أسنان ناجحاً يعيش عازباً وحيداً في شقة كبيرة. وعندما سأله والد سلمان عن سبب مواصلته العمل حتى الآن مع أنه بلغ الخامسة والستين من العمر، أجابه عادل: «في عيادتي أحارب نخر الأسنان وانحسار اللثة - وضجري».

في الواقع، لم يكن عادل بحاجة إلى العمل لأن لديه ما يكفي من المال، ويملك أيضاً البناية الضخمة التي توجد فيها الشقّة التي يسكن فيها ذات الإيجارات المرتفعة في هذا الجزء من وسط المدينة. ففي الطابق الأرضي توجد، بجانب عيادة عادل، عيادتان أخريان، عيادة طبيب عيون وعيادة طبيب أمراض داخلية. وفي الطابق الأول، استأجرت شركة طيران مكاتب لها، وفي الطابق الثاني شركة تأمين كبيرة. وبنى عادل على السطح، فوق شقته في الطابق الثالث، مسكناً صيفياً كاملًا يحيط به حاجز أنيق من الشبك

للحفاظ على الخصوصية، فيه مسبح وأشجار في أحواض كبيرة، ومقاعد طويلة، ومشرب، وغرفتان مكيفتان.

عندما زار عادل سليمان في بيت والديه، أخبرت صوفيا سلمان أن الجميع يعرفون أن عادل لا يُبقي جيرانه المستأجرين لفترة طويلة بسبب أسلوبه في الحياة. وقالت له إن عادل ضعيف أمام الشبان ذوي البنية القوية، ويفضّل الشبّان الذين يأتون من خارج دمشق. يحبّ الشبان الطبيعيين القساة البعيدين عن رخاء المدينة، فكان يتصيدهم عند محطات الباصات القادمة من الريف، وما إن يرى شاباً وسيماً حتى يلقي بشباكه عليه ويغريه بدعوته إلى وجبة طعام أو إلى احتساء قهوة، ثم يعرض عليه أن ينام في بيته الأمر الذي يُفرح قلب كلّ غريب. ولم يكن يدفع قرشاً واحداً لأي شاب يرافقه إلى غرفة نومه، لأنه يعتبر، كمضيف، أن الرفاهية الجنسية مع ضيفه من حقه.... هكذا هو... بارد كالصقيع. ولم يكن يدع أياً من غلمانه يشعر باستقرار كأنه يقيم معه في بيته. ولم يشعر قط بعذاب ضمير تجاه هؤلاء المساكين الذين أحبّوه فعلاً وأرادوا أن تستمر علاقة الحبّ المثلية هذه، وإنما كان يلقي بهم خارج شقته من دون أي رحمة.

ذات مرة، هاجمه أحد أولئك الشبان بسكين بعد أن طرده عادل من منزله وأصابه بجرح خطير. لكن ما إن تماثل للشفاء حتى توجّه على الفور من المستشفى إلى محطة الباصات ليصطاد شاباً يافعاً يستمتع معه لبضعة أيام.

فهم سلمان الآن لماذا كانت صوفيا ترفض عادل عندما كان يرافق سلمان وكانت تعامله بجفاء كلما جاء لزيارته، لكنها لم توضح سبب ذلك لسلمان. والغريب في الأمر، أن سلمان لم يعرف شيئاً عن ميول عادل المثلية تجاه الذكور ولم يشعر بها عندما كانا زميلين

في المدرسة، مع أنهما كانا يمضيان طوال الوقت معاً، لأن التقارب الجسدي بين التلاميذ في دمشق ليس أمراً غير عادي.

لكن ما أزعج سلمان فعلاً هو تلك الدقائق والتفاصيل عن عادل التي أخبرته بها أمه. وعندما سألها هل وكّلت مكتب تحرٍّ ليلاحق عادل إلى جميع الأماكن التي يذهب إليها، قالت ضاحكة: «لا يحتاج أحد في دمشق إلى تحرٍّ لأن دمشق مدينة الشائعات، لكن المهارة تكمن ئي التمييز بين الشائعة الفارغة التي ليس لها أساس، والشائعة المليئة بالدسم الصحيحة».

لكن والده عارضها وقال: «صوفيا تلقي أحكامها يميناً ويساراً ولا تترك مجالاً للشك، فإذا أصاب حكمها هللت بصوت عال ليسمعها الأسكيمو في القطبين الجنوبي والشمالي معاً، وإذا أخطأت فإنها تتناسى الحكم الذي أطلقته بأسرع من سرعة الضوء».

منذ وصول سلمان، زاره عادل مرتين، وكان في كلّ مرة يدعو سلمان ليزوره في بيته، وعرض عليه أن يساعده، ولم يثر ذلك أي شكوك لدى سلمان.

في طريقه إلى شقّة عادل، قال سلمان لنفسه إن هذا أفضل مكان يمكن أن يختبئ فيه. إذ تقع شقّة عادل في بناية حديثة في شارع يضجّ بالحركة مليء بالزبائن والمارة. وهو مكان آمن أيضاً لأنه لا توجد لدى عادل أي انتماءات سياسية، ويزوره أشخاص محترمون. ففي أيام العمل السري الماضية، كانت أماكن كهذه تُعتبر «بيوتاً آمنة» من الدرجة الممتازة. فالشركات في المبنى يزورها مئات الأشخاص في ذهاب وإياب لا يلفتون نظر أي مراقب.

وضع سلمان نظاراته الشمسية، ورفع ياقة معطفه، ولفّ وشاحاً حول رقبته. لم تكن شقّة عادل تبعد كثيراً عن شقّة ريتا. سار في شارع ميسلون حتى ساحة يوسف العظمة ومنه اتّجه إلى شارع ٢٩

أيار المؤدي مباشرة إلى ساحة السبع بحرات. دار حول الساحة ثم انعطف إلى شارع جول جمال، ورأى من بعيد لافتة كبيرة لشركة الطيران. ظلّ يراقب البناية الحديثة ذات الواجهة الحجرية البيضاء المصقولة التي لم يتوقف الناس عن الدخول إليها والخروج منها. أسرع الخطى إليها، وصعد الدرج الرخامي، ورنّ جرس الباب المصنوع من الخشب الداكن والزجاج الملون.

فتح عادل الباب. كان يرتدي رداء حمّام حريرياً خمري اللون فوق بيجاما زرقاء غامقة.

«أهلاً وسهلاً»، صاح عادل ومدّ ذراعيه، ضاحكاً.

«لماذا لا تزال في رداء الحمّام؟ لاحظتُ أن عيادتك مفتوحة»، قال سلمان متفاجئاً.

«اليوم يوم الخميس. إنه يوم عطلتي بالإضافة إلى يوم الأحد. زميل شاب مجتهد يعمل مكاني. تفضّل»، قال لسلمان وسحبه إلى داخل الشقة المضيئة الواسعة. ثم قال له هامساً، «عندي زائر». أجفل سلمان قليلاً، لكنه أدرك الآن على الأقل أن صديقه القديم لا يعرف أن المخابرات تطارده. وضع حقيبته في خزانة المعاطف، وعلّق معطفه، وتبع عادل مرتاباً، متأهباً ليعود في أي لحظة.

لمح سلمان شاباً في غرفة الجلوس في رداء حمّام مهترئ وقصير. عرّفه عادل عليه وقال إنه صديقه بشير. كانت مصافحة الشاب قوية مثل ملزمة فولاذية. «هل تريد فنجان قهوة؟» سأله عادل.

فأجاب سلمان: «نعم أرجوك».

أومأ عادل لبشير برأسه إيماءة بسيطة، فنهض على الفور ودخل إلى المطبخ.

«حدّثني عن إيطاليا»، قال له عادل، «الرجال هناك وسيمون جداً، أليس كذلك؟»

«نعم»، أجابه سلمان محرجاً قليلاً من هذا السؤال.

«أتعرف، عندما كنتَ صغيراً، كنت أظن دائماً أنك إيطالي ولستَ سورياً. أليس من المضحك أنك أصبحتَ إيطالياً في النهاية؟»

«صحيح. ففي إيطاليا أيضاً، قلما كانوا يظنون أنني سوري، حتى أنني التقيت بممثل إيطالي يشبهني كثيراً».

«حقاً؟»

«نعم، اسمه فرانشيسكو. حتى صدور العفو، خطرت لي فكرة بأن آتي مستخدماً جواز سفره. لكنها بدت لي ولزوجتي مجازفة كبيرة لي ولفرانشيسكو». أراد عادل أن يعرف كيف يعيش الإيطاليون، خصوصاً المثليين، فقال له سلمان إن الإيطاليين أصبحوا أكثر تسامحاً، لا سيما في المدن الكبيرة.

أحضر بشير القهوة اللذيذة، وتبادلا أطراف الحديث لفترة قصيرة. لم يكد رفيق عادل يفتح فمه طوال الوقت. وعندما يسأله سلمان شيئاً، كان يجيب بنعم أو لا فقط، كابحاً أي محاولة لمتابعة الحديث. حتى عندما كان يتكلم، لم يتجاوز ما يقوله بضع جمل غبية وسوقية ذكّرته بزعران طفولته. فجأة صدحت موسيقى هاتف عادل الخلوي الذي نظر إليه ملياً ثم نهض وذهب إلى الغرفة المجاورة. وبقي سلمان مع هذا الشاب الغريب بشير وصمته الذي أزعج سلمان بعض الشيء.

بعد عدة محاولات فاشلة للحديث معه تخلّى سلمان عن ذلك. عندما ذهب عادل إلى الغرفة المجاورة ليجري حديثاً هاماً على ما يبدو استلّ سلمان مجلة من كومة مرتبة على الطاولة وجال بعينيه بين مقالات وصور المجلة من دون أن يقرأ شيئاً. وبين الحين والآخر، كان يسمع بعض العبارات التي يقولها عادل وأدرك شيئاً فشيئاً أن الأمر يتعلق بإسهام مالي في شركة يظن عادل أن شريكه خدعه وأن

المبلغ الضائع كبير. لم يشعر سلمان بأي اهتمام بخسارة أو ربح عادل، لكن جو الغرفة مع هذا الشاب المتجمّد أصابه بشيء من التوتر.

عاد عادل أخيراً إلى الغرفة وبقايا إحباطه ترتسم على وجهه رغم محاولة عادل إخفاءها بابتسامة باهتة.

«هل حدث أي مكروه؟» سأله سلمان من دون أي اهتمام.

«لا، أبداً»، أجاب عادل ووقف وراء بشير ومسّد له رقبته بحنان ورقّة.

«هل تحبّ أن تتناول العشاء في المطعم أم في بيتي؟» سأله عادل ثم أضاف، «بشير طاهٍ ممتاز. إنه من قرية صغيرة قريبة من حلب».

«في هذه الحالة، أريد أن أتذوّق الأكل الحلبي اللذيذ»، ردّ سلمان، مدركاً أن عليه شرح وضعه لعادل في أقرب وقت.

«حسناً، بشير، اذهب إلى السوق واشترِ بعض الأشياء - وأرجو ألّا تشتري إلّا المواد العالية الجودة، لأن ضيفنا إيطالي، مدلل». غادرا الغرفة ثم سمعهما سلمان يقبّلان بعضهما، ثم أُغلق باب الشقة وعاد عادل مرتدياً ثيابه.

«تعال، سأريك جنّتي السرّية الصغيرة. من المؤسف أنك لم تأتِ في الصيف».

تبعه سلمان. درج صغير يؤدي إلى ترّاس على السطح. لم يبالغ عادل بوصفه. فلم يكن فيه أي أثر للتواضع، فلقد تناثرت عدة تماثيل خزفية ذهبية لملائكة مجنحة وفهود وحيوانات وآلهة في أرجاء السطح الواسع، لكن ببريقها وتنوعها العشوائي فقدت الذوق، فلقد وقف ملاك بوجه طفل إلى جانب فهد ينشب أنيابه أمام كل ناظر ويحدق

بدوره بوجه أبله في فيل قزم أسود، ثمّ، من دون أي حسّ فني، كلب صيد يمدّ لسانه وتتبعه نسخة رخيصة عن الإلهة فينوس مقطوعة السواعد وتنتصب أمامها نسخة مصغّرة عن داوود النبي لميكيل أنجلو قبل أن يقذف الحجر ليقضي به على خصمه جليات... لم يعثر سلمان على أي أثر للذوق فيها، كما هي الحال في معظم البيوت العربية الثرية.

«نحتفل هنا مرة في الأسبوع، كما في سدوم وعمورة، من شهر أيار حتى تشرين الأول. تأتي صفوة المدينة، وعليك أن تحجز مكانك سلفاً. لا يتسع المكان لأكثر من عشرين رجلاً وامرأة. المكان محجوز للسنوات الخمس القادمة».

هز سلمان رأسه وتبع عادل شارد الذهن. أشرقت الشمس وازداد الجو حرارة. فجأة نظر عادل إلى عينَي سلمان وسأله، «ما قصتك؟ أراك مضطرباً - أم أنني مخطئ؟»

«لا، لستَ مخطئاً. عيناك ثاقبتان كما هما دائماً»، قال سلمان متملقاً، وأردف، «أنا في ورطة حقيقية. هل يذكّرك اسم إلياس بلدي بشيء؟» هزّ عادل رأسه نافياً. «إنه ابن عمي، ضابط خطير في المخابرات. إنه يكرهني، ومنذ بضعة أيام، عمل على إصدار أمر باعتقالي زاعماً أنني قتلت امرأة مع أنني كنت في روما وقت وقوع الجريمة، لذلك، فأنا مطلوب الآن، ولو لم يصدر الرئيس عفواً عاماً لما عدتُ إلى دمشق، وفوق كلّ ذلك، دفع والداي لهذا اللئيم إلياس عشرة آلاف دولار ليتأكدا من أنه لا يوجد شيء يحول دون عودتي إلى البلد، ولم آتِ إلّا بعد أن أعطانا الضوء الأخضر».

«إذاً لماذا يلاحقك الآن؟»

«لا أعرف. إلياس يعرف أنني غني. ربما يريد ابتزازي. سمعت أنه غارق في الديون حتى أذنيه، لكن يجب أن أختبئ عدة أيام إلى أن

أجد طريقة أهرب فيها إلى بيروت لأعود منها إلى روما. قلت في نفسي لعلك تستطيع مساعدتي. . .» لبث عادل لفترة طويلة صامتاً.

«للأسف، هذا غير ممكن»، قال أخيراً، وهو ينكش حوض نبات كبير بمجرفة صغيرة، «لا أريد مشاكل أخرى. فلديّ ما يكفيني منها، هل تفهمني؟ العالم كلّه يراقب مؤخرتي. هل تفهمني؟ لسنوات كانوا يسجلون أسماء جميع الذين يأتون لزيارتي. لم يتركوني وشأني إلّا منذ بضع سنوات. . . وها أنت تأتي الآن. ماذا يعني كلّ هذا؟ اختبار لشجاعتي؟ ولائي؟ نعم، أنا جبان. ماذا في ذلك؟ ليس مثلك، لم يكن عندي أصدقاء قط. أين كنت عندما عشتُ في الجحيم طوال ستة أشهر لأنني أحببت رجلاً؟ دأب أولئك الذين يطلقون على أنفسهم اسم اشتراكيين على اغتصابي كلّ يوم في سجونهم. ظنّوا أن الألم والذل سيصلحانني ويربيانني. أنا أكرههم جميعاً - الحكومة والمعارضة معاً».

ارتفع صوت عادل من جملة إلى جملة ولم يضبط سياق ما يقوله وكأنه قد تناول فجأة مخدراً. كانت كل عبارة مثل شظية محمّلة بأفكار مظلمة، قادمة من الرعب الذي عاشه. أدرك سلمان أن خوفاً شديداً تملّك عادل. صمت عادل فجأة، وغرس المجرفة الصغيرة بقوة في التراب بجانب زهرة الدفلى. «للأسف، هذا غير ممكن» كرر بصوت لا يكاد يكون مسموعاً، «يجب أن تبحث عن صديق آخر. يمكنك أن تمضي الليلة عندي، لكن صباح الغد. . .»

ظلّا على السطح، لم ينبس أحدهما بكلمة طوال ساعة تقريباً، ثم سمعا بشير ينادي. فقال له عادل وبدأ يهبط الدرج، «هيا، دعنا نستمتع بالساعات المتبقية»، وتبعه سلمان.

عندما عادا إلى الطابق السفلي، أصبح عادل ودوداً ومجاملاً، فقال: «يمكنك أن تستريح هنا قليلاً. سأناديك عندما ننتهي»، وأرى

سلمان غرفة ضيوف فيها سرير وطاولة مكتب وخزانة ملابس. عندما جلس سلمان على السرير، لاحظ باباً يؤدي إلى حمّام خاص. دخل إلى الحمّام ونظر إلى نفسه في المرآة. «أي تعيس أنتَ؟» قال لنفسه وهو يحدّق في صورته المنعكسة. أشفق على هذا المخلوق الحزين الذي حدّق به محبطاً.

أعدّ بشير عشاء لذيذاً، وتصرّف عادل بمرح وسعادة طوال الوقت. بعد العشاء أحضر بشير زجاجة ثانية من النبيذ الأحمر الفاخر. وبعد بضع كؤوس سكر بشير وبدأ يلاعب عادل ويقبّله ويقرصه ويدلك مؤخرته بوقاحة. أما عادل، فقد أخذ دور ممثلة من الدرجة الثالثة يتغنج ويتكلّم بصوت أنثوي رخيص مليء بالشهقات المبالغ فيها والعبارات الجنسية الرخيصة. ثم بدأ عادل يقبّل بشير بقوة، يمص لسانه كأن سلمان لم يكن موجوداً. كانت هذه من أكثر اللحظات إهانة التي شعر بها سلمان، ولم ير مثيلاً لها خلال الأربعين سنة التي عاشها في ألمانيا وإيطاليا. أن يعتبره مضيف نكرة.

بعد قليل، وقف بشير وقد انتفخ بنطاله وسحب عادل الذي تردد قليلاً بغنج ثم التفت إلى سلمان وقال له بصوت امرأة: «لقد حان وقت النوم» مع أن الساعة لم تتجاوز التاسعة مساءً.

ذهب سلمان جارّاً قدميه بصعوبة إلى غرفته. لكن لم يغمض له جفن في تلك الليلة. أفكار صاخبة تحتدم في رأسه، لكن الضجيج المنبعث من غرفة النوم المجاورة كان أكثر صخباً. لعب عادل دور الفتاة التي تخاف من عضو الرجل الهائل وكان يصرخ بصوت خنزير مرعوب كلما رهزه بشير. هذا الرجل الذي لم يقل طوال المساء عبارة واحدة صحيحة تحوّل إلى مربٍّ يشتم عادل الذي كان يؤدي دور فتاة عديمة الأخلاق لا يكتفي بمضاجعتها وإنما يضربها وهي تتوسل إليه راغبة المزيد. بعد قليل عاد السكون وخيّم على الشقة.

دارت أفكار سلمان دوائر لا معنى لها. هل يتّصل بابن خالته طارق؟ كان يخشى أن يجازف بهذا الأمل الأخير أيضاً خاصة وأنه أيقن أن جميع خطوط هواتف أقربائه مراقبة.

بصيص ضوء في الظلام

في اليوم التالي، استيقظ سلمان في الصباح الباكر. غادر بشير البيت. كان عادل يشرب قهوته في المطبخ مرتدياً معطف الطبيب الأبيض. نظر إلى سلمان وقال له بإصرار: «عليك أن تغادر بيتي بعد ربع ساعة على الأكثر. لا يمكنني أن أتركك وحدك هنا. لكن اشرب قهوتك أولاً».

«لا تقلق. سأغادر بعد قليل. لكنني أريد أن تعرف أنني لم أرتكب أي جريمة. فقد تخلّيت عن العنف منذ أربعين سنة».

«لم ترتكب جريمة؟» صاح عادل بغضب، «انتظر فقط حتى يقبضوا عليك، بعدها ستكون سعيداً لأن يلصقوا بك جريمة تقودك إلى حتفك»، ولوّح بيده رافضاً، «لا يهمني إن كنت مطلوباً كإرهابي أم لا. المهم أنك مطلوب كعدو للدولة. وهذا الأمر مهم بالنسبة لي لأنني لا أريد أن أخسر كل ما بنيته من أجلك. كما تعرف فإن دولتنا دولة بوليسية بامتياز. لكن الحياة هنا ليست سيئة جداً، ما دمت لا تتدخل في شؤونها ولا تدعم أعداءها - حسناً، رسمياً، أنت الآن عدو الدولة. بالمناسبة، قبل أن أنام الليلة الماضية، تذكّرت أنك لم ترسل لي بطاقة بريدية واحدة طوال الأربعين سنة تلك. أليس كذلك؟»

هزّ سلمان رأسه موافقاً بخجل.

عندما دخل عادل إلى الحمّام، نهض سلمان وأخذ حقيبة الكتف ومعطفه، ثم غادر من دون أن يودّعه أو حتى أن يلمس قهوته.

على الرصيف تنشّق سلمان الهواء النقي في ذلك الصباح المشمس. كانت الشوارع والسيارات تلمع. إلى أين سيذهب؟ سار بسرعة مبتعداً عن شارع جول جمال وعبر ساحة السبع بحرات. رأى في شارع بغداد مقهى صغيراً. جلس في غرفة المقهى الصغيرة الدافئة. رأى طاولة أخرى تجلس إليها فتاتان تحتسيان الشاي. أحضر له النادل كوب كابوتشينو، قبض ثمنها، وعاد إلى المطبخ وراء الكاونتر.

إلى من يلجأ الآن؟ لا يعرف أحداً آخر يثق به. جالت في رأسه أفكار سخيفة. تذكّر قصة قديمة سمعها عندما كان مراهقاً تقول إن امرأة عاشت لمدة طويلة مع رجلين اثنين: مع زوجها قائد الشرطة، ومع عشيقها المجرم المطلوب في كل مكان إلّا في بيت قائد الشرطة الذي عاش فيه عشيقها لسنوات في قبو لم ينزل إليه الزوج قط. كانت للمرأة أعصاب من فولاذ. وهكذا عاشت بسعادة مع الرجلين. فكّر سلمان قليلاً أن يذهب إلى إيزابيلا، زوجة إلياس، ويطلب منها أن تخبئه في قبو بيتهم، لكنه سرعان ما أبعد هذه الفكرة عن رأسه.

أفضل شيء أن ألجأ إلى هاني. لا بد أن رفيقه القديم في السلاح لن يتخلّى عنه. لحسن الحظ، كان هاني الوحيد بين رفاقه السابقين الذي لم يكن موجوداً عندما جاء إلياس إلى شقّة والديه. لم يجرؤ سلمان على الذهاب إلى بيت أصدقائه الآخرين لأن إلياس رآهم في بيت والديه. وماذا عن طارق؟ سيكون الذهاب إلى بيته أمراً خطيراً لكليهما.

علّمته السنوات التي أمضاها متوارياً بألّا يستهين بعدو، خصوصاً إذا كان ماكراً مثل إلياس. تذكّر تلك اللحظة في ذلك المساء عندما كان إلياس وزوجته يودّعانه. عندما سأله إلياس، بصورة عابرة وبلا اهتمام، «هل تعرف ماذا يفعل هاني هذه الأيام؟

هل جاء لزيارتك؟» فوجئ سلمان بسؤاله ولم يعرف كيف يجيبه. وليبعد فضول إلياس، هزّ رأسه وقال، «لا، الحمد للّه، لم يأت. سمعت أنه فقد عقله».

فقال إلياس، «صحيح»، متظاهراً بأنه قلق بعض الشيء، «المسكين. سمعت شيئاً من هذا القبيل أيضاً. سمعت أنه مكث لفترة من الوقت في مصحة عقلية، العصفورية».

بعد قليل، غادر سلمان المقهى وتوجّه إلى مقصورة هاتف لمحها على الطريق. تردّد قليلاً. في مكان غير بعيد، رأى رجلين متقدمين في العمر يصيحان بشابّ ويأمرانه بأن يصعد إلى السيارة - لكن الشاب لم يمتثل لأوامرهما. كان محرك السيارة لا يزال يعمل، والسائق جالس وراء المقود غير مكترث لما يجري. كان وجه الشاب شاحباً من الخوف. أخرج الرجل الأصغر حجماً شارة تدل على أنه من رجال الأمن، وهزّ الرجل الأطول قامة الذي تلمع صلعته رأسه ساخطاً، ثم صفع الشاب بقوة على مؤخرة رأسه ودفعه إلى داخل السيارة وجلس بجانبه، ثم دار الرجل الآخر حول السيارة وصعد إليها وجلس بجانب السائق، وانطلقت السيارة بسرعة. تسمّر المارة وسكان البيوت المحيطة والزبائن في المقهى في أماكنهم. حتى بدا أن الظلال على الجدار قد اختفت من شدّة الخوف.

«يا مسكين»، همس سلمان بشفقة، تردد قليلاً ثم دخل إلى كشك الهاتف واتصل بهاني، وقال هامساً، «أنا بحاجة إلى مساعدتك بسرعة».

«مساعدتي؟ طبعاً، تعال فوراً». بدا القلق في صوت هاني.

«هل أنت متأكد من أن ذلك لن يزعجكما؟ ألا أزعجكما في هذا الوقت المبكر من الصباح؟»

«لا ، أبداً، أنا وحدي. لم تزعجني المخابرات الحقيرة منذ عشر سنوات، فلا تقلق».

«ماذا تقصد وحدك؟ ماذا عن زوجتك؟»

«ذهبت - إلى بيت والديها في حلب. لم تعد تريد أن تعيش معي».

فقال سلمان: «أنا آسف لسماع ذلك»، وهو يعني ذلك حقاً. فقد شعر بالخجل لأنه لم يلاحظ أن هاني كان يأتي وحده دائماً. ولم ينتبه أحد لزواجه المحطم - ولا حتى صوفيا - تكوّن لدى سلمان انطباع بأن المجتمع نسي هاني تماماً.

«لا داعي للأسف. لم تعد حياتنا معاً جيدة، وبما أننا لم ننجب أطفالاً، لم يكن الانفصال مأسوياً. أنت تعرف أين أسكن، أليس كذلك؟»

«ألا تزال في بيت والديك؟»

«نعم، تصل إليه بسرعة من ساحة باب توما، اذهب إلى حارة الجورة، وعند الشارع الثالث إلى اليسار، تجد البيت عند الزاوية. تعال الآن. عندي قنينتان جيدتان من النبيذ الأحمر - إنك تحب النبيذ الأحمر، أليس كذلك؟»

قال سلمان «نعم» وأغلق الهاتف. كان متيقناً بأن هاني لا يعرف شيئاً عن حالته. بدا أن السماء قد تلبدت بالغيوم الآن، لكن في غمرة كلّ هذه الكآبة، كان لا يزال هناك بصيص نور.

مصداقية الحبيب
أو كم يزن الوعد

بعد أن يُعاش الحب، تبدأ الصداقة.

الشاعر الألماني هاينريش هاينه

دمشق، ١٧ *كانون الأول* (ديسمبر) ٢٠١٠

كان البرد قارساً في صباح يوم الجمعة ذاك عندما ذهب كريم إلى الطبيب لأن وركه بدأ يؤلمه من جديد. عندما عاد وفتح باب البيت، سمع في البداية عايدة تضحك، ثم تناهى إليه صوت صوفيا الذي يستطيع أن يميّزه من بين آلاف الأصوات. ماذا تفعل هنا؟ أسند دراجته إلى درابزين الشرفة، وصعد ببطء الدرجات القليلة المؤدية إلى الباحة الداخلية، وفتح باب غرفة الجلوس بحذر.

«لقد جاء»، صاحت عايدة، وقفزت من كرسيها. كانت المرأتان جالستين في غرفة الجلوس إلى الطاولة الكبيرة التي تحيط بها ستة كراسيٍّ وتُستخدم لتناول الطعام، بجانب الأريكة، والنار مشتعلة في الفرن. وقفت صوفيا التي أصبح شعرها أبيض كالثلج، لكن قسمات وجهها ظلت جميلة. لم يتغيّر فيها شيء تقريباً، لكن الحزن والاكتئاب ارتسما على وجهها. تسمّر كريم في مكانه كأنه استحال صنماً من حجر عند المدخل.

«ماذا في الأمر؟» صاحت عايدة وهرعت نحوه بذراعين ممدودتين، «هل خفت من امرأتين مسالمتين؟»

ابتسم محرجاً، وعانق عايدة بسرعة، وصافح صوفيا بحرارة وود.

«مضى زمن طويل»، قال بصوت خفيض وجلس عند رأس الطاولة بين المرأتين.

«ماذا قال الطبيب؟» سألته عايدة، «أخبرني باختصار، ثم ستخبرك صوفيا عن سبب مجيئها، ريثما أذهب وأعدّ الشاي لنا جميعاً. أنا مضيفة سيئة. فقد أُخذت بقصة صوفيا ونسيت واجب الضيافة».

«حسناً، أصيب مفصل الورك بالالتهاب مرة أخرى. وصف لي مسكّنات ودواء جديداً مضاداً للالتهاب. وقال يجب أن أسبح كلّما استطعت. فالسباحة مفيدة جداً للورك، ويجب ألّا أحمل أشياء ثقيلة».

«قلتُ لك ذلك عشرات المرات. وأقول لك مرة أخرى إنني لست طبيبة، وإنما مصففة شعر. حسناً، أصبح ذلك رسمياً الآن. يجب ألّا تجهد نفسك في العمل في الحديقة، مفهوم؟» قالت عايدة متظاهرة بالصرامة.

«نعم يا سيدتي. كلّ أوامرك مطاعة».

نهضت عايدة لتضع إبريق الشاي على موقد الغاز، عندما مرّت من جانب كريم، قبّلته على رأسه.

«إنها امرأة رائعة»، قالت صوفيا بصوت خفيض، «صادقة وواعية. بعد ساعة فقط شعرت كأن أحدنا يعرف الآخر منذ سنوات».

«نعم، إنها امرأة رائعة».

بعد قليل، قالت صوفيا، «سبب قدومي اليوم هو أنني بحاجة إلى مساعدتك».

«مساعدتي؟» سأل كريم مندهشاً.

«نعم، الأمر يتعلق بابني سلمان. بعد أن أصدر الرئيس عفواً عاماً على جميع من في المنفى، عاد إلى دمشق ليزورنا لأول مرة بعد أربعين سنة، لكنهم يلاحقونه الآن، ولا نعرف ماذا نفعل. حياته في خطر... يريدون أن يقتلوه...» وأجهشت صوفيا في البكاء.

ضمّت عايدة التي عادت لتوها من المطبخ، صوفيا بين ذراعيها وعانقتها، وقالت: «كلّ شيء سيكون على ما يرام، سترين ذلك. كلّ شيء سيكون على ما يرام». فهدأت صوفيا قليلاً، وعادت عايدة وجلست إلى الطاولة.

ثم قال كريم: «صوفيا، لقد وعدتك منذ زمن بأنني سأقف إلى جانبك دائماً. وأنا عند كلمتي. تأكدي أنني سأبذل كلّ ما بوسعي لأساعدك أنتِ وابنك. سنجد وسيلة إلى ذلك». وربّت بحنان وشفقة على يديها المطويتين أمامها على الطاولة كأنها تصلي. «أرجو أن تخبريني بكلّ ما حدث».

ندوب هاني
ويد طارق إلى طريق الأمل

دمشق، ١٧-١٨ *كانون الأول* (ديسمبر) ٢٠١٠

بدأ المطر يهمي عندما غادر سلمان مقصورة الهاتف. لوّح بسرعة لسيارة أجرة مرّت بجانبه بسرعة. ضغط السائق على الفرامل فجأة وانبعث من السيارة صوت زعيق العجلات.

«هل أنت شاغر؟»

«حُرّ كعصفور. إلى أين؟» سأله السائق بينما صعد سلمان إلى المقعد الخلفي، وقال: «بوابة باب توما».

«بكل سرور»، قال السائق الشاب ورفع صوت المذياع. انطلق صوت مغن شاب له صوت عادي يغني أغنية عن محبوبة شقراء زرقاء العينين لا يمكنه أن ينالها - ربما كانت سائحة لا تفهم ما يقوله - يتوسّل إليها لأن تدع قلبيهما يكلّم أحدهما الآخر. كما هو في إيطاليا تماماً، قال سلمان لنفسه، لا يوفر أي من هؤلاء الشعراء من الدرجة العاشرة أي قافية سواء أكانت مناسبة أم لا، وهكذا ينظم شعراء الأغاني الإيطالية قوافي الحبّ مع قوافٍ مثل: *cuore*، *calore*، *dolore*، *rumore*، (قلب، أشواق، حزن، ضوضاء) وحتى أنهم إذا اضطروا فإنهم يقولون *suore* (راهبات).

على الأقل لم يزعجه السائق وتركه بسلام. جالت الأفكار في رأس سلمان مثل شظايا مسننة، ولم يستطع أن يرتّب أفكاره. راح يتحدّث مع نفسه، ومع باولو وستيلا، ومع اللّه، يلوم نفسه لأنه جاء إلى هنا. فقد كان يعيش حياة رغدة في روما. ماذا يفعل هنا؟ ستيلا، حبيبتي ستيلا. كنتِ على صواب. كان عليّ أن أبقى في روما. باولو، يا نور حياتي، ماذا سيحدث لك لو متّ هنا قبل أن تكبر؟

عمَّ يبحث هنا؟ تساءل سلمان. أن يثبت أنه تحدّى الديكتاتورية؟ يثبت ذلك لمن؟ فجأة سمع صوتاً آخر في قرارة نفسه، مهلاً مهلاً يا صديقي لا تزيد اللوم على نفسك. ما المشكلة في أن يعود إنسان إلى بلده ويزور أماكن طفولته ويُدخِل السعادة والبهجة إلى قلب والديه؟ أجابه الصوت الأول... لكن والده كان يبدو أنه يعامله ببرود دائماً. يعتقد سلمان أن يوسف لم يحبّه أو يفهمه قط. إنه أحد أولئك الآباء الذين يُفضّل أن يظلوا عزاباً، واحداً من أولئك الفوضويين الرائعين. ما هذا المجتمع الذي صنعته عشيرة الأسد في مصنع الخوف هذا؟ لقد حُطِّم السوريون - أعلى الناس صوتاً في الشرق الأوسط - أصبحوا الآن جبناء صامتين. أرغموا شعباً من أكثر شعوب الأرض كرامة على أن يزحف على ركبتيه ويطيع كالعبد.

ماذا سيقول لهاني عن ملاحقة المخابرات له؟ كيف ستكون ردّة فعله؟ أين إلياس الآن؟

سيارة شرطة تنطلق بسرعة في شارع بغداد أخرجت سلمان من متاهة أفكاره. «ما الذي يجري هنا؟» سأل السائق الذي أجابه ضاحكاً: «ربما اشترى أحدهم لحماته بطاقة سفر إلى الخالق. طبعاً رحلة ذهاب بلا عودة». لكن سلمان أصرّ على السؤال، «وماذا لو كان شيئاً خطيراً؟»

«في هذه الحالة، لن ترى سيارة الشرطة. في هذه الحالة،

سيتسللون من دون أضواء أو صفارات. إذاً، أين يجب أن أتوقف؟» سأله عندما لاحت أمامهما بوابة باب توما، فقال له سلمان، «جانب فندق دار الياسمين، من فضلك». بعدما أعطى السائق أجرته وشكره، انطلق بعيداً.

لا يبعد بيت هاني كثيراً عن البوابة، ولا يبعد كذلك عن بيت خالته تقلا. عندما توقف المطر، بدأ سلمان يغذّ خطاه. رأى رجلين يقفان أمام الفندق يدخّنان وينظران إلى الشارع. عندما انعطف إلى حيّ الجورة الأقل صخباً بدأ يسير بخطوات وئيدة. لم يكن بحاجة إلى توجيهات هاني لأنه تذكّر أن بيت أهل صديقه يقع عند ناصية حيّ الجورة وشارع بكري. قرع الجرس.

كما لو كان هاني ينتظره وراء الباب، فُتح الباب على الفور، وابتسم لصديقه ابتسامة عريضة. قال سلمان، «اعذرني لأنني جئت في وقت مبكر من الصباح». فابتسم هاني، وقال: «أهلاً بك في جميع الأوقات. هل مللت من هؤلاء الأقارب؟ أحسنتَ صنعاً. لو كنت في مكانك لما تحمّلتهم أكثر من خمسة أيام»، قال ذلك وهو يعلّق معطف صديقه على المشجب ثم قاده إلى غرفة الجلوس التي تفوح منها رائحة المازوت. إذا جلست بالقرب من المدفأة المتواضعة يمكنك أن تحصل على قليل من الدفء في هذه الغرفة الرطبة في الطابق الأرضي. وضع هاني طاولة صغيرة وكرسيين بجانب المدفأة. بدا لسلمان كلّ شيء بالياً ومهترئاً. وقال لنفسه لو جاءت ستيلا إلى هنا لقالت ساخرة إنه «عرين العازب».

«قل لي كيف تسير الأمور معك»، سأله سلمان بعد أن أخذ أول رشفة من القهوة.

«لا توجد لديّ أشياء كثيرة يمكن الحديث عنها»، أجابه هاني بشيء من التردد، «فقد خططنا وفتحنا مقهى أنا وزوجتي، لكنها

شعرت بالاستياء فجأة ولم تعد ترغب في ذلك. ومن هنا بدأ سقوطي. فقد وقّعتُ كلّ العقود، وبدأت تلحّ عليّ مساء كلّ يوم بأن أتخلّى عن المقهى. لكنها كانت في الحقيقة تريد أن تتركني. أظنّ أن أملها بي خاب. فعندما تصبح في الستين فإن مظهرك لا يتحسن، وإنما تزداد بشاعة قليلاً مع كلّ فشل وخيبة تصادفها، مع أن حياتي كلّها لم تكن سوى سلسلة من الإخفاقات. ومتى مات الحب ترى العين كل النقائص.

تخلّيت عن المقهى لأجلها بخسارة. كنت قد ورثت عن والديَّ أربع قطع من الأراضي الجيدة في شمال المدينة، واستطعت أن أسدّد الديون بعد أن بعت إحدى تلك الأراضي. وكيف تظن الطريقة التي شكرتني بها على كلّ ما فعلته؟ فقد هربت إلى شقيقيها في حلب بعد أن جرى جدال عادي بيننا. وشقيقاها محاميان ميسورا الحال، وتخدمهما الآن وتقوم بجميع الأعمال المنزلية في بيتيهما وتعتني بأطفالهما حتى لا تعترض زوجاتهما على بقائها معهم. لكن في الفترة الأخيرة، عندما كانت عندي لم تعد تُفرغ حتى منفضة سجائرها. هذا ما يحدث عادة عندما يموت الحبّ. والأسوأ من كلّ ذلك، بدأت ترفض أن تكلّمني. هل تتخيّل ذلك؟ بعد عشرين سنة من الزواج؟ لا يمكنني أن أتصوّر ذلك. وعندما أردت أن أكلّمها وأصالحها، صاحت في وجهي وقالت إنهم كانوا محقّين عندما عذّبوني في السجن. كانت هذه آخر الكلمات التي قالتها لي، ولا يزال صداها يتردد في أذني».

«لماذا لا تذهب وتزورها في حلب؟»

«في أحد الأيام ذهبت إلى حلب لأن حبي لها أجبرني على أن أسامحها، لكن شقيقيها لم يسمحا لي بالدخول إلى بيتيهما. أظن أنهما كانا خائفين على حياة أختهما. كانا خائفين مني، تصوّر بربك

ما الذي حكت لهما عني»، صاح غاضباً. بعد أن هدأ، أنهى قهوته، وسأل سلمان محاولاً أن يغيّر الموضوع «وماذا عنك؟ هل أنت سعيد مع زوجتك؟»

«أنا سعيد مع ستيلا، لكن لدينا مشاكلنا، وقد تركت ورائي زواجاً فاشلاً. كان ذلك منذ أكثر من ثلاثين سنة»، أجاب سلمان وقد بدأ يشرب فنجان قهوته الثاني. الشيء الوحيد الذي يمكن سماعه، كان صوت اللهب المشتعل في المدفأة المعدنية. كان الصمت مثل بطانية، بدت مريحة في البداية، لكنها سرعان ما بدأت تثقل على روح سلمان.

«إنهم يبحثون عني»، قال سلمان أخيراً، «ابن عمي إلياس يقف وراء كلّ ذلك. إنك تعرفه منذ أن كنّا في العمل السرّي».

رمقه هاني باهتمام. «تسألني هل أعرفه!؟ كان يستمتع برؤية اثنين من رجاله وهما يعذّبانني في المعسكر تحت إشرافه المباشر».

«حسناً، لقد خدع والديَّ وخدعني. أخذ عشرة آلاف دولار من أبي حتى يتخلص، حسب ادعائه، من جميع سجلاتي، على الرغم من صدور العفو العام، وإقامتي في المنفى أربعين سنة، لذلك، يجب أن تُسقَط كلّ عقوبات الجرائم استناداً إلى قانون التقادم. وهو يطاردني الآن بتهمة جريمة قتل لم أرتكبها، وعاد ينشر القصة القديمة حول مخفر الشرطة والشرطي الذي أصيب بجروح. هل تعرف ما الذي حدث لهذا الشرطي المسكين؟»

فأجاب هاني، «نعم، عرفت لأنني بقيت مختبئاً في تلك المنطقة»، وأضاف، «لحسن الحظ، شُفي الشرطي بسرعة وعاد يمشي بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، كأن شيئاً لم يحدث له».

تابع سلمان قائلاً: «إنهم يبحثون عني الآن من أجل جريمة قتل فاطمة حداد».

«فاطمة حداد؟»

«قتلها إسلاميون قبل أن أصل إلى دمشق بأربعة أسابيع، لكنهم لفّقوا لي التهمة الآن. ألا تقرأ الصحف؟»

«لا، لم أقرأ هذه الزبالة منذ أن أُغلق المقهى. في أي صحيفة نُشر الخبر؟»

«في الصحيفة الرسمية، تشرين، على صفحتها الأولى».

«يا إلهي، عندما كنّا نقاتل في الجبال، لم يساورني الشك لحظة في أن إلياس ثوري حقيقي إلى حدّ التهور. أتذكر عندما دافعنا عنه معاً أمام القيادة؟ بعد ذلك، بدأت أظن أنه يخوننا. وتأكدت الآن أنه تسلل منذ البداية إلى صفوفنا كعميل للمخابرات. لقد تعلّمت المخابرات هذه الأساليب من الروس والألمان الشرقيين»، قال هاني بمرارة وهو ينظر إلى سلمان، «لكن لماذا يطاردك؟ هل لديه حسابات معك يريد تصفيتها؟ هل يتعلق الأمر بامرأة؟»

«لا. إلياس يلاحقني الآن لينتقم مني. طوال هذه السنوات، كنت أخاف منه كثيراً، أكثر مما أردت أن أعترف أمام الناس. لم يغب بصره عني قط. أعرف أنه يعرف أشياء كثيرة عني، حنيني لدمشق، وسلوكي عندما كنت مطارداً، نقاط قوتي ونقاط ضعفي. إنه يريد المال - الكثير من المال - ما لا يقل عن مليون دولار»، قال له سلمان موضحاً.

«آه»، صاح هاني كما لو أن الصورة الكاملة قد اتضحت له لأول مرة. «هذا العرص - إنه ليس حتى ابن عمك، ولا حتى ابن أمّ وأب طبيعيين. إنه ليس إلّا أحد أقزام الديكتاتور، مخلوق أنبوب اختبار من نظام شرير. يجب أن يُقتل».

«لا، لا، لا أريد أن أقتل أحداً. أريد أن أخرج من هنا فقط. كان قدومي إلى سوريا خطأً كبيراً...»

«نعم، لقد هربت وأنقذت نفسك مما سرني جداً، لكن ماذا عن العشرين مليون الباقين؟ إلى أين يمكنهم أن يهربوا؟»

لم يعرف سلمان ردّاً على هذا السؤال.

خيّم الصمت مرة أخرى.

عندما دقت ساعة برج الكنيسة الحادية عشرة، نهض هاني واقفاً.

«أنا جائع. هل تريد أن تأكل؟»

فقال سلمان، «نعم أرجوك».

«سأجلب طعاماً من مطعم قريب للوجبات السريعة. سأعود حالاً. يمكنك أن ترتاح بعد الطعام ثم نرى. تأكد يا عزيزي أنك في مأمن هنا».

«هل تحتاج إلى نقود؟»

«بحق اللّه، لا. معي ما يكفي. لا تنس أنك في دمشق، كضيف. أنت السجين النبيل للمضيف»، ضحك وارتدى سترته وخرج. عندما وصل إلى الباب التفت إليه وقال: «لا تفتح هذا الباب لأي شخص. سأقفله من الخارج لكي يبدو أنني في البيت وحدي».

عندما غادر هاني البيت، تجوّل سلمان في الشقّة. غرفتان أخريان تكدست فيهما صناديق كرتون حتى السقف، وغرفة ثالثة تُستخدم كغرفة نوم. هبّت على سلمان رائحة هواء فاسد وعرق ودخان بارد وجوارب قديمة. لكن المطبخ كان الأسوأ. فقد رأى سلمان بعض الديدان السمينة تزحف وتتلوى في ذلك المزيج الأسود المتقيّح في مقلاة فوق الموقد. وفي حوض المجلى الصدئ، رأى تلالاً من الصحون المتسخة والصنبور ينقط ماء. وتناثر البن فوق الطاولة المغطاة بقنانٍ نصف فارغة لا يمكن تخمين محتواها. تراجع سلمان إلى الوراء مقاوماً الرغبة في التقيؤ. فتح النافذة في الغرفة

الرئيسية. أغمض عينيه واستنشق هواء نقياً. بدأ الشك يساوره في أن تكون شقّة هاني هي المكان المناسب له. أخيراً، جلس يستريح على الأريكة أسفل النافذة وشعر بإرهاق شلّ أعضاء جسمه.

كان يسير في حقل عريض وسمع باولو يناديه. لكن عندما التفت، لاحظ الأرض تُفتح أمامه مثل هاوية. استيقظ مجفلاً. كان هاني واقفاً أمامه يبتسم مشفقاً.

«إنك مرهق أيها الصديق المسكين»، قال هاني. لا بدّ أنه عاد منذ فترة لأنه رأى الطعام على الطاولة الصغيرة بجانب المدفأة تنبعث منه رائحة شهية: صحون من الحمص والفلافل والجبن والزيتون والخبز المقرمش مفروشة على صفحة جريدة. بدا كل شيء طازجاً ولذيذاً.

لدهشته، وجد سلمان أن شهيته كبيرة جداً فتناول طعاماً كثيراً. بعد أن أنهيا طعامهما، عرض سلمان أن يساعده في تنظيف الصحون وترتيب المطبخ، لكن هاني رفض، وقال: «أنت ضيفي، ولست زوجتي»، كان صوته جافاً ومتوتراً كأنه شعر بإهانة.

حمل هاني ما تبقى من الطعام إلى المطبخ وعاد يحمل زجاجة نبيذ أحمر وكأسين طويلتين. ومن دون أن يسأل سلمان، ملأ الكأسين حتى الشفة. «بصحتك»، قال وجرع جرعة كبيرة قبل أن يشعل سيجارة. منفضة سجائر مليئة ملقاة على الأرض بجانب المدفأة. وضعها سلمان على الطاولة. لاحظ هاني ذلك من دون مبالاة، ونفض رماد سيجارته على حافتها، وتناول جرعة كبيرة من النبيذ.

جلسا فترة قصيرة لم ينبس أحدهما خلالها بكلمة واحدة. وليكسر الصمت قال له سلمان، «حدّثني عن الفترة التي أمضيتها في السجن».

فقال هاني: «كان كلّ يوم يشبه اليوم الذي سبقه»، وأضاف، «لم أكن أميّز بين الشهور والسنين. لكن يمكنني أن أتذكّر الأيام القليلة الأولى جيداً، التعذيب وعدم معرفة ما سيحدث بعد ذلك. فقد أُعدم عدد كبير من رفاقي. فعندما يقرر خبير أمني في المخابرات أن ذاك الرجل خطير، يأخذونه ويطلقون النار عليه على مؤخرة رأسه.

وبما أنني كنت خبير متفجرات في مجموعة المقاومة، لم آمل بفرصة كبيرة في النجاة. فقد أرادوا أن يعذّبوني قبل إعدامي، وحشروني في زنزانة مع عشرين شخصاً من الجماعات الإسلامية. كان ذلك عمداً لزيادة عذابي فأنا في نظر أي إسلاموي، عدواً بكل المعايير، فأنا من عائلة مسيحية وملحد. لكنني كنت محظوظاً. وما عدا شخصاً أحمق ملتحياً كان يركلني ويصفعني كلما أتيح له ذلك، مع أنه كان يصغرني عشر سنوات، تركني الآخرون وشأني، وفي السنة الثالثة، خفّت حدة التعذيب أيضاً، وأصبح عندي وقت للتفكير فقررت أنني لن أعود إلى عمل شيء يؤدي إلى إحداث تغييرات بالقوة. وقرأت سيرة غاندي هرّبها لي أحدهم.

مرت أيام رهيبة تمنيت فيها لو أنني أستطيع أن أنهي حياتي، لكني رأيت بعدها لحظات بهيجة، حتى أنني كنت أضحك كثيراً في بعض الأحيان فظنّوا أنني جننت.

وهناك يوم لن أنساه طوال حياتي. كان أسوأ أيامي قاطبة».

صمت هاني لحظة، وأخذ جرعة كبيرة من النبيذ.

«ماذا جرى؟»

«في صباح أحد الأيام، صاح الحارس اسمي. تملّكني الذعر. وما عدا ذاك الشاب الملتحي الأحمق، ودّعني جميع زملائي السجناء بحزن وشفقة. فيما بعد علمت سبب حقده. فقد عاش حياة مليئة بالبذخ والتعريص حتى هربت زوجته مع عشيق مسيحي إلى كندا. في ذلك اليوم قرر أن يقتل جميع المسيحيين وانضم إلى تجمع إسلاموي إرهابي، وكلّما طالت لحيته خفّ عقله... وبعد محاولته الثالثة للقضاء على المسيحيين بزرعه قنبلة في كنيسة وضبطه من قبل عدة شبان كانوا يحرسون الكنيسة حكم عليه بالسجن المؤبد...»

«لكن ما الذي حدث معك بعد استدعائك؟» قاطعه سلمان.

«معك حقّ، فقصّة هذا الغبي قصّة طويلة... عندما سألت الحارس عن سبب استدعائي، ابتسم وقال: 'النقيب راضي، قائد المعسكر يريد أخذ بوسة منك'. لا يمكنني أن أصف الخوف الذي انتابني. لأن النقيب راضي ثمرة الشر، يستطيع من دون مبالغة أن يلقن الشيطان دروساً. فقد عذّبنا كلّنا، وكان يعذّبنا بنفسه أحياناً ويتفنن بلذة في اختراع أساليب جديدة. وبعد قرابة سنة، بدا أنه نسيني. لكن جاء دوري الآن مرة أخرى. إذ يعرف الجميع أن عبارة 'يريد أن يأخذ بوسة' تعني أنه يريد اغتصابك.

دفعني الحارس إلى مكتب النقيب وبقي في الممر خارجه. كان النقيب جالساً إلى الطاولة، أمامه كتاب مفتوح. ويجلس أمامه على الجانب الآخر من الطاولة شرطي شرير يسميه الجميع *أفطس*، لأن أنفه كُسر ذات يوم في مشاجرة.

عندما قال النقيب راضي إنه تلقى كتاباً يضم أساليب استجواب جديدة لا يعرفها، وإنه يريد أن يجرّب أسلوباً طريفاً وجده يُدعى «كرة

اللحم» لكنه لا يعرف كيف. وأضاف إن ترجمة الكتاب من اللغة الروسية سيئة جداً وأن المترجم يستحق السجن، 'اشلح ثيابك'، قالها لي بلطف وكأنه ممرضة مساعدة طبيب في مستشفى. كدت أموت من شدة الخوف.

طلب النقيب من أفطس أن يأخذ حبل النايلون الرفيع وينفّذ تعليماته، وطلب مني أن أجلس على الأرض وأسحب ساقيّ إلى صدري. وأن أسند رأسي إلى ركبتيّ لأشكّل كرة. هز النقيب رأسه وشتم غاضباً: 'ابن الشرموطة لا يميز بين اليدين والرجلين فهو يكتب أُربُط حوافر السجين كأننا نحتجز أبقار'، ثم قال للأفطس وهو يقرأ الكتاب أن يضع الحبل حول رقبتي ويمرره بعد ذلك من اليمين تحت إبطي الأيمن إلى الأسفل باتجاه اليسار، ثم يعود عبر الساقين إلى أسفل الإبط الأيسر إلى... لكن الأفطس لم يستطع أن يفعل ذلك. انحنى بجانبي، وكانت أنفاسه الكريهة تعذيباً حقيقياً بالنسبة لي. بدأ من جديد، لكن ترجمة الكتاب كانت رديئة جداً، من بدايته حتى نهايته. فقد ذكر في إحدى الحالات أنه يجب استخدام زيت عباد الشمس - صرخ النقيب مستاءً: 'ماذا يعني ذلك؟ كما لو أن الأحمق قد نقلها من وصفة طعام حتى يملأ النص، كما لو كنّا نقلي فلافل. وكيف يمكننا... وهذا مكتوب هنا حرفياً... كيف يمكننا شدّ الحبل ليضغط الرأس على حضن الرجل ليصبح في شكل كرة وكان رأسه قبل لحظات مستنداً على ركبتيه؟ يا إلهي!'

بدأ راضي والأفطس يقرآن التعليمات معاً وبصوت عال مثل تلميذيْ مدرسة ابتدائية. لم يتضح الوصف رغم تكرارهما لكل مقطع. فقلت لهما أخيراً: لعلي أستطيع مساعدتكما؟ أعرف شيئاً عن ربط العقد».

هزّ سلمان رأسه موافقاً. فقد كان يعرف أن هاني لم يكن خبير

متفجرات فحسب، وإنما أفضل عامل يدوي رآه في حياته أيضاً. لا يحتاج إلا إلى حبل وبضعة ألواح خشبية ليصنع بسرعة كرسياً متيناً أو سريراً. ويستطيع أيضاً أن يؤدي ألعاباً سحرية بقطعة حبل.

«نظرا كلاهما إليّ بعينين غبيتين لا حياة فيهما كأنهما ينتميان إلى الزومبي، الأموات الأحياء. قلت لهما أن يدعاني ألقي نظرة سريعة على الكتاب لأشرح لهما الطريقة. فكّا قيودي وأمر راضي أن يخلع الأفطس ثيابه ويجلس القرفصاء. حاول الشرطي السادي أن يحتج، لكن النقيب صاح به وقال إن الاعتراض ممنوع، فخلع الأفطس ثيابه كلّها. لم أتخيّل طوال حياتي أن يكون لدى شخص سادي مثل هذا الشرطي جسداً أنثوياً جميلاً وناعماً أملسَ لا توجد فيه شعرة واحدة كهذا. حتى النقيب لاحظ ذلك.

نظرتُ إلى الكتاب... كانت ترجمته رديئة، لكن الرسوم المرافقة واضحة جداً إلّا لهذين الجحشين. خلال خمس دقائق، طويت أفطس الذي قام بدور المُعَذّب في شكل كرة بحيث يستطيع المرء أن يدحرجها بسهولة إلى الأمام والوراء. دوّن راضي الخطوات وقال: 'رائع، رائع. الآن عليك أن تنيكه'. لم يرد ذلك إطلاقاً في التعليمات. نظر الأفطس إليّ، متوسلاً. قلت: 'لا أستطيع أن أفعل ذلك، وهو شيء مخزٍ'.

'ألست رجلاً؟ أريد تكملة الأسلوب الروسية بطريقة عربية'.

'أرجوك يا سيادة النقيب، لا يمكنني أن أفعل ذلك'، كررت بصوت منخفض، فقفز السادي من مكانه ولكمني على وجهي فسقطتُ إلى الخلف وارتطمت بالباب. فتح الحارس الباب ليتأكد من أن كلّ شيء يسير على ما يرام. فصاح النقيب بالحارس الذي يدعى عدنان ليُري مخصياً مثلي كيف ينيك الرجال الحقيقيون، وطلب منه

أن ينظر إلى مؤخرة أفطس العارية الملساء، التي تخلو من الشعر. ’حتى زوجتك لا تملك مثل هذه المؤخرة الناعمة‘، أضاف النقيب ضاحكاً.

واصل الأفطس نحيبه وتذلله للنقيب لكي يرحمه. كان منظراً مأسوياً مرعباً كأنه آتٍ من حلم. ارتديت بصمت ثيابي وانتظرت حتى انتهى المجرم عدنان من اغتصاب زميله، وكان النقيب يشجعه طوال الوقت ويزيده حماسة كأنه لاعب كرة قدم في مباراة ليدخل هدفاً في المرمى.

ثم أريت النقيب كيف يحلّ كلّ الحلقات والعقد، وانحلّت الكرة لتظهر إنساناً محطماً أجهش في البكاء. أعادني الحارس إلى الزنزانة. لم أشأ أن أخبر أحداً بما جرى... أظن أن عيني المتورمة كانت تقول ما يكفي.

منذ تلك الأيام وبعد أن تأكد الأفطس أنني لم أقل لأحد ما الذي جرى في غرفة النقيب، بدأ يعاملني بلطف كأنه أخ لي. بعد شهر انتقل النقيب إلى سجن آخر وحلّ محله ضابط برتبة رائد. كان رجلاً طيباً لكنه لم يكمل الشهر فطلب نقله إلى مكان آخر غير هذا الجحيم. لكن ما جرى خلال هذا الشهر قبل انتقال الرائد كان فظيعاً. فقد اكتشف أحد الحراس جثة عدنان الذي اغتصب الأفطس وكانت مشوّهة إلى درجة أنني لا أريد أن أصفها لك الآن. فتأكدت أن الأفطس انتقم انتقاماً شنيعاً من الشخص الذي أهانه، فذهبت إليه وضغطت على يده مصافحاً وهنأته، فضحك وربّت على كتفي لأنه فهم قصدي وأقر ضمناً أنه هو من فعل ذلك».

مكتبة
t.me/soramnqraa

إلياس وأعمق زنزانة في الجحيم

أشعل هاني سيجارة جديدة وجرع جرعة أخرى من النبيذ، وقال: «وصل إلياس بعد أن أمضيت أربع سنوات في السجن. كان برتبة نقيب في المخابرات آنذاك. وأظن بعد طول تفكير أنه ارتكب خطأً ما في مسيرته العسكرية حتى حرم لفترة طويلة من الترفيع لأنه لو سار كل شيء على ما يرام لأصبح اليوم برتبة لواء أو أعلى... لكن لنعد إلى سجني. إذ يُمضي بعض المجرمين مثله سنة كاملة في المعسكرات أو في السجون، وهي مدة كافية للقضاء على ما تبقى فيهم من إنسانية. ففي المعسكر، يُعتبر القائد إلهاً، ولا قيمة للقوانين، كأن القائد عالم يدرس الحشرات. لقد سحقنا إلياس وقتل الكثير ودفنهم في الصحراء من دون أن يحاسبه أحد. أو حتى من دون أن يكلّف نفسه عناء التبرير. كان يضحك ملء شدقيه عندما يعذّبني. وصلت آنذاك إلى الحضيض في حياتي - رفيق سابق يصدر أوامر لآخرين لتعذيبي وهو يتفرّج ويضحك كأنه سمع نكتة. لا بدّ أن إلياس كان يكرهنا منذ البداية. سألته إن كنت قد أسأت إليه، فأجاب لا. توسلت إليه لأن يطلق النار عليّ ويضع حداً لعذابي، فضحك وقال: 'بحق اللّه، أريد أن تعيش أطول مدة ممكنة حتى تعاني'.

كان يجلس طوال الوقت وراء طاولة مكتبه، يعطي تعليماته بتفصيل دقيق. كدت أجنّ». بدأ هاني بالبكاء المرير ثم هدأ بعد قليل وأخرج منديلاً وسخاً من جيبه وجفف عينيه. أخذ نفساً آخر من سيجارته، بينما انتظره سلمان ليكمل. يا إلهي، كم عانى هاني... مجرد الاستماع إليه شيء لا يطاق فكيف ما تحمّله المسكين. أخيراً، أطفأ هاني سيجارته في منفضة السجائر وأشعل سيجارة أخرى. «أن

يعذّبني شخص كنت قد جازفت بحياتي لإنقاذه أمر فظيع. هل تتذكّر كيف أردنا أن نخطف رئيس المخابرات؟»

هزّ سلمان رأسه نافياً. لم يشارك سلمان في هذه العملية السرية الخاصة، ولا يعرف عنها أشياء كثيرة.

«كنّا ستة أشخاص - أنا وإلياس وأربعة رفاق - امرأتان ورجلان نسيت أسماءهم. كنا نخطط لاختطاف رئيس المخابرات العامة العميد علي أبو قادر وإرغامه على إطلاق سراح خمسين من رفاقنا. اعتاد العميد أبو قادر على قضاء إجازته مستخدماً اسماً مستعاراً في قرية قريبة من اللاذقية. كان يدّعي بأنه أستاذ جامعي. لكن مخبرنا لم يعطنا موعد وصوله الصحيح فهاجمنا فيلا لم يكن فيها أحد. وخلال هروبنا، تعثّر إلياس وسقط، فاعتقله شرطيان، وتمكنّا نحن من الهرب، لكنّي ظللت أفكّر في إلياس. لم يرغب الرفاق الآخرون في العودة لإنقاذه، فعدت وحدي، وباغتُّ الشرطيين وأطلقت سراح إلياس، وقيّدنا الشرطيين وتركناهما بجانب حقل زيتون. ارتدينا بدلتيهما وهربنا بسيارتهما اللاندروفر. لكن بعد حوالي مئة متر ضغط إلياس فجأة على الفرامل وعاد كالمجنون إلى المكان الذي تركنا فيه الشرطيين المكبلين، ونزل من السيارة وأطلق عليهما النار وقتلهما. عُقد لساني، لكنه قال إنه قتلهما كي لا يتعرّفا عليه، وقال إنه سيكون ممتناً لي طوال حياته، وطلب مني أن أقسم ألّا أخبر أحداً بما جرى.

ذكّرتُ إلياس بهذه العملية وبوعده كي يبدي امتنانه لي. توسلت إليه أن يتوقف عن تعذيبي لكن ذلك كان يزيده غضباً.

بعد عشر سنوات، عندما كنت على وشك أن يُفرج عني، أعطى تعليمات مفصلة بما يجب أن يفعلوه بي. قال مدير السجن آنذاك بنبرة تشي بالاعتذار إن ذلك نادراً ما يحدث، لكن الأوامر جاءت من رتبة عليا - من إلياس بلدي.

أمسك بي رجلان. خلعا ثيابي حتى خصري، ومدّداني على لوح خشبي في العراء وقيّدا ذراعيّ، بينما بدأ رجل ثالث يجلد ظهري بالسوط، ورسم خريطة دمشق على جلدي ليذكّرني بأنني دمشقيّ، ولست شيوعياً روسياً. وعندما التأمت جروحي، طلبت من أحد الأصدقاء أن يلتقط صورة لظهري، استطعت بواسطتها تحديد جميع الشوارع والأماكن التي أعرفها: الشارع المستقيم، مدرستي، بيت والديّ، الكنيسة، القلعة، سوق الحميدية».

«صحيح؟» قال سلمان غير مصدق أذنيه.

نهض هاني واقفاً، ودخل إلى غرفة النوم، ثم عاد يحمل صورة كبيرة مؤطرة - صورة مجسّمة عن ظهره. تمكّن سلمان بصعوبة تحديد مخطط المدينة، وتتبّع وصف هاني للأماكن والشوارع كما رآها هو بمزيج من الشفقة والعطف.

«لقد عانيت كثيراً في هذه المدرسة هنا»، قال هاني وهو يشير إلى مكان قريب من الشارع المستقيم التاريخي. «وهنا، عند موقف باص القشلة، ضربني صبيّ يكبرني سناً عندما أردت أن آخذ ابنة عمي الجميلة إلى السينما لأول مرة»، وأشار إلى بقعة سوداء، «ومنذ ذلك اليوم، لم تعد ترغب في أن تخرج معي». تتبّع بإصبعه خريطة ندوبه وتحدّث لأكثر من ساعة عن الأماكن التي عانى فيها، ثم وضع الصورة جانباً وجرع كأسه. كانت القنينة الأولى قد فرغت منذ زمن، وأراد سلمان تحذيره بألّا يشرب المزيد، لكنه أدرك أن من الحماقة قول أي كلمة.

«قبل أن أخرج من السجن، أعطوني قميصاً مهترئاً وسخاً لأغطي به ظهري الذي ينزف دماً. وعند باب السجن ودّعني حارس آخر بصفعة، فخرجت إلى الحرية مترنحاً. ولم أعرف حتى ذلك اليوم أن

هذا السجن الجهنمي يقع في وسط المدينة لأنني أمضيت ثلاث سنوات في زنزانة صغيرة تقع في سابع طابق تحت الأرض. وعندما كانوا يأتون بي للاستجواب، كانوا يقيّدون يديّ بالسلاسل ويعصبون عينيّ، وكان هناك مصعد قديم يتوقف عند كلّ طابق محدثاً صريراً. بعد عدة سنوات، عرفت أنه توجد للمبنى عشرة طوابق تحت الأرض وثلاثة طوابق فوقها.

عندما خرجت تنشقت الهواء النقي ولم أكد أصدّق ما رأته عيناي. فقد كان الناس يسيرون وهم يضحكون بسعادة، كأن السجون موجودة في بلد أجنبي أو على كوكب آخر. خيّل إليّ أنني في فيلم خيال علمي، ترسل فيه آلة الزمن الناس من قرن إلى آخر. ولاحظت أن الناس في الشارع يرمقونني باستغراب.

أدركتُ آنذاك أن هناك بلدين في سوريا. فعلى السطح يعمّ السلام، ولا يظن السيّاح فقط أن هذا البلد جنّة، وإنما كثير من السوريين أيضاً، لأنهم لا يعرفون شيئاً عن سوريا الأخرى. لكن مدينة كاملة من الجحيم تقبع تحت مدينة دمشق، تحت الأرض بطبقات، يبلغ عرضها مئات الكيلومترات وتمتد حتى عدرا وصيدنايا وتدمر حيث توجد معسكرات وسجون يقبع فيها مئات آلاف الأبرياء. وهذا الجحيم بالغ التنظيم إلى درجة أن الذين يعيشون فوق الأرض لا يستطيعون سماعه أو الإحساس به. حتى أن مطار تدمر السياحي لا يبعد أكثر من كيلومترين عن معسكر الاعتقال الشهير.

ويجب على كلّ من عاش هذه المحنة ونجا منها أن ينساها بأسرع وقت ممكن إذا أراد أن يحافظ على ما تبقى من سلامة عقله. فمع أنهم يدفعون بك إلى خارج البوابة، فإنك تحتاج إلى وقت طويل حتى تترك السجن وراءك وتخلّص نفسك منه.. . كما لو أنه يضرب جذوره في أعماقك. فتبدو لك الدروب كلّها معبّدة بعدم الثقة، ويبدو

كلّ سؤال فضولي بريء كأنه استجواب، وتظلّ تحاول أن تحمي رأسك من لكمات غير متوقعة قد تنهال عليك».

في النهاية، لم يشأ هاني أن يثقل على ضيفه بذكرياته عن التعذيب، وبدأ يفتّش في ذكرياته أثناء نضاله في الجبال عن تجارب مشتركة التي كان هناك الكثير منها. ضحكا كثيراً وحكى كلّ منهما للآخر قصّة جرت لهما في الماضي، إحداها عن رفيق يدعى سعيد كان يخاف على قضيبه أكثر مما يخاف على نفسه في المعركة. فكان يردد: «ماذا لو أصابته رصاصة ونجوت أنا؟ يمكنك أن تخسر بيتك ثم تستعيده، بل يمكنك أن تجد بيتاً جديداً - لكنك لا تستطيع أن تجد بديلاً عن هذا». وصنع لنفسه قطعة من الصفيح تشبه حزام العفة كان يربطها حول قضيبه قبل القيام بكلّ عملية.

عندما هبط الظلام، وقف هاني وأشار إلى الباب وقال: «سأذهب وأحضر شيئاً آخر نأكله».

شغّل سلمان التلفزيون. كان موعد نشرة الأخبار، لكنه اعتدل في جلسته وأصغى عندما ذكر المذيع شيئاً عن وقوع اضطرابات في تونس.

عندما عاد هاني بالطعام من مطعم وجبات خفيفة، عرف المزيد. فقد قال الزبائن هناك إن ثورة اندلعت ضد الرئيس التونسي بن علي. لأن شرطية أهانت بائع خضار يدعى محمد البوعزيزي، فصبّ هذا البنزين على نفسه وأشعل النار فيها. كانت تلك الشرارة التي أشعلت فتيل الثورة.

تناول هاني وسلمان الأطباق الساخنة اللذيذة بصمت.

مصير الثوار

«هل تذكر عصام؟» سأله هاني بعد قليل، «كان صديقي ورفيقي. قدوتي. لا أظن أنه كان عندي صديق مخلص إلى جانبك مثله، لكنني شعرت بسعادة كبيرة عندما قال إنه يعتبرني صديقاً له. كان متحدّثاً لبقاً بالفطرة، وكنّا معجبين به كثيراً لأنه يلقي خطباً ثورية حماسية. فقد كان يلهب جمهوره بالحماسة عندما يتكلم، ثم تخلّى عن النضال وعمل مطرباً من الدرجة الثانية، وعندما أصيب صوته بضرر، جمع الملايين من الوكالة التي أنشأها للفنانين والفنانات بشكل خاص. في ثمانينات القرن الماضي، أظن أنه لعب دور الوسيط من خلال وكالته في إرسال مطربات وفنانات مزيفات إلى أسرّة بعض الرجال السعوديين أكثر مما ظهرن على خشبة المسرح. في ذلك الوقت، لم يكتشف أثرياء البترول لندن وباريس وأمستردام وميونيخ بعد. هل يمكنك أن تتصوّر ذلك؟ شيوعي يعمل قواداً.

وهل سمعت عن ظافر؟ الذي أطلق لحية تشي غيفارا وكان يضع بيريه في وسطها نجمة. أصبح الآن مفتي حلب واليد اليمنى لرئيس المخابرات في المدينة، وصهره أيضاً. العشيرة تهزم الزمن ولا تبالي به كالأهرامات، وتنتصر حتى على الإيديولوجيات السياسية - الماركسية واللينينية والقومية والإسلاموية. ظافر الذي كان يشعرنا بالملل من كثرة امتداحه للإلحاد، وهو اليوم يدعو على الملأ إلى رجم الملحدين. وهل تذكر جورج، ابن جوزيف أصفر، المليونير؟ الذي دأب على السير حافي القدمين وقد أحبّه الفلاحون كثيراً بسبب تواضعه الشديد؟» أفرغ هاني كأسه بجرعة واحدة ثم ملأه ثانية. بالطبع، يتذكّر سلمان جورج الذي لم يكن يطيقه، لأنه لم يكن يستحم إلّا نادراً ويلقي مواعظ مبالغاً فيها يهاجم فيها

الأنانية والجشع إلى درجة أنه كان يجعلك تكره رفاهية الخبز البائت.

«جورج أسوأهم جميعاً. يتاجر حالياً بالسيجار الكوبي والكافيار الروسي والسلامي الهنغاري وأطعمة شهية أخرى من البلدان الاشتراكية السابقة، وأصبح مليونيراً. كان بإمكاني أن أغفر له كل شيء، لكنه عندما بدأ يتذمر ويتأوه، بصقت في وجهه».

«بصقت في وجهه؟»

«نعم، أتعرف لماذا؟ لقد أخذ الأغنياء كل شيء - المال، السلطة، أجمل المنازل والحدائق والشواطئ - والآن استولوا حتى على الشكوى التي كانت حكراً على الفقراء. لا شيء أسوأ من تذمّر وندب مليونير. ابن العاهرة قال إنه لم يعد يشعر بالسعادة في هذا البلد وسيهاجر. لقد سلبونا حتى بؤسنا»، صاح هاني وهو يضحك بمرارة كما لو أن دماغه المضطرب والسابح في بحيرة كحول قد سمع نكتة على قناة أخرى. هدأ قليلاً ثم ضحك بعنف وسعل.

الهروب من طريق مسدود خطير

راح سلمان يشرب ببطء. لم يستمتع بزجاجتَي النبيذ الثانية والثالثة. فمع كل جرعة كان يشعر بحرقة تسري في معدته. لكنه لم يقل شيئاً. ومع أن هاني جرع الكثير من النبيذ، فقد ظلّ صاحياً.

«خمسة عشر جهاز مخابرات وخمس عشرة هيئة لإدارة الجحيم تدمّر حياتنا»، قال هاني مخاطباً الصمت، «سوريون يغتصبون سوريين، يعذبونهم، يصلبونهم في جهنم تحت الأرض حتى يعيش العالم في الأعلى بسلام. ولكي ننقذ أنفسنا، يجب أن نفجّر قادة هذا

النظام وأعوانهم. عندها فقط يستطيع السوريون أن يعيشوا معاً في سلام ووئام».

سيطر الخوف على سلمان، فقال: «هاني، لقد سئمت من القتال وكل تفجير أو إطلاق رصاص حتى لو كان ذلك في عيد. لا أريد شيئاً إلّا أن أعيش بسلام. يجب أن نتوقف عن شن الحروب. ما الذي نجنيه من العنف...»

«آه، تاجرنا الموقر يريد السلام حتى لا تتأثر أعماله التجارية. لكنّي أريد أن أنهي فشلي في الحياة بعمل شيء هام، شيء لا يمكن لأي صاحب متجر أن يقوم به. أريد أن أترك بصمتي. ماذا عن قتل إلياس؟ سأتصل به وأقول له إنك تعتقد بأنه سينقذك، لذلك فإنك ستستسلم له شخصياً. لكن عليه أن يأتي وحده أو مع حراسه الشخصيين فقط، ثم سأرسله إلى جهنم. عندي في القبو ثلاثة صناديق مليئة بالديناميت».

«ديناميت؟ هل هذا صحيح أم أنك تتباهى الآن؟» سأله سلمان بخوف لأنه يعرف هاني جيداً الذي لم يتباهَ بأي شيء طوال فترة نضاله في الجبال مع أنه أنجز أعمالاً فنية عبقرية.

«ثلاثة صناديق، من أفضل الأنواع. حصلت عليها مقابل مبلغ قليل. جماعة ثورية انحلّت وكانوا بحاجة إلى نقود. جرّبت حزمة منها في المحجر. ممتازة»، لمعت عينا هاني، «سلمان، لقد أنقذتَ حياتي عندما كنّا نقاتل في الجبال، وكردّ للجميل الذي أسديته لي، سأقتل إلياس ابن القحبة هذا».

كان هاني غاضباً، سكرانَ، لكن كلماته شديدة الوضوح، لم يشوبها أدنى لغط كحولي.

«لا تتكلم بصوت مرتفع»، قال له سلمان متوسلاً.

نهض هاني وسار على رجليه المترنحتين نحو خزانة صغيرة، فتح

بابها الأيسر، وأخرج مسدساً من تحت كومة من القمصان. صوّبه نحو النافذة وقال: «بانغ! بوم!» ثم وضعه على الطاولة. كان مشهداً مروّعاً - قنينة نبيذ وكأسان ومسدس على الطاولة والرجلان في غرفة وسخة كالمزبلة. أحسّ سلمان بجفاف في حلقه. تناول جرعة من النبيذ.

«إنك تعيش في ألمانيا وإيطاليا»، قال هاني، «من المؤكد أن المنفى ليس سهلاً، لكن في تلك الأثناء، كنت أنا أعيش في الجحيم. لا أظن أن اللّه، بقدرته اللامتناهية، قادر على أن يخلق جهنم مثلها، لكن هؤلاء الذين يحكمون جهنم على الأرض، وحوش مليئين بالغلّ والحقد.

هل يجب أن أحدّثك عن سجن صيدنايا، أم عن معسكرات السجون في تدمر أو عدرا؟ لكن ما جدوى أن أحدّثك عنها؟ بالنسبة لك، هي مجرد أصوات مثل هلوسات رجل مريض، والحديث عنها يقتلني من العذاب. حتى زوجتي لم تعد تتحملني».

نظر إليه سلمان بحزن، وقال: «ليس عليك أن تخبرني أي شيء. أنا أصدّقك».

هزّ هاني رأسه، وشرب بصمت، ثم تابع كلامه. شيئاً فشيئاً بدأ كلامه يتعثر.

بعد منتصف الليل، نهض واقفاً فجأة، وهمهم بأنه يريد أن يذهب إلى الحمّام. بعد قليل، عندما لم يعد، قرر سلمان أن يتأكد إن كان هاني على ما يرام، فوجده مستلقياً بكامل ثيابه على السرير في غرفة النوم، يشخر. غطاه سلمان وعاد إلى غرفة الجلوس. أخفى المسدس تحت القمصان واستلقى لينام على الأريكة القديمة بجانب النافذة. عندما شعر بتيار هواء بارد، نهض وحشا الفجوة في النافذة ببعض الثياب التي وجدها في الخزانة. ثم عاد ليستريح بقدر ما

يستطيع على الأريكة التي تفوح منها رائحة غبار وعرق. لكنه لم يغطّ في النوم إلّا بعد فترة طويلة.

أفاق على صوت ضجيج. كان الظلام لا يزال مخيّماً. استوى في جلسته في حيرة واستغرق لحظة قبل أن يدرك أين هو. تناهى إليه صوت بكاء من غرفة النوم. كان هاني يشهق ويبكي بصوت خفيض. لم يعرف سلمان إن كان عليه أن يذهب إليه ويواسيه أم يتركه حتى يستيقظ. فقرر أن ينتظر ويعود ويستلقي على الأريكة. لكن قلقاً شديداً اعتراه عندما تذكّر ما ذكره له هاني عن المتفجرات التي يحتفظ بها في القبو. انتعل حذاءه وخرج إلى الممر المؤدي لباب المنزل ورأى هناك باب القبو، ووجد مفتاح الضوء. بخلاف بقية الشقّة، كان القبو نظيفاً جداً وكأنه مختبر أو صيدلية، وبدا أن هاني يستخدم الغرفة الأكبر كورشة كهرباء. عندما دفع الباب إلى الغرفة الأصغر، تسمّر في مكانه. ففي وسط الغرفة رأى ثلاثة صناديق كرتون مكدسة فوق بعضها، تبيّن الكتابة على كل صندوق محتوياته 'سمتكس هـ' (Semtex H)، المتفجر البلاستيكي المعروف دولياً.

إذاً هذا ما جعل زوجته تتركه، قال سلمان لنفسه عندما عاد واستلقى على الأريكة. لا يستطيع أحد احتمال كلّ ذلك - متفجرات في القبو، ومسدس محشو بالرصاص، وروح مريضة محطّمة. قرر سلمان أن يذهب إلى ابن خالته طارق صباح الغد ويطلب مساعدته للمرة الثانية. لكنه قلق فجأة، وتساءل إن كان لا يزال يحتفظ بمفتاح الممرّ المفضي إلى الورشة؟ فتّش في جيبه. وجده وشعر بالارتياح. عاد إلى الأريكة وغطّ في النوم أخيراً.

استيقظ في الساعة الحادية عشرة والنصف. كان هاني لا يزال يغطّ في النوم. انطفأت المدفأة بعد أن فرغ المازوت في خزانها. تناول سلمان كتاباً من الرف الصغير وبدأ يقرأ. خرج هاني من غرفة

النوم في الساعة الواحدة ونظر إلى سلمان بشيء من الريبة والدهشة كأنه نسي أنه أمضى الليلة الماضية في بيته، ثمّ دخل الحمام من دون أن يرد على تحية سلمان.

«صباح الخير»، كرر سلمان عندما عاد هاني إلى الغرفة. دمدم هاني لنفسه كلمات غير مفهومة.

«سأُحضر خبزاً طازجاً للفطور»، قال له سلمان.

«لا تهتم بذلك ووفر تعبك لأنني لا أتناول طعام الفطور»، أجابه هاني بلا مبالاة.

فقد سلمان صوابه، وقال: «إذاً سأذهب إلى مقهى وأتناول فطوري هناك».

«متى ستعود؟» سأله هاني.

«هل يجب أن أعود؟» سأله سلمان بجدية.

«لا يهمني. إن كنت بحاجة إلى مخبأ، يمكنك أن تأتي وتعيش هنا. وإذا لم أكن في البيت، ابحث عني في مطعم أبو علي. إنه قريب من هنا، باتجاه شارع بكري».

«حسناً»، قال سلمان ونهض واقفاً.

«حظاً سعيداً»، أجابه هاني.

زرر سلمان معطفه، وحمل حقيبته وغادر البيت.

عشائرية

عندما غادر سلمان البيت، أخذ نَفَساً عميقاً، لكنه خشي أيضاً مما ينتظره - الوحدة، الخوف، التهديد بالاعتقال - فقد هرب أربع مرات إلى ما بدا له أنه واحة آمنة، لكنه لم يجد إلّا سراباً. لكن عليه أن يمضي في بحثه عن الأمان. بعد خطوات أنعشه الهواء النقي.

تجوّل في أرجاء المدينة القديمة، ثم دخل إلى مطعم، وكمقبلات طلب يبرق بزيت، ورق عنب محشواً من دون لحم، وكوجبة رئيسية ما يسميه السوريون واللبنانيون «كوسا أبلما» وهو عبارة عن حبات كوسا صغيرة محشوة باللحم والصنوبر ومطبوخة باللبن، قدّمها له النادل بفخر مع صحن أرز عليه صنوبر محمّص. أنهى الوجبة اللذيذة بفنجان قهوة بالهيل.

ثم سار في الشارع المستقيم، درب السيّاح إلى كنيسة السيدة العذراء للروم الأرثوذكس، ومنها إلى حارة الزيتون والكنيسة الكاثوليكية المشهورة التي كانت بواباتها في ذلك النهار مفتوحة. عندما دخل إلى الكنيسة، استغرق في التمعن بالصور والاستماع إلى شرح الأدلاء السياحيين بمختلف اللغات. بدت المدينة هنا لسلمان أكثر هدوءاً وسلاماً. كان يعرف أن العاملين اللذين يعملان في ورشة ابن خالته طارق يغادران في الساعة الخامسة. عندما بدأ ضوء العصر يخفت، توجّه نحو شارع الدير وانسلّ من الباب الخلفي المؤدي للورشة كما أشار طارق له عبر الممرّ تحت الأرض.

بعد لحظات تكيّفت عيناه مع العتمة، ووجد أخيراً الهاتف وضغط على الرقم واحد وتركه يرنّ ثلاث رنات ثم وضع السماعة. كرر هذه العملية ثلاث مرات.

في المرة الثالثة، فُتح الباب الواطئ المؤدي إلى الحمّام وابتسم له طارق. «ادخل أيها الرحالة العجوز». خفض سلمان رأسه لكي لا يرتطم بسقف الممرّ الواطئ وتسلل عبر الباب يتبع طارق إلى الورشة حيث استدار ابن خالته ومدّ ذراعيه وهو يضحك. عانقه سلمان متشبثاً به كرجل يوشك على الغرق بعمود خشبي في بحر هائج.

«هذا ما أدعوه التخاطر»، قال طارق عندما جلسا في مكتبه، «لم

تبرح تفكيري طوال اليوم وأنا أدعو لمريم العذراء أن تسمع نداءاتي في قلبك».

«ما الذي جرى؟» سأله سلمان بقلق.

«كل شيء على ما يرام. البارحة، زرت والدتك واتفقت معها على أن تترك حقيبتك في بيتها خوفاً من أن تكون المخابرات قد ركّبت فيها جهاز إرسال يمكّنهم من تعقبها. لقد وضعوا أجهزة تنصّت في شقتنا أيضاً. أحضرت لك النقود التي تركتها في البيت. يمكنك أن تشتري كلّ شيء جديد. لقد وجدت أمّك مكاناً مثالياً لتختبئ فيه في بيت صديق قديم وافق أيضاً على أن يساعدك على الخروج من البلد. أعطتني العنوان. اسمه كريم أسمر ويعيش في زقاق الياسمين. هل تعرف مكانه؟»

«هل هو الحي الذي يقع بين حارة العبارة وحارة الزيتون وله مدخل ضيّق؟»

«صحيح».

«هل يمكن الوثوق بكريم؟»

«أكثر من موثوق. لقد أنقذت أمّك حياته ذات يوم، ووعدها بأن يردّ لها الجميل».

ضحك سلمان. لم يتخيّل أن أمّه أنقذت حياة أحد، ولم تذكر له قط شيئاً عن ذلك وهي المحدّثة البارعة. نهض طارق وفتح الخزنة وأخرج منها حقيبة تسوّق ومغلّفاً سميكاً.

«في هذه الحقيبة هداياك لستيلا وباولو. فتحتُ الصندوق الخشبي وفحصته جيداً. لا يوجد فيه شيء مريب. ولا يستطيعون إخفاء جهاز تنصت صغير في مجوهرات ستيلا». أعطى طارق سلمان الحقيبة والمغلّف، وأضاف، «يوجد فيه خمسة آلاف يورو وخمسة آلاف دولار أخرى أرسلها لك والدك». حاول سلمان أن يعترض،

لكن طارق رفع يده، وقال: «هذه رغبة والدك. قال لي إنه سيكون سعيداً جداً لو أسعفتك النقود».

كاد سلمان يبكي، ثم قال: «لم أوفه حقه كما يجب».

«هذا الخطأ يقع فيه الأبناء غالباً. أنا أيضاً كنت أظن أن أبي مجرد نجار بسيط، إلى أن سافرت معه إلى بيروت وأمضينا فيها أسبوعاً لنشتري بعض الأخشاب. هناك رأيت عن كثب براعة أسلوبه في التعامل مع أولئك التجار الكبار والمتعالين، خجلت من شعوري بالكبرياء. لكن هناك شيئاً آخر. . . » قال طارق متردداً.

«ماذا؟ هل حدث شيء؟»

«لا تخش شيئاً فقد انتهت الأمور بسلام. اكتشف إلياس بطريقة ما أنك اختبأت في بيت ماريا. فسارع ليأمر رجاله باعتقالها واستجوابها بقسوة. ظل هو وراء الستار. لم تره ماريا إطلاقاً، وعندما اتصلت أمّي بزوجته إيزابيلا، ادّعت أنه لا يزال في موسكو أو في براغ. احتجزت المخابرات ماريا وعذّبوها طوال يومين كاملين وصمدت كالبطلة، حتى استخدم والد زوجها واسطته واتصل بالعميد شوكت، صهر الرئيس، فأفرجوا عن ماريا فوراً. أخبرتني أنهم قالوا لها أثناء التعذيب بأن دوري التالي. لكن يبدو أن العميد شوكت وبّخ إلياس فتراجع عن ذلك.

«كيف حال ماريا الآن؟» سأله سلمان بقلق.

«استعادت روحها القديمة وتقوم بزيارة الخالة صوفيا كلّ يوم، فهي تحبك حتى العبادة. . . تقريباً مثلي»، قال طارق يطمئنه. ثم أطرق كما لو كان يفكر كيف سيحكي لسلمان ما حدث، «هناك أمر صغير أثار غضبنا جميعاً. . . » قال بتردد.

«ماذا جرى؟» سأل سلمان بلهفة.

«لم يحدث شيء خطير، لكن منذ اليوم الذي بدأت فيه

المخابرات تبحث عنك، رفضت تلك المُعالجة الغبية، مارينا، أن تأتي إلى بيت والديك لتساعد أباك. فقد قالت عندما اتصل بها أبوك المسكين راجياً أن تساعده، إنها لن تزوره لأن بيته ’خطير‘ لأنه بيت إرهابي، وكررت ذلك لأمك التي احتقرتها. لكن ما العمل بعد أن تعلّق بها والدك وأصبح يؤمن بقدرتها العجائبية.

طوال يومين كاملين، لم يتوقف والدك، زوج خالتي، عن البكاء كأنه طفل مشرد، وبعد طول تفكير مع أمي وخالتي صوفيا، توصلنا إلى حل وهو أن أذهب بسيارتي الفان وننزل والدك على المصعد في كرسيه المتحرك إلى سيارتي التي وضعت ألواحاً متراصة لتصبح منحدراً خشبياً لأدفع عليه كرسي زوج خالتي بسهولة إلى السيارة وآخذه إلى بيت هذه القحبة مارينا حيث ننزله هناك على المنحدر الخشبي ثم أعيده إلى البيت. لقد فعلنا ذلك البارحة وضحك أبوك فرحاً مثل طفل سعيد، لذلك قررنا أن نأخذه إليها لتعالجه دائماً.

خجل سلمان وقال: «يا إلهي، لقد سببت لكم كلّ هذه المتاعب».

«سأكون ممتناً لك طوال حياتي لأنك ساعدتنا بكرم ونخوة لا مثيل لهما عندما كانت ابنتي مريضة. وكلما رأيت ابنتي سعيدة شكرتك في قلبي. أما الآن فدعنا ننظر إلى الأمام». ثم صفع طارق جبهته بيده، وقال: «كدت أنسى أهم شيء. فقد اتصلت سحر التي حدّثتك عنها بستيلا من بيروت وطمأنتها، وطلبت ستيلا منها أن تنقل لك أنها تحبّك كثيراً. وقالت أيضاً إنها متأكدة هي وباولو أن ذكاءك سيهزم أعداءك».

لم يستطع سلمان الذي شعر بضعف شديد وببعده عن ستيلا وباولو أن يحبس دموعه فبكى بمرارة.

تركه طارق قليلاً ثم عاد وبيده منشفة نظيفة. فهم سلمان قصد

طارق، فقام وغسل وجهه. عندما عاد، رأى طارق يضع ركوة قهوة وفنجانين على الطاولة. شربا القهوة صامتين. في هذه الأثناء خيّم الظلام في الخارج.

«في باحة الورشة دراجة كريم الهوائية. قدها إلى بيته وأعدها له. بيته آخر بيت في زقاق الياسمين، إلى اليسار قبل أن تصل إلى ساحة خربة الدير...»

«أليس هو البيت القريب من قبر العاشقين اللذين لم يتحدّا إلّا في الموت؟ عندما كنت صغيراً، كانت أمّي تذهب لزيارة القبر مع نسوة أخريات في الصيف. كان ذلك أشبه بموكب صغير... وكان أبي يضحك عليها دائماً».

«كانت أمي تذهب أيضاً. لكن للأسف، لم أرافقها قط. في جميع الأحوال، كن هناك في الساعة الثامنة. سيكون كريم بانتظارك أمام بيته. أمك تثق به كثيراً. ستكون في مأمن في بيته لأن أحداً لا يعرفك، ولا يعرف إلياس شيئاً عن صداقة صوفيا وكريم الذي يعيش وحده في بيت واسع».

فقال سلمان: «حسناً. ربما كان عليّ أن أودّع هاني». شعر بخجل ووجد أن لديه حوالي ساعة حتى يحين موعد ذهابه إلى بيت كريم.

«لا، هذا خطير. سأذهب إليه غداً وأخبره أنك سافرت إلى بيروت مع بعض الأصدقاء. فهو مجنون، من يعرف ماذا سيقول للآخرين. لا يمكننا أن نرتكب أي خطأ الآن». صمت طارق برهة، ثم أضاف، «بالمناسبة، استجوبت المخابرات جميع جيرانك وأصدقائك الذين رآهم إلياس في بيت والديك - بما في ذلك عائلاتهم - وفتشوا منازلهم. كنتَ محظوظاً لأن اسم هاني لم يكن مدرجاً على قائمته، على الأقل حتى البارحة».

فقال سلمان: «إذا ذهبوا إلى بيت هاني، فإن عرضاً جهنمياً من المفرقعات سيكون بانتظارهم، وهذا ما جعلني أغادر بيته»، وحكى لطارق قصة صناديق الديناميت في القبو.

«انسَ أمر هاني. سأذهب إلى المطعم وأحضر بعض الطعام. ثم سيكون لدينا حوالي ساعة. . . دراجتي النارية في الخارج. سأعود في الحال. لا تفتح الباب لأحد أو تردّ على الهاتف»، أضاف طارق قبل أن يخرج. سمع سلمان صوت قرقعة الدراجة وهي تبتعد.

انتهز سلمان الفرصة ليلقي نظرة على الصحيفة. ما أراحه أنه لم ير أخباراً أخرى عنه. عندما عاد طارق بالأطعمة الشهية والخبز الطازج، أكلا معاً وشربا مزيداً من القهوة. وحكى سلمان لطارق عن مغامراته مع ريتا وعادل، وطلب منه أن يقول لماريا إنها امرأة شجاعة وإنه بخير وألا تنسى زيارتها له في روما.

«لكن لن يأتي أحد ويزورك في بيت كريم»، قال طارق بإصرار، «فلا يعرف أحد أين أنت إلّا أنا وأمّك. حتى أمي وزوجتي ووالدك لا يعرفون مكانك. فإذا تعرّض أحدهم للتعذيب، لا سمح اللّه، وأفشى عن مكانك، فإنك ستضيع ويصبح كريم في عداد الموتى». شعر سلمان بالخجل لأنه عرّض هؤلاء الناس الطيبين لخطر مميت لأنه قام بزيارة بلده.

كانت الساعة الثامنة إلّا عشر دقائق. نهض طارق وضم إليه سلمان بقوة. «لن يصلوا إليك، أقسم بحياتي»، قال له طارق وربّت بلطف على مؤخرة رأس سلمان. عندما مدّ يده لابن خالته، قال له سلمان، «عدني أنني إذا خرجت من هنا حياً، أن تزورنا في روما في عيد الفصح مع أمي وخالتي تقلا ومنى وماريا. هل تعدني؟» لاحظ أن طارق يبكي. ابتسم محرجاً وشبك يد سلمان كأنه يبرم معه صفقة، وقال بصوت خفيض، «أودّ أن آتي إلى روما ذات يوم».

انسلّ سلمان من البيت وركب الدراجة القديمة. كان الضوء المنبعث من مصباح الدراجة القديمة ساطعاً. لم يستغرق وقتاً طويلاً. عندما انعطف إلى زقاق الياسمين، كانت الساعة الثامنة إلّا خمس دقائق. كان الطقس بارداً في ذلك المساء والشارع مقفراً. عندما أضاء المصباح ساحة خربة الدير، رأى سلمان أمام آخر باب إلى اليسار، خيال شخص يبدو أنه ينتظره.

ضغط سلمان على الفرامل وقال «مرحباً»، وترجّل من الدراجة، وتبع الرجل بسرعة عبر الباب.

لاحت أمامه باحة داخلية جميلة. فوانيس تضيء درب الحديقة والدرج والباحة. تنفّس سلمان الصعداء عندما أخذ منه الرجل المسنّ الدراجة وصافحه بيد قوية أثارت دهشته، وقال له، «لن يعثر عليك أحد هنا إلّا ربّنا».

صافحه سلمان بحرارة أيضاً، ثم أنزل علبة الكرتون عن حامل الدراجة التي وضع فيها الهدايا وحقيبة كتفه.

بعد أربع شوارع مسدودة - ماريا وريتا وعادل وهاني - شعر سلمان بأنه وصل إلى مفترق طرق يتيح له عدّة احتمالات. أخذ نفساً عميقاً في الهواء البارد وتبع خطوات الرجل الذي أخذ يصعد الدرج تحت قوس يفضي إلى باحة صغيرة.

عندما فتح الرجل باب الغرفة، هبّت على سلمان نسمة دافئة من المدفأة الموقدة ذات النافذة الصدئة، ورأى امرأة رهيفة، جميلة تبتسم له.

بعيد، بعيد، لكنه قريب جداً

الحرية والصحة والحب أخوة لا يشعر بها الإنسان تماماً إلّا بعد أن يفقدها

كلمات مكتوبة على أحد جدران سجن تدمر

روما، ١٥-١٧ كانون الأول (ديسمبر) ٢٠١٠

ستعتبر ستيلا يوم الأربعاء، ١٥ كانون الأول، أسوأ يوم في حياتها. فقد اتصلت بها من بيروت امرأة تُدعى سحر خوري قالت لها إنها من أقرباء سلمان. وأخبرتها أن مذكرة توقيف صدرت بحق سلمان، وأنه مطلوب في سوريا، لكن لا داعي لأن تقلق. لأن أشخاصاً هنا يوفرون له الحماية ويبذلون كلّ ما بوسعهم لكي يخرج من سوريا بأمان.

كانت سحر امرأة ودودة، كأنها أمّ، تتكلّم الإيطالية بطلاقة. قالت لها: «لكي أؤكد لك أنني أتّصل بالنيابة عن سلمان، فقد اقترحَ أن أنقل إليك بعض المعلومات، وسأذكر لك أيضاً شيئاً لا يعرفه أحد غيركما. وأيّ خبر تتلقينه من أي شخص آخر فهو خبر كاذب وملفق قد يكون مصدره المخابرات. فهمتِ؟»

فقالت ستيلا، «نعم».

«أريد أن أقول لك في هذه المكالمة إن سلمان بخير وإنه يحبّك كما أَحَبَّك عندما التقيتما لأول مرة في هايدلبرغ».

لم تشأ ستيلا أن تبكي، لكن عندما ذكرت المرأة هايدلبرغ، لم تتمكن من حبس دموعها.

انتظرت سحر خوري قليلاً، ثم كررت: «أنا آسفة جداً، لكن طُلب مني أن أبقى على اتصال معك... أنا آسفة جداً...»

«لا، أنا ممتنة لك كثيراً. فأنا قلقة منذ عدة أيام، وقد أرحتني الآن... عندما عرفتُ أن لدى سلمان أصدقاء طيبين، وأنتِ واحدة منهم. أعرف أنه سيعود إلى بيته سالماً، لكن...»، وأجهشت ستيلا في البكاء مرة ثانية.

بكت سحر معها. بكت على البؤس الذي أصاب هذه المرأة البريئة التي تعيش في روما لأنها أحبّت رجلاً سورياً، وبكت كذلك على بؤسها لأنها كانت تلتقي دائماً بالرجل غير المناسب. في البداية أنطونيو من ميلانو، ذلك المنافق الذي هجرت أهلها من أجله، والذي شاركها بالتحضير ليوم العرس ثم اختفى من بيروت قبل أسبوع من زفافهما وأرسل لها بطاقة من جنوب أفريقيا قال فيها إنه قرر أن يعيش عازباً. ثم شادي - الذي بقيا معاً ثلاث سنوات قبل أن يضع الموت حداً لسعادتها التي لم تدم طويلاً - وهو لم يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره.

«يجب أن نتوقّف عن البكاء الآن»، قالت ستيلا التي خجلت من دموعها ونقلت عدوى البكاء إلى المرأة على الجانب الآخر من الهاتف. ثم طلبت من سحر أن تعطيها رقم هاتفها وقالت لها إنها ستتصل بها بعد يومين لتبلغها رسالة إلى سلمان. سينقلها الصديق سائق الحافلة إلى دمشق. وكان على سحر أن تترجم الرسالة إلى

العربية، لأن نقل رسالة بلغة أجنبية عبر الحدود قد يعني الموت لمن يحملها.

أخذت ستيلا إجازة لمدة أسبوعين بعد أن حكت لرئيسها، عميد الكلية، ما جرى لسلمان، فنصحها بأن تتوجّه إلى وزارة الخارجية الإيطالية وتخبرهم بما حدث.

يوم الخميس، قررت ستيلا أن تدعو باولو إلى المطعم، فحجزت طاولة في زاوية هادئة في مطعم المحطة الجديدة. عندما سألها ريكاردو، النادل العجوز، هل عاد سلمان من رحلته، أجابته ستيلا إنها ستكون برفقة شاب أصغر من سلمان بكثير، وأكثر وسامة منه. فضحك ريكاردو الذي يعرف ستيلا وسلمان منذ سنوات، وقال: «إذاً ستأتين مع باولو».

«صحيح»، قالت ستيلا التي رفرف قلبها بالسعادة.

أثناء العشاء، حاولت ستيلا أن تشرح لابنها أن سلمان سيضطر إلى أن يتأخر في سوريا، وراحت تخوض في وحل الارتباك حتى لم يعد بإمكانها أن تفعل أو تقول شيئاً آخر لتطمئن باولو الذي راح ينصت إليها بصمت. وبعد كثير من اللف والدوران، قالت لباولو أخيراً إن السلطات تلاحق والده في دمشق.

«ماما، أبي رجل ذكي، وهؤلاء الحمقى في دمشق لن يتمكّنوا من القبض عليه. أعدك بذلك. أنا أعرف أبي جيداً»، قال لها بثقة وكأنه رجل خبير عمل في منظمات سرية. وربّت على يدها برفق. لم تعرف ستيلا ماذا تقول. فأخذت رأسه بين يديها وقبّلت عينيه ووجنتيه عبر الطاولة.

«لن أخبر أحداً، لكي لا يغار صديقي سلمان»، سمعت ريكاردو العجوز يقول لها.

في مساء ذلك اليوم، ظلت ستيلا مستيقظة لفترة طويلة. كتبت رسالة إلى سلمان وحكت له بفخر عن شجاعة باولو وأنهما في غاية الشوق إليه. لا بدّ أنها أعادت صياغة الرسالة ما لا يقل عن عشر مرات قبل أن تتحوّل إلى رسالة حبّ لطيفة. كان اليوم التالي يوم الجمعة وأملت الرسالة على سحر على الهاتف. ثم أدركتا كلتاهما أنها لو أرسلت الرسالة إلى سحر بالإيميل أو برسالة نصيّة لكان الأمر أسهل عليهما بكثير، وضحكتا.

أغلقت ستيلا الهاتف. للحظة، تسللت أشعة الشمس عبر النافذة من شقّ في السحب المنتشرة فوق سماء روما. وقبل أن تتصل بسحر، خطر ببال ستيلا أن تتصل ببعض الأصدقاء - محامين وصحفيين - يمكنهم مساعدتها. لكنها أدركت الآن أنها ليست بحاجة إلى أحد. وقررت أن تعتمد على نفسها، وغمرها شعور بأنها أصبحت تحبّ سلمان أكثر من أي وقت مضى.

أطبقت الغيوم على بعضها وتلاحمت مرة أخرى، كما لو أن العرض قد انتهى. نظرت ستيلا إلى ساعة الحائط. حان الوقت للذهاب إلى السوق، لأن باولو يريد أن يعدّ وجبة عشاء عربية معها. تناولت من الرفّ كتاب الطبخ المفضّل لدى سلمان عن الأطباق الدمشقية، *La città che profuma di coriandolo e di cannella* - *المدينة التي تعبق برائحة القرفة والكزبرة*.

واحة عايدة وكريم
أو الاستراحة قبل البدء برحلة إلى المجهول

ليست الشجاعة في ألّا تخاف من شيء،
وإنما أن تسيطر على الخوف.
تُنسب إلى المناضل نلسون مانديلا

دمشق، ١٨-٢٤ *كانون الأول* (ديسمبر) ٢٠١٠

هدوء

«نم أولاً بكفاية لترتاح»، قال كريم لسلمان عندما انتصف الليل، لأن ضيفه لم ينم جيداً منذ عدة أيام كما صارحهم. وقد ساعد العشاء مع كريم وعايدة والنبيذ الأحمر والأحاديث الشيقة التي دارت بينهم في تهدئة أعصابه. ثم حكى لهما قصّة حياته. وسأله كريم أسئلة كثيرة ليفهم كلّ شيء، لا سيما السبب الذي جعل إلياس يعامله بهذه الصلافة والعدوانية. وخلص كريم وعايدة إلى أنه بالإضافة إلى أنه يحسده، فإن دافعه الرئيسي يكمن في الحصول على فدية كبيرة. وسرعان ما شعر سلمان براحة شديدة معهما.

أثناء نضاله السري، تعلّم سلمان كيف يتأقلم بسرعة مع محيطه. وأثبت له المنفى هذه المقدرة، وتدرّب أكثر ليتمكن من التأقلم مع

البيئة المحيطة به في جميع الظروف، وأن يتعرف على حقيقة الأشخاص الذين يلتقي بهم بسرعة، لأنه لا يوجد شيء يحميه، سواء أكان في العمل السري أم في المنفى، ويضطر إلى الاعتماد على حدسه وتقديره للخطر المحدق به في أي موقف يعترضه أو الثقة التي يمنحها للشخص الذي يتعامل معه. فالذي يتأقلم ببطء يفشل ويسقط إلى الوراء والذي يتسرّع يصاب بإحباط، وأحياناً بكوارث قد تودي بحياته، أو تجعله يمتلئ بالمرارة عندما يتبين خيانة الشخص الذي وثق به بسرعة. وبما أن سلمان ينتمي إلى أقلية تاريخية تتمتع بنوع من الحس المرهف في تلمّس الطريق عبر غياهب متاهات الأغلبية التي كانت صوفيا تسميها «بوصلة قارب الأقلية في محيط الأغلبية»، فإن العقلانية وحدها لا تكفي، وإنما يوجد دور كبير لإدراك ما هو صحيح وما هو خطأ بالغريزة وبميل النفس وبوصلة الشعور عاطفياً، حتى لو أخطأ التقدير أحياناً.

أما في حالة كريم وعايدة، فقد وجدهما سلمان منذ الدقائق الأولى، حتى من دون أن يعرف شيئاً عن علاقة كريم بصوفيا، شخصين صريحين، مضيفين ودودين.

عندما نهضت عايدة لتعود إلى بيتها، عانقت سلمان، وقالت له تطمئنه، «لا تقلق. سنبذل أنا وكريم قصارانا لنحميك». رافقها كريم إلى الباب ثم عاد بسرعة وقال لسلمان: «لقد جهّزت لك الغرفة في الطابق العلوي. وأشعلتُ فيها المدفأة منذ الصباح لأن الطقس بارد جداً وشديد الرطوبة. فلم أستخدم هذه الغرفة منذ شهر تقريباً. يمكنك أن تُبقي الضوء فيها مناراً كما تريد، وفيها نافذة وحيدة تطلّ على باحة البيت. لا يستطيع أحد أن يرى شيئاً من الشارع، وبدءاً من الغد، سيصبح اسمك حبيب، ابن ابنة عمتي».

«حبيب؟»

«نعم حبيب شاهين، اسم ابن ابنة عمتي فاطمة الذي يعيش في كندا وهو قريب من عمرك. لكن يمكننا أن نكمل حديثنا في الصباح. اذهب الآن ونم جيداً، وإلّا فإن أمّك ستوبخني وأنا لا أقدر على غضبها مني»، قال ضاحكاً.

كانت الغرفة كبيرة لها حمّام صغير وفيها سرير ورفّ صغير تتكدس عليه كتب، وطاولة مكتب مصنوعة من خشب داكن، وطاولة صغيرة بجانب السرير عليها مصباح للقراءة. كانت الغرفة حارة بشكل خانق. فتح سلمان النافذة وأطفأ المدفأة. في الخارج، كان الطقس طقس كانون الأول، وفي الداخل، يشبه طقس شهر آب. تناهى إليه صوت عزف على العود فنظر من النافذة. كانت الباحة معتمة، لكنه رأى بصيص ضوء في النافذة نصف الدائرية فوق الباب، فأدرك أن كريم لم ينم بعد. أرهف سلمان السمع. تأكد من أن صوت العود ينبعث من غرفة كريم، وأن اللحن هو من معزوفة بيتهوفن 'إلى إليزا' – *Für Elise*. يا له من مزيج غريب. مسلم يعيش مع مسيحية ويعزف معزوفة لبيتهوفن على العود. بعد لحظات قليلة، غطّ سلمان في النوم.

أحلام

في صباح اليوم التالي، فوجئ سلمان بالحلم الذي رآه. فقد رأى أنه أُرغم على عملية تفتيش قاسية. لعله رأى هذا الحلم لأن كريم نصحه ليلة البارحة بألّا يغادر البيت حتى يدرس هويته الجديدة ويتقنها جيداً، وأن عايدة ستحلق شعر نصف رأسه الأمامي لتحدث له صلعة صغيرة، ويجب أن يضع نظارات بدلاً من عدساته اللاصقة، وعليه أن يطلق شارباً.

لم يفهم سلمان لماذا عليه أن يزيل الشعر عن نصف رأسه ويطلق

شارباً، فأجابه كريم بأن السبب الأول هو أن الصلعة تغير معالم الشخص إلى درجة كبيرة، أما السبب الثاني فسيقوله له في الوقت المناسب. فقال سلمان مازحاً، «بما أن حبيب مسلم فهل عليّ أن أُختن أيضاً؟» فأجابه كريم، «لا، فنحن لسنا في لبنان». فهم سلمان قصده. ففي أثناء الحرب الأهلية اللبنانية، لم تعد الفصائل المسيحية والإسلامية المتصارعة تثق بأوراق الهوية لأنه أصبح بإمكان أي شخص أن يحصل على وثائق مزورة كما يريد. لذلك، بدأ الجنود عند حواجز التفتيش يطلبون من الرجال أن يخلعوا سراويلهم. فإذا كان الرجل مختوناً فهو مسلم، وإذا لم يكن مختوناً فهو مسيحي، وهذا يعني حياة الشخص أو موته حسب الانتماء الديني لفصيل المراقبة على الحاجز.

ظلّ سلمان مستلقياً في السرير وراح يتمتم لنفسه، «حبيب شاهين. من الآن فصاعداً، أصبحتَ مسلماً تُدعى حبيب شاهين». خلال عمله السري، تدرّب سلمان على حفظ اسمه الحركي بسرعة. وأفضل وسيلة لذلك تكمن في تكراره مرات عديدة قبل أن يخلد إلى النوم كأنه يقنع نفسه به.

عاد يتذكّر الحلم الذي رآه الليلة الماضية. كان يصطفّ في رتل عند نقطة حدودية، من حوله رجال يتكلّمون بأصوات مرتفعة. «إنهم لا يدققون جواز سفرك، وإنما يتفحصون قلفتك»، قال الرجل الواقف أمامه بلهجة لبنانية، وأضاف وهو يهزّ رأسه، «إنهم حزب الكتائب المسيحي... كلّ رجل مختون سيُقتل رمياً بالرصاص، يحرق دين هالحياة، صار أيرنا يقرر حياتنا وموتنا».

«وماذا عنك؟ هل أنت مختون؟»

فأجاب الرجل مبتسماً: «نعم، لكنني أعدت إلصاق القلفة بصمغ ممتاز يجف بعد ثوانٍ ولا يترك أثراً. لا يمكن أن يكون هناك أحد

مسيحياً أكثر مني». لكن ابتسامته اختفت عندما نظر الجندي إلى قضيبه وصاح، «ابن العاهرة ألصق قلفته، إنها خدعة قديمة، هيا خذوه».

اعترى سلمان شعور بالأمان لأنه لم يُختن. فأنزل بنطلونه وأمسكه بيديه مع سرواله الداخلي لكيلا يلامس الأرض المليئة بأعقاب السجائر والبصاق. «جاك، انظر إلى هذا الرجل»، صاح الجندي الشاب المكتنز الجسم، وضحك، كاشفاً عن مزيج من الأسنان الصفراء والفجوات السوداء. أما الجندي الآخر، وهو شاب شاحب، فقد صاح متفاجئاً بعد إلقائه نظرة على وسط سلمان، «يا إلهي، لا يوجد هناك شيء، هل رأيتم بحياتكم مخصيّاً تماماً؟ رجلاً لا توجد لديه أعضاء جنسية؟».

استيقظ سلمان مجفلاً، وأضاء المصباح فوق الطاولة بجانب السرير، وألقى نظرة سريعة إلى داخل سروال بيجامته، وعاد وغطّ في النوم مطمئناً.

تمويه

عندما استيقظ سلمان، استحمّ وارتدى ثيابه ونزل إلى الطابق الأرضي، رأى عايدة وكريم يحتسيان آخر فنجان قهوة لهما.

«صباح الخير، حبيب»، حيّاه كريم.

«صباح النور»، أجابه سلمان، ولاحظ آلة عود معلقة على الجدار.

«سأعدّ الفطور. في هذه الأثناء تكون عايدة قد قصّت شعرك»، قال كريم وأخذ الصينية مع الفناجين الصغيرة وركوة القهوة. «تعال معي»، قالت عايدة لسلمان وقادته عبر الباحة الداخلية إلى الحمّام

القريب من الدرج المؤدي إلى الطابق الأول. وضعت عايدة كرسياً في وسط الحمّام وفرشت أدواتها على طاولة صغيرة.

«تفضّل اجلس»، قالت لسلمان الذي جلس على الكرسي.

«سأزيل الشعر عن نصف رأسك الأمامي كما قال كريم. إنه يريد أن تشبه أخاه غير الشقيق، صاحب مصنع الشوكولاتة في لبنان».

«ظننت أنني سأكون ابن أخيه حبيب شاهين»، قال سلمان، متفاجئاً.

«نعم، هذا صحيح، لكن خلال الأيام التي ستمضيها في دمشق فقط وليس في المطار. سيشرح لك كريم كل شيء. عندما تغادر البلد، ستحتاج إلى أوراق هوية صحيحة ومصدقة على الحدود. سيحصل عليها كريم من أخيه غير الشقيق حسن. بعد عيد الميلاد بقليل، سيزوره كريم في بيروت، إننا متأكدون من أن حسن سيعيرك جواز سفره. لم يستطع كريم أن يشرح له كلّ ذلك على الهاتف، لكننا أصدقاء مقربون. قبل أن تغادر بليلة، سنصبغ شعرك وشاربك بالأبيض حتى تصبح شبيهاً بأخي كريم غير الشقيق والكهل بقدر الإمكان».

«لماذا لا تصبغينَ شعري بالأبيض الآن؟»

«لأننا لا نعرف متى ستخرج من البلد، ولأن شعرك سيعود إلى لونه الأسود فإننا سنضطر إلى صباغته مجدداً، وهذا شيء غير صحي، وسيثير الشكوك أيضاً».

عندما بدأت عايدة تقصّ شعره، نظر سلمان إلى شعره وهو يتساقط على الأرض. «شعرك كثيف وجميل»، قالت عايدة لزبونها بإعجاب، وأضافت، «أطلق لحيتك. لأن ذلك سيغيّر شكل وجهك وقبل أن تغادر سأحلقها لك – ما عدا الشارب. سأقص شعرك قصيراً حتى لا تضطر للذهاب إلى الحلاق لمدة طويلة».

عندما أنهت حلاقة شعره، ارتدت قفازين زرقاوين ودهنت رأسه بملعقة. وبينما كانت تقود سلمان إلى حوض المغسلة، مدّ كريم رأسه من الباب، وصاح، «سأذهب لأُحضر خبزاً وسأعود بعد خمس دقائق». غسلت عايدة شعر سلمان وفركته حتى جفّ، ثم رشّته بعطر زهر الليمون، وغطّت رأسه بمنشفة جافة. عندما انتهت ونظر سلمان في المرآة، كاد يصيح مذعوراً. فقد أصبح رجلاً مختلفاً تماماً في رأسه صلعة كبيرة يحدّق فيه بعينين واسعتين. وزادت اللحية الرمادية التي نمت أثناء أيام هروبه من غرابة وجهه الجديد.

«يا إلهي»، صاح بصوت مرتعش.

«يجب أن أعترف، عندما رأيت الصورة التي أحضرتها أمّك، لم أكن متأكدة من أنك قد تشبه حسن. لكنك أصبحت تشبهه الآن كثيراً، ولم يعد ينقصك شيء سوى النظارات»، قالت وهي تكنس الأرض، ثمّ فتحت النافذة والباب المؤدي إلى الباحة لتهوية الحمّام الذي امتلأ برائحة مرهم إزالة الشعر الكريهة.

مُدّت المائدة بأشهى الأطباق الدمشقية في صحون صغيرة وفي زبادي كبيرة. باذنجان صغير محشو بالجوز والفليفلة (مكدوس) وعدة أصناف من الزيتون، وأطباق متنوعة، وجبن، وزيت زيتون، وزعتر حلبي، وعسل، ومربى السفرجل، ومربى المشمش. وعبقت في الغرفة رائحة الخبز الطازج المقرمش، وتوسط المائدة إبريق شاي كبير.

أكل سلمان بشهية عارمة مليئة بمشاعر الامتنان.

بعد أن أنهوا طعامهم، خرج كريم وأقفل باب الحديقة والأبواب الأمامية، وقال: «لا نريد زواراً»، وجلس إلى الطاولة بين عايدة وسلمان، ثم نهض مرة أخرى، فقد بدا أنه نسي شيئاً ودخل إلى غرفة

النوم، ثم عاد يحمل بيده صورة ملونة كبيرة مؤطرة، وقال: «هذا نحن، أنا وعايدة مع أخي غير الشقيق حسن عندما زرناه في بيروت في العطلة».

تسمّر سلمان في مكانه. ثم نهض واقفاً وأحضر المرآة الصغيرة من الحمّام التي رآها على الرف فوق المغسلة. وضع المرآة بجانب الصورة ونظر إلى صورته المنعكسة ثم إلى الصورة. لا شك أنه أصبح يشبه أخ كريم غير الشقيق كثيراً.

جيش من الإخوة غير الأشقاء

«احكِ لسلمان عن جميع إخوتك غير الأشقاء»، قالت عايدة لكريم وهي تضحك وترشف قهوتها.

«حسناً، كان أبي غنياً يعمل في تجارة الأخشاب ويمتلك أيضاً قطعة أرض خارج مدينة حمص يزرعها بالشمندر السكري. وكان يتاجر بالأخشاب المحلية والمستوردة، كثير السفر والترحال. وعندما يعود إلى حمص، كان يتظاهر بالورع والتقى. تصوّر أنه أمر بقتل أختي الحبيبة صالحة لأنها أحبّت شاباً مسيحياً وتزوجته... في تلك الفترة، أنقذت أمّك حياتي.

كان أبي شخصاً منافقاً. فقد اكتشفنا بعد وفاته مباشرة أنه على علاقة مع أكثر من عشر نسوة، وأنجب منهن جميعهن اثنين وعشرين طفلاً موزعين في بيروت واسطنبول وأثينا وسالونيك والقاهرة وعدن وحتى في الخرطوم». هزّ كريم رأسه، وأضاف قائلاً، «وطوال تلك السنوات، كان يدفع لتلك النسوة نفقات سخية ليتركنه بسلام ويربين الأطفال. عندما توفي، ولم يعدن يتلقّين تلك النفقات، أدركن أنه مات فهرعن إلى أمّي في حمص، الواحدة تلو الأخرى، يطالبن

بحصصهن في الميراث. وبحسب الشريعة، لم تعترف أمّي والمحكمة إلّا بثلاث نسوة فقط بالإضافة إليها، فعادت النسوة الأخريات يجررن وراءهن ذيول الخيبة.

لم أعرف كلّ تلك النسوة لأن أسرتي تبرأت مني وحرمتني من الميراث لأني رفضت قتل أختي صالحة، فلم أتواصل مع عشيرتي لفترة طويلة. وفجأة زارتني إحدى قريباتي وقالت إن بعض الإخوة والأخوات غير الأشقاء يرغبون في أن يتعرّفوا على بعضهم، وزارني بعضهم، وتوطدت أواصر الصداقة مع عدد منهم. ومن بين من توثقت علاقتي بهم، أختي غير الشقيقة شريفة في القاهرة، المهندسة المعمارية، وأخي غير الشقيق محمد، تاجر التوابل في اسطنبول، وأخي غير الشقيق الآخر حسن الذي يعيش في بيروت. لكن أقوى علاقة من بين كلّ هؤلاء كانت مع حسن الذي اتخذ اسم عائلة أمّه مندور، نكاية بأبينا، وأنشأ مصنعاً صغيراً للشوكولاتة هو الآن من أفضل المصانع في الوطن العربي اسمه **مندور**».

لم يسمع سلمان بهذا الاسم من قبل، لأنه لم يكن يهتم كثيراً بالشوكولاتة، ولم يكن يستورد من لبنان إلّا النبيذ والعرق. «لكن لماذا يجب أن أحمل اسم حبيب؟» سأل عندما وجد أن خطط كريم معقدة بعض الشيء، «يمكنني أن أكون أخاك غير الشقيق منذ البداية».

«للأسف، ليس الأمر بهذه السهولة. لأن حسن شخص معروف هنا، وهو يزورني في كلّ سنة. وهو رجل كريم جداً، وكلما جاء لزيارتنا يجلب معه كميات من الشوكولاتة تكفي الحيّ كلّه. وبالطبع، يدعونه الناس دائماً - لتناول فنجان قهوة أو كأس نبيذ - ويدعونه غالباً إلى العشاء لأن الدمشقيين يحاولون أن يثبتوا دائماً للبنانيين أنهم طهاة أفضل منهم، وقد يلاحظ الناس اختلافات طفيفة بينكما، فهو

مكتنز أكثر منك قليلاً وشعره أبيض كالثلج، ويتكلّم باللهجة اللبنانية. يمكنك أن تحفظ عن ظهر قلب بعض العبارات والجمل التي ستحتاج إليها لاحقاً عندما يدققون جواز سفرك في المطار أو عندما يُطلَب منك في الشارع، لكن لن تتمكن من إقناع أي شخص خبيث في هذا الشارع اللعين بأنك لبناني. لذلك، فإنك تحتاج إلى شخصية مؤقتة أخرى. قالت لي أمّك إنك تتكلّم الفرنسية بطلاقة، لذلك، فإنك ستعيش، مثل ابن أخي حبيب، في كندا، في كيبيك، لأن الناس هنا لا يبدون أي اهتمام بكندا. توجد لديّ ثلاثة كتب عن كندا، إذا قرأتها فإنك ستعرف عن كندا أكثر من جميع الأشخاص في دمشق مجتمعين»، وابتسم.

«خلال الفترة التي ستعيش فيها هنا، ستصبح ابن أخي حبيب، لأن لا أحد يعرفه هنا. وهو هنا منذ حوالي شهر لكنه لن يزورني هذه المرة. إنه رجل غني جداً ويريد أن يفتح سلسلة محلات سوبرماركت في سوريا. كما تعرف، لدى المخابرات مخبرين حقيرين في كلّ شارع يعمل كلّ واحد منهم على حدة، ويكتبون تقارير عن أي شيء وعن أي حركة أو تغيير قد يلاحظونه في الشارع. كلّ ما يهمّ قيادة المخابرات هو أسماء المحرضين أو الأجانب الذين يظهرون فجأة. فما إن يسمعوا أن حبيب شاهين القادم من كندا سيزور عمه كريم أسمر في زقاق الياسمين، حتى يهرعوا للتحقق من المعلومات والبيانات: هل اسم حبيب شاهين مدرج في إحدى قوائم أعداء الدولة؟ الجواب: لا. هل جاء من كندا؟ الجواب: نعم. هل كريم أسمر قريبه؟ الجواب: نعم. هل يعمل كريم ضد الحكومة؟ الجواب: لا. عندها يصبح سجل حبيب شاهين نظيفاً.

وإذا لم يكن الاسم معروفاً جيداً لديهم، فإنهم يصوّرون الشخص ويأخذون بصماته وتفاصيل أخرى إلى أن تقتنع القيادة بأنه

شخص مسالم، لا يشكل خطراً. ولجعل البلد جذاباً في عيون السيّاح والمستثمرين، فإنهم يتجنبون اعتقال الأشخاص بقدر استطاعتهم. فإذا اشتبهوا، في أي مرحلة، بالاسم، يطلبون مزيداً من التقارير الشاملة، ومن هنا تأتي أهمية المخبرين الذين لا يتقاضون راتباً، وإنما يكسبون نقطة إيجابية في سجلهم لكلّ صيد يصطادونه. وإذا قدّموا معلومات زائفة، تُزال نقطة من سجلهم فيضطرون إلى تعويضها في المرة القادمة باتهام شخص آخر. وإذا أزيلت من سجلاتهم ثلاث نقاط، فإنهم يُعذّبون ويهانون ويوقفون عن العمل. بهذه الطريقة، تحافظ القيادة على التوازن بين الحماسة المفرطة الهستيرية لبعض المخبرين وبين التراخي الخطير. إنه نظام بسيط وفعال. وبالإضافة إلى المئة وخمسين ألف مخبر الذين يعملون بصورة رسمية دائمة كموظفين في أجهزة المخابرات، هناك أكثر من ثلاثمئة ألف مخبر غبي يعملون لصالح تلك الأجهزة يجوبون شوارع المدينة. ويتبوأ العلويون الذين حصلوا على مستوى عال من التعليم المناصب العليا في أجهزة المخابرات المتعددة. حتى أنهم أنشأوا كلية خاصة لتدريب كبار ضباط المخابرات. لذلك، يجب أن يكون أول لقاء بينك وبين مخبرينا غير المرئيين مُحكماً مئة في المئة، لا تسعة وتسعين في المئة فقط».

«لكن ماذا لو جاء ابن شقيقك حبيب؟» سأله سلمان قلقاً.

«لا، لن يأتي لأنه لا يحبّني. وحتى لو جاء، فلن يتّصل بأحد من الجيران لأنه لا يعرف أحداً في دمشق. آخر مرة جاء إلى هنا كانت منذ عشر سنوات ونشأ خلاف شديد بيننا. وبخلاف أمّه، فاطمة، فهو معجب كثيراً بأبي، ومثله منافق يتظاهر بالتقى».

«هل عليّ أن أكون حذراً عندما أكلّم أحد معارفك أو جيرانك؟»

«تحدّث كما تشاء. تحدّث معهم وأنت مرتاح البال ومنشرح

الصدر بقدر الإمكان، لكن أرجو ألّا تذكر شيئاً عن إيطاليا أو ألمانيا لأنه لدى جميع المخبرين، حتى الأغبياء منهم، شبكة للبحث عن المطلوبين. والعناصر الرئيسية التي تشكّل هويتك هي: روما، تاجر، استيراد، مسيحي، إيطاليا، ألمانيا، متزوج من إيطالية، وأشياء من هذا القبيل... ويجب ألّا تتصل بوالديك أبداً، وألّا تقترب من شقّتهما. لأن مراقبة شقّتهما أصبحت الآن أشدّ من مراقبة بيت أي وزير في الحكومة. وإلياس يعرف مدى تعلقك بأمّك. أتعرف ما الذي يحدث لإنقاذ رجل يغرق؟» لم يفهم سلمان ما يقصده كريم، فهزّ رأسه نافياً. فتابع كريم قائلاً، «إذا لم يتبع الرجل الذي يغرق تعليمات المنقذ، فإنهما سيغرقان معاً، وأرجوك، لدينا أشياء كثيرة نريد أن نفعلها أنا وحبيبتي عايدة في هذه الحياة. اتفقنا؟»

هزّ سلمان رأسه مفكّراً، وقال: «نعم، سأفعل كلّ ما تقوله. فلم أعد أعرف المياه الدمشقية هذه ولم أعد أجيد السباحة فيها». فلم يتخيّل سلمان قط أن دولة فقيرة مثل سوريا تمتلك نظاماً تسيطر فيه على الشعب يفوق أي نظام في الدول الغربية الغنية. بالطبع قرأ سلمان الكثير في روما عن المافيا وأخطبوطها وقرأ عن الإرهابيين الإيطاليين وطرق مكافحتهم باستخدام أحدث وسائل الحاسوب والإنترنت والتنصت والعملاء والمخبرين الذين يتسللون إلى هذه المنظمات السرية ليكتشفوا مراكز قوتها وشبكتها. وقرأ بالطبع روايات الرعب في الزمن القادم كالعقب الحديدية لجاك لندن و١٩٨٤ ومزرعة الحيوان لجورج أورويل أو رواية عالم جديد جميل لألدوس هكسلي أو رواية راي برادبوري فاهرنهايت ٤٥١. لكن كل هذه الروايات كانت فانتازيا مستقبلية تبلغ درجة التقنية في بلدانها الافتراضية درجات عالية من التقدم.

أما هنا في أحد بلدان العالم الثالث، فقد تفوّق نظام ديكتاتوري

في بلد لا يعمل فيه نظام البريد والكهرباء والمياه والمدارس والجامعات حتى على أسوأ رؤى روايات الخيال العلمي المستقبلية بؤساً. وأُعجب سلمان بكريم لقدرته على تخطيط كل شيء بدقة وعناية.

كما لو أن كريم قرأ أفكاره، تابع قائلاً، «كما تعرف، يجب أن تفترض دائماً أن العدو أذكى مما تظن. خطأ واحد ونصبح كلانا في عداد الأموات. وسأكون محرجاً جداً أمام عايدة لو أنني أنهيت قصة حبّنا الرائعة في وقت قصير جداً. وسأقف أمام أمّك منكس الرأس لأنني لم أنقذ ابنها، حبيبها. فأرجو ألّا تغادر البيت لبضعة أيام حتى تتدرّب جيداً على هويتك الجديدة معنا ومع ضيوفنا. وعندما تشعر بالأمان، اخرج إلى الشارع واذهب إلى المقاهي ودور السينما كما تشاء، لكن تجنّب النوادي الليلية لأنها تعجّ بالمخبرين والمشبوهين. إن التجول في أرجاء المدينة سيمنحك الثقة بنفسك ويساعدك على الظهور بشكل هادئ وطبيعي. وتذكّر أنه لا توجد مخابرات على وجه الأرض تستطيع أن تدقق وتتفحص كلّ شيء».

«هل تفعل كلّ ذلك من أجلي؟ لماذا تجازف بحياتك من أجل شخص لم تلتق به في حياتك قبل البارحة؟» سأله سلمان.

فأجابه كريم، «إنها قصة طويلة»، ثم حكى له قصّة حبّه لصوفيا - بداية كلّ الحكايات - كما سماها. وظل سلمان يقاطعه بالأسئلة، وعندما وصل كريم إلى قصة قتل أخته، بكى فقبّلته عايدة، ومسّد سلمان يده. «كانت صالحة امرأة جميلة جداً، مسالمة جداً، لم تؤذ أحداً في حياتها»، قال كريم بصوت متهدج. عندما هدأ، حكى له كيف أنقذت صوفيا حياته، وحكى له عن حبّه الثاني، أميرة. وأخبره أيضاً عن ابنته مها التي أحبّها لكنها أعلنت عليه الحرب منذ أن بدأ يعيش مع عايدة.

أنصت سلمان باهتمام شديد.

«هل أنت متأكد أنني لست ابنك؟» جازف سلمان وسأله بخبث.

«أنا متأكد مئة في المئة أنك ابن صوفيا ويوسف. لقد رأيت أمّك أول مرة سنة ١٩٥٠، أي بعد فراق وانقطاع دام أكثر من سبع سنين. وكنت أنت آنذاك في الخامسة من عمرك. لم تُحضرك معها قط إلى منزل عمتها منيرة الذي كنت مختبئاً فيه. عندما طلبت منها أن تحضرك معها، قالت إنها تخشى أن تشي بي ببراءتك الطفولية».

في صباح اليوم التالي، ذهب كريم مع سلمان إلى محل بيع نظارات في باب توما. حتى من دون عدسات لاصقة، أحسّ سلمان بالأمان عندما سار بجانب كريم. وفوجئ عندما رأى حداثة محل النظارات وتنوع أنواع النظارات العصرية فيه، ثم اختار إطاراً ذا عدسات مستديرة بلون برتقالي - بني دافئ. وبعد ثلاثة أيام استلم النظارات.

كما اتفقا، أطلق سلمان شاربه. وفوجئ عندما رأى البياض يكسو لحيته التي اعتاد على أن يحلقها يومياً عندما كان في روما، حتى من دون الحاجة إلى صباغتها بالأبيض.

بدأت عايدة وكريم يناديانه باسمه الجديد. في اليومين أو الثلاثة الأولى، لم يستجب سلمان بسرعة عندما كان يسمع اسمه الجديد، لكن شيئاً فشيئاً، بدأ يعتاد على هويته الجديدة.

في معظم الأحيان، كانا يتركانه ويذهبان ليعملا في حديقة المنزل أو ليزورا بعض الأصدقاء. كان سلمان يغبطهما على معاملتهما بلطف وحنان لبعضهما. فقد كانا شخصين منفتحين، مطمئنين، حرّين، حتى في أثناء وجوده، خاليين من الهموم، كأنهما

ينسيان العالم ونفسيهما عندما يقبّل أحدهما الآخر. في روما، لا يتصرّف هكذا إلّا العشاق الشباب.

كان كريم يسير أحياناً في أزقة المدينة الشعبية للقاء طارق الذي قال له قبل عيد الميلاد بثلاثة أيام إن ستيلا قلقة، حتى أن الشكّ بدأ يساورها في أن سلمان لا يزال على قيد الحياة لأنها سمعت في نشرات الأخبار الإيطالية عن وقوع اشتباكات مسلحة في البلد، ولم تتمكن سحر خوري التي تتواصل معها من بيروت، من أن تطمئنها، وبدأت تطلب دليلاً جديداً على أنه لا يزال حياً يرزق.

حزن سلمان كثيراً لأنه سبّب كلّ هذه المعاناة لستيلا التي منحته كلّ حبّها ورعايتها له في روما، وما الذي يقدّمه لها مقابل ذلك؟ «أنا آسف»، قال، «يجب أن أفكّر في شيء».

«لكن هناك شيئاً آخر»، قال كريم متردداً، «فقد وافق أبوك على أن يدفع خمسين ألف دولار ليُخرجك من البلد بشرط واحد، وهو أنه لن يدفع المبلغ إلّا بعد أن تصل إلى بر الأمان وتتصل به. فقد نظر عميد في القوى الجوية وصديق مقرّب جداً لوزير الدفاع في قضيتك لكنه رفض أن يفعل شيئاً، وقال له إنه سيكون سعيداً لمساعدته لو كان الأمر يتعلق بشخص هارب ارتكب جريمة قتل أو تهريب أو تعاطي مخدرات أو غسيل أموال، أما قضيتك فتقع خارج نطاق صلاحياته. ويظنّ أن الشخص المعني يطلب ملايين، وهذا يعني أن إلياس ليس الشخص الوحيد المعني في القضية، وإنما هناك شخص أعلى مرتبة منه بكثير». أخذ كريم رشفة من الماء، وأضاف، «وهذا شيء لا يبشّر بالخير لنا جميعاً، لأن إلياس يمتلك حالياً قوة ودعماً كبيرين من خارج جهاز المخابرات. فعندما يريد ضابط مخابرات أن يضمن نتائج ما يفعله، فإنه يشارك أحد أولئك المجرمين الكبار. لا عجب أن شقيق الرئيس يكسب حوالي ثلاثمئة مليون دولار في السنة

لأنه شريك في ثلاثمئة قضية تشبه قضيتك. وكلّ ما عليه أنه يفعله، هو أن يمنح مباركته للقيام بذلك».

أطبق السكون على غرفة الجلوس.

في الليلة التالية، سمع سلمان للمرة الثانية صوت عزف على العود. لم يعرف اسم المعزوفة، لكنه أدرك على الفور أن كريم لم يكن مرتاحاً لأنه كان يتوقف عن العزف، ثم يكرر عزف الجملة ذاتها عدة مرات.

في اليوم التالي، كتب سلمان بضع كلمات على قصاصة ورق لستيلا وأعطاها لكريم. «أرجو أن تقول لها إنني تذكّرت اليوم مهرجان سارديلادا في غرادو وكيف كنّا نترك البولينتا كما هي».

«البولينتا؟ هل هي طبق دجاج؟»

«لا، البولينتا خليط لزج من سميد الذرة».

«هل يأكل الإيطاليون ذلك؟» سأله كريم متفاجئاً.

«نعم، خصوصاً في الشمال. كان ذلك لغزاً بالنسبة لي أيضاً»، أجاب سلمان وضحك.

أيام كأنها سنوات

منذ مجيء سلمان إلى بيتهما، بدأ كريم وعايدة يشعران بأن أيامهما أصبحت مليئة حتى منتصف الليل بالواجبات، لكنهما استطاعا رغم ذلك أن يمضيا وقتاً ممتعاً مع بعضهما.

بعد الغداء، صار سلمان يغادر البيت ويذهب إلى المدينة. في أحد الأيام، شعرت عايدة برغبة قوية تجاه كريم الذي كان جالساً على الأريكة مستغرقاً في قراءة كتاب صغير. وكانت كلما استثارته، ضحك

وعاد إلى القراءة في كتابه. بدا أن كريم لم يفهم محاولاتها الحثيثة لجلب انتباهه وهما يغسلان الصحون، حتى أن سلمان الذي كان يجفف الصحون، ضحك لتجاهل كريم محاولات «النحلة الصغيرة الشبقة» الواقفة بجانبه. فقال سلمان، «سأذهب الآن لكي تتمتعا بخصوصيتكما في بيتكما وتأخذان حريتكما. . .»، وضحك وغادر.

نظرت عايدة إلى كريم الذي بدا وسيماً في كنزته الصوفية الزرقاء الغامقة وقميصه الأبيض وبنطلونه الأزرق. وعندما رفع كمّيه، بدا الشعر الأشقر - الفضي الناعم على ساعديه مغرياً. وكلّما عانقها، شمّت رائحته التي تُذكّرها برائحة أوراق الأشجار الخضراء والخيزران وحبّ الهيل.

«هل ستمضي وقتاً طويلاً في القراءة؟» سألته، راجية أن يقول لها «لا».

«لماذا؟» سألها، مثيراً إزعاجها.

فقالت: «لأنني أريد أن آخذ قيلولة معك، ولا يأتيني النوم إن لم تكن بجانبي».

في النهاية، أغلق كتابه واستلقى بجانبها.

عندما قبّلها من شفتيها إلى قدميها، سرى في جسدها تيار بارد وساخن، قوي وناعم. أغمضت عينيها ولاحت لها نقاط ملونة صغيرة في سماء مظلمة. ضحكت ونضحت عرقاً وطافت فوق العالم. داعب بشرتها.

استلقت بجانبه، يغمرها شعور بالنعومة والرضا.

«إني أتقدّم بسرعة في العمر، وفي بعض الأحيان لم تعد إرادتي ورغبتي تستجيبان لي وتصلان إلى ذلك العجوز المتعب القابع بين ساقيّ الذي يتدلّى مثل خرقة، مع أنه تعتريني رغبة قوية في أن يزورك يومياً»، قال كريم حزيناً.

«لماذا أنت غير راضٍ؟ كان حبك الآن رائعاً»، قالت عايدة مسندة رأسها على صدره.

«إنه رائع دائماً. مجرد اصطحابك وأنت تحلّقين بعيداً شيء جميل. لكني أريد أن أذهب معك».

«لكن ممارسة الحب لا تعني دائماً أن ينتصب شيخك. إن رقتك جنس ملتهب»، قالت عايدة، ولكزته برفق.

« لا تعزّيني يا عشيقتي الجميلة، لكن اللّه لم يرحمنا نحن الرجال فنحن نحتاج إلى شباب دائم لهذا الخرطوم. أنتن النساء حظيتن على رحمة الخالق فأنت تتهيجن بكل بقعة من أجسادكن أما نحن الرجال، فإن لذتنا معلقة بحبل مشنقة هذا الغبي. عندما سأقابل خالق الأكوان، سأنبّه جلالته إلى هذا الخطأ في تركيب أجساد الرجال، فربما يرحم رجال القرون القادمة. هذا إذا ترك الإنسان الغبي الأرض بسلام لقرون من دون أن يفجّرها إلى شظايا».

«ما أجمل كلامك»، همست عايدة ضاحكة وهي تتصوّر كريم واقفاً في حضرة الخالق ينبهه إلى الخطأ في تركيبة الرجال... كم سيضحك اللّه ويحبّ هذا الرجل الرائع.

«المضحك في الأمر أنني لم أتمنّى أن تعود بي الحياة إلى الوراء إلّا بعد أن التقيت بك - أن أولد عجوزاً وتعود بي السنين إلى الوراء مع كلّ سنة جديدة».

ضحكت عايدة وهي تتخيّل أمهات يلدن أطفالاً شيوخاً بلحية بيضاء ومصاصة أو زجاجة حليب في فمهم، «لكن توجد أدوية كما أخبرتني أمل تساعد الرجال»، قالتها بنبرة جادة.

«لا أريد أدوية لتقوية الانتصاب لأنني سأغار منها»، قالها وضحك.

«أنت شاب بما يكفي»، قالته بجدية.

«لكني ألاحظ أنني كلما كبرتُ، ازدادت خسائري. فقد فقدت الكثير من الأصدقاء والأقارب. والأشياء التي كنت أراها هامة ذات يوم، بدأت تفقد قيمتها. بدأت قدراتي تنسلّ مني».

«لكن التقدّم في العمر ليس طريقاً ذا اتجاه واحد»، قالت عايدة محتجة، واعتدلت في جلستها، «توجد إيجابيات كثيرة. حتى النسيان اعتبره حكمة الطبيعة. إذ يسعى الكثيرون إلى تأخير ذلك، لكن النسيان يعني أيضاً أن تدع الأمور وحتى الذكريات تمضي من دون أن نتمسك بها بأنانية كأننا نريد أن نحتفظ بها كأنها من ممتلكاتنا الخاصة. في بعض الأحيان، أنسى اسم شخص وأين التقيت به ومتى ولماذا، لكنني لا أنسى أبداً إن كنت قد أحببته أم لا».

فقال كريم: «يبدو أن للمشاعر ذاكرة أفضل».

ذكريات عيد الميلاد

قبل يوم من حلول عيد الميلاد، اشتاق سلمان لأن يكون مع ستيلا وباولو. فمنذ أن عاشا معاً، دأب سلمان وستيلا على الاحتفال بعيد الميلاد. لم يكونا متدينين، لكنهما كانا يستمتعان بموسم أعياد الميلاد في روما، خصوصاً بعد أن ولد باولو. كان سلمان يفرح مقدماً بالاحتفال بعيد الميلاد كالأطفال. ففي دمشق، لم يكن عيد الميلاد يحظى بأهمية كبيرة، لأن عيد الفصح هو العيد الرئيسي. أما في روما، فإن جميع الناس يحتفلون بعيد ميلاد المسيح. ومثل جميع الإيطاليين، تزيّن ستيلا شجرة عيد الميلاد في غرفة الجلوس الكبيرة في الثامن من كانون الأول، *عيد الحبل بلا دنس*. ويوضع في مغارة من الورق الملون بلون الصخور ومهد صغير على شكل مذود تحيط

به تماثيل صغيرة جميلة للعذراء وللقديس يوسف زوجها وللرعاة ملونة في إحدى زوايا البيت. ومنذ أن أصبح باولو قادراً على المشي، بدأ يحمل الطفل يسوع في عشية عيد الميلاد بوقار شديد من الصندوق، ويأخذه إلى المذود الصغير ويضعه بلطف. وقبل حلول عيد الميلاد ببضعة أيام، كانت تتملكه الحماسة ويسأل هل حان وقت ولادة يسوع. وحتى عندما أصبح طالباً في المدرسة الثانوية، ظلّ يصرّ على أن يضع تمثال الطفل الإلهي في المذود بنفسه.

لسنوات عديدة، ظلّ سلمان يرفض أن يسافر في رحلات عمل أثناء فترة عيد الميلاد. فمنذ بداية كانون الأول، كان يحصر عمله في المكتب على عمليات الجرد. كان يحبّ كثيراً أجواء الاحتفالات في شوارع روما ذات الأضواء المتلألئة، وأشجار عيد الميلاد المزدانة التي تملأ الساحات الكبيرة، وأسواق عيد الميلاد. وكان سلمان يأخذ باولو لزيارة المعرض القريب من سوق بيازا نافونا الذي يعرض نماذج متنوعة من مغارة الميلاد من جميع أنحاء العالم ويبديان أعجابهما بها. وقد أحصى باولو في السنة الماضية أكثر من مئة وخمسين مغارة تمثّل ولادة المسيح كان أجملها، كالعادة، المغارة الكبيرة التي تُعرض في ساحة القديس بطرس والتي يزاح عنها الستار عشية عيد الميلاد. ودأب سلمان وستيلا وباولو على زيارة قاعة باركو ديلا ميوزيكا في عيد الميلاد حيث تُقدم عروض موسيقية وأغان كورالية مبهجة.

وفي عشية عيد الميلاد، كانوا يذهبون إلى ساحة القديس بطرس. حتى أن ستيلا التي قلما وطئت قدماها الكنيسة وحدها، كانت ترافق سلمان لحضور قداس منتصف الليل في كنيسة القديس بطرس.

بالمقابل، كان باولو وسلمان يرافقان ستيلا بعد ظهر يوم عيد

الميلاد في كلّ سنة إلى حلبة التزلج على الجليد أمام قلعة سانت أنجيلو ويبديان إعجابهما بها لأنها تجيد التزلج، مع أنها لم تكن تمارس التزلج إلّا في عيد الميلاد. «لقد تدرّبتُ كثيراً عندما كنت صغيرة، وجسدك لا ينسى أبداً. إن ذلك يشبه ركوب الدراجة. لا أكون واثقة من نفسي في الدقائق الخمس الأولى، ثم يسير كلّ شيء بسهولة»، أجابت ابنها باولو الذي لم يكن يحبّ التزلج. فعندما كان طفلاً، كان يتشبّث بسلمان كلما حاولت ستيلا أن تأخذه إلى التزلج معها. «نصف باولو السفلي عربي لأنه يتجمّد عندما يرى الجليد»، قال سلمان مدافعاً عن ابنه.

تدفقت كلّ هذه الذكريات إلى رأس سلمان التي حكاها لكريم. وغمره في الوقت نفسه شعور بالكراهية تجاه إلياس فعبّر عنه وإن بكلمات قليلة. ابتسم كريم بلطف، وقال: «انتبه يا صديقي، إن الكراهية سامة. فقد تسمم البحر الأبيض المتوسط كلّه بالكراهية التي تكنّها لإلياس. يجب أن تعلو فوق دناءة روحه وأن تنظر إلى الصورة كاملة من الأعلى كطائر، بسكينة وبروح طيبة».

في الوقت نفسه، دفع الفضول عايدة لأن تعرف كيف يحتفل الإيطاليون في عيد الميلاد، فحكى لها سلمان كلّ شيء بالتفصيل.

فِخاخ قاتلة

في نشرة الأخبار المسائية، سمعوا خبراً يقول إن مزارعين في قرية على الحدود اللبنانية حاصروا حافلة مشتبه فيها واعتقلوا جميع ركابها. وقال المذيع إنه أُلقي القبض على عشرين مطلوباً من الإخوان المسلمين كانوا قد هربوا من السجن منذ شهرين.

«كلّها أكاذيب»، قال كريم، «هؤلاء ليسوا فلاحين. إنهم

مخبرون يعملون لصالح المخابرات. فلا تستطيع حكومة في أي بلد أن تسيطر سيطرة تامة على حدودها، علماً أنه توجد لسوريا حدود مع جيرانها تمتد حوالي ألفين وثلاثمئة كيلومتر. وقد هرب أناس كثيرون إلى تركيا والعراق ولبنان والأردن، وفي الماضي، هرب الكثيرون إلى فلسطين وعبر البحر إلى قبرص أيضاً. في البداية، عقد اتفاق سري بين جميع أجهزة المخابرات في الدول العربية على تسليم المعارضين الفارين إلى دولهم. وبما أنه لا توجد لدى النظام السوري علاقات جيدة مع جيرانه في بعض الأحيان، فقد توصل إلى طريقة عبقرية، منذ بداية حكم حافظ الأسد. فقد استعانت أجهزة المخابرات بمهربي المخدرات على طول حدودها مع لبنان والعراق والأردن وتركيا» واصل كريم كلامه بعد أن شرب جرعة ماء، «الذين ينحدرون عادة من القرى الحدودية ويعرفون الحدود في هذه المناطق النائية أكثر من أي شخص آخر، يسلّمون الهاربين الذين يقبضون عليهم إلى المخابرات. ولقاء ذلك، تسمح لهم الدولة بتهريب المخدرات من دون أن يتعرضوا للعقاب. أما إذا أفلت أحد الهاربين من قبضتهم، فإن الدولة تحمّلهم مسؤولية ذلك. لذلك، تقوم العشائر بمراقبة الحدود بدقة، وفي بعض الأحيان، يأخذون نقوداً من الهاربين لقاء تهريبهم ثمّ يسلمونهم بخسّة إلى المخابرات».

أبدى سلمان وعايدة امتعاضهما لهذه النذالة.

ثم تابع كريم قائلاً: «لقد حكمت المخابرات السورية لبنان منذ أول يوم اندلعت فيه الحرب الأهلية في عام ١٩٧٥ حتى عام ٢٠٠٥. وطوال السنوات الثلاثين تلك، لم يجرؤ سوري واحد على الهرب عن طريق لبنان، لأن المخابرات استخدمت حيلة اخترعتها أجهزة المخابرات في تشيكوسلوفاكيا السابقة. تخيّل أنه توجد حدود زائفة مسيجة بأسلاك شائكة فيها أبراج مراقبة. كان المهربون الذين

يعملون لصالح المخابرات يتقاضون مبالغ ضخمة من الهاربين، ثم يأخذونهم إلى هذا المكان الذي يُفترض أنه لا يخضع لحراسة قوية، ثم يقولون لهم إنهم مسؤولون عن تأمين الطريق لهم حتى يجتازوا الحدود فقط، ثم يتحمل الهاربون وحدهم المسؤولية. يرافقهم المهربون حتى يصلوا إلى سياج الأسلاك الشائكة، فيظهر لهم درب وتلوح من بعيد أضواء محطة وقود أو مطعم، ويرون العلم اللبناني يرفرف في كل مكان. فينتظرون حتى يبتعد الجندي الذي يراقب من برج المراقبة أو حتى ينام، فيدفعون النقود للمهربين ويقفزون فوق السياج الواطئ وينطلقون سعيدين باتجاه محطة الوقود مثلاً ليذهبوا منها إلى بيروت. لكن في الحقيقة، يكون عناصر المخابرات السورية بانتظارهم هناك لأن كلّ ذلك يجري على الأراضي السورية - وما العلم اللبناني والأسلاك الشائكة وبرج المراقبة ومحطة الوقود سوى خدعة. وفي بعض الحالات، شجعت المخابرات أشخاصاً مشهورين وأبناء عائلات غنية ليسوا من المعارضة، على الهرب حتى يُلقى القبض عليهم، ثم يقبض ضابط كبير فدية تقدر بالملايين لإطلاق سراحهم.

هذه الأساليب فعالة جداً، وتزرع الخوف بين السكان أكثر من مجرد إلقاء القبض على أي شخص يبحث عن شخص يساعده على الهرب. وبهذه الطريقة، أصبحت المخابرات أشبه بجدار يتعذر اختراقه. لكن لن يكون الأمر كذلك هذه المرة، لأننا سنتغلب عليهم قريباً.

سيعود أخي غير الشقيق حسن من ساحل العاج، حيث يشتري حالياً الكاكاو، بعد عيد الميلاد بيومين، ثم سأزوره وأطلب منه مساعدتنا. إذا أردت أن تكتب شيئاً لستيلا، سآخذ الرسالة معي إلى سحر خوري في بيروت».

هزّ سلمان رأسه، مذهولاً بعض الشيء. فلم يشعر بالخوف قط، حتى عندما كانَ في المقاومة المسلحة، كما شعر به هذا المساء عندما استمع إلى كريم وهو يصف له سيناريو إعاقة الهروب السوري.

«سنحتفل غداً في بيتي»، قالت عايدة وسألته ماذا يريد أن يأكل في عيد الميلاد. كاد سلمان يبكي لهذه المحبة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

عيد الميلاد وذكريات الأزهار

دمشق، ٢٥ *كانون الأول* ٢٠١٠ - ١ *كانون الثاني* ٢٠١١

عيد الميلاد

أعدّت عايدة حفلة رائعة بمناسبة عيد الميلاد في بيتها. وفي الليلة التي سبقتها، أخبر كريم سلمان أن رسالته وصلت إلى ستيلا في الوقت المناسب، وفرحت بها وتأثرت كثيراً لاستجابة أصدقائك السريعة وتعاونهم. وقالت إنها تريد أن يعرف سلمان بأنها ستأخذ باولو إلى الأماكن التي يحتفلون فيها عادة، وأنها ستتزلج على الجليد إكراماً له، حتى يتخيّلها سلمان وهي تتزلج على الجليد وتلوّح له بيدها ضاحكة ثم تختفي وراء الضباب.

لاحظت عايدة أن سلمان هادئ جداً. وقفت ومسّدت رأسه، وقالت: «كلّ شيء سيكون على ما يرام. لنحتفل الآن». قرّر سلمان في أعماقه أنه لن يكره إلياس أو أي شخص آخر، وسيستمتع بالحفلة. فدخل إلى الحمّام، استعاد نشاطه، وعاد مبتسماً، وقال: «عيد ميلاد مجيد».

أعدّت عايدة كلّ شيء منذ بضعة أيام. وكانت قد حصلت على وصفة الطعام التي تُقدّم عادة بمناسبة عيد الميلاد في روما، وتذكّرت

كيك البانيتوني الذي يتربع دوماً على المائدة في إيطاليا واشترته خصيصاً منذ يومين.

«من أين أتيتِ بكلّ هذه الأشياء؟» سألها سلمان، محرجاً قليلاً من التعب الذي عانته.

«ذهبتُ إلى البقال الذي يستورد مواد وأطعمة إيطالية وسألته ما الذي يمكنني أن أطبخه لضيف إيطالي».

بعد منتصف الليل، أحسّ سلمان بالتعب. أراد أن يذهب، لكن عايدة لم تدعه يخرج في هذا الجو الماطر والعاصف، وقالت له، «الطقس سيّئ جداً، والخروج في هذا البرد سيضرّك بعد أن شربت كلّ هذا النبيذ. يمكنك أن تبقى الليلة هنا».

«إذاً هل عليّ أن أعود إلى البيت وحدي؟» سألها كريم وهي التي لم تسمح له قط أن يمضي الليل في بيتها.

فضحكت عايدة وقالت، «لا، هذه المرة استثناء إكراماً لسلمان».

فأجاب كريم سعيداً، «عظيم. في هذه الحالة يجب ألّا يعود سلمان إلى روما أبداً».

أشاعت مدفأة جميلة قديمة من الحديد الصبّ الدفء في غرفة الضيوف الصغيرة. يبدو أن عايدة توقعت هذا الطقس البارد، فملأت المدفأة بالحطب بعد ظهر ذلك اليوم. وفاحت في الغرفة رائحة صمغ شجرة الصنوبر اللذيذ.

ذكّرته هذه الرائحة بعيد الميلاد أيام طفولته عندما كان والده يريد أن يحتفل بعيد الميلاد في الثلج، بعد أن رأى صور عيد الميلاد في المجلات، وملّ من الجو الماطر في دمشق. فاستأجر للأسرة شقة صغيرة في الزبداني، المنتجع الجبلي المعروف الذي يقع على ارتفاع

١٢٠٠ متر لقضاء عطلة عيد الميلاد. كان سلمان في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره آنذاك عندما رأى الثلج لأول مرة في حياته. ومع أنه أمضى طوال النهار في اللعب في الثلج خارج البيت، كان يريد دائماً أن يمضي وقتاً أطول. ومع أنه رأى ثلوجاً كثيرة في ألمانيا، فقد ظلّت ذكرى الثلج في الزبداني الأكثر سحراً في مخيلته.

عندما استلقى على السرير، سمع عايدة وكريم يتحدّثان، ثم غطّ في النوم.

•

في اليوم الثاني من عيد الميلاد، خرج سلمان وسار في شوارع المدينة القديمة رافعاً مظلة تقيه من المطر. بدأ يشعر بمزيد من الأمان بهويته الجديدة، بتلك الصلعة والشارب والنظارات، وقد ذكّره ذلك بأفلام التجسس والعملاء التي كان يشاهدها على التلفزيون في سبعينات القرن الماضي، وابتسم لنفسه.

عندما وصل إلى المدينة القديمة، لاحظ سلمان أنه لم يطرأ تغيير كبير على مدينة دمشق. لكنه لاحظ وجود صحوة دينية عند المسيحيين والمسلمين. فقد بدأ المسيحيون يعلّقون صور القديسين في كلّ مكان، حتى في إحدى الحانات الصغيرة. ولاحظ أنه ينتصب في زاوية كل شارع تقريباً تمثال لمريم العذراء أمامه باقات من الزهور، حتى في يوم شتوي مثل اليوم. لم ير شيئاً كهذا من قبل. ولاحظ سلمان أيضاً أن العديد من النسوة المسيحيات يحملن صلباناً وأيقونات ذهبية حول أعناقهن، ولم ير من قبل قط هذا العدد من النسوة المسلمات اللاتي يغطين رؤوسهن بأوشحة ويرتدين معاطف طويلة. بدت له دمشق الآن أكثر تعصباً مما كانت عليه في ستينات القرن الماضي. لماذا حدث كل هذا؟ رأى كريم أن الناس لجأوا إلى الدين وأصبحوا يبجّلون الأولياء والقديسين لأن الدولة لم توفّر لهم

الأمن والأمان، من النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وعندما شعر الناس بالحاجة إلى التمسك بالقديسين والأولياء، لم تكن الخرافات في منأى عنهم.

تذكّر سلمان الحديث الذي دار بينه وبين ستيلا عندما أعربت عن غضبها على الدولة الإيطالية التي جعلت الناس يعيشون في أحوال معيشية صعبة، وقالت له إن البلدان التي يتوفر فيها تأمين صحي جيد لا تحتاج إلى الكثير من البخور، وهي محقّة في ذلك. وإلّا كيف يمكنك تفسير أن شخصية مثيرة للجدل، بالنسبة للإيطاليين، مثل الراهب النصاب والدجال بادري بيو الذي أصبح يشغل مقاماً أعلى من مقام مريم العذراء من حيث التسوّل لحصول معجزات؟

عندما عاد سلمان وتحدّث مع كريم وعايدة في الأمر، وافقوا جميعاً على أن نوعاً جديداً من التديّن آخذ في الانتشار، نوعاً يفرّق الناس بدلاً من أن يجمعهم. نظام عقائدي لا يقوم على أساس المحبة وإنما يستند إلى التفرقة والشك والتباعد. «شعرتُ باليأس عندما بدأت مها تتصرّف بهذه الأسلوب المتعصّب»، قال كريم، «كانت قبلها مفعمة بالحيوية، وتفرض الآن على نفسها تعصباً يخنق أي بهجة في الحياة. لا أظن أن هذه هي إرادة اللّه».

«شيء غريب حقاً» قال سلمان، «أن يفكّر الناس، بعد كلّ هذه الهزائم، أنهم وصلوا إلى هذا الوضع المزري لأنهم ارتكبوا أخطاء كثيرة، ولا يفكرون كيف يمكنهم أن يخرجوا من هذه الأزمة، وإنما يظنّون ويتصورون أن كل قشة صغيرة في بحر ظلمات مأساتهم هي لوح خشبي سينقذهم فيتعلّقون به. ويتوهمون أن هذه القشة ستوصلهم إلى برّ الأمان».

«في الماضي كنت أسخر من هؤلاء الناس حتى عرفت مدى عزلة هؤلاء المساكين»، قالت عايدة.

«كيف عرفت مدى العزلة؟» سألها سلمان بفضول.

«كان ذلك في سنة ٢٠٠٢ عندما احتفل قرابة ٤٠٠ شاب وشابة في دمشق في الساعة الخامسة مساءً بصلاة القداس. عندما كان البابا يوحنا الثاني يقيم قداساً للشبيبة العالمية في تلك الساعة الموافقة للساعة العاشرة صباحاً بتوقيت كندا، ولم تمنح السفارة الكندية سوى ١٠٠ فيزا لأبناء وبنات الأغنياء ليسافروا إلى كندا للاحتفال مع البابا بينما صلّى الباقون في كنائسهم. لكن كما أسرّت لي إحدى الفتيات لأن معظم الشبان والشابات لم يذهبوا للصلاة في ذلك اليوم، سواء في كندا أو في دمشق، لأنهم متدينون كثيراً، وإنما لأنهم يعيشون في عزلة ويرغبون في أن يتعرفوا على أناس آخرين ويشعروا، حتى لفترة قصيرة، بأنهم ينتمون إلى جماعة. وتأكيداً على ذلك، قالت إن الكنيسة بقيت يوم الأحد التالي شبه خالية إلّا من بعض العجائز كما هي الحال كل يوم أحد. هذه العزلة أجبرتني على ألّا أنظر بفوقية إلى ظواهر الإيمان حتى لو كنت أرفضها كلها».

مقاومة الإغراء

مع مضي كلّ يوم، بدأ شعور سلمان بالأمان بهويته الجديدة يزداد، وأصبح يرافق كريم وعايدة في بعض الأحيان لحضور اجتماعات «*الغيريين*» التي بدا أنهما يستمتعان بحضورها، مع أن عايدة كانت تبدي ملاحظات ساخرة عن تلك الجماعة. وشعر سلمان بأنه محمي بين هؤلاء الأشخاص المهذبين والمتحفظين. وفي أحد تلك اللقاءات، أطلّ الإغراء برأسه.

سعاد، صبيّة شابة برفقة زوجها، غازلت سلمان علناً فشعر بالإحراج. وتظاهر زوجها بأنه لم يلاحظ ذلك. تساءل سلمان عما

إذا كانت ستيلا تعرف شيئاً عن مغامراته الجنسية في روما لكنها تتظاهر بعدم ملاحظتها ذلك أيضاً.

ثم وجّه سلمان انتباهه إلى المتكلّم، البروفسور فرداني، وهو فيلسوف متقدّم في السنّ، يتحدّث عن الحب. كان يتحدّث بوضوح ودقة، يرفع رأسه من حين لآخر إلى السماء كأنه يشعر أن الخالق يراقبه لكنه كان يفعل ذلك أحيانا بسرعة، فبدا لسلمان أشبه بدجاجة تشرب الماء.

عندما قال: «إن الحب دين دنيوي في هذا العالم ويتناقض مع أديان العالم الآخر، وكلّ من يحبّ فإنه يعتنق هذا الدين». سُمعت تمتمات احتجاج خافتة، لكنه مضى يقول: «يتغذّى دين الحب من المشاعر الإيجابية ومن الحرية والأمان والثقة في الشخص الذي يحبّه، لا ينمو ويزدهر على أرض الخوف من العقاب كما هي الحال في الأديان التي اخترعت العالم الآخر وقسمته إلى جنة وجهنم لتُقنع معتنقيها وتحوّلهم إلى خراف مطيعة، وتحرم الناس البسيطين من الحقّ في الكرامة والحرية، بينما توافق معظم هذه الأديان على القتل وشن الحروب. أما دين الحبّ الدنيوي فهو ليس كذلك، وإنما يدعو دائماً إلى الحياة البشرية المسالمة ويدعو إلى محبة الآخرين. أليس من السخافة أن تنادي الديانات الأخرى بالحياة في العالم الآخر وتنادي بشن حروب في هذا العالم، مع أنني لا أومن شخصياً بأنه توجد حياة بعد الموت، فإنني على قناعة بأنه توجد حياة كاملة قبل الموت...»

سُمعت أصوات احتجاج تقول: «توقّف». «هذا شطط»، «هذه ليست جمعية وجوقة للملحدين».

عندما ساد الصمت، رفعت عايدة يدها ليُسمح لها بالكلام ووقفت ليصل صوتها إلى جميع الحاضرين، «أنا مقتنعة بأن دين

الحبّ هذا سيبقى إنسانياً إلى أن يبلغ السلطة. ثم...»، صمتت عايدة قليلاً، «لقد تعلّمتْ ذلك من الموسيقى»، همس كريم لسلمان الواقف بجانبه. راح الجميع يحدّقون بها.

«... لكنه سيشن بعد ذلك حرباً كما فعلت جميع الأديان باسم الحبّ على الذين لا يحبّون والذين لا يستطيعون أن يحبّوا أو لا يُحَبّون، أو الذين لا يرغبون في أن يُحِبّوا».

صفّق بعضهم، وضحك آخرون.

رفع البروفسور يده، وقال: «هل هناك إنسان واحد لا يستطيع أن يحبّ، يقاوم الحبّ؟» سأل بشيء من السخط.

«لكن هذه هي مشكلة الأديان»، أجاب كريم بصوت جهوري، «فهي تجلب الكوارث على كلّ من لا يريد أن يؤمن بإلهها الواحد الرحيم - في هذه الحالة سيكون الحبّ هو الإله الجديد - وبما أن الحبّ شيء ثمين، يجب أن يبقى بعيداً عن الدولة والسياسة».

أحسّ سلمان بيد تلمس ظهره. عندما التفت، رأى سعاد تقف وراءه وتبتسم له.

في اليوم التالي، جاءت سعاد إلى بيت كريم وعايدة. كان كريم قد غادر إلى بيروت في وقت مبكّر من الصباح لزيارة حسن، أخيه غير الشقيق، وقرر أن يعود في اليوم ذاته. وراح سلمان ينتظر على أحرّ من الجمر ليعرف ما إذا كان حسن سيقبل أن يعيره جواز سفره.

كان سلمان مستغرقاً في التفكير في مشاكله، ولم يشعر برغبة في التكلم مع سعاد - فما بالك، بأن يغازلها. أراد أن يبقى وحده، فاعتذر منها وقال إنه سيذهب لزيارة أحد الأصدقاء وتركها مع عايدة. عندما عاد بعد الظهر، عرف أن سعاد غادرت بعد أن ذهب بفترة قصيرة.

«لم تأتِ سعاد لتزورني، وإنما لتزورك أنت».

متشجعاً من تعليقها، اعترف سلمان لعايدة عن حياته السابقة وخياناته التي يشعر بالندم عليها الآن. فقالت له عايدة ربما تعرف ستيلا عنها، لكنها وضعت خياناته في الميزان مقابل حبه ومعاملته اللطيفة لها، وبإمكانه أن يظل واثقاً من حبّها له، فلو رجحت كفة الميزان لصالح عدم إخلاصه، لكانت ستيلا قد تركته - في الحال - حتى من دون أن تودّعه.

اهتزّ كيان سلمان لدقة كلمات عايدة. لم تكن نبرة عايدة تشي بأنها تعظه أو تعطيه درساً أخلاقياً، وإنما كانت تتكلّم بهدوء ورصانة. ثم فكّرت لحظة، وسألته، «هل ستخبرها حقاً بكل شيء؟»

فأجابها سلمان بصراحة، «لست متأكداً بعد. أظن أنني سأفعل ذلك. لكن الأمر لن يكون سهلاً».

عاد كريم في المساء والسعادة تطفح من وجهه. أغلق الباب الخارجي وراءه ودخل إلى غرفة الجلوس، وقال: «سيأتي حسن إلى دمشق في الأسبوع الأول من كانون الثاني بعد أن يحصل على فيزا إيطالية على جواز سفره. وسيمضي كالعادة تلك الليلة في فندق شام بالاس وهناك سيسلمني جواز السفر. بعد ذلك، يمكنني أن أحجز لك بطاقة سفر إلى روما».

«لكن ألن يحتاج إلى جواز سفره عندما يعود إلى بيروت؟» سأله سلمان مندهشاً.

«لا، فاللبنانيون لا يحتاجون إلى جواز سفر. فعندما يجتازون الحدود، يحصلون على قسيمة يعيدونها عندما يغادرون البلد. لكنه سيعطيك القسيمة أيضاً لأنه لن يكون بحاجة إليها لكي يعود إلى بيروت. كلّ ما سيحتاج إليه كمية كافية من شوكولاتة مندور يوزعها

على المسؤولين على الحدود الذين أصبحوا يعرفونه الآن وينتظرون الهدايا التي يجلبها لهم. بهذه القسيمة، يكتمل تنكرك بهيئة مواطن لبناني. واحتياطاً أعطاني أيضاً حقيبة سفر مليئة بالشوكولاتة وأقلام حبر جاف وساعة يد ثمينة للعقيد ماهر مخلوف، رئيس فرع المخابرات في المطار.

مشوار مشترك

في صباح اليوم التالي، أراد كريم أن يزور أحد أصدقائه القدامى الذي أصيب بمرض عضال. كان اليوم دافئاً ومشمساً، رائعاً بعد هذا البرد والأمطار التي هطلت. كان صديق كريم، المعلّم المتقاعد، يعيش مع زوجته في غرفة صغيرة في حيّ الطبالة الذي كان في سبعينات القرن الماضي أحد الأحياء الفقيرة العشوائية الذي بنيت معظم منازله المتواضعة من الصفيح والطين. «أما الآن فقد أصبح حياً شرعياً، لكن الفقر ظلّ يعشش فيه»، قال كريم.

أراد كريم أن يذهب مشياً، وقال: «لا يبعد بيته أكثر من نصف ساعة سيراً على الأقدام». وأراد سلمان أن يرافقه ليناقشه حول «الغيريين»، لأن اجتماعاتهم تلك أثارت فضوله وحيرته.

«لماذا تتبع معلّماً مع أنك لست مؤمناً؟ ألا يشبه ذلك عبادة قديس؟» سأله سلمان محتاراً من هذا التناقض.

«أنا لا أعتبره قديساً ولن يكون كذلك أبداً، وإنما أعتبره رجلاً حكيماً. فقد بدأ شيوعياً وشارك في الكفاح المسلح، لكنه نبذ جميع أشكال العنف وأصبح ناشطاً اجتماعياً، وأصبح لديه أتباع كثيرون أطلقوا على أنفسهم اسم «الغيريين». لم يعظ عن الثورة قط، وإنما كان يتحدّث عن التطور الحيوي للمجتمع على أساس التخلّي.

التخلّي لكل ما هو فائض عن حاجتنا للآخر هو الحبّ. وهو يرى أن الحبّ، لا الكراهية، الطريق الوحيد الممكن لتصبح الحياة على الأرض إنسانية، لا باعتبار الحب عقيدة، كما فهم البروفسور فرداني خطأً، وإنما بمعنى التخلّي عن الأنانية».

«هذا صعب جداً إن لم أقل إنه من المستحيل أن يتعلّم الإنسان أو الدول فضيلة التخلّي»، اعترض سلمان.

«أتفق معك»، أجاب كريم، «إن مثالية عميقة تقبع وراء هذه الأفكار، وستأخذ وقتاً طويلاً لتصبح واقعاً، لكنها الطريق الوحيد. لذلك كان المعلّم شوكة في خاصرة الحكومة، فاعتقلوه ثم أفرجوا عنه بعد ثلاث سنوات، اغتيل بعدها بفترة قصيرة لأنه رفض أن يصمت. وكما علّمنا، فإنه زائل كشخص - لكن أفكاره ستبقى».

«وهذا بالضبط يدهشني، فكيف يمكن أن يجتمع «الغيريون» من دون أن يزعجهم أحد؟» سأله سلمان.

«لأننا أناس مسالمون لا نتدخّل في السياسة. والنظام يسمح لمجتمع مخصيّ أن يعبد ما يشاء من القديسين والأولياء، لكن بشرط ألّا يتحدّث في السياسية. لكنهم يأتون من حين لآخر، ليتحققوا من أن خصيتينا لم تنموَا مجدداً».

قهقه سلمان لهذه الفكرة، مع أنه أحسّ بوخز مؤلم في خصيته اليمنى.

«اضحك كما تشاء، لكن ما أقوله لك صحيح. ففي إحدى المرات، قال أحد الأعضاء في مجموعتنا مازحاً إن الرئيس يجب أن يشفى من شهوته للتشبث بالسلطة بقوة الحب، فاختفى الرجل بين عشية وضحاها لمجرد أنه قال 'يشفى'، حتى انه لم يقل 'يُسقَط'.

«لا بدّ أن هناك مخبراً بينكم»، قال سلمان بإصرار، «ألا تدققون في الأعضاء الجدد قبل قبولهم؟»

«يا لها من فكرة إيطالية»، قال كريم ضاحكاً، «لا تنسَ يا عزيزي، هنا دمشق»، قالها كريم وكأنه مذيع ثم أردف: «لا يُسمح لنا - كما في كل بلد عربي - بأن ندقق في أي شخص. ويفترض أن يكون الجميع موضع ترحيب، وإلا فإنهم سيحظروننا في اليوم التالي. إنها محاولة يائسة وعملية توازن لنحافظ على ما تبقى من كرامتنا».

بينما كانا يتحدّثان لاحظا مركبتين عسكريتين تقفان بالقرب من الباب الشرقي، يحيط بهما جنود مدججون بكامل عتادهم، يدخنون ويضحكون. فقال كريم إن سلسلة من الاعتقالات تجري هذه الأيام وألمح إلى أن هناك شيئاً ما يحدث. فقد زعزعت الثورة في تونس كيان الحكومة السورية والحكومات العربية. «تتظاهر حكومتنا بأنها غير معنية بالأمر، لكنها متوترة للغاية. تستطيع أن تعرف ذلك من التدقيق الشديد على الأشخاص الذين يدخلون إلى المدينة ويغادرونها».

عندما وصلا إلى بيت صديق كريم، رأى سلمان امرأة مسنّة تكاد لا تستطيع أن تمشي ترعى أصيص ريحان في البيت المجاور، تنزع الأوراق الذابلة بيد مرتعشة، وتسقي النبتة بإبريق ماء بلاستيكي قضى الزمن على لونه، وكانت العجوز تبتسم بسعادة.

تذكّر سلمان حادثة عندما كان في الكفاح المسلح لا تزال محفورة في ذاكرته بعمق. فقد احتل مع عشرين مقاتلاً آخر، مخفراً للشرطة عند مفترق طرق رئيسي. ثم توجهوا إلى قرية قريبة ليشتروا بعض السجائر والطعام. كانت القرية فقيرة جداً، وكان على الفلاحين في القرية أن يسيروا مسافة خمسة كيلومترات ليجلبوا الماء من بئر. عامل سكان القرية الفقراء الذين يرتدون ثياباً مهلهلة المقاتلين بودّ شديد، وقدّموا لهم الخبز والماء والفواكه المجففة.

لكن سلمان الذي كان قائد المجموعة، رفض أن يأخذ تلك الأشياء إذا لم يوافقوا على أخذ ثمنها. وعندما بدأوا يأكلون ويتحدّثون مع الفلاحين، رأى سلمان فلاحة عجوزاً لم تلاحظ وجود المقاتلين، تسقي مسكبة أمام كوخها لا تزيد مساحتها على متر مربع مليئة بأزهار المخملية والريحان والقرنفل الصغيرة. رآها سلمان وهي تمسّد الزهور وتبتسم. لم تكن مجرد رعاية حديقة صغيرة، وإنما تجسيد للأمل والحبّ والجمال في أفضل أشكاله.

كان صديق كريم وزوجته يعيشان في فقر مدقع. حاول كريم أن يرفّه عن صديقه ببعض الحكايات المسلية وبعد كأس من الشاي غادر مع سلمان بيت الصديق. عندما ودّعتهم زوجة الصديق، دسّ سلمان مئتي يور في يدها وقال: «أرجو أن تقبليها كهدية وشكر على ضيافتكم. اشتري الأشياء التي تحبينها والأشياء التي يحبّها زوجك»، وربت بلطف على كتف المرأة التي وقفت وقد اتسعت عيناها فرحاً من المفاجأة كأنها استيقظت لتوها من حلم جميل.

في طريق عودتهما، سارا في زقاق ضيّق تحفّه من جانبيه صفوف متراصة من البيوت الصغيرة واجهاتها متسخة، وسمعا نقيق دجاج من باحات البيوت الخلفية. عبر الزقاق من أمامهما كلب عجوز ضامر يسير ببطء كأنه يخشى أن تخرج أضلاعه من فروة جلده الأجرب.

جرى وراءهما بعض الصبية، يتدافعون ويتنافسون فيما بينهم بأصوات عالية لكي يبيعاهما أدوات خياطة وحلويات قديمة مكسوة بالتراب، وبعض القرطاسية، وسلعاً صينية رخيصة أخرى على الصواني التي يحملونها. لكن سلمان رفض بتهذيب الأشياء التي يعرضونها عليه وراح يسير بسرعة بجانب كريم. ورأى فتيات شاحبات يرتدين فساتين رقيقة رخيصة يقفن أمام أبواب بيوتهن. كان الحزن والهم باديين على وجوههن. بدأ الصبية الذين كانوا لطيفين

منذ لحظات، يصرخون بهما ويشتمونهما محبطين، وكاد حجر ألقاه أحد الصبية يصيب سلمان. عندما التفت كريم غاضباً، اختفى الصبية فجأة، ولم يتركوا وراءهم سوى صدى صياحهم في الزقاق.

تساءل سلمان كيف يشيخ هؤلاء الأطفال في تلك الأسر الفقيرة بسرعة. فعندما يبلغون السابعة أو الثامنة من أعمارهم، يصبحون ساخرين وناقمين أكثر من آبائهم، وتبدو وجوههم حزينة وأكثر هرماً من وجوه أجدادهم. وتنضج الفتيات في وقت مبكر، حيث لاحظ علائم البلوغ على معظمهن ولم يتجاوزن الثانية عشرة، وبدا عليهن التعب وكانت بعضهن حوامل. «في بعض الأحيان ينجبن أربع أو خمسة أطفال وهنّ لم يبلغن العشرين من أعمارهن»، قال كريم عندما رأى أمّاً صغيرة السن تقف أمام باب بيت يتشبّث طفلان بتنورتها، وتحمل طفلاً ثالثاً على صدرها.

عندما قُطعت الكهرباء مرة أخرى في ذلك المساء، أخذ سلمان يشتم ويلعن. لا بدّ أن هذه عاشر مرة انقطع فيها التيار الكهربائي منذ أن وصل إلى دمشق. فقد اعتاد الدمشقيون على انقطاع الكهرباء منذ زمن طويل. واعتادت عايدة وكريم على إيجاد طريقهما بأمان في الظلام، يضيئان شموعاً ويضعانها في أماكن متفرقة من الغرفة.

«كفاك تذمراً، البس شيئاً دافئاً وتعال معي»، قال كريم لسلمان وهو يرتدي سترته السميكة ويغطي رأسه بقبعة من الصوف، «سأريك شيئاً جميلاً». صعدا إلى الطابق العلوي، وسارا أمام غرفة سلمان وخرجا إلى الشرفة الكبيرة في الطابق الأول.

«انظر ما أجمل دمشق»، قال له كريم. امتدّ أمامهما مشهد بانورامي من البيوت الخافتة الإضاءة. أضواء الشموع والفوانيس

مركونة عند ناصية كلّ شارع وأمام مدخل كل بيت. سكنت روح سلمان وهدأت حدّة غضبه وبدا ذلك على وجهه. . .

«والآن، هيا ننزل ونحتسي قليلاً من الشاي الساخن»، قال كريم.

عندما عادا وهبطا الدرج، استقبلهما دفء لطيف. هرع سلمان إلى المدفأة ودفّأ يديه. عندما عادت الكهرباء، لعبا جولتين بالورق ثم ودع سلمان عايدة وكريم وصعد إلى غرفته.

ظلّ سلمان مستيقظاً طويلاً، يفكّر في الحيوية التي يتمتع بها كريم المتقدّم في السن. فقد لاحظ أنه لم يصعد الدرج ببطء، وإنما راح يقفز درجتين في كلّ مرة. لا بد أنه كان قوياً في شبابه؟ إن كريم يتحايل بكل الوسائل ليخفي عمره. في بعض الأحيان، عندما يكون مع عايدة يشربان الشاي، تسعفه عايدة عندما ينسى شيئاً كان قد حكاه لها حدث منذ أربعين سنة. «إني أفقد مفتاح مملكة الماضي أحياناً، وأنت تساعدينني دائماً على العثور عليه»، قال لعايدة وقبّلها ممتناً.

فقالت عايدة: «قد يكون النسيان رحمة أحياناً. فلو كانت لدى والديّ نعمة النسيان، فربما عاشا حياة أطول. لكن ذكرياتهما قتلتهما - تركّزت كلّها على وفاة أخي».

«صحيح. لو فكّرت ليل نهار في أختي المسكينة صالحة أو زوجتي المرحومة أميرة، أو في ابنتي الناكرة للجميل، مها، لأمضيت حياتي كلّها في البكاء، وربما متّ بعد ذلك بفترة قصيرة، لكنني نسيتهما وآثرت أن أفكّر فيك»، قال كريم مبتهجاً.

إن حبّ كريم وعايدة هو تمرّد على الموت، قال سلمان لنفسه، وهو مستلقٍ في العتمة. وتساءل، وماذا عني وعن ستيلا؟ لكنه سرعان ما غطّ في النوم وهو لا يزال يبحث عن إجابة.

ليلة رأس سنة موسيقية

في صباح اليوم التالي، بينما كانوا يشربون القهوة، قالت عايدة لكريم وسلمان إن أمل اتصلت بها وقالت إن الأصدقاء قرروا الاحتفال بليلة رأس السنة الجديدة في بيت كريم بمناسبة قدوم «حبيب». فابتسم كريم ابتسامة ماكرة، وأدرك سلمان أن أمل لم تتصل بها، وأن مضيفيه حاكا هذه المؤامرة الظريفة، مفعمين بالحماسة للضيافة.

في آخر يوم من سنة ٢٠١٠ ذهب كريم وسلمان وعايدة إلى السوق، وجهّزوا كلّ شيء وطهوا الطعام. ومع أن عايدة وكريم وجّها دعوة إلى عشرين ضيفاً وضيفة تقريباً، ظنّ سلمان أن كريم وعايدة يتوقعان مجيء مئة ضيف عندما لاحظ كمية الطعام التي أعدّاها.

وبالفعل، جاء الأصدقاء المدعوون العشرون - بالإضافة إلى أربعين شخصاً آخر من أصدقاء وأقارب هؤلاء. كان من بين المدعوين أستاذان جامعيان، وقس يسوعي، وشيخ شاب، وعدد من القضاة المشهورين، ومطرب، وثلاثة ممثلين. ولكي يستطيع سلمان أن يتحكم بسلوكه، قرر ألّا يلمس الشراب في تلك الليلة.

لاحظ كريم ذلك فقال له: «أفهم قصدك. يمكنك أن تأخذ كأساً من النبيذ الأحمر وترشف منه رشفة صغيرة، وإلّا فإن الآخرين سيظنّون أنك متوتر أو أنك لا تشعر بالأمان... أو أنك إسلاموي»، ضحك ثم أضاف بجدية: «لكن أرجو أن تقفل باب غرفتك لأن الناس يتجولون في أرجاء البيت بحرية كاملة. وإذا سألك أحدهم ببراءة إلى متى ستبقى في سوريا، فقل له ثلاثة أو أربعة أسابيع فقط، وإنه لا تزال لديك صفقات تجارية يجب أن تنهيها، وإنك لا تستطيع أن تتحدّث عنها لأن شركاءك في العمل لا يحبّون ذلك».

لاحظ سلمان أن كريم وعايدة لا يحبّان جيرانهما، ودُهش عندما عرف أنهما لم يدعوَا أحداً منهم إلى الحفلة. وهذا يعني أنهما لا يخشيان حدوث مواجهة معهم. «وستصل المخابرات إلى نتيجة عبر هذه الإشارة بأننا لا نخفي شيئاً».

بعد كلّ هذا الوقت، شعر سلمان بالسعادة لأنه عاد يختلط مع أناس آخرين. كانت الأجواء مريحة وغير رسمية. عندما فتح باب الحمّام، فاجأ رجلاً وامرأة يعانق أحدهما الآخر وقد تكوم بنطال الرجل حول قدميه، فقال: «أنا آسف» وأغلق الباب بسرعة. عندما أخبر كريم بذلك، ضحك وقال: «نعم، إنهما خليل ونورا. إنهما يستغلان الوقت في أي حفلة لأنهما يعيشان في غرفتين مع أطفالهما الستة وأصهارهما وخالتين».

غنّى رجل عجوز لطيف - يعمل نجاراً - بعض الأغاني التي طلبها الضيوف. وعرف سلمان من كريم أن هذا النجار سُجن لمدة عشرين عاماً. عندما توقف الرجل عن العزف سأله سلمان، «كيف استطعت أن تتحمل ذلك؟» فأجابه لدهشة سلمان، «لأنني أحبّ الحياة وأومن بالطيبة في نفوس الناس».

استمتع سلمان بالسهرة كثيراً، وازدادت ثقته بنفسه بأنه قادر على أن يؤدي دور حبيب على أكمل وجه. وتبادل النكات مع الضيوف واستمتع كثيراً عندما عزفت عايدة وكريم على العود.

عزفت عايدة معزوفة أستورياس لإسحاق ألبينيز عزفاً جميلاً، ذكّرت سلمان بفضيحة حدثت في الدول العربية تتعلق بهذه القطعة الموسيقية الرائعة. فقد أدخلها فريد الأطرش، عازف العود الرائع، الذي لم يقلّ شهرة عن كونه ملحناً، في أغنيته «*حكاية غرامي*»، من دون أن يشير إلى مؤلفها ألبينيز، واكتشف سلمان هذه السرقة لاحقاً.

وعندما قارن بين المعزوفتين، وجد أن فريد الأطرش قد نسخها تماماً من معزوفة ألبينيز.

بعد أن أنهت عايدة معزوفتها، بدأ الضيوف يتحدّثون عن الموسيقى، وبدأت عايدة تتجادل مع أستاذ قال إن الموسيقى «أفضل تربية». لكن عايدة لم توافقه على رأيه، وقالت إن الأكاديميين يحاولون أن يضعوا كلّ شيء في خدمة التعليم والتربية. فالموسيقى متعة بسيطة وجدت لكي يستمتع بها الناس فقط. وقالت: «إن الموسيقى تحرّك الروح وتجعلها ترقص وتحررها من الهموم»، وأضافت، «كلّ شيء يتحرّك مع الموسيقى، خصوصاً عندما نتكلّم. والكلام المكتوب ليس إلّا نقطة حبر ترقص على لحن الكلمات». شعر كريم بالفخر والسعادة، عندما سمعها تقول ذلك.

«اللّه موسيقيّ أيضاً»، صاح رجل عجوز، فضحك الجميع.

«إذاً لماذا لا تؤمن باللّه؟» سألته امرأة متديّنة.

«أنا لا أومن ببيكاسو؛ لكنّي أحبّ لوحاته. لا تقولي لي إنك تؤمنين بموزارت أو بفيروز؟»

لوّحت له المرأة بيدها باستياء. تساءل سلمان إن كان كريم سيعزف معزوفة «*Für Elise*» (إلى إليزا) لبيتهوفن التي يعزفها كثيراً في الليل. طلب سلمان من كريم أن يعزفها، فابتسم له ابتسامة تشي بأنه يعرف أن ضيفه يعرف سرّه.

«إنها هدية لعايدة في الحفلة القادمة. لم أتقن عزفها بعد»، همس ووضع سبابته على شفتيه راجياً أن يحتفظ سلمان بهذه المعلومة لنفسه.

انطلقت الأسهم النارية قبل منتصف الليل بثلاث دقائق. نظر سلمان إلى ساعته. نفاد صبر الشباب، تماما كما في روما، قال في نفسه. وقف الجميع وقد ارتسمت السعادة على وجوههم، يحملون

بأيديهم كؤوس الشمبانيا والنبيذ، ثم أضاءت السماء بتفجير ألوان زاهية ثم تبعتها ألف ومضة ملونة، وأخذ الضيوف يقبّلون ويعانقون بعضهم.

«ستيلا»، قال سلمان في نفسه وأغمض عينيه. يد لمست وجهه. عندما فتح عينيه، رأى عايدة تبتسم في وجهه.

«عام سعيد ومبارك لك ولأسرتك»، قالت وقبّلت خديه.

عند حوالي الثالثة صباحاً، غادر آخر ضيف. غمر سلمان شعور بالسكينة والبهجة حتى كاد يشعر بالخجل من نفسه. وقبل أن يخلد إلى النوم، كتب في دفتر ملاحظاته أنه إذا استطاع أن يغادر هذا البلد سالماً، فإنه سيكرّس سنة ٢٠١١ لتطهير روحه. وسيسلّم معظم مسؤولية أعماله في الشركة إلى كيارا، الموظفة المخلصة والمتمرسة، ليخصص وقته للتأمل ورعاية الشخصين الغاليين على حياته.

ستكون بهجتهما مصدر سعادته.

أيام صعبة
أو بصيص أمل في المتاهة

روما، ١٨ كانون الأول ٢٠١٠ - ٦ كانون الثاني ٢٠١١

من خلال ارتباطاتها، استطاعت ستيلا التواصل مع موظف كبير في وزارة الخارجية الإيطالية، عن طريق أحد أقاربها وأخت زوجته. فزارته وطلبت منه أن يساعدها، لأنه على الرغم من أن سلمان يحمل جواز سفر ألمانياً، فهو متزوج من امرأة إيطالية. كان الرجل البالغ من العمر ستين عاماً، دبلوماسياً محنكاً أمضى نصف حياته خارج البلاد. كان دمثاً، واستمع بعناية إلى طلب ستيلا، وطلب من سكرتيرته أن تحضر لها فنجان قهوة إسبريسو. «يمكننا أن نعيده من أي بلد في العالم - إلّا من بلده الأصلي، أعني البلد الذي ولد فيه».

تحدّث الرجل بإسهاب عن اتفاقية جنيف والقانون السوري. وشرح لها أن الدول النامية تقاوم بشدّة التدخل الأوروبي، وحكى لها بتفصيل شديد عن حالات اعتُقل فيها أشخاص سوريون وعراقيون في بلدانهم الأصلية، مع أنهم عاشوا في ألمانيا أو فرنسا أو إيطاليا لسنوات كثيرة وأصبحوا مواطنين فيها، حتى أن بعضهم شغل مناصب هامة في إدارة الأعمال أو السياسة. وحكى لها قصة عن مستشار شخصي لوزير الخارجية سُحب من بين أعضاء وفده ما إن وصل إلى

مطار بغداد. فعاد الوفد إلى بلده على الفور واحتجّ بقوة على اعتقال المستشار، لكن ذلك لم يغيّر شيئاً. ثم أضاف، «سينيورا، هؤلاء الطغاة يعرفون تمام المعرفة أن الأوروبيين سيغضبون لبضعة أيام، لكنهم سيعودون زاحفين إليهم كي لا يعرّضوا صفقاتهم التجارية للخطر والتي تبلغ قيمتها مليارات الدولارات. وفي المناطق التي يفور فيها النفط، يتربص الصينيون مثل قطاع الطرق الذين ينتظرون الفرصة، متأهبين دائماً لعقد صفقات من دون أن يطالبوا بإطلاق سراح أحد من السجن. وبالطبع فإن ذلك لا يُذكر بشكل رسمي، لكن الأمور تسير هكذا».

لا يمكن عمل شيء.

حتى ابن عم والدة ستيلا، الذي كان اليد اليمنى لكاردينال يُفترض أنه يتمتع بنفوذ قوي، رفض مساعدتها، لأن القضية حسب تعبيره معقدة جداً ولها علاقة بالسياسة الداخلية في سوريا.

«لم يعد ينقصنا سوى أن يقبل الفاتيكان اتهامات المخابرات السورية ضد سلمان، ويسمّيه إرهابي»، قالت ستيلا يائسة. وتساءلت لماذا لم تلاحظ طوال السنوات التي أجرت فيها أبحاثها في علم الأدوية السبل التي يتغيّر فيها بلدها والعالم؟ ولا إلى أين تطورت السياسة؟

صارت أيام ستيلا صعبة وثقيلة، ولاحظ باولو معاناة والدته. فلم تعد تخرج من البيت إلّا نادراً، وأصبحت تتكلّم على الهاتف كثيراً مع امرأة في بيروت ومع صديقها القديم لوكا، المستشار النفسي، وبدأت تخسر وزنها. وبدأ باولو يقلق عليها. لكنه كان واثقاً بأن والده سيعود. كان يعرف أشياء عن حنكة أبيه لا تعرفها ستيلا، وكان متيقناً بأن والده قادر على خداع حتى وكالة الاستخبارات الأمريكية.

ومع أن باولو لا يعرف شيئاً عن عمل أبيه في النضال السري، فقد كان معجباً بمهارته في ألعاب الكمبيوتر. حتى من دون أن يلعب، كان أبوه يعرف الخدع وأساليب القتال التي يجب استخدامها لتحرير الأبطال الافتراضيين المحاصرين. وفي ألعاب ساحة الملاهي في أعياد الكرنفال، كان يحرز في لعبة البندقية والهدف تسعة أهداف من أصل عشرة، وبذلك سمح له اختيار أي مكافأة يتمناها ابنه التي تكون عادة ألعاب أطفال. ولم تكن ستيلا تبدي أي اهتمام بهذه الألعاب. وعندما كان يصفها لها بحماسة مثنياً على مهارة أبيه بإصابة الهدف، كانت تبتسم له ابتسامة باهتة.

أراد باولو أن يُخرج أمّه من الشقة ومن وحزنها، لكنه لم يكن يعرف كيف. زحف الوقت ببطء ثقيل على النفس وبدأ الذهاب إلى المدرسة كلّ يوم يزداد صعوبة. شعر بالغضب من النظام السوري لأنه يضطهد والده. وكان ينفّس عن مشاعرة المحبطة بلعب ألعاب عنيفة على الكمبيوتر، وبدأ يتجادل أكثر مع أصدقائه في المدرسة حول السياسة. وقال أصدقاؤه إن هذه الأيام في كانون الأول ٢٠١٠ غيّرت باولو. فلم يعد ذلك الطفل اللطيف المهووس بألعاب الكمبيوتر، وبدأ البعض يرونه طفلاً مشاغباً، بينما رآه آخرون شاباً واثقاً بنفسه لكنه عدواني. لكن كلّ من يعرفه أُصيب بالدهشة عندما رأوا أن باولو قد أُغرم بفتاة، في هذا الوقت بالذات.

فقد شوهد باولو برفقة فتاة في المدينة كلّ يوم تقريباً، تدعى نورا في الخامسة عشرة من عمرها، ابنة عائلة كالابريزة التي انتقلت من باليرمو، عاصمة جزيرة صقلية الإيطالية، والتي تسكن في الطابق الرابع من نفس البناية التي يسكن بها باولو. في أيام طفولته، كان باولو يخاف من والد نورا الضخم الطويل القامة، ذي البشرة الداكنة وتوجد على وجهه ندبة كبيرة، فاقتصر كلامه مع نورا لزمن طويل على

إلقاء تحية سريعة لها من بعيد كلما صادفها وهي تهبط الدرج أو تقف أمام باب بيتهم. ومهما أكّد سلمان وستيلا لباولو أن ستيفانو، والد نورا - مع أنه رجل كاثوليكي متدين جداً - رجل طيب ويحبّ الأطفال، لم يجد ذلك نفعاً. فعندما كان ستيفانو يقلّد صوت زئير الأسد أو يلوي وجهه في عيد ميلاد باولو لإضحاكه، كان باولو الصغير يجري ويختبئ وراء أبيه مذعوراً. وكان ستيفانو يمثّل أحياناً دور كينغ كونغ أو دراكولا، ويبرّر ذلك بقوله: «إني أفعل ذلك حتى يتمكن الأطفال من مواجهة الحياة. وبالمقارنة مع وحوش المجتمع الحقيقية، فإن وحشي حلو كالسكر ومسالم أكثر من حمامة السلام».

ظلّت نورا تخجل من الكلام مع باولو حتى ذلك اليوم الذي انتشر فيه خبر ملاحقة والد باولو في سوريا بين سكان البناية وبدأوا يعبّرون عن قلقهم لستيلا. في أحد الأيام، استجمعت نورا شجاعتها، وقرعت جرس بيت باولو، وقالت له إنها تأسف على ما حدث لأبيه، الرجل اللطيف والكريم والدمث.

وقف باولو أمام نورا مندهشاً، محتاراً لا يعرف إن كان عليه أن يدعوها إلى البيت أم لا، لكنها أنقذته عندما سألته، «هل تريد أن تذهب معي إلى السينما هذه الليلة؟» بدا أنها أعدّت سؤالها سلفاً، ثم أضافت، «يُعرض فيلم جيد من إخراج العبقري تيم بيرتون وبطولة جوني ديب».

ابتسم باولو الذي يحبّ الممثل جوني ديب، وقال: «حسناً. متى وأين سنلتقي؟»

فقالت: «عند مدخل البناية. الساعة السادسة».

«ووالداك؟» سألها باولو.

«وافقت أمّي وسافر أبي إلى باليرمو لزيارة جدتي المريضة، وسيبقى معها هناك حتى عيد الميلاد».

«حسناً، سأراك عند مدخل البناية في الساعة السادسة»، قال باولو الذي لم يرفع عينيه عن نورا حتى أغلق الباب وراءها بهدوء، وقال لنفسه، لقد كبرت الطفلة الصغيرة الشاحبة وصارت فتاة جميلة.

بعد مضي وقت قصير على الفيلم، وجدت يد أحدهما يد الآخر، وتشابكتا، ثمّ نسيا يد من وجدت يد الآخر في البدء، لكن من المؤكد أن باولو هو الذي قبّل نورا في نهاية الفيلم قبل أن تضيء الأنوار. «شكراً - كانت فكرة جيدة، وكان الفيلم رائعاً».

فقالت نورا: «إذا قبّلتني هكذا دوماً، فإني سأذهب معك إلى السينما كلّ يوم».

ربما لأنه أصبح عاشقاً، خطرت ببال باولو طريقة للاحتفال بعيد الميلاد هذه السنة. ففي صباح اليوم التالي، جاء إلى غرفة ستيلا وجلس على حافة سريرها، وقال: «أريد أن نذهب معاً إلى الأماكن التي اعتاد أبي على أن يأخذني إليها من دونك، ثم تدعينني أنتِ إلى الأماكن التي اعتاد على أن يأخذك إليها من دوني».

نظرت إليه ستيلا بعينين مندهشتين، وقالت: «يا لها من فكرة رائعة»، ثم سألته وهي تتثاءب لأنها سهرت حتى الثالثة صباحاً وهي تقرأ، «كم الساعة الآن؟».

«الساعة العاشرة الآن. سأذهب إلى المدينة مع نورا، وسأعود بعد ساعة. يمكنك أن تنهضي وتستمتعي بفنجان اسبريسو وتصبحي جاهزة».

«هل فطرت؟»

«نعم، توجد قطعة بريوش طازجة لك في المطبخ»، قال باولو وغادر الشقة.

في الأيام التالية، بدأت ستيلا وباولو يخرجان معاً كثيراً، وكانت نورا ترافقهما في معظم الأحيان إلى السوق وإلى محلات البقالة، وحتى إلى *Mille Articoli*، المتجر الذي يبيع بضائع رخيصة، ولا يبعد سوى بضع خطوات عن بنايتهما، خلف محطة الوقود IP الصغيرة التي لم تطأ قدما ستيلا قط تلك المحلات التجارية الصغيرة. ورافقت ستيلا باولو إلى الحانات التي كانت تذهب إليها مع سلمان على امتداد ضفة نهر التيبر، لكن باولو وجدها مملة قليلاً وباردة كثيراً.

قبل عيد الميلاد ببضعة أيام، أراد باولو أن يزور سوق أعياد الميلاد في ساحة نافونا مع ستيلا التي دأب على زيارته برفقة أبيه. كان كلما أراد شراء لعبة، اشتراها له أبوه له على الفور. رافقته ستيلا إلى السوق مع أنها لا تحبّ الزحام والضجيج. راح باولو ونورا يجريان أمامها، يد أحدهما بيد الآخر، فوق جسر غاريبالدي ثم وصلوا إلى ساحة نافونا ونوافير برنيني الشهيرة.

بدأت نورا وباولو يدعوان ستيلا لمرافقتهما إلى السينما. وسرعان ما أدركت أن هذين المراهقين يعرفان أشياء كثيرة عن فن السينما، ما أثار دهشتها. فهما يعرفان أسماء الكثير من المخرجين والممثلين، ويعرفان حتى خلفياتهم العائلية والمبالغ التي يتقاضونها، والفضائح التي تورطوا فيها. لم تذهب ستيلا إلى السينما منذ زمن بعيد، فوجدت نفسها قد اندمجت في تلك الأجواء، وقررت أن تذهب إلى السينما عندما يعود سلمان سالماً، وتتناول الفشار (البوشار) بالشغف الذي يتناوله باولو مع نورا.

وجدت أن أبحاثها سحبتها من الحياة وأيقنت فجأة أن المختبر ليس الحياة كلها.

أخذ باولو أمّه إلى أماكن في روما لم ترها من قبل. وفاجأها

بمطاعم كان سلمان يأخذه إليها. وعندما رأت ستيلا باولو ونورا جالسين قبالة بعضهما، يتغازلان ويتناجيان، تذكّرت ستيلا أول لقاء لها مع سلمان. وقالت لنفسها إن باولو يشبه أباه كثيراً، لكن نورا لا تشبهها على الإطلاق. فهي فتاة سمراء جميلة، تتحلّى بشجاعة لم تكن تتحلّى بها ستيلا عندما كانت شابة. فقد التقت ستيلا بحبيبها الأول وهي في السابعة عشرة، لكنها فقدته بعد فترة قصيرة. حدث ذلك قبل ستة أشهر من بدء امتحاناتها النهائية في المدرسة الثانوية ورحلتها إلى أوروبا عندما رأت سلمان السوري في هايدلبرغ وأحبّته.

كانت نورا فتاة مرحة، خفيفة الظّلّ، جريئة أحياناً إلى حد الوقاحة مع باولو الذي تركها على سجيتها ولم يعترض أو ينتقد تصرفاتها. تساءلت ستيلا كيف يغيّرنا الحبّ. فقد أصبح هذا الصبي المرهف الذي ينفجر عادة غضباً عندما يسمع كلمة في غير محلها، مثل أبيه في شبابه، وديعاً كالحمل مع نورا، وبدأ يبدي اهتماماً مبالغاً فيه بمظهره الخارجي.

هل سبب كلّ ذلك هرمونات من قبيل الأوكسيتوسين والدوبامين والسيروتونين؟ فمنذ بضع سنوات، كان أحد زملائها السابقين يعمل في فريق يجري أبحاثاً حول هذه الأمور في جامعة بافيا لمعرفة السبب الذي يجعل المرء يقع في الحبّ من النواحي الطبية والنفسية والكيميائية الحيوية، فاكتشفوا أن تركيزاً عالياً من مغذيات الأعصاب (Neurotrophin) تتشكل لدى الشخص الذي يقع في الحبّ حديثاً، لكن هذا التركيز يبدأ بالانخفاض مع مرور الوقت تدريجياً حتى يعود إلى مستوياته الطبيعية خلال سنة تقريباً. هزّت ستيلا رأسها لتبعد الأفكار المتعلقة بالأبحاث والطب والمحاضرات عن رأسها، وتستمتع بأجواء البهجة التي أشاعتها نورا.

عندما تعيّن على ستيلا أن تختار مكاناً آخر كانت تذهب إليه مع

سلمان، قررت أن تأخذهما بسيارتها إلى شاطئ البحر في سانتا سيفيرا. بعد ساعة من خروجهم من المدينة، دخلوا عالماً آخر.

دُهشت نورا عندما رأت هذا الشاطئ الرائع الذي لم تزره من قبل. وراح باولو يستعرض معرفته بالشاطئ بشيء من المباهاة، لأنه ارتاد هذا المكان كثيراً مع والديه. وكان يحبّ القلعة التي يعود تاريخها إلى القرن التاسع. ووجدت ستيلا متعة كبيرة عندما سارت مسافة طويلة على الشاطئ بمداخله شبه الدائرية التي قطعتها الصخور وشكّلت مصدات للأمواج، وأراحها كثيراً مشهد المياه المنبسطة أمامها، وغمرها الهدوء الذي افتقدته في روما، وتذكّرت أن سلمان كان يشبّه سانتا سيفيرا دائماً بمدينة بيروت.

كلّما ازدادت حدّة مخاوف ستيلا، اتّصلت بسحر. وكلّما قالت لها سحر بصوتها الرقيق إنه لا توجد أخبار جديدة عن سلمان، أحسّت ستيلا بالطمأنينة. فقد وعدتها سحر أن تكون صادقة معها حتى لو لم تكن الأخبار عن سلمان جيدة. قالت لها: «نحن النساء نتمتع بطبعنا بقوة مقاومة كبيرة». وعندما قرأت لها آخر رسالة حب قصيرة من سلمان على الهاتف تقول إنهما لا يحبّان البولينتا، ضحكت ستيلا وعرفت أن سلمان لم يصب بأذى لأنه أرسل لها شيئاً أضحكها.

وفي رسالة أخرى، قال لها إنه اشتاق ليتناولا معاً عشاء من السمك في نيمي، فطفرت دموع الفرح في عينيها، لأن هذا الكلام لا يمكن أن يأتي إلّا من سلمان. فعند اشتداد حرارة الصيف في روما وعندما لم يرغبا في الذهاب إلى شاطئ البحر، كانا يذهبان إلى كاستيلي روماني ليستمتعا بالهواء البارد المنعش. وعندما كبر باولو قليلاً ولم يعد يرغب في مرافقتهما، أصبحا يذهبان وحدهما مثل عاشقين، يمضيان بعض الوقت في مارينو أو في كاستل غاندولفو

على ضفاف بحيرة ألبانو حيث يتناولان وجبة خفيفة، ثم يواصلان طريقهما عبر غابات الكستناء الباردة المظللة، إلى أن يصلا إلى قريتهما المفضّلة، نيمي، التي لا تبعد أكثر من أربعين كيلومتراً من بيتهما.

شعرت ستيلا في أعماقها بوجود بصيص أمل، وعززت ذكرياتها عن نزهاتهما معاً ثقتها بعودة سلمان سالماً. وعندما تتلاشى هذه الذكريات، كانت تتصل بسحر - يكاد الخجل يعتصرها لأن الشعور بعدم الأمان يكون قد بدأ ينتابها مرة أخرى.

الوداع
أو التحضير لمغامرة خطيرة

دمشق ١-٥ *كانون الثاني* ٢٠١١

نام سلمان حتى الظهيرة. عندما استيقظ، رأى المنزل نظيفاً ومرتباً إلى درجة أن أحداً لن يصدّق بأن ستين شخصاً كانوا يحتفلون هنا حتى ساعات الصباح الأولى. عندما رأى سلمان كريم وعايدة لا يزالان جالسين في رداء الحمّام، سأل عايدة، «هل أمضيت الليلة هنا؟» ابتسمت عايدة، وأجابت، «كانت زيارتك نقطة تحوّل بالنسبة لنا. فلم يعد بإمكاني أن أترك هذا الرجل وحده للحظة واحدة».

«ومتى نظفتما البيت كله؟»

«لم نحرك ساكناً»، أجابه كريم، «فقد أيقظتنا هذا الصباح فرقة تنظيف بقيادة أمل. عشرة أشخاص فعلوا كلّ شيء. لم يُسمح لنا بأن نلمس شيئاً. إعطاء التعليمات فقط... وصنع كمية كبيرة من القهوة. وأنهوا عملهم في الساعة الحادية عشرة».

بعد الإفطار، قرأ سلمان الصحيفة. في الليلة الماضية قفز مجنونان من فوق بوابة مستشفى الأمراض العقلية، وأرخوا جانباً من اللافتة المكتوب عليها «العصفورية» ووجّهوها نحو الشارع فأصبحت البوابة الآن مدخلاً لدمشق كمدينة للمجانين.

قرأ سلمان المقالة القصيرة لعايدة التي سألت، «لماذا نسمي مستشفى الأمراض العقلية *العصفورية*؟» لم يعرف سلمان الإجابة، فردّ كريم، «هناك تفاسير كثيرة لكني أظن أن الناس يريدون أن ينسوا أن هناك أشخاصاً محتجزين فيها ويُعاملون معاملة سيئة. فيشبّهون هؤلاء المساجين الذين لا حول لهم ولا قوة بالعصافير الملونة الحبيسة في قفص».

بعد الإفطار دعا كريم سلمان إلى مشوار وزيارة صديق قديم له يدعى صابر. والذي انقطع منذ فترة عن زيارة اجتماعات «الغيريين»

«إنه رجل ذكي ويقرأ بنهم وجوع دائم لا مثيل له لكنه صاحب لسان سامٌ يخشاه الكثير من أصدقائه» وصف كريم صديقه صابر.

يقع منزل صابر في شارع الإصلاح، سار كريم مع سلمان من حارة الياسمين إلى حارة العبارة وفي نهايتها انعطفا إلى حارة اليهود التي أصبحت كئيبة بعد أن غادرها معظم سكانها اليهود. وظلّت البيوت طعمة للزمن بأقفالها الصدئة وكأن من غادرها قرر أن يعود ذات يوم. عندما كانا يسيران، أشار كريم إلى مبنى جميل وقال «كان يسكن في هذا البيت الفخم صديقي أبراهام عبادي حتى اليوم الذي رحل فيه سنة ١٩٩٣. كان رجلاً مرهفاً، مضيافاً، هاجر في البداية إلى إسرائيل ثمّ سافر وعاش في بروكلين بنيويورك».

تابعا سيرهما حتى دخلا إلى حيّ الأمين، ثم وصلا بعد دقائق إلى شارع الإصلاح.

كان صابر رجلاً غريب الأطوار، يعيش على راتبه التقاعدي ومن تأجير الطابق الأرضي لبيته العربي التقليدي الذي تسكن فيه ثلاث عائلات.

قال له كريم إن صابر يناهز السابعة والسبعين من العمر، لكنه

يصرّ على أن يبدو كأنه شاب، لكن فقره أحبط كل مخططاته فبدا رأسه ملوناً بعدة ألوان: أسود وبني وأبيض ورمادي. وباءت جميع محاولاته في التأنق بالفشل وجعلت مظهره موضع سخرية. بدأ زمن صابر الجميل من بداية السبعينات حتى نهاية الثمانينات، كان يؤدي أدواراً مهمة على خشبة المسرح وكان الجمهور يحبّه كثيراً. ويحتفظ حتى اليوم بصور تلك الفترة الذهبية مؤطرة على جدران غرفته التي تكدّست أمامها جبال وأهرامات من الكتب. وعندما لاحظ أن سلمان يحدّق ببعض الصور قال من دون أن يسأله أحد، «في تلك الأيام، كنت شاباً وسيماً». بالطبع رأى سلمان في الصورة شاباً يفيض حيوية لكنه لم يكن وسيماً؟ فلم يكن صابر وسيماً، لكن كما كرر هذا الممثل الهرم أن صوته كان يغوي النساء. ولم يكن يبالغ في ذلك، لأن صوته، حتى وهو على مشارف الثمانين، كان رجولياً دافئاً. ومع ذلك فقد عاش عزباً.

«لماذا تقاطع لقاءاتنا؟» سأله كريم من دون مواربة.

«لأنكم تبدون لي مسالمين أكثر من اللازم. لا يمكن تغيير الأوضاع المزرية في هذا البلد بالحب».

«بالطبع يمكننا تغييرها بالحبّ لكننا نحتاج إلى وقت طويل. لا تنسَ أن المسيحيين الأوائل كانوا ضعفاء ورغم الملاحقة والقتل، ظلّوا ينادون بمحبة الأعداء ولم يُبدوا أي مقاومة. بعد فترة من الزمن، تمكنوا من القضاء على الحكم الروماني واستولوا على الحكم.

«لكنهم يا صديقي احتاجوا إلى ثلاثة قرون ليصلوا إلى الحكم. لكن ما الذي حصل بعد ذلك؟ لقد نسوا الحبّ وطاردوا أي شخص يعارض الكنيسة. وبدءاً من القيصر قسطنطين تحوّل الدين المسيحي إلى دين دولة ودين حرب واضطهاد».

لم يتمكّن كريم من إقناع صابر على تغيير موقفه. وقال المضيف إنه يريد أن يحرق نفسه في ساحة كبيرة. لكن ذلك لم يقنع سلمان لأنه قالها بطريقة مسرحية باردة ولغة متكلفة كأنه يلقي فقرة من مسرحية لشكسبير أو قصيدة لأبي العلاء المعري.

في تلك اللحظات، دخلت صبيّة لا تتجاوز العشرين من عمرها بيدها صينية عليها فنجانيْ قهوة لسلمان وكريم. كانت الصبيّة جميلة وخجولة.

«هذه ربيعة ابنة ساعي البريد سليمان. هذه العائلة تسكن عندي منذ عشر سنوات وتساعدني ربيعة في أمور البيت». عندما غادرت ربيعة الغرفة، أكمل صابر حديثه بصوت خفيض، «أدفع لأبيها خمسين ليرة عن كل يوم لقاء مساعدتها». قال صابر ذلك كأنه يقوم بعمل خيري لإنقاذ أطفال في بنغلاديش مع أن عينيه كانتا مثبتتين طوال الوقت على ردفيْ ربيعة بنظرات تخلو من أي أبوية. يا إلهي، قال سلمان لنفسه، يدفع يورو واحد في اليوم، وتقوم المسكينة بجميع أعمال البيت من تنظيف وغسيل وكوي وطبخ من دون مقابل، وتتحمل شهوانية رجل كهل متحرش. . . كل ذلك بيورو واحد!

حدثهما صابر غن كارثة حدثت لأحد أقاربه شاب في الثلاثين من عمره. فقد دفع هذا الشاب ثلاثة آلاف دولار لأحد المهربين ليوصله إلى اليونان. ومن هناك صمم هذا الشاب المسكين أن يهاجر إلى ألمانيا أو إلى السويد. وقد استدان الشاب هذا المبلغ من صابر، «مع أني عارضت قيامه بهذه المغامرة منذ البداية، لكن أمه جاءت إليّ وبكت حتى بللت السجادة بدموعها. فأعطيتها المبلغ.

أخذ المهرّب تسعة الاف دولار من ثلاثة أغبياء ليوصلهم بأمان إلى أثينا. استمرت رحلتهم ثلاث ليال وثلاثة أيام كاملة. انطلقوا في الليل كي لا يثيروا شكوك الشرطة كما قال لهم. أثناء النهار خبأ

المهرب الشباب الثلاثة في بيوت مهجورة وقدّم لهم طعاماً سيئاً من معلبات سمك تونا رخيصة وخبز بطعم كرتون. في اليوم الأول، سمع الشبان الثلاثة صوت موسيقى عربية آتية من بعيد. وفي اليوم الثاني، سمعوا أغاني تركية، فأيقنوا أنهم أصبحوا في الأراضي التركية، وفي اليوم الثالث، سمعوا موسيقى بلغارية، وفي اليوم الرابع، سمعوا بمتعة موسيقى يونانية ففرحوا وصفقوا طرباً. وقال لهم المهرّب إنه سيوصلهم إلى مشارف أثينا عندما يحلّ الظلام. وبعد ساعات من السفر في الظلام، توقّف المهرّب وطلب منهم أن يترجّلوا من الباص الصغير الذي كان يقلّهم، وأشار لهم إلى أضواء بعيدة وقال: «هذه هي أثينا»، فشكره الشبان الثلاثة وودعهم وعاد.

مشى الشبان الثلاثة باتجاه الأضواء البعيدة. بعد مسيرة ربع ساعة صادفوا رجلاً فسألوه بإنكليزية ركيكة كم تبعد أثينا عن هذا المكان. فتلعثم الرجل وأجابهم بالعربية بأنه غريب هنا. فظنّوا أنه عامل في أحد المصانع اليونانية. ولما كرروا السؤال عليه بالعربية ورجوه أن ينصحهم أين يمكنهم أن يمضوا ليلتهم في أثينا، أجابهم الرجل الذي استعاد رباطة جأشه إنه لا يعرف أثينا لأنه لم يدخلها قط، لأنه أمضى حياته كلّها في مدينة الطبقة الصغيرة بالقرب من سد الفرات، وأنه لم يغادرها منذ أن ولد... وشيئاً فشيئاً أدرك الشبان الثلاثة أنهم يقفون بالقرب من السد وأنهم لم يغادروا الأراضي السورية، وأن المهرّب خدعهم وخبأهم في النهار لكي لا يروا أين هم، وأسمعهم موسيقى لخداعهم. ثم، لم ير أحد منهم المهرّب ولم يستعيدوا قرشاً واحداً منه».

أُعجب سلمان وكريم ببراعة صابر في رواية القصه كأنه حكواتي متمرس. وعندما أنهى قصته، عادت ربيعة تحمل صينية ثانية عليها فناجين شاي وقطعاً من البسكويت والكعك. وعندما استدارت

لتخرج، أمسكها صابر برفق لكن بإصرار وقال لها: «قولي لضيوفي ما الذي تعلمته عندي؟» وضغط على ساعدها البض كأنه يريد أن يتأكد من أنه يوجد عظم تحت جلدها.

«أتعلّم فن الإلقاء المسرحي»، أجابت مطرقة بحياء في السجادة على الأرض.

«عزيزتي ديدمونة، كم مرة قلت لك إنك عندما تلقين نصاً يجب أن تنظري إلى وجوه الناس لا إلى أحذيتهم»، قال لها برقة ومسّد ظهرها بنيّة خبيثة، «إننا نتدرب منذ أسابيع على مسرحية عُطيل لشكسبير»، قال وابتسامة خبيثة ترتسم على شفتيه.

«للأسف يا أستاذي، لم أتمكن من إلقاء النص كما ينبغي»، قالت ربيعة بسرعة وغادرت الغرفة.

«يا سيد عطيل»، قال كريم لصابر بصوت ساخر، «إذا واصلت هذا التدريب، فإنك ستنتهي بسكين مغروزة في صدرك لم يخطط لها شكسبير».

«وليكن، لكن حتى ذلك اليوم، أستمتع بذكرياتي عن هذه المسرحية التي قدّمتها على المسرح في سوريا والعراق ولبنان ومصر أكثر من مئة مرة، وأجد متعة بجمال هذه الحسناء. وسواء كانت النهاية بسكين أم بسرطان الشرج، فالموت واحد يا معلّمي»، قال ذلك وضحك مع ضيفيه.

في صباح اليوم التالي، يوم أحد بارد ومشمس، خرج سلمان بعد أن أنهى فطوره ليتمشّى في الحيّ القديم. رأى أطفالاً يلعبون، وفجأة تخيّل أنه واحد منهم. وأحسّ بطعم حلو ومرّ في لسانه، وقال في نفسه إن عليه أن يتقبّل الواقع بأن عالم طفولته قد ولّى ولن يعود. ثم أخرج الأطفال هواتفهم الخلوية من جيوبهم، وراح كلّ واحد

منهم يتباهى بهاتفه أمام الآخرين، يتبارون من يمتلك آخر طراز فيه أحدث التطبيقات.

بعد نصف ساعة، وصل إلى حديقة الصوفانية الجميلة. جلس على أحد المقاعد وراح يراقب الأمهات الموسرات مع أطفالهن الصغار المثقلين بالثياب السميكة كالدمى لا يستطيعون تحريك أطرافهم بسهولة.

في مكان قريب، رأى صبيّة وشاباً يتعانقان بحميمية تحت شجرة بلوط. وفجأة دفعت الصبيّة الشاب عنها، وضحكت، «ستلتهمني» سمعها سلمان تقول للشاب، «أريد أن تقبّلني، لا أن تأكلني».

شعر بالحزن عندما رأى العاشقين، وسمع نفسه يردد، «ستيلا، حبيبتي ستيلا»، وتذكّر الفترة قبل أن يغادر روما، عندما بدأ الجدال بينهما يحتدّ، فشعر بالندم. كيف كان بإمكانها أن تفهمه؟ وأدرك أنه أخطأ عندما حكى لستيلا عن أحلامه وعن رغبته في زيارة الأماكن التي أمضى فيها طفولته التي لم تكن تعني لها شيئاً، لأنها لا تعرف دمشق، ولا تستطيع أن تتفهم مدى عشقه لأزقة هذه المدينة. فقد عاشت طوال حياتها في مدن شوارعها عريضة لا يُسمح فيها للأطفال باللعب، ولم تذق طعم الديكتاتورية، ولم تُطرد من وطنها، ولا تعرف ماذا تعني معارضة نظام متسلط. ملّت من رؤية أفلام عن الكفاح حيث يقوم ممثلون أجمل من الآلهة اليونانيين بأداء دور المناضلين، وتقوم ممثلات فاتنات كأنهن جئن من مدرسة عارضات أزياء بدور نساء المقاومة. وقال لها إنها على حق لأنه رأى عدة أفلام من هذا النوع، ولم يعرض أي منها صورة البؤس الذي يتعرض له المقاتلون والمقاتلات في سبيل الحرية.

دأبت ستيلا على القول إن اشتياق المرء إلى الأماكن التي أمضى فيها طفولته شيء سخيف اخترعه الشعراء والقوميون، سراب يشوّش

حواسك ويربكها، يلفت نظرك إلى الوراء فلا تشعر بلذة الحاضر وحتى أنك لا تضرب جذوراً فيه للمستقبل، ويجعلك منشطراً بين الآن وآنذاك وبين هنا وهناك فتشعر بالمرارة. كانت ستيلا تكره القوميين. امرأة علمانية ذات تفكير منطقي يندر أن تجده عند معظم الناس، ولا تثق بالذين يمارسون الشعوذة باسم علم النفس المبسط... الذين يفسّرون للأشخاص المساكين عندما يعتريهم وجع في البطن أو يعانون من الإرهاق بأنها من أخطر الأمراض النفسية، ويستخدمون الجن والشياطين ويدخلون مستمعيهم البسطاء في متاهة لا مخرج منها إلّا بشعوذتهم وأدويتهم التافهة. وتعتقد ستيلا اعتقاداً جازماً أن التحدّث مع الأصدقاء أو أخذ استراحة لبضعة أيام، يهدئ أعصاب المرء في فترة أقصر بكثير، وتردد بقسوة وبرود، «وينطبق ذلك أيضاً على الشعور بالحنين إلى الوطن».

عندما قرأ لها سلمان قبل أن يسافر بقليل قصيدة يعبّر فيها الشاعر عن شوقه لوطنه، قالت له ستيلا: «هذا الشاعر منافق، لأن الأماكن التي يشتاق إليها المرء كما يتوقع أن يراها عندما يعود ليراها تكون قد اختفت، لأن الماضي ولّى ولن يعود، ولم يبق شيء سوى رتابة مخيفة لا لون لها».

تذكّر ما قالته له ستيلا وهو في دمشق الآن. فهنا، في وطني، في موطن حناني وشوقي ولهفتي لأربعين سنة يشوّه ابن عمي سمعتي ويطاردني بتهمة قتل. كلّ ما عشناه في سبيله إلى الدمار - العائلة العربية، الكرم الدمشقي، المعاملة السلمية المعروفة عن السوريين والدمشقيين خاصة... «أصبحت كلّها هباء منثوراً»، تمتم بصوت مسموع.

نهض سلمان وسار في الطرقات شارد الذهن. ثم رأى فجأة

حشداً من الناس يتجمهرون أمام بيت صغير. قبالة ذلك البيت، رأى امرأة كهلة تستند إلى باب بيتها تتأمل هذا المشهد وعلى وجهها ابتسامة ساخرة.

«لماذا يتجمع الناس هناك؟» سألها سلمان مشيراً بيده إلى البيت الصغير.

«هناك يشتري الأغبياء أعاجيب ويصبح بعض المحتالين أثرياء».

«المعذرة، أي أعاجيب يبيعها هؤلاء المحتالون، فأنا غريب هنا»، قال لها سلمان.

«لكن لهجتك شامية أصيلة وإن كانت تشوبها لكنة غريبة»، أكدت المرأة.

فأجابها، «معك حق، فقد ولدت هنا، في دمشق، وأعيش منذ أن كنت شاباً في كندا».

«كندا بلد جميل وراقٍ. المحتالة في ذلك البيت امرأة تدّعي أنها تتحدّث دائماً مع العذراء، وتبيع زجاجات صغيرة مليئة بزيت زيتون رديء النوعية، وتقول إن هذا الزيت يشفي جميع الأمراض: وجع في المعدة، الأسنان، الربو، التهاب الرئة، ويمحو الخطايا ويجلب السعادة الزوجية. لم يبق سوى أن تحيي الأموات»، أجابته المرأة ولوّحت بيدها كأنها تطرد حشرة تعبيراً عن سخريتها.

«وهل تُدعى هذه المرأة مارينا؟»

«صحيح، مارينا المحتالة. لكن كيف عرفت اسمها؟»

«جاءت في رحلة إلى كندا مع كاهن وقالت نفس الكلام بأنها تتكلّم مع العذراء، لكنها لم تبع الزيت هناك حتى لا يسخر منها الكنديون».

«هكذا نحن، لا نكتفي بنشر الغباء في بلادنا فقط وإنما نصدّره

أيضاً إلى بلدان العالم». أُعجب سلمان بذكاء المرأة، فسألها: «ماذا كنتِ تعملين، أقصد سابقاً؟»

فهمت المرأة قصده، فضحكت وقالت: «ليس من المفروض أن يدرس المرء ويعمل في وظيفة لكي يكشف ويفضح حيلاً رخيصة لمشعوذين ودجالين كهذه حتى لو كانت الكنيسة تقف وراءهم. يكفي أن يعرف المرء أن واحد زائد واحد يساوي اثنين ليكشف هذه اللعبة الوسخة. أعاجيب، أعاجيب. قد يكون لضرطة مني بعد أن أتناول وجبة ثوم كبيرة مفعولاً أقوى من أعاجيب مارينا، مع كل زيتها وبخور الكنيسة».

ضحك سلمان مع المرأة التي دعته كعادة الدمشقيين إلى شرب فنجان قهوة، لكنه اعتذر لأنه خاف وقال إنه مستعجل.

عندما عاد إلى البيت، حدّث عايدة وكريم عمّا رآه. فأكدت له عايدة أن سمعة مارينا سيئة، وأن بعض اليائسين فقط يذهبون إليها، وقالت إنها اشتهرت حتى نهاية الثمانينات، ولم يساعد على شهرتها رجال الكنيسة الكاثوليكية فقط، وإنما وزراء وسياسيون أيضاً، رأوا أنها مفيدة لصرف أنظار الناس عما هم من بؤس.

«للأسف، أبي يؤمن بها أيضاً وينهار تماماً إذا تأخرت عن زيارته»، قال سلمان، وحكى لمضيفيه عمّا رآه عندما جاءت مارينا لتعالج والده، وكيف أنها لم تعد تأتي عندما علمت بأن ابنه مطارد.

ثم قال كريم، «أصيب صديقي نهاد شاهين بسرطان خبيث ولم يتمكن الأطباء من شفائه. وكان يرفض توسلات زوجته وبكاءها لزيارة مارينا، لكنه قبل أخيراً عندما انضم ابنه المهندس العقلاني إلى الجوقة وصديقه الشيوعي السابق الذي كان يلحّ عليه أن يذهب ويحاول علاج مارينا، ولو مرة واحدة. فذهب نهاد كما يقولون، خطوة إلى الأمام وخطوتين إلى الوراء، لكنه عندما وصل إلى بيت

مارينا ورأى ذلك الجمع أمام بيتها، احتقر نفسه وعاد أدراجه. وعاش نهاد بعدها عشر سنوات الأمر الذي حيّر الأطباء. لكن زوجته ظلت تنشر شائعات في كلّ دمشق بأن زوجها شفي من السرطان لمجرد أنه رأى بيت مارينا. . . تصوّرا بربكم هذا الغباء».

أراد سلمان أن يستيقظ في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، لكن تعباً شديداً شدّه إلى النوم ثانية بقوة. ورأى في منامه أن بيته في روما يحترق، لكن البيت لم يكن في شارع تراستيفيري، وإنما في مكان ناء في سهل فسيح، ورأى شخصاً يعزف على الأكورديون بينما كان سلمان يرقص التانغو مع ستيلا، بعد أن هرب جميع الجيران من شققهم وتجمهر أناس كثيرون حول المنزل المحترق. والغريب في الأمر أن سلمان وستيلا لم يشعرا بأي قلق من رؤية بيتهما يحترق، وراحا يرقصان عاريين، وسرعان ما شعرا بدوار، فاستلقيا في حفرة ناعمة تغطيها أعشاب كثيفة. لم يشعر سلمان بالخوف لأن ابنه باولو همس له أنه حصل على الحزام الأسود في الجودو وسيحميه هو وستيلا. وقف باولو بجانب الحفرة مولياً ظهره لهما ببدلة الجودو البيضاء، حافي القدمين، يُبعد الفضوليين المتجمهرين بقوة. وسمع سلمان باولو يقول: «هيا ابتعدوا، هذه مسألة عائلية. هيا تحرّكوا، لا يوجد شيء يمكنكم التفرج عليه. أرجوكم ابتعدوا».

ثم سمع إلياس ينادي: «سلمان. أين تختبئ؟ وصدّقني سأعثر عليك أينما اختبأت». فشعر سلمان بالأرض تهتزّ من تحته.

استيقظ سلمان مجفلاً ووجد نفسه مستلقياً على أرض الغرفة بجانب السرير. تنفّس الصعداء واستغرب لأنه لم يسقط منذ أكثر من خمسين سنة من سريره. كان الوقت لا يزال مبكراً، لكن ضوء النهار كان قد طلع.

هل لهذا الحلم علاقة بذكريات طفولته؟ لم يعرف جواباً عن هذا السؤال. فتح سلمان النافذة وعاد إلى سريره، ولفّ حوله البطانية الصوفية الثقيلة، واستمتع بالهواء النقي وأحسّ بالدفء. «لن أعود إلى هنا مرة أخرى طوال حياتي»، قال بصوت مسموع وتذكّر الصبي الذي رآه يبكي في أول زيارة له إلى روما.

كانت ستيلا قد رافقته في ذلك الوقت، خلال أول زيارة له إلى روما لتريه المعالم السياحية في روما التي كان من بينها نافورة تريفي الشهيرة التي اكتسبت شهرتها العالمية من فيلم «لا دولشه ڤيتا» - *الحياة الحلوة* - من إخراج فيليني وبطولة أنيتا إيكبيرغ ومارسيلو ماسترورياني. ورأى سلمان قطعاً معدنية كثيرة تملأ حوض البركة، والسائحون يقفون مولين ظهورهم للنافورة، يلقون قطعاً معدنية إلى النافورة بيدهم اليسرى فوق كتفهم اليمنى. وعندما لاحظ أن عدداً من الأشخاص يلقون أكثر من قطعة واحدة، سأل ستيلا عن سبب ذلك، فأجابته، «يعتقد أهل روما أنك إذا رميت قطعة نقدية واحدة فهذا يعني أنك ستعود إلى روما بأمان، وإذا رميت قطعتين فإنك ستحبّ امرأة من روما، أما إذا رميت ثلاث قطع فهذا يعني أنك ستتزوج تلك المرأة».

وقف سلمان مولياً ظهره للنافورة، ودسّ يده في جيب بنطاله الأيمن ثم مدّها نحو ستيلا. كان فيها ثلاث قطع معدنية من العملة الألمانية. فضحكت ستيلا وقبّلته على خده. ثم وضع سلمان القطع النقدية الثلاث في راحة يده اليسرى، وأغلق يده مغمضاً عينيه، وألقى القطع الثلاث من فوق كتفه اليمنى إلى النافورة.

كان الضجيج المنبعث من طرطشة الماء والسائحين الذين يتكلّمون ويضحكون عالياً، لكن تلك الأصوات لم تستطع أن تغطي على صوت بكاء صبي صغير يقف في مكان قريب، تحاول أمّه أن

تهدئه بلطف، بينما انهمك الأب المسكين في تهدئة ابنتهما الصغيرة التي أخذت تبكي أيضاً وتشير إلى أخيها. لم يفهم سلمان ماذا تقول، لكن عندما سمع المرأة تكلّم ابنها بالألمانية، سألها عن سبب بكائه، فقالت: «منذ سبعة أيام، ألقى يوناثان قطعة نقود في البركة، لكنه بدأ يشعر بالتعب الآن ولم يعد يحبّ روما ولا العودة إليها، ويريد الآن أن يستعيد قطعة النقود التي رماها».

«يوناثان»، قال سلمان للصبي، «ألا تعرف كيف تُبطل التعويذة؟» فنظر الصبي إلى سلمان وهزّ رأسه نافياً. فقال سلمان، «كانت جدتي تكره روما وعلّمتني حيلة تجعلك لا تعود إليها أبداً. كل ما عليك أن تفعله هو أن تقف ووجهك باتجاه النافورة». فتوقف الصبي عن البكاء. «انظر إلى أوقيانيوس ذي اللحية الواقف هناك، واصرخ، 'أوقيانيوس أنا أكرهك' ثم خذ قطعة نقود بيدك اليمنى وارمها من فوق كتفك اليسرى على المدينة. وسيعمل أوقيانيوس على ألّا تعود إلى روما أبداً».

«صحيح؟» سأله الصبي مفعماً بالأمل.

«بالتأكيد، فلم تعد جدتي إلى روما قط. حتى عندما أرادت أن تعود، لم تستطع. لذلك يجب أن تفكّر في الأمر جيداً. هل تريد ألّا تعود إلى روما أبداً؟» ابتسم الصبي لسلمان، وقال بحدّة، «أبداً، أبداً»، وطلب من أمّه أن تعطيه قطعة نقود. ثم حدّق في أوقيانيوس، وقال: «أنا أكرهك، أنا أكرهك، هل تسمع؟ أنا أكرهك»، وألقى قطعة النقود بيده اليمنى من فوق كتفه اليسرى بعكس اتجاه النافورة والبركة المحيطة بها، فطارت القطعة عالياً في شكل قوس وسقطت فوق الدرج وتدحرجت في الممر الضيق بين النافورة والمحلات التجارية في ساحة دي تريفي.

خطر مرعب وعماء بصيرة

في حوالي الساعة العاشرة، ارتدى سلمان ثيابه ونزل إلى الطابق الأرضي. لم يكن كريم وعايدة في البيت، وتركا له رسالة قصيرة تقول إنهما سيعودان عند الظهيرة. تناول طعام الفطور وحده وهو ينظر من النافذة. عندما رأى الجو مشمساً، قرر أن يخرج ويتمشّى قليلاً. ارتدى بنطاله الأسود، وكنزته الصوفية الحمراء وسترته الجلدية السوداء، ووضع مبلغاً كبيراً في محفظته بالليرة وباليورو، وخرج من البيت.

تجنب سلمان المباني الرسمية والشوارع التي حذّره كريم منها لأنها مزوّدة بكاميرات فيديو، ويعرف جميع المعارضين ذلك. فيكفي أن يسكن ضابط كبير في المخابرات في أحد الشوارع حتى يصبح تحت مراقبة تامة. وصل سلمان إلى الشارع المستقيم الساعة الحادية عشرة تقريباً، ثمّ اتجه غرباً. فقد أراد أن يزور سوق التوابل (البزورية) مرة أخرى، ثم يزور المسجد الأموي الذي كان يزوره ليستريح فيه قليلاً عندما كان طالباً. كان سلمان يشعر بانجذابه إلى الجوامع، في حين اقتصرت مباني الكنائس على أداء الصلاة، لأن أرضية معظم الجوامع مكسوة بسجاجيد جميلة، ويستطيع أي شخص أن يدخل إلى المسجد في غير أوقات الصلاة، مهما كان دينه، ويجلس ويقرأ أو يتأمل متنعماً بهدوء فريد في جماله.

ثم قرر سلمان أن يعود عبر متاهة الشوارع والأزقة الموازية للشارع المستقيم التي يعرفها جيداً والتي لم تكد تتغيّر كما تبيّن له بعد أن مشى فيها مرات عديدة قبل أربعين سنة، لكنه لم يمش كلّ هذه المسافة في زيارته هذه.

عندما وصل إلى سوق البزورية، رأى العديد من المحلات

القديمة التي يعرفها منذ طفولته. لكن الفرق الوحيد بينها في الماضي والآن هو أن الأبناء - وأحياناً الأحفاد - يقفون فيها، يبيعون التوابل والبهارات كما كان يفعل آباؤهم وأجدادهم. ومنذ أن كان طفلاً، لم يكن سلمان يحبّ رائحتها الشهية فحسب، وإنما أيضاً ألوانها الزاهية والبراقة وتنوعها الثري التي تأتي من جميع أنحاء العالم. عندما وصل إلى السوق، بدأ يسير بخطوات بطيئة، ليقرأ أسماء البضائع المعروضة للبيع. لكنه سرعان ما لاحظ أنه لا يوجد شيء جديد يمكن اكتشافه. وقال في نفسه إن مدينة حلب أهمّ من دمشق في تجارته بأنواع التوابل والبهارات مع إيطاليا. فالعلاقات التجارية بين حلب والهند والدول الأخرى المصدرة للتوابل راسخة ومستقرة ويمكن الاعتماد عليها، ونوعيتها أفضل بكثير. وكان شعاره الدائم أن الشخص الذي يقلّل من البهارات يندم عند الأكل. تبادل بعض الأحاديث مع البائعين، ثم شعر برغبة في أن يحتسي كوب قهوة قوية.

دخل إلى مقهى شعبي، بسيط جداً في داخله، ومعتم قليلاً. جلس إلى طاولة صغيرة بجانب النافذة الكبيرة المطلّة على الشارع وخلع نظارته الشمسية. في تلك اللحظة، اكتشف ذلك الشخص الذي رآه عدة مرات في طريقه وهو يتتبع خطاه. رجل مكتنز في الأربعينات من عمره، يحشر جسده الضخم داخل بدلة صغيرة. رآه واقفاً على الرصيف قبالة المقهى، متظاهراً باللامبالاة ويتكلّم في هاتفه الجوال. لكن نظرة حادة وفاحصة واحدة ألقاها على المقهى كشفت عن حقيقة هويته. قرع جرس إنذار في رأس سلمان. نهض واقفاً، وكاد يوقع النادل الذي جلب له القهوة، وسأله، «هل يوجد باب خلفي للمقهى؟»

فقال النادل، «لا، لماذا؟»

نظر سلمان مرة أخرى إلى الرجل الذي يرتدي بدلة ضيّقة لا تلائمه، والذي بدأ يسير باتجاه المقهى. قفز سلمان من الباب وأطلق ساقيه للريح. لم يتمكن الرجل من الجري بسرعة، فاستطاع سلمان أن يطيل المسافة بينهما بسرعة. كان الشارع يعجّ بالحركة، مكتظاً بسائقي الدراجات العادية والنارية والسائحين والمتسوقين وسيارات الأجرة القديمة. ظنّ سلمان أنه أفلت من الشخص الذي يطارده عندما رأى رجلاً آخر ذا جسم رياضي يجري من الجهة المعاكسة باتجاهه وهاتفه الخلوي ملصق على أذنه.

أدرك سلمان أنه واقع بين خطرين، وأن حظه بالنجاة أكبر بقليل لو استدار وركض باتجاه ملاحقه البدين. استدار سلمان إلى الوراء وجرى عائداً باتجاه الرجل الذي توقّف فجأة، وفتح ذراعيه، وصاح، «توقف، عارف صفدي، سأطلق النار عليك». امتقع وجهه فجأة. فدفع سلمان الرجل جانباً بكل ما أوتي من قوة وجرى في زقاق خلفي. تعثّر الرجل ووقع على الأرض وطار هاتفه الخلوي من يده.

«عارف صفدي»، تردد صدى صيحة الرجل وراءه.

كان الزقاق الذي ينعطف شرقاً خالياً من المارة. أبطأ سلمان خطاه قليلاً كي لا يلفت إليه مزيداً من الانتباه، وسار يتخفّى في الظلّ الضيّق للبيوت. لكنه فقد القدرة على التمييز بين الاتجاهات، وخيّل إليه أنه سمع أصواتاً، ثم حلّ الصمت. وكان كلّما وصل إلى تقاطع طرق، سلك الزقاق الأضيق، الأكثر عتمة. ثم وقف أخيراً عند تقاطع زقاقين ليلتقط أنفاسه ويهدأ قليلاً. ظن أنه أفلت من ملاحقيه، لكنه رآهما فجأة ورأياه أيضاً، لكنهما كانا بعيدين عنه.

بدأ سلمان يجري بكل ما أوتي من قوة. سمع من بعيد صوت الرجلين يصرخان خلفه. عندما رأى فجأة زقاقاً ضيقاً إلى جانبه، انسلّ في الزقاق الذي لا يزيد عرضه على مترين. مرّ من أمام امرأة

عجوز تجلس على كرسي أمام باب بيتها. عندما لاحظ أن الزقاق مسدود، شتم ولعن الزقاق وسوء حظه.

عندما سمعته المرأة العجوز التي بدت له أرملة من ثيابها السود، اعتدلت في جلستها.

«ماذا في الأمر، يا ولدي؟» سألته ومدّت يديها كأنها تريد أن تلمسه. أدرك سلمان أنها عمياء، وأجابها لاهثاً: «أنهكتني الملاحقة، لا أستطيع بعد أن أخطو خطوة أخرى، لقد هلكت». فدفعت المرأة الباب الموارب، وهمست، «ادخل»، ثم عادت وجلست على كرسيها.

قفز سلمان إلى داخل البيت وأغلق الباب وراءه بسرعة من الداخل. وجد نفسه واقفاً في باحة بيت صغيرة، ورأى امرأة صبيّة متشحة بالسواد أيضاً تجلس إلى طاولة تقشّر حبات بطاطا. عندما رأت سلمان توقفت. وضع سلمان إصبعه على شفتيه. ثم جرت فتاة صغيرة جميلة واختبأت وراء أمّها، لكنها راحت تختلس النظر إليه بقلق.

ثمّ سمع سلمان وقع خطوات مسرعة. «إنه زقاق مسدود»، صاح أحدهم لاهثاً. «هل رأيتِ رجلاً أصلع؟ في الستينات من عمره؟» سأل أحد مطارديه المرأة فأجابته «نعم». كاد سلمان يتهاوى من الخوف وراء الباب. «أين هو يا جدتي؟» عاد وسألها الرجل وهو يمخط في منديل، فأجابته المرأة ضاحكة بصوت عال، «خبأته بين ساقيّ».

فصاح الرجل الآخر، «إنها عمياء، انظر إليها»، وأضاف الرجل الضخم بغضب، «وتتصرّف كما لو أننا نلعب»، وغادرا.

خائر القوى، لكنه شعر بالارتياح، خطا سلمان بضع خطوات متعثرة واستند إلى الحائط. مرّت لحظة طويلة، ثم فتحت المرأة العجوز الباب ودخلت إلى البيت وأغلقت الباب وراءها.

«هل أنت جائع يا ولدي؟» سألته، وتلمّست طريقها إلى باحة البيت.

«لا، شكراً، لكن أريد كوباً من الماء». قال سلمان وتبع المرأة العمياء على ساقين مرتعشتين. «فريدة، أحضري لضيفنا ماء عذباً، واصنعي لنا قهوة من فضلك»، قالت للأمّ الشابة، ثم أضافت: «ادخل إلى غرفة الجلوس وخذ معك ليلى. سآتي في الحال»، لكن ليلى الخجولة نظرت إلى سلمان بريبة.

«من هي حبيبة جدّتها؟» قالت المرأة العجوز، فأجابتها الطفلة، «ليلى».

«ومن سيساعد جدتك على الذهاب إلى غرفة الجلوس؟» فركضت ليلى، وأمسكت المرأة الضريرة بيدها، ونظرت إلى سلمان بشيء من الغضب، وقادت جدّتها إلى غرفة الجلوس الدافئة التي تعبق برائحة قرفة جميلة.

«ما الذي يريده هؤلاء المجرمون منك؟» سألته المرأة العجوز. وقفت حفيدتها بجانبها ممسكة بيدها. «اختلط عليهم الأمر، وظنّوا أنني شخص يُدعى عارف صفدي أو شيئاً من هذا القبيل، لكن اسمي حبيب شاهين ولم أرتكب أي جريمة».

«كما حدث لأصغر أبنائي سعيد عندما عاد من السعودية حيث كان يعمل مع ابني الآخر. اشتاق لزوجته وابنته الصغيرة. حدث ذلك منذ سنتين. كانت ليلى لا تزال في الرابعة. قالوا إنه إرهابي خطير. مات تحت التعذيب في المطار، وقالوا إن قدمه زلقت ووقع على رأسه على حافة المنضدة. . . ليعاقبهم اللّه».

شرب سلمان القهوة.

ثم أخبر المرأة العجوز وكنّتها بأنه يعيش في كندا، وأنه جاء

لزيارة البلد، ويقيم حالياً في فندق جيد في الحيّ المسيحي. بدافع الفضول، سألته الصبيّة عن كندا، فأجابها سلمان بهدوء مما تعلّمه مؤخراً عن كندا. وحكى لهما قصصاً عن السنوات الأولى التي أمضاها خارج سوريا وسافر من هايدلبرغ إلى كيبك. وألحّت عليه المرأتان بأن يمكث في بيتهما حتى المغرب، ثم يعود إلى الفندق. وفي المساء، أعدّتا وجبة خفيفة من البطاطا المشوية والبصل والبيض المخفوق.

بينما كانوا يتناولون الطعام، ضحك سلمان فجأة، وقال: «أرجو ألّا تظنان أنني مجنون. فقد تذكّرت أفلاماً مصرية من الخمسينات والستينات، تجري فيها مطاردات، وعندما تصبح المطاردة مثيرة بين البوليس والمشتبه به، يقطع المخرج المشهد ويظهر الهارب فجأة في ملهى ليلي أو في عرس ترقص فيه راقصة شرقية، فتضيع عشر دقائق أخرى من الفيلم».

فقالت المرأة العجوز وهي تضحك، «لو قلت لي إنك تريد أن ترى ذلك، لهززت وركيَّ أمام الشخصين اللذين يطاردانك».

عندما غربت الشمس، نهض سلمان واقفاً ليغادر، فقالت له الأرملة الشابة، «أرجو أن تنتظر قليلاً»، وأحضرت له معطفاً غامقاً بدا جديداً.

قالت له: «الجو بارد في الخارج ولن يعرفك أحد بهذا المعطف»، وعندما أضافت، «ارتداه سعيد مرة واحدة فقط»، تأثّر سلمان كثيراً، وأخرج محفظته وأفرغ كلّ ما فيها على الطاولة الصغيرة. كان فيها أكثر من ألف يورو وآلاف الليرات السورية، وقال لهما: «أرجو أن تقبلا هذه هدية مني. يجب أن تحصل ليلى على كل ما تحتاج إليه، وعلى الشوكولاتة التي تريدها. قولا لها إنها من العم حبيب الذي أنقذت جدّتك حياته».

«شوكولاتة . . .» قالت ليلى بدهشة، وابتسمت. أعطى سلمان النقود إلى الصبيّة، وعانق العجوز العمياء، وغادر.

كلمات للتمويه

هطلت زخات من المطر في تلك الليلة. عندما فتح سلمان عينيه في صباح اليوم التالي، رأى الشمس مشرقة فوق المدينة، والأبخرة تتصاعد من أسطح المنازل الطينية مثل أرغفة خبز مرقوق ضخمة طازجة خرجت لتوها من الفرن.

تناول سلمان طعام الفطور مع كريم. وذهبت عايدة إلى بيت صديقتها أمل. سأله كريم ماذا سيفعل اليوم، فردّ سلمان بأنه يريد أن يرتاح قليلاً ويقرأ. عندما ابتسم كريم كما لو أنه لم يصدّق أذنيه، قال له سلمان إنه يخشى أن يغادر البيت بعد ما حدث له البارحة.

«لا يا صديقي، عليك أن تخرج. تنكّر جيداً واذهب بلا خوف. لم ترتكب أي خطأ البارحة. لقد هزمتهم. إن ذلك أشبه بقيادة السيارة. فإذا وقع لك حادث، فهذا لا يعني أن تتوقف عن قيادة السيارة».

وافق سلمان مكرهاً، وقال: «حسناً، سأذهب إذاً إلى سوق المدينة، فربما أجد شيئاً جميلاً لباولو وستيلا». شجّعه كريم على ذلك، لكنه لم يذهب معه لأنه سيصلح بعض الأشياء في البيت.

أراد سلمان أن يبحث عن هدية لعايدة وكريم يعرب من خلالها عن امتنانه لهما. كان الجو دافئاً خارج البيت، فلم يرتد معطفه. سار في الشارع المستقيم باتجاه سوق الحميدية الذي تُعرَض فيه أشياء كثيرة يمكنه أن يختار منها ما يراه مناسباً.

كان يتوقف بين الحين والآخر قليلاً ليستمع إلى الأصوات في

السوق، ولاحظ سلمان، الآن أكثر من ذي قبل، أن الناس يسيطر عليهم خوف رهيب، فهم يتكلّمون كثيراً وبصوت مرتفع، لكنه أدرك أن كلّ ما يقولونه مجرد تمويه لما لا يستطيعون قوله جهراً. فلا يُسمح للناس أن يعبّروا بصراحة عمّا يجيش في خاطرهم. تساءل سلمان لماذا لم يلاحظ ذلك إلّا اليوم. هل جعل الرعب الذي اعتراه البارحة أذنيه مرهفتين؟

سخافة العبودية

عندما سار أمام المحلات، لاحظ سلمان أن أشياء هزلية تنجم أحياناً عن تمجيد الطغاة، ومهما كانت المنتجات التي يبيعونها أو يصنعونها أو يصلحونها، يعلّق جميع أصحاب المحلات صوراً للثالوث الأسدي - الأسد الأب يتوسّط ابنيه. فقد علّق بائع سمك لافتة كتب عليها، «نبيع السمك الطازج فقط»، تحتها الصور الثلاث، وتوجد تحتها مباشرة رفوف مليئة بصناديق السمك. أما الإسكافي فقد ألصق الصور الثلاث تحت لوح خشبي كُتب عليه بأحرف كبيرة «نصلّح جميع أنواع الأحذية».

مكتبات، نوادٍ، سدود، ومطارات، ساحات وأحياء بكاملها. كلّها تحمل اسم عائلة الرئيس. دُهش سلمان مع أنه لم يشأ أن يفكّر في السياسة مرة أخرى، لكن هذه العائلة الديكتاتورية جعلته يشعر بالرغبة في أن يثور على هذا الاستعباد الذي يُرغم عشرين مليون سوري على البقاء مكممي الأفواه، يعيشون ويتنفسون تحت بطانية ثقيلة ومثقلة بالقمع. ومع ذلك، فهم يتبادلون النكات حول ذلك، لأن النظام الديكتاتوري ترك لهم هذا المنفذ لينفّسوا عما يجيش في نفوسهم. فتراهم يضحكون على أكثر البرامج الحوارية سخافة، وعلى

أرخص الأفلام، ويذرفون الدموع عندما يشاهدون تلك المسلسلات التلفزيونية السخيفة. وقال في نفسه، ليس في إيطاليا وحدها. فكلّ بلد يملك مافيا، لكن المافيا السورية تملك البلد بأكمله.

دُهش سلمان من كثرة الأندية ومراكز كمال الأجسام واليوغا التي تتباهى بأنها حاصلة على شهادات حصرية من أوروبا أو أمريكا. وأُغرق السوق بالسلع الصينية المستوردة الرخيصة التي بدأت تحلّ محل المصنوعات اليدوية التقليدية السورية. وهو نفس ما لاحظه في روما. تساءل في روما عدة مرات كيف يمكن لآلاف الصينيين أن يعملوا ويقيموا في إيطاليا ويحتلوا ثلاثة أرباع الأسواق الرخيصة وهم بذلك يخربون الاقتصاد الإيطالي. فأحبّ أن يثير هذا الموضوع مع التجار آملاً أن يجد تفسيراً لذلك، لكن معظمهم رفضوا الإجابة عن سؤاله كأنهم أصيبوا بالصمم. وردّ عليه تاجر واحد فقط بنزق، وقال: «هذا الأمر لا يهمنا يا سيّد. طاب يومك» وأدار له ظهره.

فجأة خطرت بباله فكرة مرعبة: هل يبني الصينيون المغرقون في القدم إمبريالية من نوع جديد. إمبريالية تهيمن على العالم من دون أن تطلق رصاصة واحدة. استعمار جديد من دون جنود. وتأكد في قرارة نفسه أنهم يحاولون بناء إمبراطورية أكبر من الإمبراطوريات اليونانية والرومانية والعربية والعثمانية معاً، تمتد من القطب الشمالي حتى القطب الجنوبي. ويقوم الصينيون ببناء هذه الإمبراطورية بأساليب في غاية الذكاء. فهم يدرسون كل بلد، ويدخلون إليه عبر ثغرات نظامه. وبما أن الفساد الأخلاقي والمالي مستشر إلى أبعد الحدود في إيطاليا والبلدان العربية، فقد اشترى الصينيون ذمم بعض الرجال من ذوي النفوذ بمبالغ كبيرة الذين تركوهم يخربون البلد كما يشاؤون، يغرقونها بمنتجاتهم الرخيصة، ويدمرون جميع صناعاتها المحلية العريقة.

ولاحظ سلمان أنه لا تزال على جدران بعض المباني ملصقات - أو ما تبقّى منها - تدعو الناس إلى محاربة أمريكا وإسرائيل فضحك ساخراً.

تطلع سلمان حوله وأيقن أن دمشق لا تُظهر ما ربحته من التقدم، وإنما تُظهر ما خسرته.

قرر سلمان أن يبحث عن حلية من الفضة، لأن عايدة لا ترتدي مجوهرات من الذهب. لفتت انتباهه حلية جميلة معروضة في واجهة أحد محلات الصاغة، وعندما سأل سلمان صاحب المحل هل صنعها بنفسه، ضحك الرجل البدين، وقال: «لم يعد الأمر يستحق ذلك»، وأضاف، «اليمنيون يصنعونها بنصف الثمن. انظر إلى هذه الحلية الجميلة»، وأشار إلى حزام فضي مصنوع من أجود أنواع خيوط الفضة مخرّم بزخارف عربية جميلة، ومعه دبوس زينة وخلخال. طلب سلمان من صاحب المحل أن يضعها له في علبة موزاييك خشبية جميلة.

نظر إليه صاحب المحل بدهشة، وقال: «إنك تتكلّم باللهجة الدمشقية لكنك لم تساومني على السعر». في تلك اللحظة، أدرك سلمان أنه وضع المبلغ الذي طلبه صاحب المحل على الطاولة من دون أي مساومة، وهو أمر غريب بالنسبة لأي دمشقي. فقال سلمان محرجاً، «أقيم في كندا منذ سنوات، والناس هناك غير معتادين على المساومة».

أصرّ صاحب المحل على سلمان بلطف أن يشاركه احتساء القهوة، فأرسل مساعده ليجلب فنجانيْ قهوة من المقهى المجاور. جلسا تحت صورة الرئيس. كان صاحب المحل رجلاً خفيف الظل، ذكياً، ومحنكاً، لكن الحديث معه دار في دوائر مهذبة. فبعد أربعين سنة من الحكم الديكتاتوري، وبعد أن قبله العالم كلّه له، انهارت

جميع أنواع المقاومة. فابتلع السوريون هزيمتهم وتعلّموا فن المراوغة.

بنى النظام حوله جداراً عالياً من طاعة العشائر له، أعلى من الأهرامات. فمن أراد النجاة بنفسه، عليه أن يقبل النظام ويدور ويلفّ حول ذلك الجدار. وسرعان ما استوعب الناس حدودهم، منذ أول صفعة تلقوها في المدرسة إن لم يكن قبل ذلك. فقبل أن تتشكّل فكرة بالكامل، يتفادى المرء العقبة غير المرئية التي قد يواجهها.

لاحظ سلمان أن الأدوات التي يصلح بها كريم الأعطال في البيت رخيصة وذات نوعية سيئة. فبحث طويلاً حتى عثر على صندوق كبير فيه عدّة أدوات كاملة تناسب شخصاً حرفياً.

تهوّر صبياني

في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، استيقظ سلمان. ظلّ مؤرقاً طوال الليل، وأمضى معظم الليلة وهو يقرأ. وظل يتساءل إن كان سيحصل على جواز السفر اليوم؟ أم أن أخا كريم غير الشقيق سيتراجع عن وعده في آخر لحظة وتفشل الخطة برمّتها؟ ويعود إلى نقطة الصفر.

توجه إلى النافذة الكبيرة ليستمتع بمشهد باحة البيت الهادئة. نظر إلى السماء الزرقاء وتمنّى أن تكون ستيلا بجانبه. خرج كريم من المطبخ وبيده صينية عليها ركوة قهوة وفنجانان صغيران. وكما لو أنه شعر بنظرة سلمان، نظر إليه وابتسم وقال: «انزل»، وعاد بسرعة إلى المطبخ ليحضر فنجاناً ثالثاً.

كانت عايدة وكريم قد ارتديا ثيابهما.

«ألم تنم جيداً أيضاً؟»

فقال سلمان: «لا، كما تعرف، فإن اليوم يوم خاص». شربوا ثلاثتهم القهوة بصمت، كما لو أن أحداً منهم لم يشأ أن يتطفّل على هموم الآخر.

«يجب أن أكون في قاعة استقبال الفندق في الساعة الثامنة»، قال كريم بعد قليل ليكسر الصمت، وأضاف، «اتّصل بي حسن الآن وقال إنه وصل في السابعة. لا بدّ أنه استيقظ في الساعة الخامسة في بيروت. قال إن لديه موعداً في الساعة التاسعة. لذلك، يجب أن أغادر بسرعة. وسترافقني عايدة لأن حسن يحبّها، وبذلك نسلّم عليه معاً».

عانقهما سلمان وعاد إلى غرفته.

عندما أصبح وحده في البيت، أعدّ لنفسه قليلاً من الشاي، وقال لنفسه بصوت مسموع، «ستيلا، هل تسمعينني؟ سينتهي كلّ هذا العذاب قريباً». لكن ماذا لو لم تسر الأمور على ما يرام؟ لأول مرة في حياته فكّر في الانتحار، لكنه سرعان ما أقنع نفسه بألّا يدع إلياس ينتصر عليه - وألّا يخيّب أمل ستيلا.

بدأ يرشف الشاي ببطء ويستمع إلى الأخبار. انفجار أمام السفارة الفرنسية في مالي، انتشار فضيحة الديوكسين في أوروبا، تهديد بتفجير قنبلة على متن طائرة تابعة للخطوط الجوية التركية. ولفت انتباهه التحقيق في أسباب تفجير كنيسة القديسين مرقس وبطرس في الإسكندرية في مصر. أكثر من عشرين قتيلاً وثمانين جريحاً... أغلق سلمان الراديو.

كان متوتراً جداً، فلم يستطع أن يقرأ شيئاً أو يستمع إلى الموسيقى. أخذ يذرع حديقة البيت كأنه حيوان محبوس في قفص. عندما رنّ الهاتف، لم يعرف إلى متى استمر شعوره بالخوف. رفع السماعة، وكما اتفقا، لم يقل سلمان كلمة واحدة. «أخي يسلّم

عليك»، صاح كريم في الهاتف، وأغلقه فوراً. فهم سلمان. كاد يصرخ من الفرح.

قبل العاشرة بقليل، عادت عايدة مع كريم. كانا قد استقلّا سيارة أجرة وأحضرا خبزاً طازجاً ليتناولوا الفطور معاً احتفاء بهذه المناسبة.

«ها هو جواز السفر مع فيزا إلى إيطاليا وقسيمة مغادرة سوريا. انظر إلى الصورة»، قال له كريم رافعاً جواز السفر اللبناني أمامه.

«يجب أن يكون الشعر أكثر بياضاً بقليل. الشارب جيد. يعلو الشيب شارب حسن أيضاً»، قالت عايدة.

لم يعرف سلمان فيما بعد من أين أتته هذه الفكرة الجنونية. ربما من حماسته لأنه حصل على جواز السفر، أو ربما لرغبته في القيام باختبار أخير، أم بسبب اشتياقه ليودّع أمّه؟ قال كريم إنه سيذهب مع عايدة لزيارة صديقة لهما، وفي طريقهما سيشتريان تذكرة طائرة إلى روما من إحدى وكالات السفر في حيّ الصالحية. فقال لهما سلمان، «أرجو ألّا تشتريا البطاقة من شركة طيران عربية إذا أمكن»، وأعطاهما ثمن التذكرة، واتفقوا على أن يلتقوا في الخامسة ليتناولوا العشاء خارج البيت.

ارتدى سلمان ثيابه. بدلة رمادية فاتحة اللون، وكنزة صوفية رمادية داكنة بياقة مدوّرة، ووشاحاً أبيض، ومعطفاً رمادياً غامقاً، الهدية التي قدّمتها له المرأة التي أنقذته. بدا في غاية الأناقة. اشترى جريدة يومية من أحد الأكشاك وسار من باب توما باتجاه شارع الأخطل، شمال الحيّ المسيحي. اتّجه نحو حديقة جورج خوري وسار في الأزقة والشوارع الهادئة. استغرق وقتاً أقل مما كان يظن. فقد خيّل إليه أنه سيمشي ساعة كاملة لكنه وصل بعد نصف ساعة، مع أنه توقف وتناول فنجان قهوة آخر في مقهى «قصر البلّور».

كان يوماً بارداً وجافاً، والشمس تداعب البيوت والناس بيدها الدافئة. وشعر سكان دمشق بالسعادة لانتهاء الظلام والرطوبة، وخرجوا وجلسوا أمام بيوتهم ومحلاتهم. وصل سلمان إلى الحديقة في الساعة الثالثة والربع وجلس على مقعد بجانب رجل وامرأة غادرا الحديقة بعد قليل. بدأ سلمان يقرأ الصحيفة، أو أنه تظاهر بأنه يقرأ.

وصلت أمّه بعد الساعة الثالثة بقليل. كانت تدفع والده على كرسيه المتحرك، والخالة تقلا تسير بجانبها. بدت المرأتان في صحة جيدة. كانوا جميعاً يرتدون ثياباً صيفية، وكانت البطانية التي تغطي ساقيْ أبيه الشيء الوحيد الذي يذكّر بأن الشتاء لم ينته بعد.

مرت المرأتان أمامه لكنهما لم تعرفاه. كانتا منهمكتين في الحديث عن البؤس في المستشفيات السورية. سعل سلمان بصوت منخفض. كان متأكداً من أن والديه ملاحقان، وبالفعل رأى رجلين يتبعانهما من بعيد. في تلك اللحظة، تبادلت الشقيقتان مكانيهما، وبدأت الخالة تقلا تدفع الكرسي المتحرك. بدا وكأن أمّه اختلست نظرة نحوه، لكنها ربما كانت تنظر إلى شيء آخر.

توقفوا عند شجرة السنديان العتيقة، كعادتهم، ثم جلست الأختان على المقعد تحت الشجرة. ثم نهضت أمّ سلمان فجأة وأزاحت البطانية عن ساقيْ أبيه إلى الجانب لتسقط أشعة الشمس عليهما. عندما عادت وجلست أعاد والده البطانية إلى وضعها الأول وغطى ساقيه. ابتسم سلمان. طفلان عنيدان، تمتم لنفسه. لم يلاحظ أيّ منهم وجوده. أغمضت صوفيا عينيها، متظاهرة بأنها نائمة. بعد حوالي خمس عشرة دقيقة، غادر سلمان الحديقة.

تأكد الآن أن تنكّره رائع.

مناجاة أمّ

القلب يرى بوضوح تام
وأما العينان فهما غير قادرتين على
تمييز جوهر الأمور.

أنطوان دو سانت إيكزوبيري
مؤلف كتاب الأمير الصغير

دمشق، *نفس النهار*، ٥ *كانون الثاني*، ٢٠١١

كم من الألم والمعاناة على الأمهات تحمّلها.

أردت اليوم أن أُخرج يوسف من البيت ليتنشق هواء نقياً. كان يحبّ أن آخذه كل يوم إلى الحديقة بعد أن يصحو من قيلولته ويشرب قهوته. واعتادت أختي تقلا، هذه الروح المخلصة والمتفانية، على زيارتنا كلّ يوم لتشاركنا القهوة وتساعدني في كل ما أحتاج إليه ولتعود إلى بيتها في المساء. لكنها لم تأت اليوم، ولم يكن الاتصال بها بالهاتف ممكناً أيضاً. شعر زوجي يوسف بالقلق. كان يستمتع بالهواء النقي وأشعة الشمس كل يوم. عندما بدأ يتذمر طلبت من جارتنا نعيمة التي تسكن في الشقة المقابلة لشقتنا في الجهة الأخرى من المصعد، أن تقول لتقلا إذا جاءت إننا ذهبنا إلى حديقة جورج خوري كعادتنا في كل يوم.

عندما ألقى علينا البقّال عجمي التحية في الشارع سألني عن صحتي وصحة يوسف، فرفعت عينيَّ إلى السماء كأنني أبتهل إلى اللّه، فهزّ رأسه وفهم قصدي. كيف تشعر الأمّ عندما يكون ابنها الوحيد البريء مطارداً مثل مجرم؟ كان عجمي في بداية السبعينات من عمره، عنده ثلاثة أبناء، أستاذان جامعيان في أمريكا لا يرغبان في العودة إلى البلد، أما ابنه الثالث، أصغرهم سنّاً، فقد كان مدمناً على الكحول، ولم يكن قادراً على إدارة البقالية.

فجأة، سألني يوسف: «أين تقلا؟ أصبحت الساعة الثالثة».

«اللّه يعلم أين هي»، أجبته، راجية ألّا تكون أختي قد أصيبت بمكروه، لأن تقلا أكبر سند وعون لي منذ طفولتنا، ولا أستطيع أن أتحمل الحياة من دونها ومن دون ابنها طارق وابنتها ماريا.

لا تستغرق المسافة إلى حديقة جورج خوري أكثر من خمس دقائق، وعندما انعطفنا إلى شارع ابن بيطار، شاهدنا تقلا قادمة نحونا، فابتسم يوسف لها، وقال: «ظننت أنك لن تأتي اليوم».

«ماذا تقصد أنني لن آتي؟» أجابته تقلا، مبتهجة كعادتها، وقبّلت يوسف أولاً، ثم قبّلتني، وأضافت، «يجب أن آتي لزيارة صهري وزوجته الجميلة كلّ يوم، إلّا إذا لم أكن على ما يرام».

أخبرتنا تقلا بعدها أن منى، كنّتها، شعرت بآلام شديدة الليلة الماضية، فنقلاها إلى المستشفى بعد الغداء. أظن أن سبب ذلك الزائدة الدودية. بقي طارق معها.

«في أي مستشفى؟» سألها يوسف، قلقاً.

فقالت تقلا، «هنا في المستشفى الفرنسي».

فقال يوسف، «جيد. على الأقل ما زالوا يعاملونك هناك كإنسان.. أما المستشفيات الأخرى فقد تحوّلت إلى مسالخ.

سمعت إنهم يبيعون الأعضاء للأثرياء وخاصة الخليجيين الذين أتلفوا أكبادهم من كثرة الشراب».

تبع رجلان تقلا من بعيد، وأشارت لي بذلك بصمت، تكفيني تلويحة من يدها لأفهم، بينما تبعنا رجلان آخران منذ أن خرجنا من البيت. حتى عجمي العجوز لاحظ هذين الرجلين وحذّرني بإيماءة برأسه. تظاهر الرجال بأنهم يتمشّون. بينما تحدثنا أنا ويوسف مع البقّال كأن كلّ شيء على ما يرام.

في أحد الأيام، حذّرنا طارق من جديد بأن المخابرات قد تستخدم ميكروفونات موجّهة يستطيعون من خلالها أن يسمعوا كل كلمة تقال في أي محادثة. وإذا عرفوا أنه تم اكتشافهم، فإنهم يلجأون إلى أساليب أكثر دهاء. ونصحنا بأن نتظاهر كأننا مصابان بالخرف، ولا نرى ولا نسمع ولا نفهم جيداً.

حكى لي يوسف البارحة أن المخابرات ترسل عمداً مجموعتين، تتصرّف إحداهما بشكل غبي لتجذب الانتباه إليها لكي تتمكن المجموعة الثانية من ملاحقتهما بدقة ومن دون إزعاج.

لم تتوقف المخابرات عن مراقبتنا والدخول إلى شقتنا بعد أن نخرج وهو ما توقعه طارق. فقد رأتهم جارتنا نعيمة، لكنها لم تجرؤ على أن تسألهم عمّا يبحثون. عندما أحسّت بحركة، راقبت شقتنا من ثقب باب شقتها ورأت رجلاً يدخل إلى شقتنا ووقف الرجل الآخر أمام الباب المفتوح ليحمي الرجل الآخر الذي دخل إلى الشقة.

المضحك في الأمر أنني لم ألاحظ في كل مرة حدوث أيّ تغيير في الشقة، مهما كان صغيراً. فقد نصبت لهم فخاخاً، ووضعت أشياء لكي تسقط إذا فتح أحدهم درجاً. حتى أنني ألصقت شعرات فوق إطار الأبواب، كما رأيت في بعض أفلام الجاسوسية، لكن عندما عدت كان كل شيء على حاله كأن أحداً لم يلمسها.

لكن يوسف كان يكتشف أحياناً بحاسة شمّه القوية أنهم دخلوا إلى بيتنا لأن لدى أحد الذين يدخلون رائحة جسم قوية. وعندما كان يحدس ذلك، ينظر إليّ ويضع يده على أنفه، فأفهم على الفور أنهم دخلوا إلى الشقة. وفي إحدى المرات، كتب لي على قصاصة ورق، «عاد صاحب الرائحة مرة أخرى». ربما تعرف المخابرات أننا عرفنا بمجيئهم، لكننا ظللنا نتصرّف كأننا لا نعرف شيئاً. هززت رأسي لأُبعد الأفكار المزعجة عنه، وفي تلك اللحظة، لمحت حبيب قلبي سلمان.

لوهلة، ظنّنت أني أهلوس. تسارعت دقات قلبي. سلمان، إنه سلمان، قلت لنفسي - لكنه بدا مختلفاً الآن. ماذا يفعل هنا؟ لماذا ينظر إليَّ بوجه يخلو من أي تعابير؟ هل هو فخ؟ هل أرسلوا شخصاً يشبهه ليخدعونا؟ لم تلاحظ تقلا شيئاً على الإطلاق، لكني كنت متيقنة مما رأيته. إنه سلمان. لا يملك أحد عينين مثل هاتين العينين إلّا سلمان. أحسست أنني سأموت.

لم يره يوسف لأنه حسير النظر. فهو لا يطيق نظاراته ويستخدمها للقراءة فقط. لكن من المؤكد أن هذا هو سلمان على الرغم من تغيير هيئته. يجلس هناك على مقعد مشمس كما يفعل الكثير من الأشخاص في ذلك اليوم، يقرأ صحيفة. لكنه ظلّ ينظر إليّ. في رأسه صلعة صغيرة وشارب ويضع نظارات. يا له من تمويه ذكي، لكن ذلك لم يخدعني. سلمان شاب أنيق ووسيم... نعم، أعرف أن القرد في عين أمّه غزال. لكن النساء كنّ يُفتنّ به على الدوام.

لاحظت تقلا أن ثمة شيئاً يحدث لي. فهي امرأة قوية الملاحظة بالفطرة. لا أزال أتذكّر، كما لو كان ذلك البارحة، كيف كانت تقلا تحدّق في عينيّ ولم تتجاوز ثلاثة أسابيع من عمرها، كأنها تريد أن تسألني «من أنتِ؟ وماذا تريدين مني؟» كنت آنذاك في الخامسة من

عمري، وأحببتها حالاً. كانت تقلا لعبتي الجميلة. أجبت نظراتها الذكية رداً على سؤالها: «أنا صوفيا أختك»، وظننت آنذاك أن تقلا هزّت رأسها راضية وموافقة. كان الجميع يحبون تقلا لأنها تضحك كثيراً ولا تتوقف عن الثرثرة ولم تبلغ السنة من عمرها.

سألتني تقلا: «صوفيا، ما بك؟ هل حدث شيء؟» لكنني لم أجرؤ على الردّ عليها. فقد رأيت رجلاً يجلس في حافلة فولكس فاغن ينظر إلينا ويشير إلى شيء لم أعرف ما هو. فقلت: «لا شيء، لا شيء». كلمة واحدة، خطوة خاطئة واحدة، وسيلقون القبض على سلمان أو يقتلونه في مكانه. كنت أعرف تماماً أن إلياس وأعوانه في المخابرات غاضبون لأنهم لم يتمكنوا من إلقاء القبض عليه حتى الآن. وقد أعلمنا طارق بطريقة ذكية بأن سلمان سيهرب. فقد رتّب كريم كل شيء على أكمل وجه. يمكنني الاعتماد على كريم الذي وعدني بأني سأكون أول من يعرف عندما يصبح سلمان في أمان.

عندما مررنا أمام سلمان، سعل قليلاً. سرنا نحو البقعة المفضّلة لدى يوسف بجانب شجرة السنديان القديمة. ومن دون أن أشعر، التفت أليه مرة أخرى. كنت على وشك أن ألعن نفسي لأنني ارتكبت هذه الحماقة، لكن ليس في اليد حيلة، كأن يداً خفيّة أدارت رأسي إليه. فأشحت بوجهي عنه بسرعة. وبدأت أتكلّم مع سلمان في قلبي. لم يلاحظ أحد شيئاً. تأكدت أنه جاء ليودّعنا.

«سلمان، حبيبي سلمان، مع أنك تبدو مختلفاً، فقد عرفتك أمّك. سلمان، يا قلبي، هل تسمعني وأنا أصلّي إلى مريم العذراء أن تحميك؟ عندما كنتَ ثائراً شاباً، قلتَ لي ذات يوم أن أتوقّف عن الصلاة لأمّ لم تستطع حتى أن تساعد ابنها الذي مات على الصليب. كانت حرارتك مرتفعة في ذلك الوقت، وظننت أنك نائم، وإلّا لما صلّيت بصوت مسموع لمريم العذراء. أتذكر كم ضحكنا؟ حتى أن

أباك خرج من الغرفة الأخرى وقال: «سلمان، كنت أظن أن حرارتك مرتفعة؟ ونقلتها الآن إلى أمك أيضاً». قال ذلك بجدية فضحكنا أكثر. وفي صباح اليوم التالي، تحسّنت صحتك وتجادلنا إن لم تكن مريم العذراء هي التي شفتك بعد أن ضحكت معنا وشفتك مكافأة على ذلك. لكنك أصررت على أنك شفيت من البنسلين.

سلمان، لتحمِك مريم العذراء. أرجو أن تظل شفتاي مغلقتين ولا أنبس بكلمة قد تفضح وجودك. إني أغمض عينيّ. هذا لا يعني أنني لا أتمنى أن أراك، فأنا أراك في قلبي في كلّ ثانية منذ أن أنجبتك. لكن قد تكون هذه هي العلامة الوحيدة التي أستطيع أن أعطيك إياها من دون أن أعرّضك للخطر».

بعد خمس عشرة دقيقة، غادر سلمان بخطوات سريعة الحديقة، وتنفست الصعداء. لا أحد يسير هكذا إلّا سلمان. المخابرات ليست ذكية كما تدّعي وتوهم الناس.

دفعت كرسي يوسف وعدت إلى البناية. في المصعد همس لي: «ماذا كان يفعل في الحديقة؟ لتحمِه مريم العذراء وتحفظه». انحنيت إليه وقبّلت عينيه، ووضعت سبابتي على شفتي.

أطلقت تقلا صيحة فرح عندما كتبت لها على قصاصة ورق فور دخولنا المطبخ، «كان سلمان في الحديقة». وضعتُ يدها على فمها لتكبح سيلاً من صيحات الفرح.

الحساسية المميّزة للحمائم
أو الوداع المرير

دمشق، ٦ *كانون الثاني* ٢٠١١

ألدّ أعداء الهارب

عندما كانوا يشربون قهوتهم الصباحية، قال كريم لسلمان: «في الأيام الثلاثة القادمة، حتى يحين موعد مغادرتك في التاسع من الشهر الحالي، أتمنى لو أنني أستطيع أن أحبسك في القبو، لكي لا تقدم على مغامرة خطيرة أخرى بعد أن أصبحنا على أبواب الحرية». مزج كريم الجد بالمزاح، لكن سلمان اعتراه الخوف والقلق.

هدأته عايدة، وقالت: «لقد سار كلّ شيء على ما يرام. دعونا نتطلع إلى الأمام ونأمل أن يتحقق ما نسعى إليه». فعندما كانوا في المطعم الليلة الماضية، انزعج كريم كثيراً عندما أخبرهما سلمان بفخر عن مغامرته وذهابه إلى الحديقة. لأن كريم حذّره كثيراً من الاقتراب من أماكن تواجد والديه. فوعده سلمان بألّا يجازف مرة أخرى من دون أن يستشيره.

كان كريم يراعي كثيراً قانون الضيافة التقليدي - الذي يعتبر الضيف مقدّساً - فابتلع غضبه، لكنه لم يغمض له جفن طوال تلك الليلة وهو يفكّر في ذلك. وقال لعايدة إنه خائف على سلمان وعلى

عايدة وعلى نفسه، لأن سلمان لم يلتزم بوعده وخيّب أمله، وارتكب حماقة وعرّض نفسه للخطر من دون أن يستشيره. وقال إنه يشبه أمّه صوفيا. فعندما يضع فكرة في رأسه، لا يمكن لشيء أن يغيّر رأيه. فماذا لو تعرفت عليه أمّه ولم تقاوم نفسها واقتربت منه؟

مسّدت عايدة رأسه وقبّلته في عينيه. لا يمكنها أن تدرك خطورة ما فعله، ظن كريم، لكنه لم يكن مصيباً لأن عايدة أدركت خطورة ما أقدم عليه سلمان، لكنها حاولت، كما تدربت طوال عمرها، أن تتغلب على مخاوفها. فحاولت إغواء كريم، بأمل أن تنسيها ممارستهما للحبّ معه مخاوفها، لكن كريم لم يستجب لها.

رتّب كريم لقاء مع طارق، ابن خالة سلمان، ليضعا اللمسات الأخيرة على الخطوات النهائية. وانسجم الرجلان مع بعضهما. لكن عندما عاد عند الظهيرة، بدا متجهماً.

عانق سلمان وقبّله على جبينه، وقال له، «تعازيَّ القلبية». تسمّر سلمان في مكانه، ثم أضاف كريم، «لقد توفي والدك رحمه اللّه بالسرطان صباح اليوم في المستشفى».

صاحت عايدة حزناً وصفقت بيديها على شفتيها لتكبت صيحاتها التالية. جلس سلمان على كرسي في المطبخ وبكى بحرقة. أمسك كريم بيدَي سلمان، وقال له، «انتشر السرطان في جسمه منذ شهر أيار، ولم يشأ أن يأخذ العلاج الكيمائي أو أي علاج آخر، واكتفى بالمسكنات فقط. وطلب من صوفيا ألّا تخبرك بذلك كي تستمتع بوقتك هنا ولا تقلق عليه».

«هذا ذنبي أنا» تنهد سلمان بحرقة، «ربما تعرّف عليّ حين رآني ثم أصيب بسكتة قلبية من المفاجأة»، وأجهش في البكاء.

«اعذرني يا صديقي، فأنا لا أريد أن أدافع عنك، لكن ما فعلته كان هدية رائعة قدمتها له. فلا بدّ أن شجاعتك جعلته يشعر بالفخر

بأنك ابنه الشجاع. ربما كان يناديك وكنت تسمعه في قلبك. وأنا أؤكد لك أن الأطباء أخبروا صوفيا وطارق بأن السرطان نهش كل خلايا قلبه ورئتيه».

لم يكن بالإمكان مواساة سلمان. يا لتلك الحياة المنعزلة التي عاشها والده مع زوجة لم تقترن به لأنها أحبّته ومع ابن لم يفهمه قط. تمنّى سلمان أن يعتذر عن الأفكار السخيفة الكثيرة التي يكنّها لأبيه، لكن الأوان فات.

أراد سلمان أن يخرج ويتمشّى قليلاً، لكن كريم أصرّ على مرافقته لأنه خشي أن يرتكب عملاً طائشاً وهو في حالته المضطربة تلك. لكن سلمان أراد أن يخرج وحده وصاح في وجه كريم بأنه ليس طفلاً ويعرف كيف يعتني بنفسه. لكن كريم لم يذعن له، وأجاب: «يجب أن تطرحني أرضاً إذا أردت أن تخرج وحدك. لن أتركك تخرج وحدك من هنا حتى لو كلّفني ذلك حياتي»، وسدّ باب غرفة الجلوس. فحدّق سلمان به غاضباً.

«إنني أكره أن»، قال سلمان بعد قليل بهدوء، «أُهاجم الرجل الشجاع الذي استضافني بكرم لا مثيل له وأنقذ حياتي. لكن أرجوك دعني أذهب وحدي».

لم يتزحزح كريم عن موقفه، ولم يدع سلمان يقترب من الباب. تجمّدت عايدة في مكانها، لأنها تعرف أن انحيازها إلى أيّ منهما، سيزيد الأمر سوءاً.

«عدوّك اللدود ليس إلياس وأجهزة مخابراته أو جيش المخبرين الذين وراءه. وإنما عدوّك اللدود يقبع في داخلك، لأنه يعرفك أكثر من أي عدو آخر وكذلك أكثر من كل أعدائك مجتمعين، وقد يُفسد عليك كلّ خططك للخلاص من جحيم إلياس»، أصرّ كريم، «افعل الآن كما أقول لك».

غاص سلمان في كرسيه ولبث صامتاً لفترة طويلة، ثم وافق أخيراً على أن يرافقه كريم.

تجوّلا في أرجاء المدينة. سارا صامتين في الشارع المستقيم حتى نهايته باتجاه الغرب، ومنه اتّجها نحو شارع الثورة، قبل أن ينعطفا يساراً عند المسجد، واجتازا فندق قناة السويس إلى وسط المدينة وساحة المرجة. سار كريم وراء سلمان، حتى وصلا إلى شارع يوسف العظمة والساحة التي ينتصب فيها تمثال الشهيد يوسف العظمة الذي كان ضابطاً في الجيش العثماني وأول وزير دفاع سوري بعد أن نال البلد حريته.

لكن سرعان ما تبيّن أن تحرير سوريا بقيادة الأمير فيصل ولورنس العرب لم يكن سوى خدعة لئيمة. وعلى الرغم من أن آلاف الشباب ضحوا بحياتهم في ساحات المعارك ضد العثمانيين، فقد قُسّمت البلدان العربية قبل ذلك باتفاقية سايكس- بيكو سرّية (في عام ١٩١٦) بين الفرنسيين والبريطانيين، وأصبحت سوريا ولبنان بموجبها من نصيب فرنسا. فخلعت فرنسا الملك فيصل ثم عيّنته ملكاً على العراق بعد أن قبل جميع شروط فرنسا وبريطانيا. وأرسل الجنرال غورو قواته من بيروت بقيادة الجنرال غوابيه باتجاه دمشق. لكن يوسف العظمة، الكردي السوري الفخور، رفض الاستسلام ودعا الشعب إلى مقاومة الفرنسيين، وخرج معه زهاء ثلاثة آلاف رجل، يغنون ويرقصون، لا يحمل معظمهم أسلحة أكثر من خناجر ونراجيل، لأن الدمشقيين لم يشاركوا في حروب منذ قرون لأن دمشق كانت ولاية عثمانية. وحتى سلاح الفرسان الذين لم يتجاوز عددهم أربعمئة جندي ولديهم بعض الخبرة في القتال، لم يعرفوا ماذا بانتظارهم، لأن أسلحتهم لم تكن تزيد على السيوف والبنادق البدائية.

في ميسلون التي تبعد حوالي خمسة وعشرين كيلومتراً عن دمشق، وجدوا أنفسهم في ٢٤ حزيران ١٩٢٠ بمواجهة الجيش الفرنسي الحديث، المجهز بترسانة عسكرية كاملة من طائرات ودبابات ومدافع وجيش مرتزقة. وخلال ساعات، قتل الفرنسيون بدباباتهم وطائراتهم وأسلحتهم الحديثة أكثر من خمسمئة رجل، بمن فيهم يوسف العظمة البالغ من العمر ستة وثلاثين عاماً. وفي تاريخ العرب جميعاً، كان يوسف العظمة وزير الدفاع الوحيد الذي قضى في ساحة المعركة.

حدّق سلمان في التمثال المنتصب في وسط فوضى المرور ورائحة أبخرة المازوت النتنة ولوّح محيياً.

النبوءة

وجّه كريم خطواته باتجاه منطقة الصالحية حيث المقاهي والمحلات الجميلة بأمل أن يُلهي سلمان عن حزنه. ومن هناك أراد أن يتوجّه إلى محطة الحجاز حيث يأخذ مع سلمان سيارة أجرة ليعودا إلى البيت.

لبث سلمان سلمان صامتاً طوال الوقت وراح يراقب المارة. وظلّ كريم صامتاً بجانبه لأنه أدرك أن كلّ ما يحتاج إليه سلمان هو الهدوء، فقرر أن يمرّ في طريقه إلى مقهى صديقة رشيد.

كان رشيد الذي بلغ أواخر الأربعينات من عمره، معلم مادة التاريخ في المدرسة التي كان يدرّس فيها كريم، لكنه سُرِّحَ سنة ١٩٧١ من وظيفته قبل كريم بسنة واحدة. بعد أن عمل لمدة سنة مدرّساً للغة العربية في مدرسة خاصة، وبعد سنة من دون عمل، افتتح هذا المقهى الذي أصبح ملتقى للمثقفين. كان كريم قد حكى لسلمان

عن صديقه منذ بضعة أيام، «لأنه كما زعموا أنه ملحد»، وهزّ رأسه بأسى وأضاف، «حدث هذا بعد أن استولى حافظ الأسد على السلطة الذي لم يكن يؤمن بأحد إلّا بنفسه».

عندما وصلا إلى المقهى وفتح كريم الباب، هرع إليهما رشيد وصاح وهو يضحك: «أخيراً أراك، ظننت أنك مت».

«طبعاً مت، لكنّي قمت من بين الأموات وهذا شيء لا تعرفونه أنتم معشر الملحدين. فاشتهيت أن أشرب فنجان قهوة مع ابن أختي حبيب قبل أن أموت مرة أخرى».

أسرع رشيد إلى كريم وضمّه بقوة وقبّله على خديه، ثم استدار وصافح سلمان ورحّب به.

«ابن اختي حبيب شاهين يعيش حالياً في كندا»، قال كريم يعرّفه على سلمان.

«ابق في كندا يا عزيزي»، قالها رشيد بصوت هامس لسلمان، «لأن الوضع هنا يتقلّب على جمر وسينفجر بحيث لا يبقى حجر على حجر. أشعر كأن الأرض بدأت تهتز تحت أقدامنا وهذا أول نذير بحدوث زلزال».

«ما شاء اللّه»، أردف كريم بصوت لا تخلو منه السخرية، «هل أصبحت مقياس ريختر للزلازل؟»

«لا أبداً، أنا طير حمام. إن مقياس الزلازل يا عزيزي يقيس قوة الزلزال بعد وقوعه، أما الحمام فيشعر بالزلازل قبل وقوعها. وهذا ما كان يعرفه ويستخدمه الصينيون منذ أكثر من ألف سنة، ولا يزالون يفعلون ذلك حتى الآن».

«الآن صرت حمامة؟» تساءل كريم مازحاً، «في السنة الماضية قلت لي إنك متشائم وسألتك وقتها لماذا تبقى متشائماً طوال الوقت، فقلت لي إنك غراب».

«صحيح لكن الأوضاع تغيّرت وأصبحت أسوأ بكثير مما توقعته كغراب. . . »، صمت فجأة عن الحديث لأن تلفون المقهى لم يتوقف عن الرنين. «اجلسا سأعود إليكما»، قال وأسرع إلى الهاتف المثبّت على الحائط.

«هكذا هو دائماً، عنده مشاكل تكفي قارة كاملة، ومع ذلك فإنه يواسي عشرات البائسين من المثقفين، خصوصاً الذين يعيشون في عزلة دائمة».

جلس كريم وسلمان إلى طاولة بجانب النافذة الكبيرة المطلة على الشارع، وراحا يراقبان الناس المتجمهرين عند محطة الباص بالقرب من المقهى. وكلما لمحوا باصاً قادماً من بعيد، يركض كثيرون منهم إلى وسط الشارع للركوب فيه. كانوا يشبهون موجة بحر. وبما أن الباصات مليئة حتى الباب بالركاب، لا يتوقف السائقون ويتابعون طريقهم لتعود موجة المنتظرين خائبين إلى شاطئها، رصيف المشاة.

أحضر نادل شاب أنيق فنجانَي القهوة مع كأسيْ ماء. دفع سلمان مباشرة ليتمكنا من مغادرة المقهى عندما يريدان. إلى الطاولة بجانبهما، جلست امرأة شابة مع زوجها. كان هذا أمراً جديداً بالنسبة لسلمان أن تجلس نساء سوريات في المقهى. لكن حديث الزوجين لم يكن يحتوي شيئاً جديداً، ابن مطيع لأمّه وكنّة لا تطيق حماتها، ولا تريد أن تعيش معها تحت سقف واحد بعد اليوم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تشوش وحيرة عاشقة

روما، ٧-٨ كانون الثاني ٢٠١١

أرادت ستيلا أن تعود إلى العمل يوم الاثنين. اتصلت بسكرتيرتها وهي لا تزال في سريرها وطلبت منها أن تجمع كلّ الرسائل التي وصلت في غيابها، وقالت إنها ستذهب اليوم إلى مكتبها لتأخذ رسائلها وتقرأها في عطلة نهاية الأسبوع، كي تكون مستعدة للعمل يوم الاثنين. اقترحت عليها السكرتيرة أن تحضر لها الرسائل بنفسها، لكن ستيلا أجابتها، «لا، شكراً جزيلاً، سآتي وآخذها بنفسي لأتعوّد على طريق العودة إلى الجامعة».

دأبت ستيلا على الفصل بين عملها وحياتها الخاصة. فقلما دعت رئيسها أو زملاءها وأصدقاءها في العمل إلى بيتها. قبل سلمان ذلك على مضض، لأنه اعتاد على دعوة أصدقائه وزملائه إلى منزله عندما كان في سوريا وألمانيا. أما ستيلا، فكانت تدعو زملاءها غالباً إلى المطعم.

أما باولو فكانت لديه خطط أخرى لأمّه. «يمكنكِ أن تأخذي الرسائل فيما بعد. لأننا سنذهب إلى السوق معاً»، لأن والد نورا دعاهما إلى العشاء حتى يتعرّف على صديق ابنته. أراد باولو أن ترافقه أمّه إلى السوق ليشتريا هدايا لوالديْ نورا وشقيقها الصغير جاكومو ذي الست سنوات.

قال لها إنه سيذهب الآن مع نورا إلى ساحة فينيسيا، وسيعود بعد قليل ليذهبا إلى السوق ليشتريا هدايا لأسرة كالابريزة.

«تشاو، أراكِ لاحقاً»، صاح وأسرع خارجاً.

تساءلت ستيلا بدهشة كيف تتغير الحياة باستمرار. لم تغادر ستيلا سريرها على الفور، وظلت مستلقية نصف ساعة أخرى. فها هو ستيفانو، الصقلّي الصارم، يدعو صديق ابنته ذا الخمسة عشر عاماً - مع أمّه - إلى العشاء، ويريد باولو تلبية دعوته. عندما بدأت ستيلا تفكّر كيف تغيّر ابنها، بدأت تتذكّر حياتها الخاصة.

كانت أمّ ستيلا بعكسها تماماً: أمّ إيطالية نموذجية، مكتنزة، طيبة القلب، حسنة المعشر، تكرّس حياتها كلها لأسرتها. فلم تقدّم طوال حياتها وجبة طعام لا تقلّ عن ثلاثة أطباق، وغسيلاً لا تفوح منه رائحة منظفات منعشة، وملابس داخلية غير مكوية، ولم يلبس أبوها قط قميصاً أبيض مرتين متتاليتين.

كانت أمّها تفضّل أن تنجب ثلاثة أطفال، تغنّجهم وتدللهم، وتربّيهم ليصبحوا *bamboccioni*، أطفالاً كباراً يظلون يعيشون في كنفها حتى بعد أن يبلغوا الخامسة والثلاثين من أعمارهم، ويبدأون كل جملة وينهونها بكلمة «*ماما*». أما ستيلا، فقد أرادت أن تغادر منزل والديها عندما بلغت السادسة عشرة، وقد شجعها أبوها على ذلك، الذي كان يحلم بأن ينجب ابناً فربّى ابنته كما لو كانت ابناً. فإذا بكت عندما كانت فتاة صغيرة، كان يقول لها وهو يبتسم لها بحنان، «ستيلا، الصبية الصغار الشجعان لا يبكون».

ومثل جدّتها وجدّة جدّتها، كان كلّ همّ أمّها أن تعلّم ستيلا أنّ مهمة الفتيات إرضاء الرجال: «الرجال يحبّون ذلك»، «الرجال لا يرضون عن ذاك»، «ماذا سيقول الناس عنكِ؟» «إذا تصرّفت هكذا فلن تجدي زوجاً جيداً طوال عمرك». كانت ملاحظاتها هذه تثير

غضب ستيلا التي لم تكن تعرف آنذاك شيئاً عن مستقبلها، لكنها كانت متيقنة بأنها لن تكون امرأة تقليدية، والأهم من كلّ ذلك، لن تصبح ربة منزل أبداً. فالعالم مليء بالعجائب وأرادت أن تفهم بعض تلك العجائب. وربما أدركت أمّها رغبة ابنتها، فظلّت تكرر على مسامعها ما الذي يتوقعه الرجل الإيطالي من المرأة. وعندما فاض الكيل بستيلا، صاحت في وجه أمّها غاضبة، «لا أريد أن أتزوج يا أمّي، لا أريد أن أكوّن أسرة». فبكت أمّها وقالت لأبيها إن ستيلا فتاة مريضة. فهدّأ من روعها وقال لها، تبدأ الهرمونات في سنّها في اضطراب الطابق العلوي وهذا شيء طبيعي.

لكن الغريب في الأمر أن ظاهرة تعلق الأبناء بأهلهم بدأت تعود الآن بحسب ما قرأته ستيلا في الصحف. فقد ازدادت أعداد الشابات الإيطاليات، لا سيما الشبّان الإيطاليين، الذين يقيمون في البيت مع أمهاتهم. ومنذ صغرها، كانت ستيلا على قناعة بأن هناك مسارات أخرى على النسوة أن يسلكنها، فملأت أرفف مكتبتها بكتب تروي قصص نساء شهيرات: مثل كميل كلوديل، جوان بايز، ماري كوري، هيباتيا، كلارا شومان، كاترينا كورنارو، ناتاليا جينزبورغ، وكثيرات غيرهن. وكان سلمان أكبر داعم لها. فقد تقاسما الأعمال المنزلية وتربية طفلهما. وعندما بدأ دخلهما يتحسن، وظّفا مدبرة منزل تأتي ثلاث مرات في الأسبوع، لكنهما لم يسمحا لها برعاية باولو التي ظلّت من «مهام الإدارة» كما سماها سلمان.

عندما عاد باولو كانت ستيلا لا تزال في سريرها. فنهضت بسرعة وارتدت ثيابها وهي تضحك محرجة. ثم تناولت قهوة الإسبريسو التي أعدّها لها باولو مع قطعة بريوش مع مربى المشمش أحضرها باولو لها من المخبز. أمضيا ساعات لطيفة معاً، في البداية في المدينة، ثمّ في منزل كالابريزة.

كان العشاء لذيذاً والنبيذ الصقلّي يجعل الخدر يتسلل بروية إلى الجسد. وفي الساعة العاشرة تقريباً، غادرت ستيلا وباولو شقّة ستيفانو الذي ثمل قليلاً وعانق باولو عند الباب، وقبّله، وقال له، «صهري. اعتباراً من اليوم، أصبحت تحت حمايتي. فإذا حاول أيّ كلب إهانتك، ما عليك إلّا أن تخبرني وسأقضي عليه»، وقبّل باولو مرة أخرى. ظهرت الدهشة في عينَي نورا وستيلا، وبدت نورا محرجة.

ثملت ستيلا قليلاً، وسرعان ما أوت إلى سريرها. لكن قبل أن تغطّ في النوم، تذكّرت أنها نسيت أن تذهب إلى المعهد لتجلب رسائلها.

في صباح اليوم التالي، قررت ستيلا أن تقرأ رسائلها الوظيفية أخيراً لتُبعد تفكيرها عن سلمان. في طريقها إلى الجامعة، رأت في شارع *Viale delle Scienze* كنيسة صغيرة تابعة للجامعة. اعتراها شعور غريب مفاجئ. ركنت سيارتها بجانب مدخل الجامعة، وتوجّهت إلى الكنيسة التي لم يكن فيها سوى بضعة أشخاص. ورأت صبيّة تجلس أمام الهيكل المستدير عرفت ستيلا وأومأت لها برأسها.

كانت ستيلا تمرّ يومياً من أمام هذه الكنيسة الصغيرة ذات المبنى المستدير منذ خمس عشرة سنة، لكن هذه أول مرة شعرت بأن شيئاً جذبها نحوها. كانت تسمع أحياناً صوت غناء جوقة الكنيسة وهي تنشد، حتى ترانيم عيد الميلاد، لكنها لم تُبدِ أي اهتمام بها.

عندما دخلت ستيلا إلى الكنيسة توجّهت عيناها مباشرة إلى تمثال «سيدة الرحمة» على الجدار الأيسر. وهو تمثال شهير نحته الفنان العبقري ميكيل أنجلو يمثّل السيدة العذراء باكية وابنها المسيح مسجّى بعد أن أُنزل من الصليب على حضنها. قارنت في عقلها بساطة هذا

التمثال النسخة مع روعة وكمال تمثال ميكيل أنجلو في كاتدرائية القديس بطرس في روما - فقد كان هذا التمثال المتواضع المصنوع من حجر أبيض يشعّ حزناً ويأساً، لكن فيه جلدٌ وشجاعة أيضاً. «أيتها الأمّ المقدسة، احمي سلمان»، همست ستيلا. دمدمت صلاة قصيرة مترددة. ثم رفعت عينيها إلى القبة فوقها وقرأت العبارة المكتوبة على حافتها السفلية: *في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند اللّه، وكان الكلمة اللّه، فالكلمة الذي صار جسداً وحلّ بيننا*. *In principio erat verbum et verbum erat apud deurn et deus*) .(*erat verbum et verbum taro factum est et habitavit in nobis* لسنوات عديدة، كانت تعتقد أن هذه هي الكلمات الأولى الواردة في الكتاب المقدس، لكن سلمان صحح لها، وقال إن هذه هي العبارات الاستهلالية في إنجيل القديس يوحنا. سلمان، عزيزي سلمان، أين أنت الآن؟

لم يكن تمثال مريم العذراء يشبه صورة إغناتيوس لويولا المعلقة على يسار المذبح حيث بدا لويولا كأنه ضابط يشن حرباً لنشر الدين. جثت على ركبتيها وبدأت تتمتم من قلبها.

«أيتها العذراء البتول المقدسة، لا أعرف كيف أصلّي، لكنّي أريد أن أكلّمك، بكل تواضع. أعرف أنني لم أصلِّ لك منذ سنوات، لكنني أشعر دائماً بأنك قريبة مني. أرجوكِ احمي سلمان. فأنا أحبّه. لكننا لم نهتم بحياة متينة وكثيفة مع بعضنا... لقد شُغلنا كلانا... بالعمل... بأنفسنا. كم كنّا أغبياء. اشتقت إليه كثيراً. أيتها الأمّ المقدسة، أرجوك ساعديني. أرجوك ساعديني... ساعدينا...» وبدأت تبكي.

كان قسّ يسوعي يقف بين المذبح وتمثال سيدة الرحمة. اقترب من ستيلا بينما كانت تجفف دموعها، ونهضت لتغادر. فسألها، «هل

تحتاجين إلى مساعدة؟» فقالت: «لا، شكراً يا أبتي. لكن أرجوك صلِّ معي ليعود زوجي إلى بيته سالماً»، وتملّكها شعور بالضآلة والعجز.

حكت ستيلا للقسّ، كاهن الكنيسة، عن سلمان. أنصت إليها باهتمام، وعندما كانت على وشك أن تغادر الكنيسة، ضغط القسّ على يدها بقوة، وقال: «سأصلّي من أجل سلمان مساء كلّ يوم، سينيورا»، فغمرها شعور بالطمأنينة والراحة.

صعدت إلى سيارتها وعادت إلى البيت.

لم تتذكّر أنها نسيت أن تجلب رسائلها إلّا بعد أن ركنت سيارتها، فضحكت ساخرة من نفسها وهي جالسة وراء المقود. نقر شرطي شاب على زجاج نافذتها، وقال لها، «طاب يومك، هل تحتاجين إلى مساعدة. هل أنت على ما يرام؟»

فأجابته: «نعم، أنا بخير»، ونزلت من السيارة، ثم قالت للشرطي وهي لا تزال تضحك «لقد حصلت على جائزة منذ قليل».

«مبروك، سينيورا. ما هي الجائزة؟»

«لقد اكتشفتُ مخدراً يجعل الناس ينسون. ومنحتني لجنة جائزة لأسوأ اكتشاف في هذه السنة».

«لماذا أسوأ اكتشاف؟» سألها الشرطي الذي أراد أن يطيل الحديث مع هذه المرأة الجميلة. «لأن الناس ينسون من تلقاء أنفسهم، حتى من دون تعاطي أيّ مخدر»، قالت للشرطي وأسرعت إلى مدخل البناية.

كانت مستلقية على السرير في ذلك المساء عندما سمعت باولو يصفّر لحنهم المميّز. فعندما كان سلمان وستيلا وباولو يذهبون للتسوق في السوبر ماركت، كانوا يتفرقون ويذهب كلّ واحد منهم في اتجاه ليبحث عما يحتاج إليه، وعندما يعود أحدهم ليضع ما وجده في

عربة التسوق، يصفّر لحناً اتفقوا عليه ثلاثتهم، فيردّ عليه الآخران بنفس الصفرة. وكان المتسوقون الآخرون يضحكون ولم يُبدِ أحد انزعاجه لأنهم كانوا يصفّرون لحناً جميلاً.

كان سلمان يردد دائماً أنه سيصفّر هذا اللحن في الجنّة كي تجده ستيلا وباولو. «ستكون الجنّة أرضاً قاحلة من دونكما».

في تلك الليلة، عندما سمعت ستيلا ذلك اللحن، غادرت سريرها وذهبت إلى غرفة باولو. كان مستلقياً في سريره، ونظر إليها محرجاً. لم يعد يبدو مراهقاً، وإنما بدا صبياً في السابعة من عمره. «أنا آسف»، قال لها، «كنت أصفّر كي يجدنا أبي».

رسالة حب إلى رجل ميت
أو الرقص على حبل مشدود في أعالي السماء

دمشق، ٧-٨ *كانون الثاني* ٢٠١١

قبل جنازة والده بيوم، سأل سلمان كريم إن كان بإمكانه أن يسلّم طارق مغلفاً. فقد كتب سلمان رسالة وداع إلى أبيه، وأراد أن يضعها ابن خالته طارق في تابوت أبيه، من دون أن يراه أحد.

فأجاب كريم: «بكل سرور».

شرب سلمان قهوته لكنه لم يتناول طعام الفطور والغداء. فقد ملأ دفتراً صغيراً، ووضعه في مغلف كبير، وأعطاه لكريم. ثم غمره شعور بالراحة.

استغرق كريم وعايدة في مشاهدة الأخبار. فقد اندلعت احتجاجات واسعة بين الفقراء في تونس والجزائر. وعندما قال الرئيس التونسي زين العابدين بن علي إن مصدر هذه الاضطرابات مؤامرات من الخارج، هزّ كريم رأسه ساخراً من غباء كهذا.

واستمرت أعمال الشغب في مصر بعد أن شنّ الإسلاميون هجوماً إرهابياً على كنيسة في الإسكندرية. «مات أكثر من ثلاثة وعشرين شخصاً بريئاً»، قال كريم غاضباً، ولعن المتعصبين، ووافقت عايدة على ما قاله.

في وقت مبكر من بعد ظهر اليوم التالي، انطلق كريم على

دراجته وغاب عدة ساعات. فبدأ قلب عايدة يخفق بقوة، ولم يُبعد سلمان عينيه عن باب البيت.

عاد كريم حوالي الساعة السابعة، بعد أن حلّ الظلام. «ماذا حدث؟» سأله سلمان وعايدة حتى قبل أن يسند كريم دراجته إلى الحائط.

«لم يحدث شيء، لم يكن من السهل أن ألتقي بطارق من دون أن يلاحظ أحد. فقد ظلّ في بيت والدتك مدة طويلة. لم أستطع أن أتحدّث إليه إلّا بعد أن ذهب إلى محل الزهور. كنّا محظوظين، فقد كان المحل الكبير مليئاً بالناس وكلّمته من دون أن يلاحظنا أحد. سلّمته الرسالة. وقال إنه سيضعها في التابوت مساء اليوم. سيُحْتَفَظ بوالدك الليلة بتابوته في شقّة والديك ليتمكن الجيران من توديعه».

بعد عشرات السنين عندما قررت بلدية مدينة دمشق توسيع طريق للسيارات بأخذ جزء من المقبرة الكاثوليكية وجد أحد عمال الطرقات عندما كان يحفر تابوتاً بالياً وبقايا عظام إلى جانبه دفتراً كتبت فيه رسالة حب طويلة لكاتب مجهول وقّع بكلمة «ابنك» وتم تناقل هذه الرسالة الطويلة من يد إلى يد حتى وصلت إلى دار نشر صغيرة فطبعها صاحب الدار في نسخة أنيقة تصدرت المبيعات لأن الرسالة من أجمل ما كتب ابن اعتذراً ومحبة لأبيه.

«أمك بخير»، تابع كريم مبتسماً، «لو دعوتني إلى فنجان قهوة بدلاً من أن تتركني أتجمّد هنا في البرد، فقد أنقل لك خبراً جيداً».

«بالتأكيد»، صاح سلمان وجرى إلى المطبخ. عانقت عايدة كريم وقبّلته.

«يمكنك أن تفتخر بأمك»، قال كريم بعد أن تدفأ على مدفأة المازوت ورشف أول رشفة من القهوة، وأضاف، «امتلأت شقة والديك بالأصدقاء والجيران الذين جاؤوا لتقديم تعازيهم. حتى جاء

جميع الصاغة. تأثّرت أمّك كثيراً. فلم تكن تعرف مدى محبة الناس لوالدك. وسمعت لأول مرة كم شخصاً ساعدهم من دون أن يعرف أحد طوال تلك السنين، أو الذين أنقذهم من الدمار الاقتصادي. كانت أمّك اليوم تجلس في غرفة الجلوس كأنها ملكة بجانب طارق وتقلا ومنى وماريا. وفي حوالي الساعة الثانية عشرة، جاء إلياس وزوجته إيزابيلا. قال طارق إن جميع المعزّين - حوالي سبعين شخصاً - تجمّدوا في أماكنهم. وبينما بدأ إلياس يقدّم تعازيه، قفزت أمّك من فوق كرسيها كأن عنكبوتاً ساماً لدغها، وصاحت في وجهه، 'هيا اخرج من هنا أيها الخائن، هيا اغرب عن وجهي أيها الحقير. لقد خدعتنا وقبضت عشرة آلاف دولار وتطارد الآن ابننا الوحيد. لم يحتقرك أحد أكثر من زوجي يوسف. هيا اخرج من هنا أنت وعاهرتك'. في البداية، حاول إلياس أن ينكر هذه التهمة بلطف، ثم بدأ يقول بإصرار بأن صوفيا امرأة مضطربة أو مجنونة. فردّت عليه أمّك، «قد أكون مجنونة، لكنني حافظت على كرامتي أيها الخائن الحقير، هيا اذهب وأبلغ عني. أنا واثقة من أنك تعدّ شيئاً، فربما قتلتُ أحداً حتى قبل أن أولد. هيا انقلع من هنا! هيا قبل أن يصل حذائي إلى رأسك الشرير». كانت تصرخ بصوت مرتفع فاستجمع اثنان من الجيران شجاعتهما - الذين يختفون عادة ولا يبقى لهم أي أثر في وجود إلياس- ورافقاه بتهذيب، لكن بحزم إلى الباب. هذه هي صوفيا التي نعرفها»، قال كريم بزهو.

هزّ سلمان رأسه. ابتسم وملأت الدموع عينيه.

في صباح اليوم التالي، بعد أن أنهوا فطورهم، قال كريم لسلمان، «حان الوقت لنناقش ماذا سيجري في المطار. هل تتذكّر كلّ ما كتبته لك عن أخي غير الشقيق وعن عائلته؟»

فأجابه سلمان، «حفظت الصفحتين عن ظهر قلب».

«بعد لحظات ستصبغ عايدة شعرك ليصبح أبيض، ويجب ألّا تغادر البيت حتى الساعة السابعة من صباح الغد. سنخرج عند الفجر ونأخذ سيارة أجرة من الشارع المستقيم ونذهب إلى المطار. موعد رحلتك الساعة التاسعة، ويجب أن نكون في المطار في وقت مبكر لإنهاء إجراءات السفر».

فقالت عايدة: «أليس من الأفضل أن تمكث الليلة في بيتي؟ وتجلب سيارة الأجرة إلى أمام الباب».

«نعم، لكن إذا ذهبنا إلى بيتك ومعنا حقيبة سفر كبيرة، والحقيبة الصغيرة التي فيها الهدايا، وحقيبة الكتف، فإننا سنلفت الانتباه وسيرانا المخبرون. أما في الصباح الباكر، فسيكون معظم المخبرين نائمين، وإذا أخذ ابن أخي حبيب سيارة أجرة إلى المطار، فهذا شيء طبيعي لأنه سيعود إلى كندا. في هذه الحالة، لا يبدي المخبرون اهتماماً كبيراً لأنهم يعرفون أن التدقيق صارم في المطار يكفي لإلقاء القبض على أي مشتبه فيه».

غفا سلمان قليلاً بينما راحت عايدة تصبغ منبت شعره بمادة بيروكسيد الهيدروجين. وأنهت عملها بحلق لحيته التي لم يحلقها منذ ثلاثة أيام.

أبرزت حلاقة لحيته شاربه، وأصبح سلمان يشبه صاحب جواز السفر إلى درجة كبيرة. لكن وجه سلمان بدا أنحف قليلاً من وجه صاحب مصنع الشوكولاتة الممتلئ. فقال له كريم إذا سألك أحد عن هذا الأمر، فقل لهم إنك تتّبع حمية غذائية قاسية لكي يفقد الموظفون الذين يسألونه الاهتمام به.

أرادت عايدة أن تعدّ وجبة عشاء مؤلفة من ثلاثة أصناف. كمقبلات اختارت عايدة طبق تبولة، وطلب كريم أن يكون ورق

العنب المحشو الطبق الرئيسي، وطلب سلمان كريم كراميل كحلوى بعد الطعام. عاد كريم وسلمان إلى غرفة الضيوف في الطابق الأرضي ليكمل سلمان تدريبه على إجراءات التدقيق والتفتيش في المطار والتدرب على الإجابة عن الأسئلة المخادعة بهدوء. وذكّر كريم صديقه عدة مرات بأن يحافظ على هدوئه وألّا يشعر بالتوتر، لأن المفتشين لا يعرفون عنه شيئاً.

«ماذا لو كان الفخ الذي تحدّث عنه إلياس ينتظرني هناك؟» سأل سلمان يائساً.

«يخيّل إليّ أنه يظن أنك ستحاول الهرب عن طريق لبنان، تركيا أو الأردن، فنصب شراكه لك عند المعابر الحدودية. لا أظنّ أنه يتوقع أن تمتلك الشجاعة لتهرب من المطار، مع كلّ نقاط التفتيش المنتشرة فيه. وهذا لبّ خطتي أن نهرّبك من المكان الذي يظن أنه آمن، وبذلك ننتصر عليه. إني أعوّل على ذلك».

«وماذا كنت ستفعل لو لم أشبه أخاك غير الشقيق؟» سأله سليمان، فأجابه كريم، «لدينا أصدقاء حتى في إدارة الجوازات. سيكون ذلك أكثر تعقيداً وسيكلّف بضعة آلاف من الدولارات. في تلك الحالة، سأُخرج لك جواز سفر سورياً حقيقياً يحمل اسم شخص لن يبحثوا عنه أبداً».

«إنك تبالغ! هل يوجد شخص في هذا البلد لن يبحثوا عنه أبداً؟» قاطعه سلمان ساخراً.

«نعم، فقد مات هذا الشخص منذ خمس عشرة سنة. ومهمة التزوير هنا أن يبعثه من الموت لفترة قصيرة، على الكمبيوتر فقط، قبل أن يعود ويموت بهدوء مرة أخرى، عندما يجتاز الهارب الحدود بجواز السفر. بهذه الطريقة استطاع أصدقائي إخراج ثلاثة فلاسفة وشعراء مطلوبين من البلد».

«آه»، قال سلمان خجلاً.

ربّت كريم على كتفه، وقال: «لنعد إلى تدريبنا الآن. ماذا عن الهدايا؟ أي نوع من شوكولاتة مندور فيها البندق؟» نظر سلمان إلى ألواح الشوكولاتة واختار ثلاثة منها. «جيد»، قال كريم، «وأيّ منها فيها كحول؟» فعرفها سلمان أيضاً. وبما أنه صاحب مصنع شوكولاتة، فلا يُسمح له بأن يخطئ ويعطي الشوكولاتة التي فيها كحول إلى شخص مسلم محافظ.

بفضل أخيه غير الشقيق، عرف كريم أسماء الضباط العاملين في المطار، الذين لا يوجد بينهم مسلم متشدد - بخلاف الجنود العاديين ورجال الشرطة المناوبين الذين قد يكون بعضهم محافظين جداً.

تدربا طويلاً واستمتعا بما يقومان به مثل تلميذين. وعندما أعدّت عايدة العشاء نادتهما. أمسك كريم بيدَي سلمان، وقال له بجدية: «أنصت إليّ جيداً يا صديقي العزيز. يسعدني كثيراً أن أقف إلى جانبك. ومثل هدية مقدمة إلى حبيب، فإن ذلك يُعتبر بهجة عظيمة أيضاً للذي يقدمها. ففي بداية هذه القصة، أعطيتُ كلمة شرف لصوفيا. وصوفيا بداية كل قصتنا، أليس كذلك؟» أومأ سلمان وابتسم. «لكننا أحببناك، أنا وعايدة خلال الفترة التي أمضيتها معنا. تذكّر ذلك غداً. عندما تجتاز نقاط التفتيش في المطار، سيكون ذلك مثل الرقص على حبل مشدود - لا ألاعيب وحيل، ولا توجد شبكة أمان تحتك. أصبحت جاهزاً الآن، فتصرّف كما يفعل الفنان في السيرك، بخفة ومرح، كما لو كان ذلك أكثر شيء طبيعي في العالم».

«سأفعل ذلك لأن ملاكي الحارس سيكون هناك»، أجاب سلمان وعانق كريم بقوة، وقال: «انزل الآن، سألحق بك بعد دقيقة».

عندما فتح الباب بمرفقه ودخل إلى غرفة الجلوس، رأى عايدة وكريم يقبّلان بعضهما.

«توقفا! لا تفعلا ذلك. الجنس ممنوع أمام الأطفال»، قال سلمان، ووضع الهدايا على طاولة صغيرة.

«ما هذا؟» سألته عايدة بدهشة.

فقال سلمان: «هذه لكِ»، وقدّم لعايدة العلبة الجميلة التي تحتوي على الحلية الفضية. «وهذا لكَ يا كريم، صندوق فيه أدوات لتصلح الأشياء المعطلة بشكل أفضل». أبديا دهشتهما، ثم نهضا وقبّلا سلمان على وجنتيه.

ثمّ قدّم لهما سلمان بهدوء مغلفاً، وقال: «لا يزال هناك وقت لعيد الفصح هذه السنة، وروما ممتعة جداً قبل أسبوع من عيد الفصح وبعده. هذه هدية صغيرة لكما. أمنيتي أن تتمكّنا أن تأتيا مع أمي وخالتي تقلا وابن خالتي طارق وزوجته منى، وابنة خالتي ماريا، وأخيك غير الشقيق في بيروت، وتلك المرأة اللطيفة سحر التي دأبت على طمأنة ستيلا - من زيارتنا في روما. أتمنّى من كلّ قلبي أن تتمكّنا من القيام بهذه الرحلة، لأن كلّ شيء تضعان يديكما عليه مصيره النجاح. سأريكم المدينة الخالدة وستكون ستيلا وباولو في غاية السعادة لاستقبال الأشخاص الذين أنقذوني و. . .» ولم يستطع أن يكمل بسبب دموع العجز التي ملأت عينيه ولشعوره بالامتنان لهذين الشخصين اللذين جازفا بحياتيهما لإنقاذه، حتى من دون أن يذكرا ذلك. وأعطى المغلف لكريم.

«هذا المبلغ يكفي لشراء تذاكر ذهاب وإياب. أنتم ضيوفي في روما. سأستأجر لكم جميعاً شقة كبيرة بالقرب من بيتنا. سيكون ذلك أفضل من الإقامة في فندق لأننا سنتمكن من أن نطهي طعامنا ونستمتع معاً. هل ستحققان لي هذه الأمنية؟»

«أليس هذا كثيراً عليك؟» سأله كريم.

فأجابه سلمان: «إنه تعبير قليل عن شكري لكما».

«بصحتك»، قال كريم ورفع كأس النبيذ بيده، وأضاف «سنشتاق إليك كثيراً. يا لها من فكرة جيدة وسنراك قريباً في روما».

رنّ الهاتف. نهض كريم وتمخط بقوة في منديله ثم رفع السماعة.

«من المتّصل؟» سأل، مرتبكاً. أنصت قليلاً، ثم قال: «لا، لا أستطيع الليلة. يجب أن آوي إلى الفراش في وقت مبكر لأنني سأستيقظ في الساعة الخامسة صباحاً لأسافر إلى حلب». تجهّم وجه كريم وهو ينصت، «نعم، حلب، ما الغريب في الأمر؟» ثم عاد يستمع وقال: «لا، سأبقى هناك يومين فقط. يمكنك أن تتصلي بي يوم الأربعاء. يجب أن أسأل عايدة أولاً...» «حسناً، سمِّها كما تشائين، لكنني لن أفعل شيئاً من دون موافقة عايدة... انسي الأمر... نعم، أعرف أنك ابنتي، لكن مرّ وقت أيضاً نسيتِ فيه أنني والدك... اتّصلي بي يوم الأربعاء عندها سأخبرك إن كان بإمكانك زيارتنا، أو إذا كان بإمكاننا أن نلتقي بك في مكان خارج البيت. نعم، إلى اللقاء»، قال بصوت حازم، لكنه ودود، ووضع السماعة.

«مها؟» سألت عايدة، مع أنها كانت تعرف.

«بعض الناس يرفضون أن يتغيّروا مع أنهم أذكياء. تريد أن تزورني لأنها ليست على ما يرام. قالت إن زوجها لا يعاملها معاملة حسنة، ومع أنها هي التي تحتاج إلى المساعدة، فإنها تريد أن تفرض عليّ شروطاً».

انتظرت عايدة حتى رأت النور أضاء في غرفة الضيوف، وعرفت أن سلمان لا يستطيع أن يسمعها قبل أن تعانق كريم. «سيخرج سلمان بنجاح، وسأكون فخورة طوال حياتي بأنني كنت طرفاً في ذلك».

«أليس من الأفضل أن تسافري إلى بيروت صباح غد وتراقبي

سير الأمور من مسافة آمنة؟ إذا سار كلّ شيء على ما يرام، سألحق بك في المساء».

«وماذا إذا لم تسر الأمور على ما يرام؟» سألته عايدة.

«إذا حدث ذلك، أظن أنهم سيحتاجون إلى ثلاث ساعات ليكتشفوا أننا نحن الذين كنا برفقته. في هذه الأثناء أكون قد غادرت البلد عبر الجبال إلى لبنان».

«لا، إنك تكذب لأنك تحبني. فإذا اعتقلوا سلمان، فإنهم سيقبضون عليك أنت أيضاً حتى قبل أن تغادر المطار، وسيقتلونك في مكانك».

لم يقل كريم شيئاً. كان يعرف أنها محقّة. فالمخابرات تدقق باستمرار في تسجيلات المراقبة بالفيديو في المطار. وبهذه الطريقة، يمكنهم أن يعرفوا بسرعة وبدقة من هو الشخص المرافق للشخص الذي اعتقلوه.

«لا، في هذه الحالة، أريد أن أموت معك»، قالت عايدة بحزم.

أصعب امتحان
أو قفزة فوق الهاوية

دمشق، ٩ *كانون الثاني* ٢٠١١

عند الفجر، استيقظ سلمان نشطاً، منتعشاً بعد أن نام بعمق طوال الليل. فوجئ بالشعور بالراحة الذي غمره قبل أن يقدم على هذه الخطوة الحاسمة الأخيرة للذهاب إلى المطار والعودة إلى روما. فبعد كلّ ما جرى له خلال الأسابيع الماضية، غمره شعور غريب بالهدوء الآن. عندما قال سلمان ذلك لكريم، أجابه هذا جيد لأن المياه الهادئة فقط هي التي تفهم السماء وتعكس صورتها. لم يكن ذلك لامبالاة، وإنما يقين بأن الفصل الأخير من هذه المسرحية سينتهي إما بنجاته وإما بحدوث كارثة.

في الساعة الخامسة والنصف صباحاً، ألقى سلمان نظرة وداع أخيرة على أسطح منازل مدينته، وأخذ حمّاماً منعشاً، وعاد إلى غرفة النوم وفتح النافذة وأخذ نَفَساً عميقاً من الهواء البارد المنعش. كانت السماء الصافية تبشّر بيوم مشرق.

مرّ الزمن ببطء شديد في دمشق، بدا له دهراً. لكنه عندما جمع الأيام منذ يوم وصوله في كانون الأول حتى اليوم، ازدادت دهشته. فلم تمض سوى خمسة أسابيع على زيارته إلى دمشق.

كانت حقيبته جاهزة عند الباب مع الكيس البلاستيكي الكبير المليء بالهدايا التي سيقدّمها للمفتشين في المطار. أصبح يعرف محتوى الكيس عن ظهر قلب، وأصبح بإمكانه أن يلقي محاضرة عن أنواع الشوكولاتة المختلفة التي تصنعها شركة مندور.

في الطابق الأرضي، خرج كريم من غرفة النوم مرتدياً ثيابه، وتوجّه إلى المطبخ عبر باحة البيت. «صباح الخير»، قال له سلمان.

ابتسم له كريم، وقال: «أراهن أنك ستنام ثلاثة أيام متواصلة عندما تصل إلى روما. هيا انزل لنشرب القهوة بسرعة».

في تلك الساعة المبكرة، بدا زقاق الياسمين مقفراً من المارة. حمل سلمان حقيبته وسار بخطى سريعة وهادئة، وتبعه كريم حاملاً حقيبة الكتف، بينما حملت عايدة الكيس البلاستيكي. عندما وصلوا إلى الشارع المستقيم، حيّاهم بائع الخضراوات من بعيد، وصاح: «كريم، إذا كنت ستهاجر، فخذني معك».

«لا لن أهاجر. أين يمكنني أن أجد ثعلباً ماكراً آخر مثلك؟» فضحك البائع. في تلك اللحظة، انعطفت سيارة أجرة قادمة من باب توما نحو اليسار إلى الشارع المستقيم. تردد السائق لحظة قبل أن يرى الأشخاص الثلاثة، فاتّجه نحوهم مباشرة، وتوقف، وترجّل من السيارة.

«إلى المطار من فضلك»، قال كريم للسائق. عندما جلس في المقعد الخلفي بجانب عايدة، أضاف، «على العدّاد». وجلس سلمان في المقعد الأمامي.

«حسناً، حسناً. صبّحكم اللّه بالخير جميعاً. فأنتم أول زبائن

أراهم هذا الصباح». وضع السائق حقيبة السفر والكيس البلاستيكي في صندوق السيارة، وأبقى سلمان حقيبة الكتف وجميع الأوراق الثبوتية معه. استغرقت الرحلة نصف ساعة. كان على طرف لسان السائق أسئلة كثيرة، لكن سلمان وعايدة وكريم جعلوها تتلاشى كلها وتذوب في لحظة خروجها، وتظاهروا جميعاً أنهم لم يسمعوا شيئاً، وراحوا يحدّقون إلى الأمام، فسكت السائق. «أي نوع من الزبائن عديمي التربية تظنون أنفسكم؟ لا سلام ولا كلام؟ بل قبل كل شيء تقولون 'على العداد' وكأني حرامي. هل أصابكم الخرس؟» كان سيؤنبهم لو كان صادقاً بهذه الكلمات، لكنه لم يستطع أن يقول ذلك ليحافظ على عمله.

عندما وصلوا إلى المطار، توجّه سلمان على الفور إلى مكتب الخطوط الجوية الإيطالية (أليتاليا) ليأخذ بطاقة الصعود إلى الطائرة. ومع أنه امتلك متسعاً من الوقت، لكنه أراد أن ينهي تلك الإجراءات بسرعة.

«سأودّعكما الآن. لن أنسى طوال عمري لطفكما وكرم ضيافتكما، مهما حصل. كنت أظنّ أن هذه الأشياء لا تحدث إلّا في الحكايات المثالية».

«لكن حياتنا قصة مغامرة أيضاً، وبفضلك أصبحت أكثر إثارة بكثير»، قال كريم وعانق سلمان. قبّله. كانت عيناه تدمعان.

«ونحن أيضاً في وسط رواية حب»، قالت عايدة، «وقد أحببناك كثيراً. لتحمك العذراء المقدسة»، وقبّلته. حاولت عايدة أيضاً أن تحبس دموعها. إننا نبكي عندما نفترق، قال سلمان في نفسه، فعندما يودّع أحدنا الآخر، نموت قليلاً. لكنه لم يبك هذه المرة، لأنه أراد أن يركّز على السير فوق الحبل المشدود الذي ينتظره بمرح وهدوء.

توجّه سلمان إلى قسم تدقيق الجوازات. كان رابع شخص يقف

في صفّ المنتظرين. فلم يأت سوى قلة من المسافرين في هذه الساعة المبكرة من الصباح. وقف كريم وعايدة بعيداً عنه، يمسك أحدهما يد الآخر.

«صباح الخير»، همس كريم لعايدة بلهجة لبنانية، موحياً بأن سلمان سيقول ذلك للشرطي. دفع سلمان جواز سفره والوثيقة المكملة التي يقدّمها اللبنانيون عندما يغادرون البلد، عبر طاقة في اللوح الزجاجي الفاصل.

وضع الشرطي جواز السفر على الماسح الضوئي، تفحّصه، ثم قارنه مع الوثيقة، وتصفحها، ثم نظر إلى سلمان.

«هل أنت مندور؟ صاحب مصنع الشوكولاتة؟» همس كريم لعايدة، الآن بلهجة جنوب سوريا.

«نعم يا سيدي، وهذا مسجل أيضاً في جواز السفر»، قال كريم الذي انتقل الآن إلى دور سلمان باعتباره حسن مندور اللبناني.

«لا أعرف نوع الشوكولاتة التي تنتجها»، قال كريم مبتسماً، «هل لديك عيّنة أعطيها لأولادي؟»

«طبعاً عندي، ولك أيضاً»، قال كريم بينما أدخل سلمان يده في الكيس وأخرج قطعتين من الشوكولاتة وقلميْ حبر جاف، «هذان قلمان من نوعية جيدة».

«شكراً جزيلاً يا سيدي»، تابع كريم محاولاً تقليد نبرة شرطي جمارك متمرس وفاسد.

التفت الشرطي في مقصورته ونادى الضابط. فأخرج سلمان علبة شوكولاتة أخرى من الكيس وأعطاها للضابط.

«استمتعوا بها لكن انتبهوا، ففيها قليل من الكحول الطيب المذاق» قال كريم، فضحكت عايدة وسألته، «كيف تعرف ماذا سيقول؟ هل يوجد لديك ميكروفون أيضاً تسمعه؟»

«لا، لكننا تدرّبنا على ذلك حتى الغثيان»، همس لها كريم.

رجلان كانا يقفان وراء سلمان. أخذا يتململان.

«هل العقيد ماهر مخلوف مناوب اليوم؟» سأل كريم الذي درّب سلمان أيضاً على هذا السؤال.

«ومن هو ماهر مخلوف؟» سألته عايدة.

«رئيس أمن المطار. يجلب له أخي دائماً ساعة يد. ماهر مخلوف هو ابن خال الرئيس، والمسؤول عن كلّ الصفقات الهامة، ولديه شغف خاص بأنواع الساعات الفاخرة».

هزّ الضابط رأسه نفياً، لكن سلمان أعطاه علبة فيها ساعة.

«سيستلمها العقيد ظهر اليوم عند عودته. الفساد هو الأداة الوحيدة الموثوقة في دولتنا»، قال كريم لعايدة مقلداً صوت ضابط من الساحل السوري، عندما أعاد الشرطي جواز السفر إلى سلمان مع تحية بطريقة مسرحية. عندها دفع سلمان الكيس الذي بقيت فيه خمسة ألواح شوكولاتة وعشرة أقلام حبر جاف عبر الفتحة إلى الشرطي.

«أرجو أن توزّع محتويات هذا الكيس مع أطيب تمنياتي». أنهى كريم دمدمة آخر جملة سيقولها سلمان. ثمّ وضع سلمان حقيبة كتفه فوق الحزام الناقل وحدق شرطي آخر في صورة المحتوى على شاشته وهزّ رأسه موافقاً فأخذ سلمان الحقيبة الصغيرة وتوجه أخيراً إلى الباب المؤدي إلى صالة المغادرة.

لوّح سلمان مرة أخيرة من دون أن يلتفت.

بعد أن أقلعت الطائرة واطمأن كريم أن سلمان غادر بسلام، توجّه إلى أقرب مقصورة هاتف في قاعة المطار الواسعة ودخل إليها

مع عايدة. اتّصل بمنزل صوفيا وعندما رفعت السماعة وقالت «ألو» سألها كريم كما اتفقا عندما ينجو سلمان: «نهارك سعيد يا أختي، هل هنا منزل صالحة الحمصية؟ قولي لها. . .» فقاطعته كما اتفقا وكادت تسقط مغشياً عليها من شدة الفرح وقالت: «آسفة، هذا بيت يوسف بلدي» وأغلقت الخط.

موسيقى في قلب المحب

أكبر قدر من السعادة تكمن في اليقين بأن أحداً يحبّنا.

فيكتور هوغو

دمشق، ٩ *كانون الثاني* ٢٠١١

بدأ اليوم مشمساً، لكن السحب الرمادية زحفت لتغطي سماء المدينة عند منتصف النهار. «لماذا أحبُّ دوماً النساء العنيدات؟» سأل كريم، فقالت عايدة، «لأنك تحبّ النساء الذكيات اللاتي لديهن آراؤهن الخاصة بهن. فعندما تمتلك المرأة رأيها الخاص بها، يقول الرجال إنها امرأة عنيدة حتى لو كان ذلك حول رائحة زهرة».

«لا أستطيع كرجل أن أجلس خلفك على حامل الأمتعة هكذا وأنت تقودين الدراجة».

«لِمَ لا؟ ستستطيع. تمسّك بي بقوة»، قالت عايدة ضاحكة.

«سيضحك الناس علينا»، قال كريم معترضاً لكنه أدرك على الفور أن ما يقوله سخيف.

«منذ متى تكترث لما يقوله هؤلاء التعساء عنّا؟» قالت عايدة، «أريد أن أستمتع بافتخار بأن أقوم بجولة لمعلّمي البارع»، ثم أضافت، «لكن بما أن قلبي طيب، فإنني سأبرم معك صفقة. سأوصلك إلى هناك، وتعيدني أنت إلى هنا»، ومدّت له يدها فصافحها كريم بلطف وقبّل أطراف أصابعها.

قادت عايدة الدراجة وكريم جالس وراءها وعوده يتدلّى من ظهره في كيس قماشي بنيّ اللون. كان المارة يتوقفون ويلتفتون إليهما، يهزّ بعضهم رؤوسهم غير مصدقين، بينما ألهم هذا المشهد آخرين. صفّقت أربعون تلميذة مهذبة يقفن بجانب حقائبهن ينتظرن الحافلة - يبدو أنهن ذاهبات في رحلة مدرسية - عندما مرّت عايدة أمامهن، قلن خلفها بصوت عال، «برافو عليكي». متشجعة من تصفيقهن، لوّحت عايدة لهن.

«ضعي كلتا يديك على المقود»، ذكّر كريم عايدة بصوت خفيض فخوراً بها. ضمّها إليه وضغط بجانب رأسه الأيمن على ظهرها، مستمداً دفئها اللطيف بعد ظهر هذا اليوم البارد. سمع لحناً من أعماق جسدها ذكّره بأغنية حاول أن يتذكّرها، لكنه لم يستطع. «ما هي الأغنية التي تغنيها؟» سألها أخيراً.

فقالت: «لا أغنّي الآن. فلو غنيّت لتجمّد لساني في هذه الريح الباردة»، وأضافت، «ربما روحي هي التي تغنّي حبّك. عقلي في مخي قائد الفرقة الموسيقية، وقلبي عازف الإيقاع على الطبلة، ورئتاي عازفتا الأورغ، وتحلّ بطني محلّ العود، وأحشائي الأبواق، وكليتاي الناي، وهيكلي العظمي آلة الإكسليوفون». لوّحت ضاحكة لرجل مسنّ انحنى لهما إعجاباً، وصاح مبتهجاً بصدق: «الآن بدأنا بالتمدن!» عندما مرّا بجانبه.

«هل أعجبك ذلك؟» سألت عايدة كريم متباهية.

فقال كريم مبتسماً، «نعم». لم تعرف عايدة أنه ينوي أن يعزف على العود معزوفة بيتهوفن «إلى إليزا» مقدماً إياها لجمهوره بعنوان «إلى عايدة» أثناء اجتماع «الغيريين» هذه الليلة. فقد تدرّب سرّاً طوال شهرين ليحظى بأعلى مكافأة منها: تلك الابتسامة السماوية من حبيبته.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مكتبة
t.me/soramnqraa

هذا الكتاب

في أحد أيام صيف عام ٢٠١٠، قرّر سلمان بلدي أن يعود إلى دمشق، بعد مضي أربعين سنة وشهرين وسبعة عشر يوماً على مغادرته سوريا سنة ١٩٧٠ بجواز سفر مزوّر. واستغرق ستة شهور أخرى ليتأكّد أنه لا توجد بحقه مذكّرة اعتقال عندما يعود. فقد قرأ قصصاً عن مغتربين أدّى حنينهم ورغبتهم في العودة إلى وطنهم، أو أحابيل وخدع أجهزة المخابرات، إلى اعتقالهم ما إن وضعوا أقدامهم خارج باب الطائرة. فتريّث سلمان حتى يتأكد تماماً من أن كلّ شيء على ما يرام، مع أن القيام بذلك من روما كان في غاية الصعوبة.

كان سلمان قد نسي معظم ماضيه الحافل في سوريا، ويعيش الآن في روما سعيداً مع أسرته، لكنه لم ينس قط السبب الذي جعله يهرب من بلده: إطلاق النار، الشرطي الذي أصيب إصابة بالغة. . . ثم هزيمة مجموعته وهربه، والخوف من الاعتقال الذي نجا منه في آخر لحظة - كانت كلّ هذه الذكريات تراوده في كوابيسه، كلّ ليلة تقريباً خلال سنواته الأولى في المنفى، لكنها بدأت تتلاشى وتختفي مع الزمن.

رسمة الغلاف: روت ليب
الغلاف : سكينة صلوّن

ISBN 978-9922630106
9 789922 630106